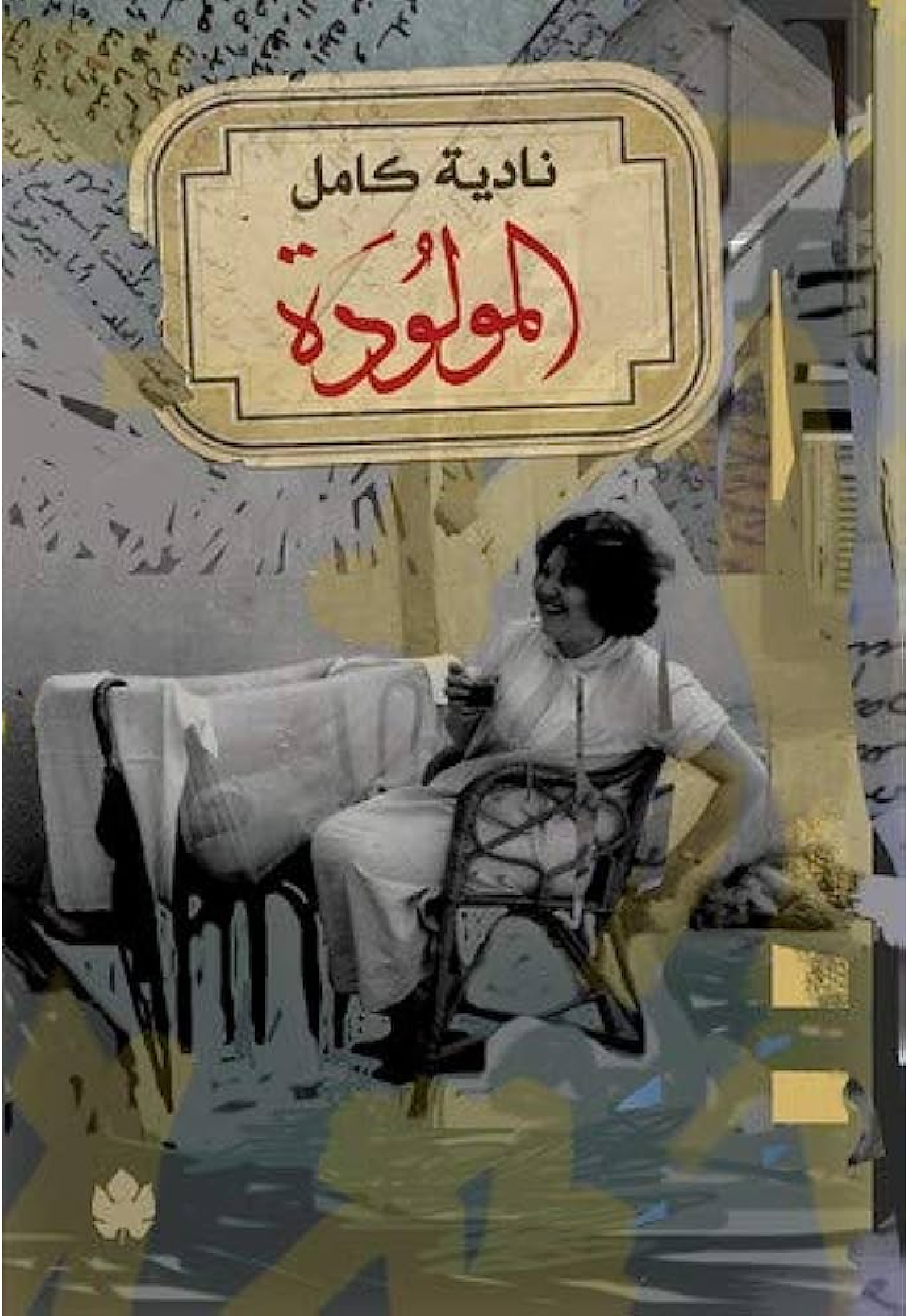
نادية كامل
المولودة

المولودة

نادية كامل

المولودة

رواية : ماري إيلي روزنتال

الكرمة

لمزيد من المعلومات عن الكرمة : facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © نادية كامل، 2018

الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر .

نشر هذا الكتاب بدعم كريم من «مؤسسة روزا لوكسمبورج » ، مكتب شمال إفريقيا

ROSA
LUXEMBURG
STIFTUNG
مكتب شـــمال إفريقيا
North Africa Office

كامل، نادية .

المولودة: رواية نائلة كامل المولودة ماري إيلي روزنتال / نادية كامل – القاهرة: الكرمة للنشر، 2018 .

تدمك : 9789776467934

1– الصحفيون .

2– السياسيون المصريون .

3– المرأة – تراجم .

أ– العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : 28231 / 2017

2 4 6 8 10 9 7 5 3 1

لوحة الغلاف واللوحات الداخلية: هبة خليفة

الصور الأصلية من الأرشيف الخاص لعائلة نادية كامل

تصميم الغلاف: هبة خليفة وأحمد عاطف مجاهد

إلى آدم ونبيل ودينا

تمهيد

ـ بافكر في مشروع عن «البيت» ـ بيتنا ـ أسجل لك وتحكي لي؟

ـ وحتخلِّيني أحكي عن المعتقل كمان؟

ـ ههه اللي نفسك تحكيه، هو دا الموضوع، إزاي كل حاجة عشتيها عملتِ منها بيت .

حوار قصير «ع الواقف» بيني وبين ماما في بيت أختي دينا سنة 2001. نبيل الصغير، ابنها الوحيد وقتها، والحفيد الأول لعائلتنا الصغيرة، يجري بين أرجلنا كاللعبة الزمبلك. كنا نزور أختي زيارة نسائية حياتية، نطمئن عليها ونساعدها في أمور المنزل .

أي أننا لم نكن نشرب الشاي مثلًا بعد الظهر في «البيت» في حجرة الكلام، نتفقد أخبار الدنيا ونتفلسف كعادتنا، ثم تتنامى الحديث إلى لحظة درامية اتفقنا فيها على تسجيل ملحمة حياتها. أبدًا، حوار يكاد يكون عابرًا، تبادلناه على استحياء، نظرًا إلى أن محاولات الإمساك بقصص بيتنا البسيطة المدهشة تعتبر من طقوس حياتنا ـ كل بضع سنوات تحدث فورة تسجيل قصص الحب والسفر والمعتقل بصوت الكبار ـ ونظرًا أيضًا إلى أن ماما تحكي لي بلا توقف منذ وعيت، بل حسب كلامها منذ اللاوعي، حديثنا لا ينقطع، بالإضافة إلى أن كل عام، في أول يناير، يأتي أبي بمفكرة هدية من مؤسسة «أخبار اليوم» حيث يكتب مقالاته السياسية، وتمسك أمي بمفكرة العام الجديد، وبنظرة كلها عزيمة تُقرِّر مجددًا أن تكتب مذكراتها. محاولات قصيرة غير مكتملة، ومتكررة كأي طقس. لا بأس من تكرار المحاولة، فنظريًّا هناك دائمًا احتمالات أخرى .

قصص بيتنا تدهشنا، لأنها قصص صغيرة تتدحرج من الماضي، مثل حواديت «ألف ليلة وليلة»، حتى تصل إلينا وتستقر على حِجرنا قلقة، فننظر إلى المستقبل، وببراعة الأطفال نحاول أن نتبين إلى أين سندحرجها وتتدحرج بنا .

لا أعتقد أن أيًّا منا كان يتخيل أننا، بهذا الحوار الصغير، تخطينا عتبة، عتبة بوح، فعل خروج. لم نتصور أننا لن نفعل في حياتنا غير الطواف حول رواياتنا، نلفها وتلفنا، حتى مات أبي، ثم ماتت أمي، وما زلت أنا مستمرة حتى الآن، وكأني وُلدت لقصِّ هذه القصة .

جلسنا في حجرتي، حيث استقر مكتب بابا الضخم الذي لم يستخدمه قَطُّ. كل شيء في بيتنا خزين. ما في أدراج المكتب وما فوقه والمكتب نفسه، ليست إلا مصائد ذكريات، ونحن نعيش حولها، نرعاها كالكتاكيت. رُبيت ضمنًا على أن أقفاص الذاكرة هذه ستساعدني على التذكر يومًا ما. المهم، جلسنا في حِجرتي، ماما خلف المكتب، وأنا قبالتها. كنت أسجل كل ما يحدث حولي بدون تخطيط أو هدف، هكذا أَملى عليَّ حدسي .

يراودني الآن منظر ماما وراء ركام التفاصيل على المكتب، كالفلاحة بجانب جاموستها: وِرثها ورصيدها وهمِّها وجاه دنيتها وتركتها .

بدأت تروي لي «الحدوتة» كما نحفظها، على نغمة: «كان يا ما كان يا سعد يا إكرام، بنت صغيرة اسمها «ماري» اتولدت في بيت فقير في شارع العشماوي بالقرب من جامع كخيا ».

ولكن يبدو أن نواميس الكون انسجمت مع روايتنا، أخيرًا، وبدأت تظهر علامات تسونامي الحكي .

كانت ماما في سن السبعين، وكنت أنا في سن الأربعين. ربما كانت السن ومراحلها؟

كان ذلك في مارس 2001، والعالم يتصدع. ربما كانت حال العالم ووجوديات الألفية؟

كنا متواطئتين هذه المرَّة للمهمة، وقد طفرت كل منا بالحال. ربما كان الأمل؟ أمل ألا تُدفَن قصصنا معنا في القبور؟

كان نبيل الصغير يكبر وسط عائلات مشتتة ومهزومة، والمشاهد تنهار أمام عينيه. ربما كان نبيل؟

على أية حال كان نبيل بلا منازع الفنار والهاجس وضابط نغمة الكلام وتجلِّي شفافيته. ربما أصابنا أمل أن يجد نبيل «الحدوتة» عندما يحتاجها .

«إنت جاية إمتى يا نادية علشان عندي حاجات افتكرتها بالليل فعملت لِسْتة وعايزة أحكيها لك قبل ما أنساها تاني؟ ».

كانت تتسند على عينيَّ برفق لتطل على هوة ذاكرتها. زحفت القصص عليها، تنزح منها وتكسح عليَّ، غمرتني، أشرب ما أشرب وأعب ما أعب. هذه المرَّة «الحدوتة» في الشِّبَاك، لن تفلت. لحظة جليلة وفرصة أخيرة .

استسلمنا للزخم، واستمتعنا به. كانت ماما تتحور ثم جرفني التيار فلم يتبقَّ حجر واحد من بنياني في مكانه، ثم ابتلع الطوفان العائلة كلها. كنت قد سمعت أن الحكي سكة «اللي يروح ما يرجعش ».

بعد موتها وجدت نفسي وحدي أمام مهمة الكتابة، كان عليَّ أن أستلهم سر السرد من صوتها في كياني. وميض الخيوط الحريرية ـ ذاكرتها الوجدانية، الأحداث في حوار قَلِق مُربِك مع الزمن. صوت ماما، «الحدوتة» التي روتني بها على مَر العمر ...

1

عاوزة أبتدي أحكي من الدرج .

درج دولاب أبويا وأمي اللي كان مليان كروت بوستال ورسايل حب .

التصوير كان رديء جدًّا، كروت عبارة عن اتنين بيبوسوا بعض ويحبوا بعض، واحد يبوس واحدة وهي تعمل كدا ببُقها وورا كلمتين حب من أبويا : «توحشيني، إيليا » ، وواحد يحضن واحدة، هو يبوس كدا وهي ما اعرفش تمسك الوردة ازاي وتشم، وخط أمي : «Ti amo, Leandra» ، وكدا. كنت باقعد بالساعات أبُص على كل كارت، واحد واحد. يا ترى كنت باتخيل إيه؟ أصل ما اعرفش في السن دا، ست أو سبع سنين، ما كنتش أعرف كتير عن الحب، ومعناه إيه. الكروت فتَّحت عندي إن الحب معناه كبير، وكنت متأكدة إن حاعيش قصة حب كبيرة زي أبويا وأمي .

باشوف أبويا وأمي رايحين جايين في البيت ما بيعملوش زي تصوير الكروت اللي في الدرج، أمي مشغولة بأخويا، كان لسه مولود والشغل زاد في البيت، كانوا بيقعدوا بالساعات علشان يوكِّلوه، ودا كان بيغيظني، وأبويا كان بيشتغل. مشاكل البيت شكل تاني، لكن أنا لما اكتشفت الدرج دا كأني اكتشفت كنز، اتفتح قدامي باب سحر، ووراه حاجات ما كنتش أتخيلها .

أنا لو أبتدي أحكي، مش حاعرف أبطَّل، مشاهد كتيرة في ذهني مخزونة .

لكن دلوقت سناني بتوجعني يا نادية، أكمِّل لك لما نرجع إن شاء الله من عند دكتور السنان، باي باي يا حبيبتي يا نادية .

أمي قالت لي إن الفقر دخل بيتنا مع ولادتي. كانت حامل فيَّ لما أبويا فقد شغله. أمي اتعرفت على أبويا وهو بيشتغل في شركة «سيمنز»، اللي بيعملوا أجهزة كهربائية، وبيصنَّعوا أسانسيرات، فجأة الشركة قفلت فرعها في مصر، وبعد ما كان أبويا يُعتبر شاب عنده وضع اقتصادي مُستقر أصبح من غير شغل، عاطل .

صدمة .

أنا اتولدت سنة 1931، فأعتقد إن شركة «سيمنز» قفلت في القاهرة بسبب الأزمة الاقتصادية اللي ابتدت سنة 1929 في أمريكا واستمرت عدد من السنين، أزمة اتعرفت في العالم بعد كدا من خلال روايات وأفلام جميلة زي «القلعة»، و«عناقيد الغضب»، وباقي أفلام «هنري فوندا» عن انتشار البطالة والمعاناة من الفقر وعن الناس اللي مش لاقيين شغل في أمريكا ـ زي أبويا في مصر .

إذن لما اتوَلدت أهلي اتحطوا في وضع اقتصادي صعب، وغيَّرنا السكن عدد من المرات في منطقة العشماوي بسبب الميزانية، مرة إيجار مُشاركة مع عائلة تانية، ومرة بيت ضيق في الدور الأرضي ومفيهوش نور . في الواقع أنا كطفلة ما حسيتش بالفقر، بالعكس، كان عندي دايمًا كل اللي أحتاجه ومُستمتعة بحنان أمي وشخصية أبويا. ومع ذلك أمي كانت بتحب تكرر لي بفخر إن أبويا كان عنده وضع اجتماعي حلو وكان بيشتغل في شركة «سيمنز»، يعني شركة كبيرة، وتأكد لي إن الوضع المادي ما كانش دايمًا مزنوق وإن «الشركة هي اللي قفلت». أعتقد بتحاول تشرح لي إن أبويا مش راجل خايب وإنما الظروف هي اللي تعبتنا، ويمكن كمان تحب تطمِّن نفسها إنها اتجوزت راجل مستقر بيشتغل في شركة حلوة وبعد كدا «حصل اللي حصل» وإن الوضع ما كانش دايمًا وحش، وممكن الأوضاع تتحسن تاني .

والحقيقة إن أبويا كان راجل ممتاز فعلًا، عمره ما بطَّل شغل من ساعة ما كان شاب صغير. عندي له صورة من سنة 1925، يعني لما كان عنده 16 سنة، مع الفريق اللي أسس شبكة الكهرباء في مدينة بنها. وبعد الجواز لما فقد «الشغلانة الحلوة المستقرة»، شغلانة شركة «سيمنز»، اشتغل أشغال صغيرة زي ما تيجي . من ضمنها مثلًا اشتغل كهربائي في كوم امبو، أيام تأسيس شركة السكر وإنشاء المصنع، شركة قد الدنيا ساعتها، راح كوم امبو في الصعيد وسابنا لوحدنا في القاهرة مع أمي. مرة من المرات دفعوا له أجرته شوال بطاطس ووصل البيت شايله على كتفه، وفضلنا ناكل بطاطس، كل يوم أمي تطبخ بطاطس بطريقة شكل. في نفس فترة الأزمة دي اشتغل كهربائي في البيوت مع واحد اسمه «ماريو صوفيا». وبعدين جاله أشغال في قصر الملك فاروق في أنشاص في الدلتا المرة دي جنب بلبيس، وأخيرًا جاله شغل في مصنع زراير في السويس على القنال واتنقلنا معاه. السويس فيها صَدَف بالزوفة، والمصنع اللي أبويا اشتغل فيه كهربائي كان بيصنَّع زراير صَدَف للبيجامات والقمصان الرجالي. أخويا «برتو» اتولد في السويس سنة 1936 .

أول بيت أفتكره هو بيت العشماوي في القاهرة جنب جامع كخيا، ما كناش ساكنين لوحدنا، سكنتْ معانا ست إيطالية هي وابنها، «La signora Maria» - يعني الست «ماريا» - وابنها «جورجيو»، بلديات أمي في إيطاليا، من قرية اسمها «ريباترانسوني». الست «ماريا» كانت بتتقاسم الإيجار مع أهلي، هي واخدة الأوضتين اللي على شمال باب السكة واحنا الأوضتين اللي على اليمين، والمطبخ والحمام مشتركين .

في يوم وانا قاعدة على حِجر أمي باعيط وهي بتحاول تسكتني، كنت باعيط كتير، ابن الست «ماريا» اللي عنده حوالي 15 سنة، شاب صغير مش واعي قوي، اتضايق من العياط، راح لبس على راسه بشكير أبيض كبير من الحمَّام، ومسك عصاية الغسيل - زمان الغسيل كان بيتغلي في ميه في صفيحة على وابور جاز ويقلّبوه بعصاية خشب كبيرة - «جورجيو» طلع من الحمَّام بالبشكير على راسه وعصاية الغسيل في إيده وابتدا يصرخ :

- بعووووو .

قصده يسكِّتني بس اللي حصل إن أنا اتخضيت، بطلت عياط فجأة وبصيت بالجنب لدرجة إن عنيَّا احولت وما رجعتش مكانها. يا عيني أهلي زعلوا وقلقوا ودُّوني عند الدكتور، والدكتور قال :

- تلبس نضارة لمدة أربع خمس سنين علشان تظبط الحوَل، والعين حترجع مكانها، ما تقلقوش، لسه صغيرة .

ولكن لإني لسه صغيرة كنت كمان باكسَّر النضارة بانتظام، وكل مرة يضطروا يعملوا لي نضارة جديدة. علشان كدا أنا فاكرة محل نضارات جيراننا اللي قدام جامع كخيا. اسم المحل «سالتيال» اللي هو اسم العيلة، وكانوا ساكنين تحتنا في نفس العمارة، مِرَات صاحب المحل ست تخينة بتلبس نضارة مدوَّرة بشنبر إسود، كنت باحبها لأن لما بانزل عندها بتديني رُب سوس إسود صغير، هي تكمل شغل البيت وانا أغير منظر وبعد شوية ترجَّعني فوق عند أمي. بالنسبة للحوَل لما كسَّرت النضارة للمرة التمنتاشر أهلي قالوا: «ما دام عينها اتحسنت، خلاص كفاية نضارات»، لكن في سن البلوغ - زي ما انت عارفة يا نادية - بيحصل طفرة في الجسم، الإنسان أو الطفل بيضعف، فعيني تعبت وبان عليها الحول تاني. فيه ناس قعدوا يقولوا لازم تعمل نضارة أو عملية جراحية لتصحيح العيب، بس أنا كان عمري يا دوب عشرة أو حداشر سنة فما اهتمتش، وأبويا وأمي غالبًا خافوا يعملوا لي عملية في العين، ساعتها الطب ما كانش متقدم زي دلوقت. هي دي قصة الحوَل اللي عندي في عيني، مش دايمًا بيبان للناس لأنه حوَل خفيف، لكن لما باتعب بيظهر .

الذكرى التانية إن في السطوح فيه عِشَّة فراخ، وأنا عندي عروسة قماش وشَّها بس اللي بلاستك وعلى راسها منديل ولابسة جونلة طويلة اسبانيولي. أطلع السطوح ألعب بالعروسة واتفرَّج على الفراخ، وباب بيتنا يفضل مفتوح علشان اعرف اروح وارجع من السطوح من غير ما ازعج أمي. في يوم بعد ما لعبت وانبسطت جيت آخد العروسة من على الأرض لقيت عليها زي قشَّاية صفرة، حاولت انفضها وأخدت العروسة ونزلت، لما وصلت على باب بيتنا كان ابن جيراننا أصحاب محل النضارات طالع على السلم، شاب تاني صغير، 15-16 سنة، بص لي بتركيز وخطف مني العروسة ونفض القشة اللي على إيدي بعصبية وراح شايلني ودخل بيتنا على الحمَّام من غير استئذان، خد إيدي وابتدى يمص ويتف، وبعدين جاب موس حلاقة وعمل قطع صغير على صباعي، الحقيقة ما وجعنيش وما حستش به، وكمل يمص الجرح ويتف في الحوض :

- «Scorpione!» - عقربة! - لازم نبلغ الإسعاف .

أمي جت من المطبخ جري تشوف إيه الحكاية. أنا فعلًا حسيت بشكَّة وانا نازلة السلم، بس كنت فاهمة إن الشكَّة دي من القشَّة، أتاري اللي على العروسة كان عقربة. ساعتها ما كانش فيه تلفونات بسهولة زي دلوقت، بس بلغوا الإسعاف، أنا عَيِّلة عندي زي تلات سنين، فلما شفت الناس بتوع الإسعاف رحت استخبيت وقعدوا يدوَّروا عليَّ لغاية ما لقوني ورا الدولاب. ممرض الإسعاف بص على الجرح ومدح في إسعافات جارنا وطمِّن أمي وما عملوليش علاج زيادة .

في وقت من الأوقات انتقلنا لبيت تاني في الدور الأرضي في نفس صف جامع كخيا في حي العشماوي، غالبًا زي ما قلت لأسباب اقتصادية، البيت أصغر، أوضتين وصالة وحمَّام في الدور الأرضي ما بيدخلوش نور تقريبًا. ومع إن وضعهم الاقتصادي بيزداد صعوبة، إلَّا إن أبويا وأمي كانوا بيحبوا ينزلوا يتفسحوا وياخدوني معاهم يتمشُّوا أو يعملوا زيارة وانا كنت كبرت شوية وذكريات الفترة دي ابتدت يكون فيها شيء من الشقاوة. يلبسوني ويسيبوني في الصالة ويطلبوا مني

ألعب بالعروسة من غير ما اتشاقَى ويروحوا يكملوا لبسهم، ودي كانت لحظة مثيرة بتيجي لي فيها أفكار استكشافية. أمي عندها قزازة برفان «كوتي»، ماركة معروفة وحلوة، وأول ما لبسوني ابتديت ألعب بقزازة البرفان، سمعتهم من بعيد :

- سيبي القزازة لاحسن تتكسر .

لكن ما سمعتش الكلام والقزازة وقعت من إيدي واتكسرت مليون حتة وانتشر البرفان في البيت كله. اتخضيت وعيطت ونزلنا من البيت وانا باعيط. بس والله أنا مبسوطة إني باحكي الكلام دا علشان بافتكر وشوش أمي وأبويا وحركاتهم في البيت الضيق العتمة، ازاي حاولوا يطمنوني مش يزعَّقوا لي .

كان فيه دوا للكُحَّة اسمه «سيرولينا»، غريبة ازاي أنا فاكرة اسم دوا كحة لعبت به من أكتر من ستين سنة! كان بيعجبني دوا الكحة دا وعايزة أشرب منه حتى وانا مش عيانة وأمي تخبِّيه مني. مرة وانا مستنياهم يلبسوا - وما كنش عندي 5 سنين لأن أخويا ما كنش لسه اتولد - لمحت القزازة هناك على البوفيه من فوق خالص، وابتديت مشروع الوصول لدَوَا الكحة، جرجرت كرسي من عند ترابيزة السفرة لغاية البوفيه وطلعت على الكرسي ومنه طلعت على البوفيه وشبِّيت على طراطيف صوابعي، أخدت القزازة من على الرفِّ البعيد، بس الفرحة ما تمَّتش، أمي قلقت من هدوئي وقفشتني والقزازة على بقِّي على وشك إني أشرب منها .

الراديو كان لسه طالع وناس قليلين اشتروه، راح أبويا جاب واحد، لأنه بيحب يجرب الأفكار والأجهزة الجديدة، يسمع عليه مغني مشهور بيحبه اسمه «تينو روسِّي»، صوته رفيع «تينور»، بيغنِّي نص فرنساوي ونص طلياني، أغاني رومانسية خالص. كان فيه تمثيلية في الراديو بتمثل فيها طفلة صغيرة، لبسوني وحطوني أسمعها على أمل إنها تسلِّيني وابعد عن الشقاوة، وفعلًا صوت الطفلة خد انتباهي، ولكن لما كنا على وشك النزول، البنت اللي في المسلسل ابتدت تعيط، وانا أعيط معاها واقول :

- جوه الراديو! فيه حد بيعيط جوه الراديو !

وأبويا يلف لي الراديو من كل ناحية علشان أشوف إن مفيش حد جوه، وانا أصرخ :

- جوَّه! جوَّه! فيه بنت بتعيط جوَّه .

كل يوم بعد الضهر أمي تخلص تنضيف وطبيخ وأبويا لسه في الشغل، تحطني في الـ «poussette» - عربية الأطفال - ونروح «تسيباس» تشتري لي «بابا»، الباباز، جاتوه متسقِّي شربات وجواه شوية كريمة، أنشغل بيه وهي تاخد فرصة تتفرج على الفاترينات. «تسيباس» في شارع فؤاد اللي اسمه «26 يوليو» دلوقت، قدام جنينة الأزبكية، وكان يُعتبر وسط البلد والمركز التجاري لأن فيه كبرى المحلات، «شملا» و«سيكوريل» أو «شيكوريل» بالمصري، و«أوريكو» وكان فيه كمان شركة بيع المصنوعات المصرية قُصادها. مرة في ميدان الأوبرا وأمي بتتمشى بي

وانا في عربية العيال مندمجة في أكل الجاتوه إلا وحاجة سودا «فووووو» وما لقيتش الجاتوه في إيدي! أمي اتخضَّت وانا عَيَّطْت، طلع إن غراب خطف الجاتوه من إيدي وطار من غير ما يلمسني، ما حستش به خالص. كنا بنتمشى في شارع فؤاد جنب الفاترينات وعلى الرصيف فيه خردوات كتيرة صغيرة بتتباع زي دلوقت في شارع قصر النيل أو سليمان باشا، كان فيه مراوح ورق صناعة يابانية منتشرة أمي تقف وتفتحها وتجربها وترجعها مكانها. تتفرج من غير ما تشتري علشان معندهاش فلوس كفاية، ما يمنعش إن المشوار دا كان فسحتها وفسحتي. فيه سبب تاني غير قلة الفلوس، وهو إن اللي فاهم في شرا اللوازم الكويسة هو أبويا. أمي كانت بتكرر لي إن أبويا شاطر يعرف المحلات ويعرف يقيس الهدوم مظبوط ويفهم في الخامات والمصنعية، ليه؟ علشان عنده الصبر، خصوصًا في تنقية الجزم، مش فاكرة أبدًا إن أمي نزلت اشترت معايا جزمة، أبويا يوديني المحل ويقيس بهدوء، ويحسِّس على الصباع الكبير يتأكد إن كانت الجزمة مش حتوجعني بعد ما نشتريها. يجيب أحسن نوع وعنده مثل بيقوله بالطلياني «Chi paga di piu spende di meno» يعني «اللي يدفع أكتر يصرف أقل»، وبالعربي بيقولوا: «الغالي تمنه فيه». الحقيقة إحنا كل شيء عرفناه بره البيت جاي من أبويا، أصل هو اللي من مصر ومولود فيها، أمي إيطالية خواجاية واحنا صغيرين مش فاهمين حاجة لسه، ياخدنا ويودينا ويجيبنا ويحكي لنا نروح فين وما نروحش فين، هو اللي يعرف اللغة والبلد .

كان كمان متعدد المعارف والمواهب، بيعمل أشغال صغيرة بـ«الأركيت» بمنشار رفيع زي سن القلم، «الأركيت» هواية انتشرت أيامها وبيتنا اتملى أرفف وأبليكات خشب مزخرفة في الأركان للزينة أبويا اللي بيعملها، وأنا عندي في البيت لحد دلوقت علبة على التسريحة هو اللي عملها. حَبِّ يتعلم موسيقى واشترى كمنجة بفلوسه أول ما اشتغل، وخد دروس عزف، وبيحب القراية إلى حد ما. من ذكرياتي السعيدة إني قضيت وقت أقرا كتبه اللي على الرف، كتاب لـ«فيكتور هوجو» مثلًا، أو «Les trois mousquetaires» - «الفرسان التلاتة» - لـ«أليكسندر دوما»، وصورة «ميليدي» والراجل بيقطع راسها ويمسكه من شعرها، الصورة دي أثَّرت فيَّ وكنت باقعد أبص لها ساعات طويلة. والمجلات اللي أبويا بيشتريها كل أسبوع عن السينما والممثلين والممثلات على الغلاف. حَبِّ علم الفلك، الكواكب والنجوم من الناحية العلمية، مش قراية البخت، وكنت باموت من الانبساط وانا باسمع له وهو بيشرح لنا الظواهر الطبيعية. كان فيه طقس في البيت، أبويا يرجع من الشغل حوالي الساعة خمسة أو خمسة ونص بعد الضهر، أمي تكون طبخت ونتعشى على الساعة ستة أو ستة ونص، بعد العشا، هي تشيل السفرة وتلم المطبخ واحنا نقعد في البلكونة قصاد أبويا يحكي لنا كل يوم عن ظاهرة :

- أول نجمة تظهر في السما بعد غروب الشمس اسمها «فينوس »!

وكل يوم نوصل البلكونة ونستنى «فينوس» تظهر وندوَّر عليها، يسأل :

- أول نجمة تظهر في السما بعد الغروب، اسمها إيه؟

واحنا نرد :

- «فينوس »!

- طيب لو شاطرين تلاقوها .

وندوَّر في السما، لو نلاقيها :

- شطار !

ويصقَّف لنا، ولو ما لقينهاش :

- خايبين! أهيه موجودة وانتم مش شايفينها .

ونصقَّف كلنا، مواقف من النوع دا. كان مُشترِك في مكتبة دار الكتب اللي في باب الخلق وبيستعير منها كتب ويرجَّعها. نقعد نتفرج عليها أنا واخَويا، أخويا كان صغير وميَّال لتقطيع الكتب أكترٍ من قرايتها، كتب مليانة صور عن الكرة الأرضية والكواكب التانية زي «ساتورنو»، المريخ، ولاّ يمكن زُحل؟ وتصورات للكائنات اللي ممكن تكون عايشة في الكواكب التانية، كائنات شكلها غريب.
فهمت من أبويا إن كل ما يَخُصَّ الأرض واللي في بطنها اسمه «جيولوجيا»، وكل ما يخصَّ النجوم والكواكب اللي بنشوفها في السما اسمه «أسترونوميا» - علم الفلك - وأعتقد إن من هنا أنا طلع في بالي إني مش عايزة أدرس إيطالي ولاتيني في المدرسة، وإني مش عايزة أكمل في قسم الأدبي، وإنما نفسي أدرس «جيولوجيا»، وأهلي يضحكوا ويسكتوا .

كان فيه معهد في فرنسا بيدي كورسات كهربا بالبريد. لمدة طويلة كانت الكورسات دي بتوصل لابويا بالبوسطة مكتوبة بحبر أحمر، أعتقد إنها منسوخة بالبالوظة، لأن ما كانش فيه مكن تصوير ساعتها. كنت باتفرج عليه وهو بيرسم بمنتهى التأنِّي والتفاني رسومات كبيرة بالأحمر والأزرق، سمعت منه إنه امتحن بالبريد ونجح ووصل له جواب فيه شهادة إنه «خبير كهربائي» في ظرف بالبوسطة، وكان سعيد بنفسه في الحكاية دي. يعني بالإضافة إلى إنه بتاع شغل، أبويا كمان راجل عصامي كوِّن نفسه بنفسه ودرس بالبوسطة من القاهرة علشان يبقى خبير كهربا، الدراسة دي فادته في شغله العملي، لكن الشهادة نفسها ما كانش حد بيطلبها منه .

استمر انتقال أبويا من شغلانة للتانية لغاية فترة الحرب العالمية التانية، الإنجليز ساعتها كانوا محتلِّين مصر، وشركة «كوك» الانجليزية شَغَّلِت ميناء - مطار على النيل وطيارات بتنزل وتطلع من على الميه، خَدوا أبويا كهربائي عندهم وأصبح دخله ثابت من جديد. استقر في الشغل أثناء الحرب، ووضعنا اتحسن، فاشترى لنا تلاجة من واحد في الجيش الإنجليزي، جايبين موديل تلاجة يستخدموها في الأرياف من غير كهربا، لها فتيل بيولع بالجاز وبيعمل هباية سودا ولذلك لازم أبويا ينضفها كل شهر. لمدة طويلة كان فيه استقرار في البيت، فسبنا العشماوي وعزلنا لبيت شارع نعيم في بولاق أبو العلا .

*

طول المدة دي وانا فاكرة إني طليانية، أصحاب أهلي والجيران، والكلام في البيت باللغة الإيطالي والأكل مكرونة بتنويعاتها والمدرسة في السويس عند الراهبات الطلاينة، وهنا في القاهرة رحت مدرسة «دانتي ألليجبيري» الإيطالية. أقدر أعتبر إني ما كنتش باحس بالمجتمع المصري، باشوف مصريين طبعًا بس يظهر كنا في وسط مستعمرة أجنبية كبيرة، بنعيش وسط مجتمع إيطالي. كان فيه حوالينا يونانيين وأرمن ويوغوسلاف بس كلهم بيتكلموا طلياني مع أمي، وفي الأغلب كلهم مسيحيين وأمي مسيحية وأبويا مش متدين، فيظهر كنت مفترضة إني مسيحية، بالذات إننا بنروح الكنيسة من وقت لآخر، بس أنا ما كنتش بافكر في الموضوع دا بشكل واعي ولا حد بيتكلم فيه .

رجعنا من السويس وسكنا في شارع نعيم في أبو العلا، كبرت شوية وأبويا بيديني مليم أحمر كبير عليه طربوش الملك فؤاد وانا أروح عند بقالة «الهواري» جنب كنيسة الكرمل أشاور على برطمانات الطوفي جنب الـ «Caisse» - الخزنة - فيديني عشرة طوفي بالمليم دا وارجع البيت بمليم قرطاس طوفي. لما كبرت أكتر بقوا ممكن يبعتوني أجيب جبنة وبعدين بقيت أجيب بيض .

جاري اللي ساكن قصادنا كان صبي أكبر مني اسمه هوَّاري الهوَّاري، الهواري الأب بشنبات وجلابية بني وصاحب محل بقالة «الهواري» اللي باجيب منها الطوفي، وكانت العيلة واخدة دور بالكامل، باقي العمارة كل دور شقتين سكان طلاينة، بس انا ما كنتش واخدة بالي مين مصري ومين خواجات ساعتها. الهواري الابن كان صبي عمره يمكن 12 أو 14 سنة، أكبر مني، بييجي له مدرسين خصوصيين وبيضربوه. كان عنده مدرس معيَّن بيضربه كل يوم بانتظام بعصاية رفيعة على صوابع إيديه، وكل يوم هواري يصرخ. أنا أقعد على الشباك أستنى وهو بيصرخ واسمع من جوه صوت أمه وأبوه وهمَّا بيشجعوا المدرسين على ضربه، أو دا اللي تصورته. أسرة كبيرة، أولاد وبنات كتير وهواري الابن الكبير، ويظهر عايزين يربوه كويس. طريقة تعليمه كانت وحشية جدًّا، كان بينضرب ضرب هواري الهواري دا، وانا كان بيصعب عليَّ .

نشأت علاقة بيني وبينه، إزاي بقى؟ عندي واجب حساب لازم أحلُّه عبارة عن قسمة وجمع وطرح ومسائل زي دي، في يوم من الأيام جت لي فكرة جهنمية إن انا أستغل وجوده في البلكونة، أخدت الطباشير وكتبت على خشب الشيش البني مسألة الحساب «2 + 6 =» فهو كتب على حيطة البلكونة عنده «8» وانا نقلت الحل في الكراسة. هو كان مبسوط وانا كنت مبسوطة علشان باعمل الواجب بسرعة من غير ما اتعب. العلاقة بينا كانت ظريفة جدًّا، يرمي لي فاكهة وانا أرمي له بلح ناشف، أنا آكل وهو ياكل. خليته يعمل الحكاية دي كذا مرة مش مرة واحدة. جارتنا اللي ساكنة فوقينا في الدور التاني ست يوغوسلافية اسمها «سينيورا فانِّي»، متجوزة راجل يوناني وما عندهمش ولاد، لما نتخانق أنا و«برتو» ويبتدي العياط وأمي مش عارفة تودي راسها فين، طبيخ وتنضيف وعيال، الست «فانِّي» تنادي علينا تطلعنا فوق عندها شوية كنوع من المساعدة لأمي. كنا بنحب بيت الست «فانِّي» لأن عندها أوضة مليانة عصافير حلوين في أقفاص، بتأكلهم وتاخد بالها منهم وتحط لهم ميَّة وبلكونتها مليانة زرع. كنت باحب زرعهم، كله شوك وبيطلع ورد أحمر صغير. تاخدني البلكونة وتعلمني: «دا اسمه إيه؟ ياسمين هندي، ودا اسمه إيه؟ ياسمين بلدي» بريحته الحلوة. مفيش خرم من غير زرع في بلكونتها، غير يا دوب علشان تعرف تفتح وتقفل الشيش. الست «فانِّي» دي لاحظت إن انا وهواري بنرمي لبعض فواكه ونتكلم، راحت بلغت أمي وفهمتها إن دا تصرف مش لازم

يستمر، أمي أيامها كانت مشغولة بأخويا لأنه كان مُتعِب وهو طفل، فمنعتني من غير تفكير كتير إن أقعد في البلكونة لما هواري يظهر في بلكونتهم. هواري كبر شوية وابوه ابتدا ياخده معاه المحل يساعده على الخزنة وانا كمان كبرت وانشغلت أكتر بالمدرسة وشوية بشوية ما بقيناش نشوف بعض وانتهت العلاقة بالطريقة دي .

تاني ذكرى مع المجتمع المصري كانت من الناحية التانية من البيت، مع بيت زكي السماك. في يوم شبابيكهم كلها كانت مفتوحة، يبان من عندنا كل اللي بيحصل عندهم في الشقة لأن شارع نعيم شارع ضيَّق. أبويا وأمي قفلوا الشيش شمسية وفتحوا الريش، ووقفوا يتفرجوا على استعدادات فرح بنت زكي السماك من ورا الشيش: طبلة وزغاريت وأنوار من السطوح لغاية تحت في الشارع وبعرض البيت. تعليق أمي الوحيد :

ـ الله؟! بيتجوزوا في البيت؟ مش بيروحوا الكنيسة؟

في الغالب قصدها الجامع باعتباره كنيسة المسلمين، ورجعوا يتفرجوا تاني، في وقت معين أبويا قال :

ـ الله الله الله! حتشوفي إن الحكاية دي حتنتهي بخناقة، الأفراح عندهم كتير بتنتهي بخناقة .

وفعلًا بعد شوية ابتدى صوت خناقة وابتدوا يرموا كراسي على بعض ويضربوا ويشتموا، ما اعرفش اختلفوا على إيه، وفي النهاية جه البوليس وانفض الفرح .

محل زكي السماك قدام جامع أبو العلا على ناصية الشارع اللي رايح السبتية ووكالة البلح. بيحطوا السمك على رُخامة ورا القزاز، محل مش كبير بس أشهر محل سمك في الحتة، منوَّر ومليان سمك طازة وناس بتشتري مشوي ومقلي وتاكل على الواقف أو تاخد على البيت. أنا مرتبطة بزكي السماك بسبب إن أبويا كان كل شوية يروح لأبو العلا ويجيب لنا سمك مقلي جاهز، كَلت من عنده كتير .

نرجع لجيران البيت اللي أنا باحكي عنه، بيت شارع نعيم. شارع نعيم مش بعيد عن كنيسة الكرمل، بعد شارع الوابور الفرنساوي، شارع ضيق زي شارع شاهين اللي احنا ساكنين فيه دلوقت في الدقي. كنا ساكنين في الدور الأول، وتحتينا دور أرضي ساكنة فيه ست إيطالية عندها ابن اسمه «نينو»، أكبر مني بسنة أو اتنين. أيام الحرب جوزها كان معتقل، أصل لما قامت الحرب التانية الإنجليز اعتقلوا كل الرجالة الطلاينة اللي في مصر وحطوهم في معسكر «جنيفرا» على القنال، وهي كانت بتخرج كتير وفيه كلام عليها إن «جوزها معتقل وهي بتصاحب الجنود الإنجليز». قصادنا في الدور الأول ساكنة أسرة إيطالية عندهم 3 أولاد صبيان مفيش بنات. الست الكبيرة، أمهم، شكلها فلاحة طليانية تخينة بالشعر الملموم لورا والنضارة المدوَّرة زي في الأفلام، بتشوف البخت في الفنجان وفي الكوتشينة. مش فاكرة جوزها لكن فاكرة ولادها الكبار وهم خارجين لمصالحهم، في الغالب بيشتغلوا، وطول النهار الناس رايحة جاية على بيتها تشوف لهم البخت وتاخد فلوس على كدا. فوقينا كان فيه الست «فانِّي» اليوغوسلافية اللي عندها بلكونة وزرع

وعصافير وجوزها اليوناني «يورجوس» أو «جورجيو» بالطلياني، كل أسبوع يلبس بوت وياخد البندقية ويروح هو وأصحابه يصطاد في الفيوم، ويرجع بشنطة مليانة بط. في الدور التالت كان ساكن صاحب البيت وكان اسمه محمد خطاب، شقتهم بتدي على الناصية والسطوح تبعه لأنه في آخر دور، حوِّل السطوح إلى جنينة في غاية الجمال وجزء منها «بيرجولا» ـ تعريشة ـ وفيه أوضة للغسيل والتخزين. يظهر إن محمد خطاب كان متجوز اتنين ومراته الأولى هي اللي ساكنة في الشقة دي، للأسف كانت بتتضرب كتير، كل ما يرجع من بره نسمع صريخ وضرب، دي كانت كل علاقتنا به. غير كدا، من وقت لوقت وداد بنته تيجي تاخدني ونطلع فوق السطوح ونتفرج على الزرع .

بياعين الخضار والفاكهة المصريين، حتى الصغيرين اللي بيفرشوا على الأرض في الشارع، بيتكلموا طلياني مع الزباين ويبيعوا لهم على طريقة الأجانب بالواحدة مش بالكيلو، أمي تطلب ست أو سبع برتقانات والبياع يوزن ويقول لها السعر بالطلياني. سوق شارع الوابور الفرنساوي سوق زي سوق سليمان جوهر اللي احنا ساكنين فيه دلوقت، جالية طليانية كبيرة ومليان ستات بيوت طلاينة فحصل نوع من المسايرة للغة والبياعين المصريين اتعلموا طلياني. نفس الشيء الجزار وبياع السمك الطازة اللي جنب العيادة البيطرية اللي في شارع 26 يوليو كلهم بيتكلموا شوية طلياني. لكن لازم أقول إن أمي دماغها ناشفة بصفة خاصة في موضوع اللغات دا، لأن هي عاشت هنا سنوات طويلة، حوالي 40 سنة من العشرينات إلى الستينات وما اتعلمتش عربي، معندهاش ميل للغات وما قدرتش تعمل صداقات إلا باللغة الإيطالية، حتى الست اليوغوسلافية وجوزها اليوناني كانوا بيتكلموا بالطلياني مع أمي. وعلى أي حال العلاقات الاجتماعية اليومية كانت مع الطلاينة اللي ساكنين حوالينا مش مع جيراننا المصريين .

في الوقت دا كان عمري تمن أو تسع سنين، أخويا كان كبر حبة وبقى عمره زي 3 سنين والأوضاع الاقتصادية في البيت استقرت شوية، بدليل إننا نقلنا لبيت شارع نعيم اللي فضلنا فيه أكتر من عشر سنين. كنا بنعمل كل حاجة بشكل عائلي صميم، يوم الجمعة نفطر فول وأبويا يبعتني لفرن العيش البلدي ويقول لي :

ـ خدي شوية مفقع وشوية طري .

الفرن في بولاق ـ لو أروح هناك أقدر أقول لك مكانه فين ـ ما بيعملوش غير عيش في الفرن دا. كنت باحب اتفرج على العيش البلدي وهم بيفقعوه، يطلعوا الرغيف من الفرن طري ومنفوخ يدوا له خبطة بكوز مطبق يطلع من العيش بخار وياخد شكل فصين، ويرجعوه الفرن، وبعد شوية بسيطة يطلعوا المفقع ناشف ويديني منه. أبويا بيحب المفقع وأمي بتحب الطري، فكان لازم أجيب النوعين. أما عيش كل يوم العادي في البيت فهو العيش الفينو، من الفرن الأفرنجي، أرجو إن يكون لسه موجود، كان في واحدة من الحواري اللي جنب البيت وانا بَرضُه اللي لازم أروح أشتري. الفرن الأفرنجي، فران الفينو، بيعمل عيش ومخبوزات تانية غير العيش، ومتعود على بنات وولاد الطلاينة، يروحوا له الصبح بدري يشتروا العيش سخن ياخدوه ع البيت، يتعمل ساندويتشات ياخدوها معاهم المدرسة. الفران دا كان لطيف جدًّا يستقبلنا ويُمطرنا بالكلام الحلو: «يا صباح الفل، يا صباح الياسمين، يا صباح العسل والسكر» يا صباح المش عارفة إيه، يطلع منه كلام حلو كتير

مش واحد صباح الخير وخلاص، لا، كل تلميذ ييجي له ياخد منه الفلوس ويدي له العيش والترحيب .

أبويا وأمي خدوها عادة يروحوا السينما بانتظام آخر الأسبوع. نروح «سينما الأزبكية» أو سينما «Paradis» - يعني «سينما الجنة» - وهي سينما صيفي مكشوفة على أرض فاضية مبلّطينها بلاط بيفكرني بسطوح بيتنا، وجنينة حواليها سور من الشجر والزرع وبوابة للدخول، عاملة زي الكازينو، ترابيزات مدورة وحوالي ست كراسي لكل ترابيزة. السينما دي كانت في المكان اللي دلوقت موجود فيه محل زكي السماك الجديد قدام «عمر أفندي» الأصلي على الناصية من ناحية شارع الساحة والحتة اللي قصاده اسمها عابدين دلوقت، بس ساعتها كل دا كان أرض فضا مفيش غير السينما و«عمر أفندي». «عمر أفندي» الأصلي دا أربع خمس أدوار وبيبيعوا فيه كل المستلزمات بما فيها الموبيليا. سينما تانية مشهورة كانت سينما «أولمبيا»، على ناصية شارع الساحة مع شارع عبد العزيز اللي بيوصَّل للعتبة. أنا عمري ما دخلتها السينما دي، أصل سمعتها وحشة وتذكرتها رخيصة، وأبويا بيقول «بيروحوها الناس اللي مش عائلات»، غالبًا يقصد الشباب، أمَّال مين تاني؟ المهم مش سينما محترمة إحنا نروحها. أبويا حكى لي إن مفيهاش كراسي، المتفرجين بيقعدوا على دِكَك، وإن هو دخل السينما دي أكتر من مرة لما كان صغير قبل ما يبقى هو نفسه «عائلات». أنا شفت فيلم من كام سنة اسمه «مرسيدس» من إخراج يسري نصر الله، وبطل الفيلم زكي ابن فطين عبد الوهاب وليلى مراد، كان داهن شعره أبيض وفي مشهد في الفيلم بيدخل سينما «مش للعائلات» يتخانق وينضرب في حمام السينما، أعتقد إن سينما «أولمبيا» كان بيحصل جواها حاجات زي دي. أما بالنسبة لي فخروجة سينما «بارادي» أحلى الفسح وباستنَّاها يوم الحد أو يوم السبت بالليل. أهلي يلبسونا، أخويا وانا، وبعدين أمي تلبس شتوي شوية، يعني مش فستان البيت اللي بتلبسه كل يوم، وابويا يلبس بدلته وننزل مع بعض نروح السينما نقعد في الجنينة المكشوفة، نوصل قبل ما الدنيا تضلم علشان نلحق «خدمة الخشاف»: على تمن تذكرة السينما بيقدموا خشاف ببلاش، العائلات توصل بدري وتقعد حوالين الترابيزات والسفرجية يجيبوا لنا كل واحد طبق الخشاف من فواكه الموسم وعليها صنوبر ولوز وبندق وتين مجفف، خشاف غني وحلو، يا دوبك ناكله الجو يبتدي يضلِّم والشاشة تنور. قبل الفيلم يعرضوا الـ «actualités» اللي إحنا بنسميها الجريدة السينمائية وبعدها فيه «ميكي ماوس» أو «توم وجيري» وبعدين دَخلة «مترو جولدن ماير» والأسد وهو بيعمل «عَووو»، كل مرة أخاف، أبقى عارفة وحافظة طريقته واستناه وفي اللحظة الأخيرة بَرضُه أترعش، ويبتدي الفيلم. أبويا كان بيعبُد «شارلي شابلن»، أنا عندي يا دوب 9 سنين وباتفرج معاه، بس بازهق، مش دي الأفلام اللي باحبها، باحب أفلام المغامرات والقراصنة في البحر اللي فيها «إيرول فلِن» بيهاجم مراكب أسبانية وهي رايحة أمريكا الجنوبية وينقذ ستات لابسين هدوم خرافية، واحب أفلام مغامرات «تايرون باور» اللي فيها شيءٍ من الرومانسية زي «Blood and Sand» - «دماء ورمال» - مصارع تيران صغير وفقير علِّم نفسه وبعد كدا حب البنت واتشهر، البنت «ريتا هيوارث» بتغني أغنية مشهورة اسمها «القمر الأخضر»، وطبعًا كل أفلام «شيرلي تمبل» أو «جانيت ماكدونالد» و«نلسون إدي»، هي «سوبرانو» وهو «تينور»، أفلام استعراضية موسيقية .

خروجات السينما والخشاف دي كانت قبل ما الحرب العالمية التانية تبتدي، علشان لما الحرب العالمية التانية حتبتدي شوارع القاهرة حتتملي جنود انجليز وغير انجليز من جنوب أفريقيا والهند، وأبويا وأمي مش حيخلوا حد يخرج في الشارع بعد غروب الشمس «أصل مليان جنود في الشوارع» والبلد حتبقى «مش للعائلات».

قبل الحرب كنت باروح مدرسة «Le Scuole Italiane all'Estero di Bulacco - Dante Allighieri» - المدارس الإيطالية في الخارج - ببولاق، «دانتي ألليجييري» اللي أصبحت مبنى القنصلية دلوقت في الإسعاف عند تقاطع شارع فؤاد مع سكة القطر وكان بيوصل لحد ثكنات الانجليز. دخلت الحضانة حوالي سنة 1937 وأول ذكرى ليَّ في المدارس مرتبطة بَرضُه بحاجة عصلجت معايا. يظهر إن واحنا أطفال ما بنفتكرش المواقف اللي مرت علينا بسهولة، بنستوعبها وننساها، بنفتكر أكتر الأحداث لما تعصلج معانا. المدرسة الطلياني عملت نشاط مسرحي علشان في آخر كل سنة بيقدموا النشاط دا في احتفال ماتينيه في دار الأوبرا، القديمة طبعًا، اللي اتحرقت - يا خسارة - سنة 1971 ودلوقت عبارة عن جراج عربيات. في الحضانة كنا بنتمرن على باليه «سندريلَّا». أبويا وأمي اشتروا التذاكر وفصَّلوا لي اللبس المطلوب للاشتراك في العرض ولبسوني لبس العرض في البيت وخدوني وراحوا بي لغاية الأوبرا، ولكن لما وصلنا ظهرت عليَّ أول أعراض الخجل الاجتماعي اللي لازمني على طول بعد كدا؛ رفضت تمامًا أخش واطلع على المسرح أرقص الرقصة اللي كنت باتمرن عليها مع باقي المجموعة في الحضانة، ورجعنا البيت لا أنا اشتركت في العرض ولا أهلي اتفرجوا. مساكين أهلي، كانوا طيبين، قلَّعوني وسابوني ألعب وانا فضلت مدة طويلة، يمكن سنين، ألعب بالهدوم دي اللي ما نفعتش، ألبسها واقلعها وامثل بيها واتكلم واتفرج في المرايا.

في أولى وتانية مشيت في المذاكرة مش بطَّال، وتقريبًا معنديش ذكريات لأن المُدرِّسة كانت حنيَّة جدًّا وبتاخد بالها مننا كلنا في الفصل، بما فيهم أنا. صاحبتي «مارتشيلا» كانت أشطر مني، وكانوا بيقولوا «أصل عندها أخت أكبر منها في ثانوي بتوجهها وتساعدها»، لكن أنا الكبيرة وأهلي بيسيبوني على سجيِّتي ومشغولين في «بِرتُو» أخويا الصغير اللي ما كانش طفل سهل. في سنة تالتة طلعت لي مُدَرِّسة جاية من إيطاليا، «very rude» - قاسية - مشقَّرة شعرها بميَّة أكسوجين، أصفر فاقع، ومعانا في الفصل أختين من عيلة غنية ساكنين في الزمالك بيوصلوا للمدرسة في عربية سودا بسواق، وآخر النهار تيجي العربية السودا بالسواق تروَّحهم البيت. المُدرِّسة الإيطالية اللي صابغة شعرها دي اهتمَّت بالبنتين دول بالذات، دايمًا تسألهم وتتابع حالتهم وتهمل معظم الطالبات التانيين بما فيهم أنا. شوية بشوية اتدَهوَرْت، مرة ما عملتش الواجب فزعَّقت ليَّ، المرة اللي بعدها ما عملتش الواجب ما كلمتنيش، كأنها خلاص مش متوقعة مني أتعلم، اعتبرتني بليدة، وابتديت أتأخر عن مستوى باقي الفصل. كتبت لي في الكراسة كلمة علشان أبويا وأمي يتابعوا لكن أنا خبَّيت الكراريس منهم. في الفترة دي أخويا، لما حاولوا يفطُموه، رفض الأكل ومش عاوز غير لبن أمه. الجيران والأصحاب قالوا لأمي:

- حُطِّي على صدرك تفل بُن.

جرَّبت وما نفعش، فنصحوها:

ـ حُطي طعم مُرَّ زي الصبار، علشان يِقرَف من صدرك .

مفيش فايدة، الدكتور قال :

ـ الولد لازم يروح يلعب في الجنينة .

فأمي يا عيني اتعودت الصبح بعد ما أبويا ينزل تاخدنا أنا و«برتو»، توديني المدرسة وبعد كدا تاخد الولد وتروح الجنينة اللي قدام مدخل نادي الجزيرة، جنب مطعم الباشا دلوقت. ساعتها كانت الجنينة دي مفتوحة للجمهور من غير سور . تعدي كوبري أبو العلا وتتمشى على النيل في الزمالك لحد الجنينة وتقعد مع «برتو» هناك ساعتين تلاتة تلاعبُه وتغذِّيه وتنيِّمه في الهوا لغاية ما ييجي ميعاد خروج مدرستي تيجي تاخدني ونرجع البيت تطبخ وتنضف. هي فترة البيت كله كان تعبان، طول الليل «برتو» يعيط، يفضل بالساعات معلق على صدرها مش سايبها تنام، واتأخر في المشي وفي الكلام وفي النضافة، فضل يعمل على نفسه «كاكا» و«بيبي» أطول من العادي. أهلي اندَوَشوا ودا خلَّاني عرفت أهمل دراستي وما اورِّيهمش الكراريس اللي فيها كراسة الواجب . الوضع دا استمر لغاية ما في يوم المُدرِّسة الشقرا دي جابت صورة فنِّية، مرسوم فيها مهد جوَّاه بيبي صغير وستتين بيبصوا له بحنية، ست كبيرة في السن وست أصغر وقالت لنا :

ـ دي جدَّة الولد ودي أمه، يا ترى بيفكروا في إيه؟ وبيتصوروا البيبي ازاي لما يكبر؟

وعلقت الصورة قدامنا في الفصل وقالت لنا :

ـ اكتبوا موضوع إنشا في حدود المعنى دا .

أنا كتبت صفحة بحالها. في الوقت دا المدرِّسة كانت أهملتني لدرجة إنها قعدتني ورا وبقيت واحدة من البنات «اللي بيقعدوا ورا» لأن مفيش فايدة فيهم، وانا من ناحيتي كنت خلاص بَرضُه وصلت لدرجة إني مش مهتمة، ومقتنعة إني مش حاقدر اعمل أي حاجة كويسة في أي يوم من الأيام. تاني يوم المُدَرِّسة قالت :

ـ مفاجأة! تصوروا مين أخد أحسن نمرة؟ مين؟ «ماريا لا روزنتال ».

وبدل ما تمدح فيَّ علشان كتبت موضوع إنشا جيد، جت لحد عندي في آخر صف وجرجرتني من ودني لغاية مكتبها عند السبُّورة وفضلت تكرر لي قدام الفصل :

ـ لما انت بتعرفي تكتبي كويس، ما بتذاكريش ليه؟

وتشد وداني. كانت ست قاسية وانا كنت خايفة أنضرب مش قادرة أفرح بمعجزة إني أخدت أحسن نمرة .

ـ ما بتعمليش الواجبات ليه؟ أمك وأبوكِ مش بييجوا يقابلوني ليه؟

وانا ما باردش. المرة دي بقى المدرسة اتصرَّفت علشان تتصل بأبويا وأمي - نفسي أعرف ازاي، أصل أيامها ما كانش فيه تلفونات. جم جري الاتنين يقابلوها ونزلوا التلاتة شتايم فيَّ، أهلي أكدوا للمدرسة عدة مرات :

- ما شوفناش إن انتِ كتبتِ في الكراسة .

ويعتذروا عن إن انا وحشة وإنهم همَّ نفسهم فظيعين لأنهم أهملوني بالطريقة دي .

المهم أنا من ساعتها للأسف اضطريت أعمل الواجبات وأذاكر بشدة تحت إشراف أهلي .

في سنة تالتة ابتدينا ناخد في المقرر مادة العلوم، ودخلوا في النحو بالنسبة لمادة اللغة الإيطالية، والتاريخ والجغرافيا أصبحوا مواد منفصلة، ومسائل الحساب ما بقتش «2 + 8» زي اللي كان هواري بيحلُّهم لي في البلكونة. يعني دخلنا في الجد، وأبويا وأمي كمان خدوا المسألة جد .

أبويا تولى الحساب والعلوم وأمي تولت التاريخ والجغرافيا .

بين الصالة والمطبخ كان فيه ممر قصير واسع فيه كنبة. أنا أقعد على الكنبة أذاكر، وأمي تروح المطبخ وتتابع عملية الطبيخ، وترجع تسمَّع لي اللي أنا ذاكرته. المنهج في السنة دي كان مركِّز على تاريخ إيطاليا بالذات. أمي ما بتحبش الجغرافيا خالص وبتكَرْوِت مذاكرتها بسرعة، وشوية بشوية أبويا تولى الجغرافيا مع باقي المواد بالمرة بما إنه كان بيحب علم الفلك. في بداية إشراف أهلي على دراستي كان لازم يذاكروا لي بصحيح واضطريت أرجع لورا واذاكر كل اللي ما ذاكرتوش من بداية السنة واضطروا يعملوا مجهود علشان اتعود اعمل الواجب. أمي ذاكرت لي التاريخ بحُب، نقعد ساعات طويلة بعد المدرسة على الكنبة إياها أنا أقرا وهي تطبخ، ومع الوقت تحولت دروس التاريخ إلى مصدر إلهام لأمي، فكَّرتها بالأوضاع في إيطاليا قبل ما تيجي مصر. وابتدت تحكي لي على حروب الاستقلال والوحدة من وحي مُقرَّر السنة الدراسية من وجهة نظرها هي. البطل الكبير بتاعها اسمه «جاريبالدي». أبوها كان جندي في جيش «جاريبالدي» ، «Camicie Rosse» - «القمصان الحمر» - بيسموهم كدا، وانضم لحزب «جاريبالدي» الاشتراكي في قريته. في كتاب التاريخ في المدرسة ما كانش مكتوب إن «جاريبالدي» اشتراكي، في المدرسة سموه «بطل قومي تحدَّى الاحتلال»، كنا أيام الفاشية في إيطاليا، وحكم موسوليني بيكره الاشتراكية ويعاديها بكل الطرق. كنت أحفظ الدرس وبعدين أمي تاخد مني الكتاب :

- يلَّا قولي .

وانا أقول، بعد شوية تركن الكتاب وتحكي لي عن قصص عاشتها شخصيًّا أيام صعود الفاشية في إيطاليا. كنا بنقعد مدة طويلة هي تتكلم وأنا أسمعها .

ما كانش عندي أي فكر سياسي وانا في تالتة ابتدائي طبعًا، ولكن القصص دي دخلت جوايا، سواء القصص المكتوبة في كتاب التاريخ عن التحرر الوطني، أو القصص اللي حكتها لي أمي عن مجيء الفاشية والمقاومة في قريتها، استدعتها من منهج تاريخ سنة تالتة ابتدائي. الفترة دي موجودة في كتب التاريخ بالعربي في مصر درستوه انتو في السبعينات في شكل فصل قصير أو فقرة بعنوان «حروب الوحدة والاستقلال في إيطاليا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر»، ولكن في المدرسة الطلياني الفترة دي كانت بتمثل منهج سنة تالتة كله تقريبًا. حكوا لنا إن إيطاليا كانت تحت احتلال عدد من الدول الأجنبية. النمسا ملهاش منفذ على البحر، فاحتلت مدينة «ميلانو» و«فينيسيا» ومنطقة شمال شرق إيطاليا كلها وطول التاريخ بتحاول تسيطر على ميناء «ترييستي» الاستراتيجي. البابا والفاتيكان مسيطرين على وسط إيطاليا روما و«نابولي»، وأسبانيا واخدة جزيرة صقلية والجنوب. منطقة واحدة بس اللي كانت تُعتبر مستقلة وهي المنطقة اللي جنب فرنسا في الشمال الغربي اسمها «البيمونتي»، وكانت متأثرة بالأجواء السياسية للثورة الفرنسية، انتشرت فيها روح ثورية ورغبة في الاستقلال. سنين طويلة جدًّا بالطريقة دي، إيطاليا محتلة من دول كتيرة ومقسَّمة لدويلات وماسمهاش إيطاليا أصلًا، وانا كنت بادرس في المدرسة نشأة المقاومة ضد الاحتلال في شمال إيطاليا .

مقاومة الاحتلال ابتدت بأفكار شعبية، النمسا تفرض ضريبة على الملح فالناس يحاولوا ما يشتروش الملح، والشباب يطلع في السر يجفف الملح على البحر واتكونت حركة سرية اسمها «I Carbonari» - عمال الفحم - وهم ولا عمال فحم ولا حاجة، شباب الطلبة والمثقفين تولوا مهمة تهريب الملح للأهالي في القرى والمدن بمساعدة عمال المناجم. كانوا بيوسخوا وشهم وهدومهم ويسافروا مسافات طويلة مخبيين الملح تحت الفحم في عربيات الكارو. وحصلت حملة مقاطعة للسجاير بسبب الضريبة النمساوية بَرضُه، والبوليس النمساوي يخش القهاوي والمطاعم يراقب الناس ويشوف مين ما بيدخنش السيجار - اللي كان منتشر أيامها في الأوساط البرجوازية - ويراقبوا أصحابهم ويوصل الأمر للقبض على اللي ما بيدخنوش .

نقطة تحول كبيرة في تاريخ المقاومة كانت «أيام ميلانو الأربعة» مش فاكرة والله أربعة ولَّا خمسة، الأسطورة بتقول إن في يوم شتا ومطر والأرضية مطَيِّنة - مفيش أسفلت لسه - العساكر النمساويين بيجروا مدفع من مدافع زمان التقيلة، خمس ست عساكر يشغلوها وعشرات يجرُّوها وينقلوها من مكان لمكان. المدفع غرز في الطين وعساكر النمسا حاولوا يطلعوه ما نجحوش. الطلاينة رايحين جايين حواليهم معندهمش نيَّة يساعدوهم. العساكر في غاية العصبية وبلغة آمرة طلبوا من الطلاينة يزقُّوا معاهم المدفع والطلاينة ما تعاونوش. الجنود النمساويين طلعوا كرابيج وابتدوا يضربوا الناس بدون تمييز. صبي عنده حوالي 8 سنين من أطفال الشوارع، بيسموهم «باليلا»، ودا بيفكرني بتعبير «الواد بلية» عندنا، الولد «الباليلَّا» دا لما شاف قسوة الكرابيج اتضايق وخد طوبة من الأرض ورماها على عسكري نمساوي صابته في قورته واتعور والدم نزل. طوبة الولد دا نتجت عنها ثورة صغيرة في الميدان: الستات خرجوا بالحلل والطاسات والمقشات من المطبخ وكل ما يلاقوا عسكري نمساوي يضربوه، والرجالة طلعوا بأدوات الزراعة والحدادة، ومكتوب في كتاب المدرسة إن الناس كانوا بيرموا مَيَّة مغلية من الشبابيك على العساكر. الحركة انتشرت في «ميلانو» كلها من شارع لشارع والعساكر النمساويين ما كانوش منتظرين ولا مستعدين لردِّ فعل بالطريقة دي، فاضطروا

يسيبوا المدينة ويمشوا. أهل «ميلانو»، في غاية من السعادة، احتلوا مبنى البلدية أو المحافظة ونزّلوا العلم النمساوي ورفعوا العلم الإيطالي، وابتدوا يحكموا المدينة المستقلة. حكومة فيينا في النمسا بعتت جيوش أعادت احتلال المدينة وقبضوا على مئات الناس وقتلوا كتير. شعب «ميلانو» صمد أربع أو خمس أيام في الحكم، وكانت الحركة دي بشاير الثورة الإيطالية ضد الاحتلال .

الطلاينة كتبوا على الجدران : «W V.E.R.D.I.» - «فيردي» مؤلف أوبرا معروف عندنا في مصر بأوبرا «عايدة»، الـ «W» اختصار «فيفا» بمعنى «يعيش» أو «يحيا» - الشعار معناه: «عاش فيردي»، ولكن الحقيقة إن كل حرف من اسمه بيرمز لكلمة من شعار سياسي وطني ضد الاحتلال، الشعار هو «عاش فيتّوريو إيمانويلي ملك إيطاليا » «Viva Vittorio Emanuele Re d'Italia». شعار وطني لأنه بينادي بملك لإيطاليا الموحدة، ملك متوج من الشعب والقوى الوطنية ورمز المقاومة، النمساويين ما فهموش إن شعار «عاش فيردي» شعار ضدهم إلا بعد مدة. فكرة رمزية لأنه مجرد استغفال شعبي لسلطة الاحتلال، لكن زوال الهيبة خطوة. بالإضافة إلى إن مجرد استخدام كلمة «إيطاليا» كان موقف سياسي ضد التقسيم .

اقترن اسم «فيردي» بالمقاومة من قبل الشعار دا، ألف أوبرا عن «نبوخذ نصر»، قصة مش محبوبة في منطقتنا حاليًّا، بسبب تطور اليهود وإسرائيل وفلسطين في التاريخ الحديث، ولكن أيامها في القرن التاسع عشر كان لها إيحاءات مقاومة شعبية عند الطلاينة، الأوبرا بتحكي إزاي ملك بابل - «نبوخذ نصر» - حاكم العراقيين والآشوريين أخد يهود فلسطين أسرى بستاتهم وأولادهم وعواجيزهم وسجنهم تحت برج بابل المشهور، واليهود اتحبسوا سبعين سنة أسرى تحت البرج. الأوبرا افتُتحت في مدينة «ميلانو»، اللي فيها أهم مسرح في أوروبا، مسرح «لا سكالا». في يوم الافتتاح الأوركسترا عزفت الموسيقى ودخل الكورس الضخم وغنوا عن معاناة الأسرى في السجن والحنين للحرية والوطن مقطع «Va Pensiero» الشهير، «طيري يا أفكاري على الأجنحة الذهبية واحضني لي غابات وتلال وطني الحنون»، كلام زي كدا. نغمة مؤثرة وسهلة علشان الجمهور يعرف يرددها مع الكورس، وإذا بالصالة كلها تقف وتغني، وتحولت إلى نوع من السلام الوطني المرتجل ضد الاحتلال في ساعتها، الظباط النمساويين اللي كانوا حاضرين في القاعة اتفاجئوا بالحركة وبالحماس الوطني، الجمهور كله واقف بيغني ومفيش غيرهم اللي قاعد، ما عرفوش يتصرفوا ازاي، اتزنقوا وخرجوا من المسرح غضبانين. اتقفل المسرح على حس الحكاية دي لمدة طويلة. أسطورة شعبية من التحدي للمحتل بيتداولها الناس، مين عارف مدى دقتها. لازم أقول إن كانت مفاجأة أشوف مشهد شبه الحكاية دي في فيلم «Sound of Music» - «صوت الموسيقى» - عن مقاومة شعب النمسا للاحتلال الألماني النازي .

ظهر بقى في أجواء المقاومة دي واحد سياسي وطني اسمه «كافور» وأصبح رئيس وزارة في المنطقة الوحيدة المستقلة على حدود فرنسا، في مدينة «تورينو» التابعة لمقاطعة «بيمونتي». شخص عنده طموح وابتدى ينظم تحالفات مع فرنسا ضد النمسا لتوحيد إيطاليا تحت تاج واحد، تاج دوقية «سافويا» الحرة . ظهر واحد تاني اسمه «ماتسيني» ثائر ومقاوم وعضو في منظمة عمال الفحم «كاربوناري» السرية وتفنَّن في كتابة منشورات نارية تشجع الناس ضد الاحتلال وسمُّوه

«قلب إيطاليا النابض»، اضطر يهرب إلى لندن من ملاحقة قوات الاحتلال النمساوي ويكمل كتابة من هناك .

وهنا نوصل لـ«جاريبالدي»؛ علمونا في المدرسة إن اللي حققوا الوحدة والاستقلال لإيطاليا تلاتة: «كافور» بذكائه السياسي، و«ماتسيني» بقلمه، و«جاريبالدي» بسيفه. «كافور» يكلم السياسيين و«ماتسيني» يكلم الشعب و«جاريبالدي» يكسب سيطرة على الأرض. «جاريبالدي» اشتراكي، وواضح عنده ميول أممية لإنه كان أصلًا ساب إيطاليا قبل ظهور المقاومة وراح أمريكا الجنوبية يكافح في الأوراجواي في الحرب الشعبية ضد الإقطاع. في مرحلة معينة من تصعيد المقاومة في إيطاليا القوى الوطنية بعتوا رسالة لـ«جاريبالدي» في أمريكا الجنوبية يقولوا له إن إيطاليا محتاجة له. وصل صقلية عن طريق البحر وقاد 1000 متطوع، لبسوا قمصان حمرا وسموا نفسهم «القمصان الحمر»، جيش الشعب. «جاريبالدي» ساعتها كان اتجوز واحدة من البرازيل اسمها «أنيتا»، جت معاه وتحولت «أنيتا» إلى شخصية أسطورية هي كمان، بتركب حصان وتحارب مع جوزها على الجبهة .

بعد تلات حروب كبيرة على مدى سنين نجح جيش التحرير والمقاومة الشعبية بقيادة «جاريبالدي» في طرد المحتلين التلاتة النمسا وأسبانيا والفاتيكان. دخول «جاريبالدي» روما كان رمز لانتصار المقاومة لإن روما كانت محاطة بأسوار عالية ولها بوابات حصينة. الفدائيين حفروا ممر تحت الأرض وعملوا فتحة في السور قريبة من بوابة «بيَّا»، بوابة من بوابات روما، زي باب زويلة عندنا مثلًا، وجيش «جاريبالدي» المنتصر دخل روما من هناك. في كتاب المدرسة كان فيه صورة لـ«جاريبالدي» في معركة التحرير راكب حصان إسود ومراته «أنيتا» معاه على حصان أبيض، صورة رومانسية بالذات إن «أنيتا» ماتت صغيرة على الجبهة أثناء الحرب وما حضرتش الانتصار .

أمي وهي بتسمعني أقرا في كتاب التاريخ كانت بتتحمس لأنها درست لغاية تالتة ابتدائي وما كملتش. أمي اتولدت سنة 1902 حضرت فترة «القمصان الحمر»، كانوا يعتبروا أبطال إيطاليا المنتصرين أولاد وأحفاد الفدائيين اللي أصبحوا جيشها الوطني النظامي، وحَضَرت الحرب العالمية الأولى وحضرت صعود كتائب الفاشية اللي عملت عمايلها ضد الشعب الإيطَالي. وأبوها، اللي هو جدي، «قميص أحمر» اشتراكي اشترك في الحرب العالمية الأولى، مش فاهم الاشتراكية زي ما بنفهمها إحنا دلوقت، نظريات وتيارات وتنظيمات، لكن من الاشتراكيين الأصليين البلدي اللي بيفهموا العدالة الاجتماعية والتحرر. موسوليني نفسه كان عضو في الحزب الاشتراكي، وبعد الحرب العالمية الأولى انشق عن الحزب الاشتراكي وكَوِّن كتائب من الشباب تعتمد على النظام الشديد والانتماء والطاعة ولبسهم قميص إسود وسماهم «Le Camicie Nere» - «القمصان السودا» - كإشارة على وجود فكرة جديدة منشقة على أفكار القميص الأحمر والاشتراكية. مسألة الصراع بين الألوان الأحمر والإسود كان وراها صراع أفكار .

الحزب الاشتراكي اتكون في القرن التسعتاشر وانتشر الفكر الاشتراكي في إيطاليا كلها وكان كله نابع من أفكار تحرر وطني وعدالة اجتماعية وكتير من الاشتراكيين انضموا لجيش الوحدة والاستقلال و«جاريبالدي» كان اشتراكي، وفي تراث أمي الاشتراكيين هم اللي وحدوا إيطاليا ودا ما

كانش مكتوب في كتاب المدرسة أيام موسوليني. سلوك «القمصان السودا»، كتائب الفاشية التابعة لموسوليني، كان عنيف، ابتدوا جو من الرعب والإرهاب بين الناس، يتجمعوا ستة سبعة تمانية مع بعض ويمشوا بالخطوة العسكرية واليونيفورم في شوارع المدن والقرى كل واحد بالهرّاوة مدلدلة من وسطه وطربوش أسود، يكسَّروا مقرات الحزب الاشتراكي والجريدة. مش بس كدا، يكسروا الدكان اللي صاحبه معروف إنه «قميص أحمر» أو اشتراكي ويمشوا، ولما يقابلوا رجالة في السكة يطلبوا منهم السلام الفاشيستي، إن الشخص يرفع دراعه لفوق وكفه مفرود ويهتف «هَيا هَيا هَيا هَيا»، واللي ما يأديش التحية أو ما يظهرش حماس كافي يشرَّبوه زيت خروع بالقوة لغاية ما ييجي له إسهال في وسط الشارع. بهدلوا كرامة اللي ما يخافش منهم أو ما يطيعهمش. جدي صابه نوع من الشلل النصفي بعد أزمة قلبية أو جلطة، وبقى يمشي بالعصاية، الإيد السليمة تسند على العصاية ويجرجر الرجل التعبانة، ولأنه معروف إنه اشتراكي، «القمصان السودا» يصرُّوا لما يقابلوه في السكة يطلبوا منه التحية، وهو بسبب الشلل ما يقدرش يطيعهم، ينزلوا فيه ضرب ويسيبوه مرمي على الأرض، بعد ما الكتائب تمشي، الناس تخرج من البيوت يشيلوه ويرجعوه البيت مضروب وجدتي تولول وتعيط. أمي بتقول إن الحكاية دي حصلت له تلات مرات وفضلت تحكي لي القصة دي من ساعة ما كانت بتذاكر لي تاريخ وانا في تالتة ابتدائي لحد ما ماتت وانا عندي 50 سنة .

الفاشيست وصلوا الحكم بالانقلاب والاستيلاء على روما في أوائل العشرينات، وعلى طول الميليشيات المحلية في كل مدينة وكل قرية ابتدت تستولي على مقرات الحزب الاشتراكي. الأخبار كانت بتاخد أيام علشان توصل أصل ما كانش فيه تلفون، خبر الانقلاب الفاشي وصل قرية جدي بالليل قبل ما يطلع النهار، كان فرَّان والفُرن جنب مقر الحزب الاشتراكي فجري مع ولاده خَد الأعلام الحمرا اللي بيستخدموها في المسيرات، وخبوها داخل الفرن ورا الخشب اللي بيولعوا بيه للخبيز. في نفس اليوم فصائل الفاشيست هجموا على المقر قطعوا الوثائق والأوراق وكسروا الكراسي والترابيزات والدواليب وشمعوا المقر بالشمع الأحمر وعملوا كومة في وسط الميدان وحرقوا كل مقتنيات الحزب قدام أهل قرية «ريبا». جدِّي وأمي والعيلة بيفتخروا إن هم اللي خبَّوا الأعلام وأنقذوها، في القرى اللي حواليهم الأعلام الحمرا اتحرقت مع باقي الحاجات. جدي طلَّع الأعلام وفصلوا منها فساتين للتلات بنات، أمي «لياندرا» واخواتها «جِيجِيتَّا» و«ألبينا»، ويوم العيد راحوا الكنيسة يتمخطروا بالفساتين الحمرا قدام أهل البلد وقدام العساكر الفاشيست اللي كانوا منتشرين في كل الشوارع. لازم كان عيد الفصح، علشان يمشوا بالفساتين في الشارع يعني الجو كان معقول مش في عزِّ الشتا .

خالتي «ألبينا» اتجوزت واحد عنده محل جزمجي، بيفصَّل جزم ويصلحها، أيامها الجزم ما كانتش بتتباع جاهزة. كتائب «القمصان السودا» كسَّروا لـ«دومينجو» المحل لأنه اشتراكي، صلَّح المحل ورجع يشتغل، كسروه له تاني. أصبح لما يشوفهم جايين يقفل المحل بسرعة قبل ما يوصلوا له ويجري يهرب منهم، بافتكر القصة دي لما البلدية تعدي في سوق سليمان جوهر هنا والبياعين يلموا حاجتهم بسرعة ويخبُّوها في بير سلم العمارات والشوارع الجانبية. بالطريقة دي «دومينجو» ابتدى يفكَّر في الهجرة لأن «دي مش عيشة ».

في تصوري إن جدي وافق على الجوازة بسبب إن «دومينجو» اشتراكي، وبنت الفران اتجوزت الجزمجي وخلفوا ولد سمُّوه «أوجو». «دومينجو» سافر الأرجنتين وساب «ألبينا» في البلد وبعد مدة، عدد من السنين، بعت لها تذكرة علشان تحصَّله هي وابنهم. طلاينة كتير هاجروا الأرجنتين في الفترة دي بسبب الفاشية والفقر. خالتي «ألبينا» كانت بتبعت جوابات لأمي من الأرجنتين لإيطاليا، وبعد كدا أمي هاجرت لمصر واستمروا يتراسلوا وكنت باشوف أمي تستلم جوابات أختها جاية لها من الأرجنتين على عنوانها في القاهرة. خالتي اشتكت إن ابنها «أوجو» كبر وانضم للحزب الفاشيستي الأرجنتيني وبيتخانق مع ابوه الاشتراكي طول الوقت وبعدين ساب لهم البيت. ازاي وازاي بعد كل اللي حصل لهم بسبب الفاشية، ابنهم يطلع فاشي؟ في الأرجنتين كان فيه صراع متواصل بين الاشتراكيين والفاشيست زي في إيطاليا. خالتي «ألبينا» تحكي لأمي في الجوابات، وأمي تقرا لي الجوابات بصوت عالي مع دروس التاريخ وقصص أبوها. الابن الكبير الفاشي «أوجو» مات فجأة أظن ما كانش كمِّل 40 سنة، «ألبينا» كانت خلفت ولد تاني، «أوزفالدو»، الحمد لله طلع ميَّال أكتر لأفكار أبوه الاشتراكية. أمي بتقول إن خالتي «ألبينا» ماتت بحسرتها على ابنها الكبير.

في نفس الوقت اللي أمي في البيت بتحكي لي القصص دي ضد الفاشية، الراهبات في المدرسة بيحتفلوا بأي انتصار للفاشية في العالم، في يوم الست الشقرا مُدرِّسة تالتة ابتدائي القاسية أثناء طابور الصباح خطبت بانفعال «النهاردا يوم كبير، أخيرًا «قوات الحرية» دخلت مدريد»، هي سمتها كدا - «قوات الحرية» - بتسمي القوات الفاشية «قوات الحرية»، وشرحت إن مدريد مدينة في أسبانيا وإن فيه ناس وحشين «التانيين»، محتلِّينها وإن قوات «فرانكو» حررتها.

على أي حال السنة دي انتهت على خير، وكانت آخر سنة لي في المدرسة دي لأن أثناء الصيف، آخر أغسطس 1939 ابتدت الحرب العالمية التانية.

*

أول ما قامت الحرب اعتقلوا أبو «مارتشيلا» صاحبتي. الإنجليز اعتقلوا كل الرجالة الطلاينة ومنهم أبو «مارتشيلا» وصادروا جميع أملاك الحكومة الإيطالية في مصر - ومنها مدرستي - باعتبار إيطاليا دولة عدوة مع ألمانيا في حرب ضد الإنجليز وحلفائهم. أهلي راحوا يقدموا لي في المدرسة لقوها مقفولة واتحولت لمعتقل لكبار السن والعيانين. بعد كام شهر أبو «مارتشيلا » انتقل من معتقل «جنيفرا» في الإسماعيلية إلى مدرستي هنا في القاهرة، وبقينا ننزل أنا و«مارتشيلا» نعمل نفسنا بنتمشى على الرصيف قصاد مبنى مدرستنا وباباها يستنانا في الشباك ويشاور لنا ويبعت لها قبلات على طراطيف صوابعه. «مارتشيلا» كان عندها أخ وأخت أكبر منها راحوا إيطاليا في الصيف واتزنقوا هناك، المدارس الإيطالية في مصر كانت بتنظم رحلات التلاميذ يقضوا شهر أو شهرين يصيِّفوا في معسكرات في إيطاليا، ينبسطوا ويعملوا لهم نوع من الدعاية للفاشية وغسيل مخ ويحببوهم في النظام الفاشيستي. الحرب ابتدت في صيف 1939، إنجلترا وإيطاليا قطعوا العلاقات والطلبة ما عرفوش يرجعوا مصر. إخوات «مارتشيلا» عاشوا في إيطاليا خمس سنين، الحرب بطولها، معتمدين على مساعدات من الصليب الأحمر أو الفاتيكان، لا هم قادرين يرجعوا ولا أهلهم يقدروا يروحوا لهم! طول مدة الحرب «مارتشيلا» عاشت لوحدها مع أمها، الأب معتقل في مصر

والولاد مزنوقين في إيطاليا. أمها كانت بتشجعني أروح لهم ألعب مع «مارتشيلا»، وكنت باشوف الأم دي بتعيط كتير .

لما المدارس الإيطالية قفلت، نقلونا كلنا ـ كل ولاد الطلاينة ـ إلى مدرسة «الفرنسيسكان» في الأنتكخانة عند المتحف المصري، «الفرنسيسكان» مدرسة رهبان فرنساوي، نظموا لنا فصول اضطرارية بالإيطالي. كانت سنة صعبة بالنسبة لأمي لأنها كانت بتوديني من أبو العلا للأنتكخانة على رجلينا. السنة اللي بعدها نقلونا لمدرسة في روض الفرج عند راهبات دير «ماريا آوزيلياتريتشي» وأخدْت شهادة الابتدائية من هناك سنة 1941، أصل الابتدائية أيامها كانت خمس سنين مش ستة. كنت كبرت شوية واتعلمت اروح لوحدي من الإسعاف لروض الفرج بالترماي نمرة 13 في عربية الحريم. هناك دخل علينا الفصل الأستاذ سعد الجزايرلي، لقى نفسه الراجل الوحيد في مدرسة كلها راهبات، وكل المواد، رياضة وحساب وأدب ولغة إيطالية مدرِّسات ستات، والفصل 30 بنت في سن 11 أو 12 سنة بالكتير، ما نعرفش عربي خالص أول مرة نشوف منهج عربي. شاب صغير ولسه متخرج، كان فيه منافسة بينه وبين أستاذ نصر من مدرسة «الدون بوسكو» للأولاد، أستاذ نصر كبير في السن شوية وقديم في المدرسة ويظهر عايز يثبت إن سعد الجزايرلي مش حينفع معانا، مش حيعرف ينجحنا. سعد الجزايرلي تألق، خلانا نتعلم حاجات محددة، الكلمات يا دوبك علشان نكوِّن جمل: ولد بنت، شجرة مؤنث وباب مذكر ـ عكس الطلياني. الإملاء، الهمزة، الأرقام لحد عشرة، الأفعال الخمسة في النحو، مش ضروري نفهم النحو، المنهج تقيل والامتحانات قربت، في المطالعة يترجم لنا كلمة كلمة مش ضروري نعرف نقرا المهم نفهم القصة علشان نرد على الأسئلة. انتهى الأمر إن أنا خلصت ابتدائي باعرف اكتب، كويسة في الإملا ومش بطالة في النحو بس لسه ما اعرفش اتكلم عربي .

في أولى إعدادي تجاري انتقلت لتالت مرة لمدرسة «الدون بوسكو» لأن الراهبات معندهمش إعدادي، في روض الفرج مش بعيد عن الراهبات، مدرسة عريقة للحرفيين حوِّلوها لدراسة عادية في فترة الحرب .

حطُّونا مختلطين ولاد وبنات سننا حوالي 12 سنة. تقدري تتصوري إن وجود بنات وولاد في السن دا لأول مرة في حياتنا عمل شيء من الهيجان في الفصل. المدرسين استسلموا مش قادرين يسكِّتونا. إلا مدرس واحد: البروفيسور «دي بينيديكتس». دخل الفصل بهدوء وفضل يبص لنا من غير ابتسامة، شوية كدا وراح خابط خبطة على المكتب بكفُّه عملت صوت وحش فسكتنا نسبيًّا وهو حصل على شوية انتباه، وعلى طول من غير ما يستنى راح مدِّينا واجب على السبورة كله قسمة وكسور، معقَّد علينا، وقال :

ـ المهم تعملوا الواجب .

وسابنا ومشي. روَّحت البيت وعملت الواجب ورجعت المدرسة اليوم اللي بعده ودخل المدرس دا، ما قعدش على مكتبه زي المدرسين التانيين، ومن غير أي تدريس اتجه ناحية الصبيان وقال :

ـ طلَّعوا الكراريس .

وابتدى يمر من دكَة لدكَة واللي معاه يطلع واللي ممعاهوش يحاول يستخبى، وابتدى يصحح، واحد واحد، كراسة كراسة، والولد اللي عليه الدور يقف والمدرس يكتب على الكراسة النمرة أو التعليق على الواقف قدام باقي التلاميذ. أربعين أو خمسين تلميذ في الفصل، عدد مهول، تلتين صبيان وتلت بنات . ابتدى يتضح إن الصبيان معظمهم ما بيعرفوش في القسمة، المشكلة كبرت لما واحد طلع ما عملش الواجب من أصله، المدرس سأله :

ـ ما عملتش الواجب ليه؟

الولد وطى راسه وسكت .

ـ تعالى هنا .

وخرَّجه من الدكة ومسكه ولف دراعه لورا وابتدى يدِّيله لُكميات في ضهره، حسيت إن قبضة المدرس حتخش جوه ضلوع الولد. ساعتها بقى سكتنا بصحيح وقعدنا «stand by» في حالة ترقُّب، الموضوع قلب جد زيادة عن اللزوم. «دي بينيديكتس» لف على كل الصبيان واحد واحد واللي ما عملش الواجب انضرب فعلًا، ما سامحش حد، كانت مصيبة لنا، مش عارفين نتنفس، كل واحد باصص في كراسته بيحاول يتصور: «يا ترى حيحصل لي إيه؟ ».

وصل عند البنات، كان أملنا إنه مش حيضرب البنات لكن مع أول واحدة ما عملتش الواجب مفيش إلا وطاخ بالقلم على وشها من غير كلام، أنا ابتديت اترعش، حيحصل لي إيه؟ كنت عاملة الواجب، بس يا ترى صح ولا مش صح، أصله ما كانش لسه كتب على السبورة الإجابة الصحيحة. أخيرًا وصل عندي فقمت اديت له الكراسة وانا دايخة، وكان فيه غلطة فعلًا، بص لي بصَّة صغيرة وكتب بطول الصفحة بالأحمر «sudicia» يعني «مهملة»، لأن الصفحة مبرومة في الركن وفيه بقع لأننا بنكتب بريشة وحبر. بس انا انبسطت إنها جت على كدا وحمدت ربنا إني طلعت «مهملة ».

مش هو دا الموقف اللي خلَّاني أحب المدرس دا، اللي خلاني أحبه هو إنه المدرس الوحيد في حياتي اللي فهمت منه الهندسة والجبر والحسابات التجارية والبنكية، وبقيت اروَّح البيت واحل الواجب واسلِّمه، وهو منتظم، ضروري يبص في كل الكراريس ولازم يمتحن شفوي. الهندسة فيها قواعد معينة لازم الواحد يحفظها صم زي قاعدة المثلثات وفيه قواعد محتاجة إن الواحد يفتكرها علشان يحل جمل الجبر، وأصبحت بافتكر من غير ما اذاكر كتير واقوم أجاوبه على طول. ما ابتسمش أبدًا، ولكن أظهر لي شيء من الرضا، يقول لي باقتضاب :

ـ كويس، روحي مكانك .

والحقيقة إن عمره ما كرر أسلوب الضرب بعد أول يوم في السنة، نمري بقت كويسة في أولى إعدادي وعشت عمري أحب البروفيسور «دي بينيديكتس ».

في تانية إعدادي رجَّعوا البنات لمدرسة «ماريا آوزيلياتريتشي» وبكدا نقلت مدرسة للمرة الرابعة والحرب لسه ما خلصتش. يظهر وجدوا إن بنات وولاد مع بعض مش ممكن أبدًا. مش عارفة مين اللي تولَّى رعاية شؤون المدنيين أيام الحرب ينسق مع المدارس دي كلها وياخد القرارات، هل هو الصليب الأحمر ولَّا الفاتيكان ولَّا مين؟ على أي حال إدارة المدرسة استمرِّت تكون موالية للنظام الفاشيستي في إيطاليا ما يعلنوش إلا أخبار انتصارات هتلر وموسوليني ولما يكون فيه أخبار انحسار حربي لمحور ألمانيا يكتموا الخبر. لازم أوضَّح إن النظام الفاشي الدكتاتوري وعلى راسه موسوليني قدر يكسب قلب الطلاينة اللي عايشين هنا في مصر لأنه اداهم حوافز زي الدراسة والمعسكرات المجانية للأولاد، وفي نفس الوقت الطلاينة دول ما عانوش من بطش الفاشية ولا الحرب لإنهم عاشوا تحت الانتداب الإنجليزي بعيد عن إيطاليا، دا بيفسر لي إلى حدٍّ ما ليه الجاليات برَّه إيطاليا تمسكت بموسوليني لمدة طويلة بعد ما الشعب تعب منه وثار عليه في إيطاليا نفسها .

*

ابتدى جو البيت عندنا يتغير .

الألمان والطلاينة هجموا على أفريقيا بقيادة الجنرال الألماني «رومل»، نزلوا من صقلية في إيطاليا لتونس بالبحر ومن تونس تقدموا في الصحرا عن طريق ليبيا، حملة رومل العسكرية كانت سريعة، بتتقدم عشرات الكيلومترات في اليوم والناس تعد وراهم هنا في مصر .

تقدُّم الألمان كان هدفه الأساسي الاستيلاء على مصر، موقع استراتيجي تحت سيطرة الإنجليز، فدا خلَّى الجو العام فيه إحساس بالخطر؛ إحنا في مصر ومصر هي الهدف .

جو غريب، الناس تروَّح بدري والعربيات تختفي والشوارع تفضى .

ابتدت تيجي لنا غارات بالليل بالطيارات، نسمع سرينة أو صفارة الإنذار، وبعدين نسمع «طفوا النور! طفوا النور!»، نقوم نطفي النور في كل البيت. عواميد النور في الشارع بالجاز مش بالكهربا، يعدي راجل لابس بالطو إسود بطرطور وماسك عصاية مخصوصة طويلة، ويكتم شعلة عمود النور. لما الشوارع تضلِّم يمروا ناس من المقاومة المدنية لابسين حرملة لبني بلاستك يتمِّموا على الشبابيك، لو فيه أي شعاع نور طالع من أي بيت يزعقوا تاني: «طفوا النور! طفوا النور!». رَصُّوا أشولة رمل قدام مدخل كل مبنى، علشان لما القنابل بتنزل تدك بيكون فيه شظايا، حتت حديد من القنابل اللي كانت بدائية ساعتها، تتنطر وتعور وممكن تقتل كمان، فأكياس الرمل دي تحُوش الشظايا عن مداخل العمارات. لما الحرب طَوِّلت بنوا حيط بالطوب الأحمر مكان أشولة الرمل. البدروم أو الدور الأرضي من كل عمارة تحولوا إلى مخابئ، شقة الست أم «نينو» الإيطالية اللي في الدور الأرضي تحتينا أصبحت مخبأ، يعني لما نسمع زمارة الإنذار نجري نطفي الأنوار ونلبس بسرعة أي هدوم وننزل كلنا نقعد في الشقة معاها - في الضلمة - لغاية ما نسمع زمارة الأمان بانتهاء الغارة. صفارة الإنذار في بداية الغارة لها صوت ونهاية الغارة صوت مختلف. ساعات كنا بنشوف كشافات الإنجليز وهي بتحاول ترصد طيارات الألمان، سمعتهم في المدرسة بيقولوا إن الكشافات

بتعمل أشكال حلوة في السما زي الألعاب النارية، فلما سمعت زمارة الإنذار حبيت أتفرج ورحت أبص من الشباك، فوجئت بأبويا زعق ليَّ :

ـ صواريخ دا إيه؟ هي دي حاجة الواحد يتفرج عليها؟

وقفل الشيش ونزلنا نستخبى، أبويا اللي هوايته يتفرج على السما. أمي ابتدت تهتم بسماع الأخبار في الراديو، كان فيه محطة بتتذاع من انجلترا بالطلياني اسمها «L'Uomo Qualunque» - «الرجل العادي» ـ وبتعمل بروباجاندا ضد نظام موسوليني الفاشيستي اللي كان بيحكم إيطاليا وبيحارب في صف ألمانيا النازية، دعاية موجهة للطلاينة اللي كتير منهم كانوا لسه بيأيدوا موسوليني، تديهم الأخبار اللي موسوليني بيخبيها عنهم على إذاعة راديو روما الفاشيستي. التفاصيل دي غيَّرت جو البيت، الحرب والغارات واهتمام أمي بالإذاعة، وابتديت أدرك القصص اللي كانت بتحكيها لي أمي عن مجيء الفاشيين في إيطاليا أيام العشرينات. كنت باشوف أمي اللي اتربت على مناهضة الفاشية بكل قلبها وإحساسها بتتابع بقلق انتصار النازيين والفاشيين في كل مكان، ساعتها في الأربعينات .

الغارات على اسكندرية كانت أعنف بكتيرٍ من القاهرة. في مصر، يعني القاهرة، الغارات أقل وأخف ومن غير قنابل، إنما اسكندرية دكّوها بالقنابل بجد! رومل الألماني كان هدفه إنه يوصل اسكندرية ويحتلها ويحرم الإنجليز من الميناء الاستراتيجي، فالناس اللي تقدر هربت من اسكندرية، والنتيجة إن واحدة اسمها «فيليتشتا» وبنتها «فيليا» هربوا من اسكندرية وجم ينزلوا عندنا. إحنا ما كانش عندنا غير أوضتين نوم، واحدة أنا واخويا وواحدة أبويا وأمي. أهلي على طول استضافوهم بدون كلام، بلديات أمي من قرية «ريبا». حطوا سرير لـ«فيليتشتا» في أوضتنا وخدوا «برتو» بسريره الصغير عندهم في أوضة نومهم، اتزنقنا شوية فترة الحرب، بس عدِّت .

«فيليا» بنت «فيليتشتا» خياطة، وكانت جاية بتوصية من اسكندرية وراحت تشتغل في بيت عيلة ممدوح رياض، كان حاجة كبيرة في وزارة الخارجية ساعتها. أكيد وجود شغل لـ«فيليا» شجعهم يسيبوا بيتهم في اسكندرية ويهربوا للقاهرة. عائلة ممدوح رياض عندهم فيلَّا في الزمالك ومراته محتاجة خياطة مقيمة، وعاشت هناك طول سنين الحرب وكانت فخورة إنها خياطة بيت ممدوح رياض. سكنت في أوضة معاهم في الفيلَّا، أجازتها يوم الحد تيجي تقضيه عندنا تشوف أمها وتروَّح، ما عملتش زحمة لأنها ما باتتش معانا .

بعد العشا في الأمسيات، أبويا يقعد جنب الراديو يسمع أغاني «تينو روسي» أو يدوَّر على محطة راديو «صوفيا» من بلغاريا اللي كانوا بيذيعوا فقرة أوبرا إيطالية، بيحب الأوبرا. ترابيزة السفرة في وسط الصالة وفي نفس الوقت حجرة معيشة وصالون. ما كانش فيه فوتيلات ولا كنب منتشرين في بيوت الأسر اللي على قدها زينا، كنا بنعمل كل حاجة حوالين ترابيزة السفرة، ناكل عليها ونذاكر عليها وأمي و«فيليتشتا» يقعدوا جنب بعض ويشتغلوا تريكو ويتناقشوا ـ بالطلياني ـ من غير ما يبصُّوا لبعض، عن «فيليا» بنت «فيليتشتا» وخطوبتها: فيه شابين بيتنافسوا عليها؛ «جورجيو» و«أوفيديو»، الشابين ولاد خالة ومن قرية «ريبا»، كلهم بلديات. على أي حال الشابين اعتُقلوا أثناء الحرب زي كل الشباب والرجالة الطلاينة في معسكر «جنيفرا» الإنجليزي في فايد على القنال. «فيليا» كانت مخطوبة لـ«جورجيو» ابن «أنجلينا»، يا عيني «أنجلينا» كانت بتتكلم كتير وتتخانق

مع الناس، مرض نفسي دلوقت له اسم وعلاج، أعتقد «فيليا» نفسها كانت ميالة لـ«جورجيو» إلى حدٍ ما، لكن «فيليتشتا» مش عايزة بنتها تتجوز ابن «أنجلينا»، وضغطت بمساعدة أمي لصالح «أوفيديو»، الشاب التاني. ابتدى «أوفيديو» يبعت جوابات حب لطيفة بس «فيليا» ما كانتش بتعرف تعبَّر، معندهاش القدرة على الكتابة في أي موضوع، ولا حتى على الكلام، بتتكلم نادرًا وباختصار، وأمي كانت فياضة في الكتابة والكلام والتعبير عمومًا. في الكريسماس أو أي عيد ميلاد أو مناسبة، قبل ما نعمل «chin chin» ونشرب مشروب، لازم أمي تقف وتعمل خطبة طويلة توزع تمنيات بالصحة والسعادة للشخص المحتفى به ولأهله وأصدقائه ولنا وللإنسانية كلها، وتقول وتقول وتقول، كان بيجي لها طبيعي إنها تعبر وتفضفض. المهم إن «فيليا» مش عارفة ترد على جوابات «أوفيديو»، مش عارفة تكتب إيه، وأم «فيليا» خايفة على العلاقة مع «أوفيديو»، عايزاها تستمر علشان «فيليا» ما ترجعش لـ«جورجيو». كل يوم حد، تيجي «فيليا» وتقعد أمي جنبها تقرا معاها جوابات «أوفيديو»، وتمليها ردود من نوع «وحشتني جدًّا وبافكر فيك كتير»، «أنا مستنية لحظة طلوعك من المعتقل علشان نتجوز ونعيش مع بعض». أمي مليانة كلام حب و«فيليا» ساكتة، تقول «طيب» وتكتب كلام أمي. أمي كتبت لـ«فيليا» كل جوابات الحب على مدى فترة الحرب، خط إيد «فيليا» وكلمات أمي. وحصل، «أوفيديو» هو اللي كسب الجولة. وترسخت عندي فكرة إن أمي ست شاطرة في كلام الحب دا.

مع تقدم الألمان أكتر وأكتر، ظهرت مشكلة: أبويا يهودي.

كان معروف إن أول إجراء يعمله الألمان إنهم يعتقلوا كل اليهود. كنت بالاحظ المناقشات وزيادة في العصبية في البيت، أمي تسمع الأخبار وهي خايفة، حتى أبويا ظهر عليه شيء من التوتر، و«فيليتشتا» قالت:

ـ إحنا حندافع عن سنيور «إيليا»، إحنا حنقول إن الراجل دا كويس جدًّا وطيب جدًّا، ولا يمكن يمسكوه.

الست «فانِّي» اللي ساكنة فوقينا، كانت يوغوسلافية وفاشية!! مش قصدي أذم فيها بس الست «فانِّي» اللي بنحبها كانت فاشية، حتى هي قدام الخطر على أبويا وأمي، اتناقشت وقالت إنها حتتدخل وحتمنع اعتقال أبويا!

ـ مش بيعتقلوا أي حد بدون تمييز، مش أي يهود، لازم يكونوا عملوا حاجات وحشة، أنا حاشهد إن سينيور «إيليا» راجل طيب.

تصوري يا نادية؟ «فيليتشتا» و«فانِّي» حيعرفوا يدافعوا عن أبويا قدام الألمان! مين كمان وقف معانا؟ أم «مارتشيلا» صاحبتي اللي أبوها كان معتقل عند الإنجليز، كل الستات دول كانوا مبسوطين بوصول الألمان لمصر، بسبب الدعاية الفاشية وبسبب سوء معاملة الإنجليز للطلاينة، فكانوا متكاتفين لتهدئة أمي وتهوين الخطر.

في نفس الوقت دا أبو صاحبة تانية اسمها «أنجيلا دي بتون» ما اعتَقَلش مع إنه طلياني لأنه عضو في منظمة «anti-fascista» اسمها «إيطاليا الحرة» ضد الفاشية، منظمة مصرية-إيطالية كوِّنها طلاينة ضد إيطاليا الفاشية، فالإنجليز ما اعتقلوهمش. لكن لما الألمان قرَّبوا من اسكندرية ووصلوا لغاية مرسى مطروح أبو «أنجيلا» اختفى. أروح اذاكر معاها في بيتها وهي تيجي بيتي، والأب ولا في المعتقل ولا في البيت. ما سألتش ساعتها راح فين، بس عرفت بعد الحرب إنه هرب لفلسطين، اتضح إن الطلاينة اللي ضد موسوليني في مصر هربوا إلى فلسطين لإن لو روميل كان خش مصر كان حيقبض عليهم باعتبارهم خَوَنة. بعض الناس قالوا لأبويا إنه لازم يسيب البيت يستخبى أو يهرب زي أبو «أنجيلا»، لكن أبويا قال :

ـ ما اقدرش، أنا معنديش حد ولا مرتبط بحد، أروح فين؟ اللي يحصل يحصل .

وقعد في البيت .

كل دا أدَّى إلى قرار إننا ندخل المسيحية، بتأثير «فيليتشتا» وتشجيع أم «مارتشيلا» و«فيليا» والست «فانِّي». أبويا عمل دا كنوع من الهدية لأمي في يوم عيد ميلادها 12 يونيو 1943: رحنا الكنيسة مع كل الناس اللي بتدافع عنا، وكان فيه قسيس لطيف اسمه الأب «مايوني»، لسه واصل جديد، تولى مع الأب «لويجي» العجوز عملية تحويلنا إلى مسيحيين. عمِّدوني وأخدت المناولة وانا عمري عشر سنين ونص، متأخرة، لإن المناولة الأولى عادة بتكون في سن 6 ـ 7 سنين. وحصل الزواج المسيحي لأبويا وأمي، علشان لغاية الوقت دا كانوا متجوزين جواز يهودي، بس دي قصة تانية .

وبعد ما كنا خلاص بنستعد لوصول الألمان للقاهرة رومل اتعطل من كتر سرعته، خلَّص البنزين وإمدادات الوقود ما وصلتش، فحصل له بطء. في نفس الوقت الإنجليز غيَّروا قائد القوات البريطانية وظهر القائد «مونتجومري» والأسطول الإنجليزي-الفرنسي ابتدى يعترض سكة الإمدادات اللي جاية من ألمانيا لرومل عن طريق البحر المتوسط. من الناحية التانية روسيا اللي كانت تحت الحصار الألماني لمدة طويلة في مدينة «ستالينجراد» ابتدت ترد وتصلب عودها. تصوري الألمان وصلوا لغاية «ستالينجراد»، ولغاية «كييف»؟ خدوا النمسا وطلعوا فوق خدوا بولندا وهجموا على روسيا وحاصروا «ستالينجراد»، دا في الشرق. في الغرب توغَّلوا في اتجاه فرنسا وبلجيكا ودكُّوا انجلترا وفي الجنوب عدُّوا البحر ودخلوا أفريقيا الشمالية واتجهوا للإسكندرية! كانت فظيعة فترة الرعب اللي عشناه في بداية الحرب العالمية التانية مع التقدم المسعور للألمان. ولكن زي ما قلت في وسط الانتصار السريع الرهيب للألمان، ابتدت روسيا ترد وظهر «مونتجومري» ولندن ما سقطتش وكانت بتوصل أخبار من جوه إيطاليا إن ناس كتير واقفة ضد النظام الفاشي، وموسوليني بيلاحقهم بشراسة وهم يهربوا أو يخشُّوا في السرية، من ضمنهم «جرامشي» وأعضاء الحزب الشيوعي الإيطالي وقصص طويلة وعريضة، ملحمة، امتداد لقصص أمي على الكنبة .

البيت عندنا ما كانش يعرف يتنفس وهو يتابع القصة دي، والله كنا بنعد الكيلومترات ورا روميل وهو بيتقدم نحو الإسكندرية، لغاية ما ابتدوا يتراجعوا، لتونس الأول وبعدين عدوا البحر لصقلية، والإنجليز والحلفاء هجموا على جزيرة صقلية والعالم كله ابتدى ياخد نفسه، واحنا كمان .

لكن فترة الحرب خلتني آخد بالي من حكاية اليهود والمسيحيين دي، مسألة ما كنتش بافكر فيها قبل كدا والحقيقة فوجئت بوجودها .

من وانا عمري 8 سنين لغاية لما أصبح عندي 14 سنة واحنا ما بنخرجش بالليل. نقعد في البيت من المغرب، والشوارع تتملي عساكر انجليز وهنود ومن جنوب أفريقيا، الجيش الإنجليزي معسكر في القاهرة، والجنود يعربدوا بالليل ويشربوا ويسكروا، ما كانش فيه أمان للعائلات إنهم ينزلوا ويروحوا السينما مثلًا .

الناس اللي بيروحوا الكنيسة أثناء الحرب كانت قليلة وأغلبهم ستات عواجيز. الرجالة مُعتقلين والستات مش فاضيين والشباب مراهقين معندهمش خُلْق للقداس، صلاة الكنيسة يوم الحد الصبح، القسيس يصلي وبعدين يطلع على منصة صغيرة أو منبر، ويقرا فقرة من الإنجيل ويعلق على اللي قراه ويحاول يربط بين أحداث الحياة العادية للإنسان وبين كلام الإنجيل، يدِّي أمثلة ويستخلص نصايح وتوجيهات، زي خطبة الجمعة عند المسلمين. القسيس «لويجي» اللي كان مسؤول عن كنيسة الكرمل اللي جنب بيتنا في شارع نعيم يا عِيني ما كانش عنده كاريزما وحضور، ولا في الكلام ولا في الأفكار، يا دوبك يعمل واجبه ويخلَّص. أعتقد لما رومل ابتدى يتعطل والألمان قبضتهم على إيطاليا ابتدت تتهز في وسط الحرب، رجعت بعض الاتصالات والفاتيكان قدر يبعت قسيس شاب، الأب «مايوني»، يساعد الأب «لويجي» القسيس العجوز. الأب «مايوني» كان خطيب ممتاز وكلامه جذاب والناس كانت عطشانة اجتماعيات بسبب حظر التجول، ففي بحر أسابيع قليلة الكنيسة اتملت شباب ورجالة وستات، جايين يسمعوا الأب «مايوني» يتكلم يوم الحد الصبح، وقدر يجمع ويلم الجالية الإيطالية. القسيس الشاطر دا عمل ملعب كرة سلة في حوش الكنيسة الورَّاني، حوش بلاط كبير، وجاب مدرِّب وكوِّن فريق. كنت باروح مرتين في الأسبوع واتعلمت العب باسكت بفضله. كان فيه قاعتين، قاعة كبيرة بتستخدم في المناسبات الدينية زي التعميد والمناولة الأولى، والقاعة التانية أصغر وفيها ترابيزات دايرن داير والأب «مايوني» يجيب كاكاو باللبن وعيش وكيكة ويلم عيال الطلاينة يلعبوا وياكلوا ويشربوا. نظم الشباب يعملوا سندوتشات ويبيعوها للعائلات ويوم السبت يجيب فونوغراف ويعمل أمسية رقص بعد الضهر. رحت استكشف الرقص مع «مارتشيلا»، هي من عيلة مسيحية كاتوليك متدينة ومحافظة، لكن أمها وافقت نروح علشان في الكنيسة. ما لقيتش نفسي معاهم في الأمسيات دي، ما عرفتش اعمل صداقات مع مجموعة الشباب اللي بتيجي ترقص، وما انبسطتش إن أفضل قاعدة ما ارقصش ومحدش ييجي يتعامل معايا. رحت مرة أو مرتين وما رحتش تاني و«مارتشيلا» كمان ما استمرتش. كان فيه بنات بيرقصوا ويتحركوا ويقولوا نكت ويضحكوا مع الشبان، يمكن احنا كنا أصغر في السن فأهملونا .

الفترة دي استمرت لحد صيف تانية ثانوي، كنت بادرس في مرحلة بيسموها الثانوية، والشهادة اسمها «Commerciale Superiore» - «تجارية عليا» - بس لما باحسبها بالسنوات هي ما تعتبرش ثانوي، بلغة النهاردا تعتبر إعدادي. الحرب خلصت وأبو «مارتشيلا» خرج من المعتقل وابتدوا يخططوا يسافروا صقلية عند قرايبهم ويحصَّلوا اخواتها في إيطاليا، «مارتشيلا» تكمل أدبي هناك زي اختها، تدرس سنة أو سنتين اعدادي أو تمهيدي وبعدين معهد أو كلية في الجامعة. كنت

باحب «مارتشيلا»، وقعدنا على نفس الدكَة جنب بعض في الفصل من سنة أولى طول سنين المدرسة فتصورنا إننا حنكمل مع بعض .

ابتدى الكلام في بيتنا عن مستقبلي، أبويا وأمي ابتدوا يسألوني :

ـ حتعملي إيه السنة الجاية؟

كنا في الصيف وفاضل لي سنة واحدة مدرسة وبعد كدا خلاص، فقعدوا يقنعوني إن أحسن لي أتعلم لغة إنجليزية و «short-hand» و «dactylo—typing» ـ اختزال وآلة كاتبة ـ على أساس إني أعرف شوية فرنساوي من المدرسة وطلياني من البيت وابقى متعددة اللغات واشتغل سكرتيرة في أي شركة من الشركات الكويسة .

ـ لأ، أنا عاوزة أدرس جيولوجيا .

ـ جيولوجيا دي مش ممكن تدرسيها هنا لازم تروحي إيطاليا. خلي بالك دي خطة مكلفة واحنا معندناش فلوس .

أبويا اقترح إني أبتدي أشتغل سكرتيرة في مكتب تلات أشهر الصيف قبل السنة الأخيرة، أكسب شوية فلوس، أدفع مصاريف آخر سنة في المدرسة وهما في هذه الأثناء يشوفوا حنعمل إيه في مستقبلي، وأمي ابتدت تتصل بأخوها، خالي «جوردانو»، في إيطاليا .

كان فيه في القاهرة عدد من المدارس الليلية لتعليم اللغات، بالذات اللغة الإنجليزية، أكيد بسبب وجود الجيش الإنجليزي في مصر. المدرسة المشهورة اسمها «برليتز» ولها كتاب معتمد من انجلترا وأبويا أخد كورسات فيها ولحدِّ النهاردا اسم «برليتز» مقترن باللغات والترجمة والقواميس. لقيت شغل في مدرسة صغيرة اسمها «نِل» لتعليم اللغات في شارع قصر النيل فوق محلات «داود عَدَس» اللي لسه موجودة لحد الآن، بيدرِّسوا إنجليزي وفرنساوي ويمكن كمان آلة كاتبة واختزال. محتاجين سكرتيرة في مواعيد راحة السكرتيرة الكبيرة ـ السكرتيرة الكبيرة يا عيني في الحقيقة كانت صغيرة، بس بالنسبة ليَّ أنا كبيرة وشاطرة وفاهمة وخبيرة ـ تبتدي شغل الساعة عشرة ونص الصبح وتاخد راحة من واحدة لغاية خمسة ونص بعد الضهر. أنزل من البيت سبعة ونص صباحًا واكون هناك قبل تمانية، أقعد جنب التلفون في مكتب الاستقبال برَّه آخد بالي من الساعة، الطلبة اللي يوصلوا قبل 8 ص يستنوا في قاعة الانتظار والساعة تمانية بالظبط أضرب الجرس، فيقوموا يخشوا الفصول. سكرتيرة المدرسة ومسؤولة، أي حد عنده سؤال أو عايز يبتدي دروس ييجي لي وانا أسجل اسمه، كنت باحس إني شخصية مهمة وأبويا لقى إن دا شغل مناسب ليَّ .

تلات اشهر الصيف اشتغلتهم في العملية دي وكان أول شغل في حياتي، وهناك بقى قابلت باباك ـ سعد ـ جوزي، لأول مرة. سعد كامل كان بييجي المدرسة مع أخته جميلة، بيدرسوا انجليزي أو فرنساوي. يسيب جميلة في قاعة الانتظار ويتسلل لغرفة السكرتارية، أوضة مفتوحة وفيها مكتب استقبال في الوسط ويسألني عن أي معلومات، أنا رديت عليه بجدية بس من تعبير وشه ابتديت أحس

إنه بيعاكسني، مش عاوز يستفسر بالفعل عن تفصيلة معينة. السنة دي بالذات أنا كنت رسبت في مادة اللغة العربية في المدرسة، وعندي ملحق في آخر سبتمبر وباحاول اذاكر، يظهر إني قلت لسعد الكلام دا فقال :

ـ أنا أديكِ دروس، أنا أعلمك عربي .

وبقى ييجي بدري قبل موعد الدرس. كنت باوصل الساعة واحدة بالظبط أستلم من السكرتيرة الكبيرة وهو ييجي واحدة ونص أو اتنين، الجو كان أهدى والناس أقل في فترة شغلي، جبت الكراسة وقعدنا جنب بعض نقرا في الكتاب اللي باذاكر منه، لما جينا نكتب، إذا بسعد يكتب بالعربي: «سعد يحب ماري» فحسيت كدا إن الحكاية... ما علقتش ساعتها بس قطعت بعدها وخلص الصيف وما كملناش دروس عربي. بس انا حسيت. مرة تانية قابلني في الأوتوبيس بالصدفة، أظن نمرة 4، حبيت ادفع، الكمساري قال لي :

ـ خلاص مدفوع .

وشاور لي على سعد، فشكرته من بعيد، وخلاص أظن انتهت المسألة على كدا. لأ، استنِّي، أنا كنت نسيت الحكاية دي، إدَّاني ميعاد وانا قلت له :

ـ أيوه طيب حاَجي .

بس ما رحتش وانقطعت العلاقة بينا كمان مرة. ما شوفتوش تاني إلا بعد كذا سنة وبعد ما حصلت أحداث كتيرة وحنرجع للمسألة دي بعدين. بس اللي لفت نظري للشاب سعد إنه رفيع وطويل وانا كنت جاية من تجربة الكنيسة مع «مارتشيلا» يوم السبت للرقص وبأعاني من عدم اهتمام الشبان بيَّ. ساعتها ما اهتمتش بسعد، بس كنت «flattered» عجبني إن فيه حد مبسوط مني وبيعبر لي عن اهتمام، وخصوصًا إن مخي كان مليان بقصة حب أمي وأبويا والكروت اللي كانوا بيكتبوها لبعض .

الحرب خلصت وانا كنت في آخر سنة في مدرسة الراهبات «ماريا آوزيلياتريتشي» في روض الفرج. المدرسة عبارة عن مبنيين بينهم حوش يبدو لي كبير ودايرن داير سور وأشجار على طريقة الأديرة المسيحية، منها شجر مانجة، أما البوابة فكانت حديد زهر، واللي يعدِّي قدام البوابة وهو ماشي في الشارع يقدر يشوف الحوش. حصلت مظاهرات في مصر وعدَّت قدام المدرسة مظاهرة كبيرة جدًّا من طلبة المدارس المصرية اللي حوالينا، والطلبة يهتفوا، ويهتفوا، وهم معدِّيين كتير منهم يبصُّوا على حوش مدرستنا من البوابة الحديد واحنا كنا في الحوش وقت الفسحة، شاوروا بإيديهم «تعالوا معانا»، مش معاكسة، كانوا جادين وهم ماشيين في المظاهرة، لكن البنات لما سمعوا الهتاف وشافوا المظاهرة هربوا ودخلوا جوه. فضلت لوحدي متسمَّرة في وسط الحوش. ما فكرتش انضم لهم لكن ما هربتش مع باقي البنات، كنت مسحورة بالمنظر وصوت الهتاف ووشوش الشباب، فضلت اتفرج لغاية ما راهبة من الراهبات جت سحبتني من كتافي بلطف ولكن بحسم. بعد سنين

فهمت إن دي مظاهرات 1946 وإنها كانت مهمة في الحركة الوطنية في مصر: مظاهرات العمال والطلبة. البوليس فتح كوبري عباس والمظاهرة فايتة عليه وكتير من المتظاهرين وقعوا في النيل .

أهم خروجة حصلت لي بعد انتهاء الحرب وانتهاء المدرسة كانت بَرضُه في 1946. «أنجيلا » اللي أبوها معروف في أوساط الطلاينة إنه ضد الفاشية، رجع من فلسطين لبيته في القاهرة، ولنشاطه في منظمة «إيطاليا الحرة» المناهضة للفاشية. كانت الدراسة خلصت يا دوبك من أيام، و«أنجيلا» عرضت عليَّ أروح معاها نادي ثقافي طلياني جنب منظمة أبوها. مبنى قديم دورين في شارع شريف باشا، اللي كان اسمه شارع المدابغ، في شقة من الشقق القديمة اللي سقفها عالي والأوض كبيرة وخمسميت أوضة في نفس الشقة، كل أوضة فيها جمعية . «Palestra Italiana Cairo» ، واختصارها : «La PIC» ، «البيك» ـ «النادي الإيطالي بالقاهرة» ـ نادي ثقافي ورياضي قديم سيطر عليه الشباب اللي ضد الفاشية لما رجعوا من إيطاليا مع نهاية الحرب. «أنجيلا» قالت لي :

ـ يوم السبت «البيك» بتعمل حفلة رقص، تيجي نروح؟

وطمِّنتني إن أبوها وصاحبه «بايلِّي» جايين، رجالة كبار في السن وضد الفاشية حيخلوا بالهم مننا إحنا البنات الصغيرين. واضح إن انا ساعتها كان عندي شخصية منطلقة، مش مترددة ولا حذرة، مستعدة للجديد وللتغيير، قلت لـ«أنجيلا »:

ـ قوي قوي أنا على استعداد .

أبويا وافق باعتبار اني رايحة مع «أنجيلا» وأبوها وصاحبه «بايلِّي». وفعلًا رحت معاها يوم السبت وكانت حفلة ظريفة، سابت عندي انطباع أفضل من حفلات الكنيسة. «مارتشيلا» صاحبتي اللي خدتني الكنيسة ما رضيتش تيجي، وأعتقد إن السبب إن أسرتها فاشية، مش فاشية في المعاملة الإنسانية ولكن العيلة كانت مرتبطة بفكرة الفاشية. وحكاية إن الجمعية مناهضة للفاشية غالبًا ما ريَّحتش امها .

المكان كان مليان شباب معظمهم طلاينة، بعضهم بيتكلم فرنساوي أو طلياني بلكنة .

دول شباب «البيك» اللي غيَّروا حياتي .

الجو كان غير جو حفلات الرقص في الكنيسة اللي ما عرفناش نندمج فيه، دول بالعكس، استقبلونا كويس، بنات واولاد، وحاولوا يتصاحبوا علينا، يسألونا احنا مين. ورقصنا وانبسطنا ورجعنا البيت، وقبل ما نمشي حد قال :

ـ تعالوا أي يوم، مش بس يوم السبت علشان الحفلة والرقص، إحنا بنعمل يوم الاتنين محاضرة، ويوم الأربع بنلعب ألعاب اجتماعية .

كانوا عاملين برنامج لكل الأسبوع وقال لي :

ـ تعالي حتتبسطي .

وفعلًا رحت يوم المحاضرة، خسارة مش فاكرة مين فيهم اللي قال لي آجي ولا كان إيه موضوع المحاضرة، لكن أنا وقعت في حبهم، لقيت عندهم ثقافة مرتبطة بالسياسة، فيها كل مفاهيم الديمقراطية اللي ضد الفاشية، وإيه هي الفاشية، وعرفت عن طريقهم كمان تطور الفكر الديني من أيام الـ «Inquisition» ـ محاكم التفتيش في العصور الوسطى ـ وحركة البروتستانت وأحداث تاريخية كتير ما كانش عندي فكرة عنها خالص. يجوز دا كان موضوع المحاضرة الأولى اللي انا حضرتها؟ وحضرت يوم الألعاب: نقعد ويلعبونا ألعاب زي لعبة الحركات، الواحد يشرح من غير كلام، زي «لعبة الأفلام» اللي انتو بتلعبوها. ولعبة تانية اسمها «روبسبير»، واحد يختار شخصية تاريخية أو حدث مهم والتانيين يسألوا ويخمنوا الشخصية أو الحدث، زي «عروستي» بس على التاريخ وشخصياته، كان لازم اكون على دراية بَرضُه بالتاريخ علشان اقدر اخمن فكنت باتعلم. كلها نشاطات ثقافية مرتبطة بالتاريخ والفكر السياسي. معظم الشباب دول ثقافة فرنسية وبعضهم كانوا متخرجين من مدرسة «الليسيه» الفرنسية، وبعضهم طلاينة رجعوا من إيطاليا بعد ما اتزنقوا هناك أربع أو خمس سنين الحرب .

زي ما قلت أنا وقعت في حب المجموعة دي وأجوائهم وأصرِّيت أحضر كل نشاطاتهم، أقل اهتماماتي كان رقص يوم السبت، بس بَرضُه كان لطيف الرقص في جو حِبِّي وصداقة وشباب. «أنجيلا» اللي عرَّفتني بيهم حضرت مرة أو مرتين وما رضتش تيجي تاني، ما اعرفش حصل إيه، يمكن زهقت، ما سألتش فيها من كتر ما اتعلقت بيهم. قعدت مدة آخد الإذن من أبويا وأمي على أساس إنِّي رايحة مع «أنجيلا» لغاية ما اكتشفوا إن «أنجيلا» مش بتروح فحاولوا يمنعوني بس ما نفعش. أبويا كان شايف الأصول ما اتأخرش عن الساعة 8م، ولكن علشان أكون في البيت الساعة 8 زي ما ابويا عاوز لازم أمشي من النادي في نص المحاضرة أو اللعبة، أغلب الشباب دول أكبر مني شوية وابتدوا يشتغلوا أثناء النهار فبيوصلوا الجمعية على سبعة بالليل، فدخلت في خناقات مع أبويا وأمي بسبب الحكاية دي، وفي الآخر استسلموا وسابوني أكمِّل .

في الجمعية لاحظوا على طول إن انا «معاهم معاهم» ومش حاسيبهم، فابتدوا يجنِّدوني وكان فيه بعض الشباب الجديد غيري وفي الغالب عملوا معاهم نفس الشيء. ساعتها ما فهمتش حكاية التجنيد دي .

«ماكس كوهين» كان عنده 24 سنة، عجوز في نظري، كان كبير القعدة، جد وبيدخن بيبة بيسمعوا كلامه ويبان إنه أعقل واحد فينا، كان أكبرنا في السن فعلًا على أي حال وفي الغالب كان مسؤول عن القسم الإيطالي في حركة سمعتهم بيقولوا اسمها «حدتو»، كانوا عاملين قسم فرنسي وأرمني ويوناني كمان. ماكس كان عنده موكب من المساعدين، اتنين اخوات اسمهم «جو وليو باتينو » عمرهم زي 22 سنة، بالنسبة ليَّ بَرضُه «كبار » أصل أنا كان عمري ساعتها حوالي 15 سنة. الاتنين بيشتغلوا في الـ «Société Egyptienne de Publicité» ـ «الشركة المصرية للإعلانات» ـ جريدة «الجمهورية» دلوقت، وكان بيصدر عنها «Le Progrès Egyptien» ـ جرنال «التقدم المصري» ـ عندهم جنسية إيطالية وبيتكلموا «طلياني طلياني»، بدون لهجة فرنساوي زي لهجة «ماكس كوهين» اللي أصوله فرنسية. كان فيه مين كمان من الكبار؟ «ريللي»

و«نينا» وأخين تانيين من اسكندرية، غالبًا جم القاهرة بسبب القنابل زي «فيليًّا» الخياطة وأمها «فيليتشتا»، الأخين «لوكساردو»، «جابريللا كاسوتو»، «ماريو بتروتشي» اللي كان أصغر من «ماكس» بس له مكانة ممكن يقاطعه ويتدخل في الكلام أثناء المحاضرة. «ماريو» و«نينا» و«ريللي» من الشباب اللي اتزنق في إيطاليا بسبب الحرب وحضروا سقوط الفاشية ونهاية الحرب هناك. بنات واولاد بالألوف عاشوا سنين الحرب في إيطاليا بعيد عن أهلهم في ملاجئ ومعسكرات خيرية وحكومية، أظن الرهبان تولوا أمور كتير من الشباب العالق على قد ما قدروا . لما الحلفاء انتصروا في شمال أفريقيا بعد معركة العلمين ودخلوا جزيرة صقلية في جنوب إيطاليا النازيين الألمان اعتبروا إيطاليا خرجت من سيطرة موسوليني فاحتلوها بالجيش من الشمال. والفدائيين بعد ما كانوا بيكافحوا ضد موسوليني الفاشي، أصبحوا بيكافحوا ضد الاحتلال النازي. «ماريو» هرب من الدير وانضم للـ «partiggiani» - الفدائيين - استخبى في الجبل وعاش كفدائي سنين وكافح مع الفدائيين وحضر سقوط الفاشية ونهاية الحرب .

«ماريو» بيحكي قصص الفدائيين وانا باسمعه وانا في عالم تاني جديد .

مبهورة .

الانبهار دا خلاهم يكلفوا اللي اسمها «جابريللا كاسوتو» بمتابعتي، عندها 21 سنة، كبيرة بَرضُه .

- إنت بتقري جرايد؟

- يعني، أبويا بيجيب كل يوم Le Journal d'Egypte - «جريدة مصر» - وهو راجع من الشغل علشان يبص على إعلانات السينما .

- لا لا، دا ما اسموش كلام، إنت لازم تيجي لي أعلمك كام موضوع علشان تفهمي شوية في السياسة .

قلت لنفسي «طيب! وماله» ورحت لها بيتها وابتدت تعلمني ازاي الواحد يقرا الجرنال، يهتم بإيه وما يهتمش بإيه :

- بالطريقة دي لو تتواجدي مع ناس زي ما احنا بنقعد في الجمعية تقدري تاخدي الجرنال وتقولي إيه مهم وتعملي عرض للمجموعة .

انبسطت من الدرس دا. بعد كدا جابت تاريخ الحزب الشيوعي السوفيتي وقعدت تقول لي ازاي لما الواحد يقراه يفهم كل حاجة عن الشيوعية والاشتراكية :

- إنتِ عندك فكرة عن لينين؟ عندك فكرة يعني إيه شيوعية؟ عندك فكرة؟

ما كانش فيه حاجة في دماغي، ميح خالص. حكت لي شوية وبعدين قالت لي :

ـ اقري صفحتين تلاتة من الكتاب دا والمرة الجاية قولي لي فهمتِ إيه .

بس ما فهمتش حاجة من الكتاب. ابتدت تفهمني هي يعني إيه الماركسية ويعني إيه الشيوعية والمفاهيم دي، وفي نفس الوقت كنت باحضر معاهم جلساتهم الجماعية .

ـ انت مش بتشتغلي؟

ـ لا ما باشتغلش، أصلي حاسافر .

ـ تسافري؟

ـ أيوه، علشان ادْرِس، أكمِّل دراسة .

الناس دول عيبهم إن الدراسة عندهم مش مهمة في الحياة، بيعتبروا الدراسة رغبة برجوازية والناس اللي عايزة تكمل دراستها وتاخد شهادات ناس عندها تطلعات برجوازية .

ـ والعمال لما بيشتغلوا بيكونوا درسوا؟

دا على أساس إن احنا خلاص اتفقنا إن احنا مع الطبقة العاملة، والحقيقة أقنعوني :

ـ حادوَّر لك على حتَّة تشتغلي فيها وتبقي جدعة، مش لسه «يا بابا اصرف عليَّ»، لسه حيصرفوا عليك وتروحي إيطاليا؟ دلع !

لقت لي فعلًا شغل على الآلة الكاتبة في شركة جنب ميدان التحرير قصاد بيتها بالظبط. أنا كنت فاهمة إن دا اهتمام شخصي من «جابريللا» وكنت مبسوطة انها بتديني معلومات وتثقفني .

أول نشاط اشتركت فيه معاهم كانت رحلة لاسكندرية في الصيف، بيسافروا مع بعض بطريقة اشتراكية، كل واحد يحط فلوس وناكل مع بعض ونروح البلاج، الشاطئ، وننام في أوض في بنسيون نأجرها مع بعض، واحد أو اتنين مننا ينظموا العملية بالحسابات والترتيبات. أخدت أخويا معايا لأن أمي كانت في المستشفى، جالها تيفود وساعتها التيفود كان بيقعد مدة طويلة، بيعالجوه بمنع الأكل عن المريض. خفِّت وروَّحت البيت وجت لها نكسة ورجعت المستشفى تاني .

اتحجزت حوالي شهر ونص في المستشفى الإيطالي وشعرها كله وقع من الضعف. أنا ما كنتش صغيرة قوي ولا حاجة كان عندي زي 16 أو 17 سنة بس اهه ما كنتش كبيرة كفاية عشان آخد مسؤولية، أبويا كان بيعمل كل شغل البيت، يطبخ ويروح الشغل وياخد باله مننا ويوماتي يروح يشوف أمي في المستشفى وعمل لها باروكة عشان كانت مكسوفة من شكلها. إزاي عمل دا كله؟ مرة واحنا بنزور أمي في المستشفى اشتكيت لها :

ـ كل يوم ناكل سباجتي، كل يوم، كل يوم .

وأمي مش تتبهني وتقول مثلًا «كتر خيره» لا :

ـ حرام عليك يا «إيليا» بتأكل العيال مكرونة كل يوم، ممكن تنوع لهم شوية .

فالمساهمة الوحيدة في الفترة دي اني أخدت «برتو» معايا اسكندرية مع مجموعة «البيك»، الشباب ما كانوش سعداء قوي إن أجرجر معايا ولد 12 أو 13 سنة ولكن ما مانعوش وكانوا لطاف معاه. «برتو» ما كانش بياكل كويس من صغره، رفيع ومعندوش شهية وصحته نص نص، لما راح اسكندرية معايا سبته يلعب في الرمل والبراح، وبعد اللعب نروح مطعم صغير جنب الشاطئ نطلب ونقسم وناكل شوية من كل صنف، «برتو» بقى ياكل بشراهة ويطلب أكتر وكنت باجيب له ما كانش فيه مشكلة، وفي 10 أيام تخن واسمرَّ ووشّه اتملا واتغيَّر خالص. آخر يوم واحنا في الأتوبيس راجعين مصر طلع لـ«برتو» دمَّل في عينه، وعينه ورمت واحمرت. دخلنا البيت وعينه بالطريقة دي، بس أبويا شاف «برتو» حلو ووشه مدوَّر وتخنان ومِسمِر وشعره طولان فضل يبص له، فرحان به، ما اتخضش من الدمل اللي في عينه وعالجه على طول، عمل له غسيل، شاطر أبويا، يعرف يعالج كل الأوجاع. بعد يومين عين «برتو» راقت وكان زي القمر خدناه ورحنا أخيرًا المستشفى نشوف أمي، كانوا مبسوطين بشكل! أعتقد كانوا مبسوطين كمان من تطوُّر علاقتي بـ«برتو» واني خَدته يصيِّف معايا .

العادي إن أنا و«برتو» ما نقعدش مع بعض، ولو حصل نتخانق، أيام الأجازة لما أمي تنزل تشتري الطلبات من السوق وتضطر تسيبنا في البيت توصينا ما نتخانقش وان كل واحد يقعد في حاله، ما كنتش عاوزة أفهم أبدًا إن هو أصغر مني والمفروض أكون أعقل منه، مش عايزة أعرف إن كان صغير ولَّا كبير، بيفهم ولَّا ما بيفهمش، حقي أنا عاوزاه بالكامل، وفي يوم من الأيام هي نزلت من هنا وانا و«برتو» اختلفنا على طول، يومها الزعل والخناق بيني وبينه وصل إنه شد الروب اللي انا لابساه، وانا أشد وهو يشد لحد ما اتلفتّ جامد علشان امشي فاتقطع من قدام وبعدين اتقطع من ورا والروب اتفرتك بيني وبينه بالطريقة دي. أمي رجعت من السوق لقتنا متخانقين ورامبين حاجات على بعض وكمان معنديش روب. كنت 9 أو 10 سنين و«برتو» 3 أو 4 سنين، دا كان شكل العلاقة بيني وبينه لحد رحلة اسكندرية مع مجموعة الشباب الطلياني .

ظهر وباء الكوليرا بتاع 1947 وانتشر في مصر وفي القاهرة، وعلى طول المجموعة دي نظمت مساعدة وحماية للناس. وزعوا علينا برمنجنات وفنيك وأدوات تنضيف. بولاق أبو العلا اللي انا ساكنة فيها كانت فقيرة وفيها حتت أفقر كمان من حتتنا في شارع نعيم، وحي معروف فيه سوق وبيوت صغيرة وقديمة. مِسِكنا مسؤولية الحي من الإسعاف في رمسيس بما فيها بيتنا وشركة النور، من الوابور الفرنساوي لغاية مدرستي القديمة «دانتي ألليجييري»، منطقة كبيرة. كنا اربع أنفار في المجموعة، أولاد وبنات، إدُّونا قزايز فنيك وبرمنجنات ومبيدات، شيلناها على كتافنا، نطلع مع بعض بيت بيت، نخش جُوَّه ونقول للسكان إن احنا مندوبين من الصحة، نديهم قزازة فنيك ونشرح لهم كلهم، صغيرين وكبار، إن لازم يغسلوا إيديهم وهما راجعين من بره وضروري في طشت فيه مية بفنيك بكمية تكفي للتطهير. كان فيه بيوت فقيرة جدًّا في الصف اللي ورا الوابور الفرنساوي، طلاينة ومصريين. نطلب نبخ الحمام والكابينيه بالمبيد، نرش كويس بالرشاشة اللي معانا ونسيب لهم قزازة الفنيك. بيوت دورين تلاتة اربعة نطلع على السلم، دور دور، باب باب، عيلة عيلة، نبخ

الحمَّامات وننزل البيت التاني والتالت بشكل منتظم وفي الآخر لما نخلص نكتب احنا عملنا كام بيت. أنا اتحمست حماس غير معقول إننا بنعمل المساهمة دي. ما تقدريش تتصوري يا نادية في سني دا قد إيه كنت متحمسة من العملية دي. كلنا خواجات، وانا يمكن الوحيدة اللي من بولاق، يعني من حتة شعبية إلى حد ما، فلما كنا بنخش عند الناس ساعات كانوا يضحكوا علينا، بس احنا عملنا الشغل دا بدون تردد بقيادة منظمة «حدتو». أنا ساعتها ما كانش عندي فكرة إن انا جزء من حركة منظمة، بس أول ما ابتدا وباء الكوليرا جت تعليمات لكل الأقسام أن يوقفوا كل النشاطات والبرامج وينزلوا يساعدوا، تعليمات من واحد اسمه «هنري كوريل»، قالوا لي إنه مؤسس منظمة «حدتو»، خد إذن من وزارة الصحة ونظم معاهم توفير الأدوات والمواد اللي احنا كنا بنستعملها، وعمل تنظيم هايل للانتشار في الأحياء الشعبية الفقيرة. كانت أول مرة أسمع عن «هنري كوريل»، ولاحظت مع الوقت إن عنده حاسة المشاركة في الاحتياجات الشعبية، بفضله أنا اشتغلت بديني في الحملة دي. وأقنعوني خلاص ورحت قلت لهم في البيت :

ـ حاشتغل مش حاسافر .

واتعلمت آلة كاتبة وشغَّلتني «جابريللا» في «جون ديكنسون»، شركة انجليزية للورق أكتب الجوابات على الآلة الكاتبة، وكان مطلوب مني اتعلم الاختزال .

النادي بتاعنا، «البيك» اتنقل من شقة شارع شريف لمدرسة «دانتي ألليجييري» اللي كانت مدرستي زمان، وعملوا فريق باسكت، وكنت بالعب باسكت في حوش المدرسة الكبير وآخر النهار واحنا مروحين من الجمعية كان عندهم العادة الظريفة إن الولاد يوصلوا البنات لبيوتهم، كنا بنمشي كتير جدًّا، نتفسح على كوبري أبو العلا لغاية الحتة اللي فيها شارع نادي الجزيرة وجنينة الأندلس ونغني في الشارع كمان واحنا ماشيين. وفي يوم من الأيام «ماريو بتروتشي» الفدائي البطل جالي وقال لي :

ـ «ماريا» أنا اللي حاوصلك البيت النهاردا .

قلت لنفسي: «مفيش مانع»، ومشينا. ابتدى «ماريو» يسألني أسئلة غريبة: «هل أنا جاهزة» و«هل أنا فعلًا معاهم»، كأن فيه شك إن انا مخلصة، هو ما كانش قصده كدا بالظبط، بس انا أخدتها كدا، إن فيه شك في إخلاصي للفكرة الشيوعية والاشتراكية والكفاح والعمل. يظهر «ماريو» مهمته إنه يكشف على المجندين الجداد يشوفهم استووا كويس ولا لسه ويقرر لو يعرضوا علينا نبقى أعضاء منظمين. بس انا زعلت من الأسئلة، من كتر ما كنت متعلقة بيهم مش متصورة إن لسه حد بيسأل. ابتدينا بإن ما اردش عليه، حالة طفولية شوية كأني مقموصة، ماشيين، هو يتكلم ويسأل وانا ما اردش وابص الناحية التانية. بعد شوية لاحظ :

ـ إنتِ زعلانة ليه؟ أنا باقول حاجة غلط؟

مش عارفة قلت له إيه ورديت بإيه المهم إنه قعد يعتذر ويعتذر ويعتذر :

ـ أبدًا أنا ولا في بالي إني أشك في إخلاصك .

وانتهي الأمر على كدا. أكيد قال لنفسه «لا لا لا، دي لازم ندخلها على طول» لأن «جابريللا» المرة اللي بعدها سألتني بشكل مباشر :

ـ إحنا منظمين، عاوزة تنضمي لنا ولا لأ؟

ـ بَرضُه؟ دا كلام؟ كل دا وانا مش معاكم؟

كلام من النوع دا، المهم دخلوني فعلًا. كنت أصغر واحدة في السن وكنت البنت الوحيدة تحت سن العشرين. «أنجيلا» صاحبتي اللي عرفتني بيهم كانت اختفت من زمان وانا ما سألتش فيها. كان فيه شبان تانيين واحد منهم اسمه «روميو» زي بتاع «جولييت» عنده 19 سنة ولسه راجع من إيطاليا بعد الحرب، أنا وقعت في حبه، بس هو ما حبنيش ولا عبَّرني، واكتشفت بعد شوية إن هو بيحب مين؟ بيحب «جابريللا» الكبيرة اللي كانت بتثقفني .

أنا اتألمت كتير وقلبي وجعني بصحيح في الحكاية دي .

بس بعد كدا طبعًا نسيت .

نزل عليَّ أفكر إن مسألة إن اقعد أحكي لها ميزة وعيب. الميزة معروفة، كل ما باتكلم بافتكر أكتر، بس العيب إنها بتاخد شيء من الطاقة العاطفية، بينتهي الأمر ان الواحد يعمل نوع من الـ «introspection» ـ تفقد الذات ـ يعني يبحث جوه نفسه. سألت نفسي «إيه اللي خلاني أول ما رحت النادي الإيطالي وقابلت الشباب المناهض للفاشية رميت نفسي في السياسة، وكأن دا اللي كنت منتظراه طول عمري ودا اللي انا اتولدت علشانه؟». السبب مش ابويا، أبويا ما ادانيش حب السياسة والأحداث أو التاريخ. هي أمي اللي ادتني الارتباط دا، وحصل بالشكل اللي حكيته لما كنت في تالتة ابتدائي وابتدوا يهتموا بالواجبات المدرسية بعد ما أهملوني مع ولادة اخويا. باربط هنا بين مقاومة الفاشية اللي كانت بتحكيها لي أمي ويوم ما رحت للنادي الإيطالي وبداية علاقتي بالمجموعة دي. واحدة من أوائل المُحاضَرات اللي حضرتها كانت مُحاضرة عن الفاشية في إيطاليا، والمُحاضِر كان «ماريو بتروتشي». حضر ناس كتير طلاينة مصريين شباب وكبار في السن لأنها كانت من أول اللقاءات السياسية بعد الحرب في مصر، بيحاولوا يفهموا. بعد ما القاعة اتملت على الآخر وَصَل واحد، ضخم، كبير، تخين، شوية زي... يمكن مش ضروري أعمل التشبيه دا؟ شوية زي الراجل بتاع الحزب الوطني، اسمه إيه؟ نسيت! كمال الشاذلي ! المنظر كأنه رئيس أو جنرال دخل وحواليه أتباعه، الكل في القاعة بص عليه، الأوضة كانت على آخرها كل الكراسي اتملت لكن الأفوكاتو دا قعد على طول في أول صف، أتباعه كانوا حاجزين له مكان. أنا ما كنتش شفته قبل كدا، بس كنت أسمع عنه «دا الأفوكاتو «موربورجو» واحد من كبار المحامين الطلاينة في القاهرة ومعروف عنه إنه فاشيستي كبير، أول مرة يظهر بعد ما الفاشية وقعت والنازية انهزمت». يا عيني «ماريو

بتروتشي» شاب صغير بيواجه راجل فاشيستي كبير، ولكن «ماريو » كان شاطر ما اتهزش، ابتدى يحكي ويشرح إيه هي الفاشية ويشهد هو شاف إيه منها وهو في إيطاليا، كان بيهاجم الفاشية بوضوح ويدِّي تفاصيل، ففي وقت معين الأفوكاتو دا قام وابتدى يشتم «ماريو» ويشوَّح بإيده ويتقدم بجسمه ناحية «ماريو» كأن حيضربه، فأصحاب «ماريو» سابوا كراسيهم والتفوا حوله، فالأفوكاتو فقد أعصابه وزعَّق :

ـ إنتم ولاد كلب شيوعيين .

ولكن «ماريو» ما سكتش، كان طويل ورفيع وراسه طالع زي الديك من وسط اصحابه :

ـ إحنا ما كافحناش وما ماتش مننا ناس كتير علشان ييجي واحد وسخ زيك يقول «تحيا الفاشية»، بعد كل اللي حصل؟

تحولت لخناقة ومسكوا الكراسي وكانت حتنتهي إلى معركة وحشة، بس في النهاية «موربورجو» ساب القاعة، لكن «ماريو» كان انفعل ووشه احتقن واحمرَّ وفضل يقول :

ـ إزاي يحصل كدا؟

ويكرر ويعيد :

ـ يعني إيطاليا تحرر نفسها وناس بالملايين تموت وبعدين ييجي واحد وسخ عايش بعيد، ما شافش حاجة، وما يهموش حد، وبعد إيه؟ بعد ما وقعت الفاشية؟ وبعد ما قتلوا موسوليني؟

موسوليني كان هرب والفلاحين جريوا وراه هو ومراته ـ مش مراته ـ رفيقته، كان مرافق واحدة اسمها «كلارا بيتاتشي»، الفدائيين لحقوهم ومسكوهم في شمال إيطاليا وقتلوهم وعلقوهم الاتنين من رجليهم من كتر الكراهية. تصوري انتهى الأمر بيهم كدا: موسوليني و«كلارا ».

المحاضرة دي كانت حادثة مهمة في الطريق لتجنيدي، ودخلوني في منظمة «حدتو» وعرفت بقى إنها اختصار لـ«الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني»، مفيش كلمة شيوعية في الاسم فشرحوا لي إنهم «منظمة شيوعية في الأساس ولكن المرحلة في مصر هي مرحلة تحرر وطني من الاستعمار»، اللي عايزة أقوله ان ما كانش ممكن يصيبوا وجداني أكتر من كدا، أصل التحرر الوطني دا اللي كنت بادرسه في كتاب التاريخ مع أمي .

في نفس الوقت اللي تم فيه تجنيدي كانت بتحصل الوحدة بين منظمتين شيوعيتين: «ح.م» اختصار «حركة مصرية» بقيادة «هنري كوريل» السكرتير العام، والمنظمة الشيوعية الكبيرة التانية كان اسمها «إسكرا» يعني الشعلة بالروسي في الاتحاد السوفيتي، بالعربي كانوا بيسموا نفسهم «شرارة»، وكانت بقيادة واحد اسمه «هلال شوارتز». كل دا عرفته شوية بشوية مش على طول، وهم بيجندوني أنا ما كنتش دريانة بالتنظيمات دي كلها، واللي بيجندوني ويثقفوني ما بيدوش

تفاصيل. المنظمتين دول اتحدوا مع بعض وعملوا منظمة اسمها «حدتو» اللي أنا أصبحت عضوة فيها. لكن على طول بعد الوحدة ـ وانضمامي ـ ابتدت خناقات وخلافات بين المجموعات المتحدة. من جوه «حدتو»، مجموعة «إسكرا» كوِّنوا منظمة اسمها «منظمة شيوعية مصرية» اختصارها «م.ش.م» منشقة على «حدتو». يعني كل اللي اتغير هي الأسامي «ح.م» بقت «حدتو» و«إسكرا» بقت «ميم شين ميم»! الخناقات زادت بدل ما تقل، ما كانوش بيقولوا لي، بس أنا كنت باحس بيهم وباشوفهم وهم بيتناقشوا، مش فاهمة الخناقات على إيه بالظبط، خلافات فكرية، بس يمكن كمان اعتبارات شخصية بينهم .

الحادث التاني اللي حصل وانا في أول تجنيدي والمرة دي أثر عليَّ بالوحش وما انبسطش أبدًا، بعد كام شهر من وجودي معاهم :

ـ فيه مؤتمر عام، حنجتمع كلنا، فيه خلاف وموضوع مهم حيناقشوه، إنتِ دلوقت عضوة ولازم تحضري وتفهمي وتتابعي وتاخدي موقف .

اجتمعنا في بيت «جابريللا». البيت في وسط البلد، كبير وفيه صالة واسعة مليانة ناس، كل الطلاينة اللي انا اعرفهم وناس تانيين كتير ما اعرفهمش. موضوع النقاش كان حول واحد من الطلاينة فاكرة اسمه ما انساهوش «جوليو لاوري» صحفي في «الشركة المصرية للإعلانات» اللي اسمها جريدة «الجمهورية» حاليًّا. بيحاكموا «جوليو لاوري» دا وتهمته: «اتصالات جانبية». فهِّموني إن «الاتصالات الجانبية ممنوعة خالص بالنسبة لأي عضو في منظمة شيوعية». أنا مش فاهمة يعني إيه اتصالات جانبية، «يعني الاتصالات بين بعض ممنوعة، الكلام والشكاوي والآراء لازم تكون عن طريق التصعيد إلى المسؤولين الأعلى في الخلية». «جوليو» المتهم بالاتصالات الجانبية كان بيقول :

ـ أبدًا، كنا بنتكلم مع بعض وانا من حقي أعبر عن نفسي .

كان فيه «هلال شوارتز» ومسؤولين تانيين، «هنري كوريل» ما كانش موجود. بالنسبة ليَّ الشكل دا كان وحش، كانوا عايزين يفصلوا «جوليو لاوري» من المنظمة علشان «اتصالات جانبية»، ما اعرفش مع مين. فاكرة ومتضايقة لحد دلوقت من المنظر دا، تلاتة أو أربعة يحاصروه بالأسئلة والاتهامات وبجسمهم كمان وهو يحاول ينكر ويقول :

ـ دا من حقي، دا مش غلط، أنا ما عملتش أي حاجة غلط .

الطريقة اللي عملوا بيها المحاكمة دي ضايقتني. وفيما بعد لما شفت أفلام عن محاكم التفتيش في أسبانيا في القرون الوسطى، حسيت إن في شبه كبير. «جوليو» كان في القسم الإيطالي واللي خلاني ساعتها آخد صفه هو إني ما كنتش فاهمة إيه الجريمة الكبيرة دي اللي اسمها «الاتصالات الجانبية». انتهى الأمر إنهم فصلوا «جوليو لاوري»، وانا ما شفتوش تاني .

على طول بعدها حصلت الانقسامات الكبيرة .

الحقيقة التواريخ مش واضحة ليَّ بدقة، ومش حادخل في تفاصيل دقة التواريخ علشان عمري ما اهتميت بيها، وبالتالي ما اقدرش افتكرها، لحَد دلوقت ما اعرفهاش كويس، وما درستهاش بعد كدا، يعني ما خدتش كتاب رفعت السعيد وقعدت أقرا، هو عمل رسالة في الموضوع .

أنا علشان افتكر التواريخ لازم احسب سنِّي في الوقت دا: التحول الكبير في حياتي حصل لما خلصت المدارس في يونيو 1946 لما صاحبتي «أنجيلا» قالت لي على جمعية الشباب «البيك» وجمعية «إيطاليا الحرة»، يعني كان عندي خمستاشر سنة وتلات شهور لما قابلت المجموعة دي. ارتبطت بيهم في كل الأنشطة، منها وباء الكوليرا والوحدة التاريخية الكبيرة بين المنظمتين «ح.م» بقيادة «هنري كوريل»، و«إسكرا» - «شرارة» - بقيادة «هلال شوارتز». وبعدين لما صدر قرار تقسيم أرض فلسطين من الأمم المتحدة وبعدها إعلان قيام دولة إسرائيل، خرج الجيش المصري مع الجيوش العربية يدافع في الحرب في 1948، وابتدت حملة كبيرة من طرف الحكومة المصرية للقبض على الصهاينة. أيامها كان لسه فيه الملك فاروق، والكفاح ضد الإنجليز والملكية كان على ودنه في كل حتة في مصر، فللأسف الحكومة المصرية انتهزت فرصة القبض على الصهاينة من تحت راس إسرائيل وقبضوا كمان على الشيوعيين المصريين، بَرضُه التفاصيل السياسية مش عندي لكن أعتقد شحاتة هارون كتب عنها. كان فيه كتير من الشيوعيين خواجات ومنهم يهود، ومن ضمنهم «هنري كوريل». دا معناه إن الفقرة دي من حياتي استمرت سنتين من 1946 إلى 1948، أنا باحسب التواريخ كدا .

في الفترة دي كمان كان المفروض أسافر إيطاليا علشان أكمل دراستي والشباب أقنعوني إن دي تطلعات برجوازية وإن الكفاح والنشاط السياسي أهم من دراستي، لغيت السفر إلي إيطاليا وكان عندي ستاشر سنة وقعدت أنشط معاهم في مصر، ومن ضمنها حملة الكوليرا. لغاية الوقت دا كان فيه خواجات ومصريين بالمئات في المنظمات الشيوعية، لكن شعور كتير من المصريين ضد الأجانب كان بيزيد بسبب الإنجليز والملك والاحتلال، وضد اليهود بسبب إنشاء دولة إسرائيل، والحكومة والرجعية كانوا بيستغلوا الشعور دا ويقبضوا على الشيوعيين والخواجات واليهود بدون تمييز مين صهيوني. الطلاينة الشيوعيين اللي في مصر عملوا مؤتمر واتفقوا إن مش ممكن الخواجات يلعبوا دور حقيقي في البلد في الأجواء دي لأن مهما يقولوا عن نفسهم إنهم وطنيين ومصريين، مفيش مصداقية بعد اللي حصل في فلسطين، وقرروا في المؤتمر إن كل واحد يروح لبلد أصله علشان يكملوا الكفاح بشكل يكون فيه مردود، يعني مش كفاح ع الفاضي. اللي له أصل طلياني يروح إيطاليا، أصل فرنساوي لفرنسا، ولكن كان فيه أرمن مثلًا يروحوا فين دول؟ يمكن الاتحاد السوفيتي على أساس إن جزء من أرمينيا كان تبع الاتحاد السوفيتي؟ وبعدين كان فيه يهود مصريين ملهمش أصول أوروبية يروحوا فين دول؟ حتى اللي لهم أصل يوناني مثلًا كان عندهم مشكلة لأن كان حصل انقلاب فاشيستي في اليونان بقيادة تلات جنرالات جيش، فكان خطر على الشيوعيين اليونانيين المصريين إن يروحوا اليونان. على أي حال الطلاينة قرروا يمشوا من مصر وابتدوا يعملوا أوراقهم .

- إنتِ حتروحي فين؟

- أنا معنديش ورق جنسية، أنا «apolide» - بلا جنسية - زي ابويا. مش انتم من سنة قلتوا إن احنا حنكافح هنا في مصر؟ وقلتوا الدراسة مش مهمة؟

ـ سفرك كان للمذاكرة، لأهداف برجوازية، علشان تحسِّني من وضعك الاجتماعي وتحصُلي على شهادات وكلام من دا. لكن دلوقت السفر قضية سياسية لأن مش ممكن الخواجات يكافحوا في مصر، مش حيقدروا يساعدوا، المصريين مش حيصدقوا إننا مخلصين، الدعاية أقوى مننا، فالوفاء الشيوعي الاشتراكي هو إننا نسافر .

ـ بس انا مصرية، مكتوب في شهادة ميلادي مصرية، مش حاسافر .

وقررت اقعد .

سافروا كلهم .

خدوا بعضهم واحد واحد، «ماريو بتروتشي» راح إيطاليا و«جو وليو باتينو»، و«ماكس كوهين» و«نينا» اتجوزوا وراحوا فرنسا، و«ريللي» أخت «نينا» راحت استراليا وبتيجي تزور مصر من آن لآخر وباشوفها، ومن سنِّي سافر «ليفيو دي روزا» و«جابريللا» اللي جندتني و«روميو» صاحبها اللي حبيته وما عبَّرنيش، وواحد كمان حوالي سبعتاشر سنة بيتعلم يبقى صايغ، يشتغل في المجوهرات وفي الدهب، حصلت حاجة رومانسية شوية بيني وبينه، بس في الحالة دي هو اللي كان ميَّال ليَّ، أنا ما كنتش ميالة له، عكس قصة «روميو»، المهم سافر هو كمان وراح إيطاليا وفقدت الاتصال بيه خالص ونسيت اسمه كمان زي ما انت شايفة .

الوحيدة اللي فضلت ـ من اللي أعرفهم في القسم الطلياني ـ هي أنا .

قبل ما الطلاينة يسافروا سلموني للقسم الفرنساوي. استلمني واحد اسمه «نيني أسِّين»، عرَّفوني عليه علشان يكمل عملية دروس الماركسية مكان «جابريللا». افتكرت الولد «نيني» دا فجأة وانا في العربية رايحة عند الدكتور «أفيديس»، دكتور السنان، عدِّينا قدام عمارة قديمة جنب مدرسة «الفرنسيسكان» قصاد الأنتكخانة، ساعتها كانت طوب رملي أحمر، دلوقت بيَّضوها، لكن دي عمارة «نيني» وكان ساكن في الدور التالت أو الرابع. في القسم الفرنساوي ـ يظهر كانوا منظمين أكتر من الطلاينة ـ عندهم كورسات للماركسية: كورس نمرة 1، نمرة 2 ، نمرة 3 . ابتديت مع «جابريللا» بالطلياني وكملت مع «نيني » بالفرنساوي. الفرنساوي ما كانش مشكلة، الولد هو اللي كان صعب، أكبر مني بشوية مش كتير، رفيع وشعره نص أصفر وأكرت، وكان عصبي جدًّا ومكشر طول الوقت. وشُّه المكشر دا خلاني مش قادرة استوعب ولا اتجاوب مع اللي بيقوله، بيسأل بعصبية :

ـ فاهمة ولا مش فاهمة؟

تجربة مش لطيفة. وانا ما فهمتش هو ليه عصبي ومتضايق، يمكن كلفوه يدرِّس لي وهو مش عاوز؟ ولَّا لقاني مش مصحصحة؟ ولَّا عايز يسافر وقاعد غصب عنه؟ ولَّا عايز يقعد ومسافر غصب عنه؟ ولَّا خايف؟ إدَّاني درس أو درسين بس الحمد لله سافر هو كمان من ضمن الناس اللي سافروا، وانتهى الأمر على كدا وما شفتوش تاني ولا عرفت عنه أي قصص. واحنا فايتين بالعربية قدام بيته

افتكرت الأسانسير الجميل، حديد زهر وإطار الخشب، كنت باشوف السلالم من القزاز وانا طالعة له .

*

الشيوعيين الفرنساويين وهم ماشيين سلموني لخلية شيوعية مصرية والمسؤول عنها وعني كان واحد اسمه عبد الستار الطويلة، عضو في اللجنة المركزية للمنظمة، مش بالانتخاب ومش علشان يستحق، إنما بالتصعيد: يعني لما اتقبض على أعضاء اللجنة المركزية، صعدوا الصف التاني من أعضاء الحزب للقيادة وبقوا هم اللجنة المركزية، ولكن اتقبض على الصف التاني كمان فانتهى الأمر إن واحد زي عبد الستار وعدد من شباب الشيوعيين مسكوا القيادة. أعتقد إني قابلته في بيت واحد اسمه فؤاد بلبع في العباسية، عرفت بعد كدا إن عبد الستار كان مسؤول عن الجهاز الفني، يعني المطبعة، وحطّني في «جهاز » توزيع المنشورات. كان فيه رغبة من القيادات اللي في السجن إن الجهاز الفني بالذات يستمر، والمنشورات ضروري ضروري بأي شكل لازم تستمر تطلع وتتوزع، علشان يدُّوا إحساس للبوليس وللحكومة إن عدد الشيوعيين كبير وفيه غير المقبوض عليهم أعداد ياما برَّه. بالطريقة دي أنا دخلت تنظيميًّا في خلية لتوزيع المنشورات، والنظام إن حد يديني منشورات ويديني طريقة اتصال مع ناس أنا مش فاكرة ولا أساميهم ولا الأماكن اللي باقابلهم فيها، أفتكر نفسي طشاش وانا باسلم منشورات .

كان المفترض إن انا مش باثير أي شكوك لأن شكلي أجنبية، بيضة شوية وشعري على الموضة: كانت طلعت تسريحة من ممثلة فرنسية اسمها «دومينيك بلانشار» عملت فرانشة يعني قُصَّة منزلة شوية شعر على القورة، عجبتني القُصَّة لإني كنت متعقدة إن قورتي مش واسعة كفاية، على أساس إن القورة الكبيرة تدل على الذكاء والقورة الصغيرة تدل على الغباء. دا غير إن قورتي دوغري مش مدورة. لقيت طريقة الفرانشة أو القُصَّة اللي تنزل لغاية الحواجب، ممكن تنفعني وتخبي قورتي. القورة الواسعة موضة انتشرت من تكوين الممثلات الأمريكانيات، عندهم قورة «bombée» مقورة واسعة وعريضة. في عز النشاط مع الطلاينة، محاضرات وثقافة وكفاح وشيوعية وتحرر وطني وكوليرا، كنت مهتمة باللبس ورحت خدت كورس تفصيل عند «بروفيلي» لمدة شهر، واتعلمت القصّ وعمايل الباترون وابتديت أفصل لنفسي على الموضة. كنت باحاول ألبس شيك، باحب الهدوم، وأمي كانت بتشجعني طبعًا. الجماعة الشيوعيين هنا قالوا :

ـ دي حتكون كويسة قوي بعيدة عن كل الشبهات .

أشيل شنطة سوق كبيرة، أحط جواها المنشورات واسلمها لناس معينة في مكان معين. وانا باحكي ابتديت افتكر كان بيحصل ازاي، معظم الأعضاء كانوا لسه طلبة في الثانوية العامة وكانوا محتاجين لدروس لغات، أروح عندهم في البيت أدِّيهم دروس فرنساوي علشان الامتحانات. كان فيه طالب في العباسية كنت باروح أدِّي له درس، تحت اسم إن أنا مدرسة فرنساوي، أسيب عنده المنشورات وانزل بشنطة الخضار فاضية وآخد فلوس الدرس ياخدها مني عبد الستار الطويلة، أنا شغلي كان تطوع للعمل السياسي . كل دا أبويا وأمي ما يعرفوش حاجة، قلت لهم بشكل عام اني بادِّي دروس، ما دققوش .

اتعرفت على أعضاء أول خلية، عايدة أخت إجلال السحيمي، عايدة كانت بتدّي دروس إنجليزي علشان تعليمها إنجليزي، كانت ساكنة في الزمالك وبَرضُه المفروض إن شكلها البرجوازي ما يثيرش شكوك البوليس. والتالتة كانت اسمها عليَّة، افتكرتها دلوقت وانا باحكي وافتكرت اسمها كمان. عليَّة بنت محمود باشا كانت ساكنة في جاردن سيتي في بيت شيك وعندها مربية فرنسية بتربيها من أيام ما اتولدت. المربية الفرنسية سمتها «آلييت» علشان يبقى اسمها فرنساوي وكانت بتاخدها في الصيف تفسحها في فرنسا، على حساب أبو عليَّة، الباشا، وترجعها مصر بتتكلم فرنساوي مِية في المية، أظن إنها كانت بتدرس في مدرسة «الليسيه». عليَّة عزمتني على الغدا عندهم، تجربة ظريفة، الباشا محمود راجل كبير في السن يقعد على السفرة وأمها ست مصرية تخينة ما تعرفش تقرا عربي، تشبه شوية لمرات النحاس باشا، عندها سفرجي وطباخ، غير الدادة المربية اللي كانت بتقعد معانا على السفرة. عليَّة قالت لهم :

ـ عايزة اعزم واحدة صاحبتي تتغدى معانا .

فقعدوني على السفرة جنب «آلييت». الأكل بيطبخه الطباخ باستثناء اللحمة، بينما إحنا قاعدين على السفرة بناكل، تقوم المربية في نص الأكل تروح المطبخ تعمل الفيليه أو الأنتركوت «à la minute» ـ يعني في ساعتها ـ بإيديها والسفرجي والطباخ واقفين، اللحمة تيجي سخنة من على النار وناكلها في ساعتها والسفرجي يخدِّم علينا .

من الناحية التانية أنا كنت محتاجة لدروس عربي علشان خواجاية ما باتكلمش عربي إلا بسيط وعليَّة تعليم فرنسي نفس الشيء ما تعرفش عربي تقريبًا. عبد الستار الطويلة ييجي عند عليَّة على الساعة تلاتة بعد الغدا على أساس إنه مدرس العربي، لابس بدلة وطربوش. كان عنده خطوة واسعة، وزرِّ الطربوش يتهز وهو ماشي بطول البيت، والبيت كبير، لحد ما ندخل في الاستوديو يعني المكتب. إدانا فعلًا دروس عربي وكتاب عربي وشوية واجبات، ما دام احنا بنكافح مع الشيوعيين المصريين لازم العربي بتاعنا يكون كويس. أنا و«آلييت» اتصاحبنا أكتر من عايدة السحيمي لإن كنت باشوفها أكتر. «آلييت» حبِّتني لدرجة إني عزمتها على الغدا عندنا في بولاق. قلت لأبويا وأمي إن فيه واحدة صاحبتي عزمتني على الغدا عندها وعايزة اعزمها عندنا. ما اعرفش قلت لهم اتعرفت عليها ازاي، بس إنتِ عارفة إن أبويا وأمي بيحبوا الأكل ويحبوا يطبخوا ومكرونة أمي حلوة، وجت عليَّة اتغدَّت معانا والمرة اللي بعدها جابت دادتها، الست المربية الفرنسية، عايزة تطمن، وانبسطت من جو البيت عندنا. إحنا كنا ساعتها لسه ساكنين في شارع نعيم على فكرة، يعني حتة متواضعة جدًّا. أنا وعليَّة كنا بنعمل المغامرات دي كأننا بنتفسح، نقعد مع بعض نتغدى سوا وناخد وندي دروس ونروح السينما ونوزع منشورات. أقصد أقول إن ما كانش عندنا الإحساس بالخطورة . ما كناش خايفين خالص .

اسم عبد الستار الطويلة الحركي كان «فتحي» وهو من اللي بيسموهم «المحترفين الثوريين»، يعني يسيبوا شغلهم والمنظمة تصرف عليهم من اشتراكات الأعضاء، مهنته «ثوري» متفرغ، ساب بيته وعايش في حتة مش معروفة يحرس المطبعة وينظمنا. دي بقى كانت مسؤوليته في اللجنة المركزية. الاتصال به كان عن طريق تلفون الشركة اللي باشتغل فيها «جون ديكنسون» لتصدير

وتوزيع ورق الكراريس، شركة ورق إنجليزية كبيرة. بعد كام درس عربي، عبد الستار الطويلة بالطربوش، بطَّل ييجي، اختفى أيام وبعدين كلمني في تلفون الشركة وقال لي :

ـ أنا هربان، جم يقبضوا عليَّ وهربت، حنغير مكان المقابلة، المرة دي نتقابل في شارع قصر النيل، حنكمل شغلنا عادي .

أنا رديت :

ـ آه طبعًا .

عمارة كبيرة واخدة زاوية شارع قصر النيل وفيها محل كبير يمكن «صيدناوي» أو «داود عدس». عبد الستار أجَّر أوضة من أوَض السفرجية والطباخين فوق السطوح .

رحت له، الواحد يطلع بالأسانسير لغاية آخر دور وبعدين ياخد سلم الخدامين للسطوح. أوضة عادية. كملنا دروس علشان ضروري أتعلم عربي، وادَّاني اسم حركي، وكتبت اسمي الجديد على كتاب العربي: «فضيلة»، واستمريت أدِّي دروس فرنساوي ولكن لطالب جديد، فين بقى؟ في القلعة، حتة شعبية، واحدة زيي شكلها خواجاية إلى حد كبير تعدي هناك، أكيد ملفتة للنظر ومثيرة للشبهات. كنت باخد الشارع اللي بيطلع على القلعة وبعدين شمال في شارع محمد علي اللي ساكنين فيه عائلات الناس اللي بيرقصوا في الأفراح، الشاب الجديد دا بيته في واحد من الشوارع الجانبية. عيلة الشاب عيلة محترمة، ما حسسونيش بحاجة تضايقني، بيت بسيط، كنبة بسيطة، أبسط من بيت طالب العباسية، بس مش دا المهم، المهم هو إني كنت باجيب له المنشورات في القلعة! أستلم المنشورات واروح شارع محمد علي، أدِّي له الدرس واسيب له المنشورات وانزل اروَّح. أخش عندهم بشنطة مليانة منشورات واطلع بشنطة فاضية، واحط قماش أو خضار أو أي كراكيب علشان ما يبانش إنها فاضية. الشغلانة دي استمرت مدة، لكن عليَّة ـ «آلبيت» ـ اختفت من حياتي .

بعد بيت القلعة كان فيه بيت بين العباسية والحدايق. بيت قديم شيك مش عارفة جابوه منين، وادّوني كلمة سر علشان استلم المنشورات، جملة نتأكد بيها من بعض. هل دا البيت اللي فيه المطبعة؟ خبَّطت على الباب وقلت كلمة السر ودخلت، المنشورات تحت، فوجئت إن لازم اطلع فوق أخرج من باب غير اللي دخلت منه، احتياطي علشان لو حد شافني وانا داخلة، ولكن في نفس الوقت مش عايزين حد من أهل البيت يشوفني فمش ممكن استخدم السلالم الداخلية. فيه علبة أسانسير بين الدور التحتاني والدور الفوقاني، تجويف صغير نص متر في نص متر، يظهر أسانسير أكل، المطبخ تحت والناس اللي حتاكل ساكنة فوق. الشاب عايزني أدخل الأسانسير المربع دا، وهو بمنافيلا بحبال من الدور الفوقاني يسحبني. جيت ادخل في الأسانسير، أنا ما كنتش نحيفة، مش تخينة زي دلوقت بس كنت مليانة، وكنا بنقول بين بعض أنا وعليَّة إني محتاجة اخس، بس مش عارفة، أصلي باكل كتير. دخلت الأسانسير أنا والمنشورات والشاب ابتدا يطلعني بالمنافيلا، بس الحكاية تقيلة عليه، تِعِب، يرفع شوية وبعدين يسكت، ويرجع يحاول تاني، وانا جوه العلبة بافكر «مسكين الشاب دا». والله كان في منتهى الأدب، كنا بنعمل شغل سياسي حقيقي ولا انا قلقت مثلًا إني قاعدة لوحدي مع شاب في سني أو أكبر شوية، ولا هو فكَّر في معاكسة، وحتى لو فكَّر ما ورَّانيش ولا عمل أي حركة

زيادة عن إن احنا ثوريين وبنعمل عمل ثوري شديد ومهم وخطير ولازم ناخد بالنا من البوليس. في النهاية مسكين نجح، وخرجت من خرم صغير مربع، وهو ساعدني بإيده، فانا قلت له :

ـ أنا آسفة على التعب، ما كنت اطلع من الباب اللي تحت أو على السلم وخلاص .

فقال :

ـ لا، لا يمكن، علشان الأمان لازم تطلعي بالطريقة دي .

وخدت المنشورات اللي طبعوها في الشنطة وخرجت بيها من البيت. مش فاكرة ودِّيتها لمين ولا فين. مشيت من البيت من غير ما اعرف هو مين ولا اسمه إيه، فضلت فاكراه لأن مغامرة محرجة. ما شفتش الشاب دا تاني إلا بعد حوالي 40 سنة وكان اتجوز إجلال السحيمي أخت عايدة، وعرفت بقى ان اسمه عبد الحميد السحرتي، ما اتكلمناش في الموضوع وانا ما سألتوش، يا ترى افتكرني؟ عليَّة «آلبيت» كمان ما شفتهاش إلا بعد ما فاتت سنين طويلة وبالصدفة في اسكندرية في الحي اللي كنا بنصيف فيه عند فتحي رضوان، العصافرة. شفتها ماشية على الكورنيش رايحة جاية بأرستقراطية شديدة وماسكة كلب وولف، صغير في السنِّ لكن عالي، تقريبًا طولها، كانت كبرت طبعًا بعد كام سنة بس زي ما هي ما اتغيرتش، يمكن طولت شوية، ممكن لأن سننا كان أقل من 18 سنة لما اتقابلنا في الأول. ناديت عليها :

ـ «آلبيت»! «آلبيت »!

عرفتني :

ـ «ماري»! ازيك؟ «Comment ça va?».

دا بعد ما انا اتحبست مرتين وخرجت ويمكن كنت خلفتك كمان، يعني يمكن بعد 15 سنة من آخر مرة وزعنا منشورات سوا. قلنا حانشوف بعض تاني أكيد ولكن ما حصلش .

نرجع لعبد الستار الطويلة، المسؤول عني وعن عملية الجهاز الفني «المطبعة». كلمني عبد الستار تاني في الشغل :

ـ ما تجيش الأوضة، قابليني في محطة ترماي باب اللوق، تمشي ورايا كأنك ما تعرفينيش، حاكون لابس جلابية بيضة .

كان لسه فيه ترماي أيامها. وفعلًا رحت لقيته ماشي يبص يمين ويبص شمال بالجنب بشكل مريب، واتأكد إن انا شفته ومشيت وراه، مش عارفة رحنا فين، حكى لي إن البوليس هجم على أوضة السطوح :

ـ وانا هربت من السلم التاني .

فيه سلَمين في العمارة :

ـ خرجت لابس جلابية بيضة افتكروني من الخدامين وما عرفونيش .

ساب الأوضة باللي فيها وهرب، ومن ضمن ما فيها الكتاب والكراسة اللي كنت باتعلم بيهم عربي، ولكن الحمد لله إن على الكراسة والكتاب مكتوب اسمي الحركي «فضيلة» مش اسمي الحقيقي: هي دي بقى فايدة الأسماء الحركية. المقابلات أصبحت بالطريقة دي، يكلمني في الشغل ويديني ميعاد في محطة ترماي أو أتوبيس، أشوفه ويشوفني وما نكلمش بعض، ييجي الأتوبيس يركب هو درجة تانية وانا اركب درجة أولى. ولما ييجي مكان النزول يفوت قدامي لو قاعدة على كرسي أقوم من غير ما نبص لبعض، ينزل وانا انزل وراه، يمشي وانا امشي وراه على مسافة. عبد الستار سكن مع «زميل» عايش مع أمه وانا حسّيت إنهم بياخدوا منه إيجار. أكيد كانوا مخبيين المطبعة هناك، والزميل دا كل اللي اعرفه عنه إن اسمه الحركي «عبد النبي»، مش فاكرة اسمه الحقيقي. كنا «خلية» أنا وعبد الستار والزميل «عبد النبي ».

فاكرة بيت السيدة زينب لأنه كان آخر بيت .

الشغل السياسي كان محصور في كدا: تمويه للبوليس السياسي، وتمويل من خلال دروس الفرنساوي اللي بادّيها، وتوزيع المنشورات اللي بتتطبع .

طول السنة دي تقريبًا والبوليس بيدوَّر على الجهاز الفني، اللي هو المطبعة، يا اللي انا عمري ما شفتها المطبعة دي! باخد المنشورات اللي بيطبعوها لكن ما اعرفش بيطبعوها إزاي. طباعة رديئة على فكرة. أيامها كنت باعرف عربي قليل، والمنشورات مكتوبة بالعربي طبعًا، كتابة كتير وضيقة. مش مثلًا يطبعوا بحروف كبيرة شعارات أو أفكار محددة، لا، صفحتين تلاتة وكتابة صغيرة وكلام كتير مدبسة من هنا ومن هنا. يلّا معلش، كانت طريقة بدائية عملية نشر الفكر الشيوعي في المجتمع المصري. أعتقد إن قليلين اللي كانوا بيقعدوا ويقروا المنشور دا من الأول للآخر .

في السنة اللي انا اشتغلت فيها مع عبد الستار غيَّر مكان سكنه تلات مرات. مرة كان عند فؤاد بلبع في العباسية أو في الحدايق مش فاكرة كويس، بعد كدا راح في أوضة الخدم على السطوح، فوق «داود عدس» في شارع قصر النيل، ومرة تالتة في السيدة زينب في بيت «عبد النبي». لو نروح السيدة أوريه لك، ورا الجامع، وانتِ جاية من شارع المبتديان والجامع في وشك الحارة تبقى على يمين الجامع، الواحد يمشي مسافة في الحارة دي وبعدين يدخل في حارة تانية صغيرة يمين وبعدين شمال، بيت شعبي طبعًا في حارة صغيرة ومش ممكن حد يفوت منها إلا من سكان الحتَّة. أكيد من أول مرة أنا رحت خدوا بالهم إن فيه حد «غريب»، تصوَّري إن المفروض بالعكس، المفروض إن المكان دا يكون في منتهى الأمان والسرية والاحتياطات من البوليس .

المشكلة اللي عرضوها عليَّ، عبد الستار وزملاته أحمد الرفاعي وأنور عبد الملك وواحد أظن اسمه لمعي، إن عايزين يأجروا بيت يحطوا فيه المطبعة، بس لازم يكون ساكن فيه اتنين متجوزين

عاديين علشان ما يلفتوش نظر البوليس يوافقوا إن بيتهم يبقى «الجهاز الفني»، ما لقوش، ودا المفروض السبب اللي علشانه حصل الجواز بيني وبين عبد الستار الطويلة. سألوني :

ـ مستعدة تتجوزي؟

وانا كنت مستعدة لكل شيء، كنت في حالة تنويم مغناطيسي، جو من السرية ومن المغامرة والمؤامرة والكفاح ضد البوليس فما كنتش باحسب أي حساب .

ـ هل شرط علشان تتجوزي إن الشخص دا يكون مسيحي؟

أنا لقيت السؤال غريب شوية، أنا فاهمة إن انا لو حاخش في العمل السري وابقى محترفة، حاسيب الحياة العلنية، حاسيب البيت وحاهرب من عند ابويا وامي، إزاي ممكن في الظروف دي يسألوني مسيحي ومسلم؟ تفرق في إيه؟

قلت لهم :

ـ لا مش شرط .

وكمان الحقيقة إني ما كنتش واخدة بالي قوي إن المصريين مسيحيين ومسلمين، المصريين مصريين ـ عرب ـ الخواجات هم اللي مسيحيين ويهود، آخر لخبطة في دماغي .

قعدوا يفكروا وفي النهاية يظهر ما لقوش طريقة تانية علشان يخبوا المطبعة دي. فجه عبد الستار الطويلة وقال لي :

ـ عندك مانع إننا نتجوز؟ أو نعمل نفسنا متجوزين؟ ونقعد في شقة ونكوّن خلية الجهاز الفني؟

ـ لا معنديش مانع .

واضح إن انا كنت عبيطة أكتر من اللازم، هو كان عنده 22 سنة وانا بعد شهر حاتمّ 18 سنة، فقال لي :

ـ بس لازم نعمل عقد جواز .

ـ نعمل، مش مشكلة .

قطعًا هو لاحظ إن انا أقل وعيًا من تصوُّره لأنه قال :

ـ ممكن نعمل جواز عرفي بشهود، لأنه مستحيل نعمل جواز حقيقي بمأذون من غير أوراق .

أنا دلوقت باتساءل إيه هي الأوراق اللي كانت ناقصة، عبد الستار كان هربان من البوليس وبيدوروا عليه مختفي في الحياة السرية للتمويه علشان ما يقبضوش عليه، أوراقه هو اللي ناقصة ولّا أوراقي أنا اللي ناقصة؟

في يوم، اتعمل عقد الجواز العرفي في بيت أحمد الرفاعي، كان ساكن مع درية مراته في القصر العيني من ناحية المنيرة قدام الشارع اللي بيروح الجامعة، حارة صغيرة جوه. بَرضُه مكان غلط، ما كانش المفروض إن انا أروح الحتت دي علشان لو فيه بوليس سياسي مراقبهم بيلاحظني على طول. الجواز دا كله فيه عدم نضج ونوع من الاستغلال، لأن واحدة أجنبية ماشية في السيدة زينب ملفتة للنظر، الجواز ما ساعدش في التمويه. على أي حال اتعمل عقد الجواز بوجود أحمد الرفاعي كشاهد وأنور عبد الملك الشاهد التاني اللي لازم أقول إن لما بافتكره دلوقت كان الوحيد اللي مش مرتاح للعملية دي كلها .

عبد الستار استريح كدا وبقيت أقابله في بيت السيدة زينب .

ابتديت انزعج من العلاقة دي اللي دخلت فيها، من ناحية إيه؟ بعد أسبوع عشر أيام عبد الستار قال لي إن عبد النبي وامه ناس فقرا، فحقتي لما آجي أجيب معايا كيلو رز أو كيلو سكر، شوية شاي، بقالة زي دي. أنا ما كانش عندي فلوس، باشتغل سكرتيرة وفي بداية الشغل والمفروض حيزودوني بعد مدة، لكن باقبض ستة جنيه وبادّي الفلوس للبيت، لابويا وامي، فمش عارفة أعمل ازاي علشان أجيب رز وسكر. عندنا في البيت فيه دولاب صغير بيحطوا فيه مثلًا اتنين كيلو سكر خزين غير اللي في علبة كل يوم، خدت كيلو سكر ومش عارفة شاي ولّا إيه تاني من خزين البيت. حسيت مش مظبوط أعمل كدا في أهلي وحسيت إن دي سرقة، وأمي قعدت تسأل: «إنتِ خدت السكر؟ طب إنتَ خدت السكر؟» ليَّ ولابويا ولـ«برتو» اللي كان عنده 13 سنة، وانا أقول لا، كلنا بنقول لا، وبقى لغز في البيت إزاي ممكن يختفي السكر، لغز إن تموين يختفي من البيت. كان عقلي صغير، والله مش عارفة إيه اللي حصل لي، بس عملتها مرة وبعد كدا ما عملتهاش تاني وابتديت أحاول اشتري .

الفترة دي ما استمرتش كتير، يوم تلاتين مارس 1949 - عيد ميلادي الـ18 وكان المفروض آخر النهار أرجع البيت ونحتفل مع أهلي - وانا خارجة من الشغل الساعة واحدة عبد الستار اتصل بيَّ وقال عندنا اجتماع خلية في السيدة زينب. ركبت الترماي اللي بيروح من شارع التحرير لغاية ميدان السيدة زينب. كنت حفظت السكة وأصبح مفيش داعي إن عبد الستار يقابلني ويمشي قدامي في الشوارع. وصلت بيت عبد النبي، كان فيه شوية سندوتشات فول وطعمية على المكتب علشان نتغدى ونبتدي شغل، يعني اجتماع خلية، يمكن كان فيه أوراق مطبوعة على الترابيزة مع السندوتشات؟ يا دوبك أنا قعدت على المكتب ولقيت الباب اتفتح واربع خمس رجالة دخلوا البيت وانتشروا في كل حتة وواحد مسكني من دراعي. مش فاكرة لو أم عبد النبي فتحت الباب ولّا هم اقتحموا، كنت قاعدة بالظبط زي ما انا قاعدة قدامك دلوقت، عبد الستار قام وقف، فهم أسرع مني، مسكوه هو كمان وابتدوا يفتشوا البيت. فين وفين لما فهمت ان دا البوليس، رجالة لابسين مدني وانا في حالة الـshock - صدمة - حصل لي نوع من البلادة أو الشلل في المشاعر والأفكار، اكتشفت إن بابطل افكر وما باشعرش ولا بالخوف ولا بالزعل ولا بافهم أي حاجة. فعلًا فضلت واقفة كأن إيه باتفرج على فيلم، مش على أحداث بتحصل لي وانا جزء منها. خدوا عبد النبي، قبضوا عليه هو

كمان، وعرفت بعدين إنه يا عيني كان شيوعي مبتدئ ويا دوب مترشح للعضوية، فكان زعلان جدًّا من خراب بيته من تحت راس عبد الستار الطويلة. وخدوا عبد الستار الطويلة طبعًا وما شفتوش تاني إلا في المحكمة لما اتعرضت قضيتنا .

البوليس خدني، حطوني في الكاميون وودوني سجن الأجانب. مش فاكرة التحقيق حصل في سجن الأجانب ولَّا في قسم السيدة. في التحقيق بسرعة سألوني على اسمي وعنواني وعلى معلومات عني، وانا رديت عليهم بكل صراحة، فراحوا البيت عندي، عند أبويا وأمي، وفتشوا، ما كانش فيه ولا منشورات ولا غيره في البيت فخدوا الصور العائلية، خدوا صور كتيرة ودي كانت أكبر خسارة .

حاجتين لفتوا نظري في سجن الأجانب: أولًا إن السجانات النباتشية كانوا بنات صغيرين، شابات مش شاويشات كبار في السن، والمفاجأة التانية إن السجن كان بيت مش عنابر وزنازين. شقة زي دي فيها أوَض بكذا سرير للمسجونات اللي بتوصل. بيجي لنا الأكل من بره، من مطعم تحت البيت، ما كناش بنطبخ، وكان فيه اتنين أو تلات ستات بيخدموا، يمسحوا وينضفوا المكان. بيت مفتوح، فيه حرية للتحرك جوه الشقة، مفيش طريقة للهروب، باب الشقة الكبير مقفول وحديد على الشبابيك وكنت باشوف الهلال الأحمر من شباك سجن الأجانب .

فردوس، واحدة من السجانات، أصغر واحدة فيهم، شابة عندها 20 سنة تقريبًا، تعرف شوية كلمات انجليزي، وبتحب تأكد إنها تلميذة وبتذاكر من منازلهم. مشيتها وكلامها بتقول إنها متعلمة. الموضة بالنسبة لتسريحة الشعر تشبه طريقة أم كلثوم بالفرق في الوسط وملموم لورا. أول مرة أسمع عن وزير للتعليم اسمه طه حسين كان على يد السجانة الشابة فردوس، كانت بتعبده. ما اعرفش كان وزير ساعتها ولَّا لسه، بس طه حسين خلَّى التعليم مجاني وهي واضح كانت بتستفيد من دا، تشتغل سجانة وتدرس من منازلهم. كان فيه سجانة تانية نباتشية، بس أنا مش فاكرة السجانة التانية دي خالص، بافتكر فردوس بالذات علشان كانت بتكلمنا، بتكلمني أنا بالذات. اتأثرت منها ومن الطريقة الشاعرية اللي بتتكلم بيها عن طه حسين، إنه ضرير وإنه مُكافح، فردوس، مش بانْساها أبدًا .

اتنين بس من المسجونات أفتكرهم، واحدة إيطالية يظهر بترقص في الكباريهات، وبتمدح في «la chute de hanches» - سحبة مؤخرتها - «من الوسط لغاية الركبة من ورا خط واحد من فوق لتحت، مفيش كلاكيع». يمكن اعتُقلت لأسباب آداب وتهم زي دي لكن كانت بتتكر وبتدافع عن نفسها، محطوطة في سجن الأجانب في سبيلها إن تنطرد من مصر وترُوح إيطاليا .

مسجونة تانية وصلت هي وبنتها، فلسطينية، إحنا ساعتها كنا في أبريل تسعة واربعين بعد إعلان دولة إسرائيل في تمانية واربعين، ودا موضوع ما كنتش متابعاه ولا فاهمة قوي موضوع فلسطين، في البيت ما جاتش السيرة، وفي الاجتماعات اللي كنا بنعملها أثناء السنة الأخيرة في الخلية المصرية كانت مركزة على المنشورات وتوزيع المنشورات، ومين اتقبض عليه ومين ما اتقبضش عليه. يمكن السنة اللي قبلها كان فيه شوية مناقشات سياسية في القسم الإيطالي، وكلام عن الصهيونية «قد إيه غلط» لأنها عنصرية، وان احنا الشيوعية نبقى «عكس الصهيونية»، كان فيه

شوية توعية سياسية في اللي بيحصل حوالينا، بس بَرضُه مش كتير أو مش كفاية. إنما أول ما رحت مع المصريين ما كانش فيه أي كلام في السياسة. طول السنة اللي معاهم لحد ما اتقبض عليَّ عشت مش دريانة باللي بيحصل في الدنيا من أحداث، لغاية ما ـ زي ما باقول لك ـ اتقبض عليَّ ورحت سجن الأجانب وقابلت الست الفلسطينية دي. ست تختوخة وبيضة، بنتها عندها زي عَشر سنين، خدوهم من على الحدود، بيهربوا من فلسطين، حطوهم في سجن الأجانب معانا هي وبنتها لغاية ما يبتوا في حالتهم. جوزها وابنها كانوا في قسم الرجال، في الشقة اللي قصادنا، وبشوية الفلوس اللي معاها تبعت تجيب عيش فينو وموز وتعمل سندوتشات موز، وتستنى إن الباب يتفتح ـ كانوا بيفتحوا الباب بانتظام علشان يدخَّلوا الأكل ـ فجوزها يقعد في مدخل شقة الرجالة وهي على مدخل شقة الستات، وتناولهم سندوتشات الموز .

دي كانت أول مرة أنتبه إن فيه ناس بتهرب من فلسطين، وبعدين إيه، مش بس بيهربوا دا كمان بيتقبض عليهم على الحدود المصرية وهما جايين .

الست الفلسطينية دي ما كانتش بتعرف أي لغة غير عربي فلسطيني وانا كنت باتكلم عربي مصري قليل، فما بالك بقى عربي فلسطيني، مين عمل مُترجم؟ بنتها اللي عندها عشر سنين. نقعد أنا وفردوس نسألهم. الست تحكي والبنت الصغيرة تعرف انجليزي طشاش وفردوس ما تعرفش إنجليزي تقريبًا خالص، وانا اعرف شوية انجليزي بس بَرضُه بسيط، وقعدنا نتكلم ونتفاهم ونفهم فيه إيه، وإيه حكايتهم الناس دول، بالانجليزي، عن طريق البنت الصغيرة اللي كانت في غاية الذكاء، لما ما كانتش بتعرف كلمة، كانت بتلاقي، بتخترع طرق علشان تفهمني بالإشارة وبالصوت .

الفترة اللي قضيتها في سجن الأجانب كانت قصيرة. يظهر ودُّوني سجن الأجانب متصورين إني أجنبية عندي جنسية تانية وبالمرة حيطلعوني من البلد، لكن اتضح لهم إن انا معنديش بلد تاني، معنديش جنسية تانية، فنقلوني سجن مصر .

كنت قاعدة في شقة سجن الأجانب بقميص نوم وروب، أمي وأبويا جابوهم لي، يوم النقل لسجن مصر لبست اللبس اللي اتقبض عليَّ به، اللبس اللي كنت لابساه علشان عيد ميلادي. جونلة مربعات أبيض واسود بالورب. كنت باحب الجونلة دي، قماش كوردونيه آخر موضة مش بيتكرمش بسهولة وبلوزة كمام «جابونيز ترواكار» يعني ولا نص كم ولا كم طويل، بَرضُه آخر صيحة، كان اختراع جديد. وإيه تاني؟ آه وسط الجونلة كان ضيق لكن من تحت كانت بتوسع فجأة عند الهانش، فكانت بتعمل تموجات بيسموها «جوديهات»، حتعرفي يعني إيه جوديهات، حابقى اوريهم لك على فستان اتنشر في آخر عدد من مجلة «حواء». لابسة آخر موضة وعاملة فرانشة ومش فاكرة لو مسيِّبة شعري ولَّا ملموم «ديل حصان» زي ما بيسموه هنا. دَخلُّوني عند مأمور سجن مصر باللبس دا، في نفس اللحظة دخلت واحدة باين عليها أجنبية، لابسة عادي مش على الموضة، المأمور ادَّاها باكو قطن كبير وحاجات تانية وقال لها :

ـ أبوكِ اللي باعتها لك .

وشاور عليَّ :

ـ دي شيوعية جديدة .

فهي بصت لي وابتسمت ابتسامة رقيقة ومشيت. ما اعرفهاش، وما ركزتش معاها، كنت مشغولة بمسألة دخولي السجن .

إجراءات الدخول: الأول أسيب كل حاجة خاصة بيَّ في الأمانات، الساعة والإسورة الدهب ولو فيه فلوس، ولو إن ما اظنش كان معايا فلوس، مش فاكرة بيسموه إيه، بس الإجراء دا له اسم معين. الست السجانة اسمها توحيدة ريسة السجانات: ست ضخمة لابسة اللبس العسكري وساعات تلبس بالطو أبيض. كبيرة في السن نسبيًّا، أكبر من فردوس، حطت إيدها التقيلة على كتافي وعلى رقبتي من ورا وسحبتني، عندها ابتسامة خفيفة ومش باين تعبير على وشها، لا كويس ولا وحش، ولا تعاطف ولا كراهية، بس انا ما كنتش مركزة، بَرضُه رهبة دخول السجن ما كانتش مخلياني أهتم بالتفاصيل، لسه، فيما بعد التفاصيل دي أصبحت كل حياتي .

الريسة توحيدة سحبتني من أوضة المأمور للحوش، ومن الحوش لبوابة حديد كبيرة لحوش تاني فيه مبنى صغير، فيما بعد عرفت إن دا مغسل ومكوة لمسجونات الأشغال الشاقة. الستات مش بيكسَّروا الحجر في الجبل زي الرجال، بيقضوا الأشغال الشاقة غسيل ومكوة في المبنى دا. لمحت سجَّانتين شكلهم أصغر، بيتفرجوا عليَّ وانا مسحوبة مع توحيدة. بعد المغسل على اليمين بوابة حديد كبيرة وعالية: بوابة العنبر. العنبر اربع ادوار، تلات ادوار فوق للمسجونات اللي واخدين حكم، لابسين الميري، لبس السجن، اللي هو عبارة عن جلابية بيضة بيسموها الشوال، والدور الأول للمسجونات اللي لسه تحت التحقيق ودول بيفْضَلوا باللبس الملكي، لبس بيوت، لبسهم .

العنبر طويل، طوله كيلومتر. ما اعتقدش كيلومتر، بس طويل قوي قوي قوي قوي، أكتر مما تتصوري. التلات ادوار اللي فوق عنابر، الزنزانة بتاخد حوالي عشرين نفر، الدور الأول الزنزانة تلات امتار في مترين بتاخد من نفر لتلات انفار. باب الزنزانة حديد ـ كل بوابات السجن حديد ـ له فتحة اسمها «نضارة»، أظن بيقولوا عليها «طاقة» الزنزانة، بتفتح من بره بس والسجانة تبص جوه تشوف اللي بيحصل في الزنزانة في أي وقت من غير ما تضطر تفتح الباب، وفوق النضارة شرَّاعة بعرض الباب عليها قضبان مفتوحة على طول علشان التهوية .

الشاويشة توحيدة طَلَّعت المفاتيح اللي كانت معلقة على وسطها وفتحت بوابة العنبر وإيدها على قفايا على طول، دي طريقتها، تحط إيدها على رقبة وكتاف الشخص علشان توجِّهُه. دخلنا العنبر ومشينا قدام كذا زنزانة، زنازين مقفولة، ما باشوفش جواها فيه إيه، لغاية ما وصلنا على ما أعتقد لنمرة حداشر، زنزانة نمرة حداشر. فتحت الباب بالمفاتيح، دَخَّلتني جوه وقفلت الباب ورايا .

لوحدي لأول مرة من ساعة ما اتقبض عليَّ .

سجن الأجانب كان شقة، ما كنتش لوحدي .

قصاد باب الزنزانة شباك عالي أطوَل مني وعليه حديد، فيما بعد كنا بنحط حاجات تحتيه على الأرض ونتشعبط علشان نتفرج شوية بره فيه إيه. الأرض أسفلت، لقيت جردلين في الركن، جردل مدور فيه مَيَّه وكوز صاج بإيد فهمت إن دي مية شُرب، وجردل تاني جنبه بيضاوي مش كبير وفاضي بَرضُه فهمت بعد شوية إنه للـ «pipi» ـ البول. في ركنة تانية بالعرض تحت الشباك فيه «البورش»، يبقى إيه البورش؟ حصيرة من حبال مضفَّرة، دا بقى للنوم .

كل اللي كان معايا جزمة ويمكن قميص نوم، أمي وأبويا بعتوا لي شوية غيارات في العشر ايام اللي قعدتهم في سجن الأجانب. ويمكن فوطة وش .

قعدت على الأرض .

وصلت الزنزانة على الضهر، في وقتٍ ما دخَّلوا لي طاستين في عمود قديم مطبق، طاسة فيها رز، والتانية فيها كوسة أو صنف خضار، بحتة لحمة .

مش بطَّال دا. كان كويس. أنا لقيته كويس جدًّا .

كان فيه على البورش بطانيتين لونهم اسود زي بتوع العساكر، عندنا في البيت هنا واحدة صوف انجليزي سودا زيها، خشنة .

أكلت، وبعدين شربت، وبعدين جه الليل، طبعًا مفيش نور، قعدت واستنيت، وبعدين خدت الفوطة وحطيت الجزمة جواها وحطيتها تحت راسي ونمت .

غير مريح .

مش متعودة على نوم الأرض، بعد شوية عضم الجناب يوجع، فالواحد يتقلب على الجنب التاني، طول الليل اتقلَّب. ولأول مرة في حياتي على الفجر ركبي توجعني، بيقولوا من الرطوبة .

بس أنا كنت متوقعة أوحش من كدا، فما اشتكتش .

ما صحيتش من نفسي طبعًا، هم بالمفتاح فتحوا الباب الصبح بدري وواحدة من السجانات الصغيرين، مش توحيدة، قالت بصوت عالي :

ـ يلَّا! دورة الميَّه .

الحقيقة في الوقت دا ما كنتش اعرف إيه هي «دورة الميَّه» بس قمت معاها. في آخر صف الزنازين فيه طرقة مستخبية فيها أربع أو خمس كابينيهات بلدي من غير باب، وعلى الحيطة اللي قصادهم خمس ست حنفيات وستات كتيرة. لما وصلت السجانة قالت :

ـ يلَّا يلَّا يلَّا !

فخدوا جرادل الميَّه وطلعوا بره، فهمت بعد كدا إنهم مسجونات عاديات وانهم بيلمُّوا جردل الكابينيه من الزنزانة يكبُّوه ويغسلوه ويرجعوه الزنزانة، وكان لازم اعمل زيهم. دخلت وعملت في الكابينيه البلدي اللي من غير باب، الحقيقة المسجونات مُريحين، اللي تيجي تملا جردل ميَّه من الحنفية قدامي ما تبصش، الحكاية عندهم أصبحت عادية. غسلت إيدي في الحنفية وخرجت، رجعوني الزنزانة تاني وقفلوا عليَّ .

بيجيبوا شاي باللبن بالسكر الصبح، واحدة من المسجونات بيسموها «النوبتشية» تمرُّ بأبريق كبير شاي بلبن بسكر جاهز، تخش كل زنزانة تصب بالكوز وتخرج. الفطار الصبح بيضتين مسلوقين ـ معظم الوقت مش طازة ـ بس آهُه ماشي، وحتة عيش .

بعد ساعتين، فتحوا الباب تاني والسجانة بتقول لي :

ـ يلَّا طابور .

يعني إيه طابور؟ ما اعرفش. في نفس الوقت اتفتحت الزنزانة اللي جنب زنزانتي وخرجت واحدة لابسة ملكي زيي. حافتكر لك اسمها، يا «انجيل» يا وداد، لا، مش فاكرة. خرجت ومعايا المسجونة التانية دي. فضُّوا الحوش اللي قدام المغسلة والسجانة قالت لي :

ـ يلَّا اتمشِّي .

وفهمت إن التمشية دي بيسموها «طابور ».

على طول رحت عند المسجونة التانية لأني خمِّنت إنها شيوعية :

ـ اسمك إيه؟ إنتِ هنا ليه؟

كلمة زي دي. المفاجأة انها ما بتردش! تبص لي بوِش زي الحديد وما تردِّش، لفِّت وشها الناحية التانية وسابتني وابتدت تتمشى مشية نشيطة من الحيط للحيط في الحوش المستطيل اللي بين المغسل والعنبر. الملاحظة توحيدة والسجَّانتين المسؤولين عن الدور ركنوا على باب العنبر يتفرجوا علينا ويضحكوا، توحيدة جت وقالت لي :

ـ معلش هي كدا، اتمشي انت كمان علشان عندك نص ساعة وحارجع أقفل عليك تاني .

ابتديت انا كمان أحاول امشي خلف خلاف مع الزميلة اللي ما بتكلمنيش .

خِلصِت النص ساعة طابور، ورجعت الزنزانة. وقعدت لوحدي تاني. الضهر جالي الأكل، وبعدين الساعة تلاتة ونص اربعة فتحوا الباب ودخلوني الحمَّام، وبعدين طابور بعد الضهر، بس المرة دي انا كنت جاهزة إن الزميلة دي مش حتكلمني فما اتأثرتش. الساعة اربعة ونص بعد الطابور قفلوا عليَّ تاني، أثناء النهار بيقفلوا الزنازين قفلة واحدة، وبالليل قفلتين، ويدوا التمام :

ـ تمام .

ـ تمام .

ـ تمام .

بيردوا على بعض الأربع ادوار لما يقفلوا الزنازين آخر اليوم، وبعدين سمعت باب العنبر الكبير «طق طق طق» بيتقفل، أنا جوه الزنزانة مش شايفة بس باتخيل .

انتهى اليوم التاني ونمت تاني، والصبح رجع شوية وجع الركب .

إذن أول يوم دخلت السجن، تاني يوم اتعرفت على نظامهم ولقيته حلو الحمد لله واطمنت. أصل انا ما اعرفش إن فيه ترتيب كدا في السجن . ما كانش عندي أي فكرة عن السجن. كل اللي اعرفُه أو قريته عن الحرب العالمية التانية أو غيرها هو إن فيه تعذيب ومفيش شبابيك، مفيش هوا، مفيش أي حاجة والواحد ينام على أرض مبلولة. لما نقلوني سجن مصر كنت متوقعة إن حتكون حياة جديدة كنت متوقعة الأسوأ، حتى التعذيب. كنت مجمدة نفسي، مشددة نفسي علشان اقدر استحمل .

المهم انطباعي إن انا لقيت إن السجن نضيف والزنزانة حلوة وجميلة .

*

تالت يوم الصبح رحت الحمَّام مع السجانة بالنظام اللي اتعلمته، وانا راجعة شفت من بعيد عند الباب الكبير جنب الملاحظة واحدة لابسة ملكي زيِّي، مسجونة جديدة لسه واصلة، دققت فيها لقيتها إجلال السحيمي، أخت عايدة اللي كنت باوزع منشورات معاها. ما اقدرش أقول لك الفرحة اللي جت لي، فرحة غير مناسبة لإجلال علشان هي زعلانة إن اتقبض عليها، بس انا جريت بلهفة لأني كنت في عُزلة مع الزميلة اللي ما بتكلمنيش وطول النهار مش باتكلم ولا باشوف حد، قاعدة كدا في الزنزانة .

ـ يا إجلال ما تقدريش تتصوري قد إيه انا مبسوطة إني أشوفك .

وحضنتها بحرارة، مبسوطة إن اتقبض عليها! انتهي الأمر إن إجلال ابتسمت ابتسامة خفيفة. حطوها في الزنزانة اللي جنبي وقفلوا عليها. استمرينا يومين نمشي طابور أنا والزميلة اللي ما بتكلمنيش، وبعدين السجانات من نفسهم سألوني :

ـ تحبي تخرجي مع إجلال؟

وخرَّجونا احنا التلاتة نتفسح مع بعض في الحوش. المسجونة التانية ما كلمتنيش ولا انا كلِّمتها للآخر، لغاية ما خرجت من السجن، حوالي سنة. اتمشِّيت الطابور مع إجلال وحكينا لبعض إزاي اتقبض علينا .

في يوم الصبح بدري قبل ما نروح دورة المية وانا لسه في السرير سمعت الطاقة تتفتح وصوت واحدة :

ـ اسمي «ميمي كانيل»، أنا شيوعية، إنتِ شيوعية؟

ـ أيوه .

جريت على الباب أحاول اشوف، الواحد يحط عينه على الطاقة علشان يشوف وبعدين يشيل عينه ويحط بُقُّه علشان يتكلم .

ـ حنبتدي إضراب عن الطعام من بكرة، معانا؟

ـ طبعًا .

ـ مفيش أكل خالص، مسموح نشرب ميه بس .

قلت لها :

ـ آه .

والسجانة بتجرجرها بعيد، أصل ممنوع نتصل ببعض. وابتدينا إضراب عن الطعام .

في الوقت دا أمي وأبويا كانوا بيجيبوا لي أكل. اشتروا عمود مخصوص، يطبخوا ويجيبوا العمود كل يوم حوالي الساعة حداشر أو اتناشر، وكان الأكل بيخش باسمي، نبعت نقول عايزين إيه، هدوم، أكل، والأهل يجيبوا. في الإضراب المفروض العمود يرجع زي ما هو من غير ما نلمس الأكل. يا عيني أهلي تعبوا معايا في موضوع السجن، من يومين لقيت صورة أمي كتبت لي على ضهرها «دي صورتي أنا وأبوكِ على مركب في الطريق لإيطاليا»، كانوا مترددين يسافروا ويسيبوني في السجن. المركب كانت عاملة سعر خاص بمناسبة عيد تدشينها الخمسين، وكانت فرصة، أول سفرية لأمي من ساعة ما سابت إيطاليا في العشرينات، الصورة دي من سنة 1950، يعني أمي كان بقالها حوالي 25 سنة ما رجعتش بلدها. أبوها وأمها ماتوا وهي في مصر، لكن اخواتها وكل عيلتها كانوا لسه موجودين. عملوا كل تحضيرات السفر ووجودي في السجن كان حيبوَّظ الرحلة المهمة دي، لكن الحمد لله أنا أصرِّيت وشجَّعتهم يروحوا وراحوا، وخسارة إني ما كنتش معاهم. أمي كانت حابة تاخد جوزها وعيالها وتقدمهم لأهلها في «ريبا ».

نرجع للإضراب: ما كلتش خالص بجد .

العمود اللي أهلي يبعتوه كان بيفضل هناك قدامي وانا سايباه مقفول ويرجع لهم زي ما هو، كنت جامدة أيامها. قعدنا حوالي أسبوع نشرب ميَّه وما ناكلش، لحد ما طلعونا من الزنازين قدام الباب

وشفت المسجونات التانيين أخيرًا، وقفونا اتنين اتنين، جِه نائب مدير السجن، راجل نص اشقر أو احمر، وكان بيتكلم إنجليزي كويس .

- «Why are you fasting?».

«ميمي» هي اللي ردت :

- عايزين إنهاء للحبس الانفرادي .

ساعتها بس فهمت اننا في حبس انفرادي، وان دا مش الوضع الطبيعي. كنت فاهمة إن دا الوضع اللي حيستمر لغاية آخر العمر .

- عايزين نتقدم لمحاكمة، وعايزين جرايد وكتب وورق وأقلام .

حلوة المطالب دي علشان كنت ابتديت أزهق بشدَّة، وكنت فاهمة إن هو دا السجن: إن الواحد يزهق، أتاري إنه عقوبة استثنائية، عقوبة على إيه ما اعرفش .

- وعايزين مراتب مش عايزين النوم على الأرض .

«ميمي» اللي كانت محضَّرة الطلبات الكويسة دي علشان الحياة تكون أحسن، من طريقة كلامها حسِّيت إن «ميمي» هي الريسة في الحتة، ما كنتش اعرفها قبل كدا. بالطريقة دي بعد أسبوع إضراب عن الطعام حطونا مع بعض. المُضربات كانوا من منظمة «حدتو»، سجينات المنظمات التانية ما أضربوش معانا، ما يكلموناش وما يضربوش معانا. كنا ستة أو سبعة من «حدتو» وحطونا مع بعض في زنزانتين. أنا في زنزانة مع أسماء البقلي و«جانيت إسرائيل» وواحدة اسمها «بِرت». «ميمي» يظهر كانت تعرف إجلال فقعدت معاها في زنزانة. لا استني شوية، «بِرت» و«جانيت» و«ميمي» مع بعض، وانا وإجلال وأسما البقلي مع بعض في الزنزانة التانية، وحطوا لكل واحدة مرتبة على الأرض. ابتدينا بقى نتعرف واحنا مستمرين في الإضراب، بس نبتدي أي حديث في أي موضوع، لازم ينتهي بحديث على الأكل. أنا بسبب طبيخ أمي اللي بتطبخ أكلات حلوة وفي البيت بنحب الأكل - إلا اخويا - كنت باتذكر أكلات كتيرة، وإجلال وأكتر منها أسما: أكل أكل أكل أكل. ما بناكلش، بنشرب مية بس، ونشبع بالتفكير في الأكل والكلام عنه، بنطرد الجوع بالخيال والذهن، تجربة غريبة .

بعد يومين جه دكتور كشف علينا، لقانا في صحة جيدة إلا أسما البقلي، كانت ضعيفة عننا. وفعلًا بعد يومين اضراب زيادة ادُّونا باقي الحاجات اللي كنا طالبينها، أقلمة وكراريس وكتب، آه ومعجون وفرشة سنان ومشط وشوية تفاصيل مهمة بَرضُه في الحياة العادية .

إدُّونا كل اللي طلبناه إلا التقديم للمحاكمة، كان فيه أحكام عرفية واحنا كنا مسجونين بدون محاكمة. بس وقَّفنا الإضراب وابتدينا ناكل، واستمرينا نتعرف ببعض ونفهم احنا مين وإيه حكاية كل واحدة .

كنت حكيت عن أول مؤتمر عام أو اجتماع عام أنا حضرته، محاكمة لـ«جوليو لاوري» المسكين، بيحاكموه على «الاتصالات الجانبية بأعضاء منظمات تانية من غير ما يمر برؤسائه»، هو كان بينفي وبيدافع عن نفسه ويقول «دا من حقي»، و«هلال شوارتز» كان من الشخصيات الكريهة اللي اشتركِت في المحاكمة، «شوارتز» شخص رفيع، مش طويل، وشّه جامد وشديد في مواجهة «جوليو». دي علاقتي بـ«هلال شوارتز». «برت» اللي معانا في السجن طلعت مرات «هلال شوارتز» دا، واتقبض عليها بسبب إنها مراته، وأضربِت معانا. طولها من طول «هلال»، تختوخة شوية ولكن جسمها متماسك، مش مترهلة. متضايقة من وجودها في السجن، مش بتتكر إنها شيوعية، بس قبضوا عليها بسبب جوزها وبتكرر :

ـ خلاص حنسافر، حنسيب مصر، مش حنقعد .

وكانت مهتمة بالتمرينات الرياضية، كل شوية تعمل تمرينات وكان عندها علم بالرياضة .

ـ لازم تلعبوا انتو كمان .

فعلًا كنا بنقعد كتير من غير حركة، ومعندهاش مانع تقودنا في التمرينات الرياضية. بعد مدة أفرجوا عنها لأن هي أصلًا اتقبض عليها من غير أدلة ولا أي تلبُّس، اعتقلت هي و«جانيت» من بيتهم، أنا كنت اتمسكت متلبِّسة في اجتماع في السيدة زينب. أظن الغرض من القبض عليها هي و«جانيت» و«هلال» و«مارسيل» إنهم يضغطوا عليهم يسيبوا البلد. وفعلًا «برت» وجوزها «هلال» سابوا مصر، كان عندهم جنسية تانية يمكن فرنسية أو إيطالية؟ نسبة من اليهود المصريين في الوقت دا كان عندهم جنسيات أوروبية، المهم سابوا مصر وما شفتهاش تاني ولا سمعت عنهم عملوا إيه بعد ما سابوا مصر. دي كانت أكتر شخصية اعتبرتها زي ما تقولي متباعدة، باردة. «برت ».

الشخصية التانية هي «جانيت»: «جانيت» مرات «مارسيل إسرائيل» ـ اسمه كدا. كان قائد، والله كلهم كانوا قادة، «شوارتز» كان واحد من القادة، «مارسيل إسرائيل» طلع إنه شيوعي أقدم كمان من «هلال شوارتز» وقائد منظمة تالتة مش فاكرة اسمها. «جانيت » كانت طويلة، وإنسانية أكتر من «برت»، «برت» كأن احتياجات الإنسان غير الرياضة البدنية مش مهمة، «جانيت» بتسأل وتتكلم، وتحكي عن حياتها مع جوزها «مارسيل» مثلًا. من ضمن قصصها إنهم الاتنين يهود إلا إن هي أشكيناز وهو سفرديم، حبوا بعض وما تفرقش معاهم، لكن لما جم يتجوزوا ظهرت خلافات عائلية غريبة في طريقة ترتيب الكراسى وايه اللي مسموح في الأكل، عادات عائلية دينية، بالنسبة ليَّ كانت أول مرة اعرف إن فيه التقسيمة دي. وحكت لنا إن أيام الحرب العالمية هي وجوزها كانوا واخدين صف الإنجليز، سواء من ناحية إنهم يهود وخايفين من الاضطهاد أو من ناحية إنهم شيوعيين مؤمنين بالمساواة، كانوا كدا كدا واخدين صف الإنجليز ضد الألمان، فلما الألمان قربوا من العلمين الإنجليز ساعدوهم يهربوا لفلسطين، ولما الحرب انتهت رجعوا مصر، زي أبو صاحبتي «أنجيلا» المسيحي الطلياني اللي خدتني النادي الإيطالي وشقلبت حياتي، رجعوا كلهم من فلسطين لما الحرب خلصت. «جانيت» في الوقت دا كان عندها ابن واحد عنده ست سنين، ما اعرفش سابوه مع مين ودخلوا السجن هم الاتنين، كانت قلقانة عليه وكانت بتتكلم عنه كتير طبعًا. «جانيت» خرجت مع «برت». أحلى ما في السجن الحكايات والقصص، ما كانش عندي أي فكرة

عن القصص في باقي الأقسام الأجنبية قبل ما تحصل الفركشة و1948 والقبض على الناس وقرار سفر الخواجات إلى أوروبا. «ميمي» ما كانش عندها تفاصيل مسلية أصلها من اسكندرية. إجلال كانت عارفة شوية تفاصيل عن طريق قريبها شريف حتاتة، قائد شيوعي هو كمان . أثناء وجود «بِرت» و«جانيت» في السجن، جابوا سيرة شخصية زي مثلًا «إيبو المنسترلي»، مين إيبو المنسترلي دا؟ كنت بالاقي إن هو كمصري «إيبو» يبقى اسم غريب شوية، بعد كدا فهمت إن اسمه إبراهيم وإيبو اسم الدلع، عنده اصحاب كتير وإيبو اسم سهل للمصريين والخواجات ينطقوه بنفس الطريقة . حب واحدة اسمها «إيميه»، سابت جوزها علشانه. فاتت الأيام وبعد مدة طويلة جدًّا عرفت إن الزميل اللي سابته علشان إيبو هو «ماكس كوهين»، رئيس مجموعتي اللي بيشرب بيبة ويدِّينا محاضرات! مسكين «ماكس». ما كانش عندي فكرة إن «ماكس » كان متجوز قبل «نينا»، عمومًا انا باحب «ماكس» و «نينا» وما اعرفش إيبو بالمرة. لكن حتى بعد ما خرجت من السجن واتجوزت، من وقت لوقت كانت بتيجي سيرة إيبو المنسترلي، يظهر كان شخصية عندهم، شاب وسيم وغني وشيوعي من عيلة المنسترلي اللي عندهم قصر على النيل في المنيل. عمري ما قابلته .

الشخصية التالتة هي أسما البقلي. أظن كانت مدرِّسة، وفيما بعد كتبت كتاب ونشرته عن المرأة. كانت مرات أسعد حليم، سمعتِ عن أسعد حليم؟ بَرضُه واحد من القادة الشيوعيين في واحدة من المنظمات، ما كنتش اعرفه شخصيًّا. كان فيه عدد كبير جدًّا من المنظمات، منظمة اسمها «دال شين» ـ «ديمقراطية شعبية» ـ ومنظمة «الفجر الجديد»، غير «حدتو» و«م.ش.م» منظمات كتيرة ومش عارفة إيه تفسير زحمة المنظمات دي. على أي حال أسما كانت أضعف واحدة فينا، تعبت من الإضراب عن الطعام لدرجة إن في اليومين الآخرانيين كانت نايمة ما بتقومش، ولما بطلنا إضراب بَرضُه تعبت وجالها مغص. «بِرت» فاهمة في الصحة نبهتنا :

ـ بعد الإضراب المصارين بتكون ارتاحت مدة طويلة فلازم ناكل بشويش علشان ما تحصلش دربكة في المصارين .

وفي الغالب أسما عملت كدا بالظبط، أكلت بسرعة وكتير، هي الوحيدة اللي تعبت من الإضراب ومن الأكل، نقلوها لمستشفى السجن قعدت يومين ورجعت لنا. أسما كانت سمرا وعينيها رمادي عاملين زي اتنين كشافات في وسط وشها، عندها ابتسامة عذبة جدًّا. مخلفة بنتين لسه فاكرة أساميهم، عزة وخالدة، كان سنهم تلات واربع سنين، فوق روس بعض، ورَّت لنا صورهم، بنتين حلوين حلاوة، أسما تعبت كمان علشان سايبة بناتها، اتقبض عليها والعيال انفصلوا عنها. كمان عندها صعوبة تستحمل مجموعة الخواجات الشيوعيات دي، حتى إجلال السحيمي أمها انجليزية، من عيلة أرستقراطية شوية ساكنة في الزمالك تربية انجليزي. مش عارفة أحكي لك ازاي بس أسما كانت تعبانة من كل ناحية، من السجن ومن الإضراب ومن الأكل ومن فراق عيالها ومن الرياضة ومن العقليات ومن الشخصيات ومن اللغات. بس هي كمان الحمد لله خرجت بعد شهرين تلاتة، بعد «جانيت» و«بِرت» بشوية .

وبكدا فضلنا احنا التلاتة إجلال السحيمي و«ميمي كانيل» وأنا، كل واحدة عندها شخصية خاصة بيها. لمُّونا في زنزانة واحدة وقضينا فترة مع بعض. «ميمي» حكت لي بقى إنها لما شافتني أول مرة في مكتب المأمور رجعت وقالت للمسجونات التانيين :

ـ فيه واحدة بيقولوا عليها شيوعية بس مش ممكن تكون شيوعية، شكلها مش شيوعي .

على أساس إن انا مش لابسة نضارة نظر ومش شدَّة شعري لورا ولبسي مش «جد» كفاية .

ـ ما تزعليش .

ـ لا ما بازعلش، أنا ما عملتش حاجة خارج طبعي .

«ميمي» كانت من أصل ألماني وبتفكرني كتير بـ«شِري» صاحبتنا دلوقت، شخصية كدا، مش جافة ولا كريهة ولكن متعوِّدة على النظام ومنضبطة، نقيض أسما البقلي المصرية. أسما ما كانش عندها مانع مثلًا ما تلبسش وتفضل بالجلابية أو قميص النوم طول النهار، ومش عايزة تمشي على نظام معين. أما «ميمي» وخصوصًا لما قعدنا إحنا التلاتة مع بعض حطت لنا روتين، الصبح الأول نشرب الشاي ونفطر ونغسل السنان ونلبس ونبقى جاهزين للطابور، وساعة الطابور هوب! نمشي رايح جاي ورايح جاي، مش نتسكع ونتكلم :

ـ عندنا وقت في الزنزانة نتكلم، الطابور دا علشان نحرك جسمنا ونشم هوا .

عوِّدتنا أنا وإجلال على كدا، والحقيقة إنه كان كويس لصحتنا، مش وحش. جوه الزنزانة كمان لازم يكون لنا مَشغلة :

ـ إحنا حنقعد نحكي حكايات كدا على طول؟ لازم نشتغل في مشروع .

اقترحت أديهم دروس طلياني، وما اعرفش انجليزي كويس يبقى إجلال تديني دروس انجليزي، وبالمواعيد، كل ساعة لها نشاط، الساعة كذا نعمل كذا، وبعد الأكل نرتاح شوية والساعة كذا نعمل كذا، بالطريقة دي طول اليوم. «ميمي» كانت بتدرس كمنجة وناوية تطلع عازفة كمنجة في أوركسترا، في أي حتة في العالم، بس الكمنجة ما كانتش معاها في السجن فما قدرتش تدينا دروس، لكن كانت اشتركت في رحلات الكشافة، فادِّتنا درس بيولعوا النار إزاي ويحطوا الخيمة إزاي وعلمتنا أغاني الكشافة. الأغاني اللي انا غنيتها لكم وانتم صغيرين زي «Auberge blottie» ـ «الكوخ في حضن الوادي» ـ مثلًا اتعلمتها من «ميمي» في السجن. أنا كنت اعرف أغاني طلياني زي «Santa Lucia e Avanti Popolo» ـ «القديسة لوتشيا» و«إلى الأمام يا شعب» ـ جايباهم من أمي. بالذات «إلى الأمام يا شعب» نشيد سياسي ظريف أمي علمته لي. «ميمي» ابتدت تتعلم شوية أناشيد بالعربي بلكنتها، عملت مجهود علشان تتعلم عربي، جادة في كل اللي بتعمله .

بالطريقة دي فاتوا شوية وقت حلوين في السجن .

«ميمي» من إسكندرية، من بولكلي جنب رشدي، راحت مدرسة «سان مارك» وعندها تلات إخوات، أمهم ماتت لما كان عندها سبعتاشر سنة وابوها عايش لوحده وبييجي من اسكندرية يزورها في السجن كل شهر مرة ويجيب لها القطن اللي شفتها بتستلمه من المأمور لما وصلت. كان مهم

القطن عندنا، كنا ستات صغيرين والعادة الشهرية بتجيلنا كلنا، وبنستعمل قطن كتير وبنطلب من بيوتنا أكبر حجم بكوات في الأجزخانة. «ميمي» عندها واحد وعشرين سنة، وإجلال اتنين وعشرين وانا تمانتاشر، كنت أصغر واحدة. فـ«ميمي» اتجوزت وهي عندها 18 سنة شاب يساري من مجموعات الكشافة في اسكندرية، اسمه «ريمون بنتو»، تصوري إني لسه فاكرة اسمه! فيه أسامي مش قادرة انساها. «ميمي» عاشت سنة واحدة معاه وما قدروش يستحملوا بعض، يظهر الطلاق مش موجود ولا حتى عند اليهود فسابوا بعض واعتبروا نفسهم منفصلين. هو كان دُنيَوِي يحب الحفلات ويحب الخروج ويحب الضحك والهزار وهي جد تحب النشاطات الذهنية أكتر وتحب العزف على الكمنجة وعايزة تتمرن تلات ساعات في اليوم علشان تقدر تكون عازفة. مش بس ما شجعهاش لكن كان بيتضايق علشان مشغولة عنه ومش فاضية له: كمنجة، قراية، شعر، موسيقى. ما قدروش يعيشوا مع بعض، اتطلقوا أو انفصلوا وهي عمرها تسعتاشر سنة. بعد كدا اتعرفت على واحد اسمه كمال عبد الحليم، أيوه الشاعر المعروف كمال عبد الحليم، ساعتها كان يا دوب نشر أول ديوان شعر له بعنوان «إصرار». راح اسكندرية مندوب عن المنظمة علشان ينظم الشيوعيين الأجانب والمصريين في اسكندرية ومنهم «ريمون» و«ميمي». «ريمون» و«ميمي» كانوا منفصلين بالفعل في الوقت دا وهي حبِّت كمال عبد الحليم، وكمال عبد الحليم حبها، علاقة كلها شعر وموسيقى وسياسة وشيوعية وثورية فاتفاهموا مع بعض على طول. «ميمي» حفظت ديوان كمال عبد الحليم صم، وفي السجن الكتاب دا كان معانا و«ميمي»، حبيبته، من وقت لوقت كانت بتعمل جلسة وتقرا لنا الشعر اللي كتبه كمال عبد الحليم، وساعات إجلال كانت تقرا لنا و«ميمي» تسمع. حبُّوا بعض بصحيح، «ميمي» وكمال.

في هذه الأثناء وبين الحكايات «ميمي» كانت بتعلمنا أغاني وكان لازم نغنيها مظبوط، مسكينة إجلال ما كانش عندها صوت لكن «ميمي» كانت بتقول لها:

- معلهش الصوت يتربَّى.

وتعلمها: «أيوه، كدا»، «لأ مش كدا» ويضحكوا، بس إجلال كانت مبسوطة إن حد عنده صبر مع صوتها. إجلال علمتنا خطوات باليه، كانت بتتعلم باليه قبل ما يتقبض عليها، لكن ما تعدناش مرحلة الأربع وقفات الأساسية، وقفات مش سهلة وكنا بنجربها بصعوبة:

- يا إجلال حاولي تخترعي خطوات باليه للموسيقى دي علشان تبقي مصممة باليه مش بس راقصة.

بعد درس الباليه «ميمي» تغني لنا قطعة موسيقية زي «La berceuse» - «مُهَدهِدة برامز». على أي حال إحنا كنا إلى حد ما مبسوطين من النظام دا، واليوم بيخلص بسرعة من غير ما ناخد بالنا، مشغولين، وانتهت مشكلة الزهق.

أنا باحكي كل الكلام دا علشان بالنسبة ليَّ اللي حصل هو إن انا دخلت في حالة حلم أو جنون لما رحت النادي الإيطالي وانفصلت نفسيًّا عن العالم بتاعي، صحيح كنت عايشة عند أبويا وأمي بس قلبي وذهني مش معاهم، ولا مع صاحباتي الطلاينة بتوع المدرسة، ما بقيتش اشوفهم، وبعدين الخواجات الطلاينة بتوع النادي الطلياني سافروا. وفترة الشغل مع عبد الستار الطويلة كانت فترة

مقفولة في الفكر وفي الرؤية وفي الثقافة والعلاقات الإنسانية، ما باشوفش حاجة، ما باتعلمش حاجة، جو السرية كان بيخلينا ما نتكلمش مع بعض، كأني مش عايشة في الدنيا دي، فترة فيها إثارة، لكن ما كانش فيه أي كلام سياسي أو ثقافي أو حتى إنساني. دخولي السجن كان نوع من الانفراجة، ذهنية وحياتية، ودا السبب إني باحكي حكايات السجن الأولاني، حتى القصص العائلية والحب والزواج كانت بترويني. شوفي الحكاية دي مثلًا: إجلال بتحكي عن أمها الإنجليزية اللي معلماهم إن من آداب المائدة ان يفضلوا على السفرة لغاية ما الكل يخلص أكل، مش اللي يخلص يقوم يمشي. فيقعدوا كلهم على السفرة بعد الأكل ياكلوا فاكهة، وأم إجلال بتموت في البرتقان، كل واحد ياكل برتقانة ويخلص إلا أم إجلال بتاكل برتقان برتقان برتقان، لغاية ما يتكوم جبل من قشر البرتقان قدامها والكل قاعد مستنيها تخلص. القصص دي كانت بتضحكنا بس بالنسبة ليَّ كان عندي نهم اعرف العائلات التانية عايشة إزاي.

أنا طبعًا حكيت لهم عن أبويا وأمي وكل قصصهم.

كان فيه كتير من الود والإنسانية بيننا، والسبب كان الحكايات.

الزنازين التانية فيها بقية المسجونات الشيوعيات، البنات عضوات منظمة «م.ش.م» اللي من ضمنهم الزميلة اللي رفضت تكلمني في طابور أول يوم سجن، وكان معاهم إحسان أدهم وثريا أدهم ومش عارفة مين تاني، كلهم «م.ش.م» جمَّعوهم مع بعض في زنازين بعيد عننا علشان ما نتخانقش، لمِّينهم في زنزانتين بس كانوا أكتر مننا في العدد. كنت باسمعهم بالليل، لازم فيه حد بيجيب لهم أخبار من بره السجن، إن حصل إضراب أو مظاهرة بين العمال أو مطالبة بالإفراج عن المسجونين الشيوعيين، بس لو تسمعيهم بيشحنوا بعض بالحماس، تفتكري إن الشعب المصري ما كانش عنده شغلانة في الوقت دا غير إنه يطالب بالإفراج عن الشيوعيين والشيوعيات. عندهم أناشيد ثورية بيغنوها مع بعض بعد ما يخلصوا نشرة الأخبار ويهتفوا شعارات ويدخلوا يناموا. أنا نسيت الشعارات بس كانت من نوعية «تحيا الطبقة العاملة»، الطبقة العاملة كانت لازمة ما بتسيبش بُقُّهم.

في الفترة دي أصبحنا بنخرج طابور كل المسجونات السياسيات مع بعض، مش زي في الأول كل اتنين مع بعض فكان الطابور بيبقى عامل زي الفسحة وكلنا بنشوف بعض. وفي يوم شفنا شيوعية جديدة داخلة من بعيد، قبضوا عليها، «ميمي» دققت فيها شوية وقالت لنا:

- دي «أوديت»!

- مين «أوديت»؟

- عضوة في اللجنة المركزية «م.ش.م».

ما كنتش اعرفها ولا سمعت عنها، دخلت «أوديت» الحوش، طويلة ووشها حلو وبيان عليها إنها ريِّسة، قومندانة. تختوخة شوية، بس فهموني إنها تخنت لأنها كانت عايشة في السرِّية قبل ما يتقبض عليهم، قعدوا سنة مستخبيين في بيت ما يخرجوش فتخنت من انعدام الحركة. إدارة السجن حطوها على طول مع «م.ش.م»، عيت وجالها إسهال لمدة طويلة ولما شفتها تاني كانت خسِّت. مش واضح في ذهني عرفنا ازاي حكاية الإسهال أصل ما كانش عندنا أي صلة بيهم، يمكن عن طريق السجانات .

«ميمي» كانت عندها شوية معلومات عن «م.ش.م» وليه ما بيكلموناش :

ـ علشان إحنا خَوَنة، إحنا بتوع الـ «M.D.L.N» ـ «حدتو» ـ والبوليس حاططنا في السجن علشان نتجسس عليهم. متطرفين وبيكرهونا ومش معترفين بينا كشيوعيين .

عرفت كمان إن «أوديت» هي راس في منظمة «م.ش.م»، هي وجوزها «سيدني سولومون»، عمري ما شفته ولا عرفت هو مين ولا راح فين. فيما بعد سمعت إن محمد سيد أحمد ـ وكانوا بيقولوا له «ميتسو» ـ كان عضو في «م.ش.م» وحبسوه في بيت ما يخرجش منه علشان ما يتقبضش عليه لغاية ما جاله اكتئاب من الحبسة ومن المعاملة كمان. بس دي قصة ممكن نسمعها منه هو مباشرة .

مع وصول «أوديت» زادت الأناشيد والهتافات في الزنزانتين اللي جنبنا، ولكن بعد شهر تقريبًا من وصولها، فجأة الملاحظة توحيدة رئيسة السجانات الضخمة اللي ما تبتسمش ولها تكشيرة قوية فتحت باب زنزانتنا في وقت غير متوقَّع، ولا طابور ولا تمام، دخلت الزنزانة ماسكة واحدة من رقبتها، المسكة اللي كلنا عارفينها. مسجونة سمرا شوية ومش صغيرة قوي في السن ـ 22 سنة ـ اسمها «لِي لِي دايان»، شكلها منفعلة لكن من غير عياط، وشها جامد بتبحلق فينا واحنا بنبحلق فيها :

ـ البنت دي مش عاوزة تقعد مع صاحباتها وطلبت تقعد في زنزانة لوحدها ودا مش ممكن، تاخدوها تقعد معاكم؟

ـ طبعًا طبعًا معندناش مانع .

وبصحيح ما كانش عندنا مانع، بس مستغربين خالص .

دخلت «لِي لِي دايان» يا حبيبتي دي، قعدت يمكن أكتر من أسبوع أو عشر ايام ما بتكلمناش، قاعدة كدا، واحنا سايبينها. يجيلنا أكل من البيت ونتقاسم معاها وهي تقبل الأكل بس ما تتكلمش، نسألها شوية علشان ما تحسش إننا بنتجاهلها وبعدين نتكلم احنا. سيبناها في حالها، تنام معانا وتاكل معانا وتخرج طابور معانا، بس يا عيني مش قادرة تتكلم. أنا انفعلت من حالتها. فين وفين لما هديت، وشوية بشوية ابتدت تتكلم وفي النهاية حكت إن من وقت ما وصلت «أوديت»، «لي لي» دخلت في تحدي وصِدام معاها، ليه بقى؟ «أوديت» بتعاملهم بطريقة مش مظبوطة: ممنوع دا، ولازم دا، زي ناظرة المدرسة، فيه شيء من الـ «hiérarchie» ـ الرُتب والمقامات ـ حتى في الحياة العادية، تقول

لهم: «لما أنا اتكلم» يعني لما «أوديت» تتكلم ماحدش يقاطعها وماحدش يعترض، فابتدت «لي لي» تعترض وابتدت «أوديت» تعادي «لي لي» بشكل خاص، تستقصدها صبح وضهر وبالليل .

ـ فيه تصرفات ما تصحش، إحنا مش عيال صغيرة .

«لي لي» بتشرح لنا :

ـ حتى لو «أوديت» في اللجنة المركزية، في النهاية فيه ديمقراطية، وأصلًا إحنا زملا، إحنا ثوريين زي بعض، مكافحين زي بعض .

آخر احتكاك اللي خلَّى «لي لي» تنقل نفسها عندنا، واحدة زميلة حطت المشط في مكان فـ«أوديت» قالت للزميلة :

ـ دا مش مكان المشط، حطِّي وشك في الحيط .

والزميلة سمعت الكلام وحطت وشها في الحيط. وصل الأمر للدرجة دي، إن الأضعف في الشخصية بيرضى بمعاملة من النوع دا، لكن «لي لي» دافعت عنها: «دي مش طريقة، دا مش كلام ».

وتطور الموقف إلى خناقة كبيرة و«أوديت» شتمت «لي لي» علشان دافعت عن الزميلة، والزميلة ساكتة، وانتهى الأمر ان أخدوا الأصوات وطردوا «لي لي» من منظمة «م.ش.م»، «لي لي» انهارت وخبطت على الباب وصرخت :

ـ عايزة اخرج، عايزة اكون لوحدي، مش عايزة اقعد مع الناس دول .

وتوحيدة جابتها عندنا .

قصة مؤلمة، اتعاطفنا معاها واتصاحبنا عليها واتكلمنا في السياسة وحكت لنا آراء «م.ش.م» وازاي هي مقتنعة بيها سياسيًّا، ولكن في النهاية دا رأي وفيه الديمقراطية. وابتدت «لي لي» تحكي عن حياتها الشخصية، بتحب دكتور مصري اسمه مراد المستكاوي، بيشتغل في الهلال الأحمر كطبيب ومرتبطين ببعض، ولكن من ساعة ما اتقبض عليها معندهاش أخبار منه. بعتت له أكتر من جواب تشرح له إزاي ممكن يوصَّل لها جوابات داخل السجن، بس الرد ما جاش. وعرفنا كمان إن أصلها جزائرية يهودية: اسمها «لي لي دايان»، بتتنطق «لي لي» مش «ليلى ».

بمجئ «لي لي» بقينا أربعة في الزنزانة مع إن قانون السجن بيقول تلاتة بالكتير، وبعد شهر اتفتح باب الزنزانة فجأة تاني وتوحيدة جايبة بنت تانية، أصغر من «لي لي» ووصلت لنا وهي بتعيط! مش قادرة تسكت من العياط، عكس «لي لي» اللي كانت ماسكة نفسها. يا عيني البنت التانية دي كانت في قاع هرم مقامات «أوديت»، عاملة ضفيرتين طوال وعندها حَب شباب في وشها، اسمها «فِيًّا ياناكاكيس»، يونانية مسيحية أرثوذكس، مش يهودية، عندها سبعتاشر سنة، أصغر حتى مني

أنا. وصلت لنا في حالة من الانهيار التام، ما نجَحِتش توصل زنزانتنا في حالة الذهول والتماسك اللي أظهرتهم «لي لي»، «فِيًّا» كانت بتعيط بصوت عالي وتبرطم عاوزة تدافع عن نفسها :

- أنا شيوعية .

مش عارفة «أوديت» اتهمتها بإيه في الزنزانة اللي هناك دي، بس واضح ابتدت تستقصدها زي ما استقصدت «لي لي». بوصول «فِيًّا» فهمنا منها إن «لي لي» واحدة من المسؤولين رتبتها عالية نسبيًّا، ولما جت «أوديت» شالت كل المسؤوليات من عليهم كلهم وخدت هي المسؤولية الكبيرة، الكل يسمعوا كلامها. «فِيًّا» استمرت تعيط يمكن أسبوع، وتبرطم إن هي بنت واحد يوناني من اللي أسسوا الحزب الشيوعي المصري سنة تلاتة وعشرين مع عُمَّال الترماي في الإسكندرية، يظهر نقابة عمَّال الترماي كانت بَرضُه من أوائل النقابات. أبوها من القاهرة، شخصية قوية، لكن كان مات خلاص ساعة الحكاية دي. وعرفنا إن كان عنده دكان بيع اسفنج في شارع سليمان باشا، أنا فاكرة الدكان دا واظن دلوقت بقى محل جزم، لو هو يبقى أكبر تاجر للإسفنج الطبيعي والصناعي في القاهرة .

«فِيًّا» حكت لنا إن لها أخ توأم اسمه «إيليُوس»، «إيليوس ياناكاكيس»، وان كلمة «إيليوس» بالجريجي معناها شمس. أبوهم كان شيوعي صحيح، ولكن كان عنده اعتقاد عميق بنظرية إسبرطة، كان إسبرطي، إسبرطة مدينة في اليونان كانت في حالة حرب دائمة مع مدينة أتينا. شعب اسبرطة كان عنده اعتقاد إن الأطفال لما يتولدوا مش لازم الواحد يحميهم ويربيهم، بالعكس، يسيبوهم بره في البرد ويرموهم في البحر علشان الضعيف يعيا ويموت أو يغرق، الضعيف جسمانيًّا مَلُوش حق أصلًا في الحياة ومش ضروري يعيش، النظرية دي اتسمت باسمهم. كانوا بيعتبروها نوع من التبذير إن المجتمع يخلّي باله من الأضعف بدنيًّا، وبالطريقة دي قدروا يستنبطوا سلالة شباب وأجيال من الأقوياء. بيحترموا القوة البدنية والقدرة على التحمل الجسدي أكتر من أي قدرات تانية. فلما اتولدوا العيِّلين دول، «فِيًّا» و«إيليوس»، أبوهم حاول يسيبهم في عز الشتا عريانين على السطوح، علشان اللي مش قدّها ياخد التهاب رئوي ويموت، واللي يستحمل يكمِّل. أمهم يونانية زيه وبيتخانقوا طول الوقت لأن الأم خايفة على عيالها ومعندهاش أي استعداد إن حد من ولادها يموت من البرد فوق السطوح وهي قاعدة تحت في البيت. بس أمهم ماتت وهما صغيرين، أطفال، والأب اتجوز ست يونانية تانية هي اللي ربت «فِيًّا» و«إيليوس»، وبعدين الأب كمان مات ومرات ابوهم خدت مسؤولية المحل والأولاد. «فِيًّا» كانت بتمدح في مرات ابوها دايمًا وتقول «هي أمنا الحقيقية» وبالفعل مرات ابوهم دي كانت بتجري عليهم زي عيالها. كان عندهم سبعتاشر سنة لما اتقبض عليهم هم الاتنين. ما اتقبضش عليهم متلبسين، اتاخدوا في حملة قبض على الخواجات اللي معروف عنهم إنهم ماركسيين أو شيوعيين من بعيد أو من قريب من غير أدلة، فترة أحكام عرفية في تسعة واربعين. قبضوا عليهم علشان يرحَّلوهم من مصر، ويطردوهم من البلد. «فِيًّا» كانت خايفة على اخوها من الترحيل لإن أصلهم يوناني فمفيش غير حيرحلوهم على اليونان. لكن اليونان كان فيها حكم فاشي، نظام شديد القمع. الشيوعيين اليونانيين كافحوا ضد النازيين واشتركوا في تحرير اليونان من الألمان والطلاينة، لكن بعد الحرب العالمية حصلت حرب أهلية في اليونان والعسكر الفاشيست مسكوا الحكم. كانوا بيقبضوا على الشيوعيين بالذات ويرموهم في سجن على جزيرة

بعيدة أظن كان اسمها جزيرة «ماركونيسوس»، مفيهاش ولا أكل ولا مية ومستحيل الهروب منها، احتياجات المعيشة بتوصل لهم من بره الجزيرة بالمركب، وكتير تتأخر وفيه سجناء بيموتوا على الجزيرة من الظروف القاسية، والتعذيب طبعًا. شوية بشوية سجناء الجزيرة دي اتشهروا في العالم، كتبوا في الجرايد الأوروبية إن الشيوعي اللي بيبعتوه هناك بيمر بتعذيب وحشي، واللي ما بيموتش من التعذيب بيموت من العطش أو المرض، ماحدِّش بيطلع حي من الجزيرة دي. أي شيوعي يوناني لسه ما اتقبضش عليه كان عايش مستخبي أو هربان في المنفى. تصوري «فِيَّا» واخوها مطلوب منهم يروحوا اليونان في التوقيت دا بالذات. غير إنهم أصلًا مولودين ومتربيين في مصر وبيعتبروا نفسهم مصريين، ما يعرفوش غيرها. فـ«إيليوس» كان زي المحكوم عليه بالإعدام و«فِيَّا» بتعيط، كانت سريعة العياط. أما مرات ابوهم الطيبة دي فكانت حتتجنن بتعمل مساعي يمين وشمال علشان يرحَّلوهم لفرنسا بدل اليونان .

ما شفتش «فِيَّا» تاني ولا سمعت عنها، بس مؤخرًا، بمناسبة أزمة ضرب المركز التجاري في أمريكا، قريت في جريدة «لو موند» الفرنسية بيان مكتوب من عدد من القراء، 8 أفراد كتبوا مقالة عن الإرهاب والحرب ضد الإرهاب واللي عمله الغرب في أفغانستان، ولقيت اسم «إيليوس ياناكاكيس» من ضمن اللي موقعين على البيان، فرحت قوي، وقلت حاكتب له أسأله عن «فِيَّا»، بس ما حصلش. الجرنال موجود عندي بس لازم أدور عليه مع الجرايد اللي لسه لازم أقصقصها هناك على الرف. ما كنتش عارفة انتهت إزاي قصة ترحيلهم من سنة 1949؟ واضح ان أمهم، اللي هي مرات ابوهم، نجحت توديهم فرنسا وعاشوا هناك .

أما «أوديت» فما شفتهاش تاني بعد السجن. بس لحد دلوقت باسمع عنها قصص القسوة من النوع دا .

الزنزانة اللي عشنا فيها كل دا كانت زنزانة نمرة اتنين .

الزنزانة نمرة واحد كان فيها شخصية غريبة، ست مصرية - مش خواجاية - كبيرة في السن ضهرها فيه أتب، قصيرة وعينيها فيها حول واضح، دايمًا لابسة اسود وبتعرج. غريبة في الوش وفي الجسم وفي الشخصية، مش واضح ليه موجودة معانا. «ميمي» شرحت لنا إنها أخت واحد شيوعي، قبضوا عليها بالمرة وبسبب الأحكام العرفية وعدم وجود محاكمة، كان فيه اعتقالات وترحيل بس، فالست دي مسكينة مرمية في الزنزانة مستنيَّة الفرج. الحقيقة اننا كنا مش مؤدبين كفاية معاها، هي معندهاش ثقافة ومش من سننا فكانت بالنسبة لنا ست مملة وإحنا ميالين نقعد مع بعض. شابات صغيرين حبينا بعض وتفاهمنا، نتكلم عن حياتنا ونقرا ونحكي عن الزيارات لما كان فيه زيارات، عشنا شوية حياة المعسكرات، وما نفكرش أبدًا نضحِّي بالصحبة دي لأي سبب. في الطابور يخرجوها معانا نسيبها تقف لوحدها، ساعات يسيبوا الزنازين مفتوحة على الممر، هي ما تخرجش، قاعدة لوحدها. «ميمي» الوحيدة اللي كانت تسيبنا - وعملته واجب على نفسها - وتروح تقعد معاها من وقت لوقت. بافتكر «ميمي» دايمًا بالخير بسبب الحكاية دي، تسألها، وتخليها تحكي شوية عن نفسها، عرفت منها مثلًا إنها كبيرة ومش متجوزة، وغنَّت لـ«ميمي» شوية أغاني مصرية قديمة، مفيش صوت، صوتها مش حلو ولكن بتجيب النغمة مظبوطة، و«ميمي» عندها الصبر تقعد تسمعها وتتكلم معاها وسألت عليها طول المدة اللي انا قضيتها في السجن. لما بافتكر بالاقي إن انا

كنت أنانية في الموضوع دا وكنا عيال قوي، بنقول لـ«ميمي» إنتِ بتضيعي وقتك ليه مع الست دي؟ ما نحبش نضيع وقتنا في المسؤولية الإنسانية، اتعلمت حاجات كتير في السجن، ومن «ميمي» بالذات اتعلمت المسؤولية الإنسانية .

*

فاتت أكتر من سنة بالطريقة دي، وجت حكومة «الوفد» للحكم بالانتخاب سنة 1950، أنا بانسى التفاصيل السياسية، سعد هو اللي بيبقى دايمًا فاكر الملابسات السياسية والأسامي بالتفصيل. المهم بالنسبة ليَّ إن حكومة «الوفد» شالت الأحكام العرفية، واعتقد إن دي من الفترات النادرة اللي عدِّت على مصر من غير أحكام عرفية. مع رفع الأحكام العرفية توقعنا ان تبتدي محاكمة المعتقلين زينا، لكن المحاكمات اتأخرت. سجن الرجالة كان جنب سجن النسا. العنبر الطويل اللي حكيت لك عنه كان فيه اتنين زيه في سجن الرجالة. سجن النسا وسجن الرجالة منفصلين تمامًا لكن كنا بنتصل بيهم عن طريق السجانات ومن شبابيك دورة المية اللي بتطل على حوش الرجالة، وقت طابور الرجالة وهم في الحوش، نطلع على الأحواض ونقف على راس الحنفية. بالطريقة دي وصل لنا خبر من الزملا إننا ندخل في إضراب عن الطعام للمطالبة بالمحاكمة. الإضراب الأولاني ذكرياتي عنه قليلة، ما أضربناش مدة طويلة، أسبوع تقريبًا وغالبًا كنت لسه بصحتي في أول الحبس، الإضراب التاني ستاشر يوم لغاية ما وصل خبر إن صدر أمر بتقديمنا للمحاكمة. الستاشر يوم دول كتار بس عملتهم، أنا دايمًا مليانة ودي الفترة الوحيدة اللي خسيت بصحيح وبقى وزني مناسب لطولي لأول وآخر مرة في حياتي، لحد دلوقت .

ورحنا المحكمة وكسرنا الإضراب في القفص، شفت أبويا وأمي أخيرًا، أصل زيارات المعتقلين كانت نادرة واستثنائية، ما كانش يحق لنا زيارات منتظمة زي اللي واخدين حكم محكمة. شفت أبويا وأمي في القاعة جايبين معاهم محامي عن طريق الكهربائي «ماريو صوفيا» زميل ابويا. «صوفيا» دل ابويا على محامي مصري علشان ييجي يحضر عنِّي في المحكمة. بس انا ما كنتش مهتمة بالقضية، كنت متأثرة بمنظر عشرات الرجالة والستات، كلهم شباب سنهم عشرين سنة تقريبًا، كتار، وكلهم مضربين عن الطعام، إحنا في القفص وأهالينا في القاعة. لمحت أسما البقلي في القاعة، خرجت من السجن من بدري وجاية علشان جوزها أسعد حليم، شافتني وشاورنا لبعض بحرارة. أبويا وأمي يا حبايبي زي كل الأهل جايبين لي عمود أكل بيحاولوا يوصلوه لي، طاسات العمود مليانة شعرية بشوربة وحتت فراخ، على أساس أكل خفيف زي ما قالوا لهم ان مش لازم آكل تقيل في الأول. من إيد لإيد في زحمة القفص والعواميد رايحة جاية وصل العمود بتاعي لأسعد حليم جوز أسما، شفته من مكاني هو وتلاتة اربعة من الزملا فتحوا العمود ونزلوا فيه أكل، ضحكت لأن شايفة أبويا وأمي من بعيد مش مبسوطين ان العمود ما يوصلنيش، مش متصورين أصلًا ازاي بطلت أكل 16 يوم بحالهم. بس انا كنت مبسوطة يومها من كل حاجة وكان فيه تفاؤل في الجو.
اتأجلت القضية تلات ايام، مش ممكن القاضي حينظر ويحكم في كل القضايا دي في يوم واحد، وبعد تلات ايام رحنا كلنا المحكمة تاني وصدر الحكم: أنا خدت سنة، وعبد الستار الطويلة تلات سنين زي «ميمي» وإجلال، وأظن عبد النبي طلع براءة أو خد سنة .

بالنسبة لعبد الستار الطويلة طول فترة السجن، يعني سنة ونص، كنت بافكر فيه قليل، هو لقى طريقة يبعت لي جوابات مع السجانة وكنت بارُد عليهم ساعات، مش عارفة ازاي اشرح، انفصلت نفسيًّا نهائي عنه وعن الفترة اللي قضيتها معاه، قفلت السكة دي. دي خصلة مخيفة شوية فيَّ، باقعد مدة ما يبانش عليَّ ولا حتى لنفسي إني حاخد قرار، وبعدين أول ما آخد القرار باكون في غاية الحسم، مفيش تردد .

نرجع للحكم والمحكمة أنا واخدة حكم سنة وكان بقى لي سنة ونص محبوسة، فخرجت في نفسٍ اليوم! رجعت السجن يا دوب ألم حاجتي واسلِّم على «ميمي» وإجلال علشان مش خارجين. سلّمت على كل الموجودين بس بسرعة كأني راجعة لهم تاني يوم، مش دريانة إن خلاص حاخرج فورًا بعد سنة ونص وإن حياتي في السجن حتخلص بعد دقائق .

خدت حاجاتي من الزنزانة وادوني اللي كنت سايباه في الأمانات، ولقيت نفسي بره .

ودُّوني المحافظة عند رئيس البوليس السياسي، كان اسمه فلان «القاويش»، نسيت اسمه الأولاني بس أكيد سعد يفتكره كويس والمرة الجاية حاقول لك على اسمه. كل دا حصل بسرعة، ووصلت المحافظة واستنيت، ما كانش فيه حد في الأوضة، وكان العصر .

أستنَّى واستنى واستنى مفيش حد ومفيش حاجة بتحصل، لغاية بالليل .

سنة ونص بعد مارس تسعة واربعين، يعني كنا خريف 1950 .

أخيرًا جه واحد قال لي :

- إنتِ حتخرجي بس اوعي ترجعي تاني تشتغلي مع الناس دُول، دول ناس وحشين .

«الناس دُول» بيقولها وهو بيشاور بصباعه زي ما الواحد بيهدد العيال، أنا زي العبيطة مش فاهمة مين اللي قدامي وبأرد عليه :

- أنا ما عملتش حاجة غلط، البوليس السياسي غلطان .

ساعتها وصل أبويا، ودخل الأوضة الكبيرة جدًّا، أوضة رئيس البوليس السياسي في المحافظة والراجل دا قال لابويا :

- خد بنتك، حتخرج، بس انت مسؤول عنها، ولو حتعمل أي حاجة تاني إنت اللي حتتحبس .

- حاضر يا افندم، أيوه طبعًا .

وانا باحاول أقاطع واعارض .

ـ تاني؟ مش كتبت بإيدِك اللي حصل؟

أبويا عايز يخلص الموضوع وياخدني ويطلع، وفعلًا نِجح وخرجنا. بعد كدا فهمت إن دا رئيس البوليس السياسي، اللي اسمه القاويش. وعرفت انهم خلّوني استنى كل الوقت دا علشان ما كانش عندي واحد وعشرين سنة، قاصر ما اقدرش اخرج لوحدي، ومعنديش جنسية معينة ما يقدروش يطردوني من البلد، فلازم يسلموني لأبويا شخصيًّا، فبعتوا يجيبوه. أبويا أخدني البيت وأمي كانت محضرة عشا فراخ وشوربة، ملتزمين، علشان انا خارجة من إضراب ستاشر يوم. كنت باسلم عليهم وبيحضنوني وباتكلم، أبويا فجأة قام وبص لي وقال لي :

ـ ياه إيه دا؟ وشِّك صغير قوي .

كان بقى لهم كتير ما شافونيش، وحشاهم ومخضوضين عليَّ وكنت خسيت كتير، بس منوَّرة من جوه وسعيدة مش حاسة ولا بالتعب ولا بالجوع .

ابتدت بقى مرحلة تانية .

أنا باقيِّم مرحلة السجن الأول إنه انفراجة كبيرة، مش خبرات عملية لكن ذهنية وثقافية ونفسية. اتصالي بالناس دول فتح لي طاقة. يمكن هو دا السبب اللي خلاني مش عايزة يبقى لي دعوة بعبد الستار الطويلة .

و... نكمل مرة تانية؟

لا استني !

اللي بيخرج من السجن بيسأل اللي مش خارجين إذا عايزين حاجة من بره، يوَصَّل لهم جواب لحد أو يتصل بحد، خدمات زي كدا. وبالرغم من طيشي لحظة الخروج ما نسيتش اسأل، وفعلًا «لي لي دايان» كتبت جواب لمراد خلتني أقراه وطلبت مني أوصَّله، مضمون الجواب إنها «كتبت له كذا مرة وهو ما ردش، وإنها ما تعرفش إيه مصيرها بس في الغالب حيرحلوها وحتضطر تسيب البلد، وإنها تحب تعرف أخباره وأثر السجن على علاقتهم، ناوي يعمل إيه؟»، وقالت لي أروح له في مستشفى الهلال الأحمر جنب سجن الأجانب. أنا اعتبرت الحكاية دي واجب كبير على نفسي، وأول ما خرجت، يا دوبك بعد يوم أو يومين بالكتير خدت بعضي ورحت على الهلال الأحمر، د. مراد المستكاوي ما كانش موجود، استنيته، وفي الآخر جه وقابلته. شاب لطيف، أسمر شعره إسود، رفيع وطويل، لكن مش مبتسم .

ـ أنا فلانة كنت في السجن مع «لي لي دايان»، «لي لي» ادِّتني الجواب دا أوصله لك .

خد الجواب من غير ما يتكلم، فتحه وقراه قدامي، افتكرت حيسألني «أبعت لها الرد ازاي؟» وكنت جاهزة أشرح الطريقة، أقول له المراسلة مع السجن تتعمل ازاي، إنما هو خلَّص قراءة وطبق

الجواب ورجعه في الظرف وحطه في جيبه .

ـ متشكرين .

ـ خلاص؟

ـ متشكرين قوي .

وسلم عليَّ بالإيد علشان امشي، ومشيت. ما أبداش أي اهتمام بالجواب وما عرفتش عمل إيه إلا بعدها بسنين .

2

كان بيمشي بإيديه ورا ضهره، وقور ووسيم قوي .

فجأة سعد ساب المجموعة اللي كان معاها وجه لِعَندي، بالظبط زي ما عمل من كام سنة في المدرسة الليلية لما كان بييجي مع جميلة أخته ياخد دروس انجليزي .

ـ إحنا مش اتقابلنا قبل كدا؟ مش انا أعرفك؟

ـ لأ، ما حصلش .

رجع لمجموعته واستمر يلف في المعرض معاهم، بعد شوية سابهم تاني ورجع لي :

ـ إنتو بتقعدوا هنا لغاية الساعة كام؟

ابتدا يجر شَكَلي علشان ياخد ميعاد ونخرج مع بعض، أنا كنت باخلَّص وَخري ويا دوب أوصل البيت الساعة 8 فما نفعش .

مرِّيت بحالة غريبة شوية بعد ما خرجت من السجن، كأن اللي فات ما حصلش .

رجعت لحياتي من جديد، أحاول اشتغل، أروح رحلات واتعرف على ناس، ودا طمِّن أبويا وأمي. أخويا ما كانش سافر لسه، فأبويا أخدنا ناكل في محل زكي السماك الجديد. يظهر المحل كبر شوية في أبو العلا ففتحوا محل تاني قدام «عمر أفندي» على ناصية شارع عبد العزيز والساحة، مطرح سينما «بارادي»، وعملوا فيه قعدة للأكل وترابيزات وأصبح «مطعم»، وعلى الباب جنب الكيس تلاجة كبيرة بكل الأسماك. ودي كانت آخر مرة أروح لزكي السماك وكانت بمناسبة خروجي من السجن، والحقيقة نفسي أروح تاني علشان أشوف المحل زي ماهو ولّا لأ .

خرجت من السجن لقيت «ألبير آربيه»، غالبًا كنت اتعرفت عليه أيام «البيك»، النادي الطلياني، قبل السجن. «ألبير» زيِّ حالاتي، من الخواجات الشيوعيين القليلين اللي ما سافروش بس ما كانش في القسم الطلياني، يجوز كان من القسم الفرنساوي. مش فاكرة اتعرفت على «ألبير» إزاي أصلًا، سألته وحكى لي قصص ما عرفتش أفتكرها. «ألبير» شخص لطيف جدًّا يعرف كل حاجة عن كل الناس وعنده ذاكرة كويسة، لغاية دلوقت بيفتكر وبيتتبع الناس، عامل مخه أرشيف . بس مش عايزة ادعي إني افتكرت، اللي أفتكره كويس إن «ألبير» أنقذني من الوحدة لما خرجت، خدني نقابل مجموعة شباب متخرجين من مدرسة «الليسيه» الفرنساوي، وكان فيهم واحد اسمه «أوسمو»، المجموعة دي ما كانش لها دعوة بالشيوعية، نوضَّب جلسات قِراية شعر «أراجون» و«إيلوار»،

و«جاك بريفير » ، شعراء هايلين، موضة في العالم كله بعد نهاية الحرب العالمية . «ألبير» عرَّفني كمان على حليم طوسون وبقينا أصحاب إحنا التلاتة. تقريبًا نفس السن، سبعتاشر تمانتاشر. «ألبير» ما كانش اتقبض عليه قبل كدا، وحليم كان اعتُقِل فترة قصيرة، أبوه حليم طوسون بتاعنا اللي انتِ تعرفيه كويس وتحبيه جدًّا، كان في مجموعة متطرفة شوية و«ألبير » في «حدتو»، راح حليم طوسون واتنين تانيين معاه دخلوا بيت «ألبير» وحاولوا يسرقوا المكتبة، كانوا حاطين كتب وأرشيف «حدتو» عنده في أوضة النوم، أنا فاكرة موقع المكتبة في بيت أهله وحصلت معركة، أظن ما نجحوش، «ألبير» عرف يطردهم من بيته وما قدروش عليه، يمكن بمساعدة أهله؟ هم اللي حكوا لي، أنا طلعت من السجن لقيتهم أصحاب .

فـ«ألبير» عرفني على حليم، وحليم عرَّفني على فؤاد حداد، وبقينا نخرج مع بعض يقرا لي شعر، نشر ديوان رفيع مجموعة أشعار أو يقرا شعر بالفرنساوى. كنا بنمشى بِحرية، فترة غير فترة السرية الشديدة اللي مرت قبل ما يتقبض عليَّ، كله في الشارع في الأماكن العامة، المقابلات بتحصل بشكل علني. مرة فؤاد حداد جه قال لي :

ـ أنا باحب واحدة .

كويس، يعنى إيه الغريب في دا؟ مفيش غريب بالنسبة لي .

ـ عاوز أهديها هدية، حتة قماش، تيجي تساعديني نختارها مع بعض؟

قلت قوي قوي قوي، نزلنا شارع قصر النيل وقعدنا نبص في الفاترينات ونقينا الهدية ودفع الفلوس وفعلًا فؤاد اتجوز زكية، وجابوا أولاد، قصة حب جميلة عشان الشابة دي كانت من طبقة مختلفة، أهل فؤاد حداد ناس «مبسوطين» وهي مسلمة وهو مسيحى. أصرَّ عليها وأسلم واتجوزها وراح اتقبض عليه، لكن لما خرج عاشوا مع بعض وجابوا الأولاد اللي انتِ تعرفي منهم يمكن أمين. فؤاد قال لمراته إن حتة القماش دي أنا اللي اخترتها. وهي كانت دايمًا لطيفة معايا ولكن مصرَّة تناديني «روزا»، يظهر حاجة بين «ماري» وبين «روزنتال ».

واتعرَّفت كمان على كمال عبد الحليم اللي «ميمي» كانت بتقرا لنا شعره في الزنزانة، وانا خارجة إدِّتني نمرة تلفونه أو يمكن عنوانه. كمال في الفترة دي كان لسه متخرج، وابتدى يتشهر كشاعر، وبقينا نتقابل مرة في الشهر تقريبًا في واحد من كازينوهات مصر الجديدة أترجم له شعر «إيلوار» و«أراجون» من الفرنساوي للعربي. كمال كان معجب جدًّا بـ«بابلو نيرودا» من شيلي، نقرا له سوا ترجمة فرنساوي، أنا أساعده في اللغة وهو يشرح لي أبعاد مش بافهمها في الفكرة الشعرية. الشِّعر لعب دور كبير في حياتي في الفترة دي، وابتديت أقرا «بول إيلوار» و«أراجون» والشاعر اللي بنحبه «بريفير»، وإذا بي في مرة أقرا قطعة شعر لناظم حكمت الشاعر التركي، مُترجَم للفرنساوي، مشهد سقوط مدريد في إيد الفاشيست أيام «فرانكو»، ناظم حكمت قال إن التلج يومها نزل أحمر بدم المحاربين وإن قلبه وقف على أبواب مدريد من الحزن، مدريد وقعت في إيد الفاشية، افتكرت مُدرسة تالتة ابتدائي، سعيدة بهزيمة الاشتراكيين، بتحتفل بانتصار الفاشية وبسقوط مدريد، بتصور

قوات «فرانكو» إنهم أبطال وتمدح في نازيين ألمانيا اللي بيحاربوا في صف فرانكو، وتسميهم «قوات الحرية».

كنت باروح القلعة أتصور عند جمال كامل ويرسمني، وارُوح ندوة لـ«أنصار السلام» وبعدين معرض خرِّيجي كلية الفنون الجميلة اللي منهم حسن فؤاد، لوحة تخرجه كانت حمامة سلام، وكنت بالعب كرة سلة في النادي مع الطلاينة بالليل في مبنى مدرستي القديمة - «دانتي ألليجييري».
اشتغلت سكرتيرة في جرنال اقتصادي كان بيطلع في مصر بالفرنساوي اسمه : «Le Nouvel Observateur» - «المرصد الجديد». كنت باعمل كل الحاجات دي في نفس الوقت، وحياتي كلها في الشوارع وفي الأماكن العامة بشكل علني .

دا كان سنة 1950، خرجت من السجن استأنفت حياتي من الأول كأن ما حصلش حاجة، لغاية لما حليم طوسون خدني في شغلانة في السفارة المجرية سنة 1951، السفير كان اسمه «زاجور»، راجل متفتح ومودرن، عنده فكرة إن يعمل علاقات طيبة مع بلاد العالم التالت عن طريق نشاطات شعبية، مش عن طريق السياسة والسياسيين، عزم على فريق الكورة المجري ييجي يلعب في مصر مع فرق الكورة المصرية، «بوشكاش» البطل العالمي كان بيلعب في فريق المجر. اسمه بيتكتب «بوسكاس»، يمكن الـ «S» بالمجري بتتنطق «ش»؟ «بوشكاش» دا كان تحفة، نجم كبير في العالم كله فما اعرفش أوصف لك قد إيه المصريين هنا كانوا سعداء وفرحانين، «بوشكاش»!
«بوشكاش»! «بوشكاش»! اسمه كان مكتوب في كل حتة في الشوارع، وصوره كمان. حليم كان بيشتغل في السفارة المجرية ومنظمين معرض لصور الأطفال في مقر متحف الفن الحديث، على ناصية شارع قصر النيل مع شامبليون. يا ترى المبنى لسه موجود ولَّا هدُّوه زي ما هدُّوا بيت هدى شعراوي؟ أنا اشتغلت في المعرض دا وفي يوم دخلتْ مجموعة من الشخصيات - مجموعة فخمة كدا - ومن ضمنهم سعد، ناس ذوق، سلموا على البنت اللي واقفة على الباب، اللي هي أنا. شغلتي كانت إني ألفت النظر لدفتر الزوار يكتبوا فيه اسمهم وكلمة تعليق أو شكر، وكل ما الموسيقى تقف أبتدي الاسطوانة من أولها علشان يكون فيه مزيكة في الخلفية على طول. سعد عمل لفة مع الضيوف وبعدين جه عندي :

- أنا شفتك قبل كدا؟ فين؟

بس انا أنكرت. مشي عمل لفة تانية ورجع :

- انتو بتخلصوا الساعة كام؟ ممكن اعدي عليكِ؟

كنا بنخلص الساعة 8م وكان لازم أروَّح على طول علشان ما اتأخرش على البيت وأهلي يقلقوا، فقلت :

- ما ينفعش .

وخلاص .

قابلت سعد تاني بمناسبة بَرضُه تبع السفارة المجرية، يمكن عرض فيلم، وحضرت نفس مجموعة «أنصار السلام»، المرة دي ما كنتش باشتغل فقعدت على فوتيل من الفوتيلات، وبعد شوية جه سعد وقعد على إيد الفوتيل واستند بالإيد التانية على ضهر الكرسي. شوية وقام جاب طبق بتيفور ما أكلش منه، عرفت بعد كدا إنه ما بيحبش الحاجات المسكرة، بس انا باحب الأكل حادق ومسكر، فأكلته كله. قعدنا نتكلم طول الأمسية، لا هو قام عمل نوع من الواجب مع الناس ولا أنا. فضلنا نتكلم وهو يبص لي وانا أبص له كالحبايب، وممكن اقول إن من ساعتها ابتدت علاقة حب بيني وبينه.
يوسف حلمي صديق سعد الحميم كرر عدد من المرات :

ـ لما شفتكم لزقتم في بعض بالطريقة دي قلت الاتنين دول حيحبوا بعض وحيتجوزوا .

ما اتجوزناش على طول بس دي كانت البداية فعلًا. رجع سعد يسألني واحنا قاعدين على الفوتيل :

ـ بس انا شفتك قبل كدا في حتة مش قادر أفتكرها .

بَرضُه أنكرت وقلت له لأ .

كل ما كان فيه مناسبة سعد كان بياخدني معاه وكنت متجاوبة معاهم كلهم. يوسف حلمي كان مشغول بتكوين جمعية لأصدقاء سيد درويش، يجتمعوا ويغنوا أغانيه ويجمعوا تراثه. سيد درويش كان بيتنسي وابتدى يضيع، يوسف حلمي كان بيقول إنه عبقري ولازم نحافظ على موسيقاه كجزء من التراث المصري، وله الفضل في إنقاذ تراث سيد درويش، وبالطريقة دي اتعرفت أنا على موسيقاه. رحت مع أصدقاء سعد كمان الأفلام المصرية، وانبسطت من اكتشاف أفلام نجيب الريحاني زي «أبو حلموس». وعرَّفني على أعضاء حركة السلام وفهمني هم مين، إبراهيم باشا رشاد رائد في حركة التعاونيات وتقدري تسألي عمك عز عليه، إنت تعرفي ابنه حسن رشاد صديقنا. والبنداري باشا كان سفير مصر في موسكو أيام الملك ووقع في حب النظام الاجتماعي الشيوعي الاشتراكي من حضانات للأطفال والنشاطات التعاونية لدرجة سمُّوه «الباشا الأحمر»، ولما اتكونت لجنة «أنصار السلام» البنداري باشا كان من أوائل اللي انضموا لها، كان أهم شخصية فيهم وأكبرهم في السن، فعملوه رئيس لحركة «أنصار السلام» في مصر، وكان فيه سيزا نبراوي رائدة للحركة النسائية التقدمية، شخصية عالمية. سعد نفسه كان من الشخصيات البارزة في حركة السلام على صغر سنه. كان متحمس وكان بيحكي لي كتير عنها. في أواخر الأربعينات بعد انتهاء الحرب العالمية التانية بانتصار الحلفاء على النازية، على طول ابتدت بوادر توتر بين الحلفاء وبعض، يعني نزاعات وصراعات سياسية داخل صفوف القوى المنتصرة. أمريكا والغرب انتصروا على النازية بتحالف ومشاركة كاملة من الاتحاد السوفيتي الاشتراكي الشيوعي، دا أدَّى إلى تقسيم أوروبا إلى منطقة شرقية ومنطقة غربية، أوروبا الشرقية في حلف وارسو مع الاتحاد السوفيتي، والدول الغربية الحلف الأطلسي ـ «الناتو » ـ مع الولايات المتحدة. وابتدى الصراع بين الكتلتين يشتد على جميع الأصعدة إلا صعيد المواجهة المسلحة المباشرة. ازدهرت في الغرب بعد الحرب فكرة إن «مش عايزين حرب تاني لأن الحرب ما بتخدمش مصالح الشعوب» ونشأت «حركة السلام العالمي» كرد فعل ضد الحرب الباردة. حركة تطالب شعوب العالم بالضغط ضد التسليح وضد تصعيد الخلافات اللي ممكن توصل لحرب تاني ـ المرة دي بين الرأسمالية والشيوعية .

اللجنة الفرنسية لحركة السلام نظمت مؤتمر تأسيسي وابتدوا يحشدوا القوى العالمية المستقلة، بعتوا لمصر مندوبين، من ضمنهم كاتب اسمه «مايكل بوج» اللي اتصل بعدد كبير من الشخصيات المصرية وطلب منهم يأيدوا الحركة ودعاهم للحضور والمساهمة في تأسيس حركة السلام. سعد في الوقت دا كان عضو في «الحزب الوطني» وماسك رئاسة تحرير مجلة «اللواء الجديد» مجلة الحزب. «الحزب الوطني» حزب قديم تبع أفكار مصطفى كامل ومقاومة الاحتلال الإنجليزي، غير خالص الحزب الوطني الجديد بتاع السادات ومبارك. حسب كلام سعد، الدعوة كانت شخصية مش حزبية، شخصيات كتيرة في الحزب رفضت الدعوة، لكن يوسف حلمي المتفتح ومتعدد الاهتمامات، عنده رؤية عامة، وكان شخصية عامة، تجاوب مع دعوة «مايكل بوج» وخد مهمة تأسيس لجنة لحركة «أنصار السلام» هنا في مصر، سعد اتحمس للفكرة، واتصلوا بعدد من الشخصيات العامة وكوِّنوا اللجنة المصرية، برئاسة البنداري باشا ـ الباشا الأحمر ـ وعضوية إبراهيم رشاد وسيزا نبراوي، واختاروا سعد كامل سكرتير للجنة ويمسك مجلة «الكاتب» ـ مجلة اللجنة ـ وقرروا كمان إن سعد هو اللي يحضر المؤتمر التأسيسي ويقول باسمهم كلمة «أنصار السلام» المصريين. سعد ساعتها كان عنده تقريبًا 28 سنة وكان أصغر واحد فيهم وسافر النمسا وحضر المؤتمر .

غاب سعد عني مدة طويلة وفوجئت به بيكلمني في التلفون :

ـ أنا رجعت .

ـ طب كويس .

وفوجئت إنه جايب لي معاه هدية، الهدية دي موجوده لغاية دلوقت عندنا، إيشارب صوف طبيعي حلقات أخضر فاقع على أرضية سودا، والناحية التانيةٍ دوريات سودا على خلفية خضرا، «double-face» ـ بروحين ـ اتغسل مرة بالغلط فكشٍّ لأنه صوف حقيقي. السفرية دي مثلت تجربة كبيرة لسعد لأن رواد السلام في العالم ناس كبار ومهمين، علماء، فنانين ومفكرين لهم قيمة ووزن، وكتير منهم مش شباب، ودا كان المؤتمر التأسيسي. بيحكي لي سعد إنه لقى نفسه في قاعة مؤتمرات ضخمة، واقف في طابور طويل من المتحدثين، وكل واحد يقرا كلمة تعبر عن فهم للسلام وليه انضموا للحركة، قبله ناس وبعده ناس، لما جه دوره فوجئ إن القاعة احتفت به وبكلمة مصر اللي هو ألقاها وقاطعوه بالتصفيق مرة أو مرتين، اهتموا بيه وبمصر وادُّوا له إحساس بالثقة. بالطريقة دي ابتدت حركة السلام كنوع من النشاط العام في مصر. مثقفين وفنانين مصريين كتير انضموا للحركة، وانتشرت فكرة إن «يستحسن إن السياسيين ما يتسابوش لوحدهم في السياسة» و«لازم عدد كبير من الأدباء والكتاب والممثلين والرسامين والمبدعين من أهل الفن والثقافة ياخدوا موقف» ويتكاتفوا مع بعض ضد الحرب والاستغلال. سعد كان أصغرهم في حركة السلام، أصغر من إبراهيم رشاد ومن يوسف حلمي ومن سيزا نبراوي ومن البنداري باشا، وكان عنده قدرة يسمعهم كلهم باهتمام وفي لحظة يتدخل يقترح اقتراح أو يحدد رأيه في مسألة، وكانوا بيسمعوه باهتمام وغالبًا يوافقوه، فجالي إحساس، وكان إحساس مظبوط، إن عنده رؤية قوية وسطيهم .

من ضمن اللي لبُّوا النداء دا ودخلوا الحركة بقلبهم كانت تحية كاريوكا . تحية كاريوكا ساعتها ما كانتش نجمة عادية، دي كانت نجمة النجوم، في السينما وفي المسرح، الرقَّاصات يقلدوا رقصها هي

أو سامية جمال ملهمش تالتة، فمسألة إن تحية كاريوكا تقبل تكون سفيرة لفكرة السلام في مصر، كان له معنى كبير . اتعرفت عليها في الإطار دا ولقيتها بعيدة عن نمط نجوم الفن السينمائي الاستعراضي، بعيدة كل البعد، كانت فاتحة بيتها ملتقى فكري، مضيافة وروحها لطيفة تدخل بنفسها المطبخ وتحضَّر. وكانت على علاقة بظابط في الجيش اسمه مصطفى كمال صدقي، راجل جميل وطويل زيها. تحية اتجوزت كذا مرة وهي لسه في عز شبابها وقمة شهرتها :

ـ أنا مش محتاجة حد يعيشني، أنا عايشة مكفيَّة نفسي، لكن ما احبش أعيش في الحرام، لو مبسوطة من حد، ما نتجوز؟

كانت سعيدة إن الناس دول جايين لها في بيتها، وسعيدة إن عندها بيت حلو ومريح وصالون كبير، وإن ضيوفها لما بيتناقشوا ـ ومن ضمنهم سعد ـ مش بيقولوا تفاهات، الحديث بينهم دايمًا على مستوى عالي. كانوا بيشربوا وهي تحضر الويسكي والمزَّات من غير ضيق وبشكل طبيعي مفيهوش قلة احترام، ولما السهرة تطوِّل تسيبهم في وسط الكلام، وتخش تحضر بالوظة، رحت وراها المطبخ علشان أشوف بتعملها ازاي :

ـ أنا مش باعمل البالوظة باللبن، تقيل وبيعمل غازات، باعملها بالنشا وعصير الفاكهة .

البالوظة نوع من المهلبية الخفيفة .

ـ كويسة بعد الويسكي، ما تتقلش على القلب .

والضيوف ياكلوا البالوظة والكلام يستمر. صلاح حافظ ساعتها كان من الكتَّاب الصاعدين في «روز اليوسف» وكان متجوز الممثلة هدى زكي بنت ممثل أعتقد اسمه إبراهيم زكي، للأسف مش متأكدة من اسمه. صلاح كان بيحضر قعدات بيت تحية كاريوكا، يقروا مقالاته ويناقشوه وهو يغني لنا سيد درويش، صوته ضعيف لكن حلو كله طرب ياخد قلبك، ودنه مظبوطة. أنا اتعرفت على صلاح حافظ في بيت تحية كاريوكا وبعد كدا بقينا اصحاب وكان بييجي عندنا في البيت كتير، صداقة دامت العمر كله .

*

أنا ما حبيتش سعد على طول مرة واحدة، إلى حد ما في البداية كان واحد من المجموعة وانا مبسوطة أخرج معاهم، لكن سعد بالتحديد كان له الفضل إنه يعرفني على «شارلي شابلن». رغم إن المفروض إن انا اللي خواجاية واتفرجت على «شارلي شابلن» من وانا طفلة، إلا إني ما كنتش باحبه، ودا غالبًا لأن أبويا كان بيحب «شارلي شابلن» زيادة وكان بيصمم ياخدنا نتفرج عليه بانتظام. حكيت لك عن سينما «بارادي» اللي كنا بناكل فيها خشاف يوم الحد وكنت بافضَّل حكايات القراصنة والأفلام الموسيقية اللي انتشرت بعد الحرب. أما أفلام «شارلي شابلن» مش فاكرة منها إلا مشهد بيت بيتزحلق حيقع من على الجبل وشابلن يجري من ناحية وبعدين يجري يلحقه من الناحية التانية، من فيلم «Gold Rush» ـ «حمَّى الذهب» ـ المشهد دا ضحكني كتير لكن غير كدا

مفيش. في خروجة من ضمن الخروجات اللي بدون أي هدف اللي كنا بنعملها علشان نشوف بعض إذا بسعد يقول لي :

ـ فيه فيلم «مسيو فيردو» لـ«شارلي شابلن» في سينما «أوبرا».

ـ أنا ما باحبش «شارلي شابلن».

ـ إيه؟ ما بتحبيش «شارلي شابلن»؟ !

ـ لأ ما باحبوش .

فعمل مرافعة دفاع عن فن «شارلي شابلن» قدامي :

ـ لا لا لا، أنت لازم تعرفي إن «شارلي شابلن» دا راجل عظيم، ضروري تيجي تشوفي «مسيو فيردو»، شفته مرتين وحاروح اشوفه للمرة التالتة علشانك .

رحت معاه وبَرضُه ما عجبنيش، تلاقي تربيتي الثقافية لغاية ساعتها ما كانتش عميقة كفاية علشان افهم السخرية والأبعاد اللي في فيلم «مسيو فيردو»، ولكن مجاملة لسعد قلت له :

ـ أيوه عجبني .

بعدها نزل فيلم تاني، اللي فيه بنت عميا بتبيع ورد، «City Lights» ـ «أضواء المدينة» ـ أيوه، وبَرضُه صمِّم ياخدني أشوفه، يظهر سينما «أوبرا» كانوا عاملين أسبوع أفلام «شارلي شابلن». ورحت مجاملة تاني، بس المرة دي اتأثرت، أصله دراما، ميلودراما، حبيته بشكل! وفي الآخر قعدت أعيط واعيط وسعد كان مبسوط، لما خرجنا قال :

ـ يعني أنا عندي حق شابلن راجل عظيم .

بعد مدة جا فيلم «الدكتاتور العظيم»، كنت شفته مع ابويا بس ما رسخش في ذهني إلا مشهد دكتاتور يشبه هتلر بيلعب بالكرة الأرضية زي بالونة بالمؤخرة فوق مكتبه. لما شفته تاني مع سعد بعد الحرب وكنت فاهمة شوية عن النازية والحكم الشمولي، فاستوعبته أكتر. وأخيرًا جا فيلم «أضواء المسرح» في سينما «ريفولي» كانت لسه سينما جديدة ومنزلة أحدث أفلام «شارلي شابلن» والدخول بدعوات. يوسف حلمي كان بيرعانا، عرف يجيب لنا تذاكر ورحنا احنا التلاتة افتتاح الفيلم في مصر .

الحادثة دي، حادثة إن سعد علمني أفهم واستمتع بـ«شارلي شابلن»، خلّتني أحترم وجهة نظره واشوفه، شوية بشوية ابتديت أعرفه فشعوري بقى أعمق. لغاية اللحظة دي من علاقتنا إلى حدٍّ ما كنت متصورة إن انا مثقفة أكتر منه، إحساس بالتعالي تجاهه. فكرة كانت موجودة عندي، كنت فاهمة غلط حاجات كتير، منها إن الشيوعي بيفهم أكتر وأشطر وأخلاقه أحسن، مش مظبوط طبعًا،

كل دا مش صحيح. أنا كنت شيوعية بوضوح من صغري، وهو أيامها كان لسه بيقول إنه مش شيوعي. كنت فاكرة إن الثقافة هي السياسة والسياسة هي الشيوعية، والباقي كله كلام خفيف، ما كانش عندي فكرة عن الحياة السياسية في العلن، كنت فاكرة إن السياسة الجد لازم تكون شيوعية، وإن الشيوعية الجد لازم تكون سرية، والسياسة الجد لازم تكون سرية. لكن ابتديت أفتَّح واقدَّر سعد بعد ما جرِّني لأفلام «شارلي شابلن»، قلت لنفسي «مش شخص تافه، لا، بيفهم، مع إنه مش شيوعي!». أمَّال مين هو «الشيوعي»؟ تعريف الشيوعي في الأحزاب هو «اللي يدفع الاشتراكات، ويرضى بالديمقراطية المركزية، ويبقى عضو في إحدى خلايا التنظيمات الحزبية». فطول ما الواحد ما بيدفعش اشتراك للحزب بالفلوس والحزب مَلْوش سلطة عليه ومش ملتزم بقراراته، يبقى مش «شيوعي» ونقول عليه «متعاطف». عمومًا حبيت سعد أكتر، أصله «مش شيوعي»، كان ساعتها من «أنصار السلام» بس، ومن أنصار الحياة الديمقراطية بس، مش بالطريقة المنظمة اللي أنا اعرفها من المنظمات الشيوعية. والاجتماعات اللي بيجرجرني معاه نحضرها كانت علنية، وحلوة قوي، مناقشات غنية مفيهاش جمود اجتماعات الخلايا الشيوعية السرية. مقابلتي لكل المفكرين والفنانين دول إداني نوع من الإحساس بالسعادة وإحساس إني أحب اعيش بالطريقة دي، أهتم بالسياسة ولكن مش في السرية اللي عرفتها قبل السجن. لغاية النهاردا ما اعرفش إمتى سعد انتقل من «أنصار السلام» إلى عضوية فعلية في الحزب الشيوعي. سعد كان مهتم بالسياسة من صغره بفضل خاله فتحي رضوان، وأصبح عضو في «الحزب الوطني» ـ القديم طبعًا ـ وفي فترة دخل مجموعة الاغتيالات. لما اتعرفت عليه ما كنتش اعرف حكاية الاغتيالات دي، بس اقصد إن فكره السياسي كان فيه خبرة وتجربة قبل الحزب الشيوعي، دخل الشيوعية بشيء من النضج السياسي، أنا لما دخلت السياسة دخلت على الحزب الشيوعي على طول، ما كانش عندي خبرة .

وبعدين انا حياتي الثقافية كانت محدودة في المدة اللي عشتها مع أبويا وأمي، بنحب الأوبرا، و«فيليتشتا» بلديات أمي اللي جت تسكن عندنا بتحب الأوبرا كواحدة طليانية بسيطة، زي أي ست مصرية بسيطة تحب أم كلثوم. أول ما خلصت الحرب وابتدى النشاط الثقافي يرجع اشترت تذاكر وخدتني ورحنا مع بعض. كانوا مقدمين أوبرا «بلياتشي» و«كافالريا روستيكانا»، بيتعرضوا دايمًا مع بعض علشان قصيرين. دي كانت أول مرة في حياتي أدخل الأوبرا، «فيليتشتا» ما كانتش غنية فقطعت في أرخص أماكن فوق في آخر دور في البلكون ـ «عشة الفراخ»، بيسموه كدا ـ وهي ست كبيرة عندها رِجل أقصر من رجل وبتعرج والواحد يشوف المسرح من بعيد، ومع ذلك كانت أمسية مبهرة ليَّ. غيرِ كدا نسمع «تينو روسي» في الراديو، وأبويا ياخدنا السينما، دي كانت حدود حياتنا الثقافية. أما حياتنا اليومية فكانت بتاخد شكل بيتي، أكلِ وشرب وشغل وتنضيف ومذاكرة، والمناقشات كانت بتدور حوالين مواضيع زي أكمل ولَّا ما اكمِّلش الدراسة؟ وازاي؟ ويبقى أحسن اروح اشتغل على طول بدل ما اسافر إيطاليا وحاجات من النوع دا، أما الأفكار والمفاهيم والحياة العامة الثقافية والسياسية فكانت محدودة في البيت عندنا .

راح سعد جاب تذكرتين دعوة للأوبرا، كانوا بيقدموا أوبرا «عايدة»، أول مرة أقعد في الصالة، وأول مرة أخش الأوبرا من الباب الرئيسي لأن عشة الفراخ لها باب جانبي ومش ضروري شياكة كبيرة في اللبس. أبويا وأمي كانوا يعرفوا ترزي ييجي البيت ويعمل الشغل في يوم واحد ـ تصوري؟ شطارة غير معقولة يا ريت الخياط دا كان لسه موجود دلوقت ـ عمل لي تايير كلاسيكي أزرق

«bleu-marine» ، جاكيت وجونلة. لبست التايير الشيك الجديد وبلوزة بيضا بالدانتيلا والكولة من برَّه»، قالوا لي بتليق عليَّ. إتشيِّكنا ورحنا الأوبرا احنا الاتنين. أثناء العرض لاحظت ان سعد ما كانش مندمج، فيه حتت من الأوبرا غنا طويل ولازم الواحد يعرف القصة والنغمة، بس سعد استحملها، يبص لي وانا اسمع. سعيد إن انا سعيدة .

بالطريقة دي أنا دقت طعم الحياة العادية على مستويين، عادية بره السجن وعادية مش سرية، مختلطة بحياة ذهنية وثقافية. وانا باحكي لك الكلام دا كله ليه؟ علشان انا مع سعد فوجئت إن العالم حاجة تانية، ومع إن النادي الإيطالي «البيك» اللي دخلته أواخر 1946 كان بداية انفتاح على حياة أوسع وأفكار «سياسة وثقافة» لكن بَرضُه كانوا شباب ضد الفاشية بعد الحرب ومحصورين في جانب واحد: إن الماركسية والشيوعية تتقدم في العالم. بعدهم عشت فترة شديدة السرية أيام التهرُّب من البوليس مع عبد الستار الطويلة، تجربة مُظلمة كدا، فترة توزيع المنشورات بلا مناقشات ولا متابعة للأحداث ولا إثراء فكري ثقافي، وانتهى الأمر إني رحت السجن. الحمد لله في السجن عشت نسبة ثراء فكري وثقافي، لكن لما خرجت وبعدت عن السجن وعن جو - مش الخوف - جو الرهبة، السرية، ابتديت أكون سعيدة زي لما دخلت النادي الإيطالي. لقيت المجتمع المصري مليان تقدميين، مش بالذات شيوعيين، تقدميين قريبين من الفكر الماركسي والاشتراكية عمومًا. كنت أعرف شوية عن الشعر والفن في المجتمع الفرنسي بعد الحرب العالمية التانية، لكن ما كانش عندي فكرة إن مصر مزدهرة بالطريقة دي، شعراء وكتاب ورسامين وسياسيين، معارض واجتماعات ولقاءات، حياة ثقافية إنسانية أنا حضرت كتير منها. علاقتي بسعد اتطورت في الجو دا .

من أحلى الحاجات اللي حصلت لي في حياتي إن سعد خدني معاه في كل حتة يروحها وأي نشاط يدخل فيه سواء عام أو عائلي. حتى الاجتماعيات كانت جانب بينقصني، أبويا وأمي كانوا ناس محدودين في العلاقات الاجتماعية والحياة العامة، لما اتعرَّضت لمعارف بابا وعشت حياته، انفتح لي مجال كبير، كأنه فتح لي ستارة على مسرح الحياة المصرية. ما اقدرش أقول «كل» الحياة المصرية ولكن مجتمع القاهرة الثقافي السياسي العام، والعائلي الخاص، والريف المصري كمان اللي انا ما كنتش أعرفه خالص - ما كنتش عمري خرجت من المدن .

صحيح أنا حبيت شخصية سعد - كنت باقدَّره واحترم أعماله وشخصيته بشكل عام - لكن الانفراجة دي كانت من الأسباب اللي خلتني أرتبط بيه. بالإضافة كمان إن العلاقة خدت رضا كل المحيطين بينا. الأصدقاء والمعارف من الشباب التقدميين اللي بيشتغلوا وبيشتركوا بطريقة أو أخرى في الحياة الفنية والسياسية المصرية كانوا مبسوطين مننا. وانا كنت مقتنعة إني عاوزة أعيش الحياة دي مش متضايقة منها ولا خايفة منها .

واستمرينا أحبه أكتر ويحبني أكتر من غير مفاتحة .

الانفراجة كانت فوق تصوري .

كان فيه انسجام في حياتي .

كنت سعيدة .

26 يناير 1952: حريق القاهرة. كنت في السينما مع أخويا «برتو». كان عنده 15-16 سنة وبيروح مدرسة «الفرير». في الفترة دي علاقتي بأهلي كانت كويسة وباهتم بأخويا، كبرت ودخلت السجن وطلعت وبقيت اتكلم عربي شوية أحسن، بالذات الكلام المصري العادي. كان فيه أفلام إيطالية اتعملت بعد الحرب العالمية، سينما الـ «Neo-Realism» - «الواقعية الجديدة » - والجمهور المصري اتجنن عليها، واتفرجت مع سعد على كتير منها: «روما مدينة مفتوحة» لـ«روسيليني» و«جينو بكي». في ذاكرتي، أنا و«برتو» في سينما «النصر» في شارع الجمهورية، ورا فندق «كونتيننتال» القديم و«شيكوريل» و«شملا» في شارع فؤاد وسينما «ديانا»، بس لما راجعت نفسي لقيت «النصر» سينما صيفي في جنينة مفتوحة، وحريق القاهرة كان في الشتاء في يناير، أكيد متلخبطة. المهم إن خرجنا من السينما والدنيا كانت ضلمت خلاص، لقينا عساكر في كل حتة وناس بتجري وريحة دخان وحسينا جو غير عادي. كنا ناويين نرجع على رجلينا، بس اتخضينا احنا الاتنين وقررت إننا ناخد تاكسي، كنت الأخت الكبيرة وباخد القرارات .

- رايحين فين كدا؟ الدنيا مولعة .

- مولعة ازاي؟

- حريقة، عايزين تروحوا فين؟

- بولاق .

سواق مش عجوز، شخص ظريف وخايف علينا، كنا لسه ساكنين في شارع نعيم الضيق فنزِّلنا في شارع 26 يوليو :

- على البيت على طول ما تروحوش ولا هنا ولا هناك .

لقينا أبويا وأمي في حالة ذعر مستنيينا في الشباك وكل الناس قافلة الشيش، كان فيه مظاهرات وهتافات ضد الأجانب وكان فيه ناس بترمي طوب على شبابيك بيوت الخواجات، دا بالنسبة لبولاق .

سعد وخاله فتحي رضوان كانوا في الشارع لما الحرايق دي ابتدت، و«الحزب الوطني» بتاع فتحي رضوان أيامها سمعته إنه حزب مظاهرات وثورة ووطنية، سعد قال لخاله :

- حتشوف إن حيعتقلونا من تحت راس الحكاية دي .

- يا راجل !

وفعلًا على الساعة واحدة أو اتنين بعد نص الليل قبضوا عليهم وعلى الفجر اتقابلوا تاني في المعتقل مع عدد كبير من الناس وقعدوا يضحكوا وسعد قال لخاله :

ـ مش قلت لك؟

مروا ست شهور وكنت قربت أنسى سعد، مش واخدة بالي من خطورة حريق القاهرة وتأثيره على الأحداث، وفي يوم تلاتة وعشرين يوليو اتنين وخمسين حصلت الثورة. كنت باشتغل في شركة للاستيراد والتصدير جنب مدرسة «نِل» للغات في شارع قصر النيل، وانا رايحة الشغل الصبح لقيت دبابات واقفة في ميدان التحرير وفي كل الشوارع. واقفة مكانها ما بتعملش حاجة. في البيت قبل ما انزل سمعنا من الراديو زي إن الحكومة اتغيرت، بس رحت الشغل عادي كأن مفيش تغيير، وقابلت كمال عبد الحليم بعد الشغل، كان عندي معاه ميعاد من مواعيد الشعر العادية بتاعتنا. واحنا قاعدين فاتت مجموعة من الطيارات، وكان بالنهار .

ـ دي الطيارات بتاعتنا .

ـ بتاعتنا ازاي يعني؟

ـ بقت بتاعتنا، الجيش بقى بتاعنا، الجيش جيش الشعب دلوقت .

وكملنا نقرا شعر .

كمال ما حبش يوضَّح أكتر، بس بعد كدا أنا خمِّنت ان كمال عبد الحليم كعضو في منظمة «حدتو» في الأغلب كان عنده اتصال بأحمد حمروش أو يوسف صديق الظباط الأحرار أعضاء «حدتو». «حدتو» كمجموعة شيوعية اعتبرت إن حركة الجيش بتصب في ثورة تقدمية، وانا أظن إن هي كانت وطنية، وأفتكر إن يوسف صديق انضم لحركة الجيش على أساس كدا .

سعد كان لا يزال محبوس من ساعة حريق القاهرة، يعني كان جوه المعتقل يوم 23 يوليو 1952 ، لكن أفرجوا عنه وعن المعتقلين السياسيين أو على الأقل عن جزء من اللي اعتقلوا في 26 يناير، سعد خرج ورجعنا نتقابل تاني ورجعنا لحركة السلام والمقابلات مع سيزا نبراوي وإبراهيم رشاد. رجعنا من غير ما نقول ولا نتكلم في شبه اتفاق ضمني إن احنا بنحب بعض وممكن نتجوز. حاولت أفتكر امتى حصلت البداية، إمتى قررنا إننا بنحب بعض أو قررنا نتجوز، لما هو طلب مني ما كانش بشكل تقليدي زي كل الناس «أنا باطلب إيدك نتجوز»، لا ما كانش كدا، بس مش قادرة أفتكر حصل ازاي. إبراهيم رشاد اللي كان سكرتير عام حركة السلام عزم سعد و«صديقة سعد » اللي هي أنا، على الغدا في فيلّته هنا في ميدان المساحة في الدقي وكان عنده طباخين وسفرجيَّة، كانت حركة مؤثرة شوية إنه يعبَّر عن تعاطفه معانا .

أكتر واحد ظريف معانا بيساعدنا ويباشر مقابلاتنا كان يوسف حلمي. كنت باحس إنه متبنيني أو متعاطف معايا، يبص لى كتير، مش بأي غرض، لا، عينه عليَّ، ياخد باله منى. يعني ممكن سعد

يبقى مشغول في الكلام فيوسف ما يسيبنيش أحس بالوحدة يشوف لو انا عندى كاس ولّا لأ، يقدم لى سيجارة، ياخد بتيفور في طبق ويجيبه لي. كان مستبشر بالعلاقة. لما ابتدت الفكرة تعشش في ذهننا إن احنا حنتجوز بجد، سعد ويوسف حلمي ابتدوا يبصوا لموضوع الجنسية من الناحية القانونية، يوسف حلمي محامي عنده مكتب في شارع سليمان باشا جنب أوتيل اسمه «Hôtel des roses» - «فندق الورود» - واهتم بمحاولاتي للحصول على الجنسية المصرية: إيه إمكانية إن احصل على الجنسية وما اترحلش من مصر؟ نظريًّا فيه قانون إن اللي اتولد في مصر وعايش فيها لما يبلغ واحد وعشرين سنة يقدر يطلب الجنسية المصرية - ويحصل عليها ما دام معندوش جنسية تانية - دا كان بينطبق عليَّ على أساس إن أبويا اتولد في مصر سنة 1909 بدون جنسية محددة، يُعتبر جيت مصر من أيام «الحكم العثماني» مع جدِّي، دا غير إن في شهادة ميلادي مكتوب مصرية. طلع قانون بعد كدا أعتقد سنة واحد وخمسين إن المقيمين في مصر لا يعتبروا مصريين إلا لو كانوا حصلوا بالفعل على الجنسية المصرية. مش عارفة المصريين اللي عايشين في مصر من أكتر من خمسميت سنة أو ألف سنة ما كانش مطلوب منهم إثبات، كان طبيعي بالنسبة ليهم. ولكن اللي جايين من بلاد الحكم العثماني في وقت أقرب وبيقولوا إنهم مصريين عليهم يقدموا دليل على إنهم جايين من السلطنة العثمانية. أبويا ساعتها طلب الجنسية المصرية على طول بصرف النظر عن ظروفي ورغباتي، مولود في مصر ومكتوب مصري في شهادة ميلاده وأهله جم مصر في أوائل القرن من تركيا ذات نفسها، لكن إدارة الجنسية ما ردوش عليه، إلى حد ما كونه يهودي وكوني أنا ممسوكة في قضية شيوعية ممكن يكونوا أثروا بالسلب. قلت قدام يوسف حلمي إني شديدة الرغبة إني أقعد في مصر وما اترحلش، فلما تمِّيت واحد وعشرين سنة، سنة 1952 يوسف حلمي عمل لي طلب رسمي للحصول على الجنسية المصرية، وقدمه وقعدنا نستنى الرد .

صحيح كان في ذهني ورغبتي إن في النهاية اتجوز واحد مصري، لكن لما خرجت من السجن ما كنتش لسه بافكر في الجواز، وكنت باعيش حياتي الثقافية السياسية الاجتماعية ومشغولة بيها، كان بدري على الجواز. لكن العلاقة مع سعد طالت، وبقيت أقدَّره واحبه وهو كان بيظهر لي عواطف مريحة، الحقيقة لطيف لأي بنت إن يكون فيه واحد عايز يتجوزها وبيعاملها زي ما سعد كان بيعاملني. ابتدا شكل العلاقة مع سعد يتحدد بأني أتعرف على حياته وأهله وأهل أصدقاؤه كمان، مثلًا خدني يعرفني على نجيب فخري أقدم أصحابه هو وأخوه مدحت في بيتهم في شارع العجوزة على النيل، فنجيب دخلني أسلم على أمه سميرة هانم .

سعد قدمني لطنط عزيزة خالته، قبل ما يقدمني لمامته. طنط عزيزة كانت قاعدة في بيت الحدايق، اللي انتِ تعرفيه كويس. كانت شاطرة قوي في الطبيخ وسعد كان بيتدلع عليها وطلب منها تعمل لنا حمام محشي رز. ورحنا لها. بيت واسع على صالة كبيرة وبلكونة في الوش وأوضتين على اليمين واتنين على الشمال، فكرني ببيتنا في العشماوي مع الست «ماريا» وابنها اللي جاب لي حوَل في عيني، بس بيتنا كان يبدو أوسع علشان كنت صغيرة. ولقيت عندها بوفيه زي البوفيه بتاعنا، رُخامة على مستوى الإيد وفاترينتين على دورين، أمي كانت بتخبي دوا الكحة «سيرولينا» على أعلى رف. طنط عزيزة دخلتنا أول أوضة على يمين باب الشقة، «أوضة الصالون» اللي ما يدخلهاش إلا الضيوف. النظام دا كان جديد عليَّ. قعدت معانا شوية وبعدين سابتنا لوحدنا ودخلت المطبخ، وبعد شوية دخلت دهب اللي بتساعدها ومعاها الحمام المحشي وأكلنا، أكلنا حمام محشي في أوضة

الصالون. لوحدنا. فوجئت إن مفيش حد أكل معانا. بعد شوية سعد ابتدى يحاول... عايز يحضني، عايز يبوسني، كدا، بس انا الحقيقة كنت بارفض بشدة علشان أنا ما اقدرش! لأني في بيت خالته. صحيح الباب كان مقفول لكن فعلًا في وقت من الأوقات اتفتح الباب ودخل حد، دهب أو طنط عزيزة مش فاكرة .

الكلام دا بينما أبويا وأمي معندهمش فكرة عن وجود حد اسمه سعد كامل في الدنيا .

رجعوا عزموني عند طنط عزيزة في لمة عائلية كبيرة، خلان سعد وعائلاتهم بالأولاد. جوز طنط عزيزة كان مات من مدة وما جابتش عيال، فهي اللي كانت بتاخد بالها من أبوها عثمان رضوان، راجل كبير في السن. طنط أمينة أختها، خالة سعد التانية، جت هي وأولادها، حمادة كان صبي وميمي لسه صغيرة، أنا نفسي كان عندي عشرين سنة، بس كنت بانظر لكل أولاد طنط أمينة على إنهم «الصغيرين» واعتبر نفسي من «الكبار». فتحي رضوان خال سعد كان موجود بنفسه يومها وأبلة نفيسة مراته وأولادهم عصام وعزة وعمرو. فتحي رضوان محامي كبير مكتبه في شارع عبد الخالق ثروت وكان زعيم ـ وفضل زعيم سياسي لحد آخر حياته ـ كان زي أخو سعد الكبير وأستاذه ومثله الأعلى في السياسة، بيقضي أوقات كتيرة في السجن بسبب نشاطه السياسي فوجوده يومها كان مفرَّحهم كلهم، حاجة كبيرة عندهم في عيلة سعد، بيحترموه ويحبوه. في العزومة دي حضر كمان كمال الدين صلاح أخو أبلة نفيسة نسيب وصديق فتحي رضوان، كان ممثل الأمم المتحدة في الصومال حاجة كبِيرة بَرضُه. بس انا ما كنتش باحس بالرهبة. يومها حبيت كمال الدين صلاح لسبب شخصي: فكَّرني بمدرس الحساب في أولى إعدادي، اللي كان اسمه «دي بينيديكتس» اللي خوَّف الفصل كله وكان أحسن مدرس رياضة في حياتي. العزومة دي ما كانش ناقصها إلا أهل سعد، أبوه وامه واخواته. قعدنا كلنا على ترابيزة السفرة الكبيرة المستطيلة، وفريج جاب الطبيخ، وابتدينا ناكل. التعامل معايا كان لطيف، علشان الناس دي كلها ما كانوش بيوجهوا لي أنا بالذات الكلام ولا بيسألوا أسئلة كبيرة، سايبني في حالي، في نفس الوقت ما حسيتش إني معزولة أو ملغية، أشركوني بشكل طبيعي، فكنت حاسة إني على راحتي إلى حد ما، شوية أسئلة، شوية كلام، والكلام ماشي والأكل ماشي. فجأة أبو طنط عزيزة، جدِّ سعد، ابتدى يعيط، كدا في وسط الأكل وبدون مناسبة، أنا اتخضيت، بصيت لطنط عزيزة جنبي :

ـ هو زعلان ليه؟ فيه إيه؟

ـ لا ما تاخديش في بالك، كِبِر في السن ومن وقت لوقت بيعيط من غير سبب .

وفعلًا، كملوا عادي، وهو سكت ورجع ياكل ويكلِّموه ويرد ويستمر شوية وبعدين يعيط تاني .

طنط عزيزة شرحت لي إن كِبَر السن ساعات يعمل ضعف من النوع دا .

فيه اتنين بيساعدوا طنط عزيزة في البيت ما كانتش لوحدها، حاجة بَرضُه جديدة عليَّ، فريج للمطبخ ودهب للنضافة، طنط عزيزة كانت تتميز بسلسلة من المساعدين، تربيهم من وهم صغار وتتخانق معاهم لما يكبروا، كانت معروفة بالقصة دي، هم ملهمش حد وهي معندهاش أولاد، بتتبناهم تقريبًا.

طنط عزيزة بتتبنى كل الناس: متبنية سعد وكل ولاد أختها أمينة واتبنتني أنا كمان على طول، وأصبحْت ضيفة منتظمة عندها أروح لها حتى لوحدي ساعات، تاخدني في أوضتها ونتكلم، وسعد يحصلني وننزل سوا من عندها. مؤخرًا كنت باقرا في كتاب المحامي عادل أمين تقارير المخبرين وهم بيراقبونا مكتوب فيها «وتَوجَّهت إلى حدائق القبة ثم لحق بها سعد كامل » أنا كنت بازور طنط عزيزة .

أخيرًا سعد جابني بيت مامته، هنا في البيت دا اللي باحكي منه الحكايات دي كلها، بيت الدقي .

نانا منيرة ـ أمه ـ كانت موجودة في البيت واتعرَّفت عليها، كانت لوحدها، أظن جدُّو يومها كان في العزبة. زي عند طنط عزيزة الضيوف يقعدوا في أوضة الصالون. نانا كانت دايمًا مُصرَّة ما تستخدمش الأوضة دي علشان تفضل نضيفة وجاهزة لما ييجوا ضيوف، فأنا يومها دخلت البيت كضيفة لسعد، لكن في الأول دخلني عندها في أوضة القُعاد وسلمت عليها وسلمت عليَّ وقعدنا نتكلم شوية وبعدين سعد قال لي بوضوح قدام أمه :

ـ تعالي بقى نقعد في الصالون .

سبناها وقعدنا في الصالون نتكلم ولما جيت أنزل وانا باسلم عليها نانا قالت :

ـ روح وصَّلها لبيتها .

أوضة القُعاد اللي قابلت فيها نانا لأول مرة حوِّلناها مؤخرًا لأوضة نوم وبننام فيها أنا وسعد، وبِنسميها أوضة السفرة على أي حال علشان حطينا فيها ترابيزة السفرة في وقت من الأوقات، وكنبة القُعاد اللي قعدنا عليها أنا ونانا في أول زيارة ليَّ، إنتِ خدتيها أوضتك وعملتيها سرير تنامي عليها وبعدين أنا أخدتها وانا اللي بانام عليها دلوقت. إلا أوضة الصالون، ما اتغيرتش عمرها، كدا بالظبط، النهاردا زي لما دخلت بيت الدقي أول مرة، التفصيلة الوحيدة اللي اتغيرت هي قماش التنجيد، كان قماش رمادي يشبه الحرير الصيني والحيطة كانت لون بمبي قديم اسمه «bois de rose» يعني بمبي مطفي وما كانش فيه الكراكيب اللي احنا حاطينها، زي مكتبي الصغير .

من ناحيتي في الفترة دي من وقت لوقت كنت باحاول افتح الموضوع مع أمي، باقول لها :

ـ أنا كبرت بقى واظن لازم اتجوز .

فهي تقول :

ـ آه .

وتسكت، مرتين تلاتة لغاية ما فتحت الموضوع :

ـ أنا اتعرفت على واحد مصري وأهل الشخص دا عايزين ييجوا .

قلت «مصري» بس، ما قلتش انه كمان له دعوة بالسياسة، والحقيقة إن انا نفسي ما كنتش اعرف معلومة إنه خارج من قضايا الاغتيالات، أو حتى لو كنت عارفة مش مقدرة الخطورة، أنا لسه في مرحلة إن «السياسة هي الشيوعية»، كان عندي شيء من السذاجة السياسية .

*

طنط عزيزة ونانا جم البيت عندنا .

يا حبايبي الاتنين والله .

كنا لسه ساكنين في شارع نعيم وبيتنا كان متواضع جدًّا ولا صالون ولا حتى قُعاد، لكن انا ما كانش بيهمني .

جم بيتنا في شارع نعيم وقالوا إن سعد عاوز يتجوزني. ترابيزة السفرة مربعة في وسط الصالة، قعدنا حواليها. ولا طنط عزيزة ونانا منيرة ولا أبويا وأمي كانوا مبسوطين، كان فيه شيء من التردد، ولكن احنا كنا موجودين حواليهم أنا وسعد، قاعدين كدا جنب بعض مستتيين إن أهالينا يتفقوا . ما اتدخلناش في الحوار بس أكدنا عليهم ان إحنا عايزين نتجوز، وبالطريقة دي حصل رسميًّا إنهم طلبوا إيدي على أساس التفاصيل حتيجي بعدين .

طنط عزيزة ومنيرة هانم مشيوا وسعد مشي معاهم، وجه يوم تاني لوحده بناء على طلب من أبويا، أبويا بقى المرة دي ناقشه بشدة، ضيَّق الكلام وزنق سعد :

ـ فيه موضوع الدين .

ـ حنحلُّه .

ـ سمعة المسلمين إنهم بيتجوزوا أكتر من واحدة ويطلقوا بسهولة .

ـ فين دا؟ مفيش الكلام دا عندنا، أبويا اتجوز مرة واحدة وخالي كمان، حياة عائلية مستقرَّة .

ـ طيب، وموضوع المعيشة؟ لازم الواحد يفكر كويس .

ـ أنا مش صغير، أنا عندي تمانية وعشرين سنة وماشي في التسعة وعشرين، وأعرف كويس أنا باعمل إيه .

ـ الوضع الاقتصادي مش سهل، حتعيشوا ازاي؟

ـ أنا خريج حقوق وباشتغل محامي في مكتب فتحي رضوان .

سعد في الحقيقة كان ساب المحاماة وابتدى يشتغل صحفي في مؤسسة «أخبار اليوم» و«آخر ساعة»، بس لما اتقدم لنا قدم نفسه كمحامي مع فتحي رضوان لأنه كان خريج كلية الحقوق فعلًا وكان اشتغل مع فتحي رضوان .

- حندوَّر على بيت وحنأسسه شوية بشوية، وحنتجوز .

كل ما كان أهلي يعترضوا على نقطة إحنا الاتنين كنا بنحاول نحلها، بس سعد بالذات كان بيتصدَّر، كان أشطر مني وكان محامي كويس، حاول يطمنهم .

- طيب. حنشوف .

أبويا ما كانش مبسوط، بمعنى إنه كان قلقان، مش سهل عليه يطَّمن .

لكن احنا ابتدينا نحضر للجواز على أي حال، سعد وانا، بمباركة أصدقاؤه، وبالذات يوسف إدريس وحسن فؤاد ويوسف حلمي وسيزا نبراوي اللي جابت لي هدية الجواز مقدمًا، مفرش دانتيلا معمول باليد. وكان فيه إنجي أفلاطون وجوزها أبو العلا .

بالنسبة للأهالي كانت صدمة .

من ناحية أبويا وأمي الدين كان عائق أساسي بسبب الفكرة المنتشرة بين الخواجات عن الأزواج المسلمين إنهم وحشين في مسألة سهولة الطلاق وتعدُّد الزوجات. فبالتأكيد أبويا وأمي ما كانوش يحبوا إن انا اتجوز واحد مسلم وعربي. من ساعة ما خرجت من السجن وهم بيحاولوا يعرَّفوني على شباب طلياني أو يخلوني أسافر إيطاليا، استئناف المذاكرة أصبح صعب بعد انقطاع أكتر من 4 سنين، لكن كان نفسهم أسافر إيطاليا واشتغل واتعرف بحد إيطالي هناك في إيطاليا، بس ما كانوش ناجحين علشان أنا من وقت ما قلت لأصحابنا الطلاينة «أنا مصرية وحاقعد في مصر، مش حامشي» خلاص كان قرار أنا خدته، ما اتغيرتش ولا ثانية واحدة من سنة 1948، وأثناء كل الأحداث اللي حصلت بعد كدا الاقتناع دا كان موجود بعمق في قلبي لغاية الآخر. ومسألة إنهم بيرحلوا الأجانب والخواجات ما كانتش في ذهني، باقول لنفسي «دا ما بينطبقش عليَّ، معنديش الجنسية الإيطالية ولا أي جنسية تانية، اتولدت في مصر وابويا اتولد في مصر، أهلي عايشين في مصر». بالإضافة إلى إني كنت مبسوطة من البيئة اللي اتوجدت فيها بعد السجن واندمجت لِشُوشتي مع المجتمع المصري. كنت باقول لأهلي «سعد مش زي اللي بيطلَّقوا بسهولة ويتجوزوا أكتر من واحدة، مش كل المصريين، مش كل المسلمين زي بعض في المجتمع». من جوه قلبي باقول الكلام دا، زي ما باقول «مش كل اليهود زي ابويا ولا كل المسيحيين زي امي ».

أما من ناحية أهله، فبَرضُه كانت قصة مش مريحة، من ناحية أنا كنت شيوعية وعندي تاريخ سياسي ويفضلوا إن ابنهم يتجوز واحدة تبعده عن المخاطر دي، واللي أكد لي إني عرفت فيما بعد إنهم كانوا حاطين عينهم على واحدة من قريباته يتجوزها. وبَرضُه حكاية أجانب ومسيحيين مش حتكون زوجة يقدروا يتفاهموا مع أهلها بسهولة، يفضَّلوا يتجوزوا من بعض، يعرفوا بعض، بنت

فلان وبنت فلانة، إلى حد ما أريح، مثلًا أمينة رضوان خالة سعد اتجوزت مصطفى مراد، أهلهم يعرفوا بعض. وبعدين زوجة أجنبية ما يعرفوش عوايدها مش زي بنت من بناتهم. أما من الناحية الاجتماعية ـ مع إن عمرهم ما قالوا ـ أنا أعتقد إنهم من طبقة نقدر نسميها الطبقة المتوسطة، عندهم حتة أرض، عندهم وظائف معينة، صحيح مش أغنيا ولكن مش فقرا. إحنا السكن بتاعنا في شارع نعيم كان سكن فقير، في منطقة مش معقولة بالنسبة لعائلة سعد، والبيت نفسه من جوه، العفش اللي في بيت سعد كان أطقُم، أوضة سفرة وأوضة صالون وفوتيلات ودواليب، يبان بوضوح الاختلاف من الناحية الاجتماعية، أظن كانوا يفضلوا إن سعد يتجوز واحدة مستريحة اقتصاديًّا، خصوصًا إن سعد ما كانش مستقر ماليًّا وما كانش عنده وظيفة ثابتة .

طنط عزيزة أكدت لي على الكلام اللي أبويا قاله لسعد :

ـ ما الواحد عاوز يتجوز طبعًا، واللي بيحبوا بعض يقولوا احنا نرضى بأي حاجة، بس لما تيجي تفتحي بيت، فيه احتياجات ما تقدريش تمنعيها، يعني البيت عايز صابون وعايز زيت، مش مسألة عفش وصيغة ومهر دي حاجات ممكن الاستغناء عنها فعلًا، ولكن الحياة اليومية مش سهلة .

مش فاكرة رديت على طنط عزيزة قلت إيه. بعدين عرفت إن في التراث العربي والإسلامي، قصص من نوع إن مفيش مانع الست تبقى قوية ماديًّا وتسند جوزها، زي الشاطر حسن يتجوز الأميرة هو راجل شاطر يستحق ثروة الأميرة، وزي النبي محمد، الست خديجة كانت قوية اجتماعيًّا وغنية ماديًّا، وأصلها وثقت فيه إدّت له مسؤولية تجارتها، وبالمقابل فِضل يحبها وما يزعلهاش طول حياتها لغاية ما ماتت، ما اتجوزش عليها وهي عايشة، جالي إحساس كدا ان فيه ثقافة إن الست تشتري شطارة جوزها، هو يكسب ثقتها وهي تشتري شطارته، ويمكن الموضوع مش مقصور على العرب والمسلمين .

على أي حال، كل دي أفكار نظرية عن الجواز، لكن عمليًّا أول ما واجهوا نيتنا، العائلتين عملوا مجهود كبير علشان ياخدوا رغبتنا واختيارنا مأخذ الجد. واحنا من ناحيتنا أول خطوة عملناها حاولنا نرضي أمي بشكل ملموس. الجواز في الكنيسة مش ممكن إلا بإذن من بابا الفاتيكان، لأن سعد مسلم ومش ممكن الكنيسة تبارك جواز مسيحية من مسلم، فسعد قال لأمي :

ـ إن شاء الله حنحصل على الإذن دا .

ورحنا قابلنا قسيس كنيسة أمي، كنيسة الكرمل اللي جنب البيت :

ـ لا مش ممكن .

القسيس كان اسمه الأب «لويجي»، راجل كبير في السن موجود من أيام الحرب، سعد رد عليه بحسم :

ـ لا ممكن، ولازم تقول لي إيه الإجراءات اللي مطلوب أعملها، أنا أصلي محامي وعارف إن ضروري فيه طريقة .

ـ خلاص، روح كنيسة سان جوزيف في شارع عماد الدين واطلب مقابلة ممثل الفاتيكان واحكي له حكايتك وشوف حيقول إيه .

أخدنا بعضنا ورحنا كنيسة سان جوزيف وقعدنا نستنى، استنينا كتير، كانت الساعة سبعة، بعد المغرب بشوية لما دخلونا أخيرًا نقابل «مسؤول الفاتيكان» وانا شرحت في الأول طبعًا، بس سعد هو اللي كان بيتصدر دايمًا إن يناقش ويحاول يقنع اللي قدامه، آخر جملة قالها له علشان يفهِّمه :

ـ أنا عايز أكون جدًّ، إحنا حنتجوز يعني حنتجوز، بس عاوزين نتجوز برضاكم، كلكم. الدين الإسلامي مفيهوش مشكلة بالنسبة لنا، راجل مسلم يقدر يتجوز ست من أي دين تاني، المشكلة جاية من دين اللي حتكون مراتي، أنا عاوزها تكون مرتاحة ومقتنعة، مش عاوز اعمل تصرف ترجع تندم عليه بعد كدا .

أقنعه !

أقنعه يكتب للبابا في الفاتيكان يطلب لنا إذن نتجوز بالطريقة المسيحية في الكنيسة: جواز كاثوليكي. كنا بنروح نسأل ويقول لنا تعالوا تاني بعد مدة .

استمرينا في حياتنا، كنا في غاية السعادة، مش عارفة أشرح، كنا بنعيش كويس وراضيين بالناس اللي حوالينا وبأصدقائنا وهم مبسوطين بينا، ومستنيين الإذن من الفاتيكان ومستنيين الرد على طلب الجنسية .

في هذه الأثناء أبويا وأمي وكل أصحابهم ابتدوا يعملوا مجهود ان يتعرفوا على سعد . إنتِ تعرفي الصورة واحنا بنرقص مع بعض؟ دي كانت حفلة عملوها عيلة «موتي»، أسرة إيطالية، جيراننا، أكبر من أبويا وأمي شوية وعيالهم أكبر مني، فكان فيه شيء من التبني في علاقة «موتي» بأبويا وأمي. عملوا في بيتهم حفلة عشا علشان يتعرفوا على سعد ويعرَّفوه على الناس والجيران. وكعادة الطلاينة بيكون فيه أكل وشرب وشوية رقص. كنت مبسوطة من الجو دا، ورقصت مع سعد في وسطيهم، ورقصت مع «برتو» أخويا، وشوية غنا وشوية مزيكة ومشيت المسألة، والسهرات دي اتكررت .

أهل سعد بَرضُه عملوا مجهود، واتعزمت مع العيلة أروح العزبة في الفيوم على أساس إني «خطيبة سعد ».

أبو سعد كان باع أرضه، حوالي تلاتين فدان في الشواشنة ناحية بركة قارون، واشترى بنفس المبلغ مِيَّة وتلاتة فدان في سيلا قِبلي سنورس، في الفيوم بَرضُه، بس أرض عايزة شغل. بالنسبة ليَّ أنا، عمري ما كنت رحت ريف ولا تعاملت مع فلاحين. أمي جاية من الريف بس انا ما كنتش رحت

إيطاليا لسه، أنا اتولدت في القاهرة في العشماوي وعشت طفولتي في أبو العلا وابويا اتولد في القاهرة بَرضُه فما كانش عندي أي احتكاك بأي ريف ولا طلياني ولا مصري. في أبو العلا البياعين مصريين مش خواجات، وصاحب البيت في شارع نعيم مصري، ولكن على أي حال أصبحوا قاهريين في القاهرة، مش فلاحين في الريف. زيارة العزبة في الفيوم كانت تجربة عظيمة. لما جدو ونانا أخدوا أرض سيلا صلحوا بيت العزبة تصليح كبير، البيت كان أوضتين نوم زي ما هو ولكن الفَسحة بين الأوضتين كانت حوش مفتوح عليه ضُليلة جريد تحمي من الشمس، فعملوا سقف ولضموا المعيشة بالحمَّام والمطبخ وأصبح بيت متكامل وعملوا عزومة لافتتاح العزبة الجديدة. المِرواح للعزبة ما كانش سهل، نانا وجدو بيروحوا بشِيَل واسْبِتة وشُنط لكن جدُّو كان لسه بصحته، يوقف التاكسي ويشرف على التحميل والتنزيل ويدفع للسواق، كان بيدير العملية بثبات. أخدنا تاكسي من الدقي نزلنا محطة الجيزة وركبنا القطر ورحنا الفيوم، ومن الفيوم أخدنا تاكسي أرياف وصلنا سيلا. كانوا عازمين فتحي رضوان أخو نانا، أيامها كان أصبح وزير في حكومة جمال عبد الناصر، ويظهر محافظ الفيوم جاله خبر، ففي اليوم دا كان فيه هجانة - يعني بوليس راكب جمل - نشوفهم يتمشوا حوالينا من بعيد: «حرس الوزير ».

اتعرفت على جوز طنط أمينة مصطفى بك مراد وأخوه سعد مراد، سعد مراد كان لسه متخرج من فنون جميلة وبيشتغل مدرس رسم في مدرسة في الفيوم فجه هو ومراته وهيبة. وكان فيه كتير من عيال العائلة، ولاد فتحي رضوان الصغيرين عزة وعمرو عيال في حدود تمن سنين مش عارفة ليه عصام الكبير ما كانش موجود يومها، وأولاد طنط أمينة حمادة وميمي وقاسم وإبراهيم وفضيلة، فتحي ما كانش لسه اتولد، فضيلة كانت أصغرهم، طفلة لذيذة شقية بتجري وتنط، شعرها إسود فحم وناعم جدًّا ما يثبتش مكانه أبدًا، ينزل على وشها يغطي عينيها، ويقولوا لها شيلي شعرك من على عينيك وتشيله وينزل تاني، هي مش متضايقة الكبار هم اللي متضايقين، مرة يقصوه لها ومرة يشبكوه ببنسة لكن مفيش فايدة. أنا ما كنتش على راحتي يومها، الريف كان جديد عليَّ، الفلاحين بلبسهم والبيوت الطين والغيطان والحمير، وانا جديدة في وسط كل الناس دي، فلما جابوا حمار يركِّبوا عمرو وعزة ويتسلوا عقبال ما الأكل يتحضر اخترت أروح مع العيال ورحلة الحمار، بعتوا معنا ولد من ولاد الفلاحين لكن بعد شوية الولد دا اختفى سابنا مش عارفة راح فين والحمار وقف مش عاوز يتحرك، عايزينه يرجعنا البيت مش عارفين، عزة نزلت من على الحمار ونزلنا عمرو. كنا في السكة اللي بتودي إلى «الآرة»، تلة بور بين الغيطان، ما كانش فيه بيوت على السكة دي خالص، الحمار سابنا ودخل الغيط وابتدى ياكل في الزرع، سمعنا إن الحمار مش لازم ياكل الزرع علشان المحصول ما ينقصش، الولد اللي كان معانا قال كدا قبل ما يختفي. نزق الحمار ونشده مفيش فايدة، ما بيتزحزحش، مستمر ياكل مش بيعبرنا. الجو كان شمس وحر فقررنا نسيبه في الغيط ورجعنا البيت ندوَّر على مساعدة :

- الحقوا الحقوا الحمار بياكل الزرع .

أنا كنت حاسة بالمسؤولية علشان أنا الكبيرة وأول مرة آجي مع سعد قوم ابوَّظ لهم المحصول؟ سعد سألني :

- إيه اللي كان مزروع في الغيط؟

ـ ما اعرفش .

وعمرو وعزة بَرضُه ما يعرفوش، راح سعد لبيت عم رياض الغفير يبلَّغ على الحمار اللي بياكل الزرع، وعمَّ رياض جه بنفسه معانا للغيط وقال :

ـ دي دُرة زغيرة، دا أكله، مش مشكلة .

والحمار مشي معاه بلا مقاومة .

نانا حبيبتي وضَّبت ترابيزة، جابت لوح خشب طويل وحطته على صناديق في الجنينة وحطت عليه ملاية سرير كمفرش، ولموا الكراسي من بيوت الفلاحين، الفلاحين ما كانوش بيستخدموا كراسي أصلًا، فاللي عنده، إن كان عنده، شيَّع الكرسي اللي حيلته علشان خاطر عزومة «الست الكبيرة». نانا يومها طبخت ديك رومي أو اتنين، وكان فيه فلاحة بتساعدها، كانت شاطرة تعرف تطبخ ملوخية ورز وديك رومي، لكن جينا ناكل الرز لقيناه مليان زلط، يظهر ما نقُّوهوش. ومع ذلك الكل كان مبسوط، خدوها ضحك وهزار وفتحي رضوان ألِّس على أخته :

ـ إيه يا منيرة دا؟ انتِ جايبانا في حتة مفيهاش غير رمل؟

العزبة كانت في بدايتها وما كانش فيها حاجة تقريبًا، جبل، كأننا في السكة لمدرسة نبيل في القطامية، صحرا مش باين فيها زرع إلا المستطيل اللي الحمار دخل ياكل فيه، كانوا بيسموه «أرض المطار» علشان مستطيل وطويل وأخضر .

لكن أكلنا كويس، الرز بس هو اللي ما اتاكلش. وانا على آخر الرحلة كنت انبسطت .

أنا كمان عملت مجهود، قدمت على شغل كسكرتيرة «dactylo» في شركة استيراد وتصدير وخدوني على طول، كنت سريعة أيامها وكانوا مبسوطين مني، كنت باكتب الجوابات كويس وباشَهِّل الشغل، دَقيقة ومهتمة بالعمل، معندهمش شغل كتير ولكن شغلانة مناسبة ليَّ. أصحاب الشركة اتنين اخوات لطاف تبنوني وحاولوا يشجعوني :

ـ إنت لو تتعلمي الاختزال ماهيتك تزيد وشأنك يكبر .

وابتديت آخد دروس اختزال بالانجليزي، «طريقة بيتمان» ولسه عندي الكتب هنا. الاخوات الظراف دول كان عندهم عمارة ملك جنب مبنى التلفزيون، البيت الوحيد اللي جنب التلفزيون ولسه موجود، فكرت اسألهم :

ـ معندكمش شقة؟ عاوزة اتجوز .

وفعلًا كان عندهم شقة فاضية في العمارة، شقة بتشوف النيل من الجنب، كنت باشوف كل النيل من البلكونة، وأظن مبنى التلفزيون ما كانش لسه اتبنى، وأجَّرنا الشقة وابتدينا نفكر نفرشها .

*

سعد كان متألق مع حركة السلام، عايزة أقولك على وفد مؤتمر المرأة اللي سعد نظمه تبع حركة السلام، كنت بانظَّم معاه فإلى حدٍّ ما كنت باحس في الكلام والاتصالات بوجودى في وسطهم كأني باشتغل معاهم. سعد جاب طنط عزيزة تروح المؤتمر وهدى زكي الممثلة مرات صلاح حافظ ورضا مرات حسن فؤاد كانت ممرضة واتعرفت على عايدة فهمي ـ أول نقابية ست في مصر. طبعًا أنا مش فاكرة كل الأسامي، بس مجموعة لطيفة جدًّا من الستات تحت رياسة سيزا نبراوي وسافروا ألمانيا الشرقية أو بولندا، حتة من الحتت دي، بلد اشتراكي، المؤتمر برياسة «أوجيني كوتون»، رئيسة «الاتحاد النسائي الديمقراطي العالمي». هناك اتنين من الوفد اتخانقوا مع بعض، بس الحدث الأهم إن مرات علي الدالي للأسف مش فاكرة اسمها، معندهاش خلفية سياسية لكن متكلمة وعندها حيوية لما لقت نفسها قدام كل الستات دول ـ تعرفي جو المؤتمرات ـ راحت لابسة جلابية فلاحي ومنديل وطرحة واتكلمت بالعربي لأنها ما تعرفش لغات وقالت ببساطة: أنا فلاحة من المنطقة الفلانية في مصر وسعيدة أكون وسط جمع ستات من العالم كله وقالت كلمتين مش اكتر عن مشاكل الستات. قالت كلمتها بالعربي وترجموها للغات كتيرة، صقفوا لها كتير وسيزا نبراوي كتبت في التقرير إن اختيارها في الوفد موفق جدًّا ونجاحها ممتاز .

مش عارفة قبلها ولَّا بعدها كان فيه مهرجان للشباب في رومانيا، مهرجان مفتوح بمعنى إن الوفود مش ضروري تكون وفود حكومية أو تابعة للدولة، وفود «شعبية»، شباب من كل بلاد العالم. مهرجان بيحتاج تنظيم كبير لأن الأعداد اللي بتحضر مهولة وفيه كل النشاطات اللي ممكن تهم الشباب من ألعاب رياضية ومعارض وفنون ومحاضرات. حركة السلام المصرية قررت تشارك واختاروا سعد يكون المنظم لوفد شباب مصري في بوخارست. سعد بقى كان بيبلبط في المسائل اللي زي دي. الناس اللي حواليه حسوا بقدراته وبقوا يقولوا له إنت اللي حتجهز الوفد، عنده رؤية وفي نفس الوقت يشيل المسؤولية وينفذ، فعمل تصور لوفد شعبي شبابي مرتبط بمضمون السلام وبفكرة المهرجان. اشتغل شغل! كوِّن وفد فيه تحية كاريوكا تمثل الفنون وهي قبلت على طول، كانت كبيرة نسبيًّا في السن، فوق التلاتين وفي عز نجوميتها. اختيار فيه جرأة من سعد ومن تحية، جرأة منه لأن حتى الشيوعيين في مصر مش بالضرورة عندهم احترام للرقص الشرقي، وجرأة منها لأن رومانيا ما يعرفوش تحية كاريوكا أصلًا، ما كانتش ابتدت ثورة الاتصالات والدش، فالإعلام ما كانش بنفس الطريقة. سعد كان عنده ثقة، فاهم إن تحية شخصيتها قوية، فنانة موهوبة وبقلبها في حركة السلام واجهة معبرة عن فنانين مصر أيامها. وعن طريق أخت شريف حتاتة، منى، لاعبة كرة السلة في نادي الجزيرة، سعد أقنع الفريق كله يطلعوا المهرجان. وبهجت عثمان راح من ضمن الرسامين، شاب صغير ورسام كاريكاتير موهوب وصاعد، ما نسيش لسعد أبدًا الفرصة دي. مصطفى درويش راح كأخصائي سينما، شاب ساعتها ومصطفى روحه دايمًا شباب، لحد دلوقت وهو سنه فوق الـ70 سنة فما بالك لما كان في العشرينات؟ دا طعم الوفد اللي شكِّله سعد، شباب صاعد متنوع المواهب، وفد حقيقي .

المفاجأة بقى إن حركة الجيش والمخابرات بتاعتها اشترطوا على سعد يقدم لِستة بأسامي أعضاء الوفد، والمخابرات لازم توافق على كل اسم، اتناقشوا سعد واللي معاه في حركة السلام وقرروا إن

الموضوع يستحق يقبلوا شرط المخابرات: «المهم نقدر نشارك». بعت القائمة الطويلة دي تقريبًا 50 اسم، رياضيين على فنانين على مثقفين وعلى راسهم تحية كاريوكا النجم الأوحد، وحط اسمه هو سعد كامل كرئيس للوفد. المخابرات وافقت على القائمة كلها إلا هو! سعد ما اتهزش، كمِّل الإجراءات وعمل لهم الباسبورتات والتأشيرات وكل اللازم ورحنا معاهم اسكندرية نوصلهم بالقطر، وجه معانا إبراهيم رشاد من حركة السلام، وصلناهم للمينا وركبوا المركب. وقفنا على الرصيف نتفرج على المركب وهي بتبعد، وعليها الوفد في الطريق إلى ميناء «كوستانزا» في رومانيا على البحر الأسود على ما أظن. سعد كان بيقول «أنا مبسوط إنهم راحوا، زي بعضه» ولكن سعد كان شاب صغير هو كمان، وبالنسبة له رحلة زي دي كان حيحبها قوي، كان نفسه يروح. إبراهيم رشاد كان حاسس بيه وشفته بيطبطب على ضهره واحنا واقفين على رصيف المينا والمركب بتبعد. سعد بيفتكر الحكاية دي وعمره ما نسيها، إزاي وافقوا على الكل وشطبوا اسمه هو، منعوه من السفر، هو اللي منظم الموضوع كله .

تحية كاريوكا راحت كعضو عادي ضمن الوفد وكان ممكن ما ياخدوش بالهم منها في رومانيا، لكن اللي حصل إن المهرجان عاملها كضيفة شرف وكبار الشخصيات في رومانيا قابلوها واتكلموا معاها، والأهم من دا إنها عملت «succès» ـ نجاح كبير ـ بين الوفود ورقصت في شوارع بوخارست والناس على الناحيتين في الرصيف من هنا ومن هنا وفي الميادين العامة تصقيف ورقص معاها، يمكن بعضهم بيشوف الرقص الشرقي لأول مرة. عملت جو وعلى حسها الوفد المصري كان نجم إلى حدٍّ ما. مهرجان كبير والوفود ضخمة والمشاركين بالآلافات من كل البلاد، يعني وفد مصر ممكن يغرق في الزحمة. بهجت وسعد زعلوا مع بعض بسبب السياسة فيما بعد في السبعينات بس دي قصة تانية، بهجت لما رجع من المهرجان كان مش عارف يعمل إيه علشان يعبر عن مدى الاستفادة، عايز يوصف شاف إيه وانبسط قد إيه، هو ومصطفى درويش حكوا لنا بالتفاصيل لأسابيع عن النظام في الأكل وفي النوم لكل الناس دي، وحكوا لنا إن كان فيه وفود مستقلة جاية من بلاد شديدة العداوة للاشتراكية ولمشاركتهم في المهرجان وتمكنوا ييجوا بصعوبة، بل فيه بلاد منعت وفودها من السفر للمشاركة فبعتوا تسجيلات صوت تحية لمهرجان الشباب. قصص مثيرة للحماس، عشتها بقلبي من غير ما احلل، بس دلوقت وانا باحكي ذكرياتي ممكن أقول إن بابا، سعد كامل، عنده موهبة حقيقية للعمل اللي الشيوعيين بيصنفوه «العمل الجماهيري » ، ما كانش حقِّته أبدًا اتصعَّد في هياكل التنظيمات من النوع الماركسي الشيوعي، بصدق باقول، أعتقد إن ما كانش لازم أبدًا، كل مرة دخل تنظيم اختلف وعمل مشكلة أو حصل صدام مع طبيعة شخصيته، مش ملائمة للتنظيم والسرية و«للديمقراطية المركزية ».

المؤتمر دا غالبًا حصل سنة 1953، سنة التحضير للجواز، علشان من ضمن تُهم تحية كاريوكا لما اتقبض علينا إنها «سافرت بلد شيوعي». دي الأجواء اللي اتقبض علينا فيها، حماس وأفكار ومشاعر حلوة، وفي نفس الوقت حيرة كبيرة من الناحية السياسية، إيه اللي لازم وإيه اللي مش لازم واللي ممكن، وازاي الواحد يتعامل مع النظام؟ وغيرها من الأسئلة .

لازم أفتكر كويس التفاصيل دي، ليه؟ علشان دا كان على طول قبل القبضة التانية وانتهاء المرحلة دي من حياتنا ومن المجتمع. كان فيه جبهة وطنية بتتكون بين الشيوعيين والجناح التقدمي من

الإخوان المسلمين والجناح اليساري للوفديين بالإضافة لكتير من المثقفين والفنانين وأعضاء حركة السلام، كانوا بيجتمعوا في بيت نجيب فخري. سعد كان ساب بيت أهله هنا في الدقي وابتدى يسكن في الشقة اللي أجَّرناها في ماسبيرو. يمكن كان فيه سرير وشوية حاجات وكان فيه كنبة وكرسيين جلد جابهم من مكتب فتحي رضوان. سعد اتقبض عليه من بيت ماسبيرو، وأنا جم خدوني من بيت أهلي في شارع نعيم في الفجر يوم 7 نوفمبر 1953 .

يهمِّني أحاول أشرح اللي أعرفه عن الجبهة الوطنية .

أواخر 1952 وأوائل 1953... كان فيه بوادر مش كويسة من النظام، حصلت واقعة إعدام العاملين خميس والبقري بسبب إضراب كفر الدوار، وكان فيه تضييق على الحريات السياسية، الموقف ما كانش اتحدد لكن ابتدى الكلام يدور ويتغير داخل منظمة «حدتو» من تأييد لحركة ظباط الجيش إلى تحفظ على الممارسات الديكتاتورية، واضح إن كان عندهم حق لأن الوضع بعد كدا تدهور بشدة. مجلس الثورة كان بيقول في بياناته «الأحزاب فساد في فساد، وعلشان نبني حياة سياسية سليمة حنلغي كل التجمعات السياسية القديمة المشكوك فيها بتهم خيانات وفساد وحيكون فيه تنظيم سياسي واحد تابع لمجلس الثورة» وفعلًا تم إلغاء الأحزاب وإغلاق الصحف بما فيها لجنة «أنصار السلام» وتم القبض على المعارضين وحبسهم، وحددوا مجموعة أشخاص سمُّوها «هيئة التحرير» اللي بقى اسمها بعد شوية «الاتحاد القومي» وتحول إلى «الاتحاد الاشتراكي ».

كان فيه سؤال دائم «هل مجلس الثورة وراه الاستعمار أصلًا لوضع حكومة قوية في مصر تخدم مصالحه وتتفادى قيام ثورة شعبية؟ وكان فعلًا فيه بوادر ثورة قبل يوليو 1952، ولَّا حركة الجيش دي وطنية والاستعمار ابتدا يأثر عليهم؟» ولَّا إيه الحكاية؟ مع إني مليش نِفس اتكلم في السياسة، بس مهم أقول إن دي كانت مواضيع متداولة، كنا بنتناقش فيها من غير ردود قاطعة أو أحكام. كانت أسئلة مطروحة. كنا بنحاول نفهم. بالنسبة ليَّ أنا، مفيش شك عندي إن الظباط الأحرار اللي عملوا حركة 1952 كانوا وطنيين صِرف وجزء من حالة في البلد ضد الاستعمار وضد الملِك وضد ظلم كتير تاني، وإنهم كقيادة جديدة بيتعرضوا لضغوط من الاستعمار، ودا شيء طبيعي، أمال إيه؟ الاستعمار حيسيبهم في حالهم؟ ليه يسيبهم في حالهم؟ «هل الاستعمار بيمارس ضغوط؟» دا ما كانش سؤال بالنسبة لي، اللي يهمني كان «هل مستمرين في خطة وطنية من أجل الشعب ولَّا إيه اللي بيجرى لهم؟» دا نوع المناقشات اللي كنت مهتمة بيها. ما كانش عندي رأي واضح ونهائي، بحقيقي. كماركسية شيوعية مؤمنة بالشيوعية أساسًا، كان المفروض أعتبر إن الوسيلة للتغيير هي الثورة الشعبية والإطاحة بالدولة الرأسمالية وإقامة دولة اشتراكية. لكن المسألة عندي ما كانتش شيوعية وغير شيوعية في الوقت دا، كنت شايفة إن إحنا بنعيش مرحلة تحرير وطني ولازم تحصل تحالفات بين الطبقات الوطنية المختلفة. بالنسبة لمجلس قيادة الثورة كان فيه إحساس إن فيه شوية عدم خبرة وشوية قرارات استثنائية خطيرة وشوية انفراد بالسلطة وشوية أطماع فردية. كان فيه خلافات داخل مجلس قيادة الثورة بدليل إن عبد الناصر أطاح بمحمد نجيب واتسربت أخبار إن يوسف صديق عضو مجلس قيادة الثورة معترض على الممارسات غير الديمقراطية. الخلافات دي ما كانتش معروفة للجميع ولكن كانت موجودة، وبتنعكس على حياة الناس وعلى المجتمع .

النتيجة إن كان فيه مجهود بيتم لتجميع المعارضين التقدميين، مصطفى كمال صدقي اللي أنا جبت سيرته سريعًا لما حكيت عن بيت تحية كاريوكا، ظابط معارض في الجيش، ويوسف حلمي من فلول حركة السلام ـ اللي كانت انضربت خلاص ـ رجع من فرنسا علشان الجبهة، وكان فيه شيوعيين، شريف حتاتة واحد منهم وبعض موظفين الدولة زي نجيب فخري مدير مكتب فتحي رضوان وزير المواصلات في الوقت دا. يعني كانت بتحصل اجتماعات للمعارضة في بيت نجيب فخري بينما هو بيشتغل مدير مكتب وزير في الحكم. وعلى مستوى تاني كان فيه جناح تقدمي يساري للإخوان المسلمين زي خالد محمد خالد، كان مستنير بشكل متميز مفيش زيه دلوقت، و«الوفد» حزب كبير وناس كتير كانوا بيعتبروا إنه خان القضية الوطنية، بس كان فيه جناح يساري تقدمي أعرف واحد منهم كان من عيلة سيف النصر الأرستقراطية، مش عادل سيف النصر، عادل لسه عايش ما ماتش، يمكن حمدي سيف النصر؟ شكله نسخة من الملك فاروق، كان بيحضر اللقاءات دي. سعد اشترك في عملية الاتصالات لتكوين كتلة مؤثرة أو جبهة وطنية معارضة تقف قُصاد إلغاء الحياة الديمقراطية في مصر وممارسات الجماعة بتوع مجلس الثورة. أعتقد إن سعد ما كانش شيوعي منظم رسميًّا، كان من التقدميين ومن «أنصار السلام» وكان قريب من الشيوعيين في الاتصالات وعلى أبواب الدخول في السرية. بس زي ما قلت قبل كدا أنا ما اعرفش سعد أصبح شيوعي عضو في تنظيم إمتى. كان فيه اتصالات سرية وخلايا وحاجات من دي، مثلًا في يوم من الأيام رحت مقابلة فيها شيوعيين وتقدميين فوجئت بـ«ميمي كانيل» في مصر، أنا فاكرة إنها في باريس، كانت خلصت مدتها واترحلت. بس لقيتها موجودة في هذا اللقاء، قصت شعرها قصير وصبغته إسود وجابت نضارات شكل مختلف. فهمت من الكلام إنها دخلت بباسبور مزور واسم غير اسمها وما عرفتش ساكنة فين احترامًا للسرية. بعد كدا بعد ما اتقبض علينا كلنا عرفت إن سعد كان من ضمن الناس اللي استقبلوها لما دخلت البلد ونظم سكنها في بيت أحمد كامل مرسي المخرج السينمائي. أنا ما كنتش اعرف مغامرة زي دي أثناء حدوثها. أحمد كامل مرسي المخرج ولولا صدقي الممثلة وغيرهم من الفنانين والمثقفين، كانوا انضموا للجنة «أنصار السلام» قبل ما تتحل، زي تحية كاريوكا، وبالطريقة دي نلاقي واحد زي أحمد كامل مرسي مستعد يستقبل في بيته واحدة زي «ميمي» شيوعية اتسجنت قبل كدا واترحلت من مصر وموجودة سرًّا بشكل غير قانوني وجاية علشان تكافح سياسيًّا في البلد. الحمد لله لما اتقبض على ميمي ما كانتش في بيت أحمد كامل مرسي، كانت اتنقلت لبيت في المعادي وشريف حتاتة كان مستخبي هناك بَرضُه. عندي صورة لنا أنا وهي وسعد في جنينة الزهرية أثناء الفترة دي. لكن تنظيميًّا أنا ما كنتش معاهم .

فأنا باحكي دا كله ليه؟ باحكي علشان أقول إن النية على معارضة النظام كانت موجودة مش بس بين الشيوعيين ولكن عند ناس من اتجاهات كتيرة وخلفيات مختلفة. كانت مرحلة تجميع لسه بتتنظم ما دخلتش في مرحلة التنفيذ، وانا كنت موجودة في وسط الناس دي. أنا رأيي إن كان فيه بوادر لعمل خطة، بس اتقبض على الجميع قبل حتى ما تتوضح معالمها. الحكومة قبضت على عدد كبير من الناس ولمُّوا كل اللي له صلة بموضوع المعارضة من بعيد أو من قريب، بما فيهم ناس زي تحية كاريوكا. في البداية كانت ميغة، قبضوا على عدد من البنات لفترة قصيرة زي «جويس بلاو» وسميرة مرات أحمد طه جابوها بابنها عبدُه الزنزانة، ما كانش عنده سنتين. كان اسمه عبد القادر على اسم عمه اللي اغتيل. فترة صعبة علينا كلنا عددنا كبير ومصدومين من القبض وأول ما يفتحوا الباب عبده يجري والسجانات يزعقوا لسميرة من بره وهي تطلب منهم عايزة تنضفه، عاوزه مية،

عيِّل صغير ومفيش ولا بامبرز ولا مية ولا خروج من الزنزانة. وبعدين جاله إسهال وكان بيعمل في أي حتة في الزنزانة واحنا زحمة تلات اربع تنفار ـ أنا مش فاكرة مين بالظبط ـ الريحة كانت فظيعة وانا ما خبتش، تأففت، سميرة شافتنى وانا بالوي بوزي. بصيت لها لقيتها بتبص لي، حزينة، اعتذرت لها على طول بس كانت غلطة مني ما عرفتش أنساها. سميرة كانت مستاءة، تعمل إيه مع العيل دا؟ واحنا زمايلها، أمال مين حيراعيها؟ الحمد لله معاناة سميرة ما طولتش وخرجت هي وعبده وأهيه فاتت الحكاية وانا ما شفتش تاني سميرة. بعت لها تحيات مع واحد اسمه طارق جه يساعد بابا لما رجله اتكسرت مؤخرًا، طلع يعرف أحمد طه وسميرة وطبعًا عبد القادر الصغير دا خلاص راجل وبيشتغل ومتجوز ومخلف .

الرجالة اتحطوا في مبنى السجن الحربي اللي مخابرات الجيش ماسكينه، واشتهر فيما بعد بالتجاوزات والتعذيب والضرب والتخويف والإرهاب. كمال عبد الحليم مثلًا من ضمن الناس اللي اتقبض عليهم وحصل لهم صدمة، كمال كان من كبار المؤيدين لحركة الجيش من أول يوم ومن قبل ما يتأكد نجاحها، فلما شاف الظباط بيمارسوا أساليب التخويف والإرهاب والتعذيب اتهز، ما اعرَفش انضرب ولَّا إيه اللي عملوه فيه، المهم إنه خرج من السجن مهزوز نفسيًّا. لا يزال من ساعتها لغاية دلوقت، كمال عبد الحليم نفسيًّا مش كويس. أعتقد إن استعملوا مع الإخوان المسلمين أساليب وحشية وفي الغالب درجة التنظيم في صفوف الإخوان أكتر بكتير من الشيوعيين. سعد بيحكي إن هو شخصيًّا ما اتعرضش للتعذيب المباشر بس كان بالليل بيسمع صريخ التعذيب، وحصل ضغط عليه إن يقول إن القيادة السياسية لجمال عبد الناصر ومجلس الثورة مش خونة، ولا يزالوا وطنيين. ونظرًا إن المسألة دي كانت مسألة نقاش كبير وبالذات بين أعضاء «حدتو»، ما كانوش مقتنعين بخيانة حركة الظباط للقضية الوطنية، سعد بيحكي إنه قال رأيه بدقة وهو إنهم «مش خونة ولكن الجبهة الوطنية تكونت لمعارضة الإجراءات القمعية». ودا رأيه فعلًا ولحد دلوقت. المجموعة اللي سعد كان معاها ـ «حدتو» ـ كانت معارضة إلغاء الأحزاب وإلغاء التنظيمات الديمقراطية وبتطالب باستمرار الحياة الديمقراطية السياسية، بينما كان فيه منظمات شيوعية زي «م.ش.م» مثلًا واظن الإخوان المسلمين وغيرهم كانوا بيتهموا القائمين على حركة الجيش بأنهم متآمرين وخونة .

خدوني على سجن الأجانب بَرضُه وبعدين نقلوني لسجن مصر وهناك لقيت «ميمي» مقبوض عليها على حساب قضية «تنظيم شيوعي»، أنا وسعد كان مقبوض علينا تحت اسم قضية «الجبهة الوطنية» مع نجيب فخري وتحية كاريوكا وجوزها كمال صدقي. كانت حملة من النظام ضد المعارضة واتقبض على ناس كتيرة تحت أكتر من قضية .

المهم اننا قعدنا في السجن 4 شهور محبوسين أنا في سجن النسا وسعد في السجن الحربي. وبعد 4 أشهر حصل تغيير في السياسة الداخلية في البلد مش قادرة افتكر إيه الحدث السياسي اللي حصل في البلد وغيَّر شوية موازين، فجأة كدا جم يوم الصبح وقالوا «إفراج» وخرجنا أنا وسعد ونجيب وكل اللي على قضية الجبهة، اللي على قضايا تنظيم شيوعي ما تمش الإفراج عنهم. سعد كان متفائل وأكد لي إن خلاص مفيش قضية «كانوا فاهمين الجبهة بطريقة تانية، كانوا غلطانين». كان متفائل لأنه شايف إن مفيش قضية اسمها «الجبهة الوطنية» حتى من وجهة نظر الحكم والسلطة، ناس بتتقابل في العلن وعايزة تكون في العلن، كان مهتم بالفرق بين الجبهة والتنظيمات السرية وبيكرر

«الجبهة مش واجهة شكلية للتنظيمات، الجبهة مهمة والناس اللي تدخلها لازم هي اللي تكون مسؤولة عنها»، وأعتقد إن دي نقطة خلافية تانية مع الشيوعيين بالنسبة لموضوع سعد والعمل الجماهيري ما فهمتهاش كويس ساعتها .

خرجنا من المعتقل وابتدينا نفكر تاني في الجواز، أصل احنا عايزين نتجوز، ورجعنا نتابع إجراءات الديانة والكنيسة ونحضَّر. للأسف الشقة اللي جنب التلفزيون كانت راحت خلاص لأن لما اتقبض على سعد فتشوها ولقوا فيها منشورات .

وِجِه الإذن من الفاتيكان .

هييه !

حنتجوز !

كنا مستعجلين وعايزين نخلص من إجراءات الجواز فحصل قرار إننا نسكن مع أهل سعد في الدقي وما نستناش. حددنا اليوم وفَصَّلت فستان أبيض، قررت كدا: فستان أبيض مش طويل علشان أكون مودرن. ونزلت البلد لمحل برانيط علشان ألبس برنيطة بيضة بدل الطرحة الطويلة العادية. وسعد عزم على كنعان صديقه الفنان يحضر، أظن علشان مسيحي، حتى مش فاكرة إن كان حسن فؤاد جه الكنيسة ولَّا لأ. المهم إن اتعمل المراسم في الكنيسة. عندي صورة على سلالم الكنيسة فيها «فيليا» و«فيليتشتا» وعيلة «موتي»، وفيه كمان «صوفيا» صاحب محل الكهربا اللي ابويا كان بيشتغل معاه واللي جاب لي محامي يمثلني أول مرة اتقبض عليَّ في 1949. أما الجواز الإسلامي، إحنا اتجوزنا مرتين، كتب الكتاب الإسلامي حصل قبل الجواز المسيحي بمساعدة حسن فؤاد. حسن فؤاد جه معانا ورحنا مش عارفة الشهر العقاري ولَّا المحافظة، فين ممكن يحصل كتب الكتاب؟ أشهرت الإسلام بشهادة حسن فؤاد والأستاذ فريد نسيبه. كان لازم أقول «لا إله إلا الله ومحمد رسول الله» وخلاص بعد كدا عقد الجواز في نفس اليوم من نفس الناس في نفس المكان. رحنا نتفسح في جنينة الحيوانات أو الزهرية، وقعدنا على ترابيزة وشربنا حاجة ساقعة و«مبروك مبروك» ومشينا، كان ساعة ضهرية وكل واحد فينا راح لمشاغله علشان يعتبر كتب الكتاب بس ولسه اللي بيسموها الفرح والدخلة بعدين .

أنا اتكلمت باختصار لكن إذن الفاتيكان دا اخد مننا مجهود كبير ومشاوير رايح جاي ومناقشات علشان نقدر نقنعهم، في النهاية نجحنا وعلى علمي مفيش حد تاني عمل الحكاية دي أبدًا، أنا وسعد بس اللي أخدنا إذن من الفاتيكان نتجوز، مسلم على مسيحية، جواز مسيحي في الكنيسة وبمباركتها. كانت خطوة مهمة لأمي وانا كنت سعيدة إن مشروعنا بينجح وان أهلي مبسوطين، ما قلناش لأبويا وأمي، خبينا عليهم إن انا أسلمت، وخبينا عليهم إني غيرت اسمي بشكل رسمي وبقى نايلة كامل، ما جبتش سيرة لغاية ما ماتوا، ممكن خمِّنوا أو عرفوا بس مش مني، وهم كمان ما جابوش سيرة ولا سألوا. لما سافروا إيطاليا كانوا بيكتبوا «ماري كامل» على الظرف من بره، تركيبة بين نايلة كامل

و«ماري روزنتال» وسعد كامل. الحقيقة بالنسبة لأبويا وأمي جواز الكنيسة كان مناسبة كبيرة ومهمة، أما بالنسبة لنا أنا وسعد فكنا معتبرين نفسنا متجوزين وإن كل دي إجراءات .

أبو وأم سعد سابوا لنا البيت وراحوا الفيوم. نانا شاطرة تعمل سبَت السفر، تجيب شوية مستلزمات معينة ومحددة مش تقعد تفكر كل مرة يا ترى آخد إيه ويا ترى حاحتاج إيه، أنا لغاية دلوقت لما آجي أسافر الفيوم باتلخم لخمة لا يمكن تصورها. كانوا بيروحوا الفيوم كتير وكل موسم يستقروا هناك شهر على بعضه وأبو سعد ياخد باله من الأرض ومن الزراعة .

أبويا وأمي حبُّوا يعملوا حفلة بعد قداس الكنيسة ويعزموا أصحابنا، عملنا الحفلة هنا في بيت أهل سعد . جم أهلي وجيران أهلي وابن عمي موسى مع بنته من غير مراته، اتجوز بنت مصرية قح من اليهود الأصليين، اسمها «ميري»، وأنا وسعد حضرنا فرحهم لما كنا مخطوبين، موسى الوحيد اللي كان لسه موجود من عائلة أبويا في مصر . وضَّبنا البيت هنا بشكل لطيف، أوضة الصالون هي هي والسفرة هي هي، والمطبخ تقريبًا هو هو، جبنا بتيفور وسندوتشات وعملنا بوفيه حلو في الصالة، كانت سهرة لطيفة، وبعد ما أكلنا رقصنا واتصورنا وهنينا بعض، روَّحوا كلهم، وأبويا وأمي كمان مشيوا .

وفضي البيت علينا .

قعدنا سعد وانا فجأة على الكنبة واتنفسنا، أخيرًا انتهت، شوية توضيب من هنا وشوية كدب من هنا وشوية صبر من هناك تمِّت المسألة .

وبدأنا الحياة الزوجية بشكل كامل. أنا سِبت البيت عند أبويا وأمي وجيت أعيش هنا في بيت نانا وجدو. أخدنا أوضة نوم جميلة أخت سعد. جميلة كانت اتجوِّزت علي الراعي وراحت معاه انجلترا يعمل الدكتوراه وأوضتها فضيت، سكنَّا فيها أنا وسعد وتولِّينا مسؤولية إدارة البيت، بفلوس قليلة لأن سعد ما كانش بيشتغل بشكل منتظم. مش قادرة افتكر كنا بنجيب فلوس ازاي علشان نعيش كمصدر منتظم، غير مساعدات أهل سعد، سعد كان حاسم إن هو مسؤول عني، وعمرنا ما طلبنا من أهلي .

على أي حال عشرين جنيه كانوا يكفوا الشهر. زي ما طنط عزيزة قالت الحياة اليومية عايزة صابون وملح ورز «مش مسألة نرضى باللي موجود، يعني مش حنغسل وشنا؟ مش حنستحمى؟» هي كانت بتأكد قوي على الصابون علشان هو مش على بال الواحد إنها من ضروريات البيت، الواحد لما بيكون صغير بيفتكر إن الأكل وإيجار الشقة همَّ المشكلة، لكن الصابون مثل جيد على احتياجات أساسية غير متوقعة. كنت باشتري كيلو الفيليه من عند الجزار بستاشر قرش، رخيص ستاشر قرش بالنسبة لأسعار النهاردا ومع ذلك اكتشفت إن إدارة بيت خبرة مش بديهية. ابتديت أفهم واتعلم أسعار الحاجات، وافكر ناكل إيه كل يوم. حاولت أنظم نفسي «هل الطبيخ كل يوم أحسن ولَّا كل يومين». بالنسبة لسعد لما كان مع أبوه وامه ومش متجوز، حياته كانت بره البيت معظم الوقت ياكل بره أو ياكل في البيت أو ما ياكلش وييجي بالليل وَخْري، ما كانش عندهم عادة العشاء .

ابتدت سلسلة زيارات من اصحابنا علشان يباركوا لنا على الجواز. صلاح حافظ وهدى وحسن فؤاد ورضا وناس تانية كتير يباركوا ويتكلموا في السياسة. كان فيه قلق كبير، ما كانش فيه استقرار في البلد، حركة الجيش وجمال عبد الناصر كانوا بيحاولوا يستقروا في الحكم وممارساتهم بتزداد قمعية، وحسب ممارسات الحركة في الحكم الواحد يأيدها أو يعارضها، بناخد موقف بالطريقة دي. كان فيه دايمًا شك وتردد حول دور كل عضو في مجلس قيادة الثورة، شك لسه موجود لحد اليوم، لكن أنا باتكلم عن 1954 بعد أقل من سنتين من يوليو 1952، ما كانش عندنا وقت نتنفس، أحداث سريعة ورا بعض، مش متأكدة من ناحية الدقة التاريخية ولا حتى السياسية أنا عشتها إزاي، لكن اللي أقدر أقوله إن أنا وسعد من غير معاناة فكرية كبيرة موقفنا من الحريات والديمقراطية كان واضح دايمًا .

*

سعد نزل الصبح، وحماتي وحمايا كانوا في الفيوم، لوحدي في البيت، خبَّطوا على الباب، فتحت، مجموعة من الرجالة دخلوا بدون استئذان .

ـ أحمد سعد الدين كامل؟

ـ ليه؟

ـ هو فين؟

ـ مش هنا .

ـ جاي إمتى؟

ـ ما اعرفش .

ـ طيب حنستناه .

فهمت إنهم بوليس وعايزين يقبضوا عليه، فتشوا البيت شوية، لكن ما كانش فيه حاجة معينة .

بس .

قعدوا يستنوا معايا في البيت، وانا قلقانة عاوزة أدِّي خبر لسعد ما يرَوَّحش ومش عارفة أعمل إزاي، باروح من أوضة لأوضة ولما قرب وقت وصول سعد رحت أوضة الصالون وبعد شوية طلعت في البلكونة، ورجعت قعدت في أوضة الصالون، شوية ورجعت البلكونة، قال يعني مش عايزة يبان إني متوقعة أشوفه، وبعدين شفته فعلًا جاي على راس الشارع عند موسى المكوجي، شاورت له ما فهمش، افتكرني واقفة مستنياه في البلكونة باسلم عليه فشاور يسلم عليَّ، كملت أشاور بعصبية «امشي، ابعد»، أخيرًا خد باله، وقف وابتدى يتحرك بسرعة بره الشارع، في اللحظة دي

اتنين مخبرين ظهروا ورايا في البلكونة ودخلوني بالعافية وانا داخلة شفت اتنين مخبرين على راس الشارع بيمسكوه وبعد دقائق دخلوا البيت وسعد معاهم .

سألوه شوية أسئلة وعملنا مع بعض شنطة صغيرة ـ بيجامة، فانلات، غيارات، وفرشة سنان ـ أخد الشنطة، بوسنا بعض وقال لي :

ـ حاشوف إيه الحكاية .

دا كان بعد شهرين من الجواز .

مشي مع المخبرين، أنا قعدت شوية كدا على الكنبة ما باعملش حاجة، وبعدين أخيرًا قمت كلمت طنط عزيزة خالته في التلفون :

ـ سعد اتقبض عليه .

لبست ونزلت رحت عند أبويا وأمي وقلت لهم :

ـ دا جم قبضوا على سعد .

أظن ليلتها نمت عندهم .

تاني يوم في الجرنال لقيت خبر «تقديم قضية الجبهة الوطنية للمحاكمة»، وأسامي: المتهم الأول مصطفى كمال صدقي لأنه ظابط فحكايته واخدة خطورة أكبر، لها معنى كبير عندهم، مش عادي يقبضوا على ظابط، وشريف حتاتة وسعد كامل و«ميمي كانيل» وناس تانية، مفيش اسمي في الخبر، وانا فعلًا ما قبضوش عليَّ .

قعدت الصبح أنا والجرنال .

نانا وجدُّو جم من الفيوم أول ما عرفوا، الاتصالات ما كانتش سهلة، بيِّت مع نانا ليلتين وتالت يوم المحاكمة رحت برجليا وشفتهم كلهم في القفص. اتقربت منهم وسلمت على سعد، كلامه ما كانش فيه اطمئنان ولا أي علامات واضحة، مش زي القبض الأول .

ـ ما قبضوش عليكِ؟

ـ لا .

ـ كويس .

وسكت .

كان معاه في القفص «ميمي كانيل» وشريف حتاتة و«ألبير آرييه» وحليم طوسون، محبوسين من نوفمبر 1953 على حس قضية التنظيم الشيوعي، ما طلعوش معانا، بيجيبوهم من السجن للمحكمة. جلسة علنية مش سرية. ما اتكلمتش مع حد غير سعد. كل متهم مشغول يتكلم مع المحامي أو مع أهله. اترفعت الجلسة واتأجلت. سمعت التأجيل، القاضي قام، خدوا المتهمين ومشيوا .

فمشيت أنا كمان .

وجيت البيت عند نانا منيرة .

رجعت لها من المحكمة معنديش أخبار، ومش عارفة أقول إيه، أصل مفيش كلام يتقال. قعدنا ساكتين .

يا دوبك ساعتين تلاتة، خبطوا على الباب عندنا في بيت أهل سعد وقبضوا عليَّ أنا كمان .

حضرت الجلسة وانا حرة، ما حدش كلمني وانا في المحكمة .

يظهر نسيوني، أو مش واخدين بالهم إن انا قاعدة في القاعة، الحكاية كانت كبيرة ويظهر بتحصل غلطات، افتكروا فجأة: فيه واحدة مرات سعد ـ اللي هي أنا ـ وجم قبضوا عليَّ من بيت أهل سعد وودوني على سجن مصر، دوغري المرة دي .

هناك لقيت «ميمي»، مش فاكرة غيرها بالذات اليوم الأول .

يظهر اتغيرت موازين الوضع السياسي في مصر، تاني، فقرروا ياخدوا القضية كلها، تاني، واحنا جميعًا، كل اللي أُفرج عنهم من أربع شهور اتقبض علينا، تاني، بس احنا كنا اتجوزنا .

وابتدت جلسات التحقيق، لكن أنا ما حققوش معايا، ظابط التحقيق ييجي في عربية البوليس ياخد «ميمي» يحققوا معاها ويرجعوها السجن. تلات أربع مرات «ميمي» راحت للتحقيق وانا مستنية ييجي دوري. على ما أعتقد في الفترة دي ما كانش فيه إلا احنا الاتنين من الشيوعيات في السجن؟ وكل واحدة في زنزانة لوحدها، مش عايزينا نكلم بعض .

في يوم طلبوني مع «ميمي»، خرجنا من السجن وافتكرت حيحققوا معايا أخيرًا. دخَّلونا أوضة كبيرة فيها زي 15 ست لخبطونا في وسطيهم ورصُّونا صف طويل. معظمهم لابسين بلدي، طرحة أو ملاية، أنا و «ميمي» لابسين ملابسنا الملكية لسه ما اتحكمش علينا، فضروري شكلنا ملحوظ في وسط الستات دي. في الأول ما فهمتش إيه اللي بيحصل، بعد شوية أدركت: عاملين مواجهة. جابوا راجل ما اعرفوش مقبوض عليه في قضيتنا وبيعترف، عرفت من سعد فيما بعد إن اسمه دكتور فؤاد منير من اسكندرية وأظن أصبح مدير في البنك المركزي. في السجن الحربي كانوا مارسوا ضغوط وإرهاب على المسجونين الرجالة، سمعت إن فؤاد منير واحد من اللي ابتدوا يعترفوا على طول من الأول ويقول كل التفاصيل وكل الأسماء ـ بتحصل. إحنا واقفين صف طويل جنب بعض

والراجل دا دخل من الباب، كلنا بصينا في اتجاهه وكان معاه اتنين تانيين، وابتدى يتمشى ويبص لنا واحدة واحدة، زي في الأفلام، وأول ما وصل عند «ميمي» شاور وقال :

ـ دي .

بصيت لـ«ميمي» لكن هي ما بصتليش وشها جامد .

ـ اسمها ايه؟

فقال على اسمها الحركي أظن «ماجدة»، وبعدين كمِّل يبص علينا واحدة واحدة لحاد ما وصل عندي، فاهم من لبسي إن المفروض يتعرَّف عليَّ، بس هو ما يعرفنيش وانا ما اعرفوش، ما شوفتوش قبل كدا، وبعدين هو من اسكندرية على أي حال. ظابط المخابرات اللي جايبه أصرَّ عليه :

ـ مين التانية؟

ـ مش موجودة .

ـ مش موجودة ازاي؟ بص تاني .

يبص تاني، ييجي عند «ميمي» دي واضحة بالنسبة له زي الشمس يشاور عليها، يفوت قدامي ويقف شوية ويكمل ويخلص الصف، فواحد من الظباط اتنرفز، جه عندي وطلعني من الصف :

ـ دي! ما تعرفش دي؟

فالراجل يا عيني بص لي في عيني وقال للظابط :

ـ ما اعرفهاش .

سكتنا .

ومشينا .

كان فيه 3 «ماري»، أنا و«ماري بابادوبولو» مرات «نيكولا غازيس»، من أصل يوناني ودا اسمها الحقيقي، وكان في واحدة جريجية تانية من مصر الجديدة ظهرت في فترة رجوع «ميمي» من فرنسا، اسمها «لفكي» واسمها الحركي «ماري». ففي التقارير عندهم واحدة اسمها «ماري» ممكن تكون أي واحدة فينا، يمكن جابوني على أساس واحدة من الاتنين دول؟ الراجل دا ممكن ما عرفنيش لأنه بيدور على «ماري» تانية. باحاول ألاقي تفسير للِّي حصل، ما فكرتش ساعتها وما سألتش .

«ميمي» كانت حزينة وما بتتكلمش كتير، وانا ما كنتش باسأل، مش مناسب آخد معلومات، ما دام ما اعرفش يبقى ما اعرفش وخلاص علشان أفضل مش عارفة وانا في التحقيق.

كان فيه واحد بيساعد في بيت أهل سعد ولأن سعد اتقبض عليه أكتر من مرة، من صغره، فالراجل دا أصبح خبير سجون وعارف النظام، يخش عند الظباط ويمشِّي الأمور. سعد طلب من نانا تبعت عمودين أكل كل يوم، واحد له وواحد ليَّ. حِمل على نانا منيرة ان تفكر في نفرين بدل نفر واحد، بس سعد كان مصمم يأكد فكرة إنه جوزي ومسؤول عني وإن عائلته هي عائلتي، يا عيني نانا منيرة كانت بتبعت لي الأكل فعلًا. في نفس الوقت أهلي حبوا يبعتوا لي أكل هم كمان، أبويا وأمي بيحبوا الأكل وبياكلوا أكتر من أهل سعد، الأكل بيحتل مكان أكبر في حياتهم، وحياتي، عمومًا، في بيت نانا وجدو كان في شيء من الاعتدال. النتيجة إن كان بيوصلني من حماتي أكل مصري فيه لحمة ورز وملوخية وخضار، ومن أبويا وأمي الأكل الطلياني مكرونة ولحمة روستو. والحقيقة هي لفتة لطيفة لأن الأكل اللي كان بيجي لي من عندها كان الاتصال الوحيد اللي بيني وبين سعد. نقابة المحامين كانت بتصرف إعانات 5 جنيه للمسجونين وسعد طلب من عز الدين أخوه يوصل لي نُص الإعانة، لكن عز الدين كان أقل التزامًا من نانا.

مر الوقت وجه يوم النطق بالحكم، افتكرت إن حنخرج ونروح المحكمة وأشوف سعد، كان بقى لي شهرين ما شفتوش، آخر مرة شفته كان في أول جلسة قبل ما يتقبض عليَّ لكن ما خرجناش وما رحناش محكمة، ندهونا أنا و«ميمي» في قاعة الاجتماعات، كان فيه خمس ظباط غير مأمور السجن، 3 منهم واقفين مرصوصين كدا، وقفونا قصادهم، والظابط اللي في الوسط ابتدا يقرا إنه «حكمت «المحكمة»: على «ناعومي كانيل» (ميمي) بـ8 سنوات سجن مع الشغل وعلى «ماري روزنتال» (أنا) بخمس سنوات مع الشغل ».

بس.

فضلنا واقفين كدا.

مفيش حاجة تتقال.

كانوا بيحاولوا يعملوا جو من الهيبة في الأوضة علشان يعوَّضوا جو المحكمة لكن أنا فكرت إني عايزة اعرف سعد خد كام سنة.

ـ وسعد كامل جوزي خد كام؟

اتلخم ولقى إن هيبة المحكمة ما أثرتش عليَّ كفاية، كأني مش واخدة بالي إن مش من حقي أسأل فسكت وكشَّر وما رَدِّش عليَّ، لكن أنا كررت سؤالي:

ـ وسعد كامل جوزي خد كام؟

ـ سكوت! إنتِ أمام المحكمة .

رجعنا الزنازين وعلى طول سحبوا الملابس الملكية وودُّوها الأمانات وسلمونا اللبس الميري ـ لبس السجن. لبس السجن عبارة عن جلابية من قماش خشن اسمها «شوال» والغيارات الداخلية من نفس قماش الشوال، وسلمونا جزمة. كان شكلنا وحش أول ما لبسناهم، مش ممكن حنقعد بالمنظر دا خمس سنين، قضينا الأسبوع الأول نوضَّب الشوال على مقاساتنا علشان يبقى شكلنا معقول. سابوا لنا ملابسنا الداخلية الخاصة من غيارات وكومبينيزون وجزمة من عندنا بشرط تكون سودا، ودا بشكل غير رسمي. لكن أبويا أخد إذن زيارة خاصة وجه يزورني تاني يوم الحكم على طول، ما كناش لحقنا نصلح الشوال ونوضب شكلنا شوية، رحت له زي ما انا. بوسته وقعدنا في أوضة المأمور جنب بعض، بص لي كدا وراح معيَّط، عيَّط بصوت، فحضنته وقلت له :

ـ معلش. أنا كويسة. أنا شديدة .

لكن منظره كان متعب بشكل! أنا عمري ما شفت أبويا بيعيط. يائس وما عندناش كلام كتير نقوله لبعض، كنا عشنا الفترة اللي فاتت على أساس إن خلاص أنا خَلَّصت مع السجون ومتجوزة وقاعدة في البيت وإن الحياة حتمشي عادية، الحكم دا كان صدمة كبيرة .

في الزيارة الصعبة دي عرفت منه إن سعد أخد 5 سنين أشغال شاقة وراح ليمان طرة وان نانا راحت تزوره. في فترة التحقيق أهلي كانوا بيجوا كل يومين علشان يجيبوا لي الأكل ومرة في الأسبوع علشان ياخدوا الهدوم تتغسل وتتكوي، بييجوا بنفسهم ويجيبوا «الزيارة» ساعات من غير ما يقابلوني لو مش مسموح. فتحي رضوان خال سعد كتب في مذكراته إنه لما كان وزير وهو فايت بالعربية شاف ست واقفة على باب السجن شايلة الزيارة ومستنية الإذن بالدخول وصعبت عليه، لما قرب بالعربية اكتشف إنها أخته منيرة شايلة الزيارة لابنها سعد، المنظر خلاه يعيط. لكن مع صدور الحكم معاناة الأهل اليومية توقفت وأصبح ملناش حق الزيارة إلا مرة في الشهر. وابتدينا ناكل أكل السجن: الفول والعدس وجبة السجون العادية، الرز بالزلط والعيش بالفتل. خلاص محكوم علينا والسجن يتولى مسؤوليتنا .

سجن مصر كان حصل فيه تطوُّر، عملوا تحسينات في نظام السجن وانا غايبة، وأصبح في الكانتين، دكان بيبيعوا فيه سجاير وبسكويت وعلب سلمون وشوية نواشف. في فترة التحقيق الكانتين كان بيساعد المسجونة اللي معندهاش حد يبعت لها أكل كل يوم، وبعد الحكم الكانتين ساعدنا كلنا على كسر ملل ووحاشة أكل السجن، نشتري بسكويت بعجوة وسجاير بالنسبة للي بيدخن، دا كان تطور مهم لأن قبل الكانتين السجاير كانت بتدخل السجن خِلسة مع المخدرات والممنوعات، تمنها غالي وبتستخدم للابتزاز وعملة لشراء حاجات تانية. أما يوم الزيارة فكان حفلة كبيرة للجميع داخل السجن لأن الأهل بيتفننوا: حلويات وكيكة وفاكهة علشان يفرحونا بالإضافة للأكل المطبوخ طازة وكنا بنتقاسم .

بس الحكم كان طويل، خمس سنين .

*

ساعات سألت نفسي السؤال دا: أنا اتحكم عليَّ بخمس سنين ليه؟ بالغلط؟ ظلم؟

ما كانش ظلم ولكن أنا ما كنتش باعمل «مشاركة» معينة، بالفعل .

أنا كنت باشارك وجدانيًّا في كل نشاطات سعد وباقابل كل أصحابه بسبب إني أصلًا مهتمة وعندي فكرة عن السياسة، وساعات يعملوا اجتماعات موسعة أحضرها واسمع بشكل طبيعي من غير ما يكون عندي صفة عضوية حقيقية في أي تنظيم. كنت مخطوبة لسعد، كنا عملنا خطوبة، وكنت عارفة ـ ومش معترضة ـ إنه ابتدا يدخل في الـ «clandestinité» ـ العمل السرِّي. في هذه الأثناء كان بيحضَّر لحياتنا الزوجية في شقة ماسبيرو اللي البوليس ما كانش يعرفها لسه، ابتدينا على طول نودِّي شوية حاجات نفرشها. في الفترة دي زي ما حكيت اشتغلت سكرتيرة وكنت أصبحت سريعة وشاطرة وابتديت اتعلم اختزال، وسعد نقل سكنه في الشقة. كنت موافقة سياسيًّا على الاتجاه إن لازم يكون فيه معارضة قوية في البلد ضد الميول القمعية للنظام، ولكن من ساعة ما خرجت من السجن الأولاني في سنة 1950 ما حصلش تنظيمي في أي حزب، وما اشتركتش شخصيًّا ولا كنت عضوة في أي خلية معينة، إن اكون مسؤولة عن مهمة محددة أو حد يبقى مسؤول عني ويكلفني، ما حصلش، اكتفيت أتعاطف واتابع واشترك في المناقشات السياسية ويكون ليَّ رأي من خلال عضوية سعد . مش مظبوط إني أكون سياسيًّا ملحقة بسعد، بس انا ما سألتش وما عبرتش ساعتها، كان دا البديهي إن انا وسعد كأننا شخص واحد. حتى لما سعد أصبح مسؤول عن تحرير مجلة «الكاتب»، اللي كانت مجلة حركة «أنصار السلام» قبل ما يقفلوها، مرة قال لي :

ـ مش عاوزه توزعي المجلة؟ تاخدي عدد من النسخ وتوزعيهم على الناس؟

أنا في بالي تجربة توزيع المنشورات أيام عبد الستار الطويلة فقلت له :

ـ بلاش تطلب مني حاجة زي دي، أنا ما اعرفش مصريين كتير، كفاية إنك تديني نسخة أحاول أقراها .

ما كنتش باقرا عربي بسهولة فكان تمرين كويس ليَّ وفي نفس الوقت باتابع باهتمام المناقشات العامة من خلال شغل مجلة «الكاتب» ولجنة «أنصار السلام»، لحد ما اتمنعت .

كان فيه أحكام عرفية، اللي هي اسمها قانون الطوارئ دلوقت، ما خضعتش لأي تحقيق بالمرة في قضية الجبهة الوطنية، ولا أثناء اعتقال الـ4 شهور الأولانيين قبل الجواز اللي ما كانش فيه زيارات للأهالي ولا اتصالات بين المسجونين وبعض، وما كانش فيه قضية واضحة، ولا اتحقق معايا في القبضة التانية بعد الجواز .

خدت حكم 5 سنين بدون تحقيق .

ورحت المحكمة مرة واحدة في الأول وما كانش اتقبض عليَّ لسه .

يمكن كانت محكمة عسكرية؟ أصل التصرفات كانت جزافية، يعني مفيش إجراءات معينة، على مزاجهم، ممكن اعتقال، ممكن محكمة عسكرية، ممكن تحقيق لو عايزين معلومات، وممكن من غير تحقيق. واضح إنهم ما كانوش عايزين مني معلومات وإلا كانوا حقَّقوا معايا . «ميمي كانيل» كان وضعها مختلف، عليها تهم محددة أكتر، كانت بتشتغل في العمل السري، اترحلت من البلد في 1952 ورجعت بأوراق مزوَّرة، بمساعدة مجموعة الشيوعيين المصريين من منظمة «حدتو » اللي اترحلوا لفرنسا وعلى راسهم «هنري كوريل»، وفيه خلايا شيوعية في مصر استقبلتها. الشيوعيين شاركوا في تكوين جبهة معارضة واسعة بالفعل لكن أنا ما كنتش عضوة في تنظيم، كنت عضوة بقلبي بس. ساعتها ما فكرتش وما سألتش، بس دلوقت بافكر ممكن المباحث والبوليس السياسي كانوا فاهمين إن انا حاجة في الحزب؟ أو يمكن ملخبطين بيني وبين «لفكي» أو «ماري بابادوبولو » ، بس ساعتها مش كانوا حيحققوا معايا؟ حد قال لي مرة إنهم بيغلّظوا الحكم التاني بشكل روتيني، يعني وقعت في إيدهم وباظهر في التقارير ولقوا إن عندي ملف من قبل كدا يعني ما حرَّمتش، يبقى يدوني حكم كنوع من التأديب، يسجنوني وخلاص حتى لو مش ماسكين عليَّ حاجة. يلّا معلش أنا كنت عبيطة إلى حدٍّ ما لأني ما سألتش نفسي السؤال دا إلا وانا باحكي اليومين دول معاك يا نادية .

مرة فريدة النقاش سألتني، كانت صغيرة وفي بداياتها في العمل السياسي :

ـ مدام نايلة، انتِ مش بتكتبي ذكرياتك عن السجن ليه؟

ـ كتير فكرت أكتب ولكن الخلافات بين التنظيمات المختلفة من الشيوعيين تعبتني، لغاية دلوقت مش عارفة أخرج من الإحساس بعدم الراحة، مش قادرة أحكي .

الحوار دا كان سنة 1975 والسادات بيقبض على العمال واليسار وسعد هربان. لما ابتديت احكي لك اتحمست شوية وبعدين رجعت قلت لنفسي حاتكلم عن فترة السجن في وقت تاني لأني لغاية دلوقت محتاجة أفكر فيها. مؤخرًا مع الحكي حسيت إني ابتديت اعرف احط على جنب الخلافات التنظيمية، وابتديت أتذكر الفترة كانت متمثلة في إيه وازاي. أعتقد إن فترة سجن الـ5 سنين لها «trois dimensions» ـ تلات أبعاد ـ أولًا السجن بيعمل إيه في الإنسان ـ من وجهة نظري ـ الجانب التاني الشخصيات اللي قابلتها وسرد الأحداث زي ما حصلت واحدة ورا التانية لغاية الآخر. الزاوية التالتة تقييمي للناس والأحداث دي، مش عارفة، بالاقي إن البعد الأول والأخير مش سهلين .

فنبتدي من الأسهل .

الشخصيات والأحداث زي ما حصلت .

محتاجة أرجع سريعًا لفترة السجن الأولى في 1949، أنا اتعلمت فيها كتير وكان معايا إجلال السحيمي و«ميمي كانيل» وأسما البقلي و«برت» و«جانيت». أسماء و«برت» و«جانيت» كانوا أكبر سنًّا وزوجات زعماء تنظيمات شيوعية مصرية: أسعد حليم و«هلال شوارتز» و«مارسيل إسرائيل» والتلاتة كانوا مخلِّفين ـ عندهم عيال. من ناحية تانية كان فيه العلاقة مع منظمة «م.ش.م» وتصرف زميلتي اللي ما رضيتش تتكلم معايا وشخصية «أوديت» وتأثيرها على بنات مجموعتها. صحيح السجن من ناحية بيعزل عن المجتمع وفعلًا حياتي توقفت سنة ونص، ودا كتير، لكن باكرر دايمًا إني باقيِّم مرحلة السجن الأولى على إنها انفراجة، اكتسبت خبرات ذهنية وثقافية ونفسية، دخلت وانا مش فاهمة كتير عن الدنيا واتصالي بالناس دي فتح لي طاقة واتعلمت اللي ما كنتش أقدر اتعلمه بره السجن أبدًا. مصر كانت تحت الاحتلال الإنجليزي وكان لسه الملك موجود .

الفترة التانية كانت تحت حكم عبد الناصر، الملك مشي والانجليز بيلموا حاجتهم وماشيين .

الفترة التانية دي جزءين داخلين في بعض في ذاكرتي، لأن المرتين ورا بعض، نفس القضية تقريبًا، نفس المحبوسين تقريبًا، والمسافة بينهم شهور، نوفمبر سنة 1953 أربع أشهر خرجت اتجوزت ودخلت القبضة التانية في يونيو 1954 بعد ما اتجوزنا بشهرين اتحكم عليَّ فيها بخمس سنين .

كنت حاسة إني عارفة أتوقع إيه، صحيح ومش صحيح .

أول ما قبضوا عليَّ ودُّوني على سجن الأجانب كام يوم، وفوجئت بـ«لي لي دايان» هناك لسه محبوسة هي و«فيا ياناكاكيس»، البنات اللي «أوديت» استقصدتهم ولجأوا لزنزانتنا. «لي لي» قالت لي :

ـ أنا مسافرة بكرة خلاص .

ـ أنا قابلت مراد وخد جوابك بس ما ادَّانيش رد .

ـ آه خلاص .

ما قالتش أكتر من كدا في موضوع مراد. أنا خدت منها جواب وانا خارجة من السجن سنة 1951 وصلته لمراد المستكاوي، وبعد 3 سنين دخلت السجن تاني لقيتها لسه جوه هي و«فيا»، جايبينهم سجن الأجانب علشان يرحلوهم من السجن على بره البلد على طول. تاني يوم جه الكاميون بالظباط ياخدوهم على المركب أو الطيارة اللي حترحلهم. «لي لي» كانت جاهزة، ساكتة كعادتها، لا بتتكلم ولا بتعيط ولا بتصرخ، خدت شنطتها بوقار وقامت، طبيعتها كدا مش جافة لكن فيه شيء من التحفظ ومن الاحترام في تصرفاتها وفي وقفتها، سلِّمت عليَّ بدون ما تبتسم .

حضنتني ومشيت .

بصيت من الشباك عليها وهي خارجة من باب السجن تركب كاميون الترحيلات .

البنت التانية بقى رافضة تتحرك .

ـ يلَّا .

مفيش فايدة، مش راضية تتحرك .

ـ مش عايزة أمشي. إجراء غير قانوني. أنا مكافحة من أجل الشعب. أنا باكافح علشانكم .

«hysterical» ـ في حالة هياج عصبي ـ تروح على الشباك وتصرخ وتنادي على الناس في الشارع :

ـ أنا مصرية، عاوزين يطردوني من البلد، دا غير قانوني، أنا مصرية، دا غلط، دا ظلم .

بعتوا بقى يجيبوا رجالة البوليس وفي النهاية جرجروها على السلم، شالوها من إيديها ورجليها لغاية ما حطوها في العربية، ما مشيتش برجلها شالوها شيل، واستمرت تقول هتافات وشعارات مجموعة «م.ش.م» «تحيا الطبقة العاملة» اللي كنت باسمعها كل يوم في السجن الأولاني .

طول الوقت دا «لي لي دايان» كانت قاعدة ساكتة مستنية في العربية. الكاميون اتحرك ومشي .

السجن التاني ابتدى البداية دي .

ما جتليش أخبار عن «لي لي» تاني. حتى ما اعرفش رحَّلوها فين، ما كانش ممكن يرحلوهم لإسرائيل علشان ما كانش فيه اتصال بين مصر وإسرائيل، كانت حالة حرب. اللي أعرفه إن كانوا بيرحلوهم إلى إيطاليا أو فرنسا حسب الورق اللي معاهم، «لي لي» في الغالب راحت فرنسا أصل اظن كان أصلها جزائري. ومن هناك حسب ظروفهم، وللأسف كتير منهم انتهى بيهم الأمر في إسرائيل، بالذات اللي ما عندهمش إمكانية يستقروا في أوروبا .

*

عايزة احكي عن تلات شخصيات مسجونات مش شيوعيات قابلتهم في سجن مصر. تحية كاريوكا وعلية توفيق زوجة يوسف صديق عضو مجلس الثورة والتالتة زوزو ماضي الممثلة، ما كانش لها أي علاقة بالسياسة لكن إيه، حتة شخصية! إحنا الشيوعيات كنا أصغر منهم في السن، نفهم أكتر منهم شوية في السياسة واكتر منهم بكتير في الماركسية والشيوعية، ولكن كخبرة اجتماعية حياتية كنا عيال كتاكيت جنب الستات دول .

تحية كاريوكا تدخل السجن فالسجن كله يقف على رجل، المسجونات، سياسيات وغير سياسيات، السجَّانات بكل الرتب طول النهار يحاولوا يفوتوا قدام زنزانتها أو يلمحوا شكلها من بعيد. الظباط كمان، بل مدير السجن نفسه ييجي لها لحد عندها في الزنزانة. ومش بس يسلموا عليها ويرحبوا بيها، يعرضوا عليها خدماتهم ويسألوها محتاجة إيه .

تحية كاريوكا أصبحت رئيسة السجن وقعدت تحمينا أنا و«ميمي» وسميرة مرات أحمد طه. مديرة وريِّسة بطبيعتها وحكاية التغذية في قلبها، مسؤولة عن تغذية الإنسانية كلها مش بس ضيوفها في البيت . ما كانتش عيانة لكن بعتت تجيب لبن ولمون وسكر زيادة من مستشفى السجن. إحنا ما كانش ممكن نبعت نجيب. وجابت كاكاو كمان، وبناء على طلبها جابوا لها قَرَوَانة لبن كاملة من المستشفى. القَرَوَانة إناء من الألومنيوم الجزء التحتاني صغير وواسعة من فوق، القَرَوَانة هي الإناء الأساسي في السجن، يصرفوا لنا فيها الأكل والسوائل واللبن والعدس والفول مفيش أواني تانية، مفيش فناجين وأطباق وكبايات، كله قَرَوانات. بس علشان ما اظلمش السجن كان فيه الكوز، زي كوز الحمام بتاع زمان معدن صاج أو ألمونيوم بإيد علشان نشرب ونغرف به .

تحية تصحى الصبح تيجي لها قروانة لبن من المستشفى، وبأمرها يفتحوا لنا الزنازين ونروح عندها .

- لازم تمرينات كل يوم وإلا عضلاتي حتنشف ومش حاقدر ارقص .

نعمل معاها شوية تمارين، ورتنا ازاي الواحد يحرك البطن يمين دائريًّا وبعدين شمال دائريًّا .

حصلِت كمان على سبرتاية - طبعًا ممنوعة - بعد الرياضة تحط قروانة اللبن على السبرتاية واللبن ياخد مدة طويلة لغاية ما يِغلي على سبرتاية، في الوقت دا نقعد حواليها نسمعها، اللبن يغلي تحط الكاكاو وتقلِّب وتقلِّب وهي بتحكي، وتوزع علينا بالكوز في كبايات بلاستك هي بَرضُه جابتهم ووزعتهم علينا و«تبعت تجيب» كيكة أو بسكويت. مُتصرفة في الحاجات دي وما تاكلش لوحدها أبدًا، فاتحاها مَضْيَفة في زنزانتها، تحكي لنا حواديت ونسألها على حاجات. دا بينما احنا المفروض محبوسين على ذمة التحقيق وزنازين انفرادي وأحكام عرفية، فترة تكدير وعزل قبل الحكم والظروف مشددة، ما كانش فيه زيارات ولا فيه حاجة تخش لنا ولا حاجة تطلع من عندنا، وما عندناش أخبار، والأكل ييجي لنا من المتعهد على حسابنا. فطار المتعهد طاستين عمود معدني بإيد وجواه فطار الصبح بيضتين مسلوقين وكام زتونة وحتة جبنة بيضا أو قشطة بالعسل أو حتة

جبنة برغيف عيش، أو حلاوة، فطار المتعهد أكل مش طازة بالذات البيض، عمليًّا تحية كاريوكا كانت بتعملنا كاكاو الصبح ونفطر كاكاو باللبن في السجن بعد ما نرقص بلدي .

تحية كانت متماسكة ما اتهزتش من السجن مع إن مفهومها السياسي كان عام جدًّا وبفضلها الأربع أشهر دول عدُّوا بسرعة وبدون صعوبة تقريبًا . يا عيني الرجالة في الوقت دا كانوا بيتعرضوا لمعاناة كبيرة في السجن الحربي .

علية توفيق كانت عكس تحية كاريوكا خالص في الجسم وفي الشخصية. رفيعة، قصيرة، بشرة رقيقة بيضة، شعر خفيف مُمَوَّج. تحية كاريوكا تحب التمثيل والرقص مش أي فنون تانية، علية تحب الشِّعر، مليانة حماس وتقول شعر وطني طول الوقت وبالذات البيتين المشهورين لأبو القاسم الشابي :

إذا الشعب يومًا أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد لليل أن ينجلي   ولا بد للقيد أن ينكسر

بس كفاية كدا، دا اللي انا فاكراه، لسه فيه سطرين في القصيدة حادوَّر عليهم وابقى احطهم .

فالبنت علية دي، أو الست علية، لما كانت تتحمس لفكرة سياسية تطلع فوق حاجة عالية وترفع إيديها لفوق وتبتدي «إذا كان الشعب...» بحماس وطني. خبرة غير خبرة تحية كاريوكا، كانت خبرة في عالم ظباط الجيش والبوليس. عقلية الظباط، فهماهم .

هل علية توفيق كانت معانا في فترة تحية كاريوكا ولَّا فترة الحكم؟ ما اقدرش أفتكر بدقة مين حصَّلنا متأخر ومين خرج بدري، أعتقد علية توفيق كانت في أول 4 شهور، مش مهم، في ذهني الشخصيات التلاتة مرتبطين ببعض بصرف النظر عن الفترة الزمنية، تحية كاريوكا وعلية توفيق وزوزو ماضي، أكبر مننا في السن، تحية كاريوكا وعلية كانوا في التلاتينات، وزوزو ماضي فوق الأربعين .

علية توفيق زوجة يوسف صديق الظابط الحر عضو مجلس الثورة وأخت محمود توفيق الشيوعي - صديقنا. أنا النهاردا باتساءل هم قبضوا عليها ليه؟ قبضوا على جوزها ولَّا حددوا إقامته بس؟ متصور لي كدا عرضوا عليه ينفوه أو يعملوه سفير بره البلد في محاولة لإبعاده عن مصر وهو رفض. علية كانت تعرف تتعامل مع مأمور السجن وظباط النباتشية وتكلمهم بلغتهم. إحنا المسجونات الشيوعيات صغيرين في السن، ما كُنَّاش نعرف نطلب إلا بلغة «من حقنا» و«حقوقنا السياسية»، فأبو «ميمي كانيل» كان بييجي من اسكندرية مرة في الشهر يجيب لها الحاجات اللي هي طالباها يسيب لها «الزيارة» ويمشي، في الفترة دي كنا ممنوعين من الزيارات. من ضمن

الطلبات باكو قطن ضخم مبروم ملفوف في ورق بني، زمان ما كانش فيه الفوط السهلة للتعامل مع العادة الشهرية اللي بتلاقوها اليومين دول في السوق، وما كانش ممكن نغسل قماش كتير في الحبس، فابتكرنا استخدام القطن. المأمور كان من النوع اللي يتشدد في حاجات ملهاش لازمة وكمأمور له حق تفتيش الحاجات، حكاية باكو القطن الكبير اللي بييجي لـ«ميمي» أثار فضوله. كنا حبس انفرادي ممنوع الجرايد والكتب والأقلام، مسموح ملابس وحلويات ومأكولات، القطن مش ممنوع، بس هو اتضايق من القطن ومنعه. كلنا محتاجينه مش بس «ميمي»، حنعمل إيه؟ نتصرف ازاي؟ فكرنا نحتج ونبعت جواب رسمي، حاجات من النوع دا. علية توفيق ندهتنا :

ـ اهدوا شوية وفهموني .

هي نفسها ما كانتش واخدة بالها عايزين القطن ليه، فهِّمناها فقالت :

ـ يآه لا لا لا، استنوا هنا .

وراحت عند الظابط :

ـ وانت متضايق من القطن دا ليه؟ مش عندك واحدة ست في البيت؟ اسألها، الستات بيحتاجوا لحاجة زي دي .

فالمأمور اتأسف وساب القطن يخش، بالبساطة دي .

وضع علية توفيق كان غريب علينا ما كُنَّاش فاهمين تهمتها ولا التفاصيل اللي كانت بتحكيها لنا، إحنا عندنا فكرة محددة: ماركسية، شيوعية، ثورة، طبقة عاملة، وحاجات من النوع دا، إنما صراعات داخل الجيش أو داخل البوليس وعلاقات بين الظباط وبعض؟ كان فيه شوية غيرة وشك فيها. بتكلمنا عن عبد الحكيم عامر وجمال عبد الناصر وكل الظباط الأحرار وأعضاء مجلس الثورة كأنهم اخواتها، تعرفهم كويس وواخدة عليهم، بييجوا عندها البيت يقعدوا مع يوسف صديق جوزها وهي تحضر لهم العشا وتسمع مناقشاتهم. يبدو إن تهمة يوسف صديق إنه رفض قرار الأغلبية داخل مجلس الثورة بكبت الحريات. الموضوع كان فيه مساومة معاه، مش عايزين يحبسوه، يفضَّلوا يبعدوه، وهو رافض الإبعاد. كان في قصة خاصة بظابط اسمه أحمد أو محمد المصري ومؤامرة ضد مجلس الثورة. القصص دي كنا بنسمعها بس مش فاهمينها، هي نفسها مش فاهماها كويس وفيه تفاصيل مش عايزة تقولها .

حكت لنا عن حياتها الشخصية، الزوجة التانية ليوسف صديق وعندها ولد وبنت حسين ونعمة، 9 و4 سنين، واحشينها، فلما جه عيد ميلاد نعمة بنتها جبنا قماش وفصلناه وعملنا لها هدية فستان وهي بعتته هدية لبنتها. نظرتها لجوزها يوسف صديق أنه إله تحبه وتقدِّره وتصدِّقه، كذلك مع أخوها محمود توفيق، كان اتقبض عليه هو كمان، مش قادرة تتصور إن اخوها يلبس هدوم السجن ويمشي حافي :

ـ رجليه بيضا، محمود ابيضاني، حيمشي ازاي حافي في السجن؟

دي علية توفيق اللي على قد صغر حجمها شخصية مميزة، عندها قوة داخلية وإلى حدٍّ ما منبهرين بيها. كتبت كتاب مؤخرًا، نفسي قوي اقراه، ما جاتليش نسخة منه، لكن حادوَّر عليه ـ مذكراتها عن الفترة وأيامنا في السجن .

علية توفيق وتحية كاريوكا تواجدوا معانا بتهم سياسية أما زوزو ماضي فملهاش في السياسة خالص، تهمتها مخدرات أو آداب، التهمة ما كانتش واضحة وعمري ما عرفت قضيتها انتهت على إيه. اللي يجمع بينا كسياسيات وبين زوزو ماضي بالنسبة لإدارة السجن إنها متعلمة وبرجوازية، قرابة طبقية، فما حبناش نسلم عليها ولّا ننخرط معاها .

كنا عاوزين نعزلها، ما سمحتلناش. أصرِّت تكسبنا وعرفت تحتوينا .

المسجونات وإدارة السجن على حد سواء عاملونا بشكل متميز، لنا احترامنا على أساس إننا مش مجرمين «عاديين»، جرايمنا جرايم رأي، فزوزو ماضي عملت مجهود تكسر برودنا وتحفظنا، تحب تبدو جزء مننا واحنا جزء منها. كسبت الظباط والمسؤولين بشكل مختلف عن تحية وعلية، استخدمت معاهم ببساطة القدرة المادية. أنا ما اعرفش لو جابت هدايا للمسؤولين في السجن، لكن تطلب من بنتها «إيفون» حاجات لا نهاية لها، وبنتها تيجي لها كل يوم ومعاها ترامس فيها شاي وعصاير أشكال ومأكولات وحلويات وشكولاتات وملابس. تبهرهم باستعراض قوة مادية، ولما تقدم الهدية يصبح تقريبًا قلة أدب إن تترفض .

إنما الخصلة اللي ميِّزت زوزو ماضي بالتأكيد هي الطريقة اللي كانت بتحكي بيها القصص .

أول قصة حكتها لنا إنها حبت ظابط كبير في الجيش البريطاني، وازاي اتعرَّفِت عليه، بيتبادلوا الكلام ازاي، وازاي انتهى بيهم الأمر في بيتها. كان فيه معازيم، نزلوا كلهم إلا هو، ما رضيش ينزل، واستمروا يرقصوا .

ـ فضلنا في حضن بعض .

وبس. وسكتت .

واحنا بنبص لها .

يظهر لاحظت وهي بتحكي لنا قصة الحب مع الظابط الانجليزي إن احنا صغيرين وان دي سكة تخش قلوبنا، فقعدت تحكي لنا قصص مسلية وتعمل أفلام قدامنا واحنا فاضيين ونحب نسمع. تبتدي القصة عادي ونلاقي نفسنا قاعدين قدامها فاتحين بُقنا نسمع نهاية القصة. ما كنتش دريانة ساعتها ولكن وانا راجعة لورا وبافتكر اكتشفت إنها استخدمت معانا سلاح غير الماديات مما يدل على إنها

ست ذكية. ممكن أقول إن زوزو ماضي كانت حكَاءة ممتازة وكاتبة سيناريو درجة أولى. سحرتني وكانت بتسحر الجميع، عندها نظرة للأمور .

يا ترى قد إيه التفاصيل حقيقية؟ بتقول إنها من بني سويف، اتجوزت صغيرة واتصرفت علشان تيجي مصر هي وبنتها من غير جوزها وتدخل مجال السينما. كان عندها اعتقاد تعرضه علينا وهي عارفة إن رأينا العكس تمامًا وهو «إن القدرة المادية هي اللي تكسب» وتقولها لنا كدا في وشنا، إن «علشان تمثل في السينما لازم المخرجين يشوفوها» فراحت دورت في إعلانات الجرايد عن أشيك مطاعم الأغنياء اللي أهل السينما بيسهروا فيها، تلبس أشيك ما عندها وتاخد بنتها الطفلة معاها، تطلب الـ «menu» ـ قائمة الطلبات ـ وبطرف عينها تبص على الأسعار وتطلب أغلى المأكولات، علشان تلفت النظر. لما بنتها تمت 16 سنة قررت تقدمها للمجتمع فأشركتها في مسابقة ملكة جمال مصر والبنت كسبت الجايزة الأولى .

ـ دي أول خطوة .

افتكرت وهي بتحكي إن فعلًا لفت نظري صورة لإيفون ماضي ـ بنتها ـ على غلاف مجلة كملكة جمال. معندهاش أوهام، لامسة الواقع وبتكرر إن لازم تعمل مشروع تجاري .

ـ التمثيل مش بيدوم .

والمشروع لازم يكون مرتبط بالأجانب .

ـ فول وطعمية بشكل راقي علشان الناس الغنية والأجانب والسواح ييجوا ياكلوا عندي .

دا مشروع مطعم «فلفلة»، كانت بتدوره في مخها وتجرَّبه فينا، وكل ما باشوف مطعم «فلفلة» بافتكرها لأني عارفة إن هي صاحبة الفكرة، باتصوَّر إن بنتها هي اللي نفذته وزوزو ساعدتها بعد ما خرجت من السجن. بنتها كانت من سننا ودخلت عالم الموضة وتصميم الأزياء .

عندها نظرية بتميِّز الممثلات اللي عندهم قدرة على الإثارة الجنسية، بتقول الإثارة الجنسية موهبة زي كاريزما الكاميرا، نوع من كاريزما الجسم، جسم الشخص على بعضه من راسه لرجليه، من غير سلوك إغراء أو تعرية جسمهم .

ـ ما تقولوليش روحانيات، النداء الجنسي جزء من الحياة، والتأثير الجنسي على شخص كيميا ملهاش علاقة بمقاييس الجمال .

صدرها مش مثير بمقاييس الأنوثة التقليدية، صغير، يكاد يكون رجالي .

ـ مش مهم يكون صدري كبير، المهم إن أقف واتحرك كأن صدري آية في الجمال .

دي كانت الخبرة اللي إدتها لنا .

ـ ما تفكروش حلو ولاَ لأ، عندكم أجمل صدر في الدنيا وفخورين بجسمكم، تقفوا صدركم لقدام وتمشوا بطريقة تقول بصوا لي، أنا أجمل واحدة .

في الغالب احنا ما مشيناش على كلامها، لكن والله كنا بنسمع الكلام دا منبهرين، زوزو بتاخدنا في عالم ما بنفكرش فيه ومعندناش خبرته، بنفكر في الشعر والأدب والفنون والسياسة وممكن الحب، مش بنفكر في طريقة للظهور في المجتمع ومقاييس الجمال وكاريزما الجسم والنداء الجنسي والمشاريع التجارية. ما عرفناش أبدًا لو قضيتها مخدرات ولَّا آداب ولَّا إيه، زوزو خرجت من السجن واستمرت تمثِّل وما قابلتهاش تاني .

نسمع الشاويشة علية ريِّسة العنبر وهي بتفتح البوابة الكبيرة الساعة 6 ونص صباحًا، تقتحم العنبر ومعاها السجانات والنباتشية، سجانة الدور الأرضي تفتح علينا الزنازين وتسيب الباب مفتوح، أكمل نوم على السرير مش عايزة اقوم واعتقد إن معظمنا كدا، خصوصًا في الشتاء، إلا تحية أبو النصر تنط من السرير وتبقى فايقة من بدري. النباتشية أم فتحي تدخل علينا ونباتشية تانية تعدي تاخد جرادل الكابينيه وتروح على الحمامات تفضيهم وتغسلهم وترجعهم وجردل المية يفضى ويتملي تاني، وفي الوقت دا أم فتحي تمسح أرض الزنزانة، التنضيف على طريقة المسح المباشر، بدون كنس. تيجي نباتشية تالتة بأبريق مطلي مينا لونه أزرق مليان شاي بلبن مسكر جاهز، أبريق ضخم يشيل 20 أو 30 كباية، واحنا لسه مستخبيين في السرير، محضرة كبايتي جنبي على ترابيزة مربعة صغيرة وموضَّبة الشباشب والكراكيب من بالليل علشان أفضل في السرير على بال ما أم فتحي تمسح الأوضة . الأبريق يدخل يصب الشاي ويخرج وانا نايمة، ساعتها بس أمد إيدي واخد كباية الشاي باللبن والسكر واشرب بشكل اتوماتيكي وفجأة عاوزة أقوم من السرير. إزاي كدا نايمة ومش قادرة أمد إيدي أمسك الكباية وبُقين شاي أصحصح؟ على أي حال كان لازم نقوم مش مسموح نفضل أطول من كدا في السرير. حاولنا نحتفظ بعادات الحضارة زي الناس اللي بره السجن، نغسل وشنا في قروانة لصب المَية على حامل في الركن، ونلبس ونغير هدومنا. السرير حديد بيتقفل على الحيطة أثناء النهار، السرير دا تطور مريح، قبل كدا كنا بننام على الأرض، على البورش أو على مرتبة. قبل ما نروح الحمام ممكن يحصل «مرور»، الظابط أو مدير السجن أو المأمور يمر يتأكد إن كل المسجونات موجودين وإن كله تمام ويعمل ملحوظات سريعة. في حالات نادرة يحصل «تفتيش» على الزنازين، زنزانة زنزانة . في الوقت دا النباتشيات يكونوا غسلوا حمامات العنبر ويندهوا لنا :

ـ يا شيوعية الحمَّام .

ساعتها بس نقدر نطلع من الزنازين، ناخد الفوطة على كتفنا والصابونة ومعجون السنان والفرشة في كباية بلاستك للمضمضة ونروح. الحمَّام زي ما أعرفه: 4 أو 5 كابينيهات بلدي من غير باب وقدامهم 5 أو 6 حنفيات لغسيل الوش والإيدين. حسيت بصعوبة إني أتعود تاني على حمام من غير باب يتقفل عليَّ، ظاهرة غريبة شوية بس أهه الإنسان بيتعود وتبقى صورة عادية، زنزانة «ميمي»

أول زنزانة جنب باب العنبر، بعدها آمال عبد النور، وانا تالت زنزانة وبعدي تحية أبو النصر، انفرادي.

النباتشيات يسيبوا الحمام للـ«شيوعية»، ونبتدي نصحصح ونتمشى نرجع للزنازين واحنا بندردش.

لزقت فينا كلمة «الشيوعية» «يلّا يا شيوعية حمام»، «يا شيوعية تفتيش!»، وانطبقت على أي حد معانا في العنبر مهما كانت تهمته، مثلًا زوزو ماضي جت بتهمة جنائية بس بَرضُه ينادوا لها «شيوعية»، «مارسيل نينيو» جت بتهمة تانية خالص «جاسوسية وصهيونية» بَرضُه يقولوا لها «شيوعية»، ودي حاجة ضايقتنا بَرضُه لأن احنا كشيوعيات مش عايزين يلزقوا لنا سمعة آداب ولا صهيونية بس كانوا بيفرضوهم علينا، والسجانات ملهمش دعوة بالتهمة، العنبر عنبر «شيوعية» وله حراسة خاصة بالإضافة لرئيسة العنبر. في الأيام العادية يسيبوا لنا بِيبان الزنازين مفتوحة واحنا بنفطر، وممكن نتنقل من أوضة للتانية نزور بعض لحد 10 الصبح، «يلّا يا شيوعية، طابور»، لابسين متسرحين وفطرانين، يفتحوا الباب ونخرج في الحوش قدام باب العنبر ونمشي بالخطوة السريعة بين سور السجن للعنبر التاني ومباني الإدارة والمغسل، مسافة مش قصيرة، قاعدين طول النهار والليل في الزنزانة ومحتاجين نتحرك. اتنين اتنين أو أربعة اربعة زي ما تيجي، تقريبًا من غير كلام، رايحين جايين رايحين جايين - نص ساعة. العنبر يتقفل علينا والزنازين تفضل مفتوحة أحرار لحد الساعة 12 ونص. ينزّلوا كل المسجونات للغدا إلا احنا يجيبوا حلة كبيرة فيها عدس وفول ويقعدوا في صف طويل، كنا بنشوفهم من عنبرنا، كل مسجونة شايلة قروانة فاضية يغرفوا لهم ويرجعوا ياكلوا في زنازينهم، وعلى الساعة واحدة «يا شيوعية! الأكل». الكانتين يفتح مرة أو مرتين في الأسبوع، بنت صغيرة ظريفة لابسة ملكي، موظفة من بره السجن تيجي بصندوقين تلاتة وتتولى البيع. شكولاتة وبسكويت وعجوة وعلب جبنة نستو مثلثات، حاجات تصبرنا على أكل السجن. ممنوع نشيل فلوس والأهالي يحطوا مبلغ على باب السجن يصرفوا لنا بيها كوبونات نتعامل بيها مع الكانتين. بعد الغدا ناخد تقييلة لمدة ساعة يقفلوا أتناءها الزنازين ويلموا الأكل والسجانات ياكلوا هم كمان. بعد التقييلة يفتحوا الزنازين ويسيبوها مفتوحة لحد الساعة أربعة يوزعوا عيش وشوية أكل ناشف للعشا. آخر مهمة في النهار يمسحوا الممرات الرئيسية اللي بين الزنازين، المسح إزاي بقى؟ الممر طويل يمكن كيلومتر بحاله، أطول من تصور أي إنسان بره السجن، السجانة تجيب صابون نص سايل ما شفتش زيه إلا في السجن وبالكوز ترمي منه على الأرض وخمس ست مسجونات يوصلوا بالجرادل يرشوا مية ويوزعوا الصابون ويرصوا الجرادل على مسافة وراهم ويقفوا صف جنب بعض بعرض الممر ويمسحوا بالخيشة، تك تك تك كدا مع بعض، يجيبوا من أول الممر لحد الجرادل، يعصروا الخيش ويبعدوا الجرادل وكمان مرة تك تك تك، يفضوا الجرادل في الحمام ويرجعوا بيها مليانة مية نضيفة وهكذا لحد ما يخلصوا الممر. في غضون ربع ساعة أو نص ساعة بالكتير كنت تلاقي عنبر طويل وسط صفين زنازين نضيف بيبرق. فضلت اتفرج على العملية دي بدون ملل لمدة 5 سنين. وأخيرًا يودُّونا الحمام قبل ما يقفلوا علينا، لو نحتاج بالليل كنا بنعمل في جردل مخصوص بغطا علشان يقلل الروايح واحنا نايمين. وبكدا كل خدمات السجن تكون تمت، المرور والأكل والطابور والتنضيف، ويقفلوا الزنازين على الساعة اربعة ونص خمسة - بالذات في الشتا.

السجانات يتمموا على بعض ...

ـ تمام .

ـ تمام .

ـ الشيوعية تمام .

ـ تمام .

بعد تمام السجانات ييجي تمام الشاويشة ريسة العنبر :

ـ الرابع تمام .

ـ تمام .

والدور التالت والتاني والأول. آخر تمام هم الستات اللي على ذمة التحقيق، وإحنا .

ـ ملكية تمام؟

ـ شيوعية تمام؟

يباتوا معانا سجانتين، البوابة الكبيرة تتقفل عليهم وعلينا، المفروض يسهروا يحرسوا بس كانوا بيناموا زينا أغلب الوقت. فترة الليل كانت طويلة، من الساعة خمسة مساء لستة صباحًا، شوية قراية، شوية عشا، شوية كلام من زنزانة لزنزانة من خلال شراعة الباب. المسجونات العاديات مع بعض في عنابر واسعة بنسمعهم يغنوا ويرقصوا ويتخانقوا .

كل واحدة فينا اتصاحبت على قطة، نسمِّيها ونوكِّلها وتنام في حضننا في الشتا تدفينا. قطتي كان اسمها مشمش علشان لونها مشمشي. يختفوا طول النهار ويرجعوا بالليل بعد ما الزنازين تتقفل، القطة تخش وتروح وتيجي زي ما هي عايزة من قضبان بوابة العنبر، تيجي بالليل تقف تنَوْنَوْ قدام باب زنزانة صاحبتها، وتعمل إزعاج طول الليل. ابتكرنا حل، نربط الروب في قضبان الشراعة وندلدله بره الباب في الممر، القطة ترجع تشوف روب صاحبتها تتشعبط عليه وتدخل الزنزانة تنام. سمحوا لنا نحتفظ بروب وقميص نوم وننام بالليل بالهدوم الملكي على شرط أثناء النهار نلبس شوال السجن .

عمومًا النظام دا كان كويس، الكل كان يقدر يمشي عليه مدة طويلة. أما فترات التشديد ففكرتها الأساسية هي عزل المسجونات عن بعض أقصى ما يمكن، نروح الحمام على مراحل، واحدة تخلص التانية توصل، لو قلنا كلمتين يبقى بسرعة وعلى الماشي، يقفلوا علينا الزنازين ما يفتحوهاش إلا ساعة الطابور، الطابور نمشي اتنين اتنين زي المسجونات العاديات، ما يسيبوناش

نتمشى بحريتنا ولا نسرح، نمسك إيدين بعض اتنين اتنين ونلف الحوش من غير ما نتلكع، بعد الطابور يقفلوا علينا الزنازين على طول، وبالليل يحاولوا يمنعونا نتكلم أو ندلدل الأرواب للقطط. التشديد كان بيتعبنا وبيتعب الجميع بما فيها الإدارة والسجانات لأنه بياخد مجهود منهم، ما كانوش يفضَّلوه وما يطبقهوش إلا بالأمر .

خطبة جمال عبد الناصر في المنشية سمعناها تحت التشديد كل واحدة لوحدها من جوه الزنازين، حطوا لنا سماعات في الممرات بس الـ «acoustique» - الصوت - كان وحش، فمش مفسرين الكلام، فجأة سمعنا هيصة غريبة مش متأكدة لو سمعنا ضرب النار، وبعد شوية سمعنا صوت عبد الناصر تاني لكن لهجته كانت اتغيرت «المجرمين» «الأعداء» «حنقضي عليهم»، إحنا مش متبينين ليه بيزعق بالطريقة دي، فقد أعصابه، أنا ما اقدرش أنسى صوته. اليوم اللي بعده سمعنا إن حصلت محاولة لاغتياله .

كان مطلوب من الإدارة عزلنا بصفة عامة بدرجات مختلفة حسب الفترة، أيام الاعتقال والتحقيق وانتظار الحكم بيعزلونا عن الجنائيات بشدة لأن عندهم سهولة في الاتصال بالخارج، عندهم سكة يدُّوا فلوس للسجانات والسجانات يوصلوا جوابات ويدخَّلوا الحاجات الممنوعة. ويعزلونا عن بعض في زنازين انفرادية علشان ما نعرفش نتفق ونتشاور. ولما اتحكم علينا بأشغال شاقة، المفروض نطلع المغسل مع باقي المسجونات الصبح قبل الطابور، نغسل هدوم الظباط وما اعرفش هدوم مين تاني، بيشتغلوا كتير، بس عفونا من الشغل وفصلونا عن الجنائيات في عنبر لوحدنا علشان ما نكلمهمش في السياسة، ومن الأول ما نقضيش وقت مع المسجونات العاديات، بيخافوا نعمل أي علاقات بعيد عن عينيهم. ومع ذلك مع الوقت بالذات بعد ما أخدنا حكم وانتهت التحقيقات واستتبت أمورنا في السجن اتصرفنا بَرضُه وقدرنا نتعرَّف ويكون لنا ناس يساعدونا على الاتصال بأهالينا بره السجن. كنا بنطل على حوش الرجالة من شبابيك الحمامات، نطلع على الماسورة ونقف على الحنفية ونِنْشِب نوصل يا دوبك براسنا على الجزء التحتاني من الشباك اللي بيطل على حوش الرجالة يا دوب نشوف. اتصلت بسعد بالطريقة دي، وكان مسجون معاه زهدي، زهدي رسام، فمرة قعدت اسأله ويديني نصايح إزاي اتعلم رسم وانا واقفة على راس الحنفية. دي كانت طريقة الاتصال مع الرجالة لغاية ما اتنقلوا من سجن مصر وراحوا سجن الواحات أظن، وبعد سنة أو سنة ونص نقلونا على سجن القناطر علشان يهدُّوا سجن مصر والاتصال عن طريق الوقوف على راس الحنفية انتهى من الوجود .

الستات اللي واخدين أشغال شاقة مؤبدة ستات مشهورة طلعوا في الجرايد بسبب جرايم قتل وتار ومخدرات، قربنا منهم شوية واكتشفنا إن الستات اللي واخدين تأبيدة مخدرات في الحقيقة زوجات وبنات التجار، يشيلوا التهمة على عاتقهم والراجل يفضل بره، الزوج أو الأب أو الأخ. تأبيدات المخدرات كانوا على أعلى مستوى من كل ناحية، عندهم قدرة مادية بدرجة أو بأخرى، يجيلهم فلوس ويقدروا يشتروا، ونضاف مش بيتعاطوا. تأبيدات القتل كمان عادةً من عائلات كبيرة، وأغلبهم من الصعيد، رَيِّسة المغسل مثلًا قتلت جوز بنتها، من عيلة كبيرة من الصعيد، معلمة متمكنة، اتصالاتها مع الخارج ماشية عادي ودايمًا معاها فلوس وتحصل على خدمات من المساجين والسجانات وتدفع لهم، كأنها مديرة السجن. المغسل كان تحت سيطرتها، فيه أفران حديد كبيرة

بيسخنوا عليها المكوة ويغلوا مية الغسيل واللي له سكة عند رَيسة المغسل يديها العيش تقمره على حديد الفرن والرغيف يتلدن، يسخن ويطرى من جوه ويقرمش من بره، والله كان عيش حلو بالطريقة دي بيساعد على أكل السجن. «إبقوا هاتوا العيش وانا أسخنه لكم»، رَيسة المغسل نادت علينا وعرضت من نفسها الخدمة الحلوة دي وبقت تسخن لنا العيش بانتظام، مش بس كدا، اتطوعت تاخد الشوال اللي لابسينه يغسلوه ويرجعوه لنا مكوي ونضيف، مرة في الإسبوع. إحنا معندناش خدمة نقدر نعملها لها بالمقابل، غير اننا نكون ممنونين. واحنا فعلًا كنا ممنونين قوي. اللي فوجئت به هو إن حتى الست الريسة بتأبيدة جناية قتل المسيطرة داخل السجن، تحب تضرب صحوبية مع الشيوعيات، دي ظاهرة مركبة شوية بس فعلًا السجينات كانوا بيحسوا بنوع من الـ «prestige» - القيمة - في التقرب مننا، يمكن فضول على شوية عطف كمان. كانت شخصية فريدة ريسة المغسل بس يا خسارة نسيت اسمها .

زي ما قلت ستات التأبيدة كانوا أرقى ستات، يحافظوا على نضافتهم وشكلهم، على درجة معينة من الذكاء وأخلاقهم كويسة، يعني عندهم كلمة ما يخلفوهاش، بعدهم على طول في المستوى ييجوا الحرامية وبتوع السرقة عمومًا. السرقة تقسيمات، النشالين واللي بيسرحوا على البيوت، وكل سرقة متقسمة تخصصات، مثلًا حيدخل الشقة يسرق إيه؟ الحرامية بَرضُه عندهم قواعد أخلاقية، مين اللي أرقى ومين اللي أقل قيمة، مين يتسرق ومين ما يتسرقش. بيعتبروا السرقة مهنة مش صفة، ما يسرقوش حد يعرفوه، ودا اللي خلّى أم فتحي الحرامية نباتشية الشيوعية ظريفة معانا، النباتشية سجينة من المسجونات العاديات مكلفينها تمسح وتنضف العنابر يوميًّا أول حاجة الصبح. العلاقة مع أم فتحي كبرت واستقرت معانا مدة طويلة. أم فتحي سوابق كل شوية تخرج من السجن وترجع له بتهمة السرقة. أخلاقها عالية بشكل غير معقول، ما شفتش زيها، تتكلم قليل، رقيقة وسريعة ومؤدبة معانا ومع كل الناس عمومًا، تخش على الزنزانة بالجردل الصبح تمسحها، أخدنا عليها وبقينا ندِّيها اللي نقدر نستغنى عنه، عيش فينو، مأكولات من البيت أو حلويات، إديناها فلوس كمان بس هي كانت عفيفة بالإضافة إن عمرها ما حطت إيدها على حاجاتنا . كنا بنحبها بصحيح من غير كلام كتير، ودي من شطارة السجانات، بيعرفوا يوزعوا الناس بكفاءة .

وهنا نوصل لأوحش الدرجات، المومسات، بيسموهم «دعارة» بيلموا من الشوارع بنات بتتسول، ستات مخلوطة بين بعض. ما اعرفش أوصفهم، سرقة يسرقوا، كذب يكذبوا، خناقات يتخانقوا، شتايم يشتموا، يشحتوا بسهولة ويطلبوا ببجاحة، وبالليل بعد ما يقفلوا الزنازين والعنابر، نسمع أصواتهم وضحكهم مع بعض بين العنابر، هاهاهاه بطريقة فيها كتير من السوقية والتهجُّم. انحدار أخلاقي، معندهمش حدود، مفيش أي كرامة. طبعًا مساكين، حأقول إيه، معظمهم ينتهي الأمر إن ييجي لهم أمراض ويروحوا المستشفى وياخدوا علاج، حياة مؤلمة جدًّا. ما يمنعش إننا حبينا واحدة منهم اسمها سامية، مش عارفة اتعرفنا عليها ازاي، كانت صغيرة قوي في السن، طويلة، ظريفة، تتكلم معانا وترد على الأسئلة وكتير حاولنا نأثر عليها ونقول لها ما ترجعش، تخرج من السجن تقعد بره شوية ونلاقيها رجعت تاني، كملنا نتكلم معاها ونتصاحب عليها وهي تتصاحب علينا، بس ما أمكنش.
الشاويشة علية كانت بتضحك لما تشوفنا واحنا بنحاول نتكلم ونقنعها، عندها خبرة وعارفة إن الموضوع مش اقتناع وكلام، عارفة إن مفيش فايدة، النظام اللي بيحكمهم معقد وأكبر منهم ومننا .

*

الشاويشة الريِّسة علية كان فيها شبه من الريِّسة توحيدة من سجن 1949 لكن أصغر في السن وتختوخة وتقاطيعها حلوة، يظهر بيختاروهم نفس القطعية جسمها ضخم وجامد وشخصيتها قوية. في يوم ظهرت الشاويشة علية ماسكة رقبة مسجونة جديدة وجاية من بعيد. مسجونة ميَّالة للسمار، عينين سود واسعة وحواجب كبيرة وشعر كتير غزير ومموج مقصوص فورمة قصيرة حلوة، مهندمة بشكل عام. خصصوا لها زنزانة وزي أي نزيلة جديدة خصوصًا لو «شيوعية» نروح نعرض خدماتنا «معجون سنان؟» «فوطة؟» وندِّيها اللي نقدر عليه. اسمها آمال عبد النور، وزي أي نزيلة جديدة داخلة حزينة مش مزقططة بدخول السجن. آمال حكت لنا إن حيطردوها من البلد علشان أجنبية. «بس ازاي آمال أجنبية؟ دي سمرا وشعرها اسود وبتتكلم عربي» قعدنا حواليها نسألها، وعرفنا إنها فلسطينية من مصر الجديدة، هربوا من فلسطين في 1948 وجم مصر في وقت ما، وأبوها على ما أظن كان عمدة مدينة في فلسطين. حكت لنا إنهم كانوا بيقفوا على الشاطئ يتفرجوا على سفن كبيرة مليانة ناس ترسى جوه في البحر والركاب ينزلوا في مراكب صغيرة يقربوا من البر بالمجداف، المراكب الصغيرة بَرضُه ما توصلش لحد الرملة الناشفة وإلا تغرز، فالناس تضطر تنزل منها في المية، بنات وشباب لابسين شورتات وفانلات، رجليهم ودراعاتهم عريانة، يشيلوا العواجيز والعيانين والعيال يوصلوهم البر على شواطئ فلسطين الفاضية المفتوحة. آلاف وآلاف يفرشوا على الشط وينصبوا أي دِروة يناموا فيها، حتى معندهمش شنط، جايين بأكياس وبُؤَج «مشهد غريب علينا إحنا أهل فلسطين، بهدلة، ناس جايين بالمنظر دا كانوا بيصعبوا علينا، سبناهم طبعًا». أبوها كان بيقرا في الجرايد خبر متكرر إن السفينة الفلانية شايلة كام ألف يهودي بتلف البحر المتوسط مفيش بلد راضية تقبلهم وكتير منهم يا معندهمش أوراق تحقيق شخصية أصلًا، أو ضاعت في الحرب . «displaced persons» ـ لاجئين ـ من كل الجنسيات الأوروبية، ظاهرة من أيام الحرب العالمية التانية واستمرت بعد الحرب. اليهود بالذات بيهربوا من أوروبا النازية، اتعملت أفلام واتكتبت كتب على الحكاية دي، والمنظمات الصهيونية كانت بتعمل دعاية «إن ما دام مفيش بلد تقبلنا نرجع للأصل، نروح فلسطين» وكان ساعتها فيه الانتداب البريطاني في فلسطين. آمال عبد النور شافت دا بعينها، أنا فاكرة إنها قالت إنهم وصلوا القاهرة من نابلس، ونابلس مش على الشاطئ، فآمال شافت مشاهد البحر دي فين؟ كانوا فين في 1948 قبل ما يوصلوا نابلس؟ يمكن حيفا. ابتدت حرب 1948، وابتدت موجات هروب الفلسطينيين من البلد، لأن عصابات «شترن» و«الأرجون» الصهاينة ابتدوا عمليات قتل وإرهاب وتطفيش الأهالي. أبو آمال مات وأم آمال قررت تاخد عيالها الخمسة وتهرب بيهم: كاميونات مرصوصة ورا بعض على الشارع الرئيسي تنقل جماهير الفلسطينيين بره بلدهم ـ دي آمال اللي بتحكي ـ والسواقين رزلين بياخدوا 100 جنيه للنفر، ما اعرفش قصدها جنيه مصري ولَّا إيه، بس فاكرة الرقم، 100 جنيه للنفر في سنة 1948 أو 1949، وأمها ست لوحدها، أرملة، عندها 5 عيال، مبلغ كبير. سابوا كل حاجة، بيتهم باللي فيه، وأم آمال طلَّعت شوية الفلوس والدهب اللي عندها وصرفت على الهروب. مفيش مكان في الكاميونات دي ياخدوا حتى الهدوم، الناس فوق بعض، عائلات بحالها زي عائلة آمال، ناس عاديين رجالة وستات وعيال، مشحونين بعيد عن بيوتهم ـ بعيد عن القصف ـ سفرية طويلة ومتعبة وعياط وصريخ وعيال وناس عيانة وكبيرة في السن. نابلس وبعدين مصر، راحوا على مصر الجديدة عند قرايبهم، بس عذاب في عذاب. بعد سنتين تلاتة آمال دخلت كلية الفنون الجميلة وأخت

آمال الكبيرة، عايدة، اشتغلت، والأصغر سامية كانت لسه في المدرسة. آمال انضمت لمجموعات الماركسيين في كلية الفنون الجميلة واتقبض عليها مع عدد من الفنانين أشهرهم وليم إسحق، وجت عندنا في عنبر الشيوعية في سجن مصر. كان فيه مجموعة كبيرة من الفنانين التقدميين في كلية فنون جميلة، وفي كلية الطب، في كلية العلوم كانوا عاملين أسرة اسمها «Gramaphone Society» - «أسرة الجرامافون» - يسمعوا موسيقى كلاسيك ويتكلموا في الفن والثقافة، الطلبة كانوا مليانين حماس وغليان من أيام الملك، قبل 1952. أنا اتأثرت وآمال بتحكي حكايتها، فكّرتني بسجن الأجانب في 1949 والعيلة الفلسطينية اللي اتقبض عليها على الحدود المصرية، والست تعمل سندوتشات موز لجوزها وبنتها تحكي لي أنا وفردوس السجانة على أهوال الهروب من فلسطين .

آمال عبد النور دخلت قلبي، كانت بتعجبني لأن فيها شيء من الذكاء واليقظة في معارضتها. عندها طبع خاص بيها بسبب إنها فنانة، والفنانين بيربوا روح متميزة والاختلاف دا بيطلع في كل تصرفاتهم عمومًا. رسامة غير تقليدية في الأفكار، شقية، غير كلاسيكية، وإلى حدٍّ ما لما الكل يتفق على حاجة معندهاش مانع تعارض لوحدها وتقول لأ، مش سهلة في التعامل. من المناقشات طلع لي إن مواقفها السياسية شديدة، مع شيء من البرود والتحفظ ضد منظمة «حدتو» ومتقاربة مع «م.ش.م» و«الحزب الشيوعي المصري». «حدتو» سمعتها وحشة عند «م.ش.م» وبعض المنظمات التانية، على أساس إن بتوع «حدتو» «معندهمش موقف متماسك» وفي الغالب كان في شيء من التحفظ معانا كشيوعيات يهود. أنا حبيت آمال وصاحبتها أكتر من كل الباقيين، هي وسعاد بطرس اللي كانت في السجن في نفس الوقت تقريبًا، فضلت لغاية ما خرجوا، مش بسهولة نتكلم في السياسة تحديدًا، بس من غير تعصب ومن غير عنف وكنا بنتفاهم .

بالاحظ دلوقت وانا باحكي إني كنت شديدة التردد في ممارسة التكتل ضد بعض على أساس المواقف السياسية. انقسامات الحركة الشيوعية كانت بتدور حول أسئلة من نوع «وطني ولا ماركسي صِرف؟» وحول «حركة الجيش، ثوار وطنيين ولَّا مؤامرة؟» «نؤيد النظام بالرغم من وجودنا في السجن ولَّا نكافح ضدهم ونعتبرهم عملاء للاستعمار؟». بس الاختلاف على الأسئلة دي كان بيؤدي لقطيعة واتهامات وانا كنت بانفر من الطريقة دي بشكل عفوي .

ومع الوقت آمال حكت لي إن وليم إسحق الفنان مُعجب بيها وهي مُعجبة بفنه، عمل لها بورتريه كبير موجود في بيته وكانت مبسوطة وبتقول «دا شرف عظيم لي إن فنان كبير زي وليم إسحق يرسمني ».

رسومات آمال كان فيها روح دعابة، شيء من الكاريكاتير حاجات مش رومانسية ومش واضحة ومليانة شخصيات، وبتقول إنها متأثرة بـ«بروجل»، فنان رسم الفلاحين في زمنه أعتقد في ألمانيا بشيء من روح الدعابة. الشاويشة علية كانت مبسوطة من آمال ومن الروح الغريبة دي وكانت بتتفرج على رسوماتها معانا وتتاكفها على طول :

- إيه دا، إيه دا، ما ترسمي حاجة عِدلة !

فآمال ترد عليها :

ـ إنتِ العِدِل بالنسبة لك إيه؟ أنا شايفة اللوحة عِدلة كدا .

أُم آمال كانت بتبعت لها سلطة بنجر ، فَعليَّة تقول :

ـ بتاكلي بنجر علشان خدودك تحمر؟

كنا بناكل مع بعض كتير في السجن، اللي ييجي لها أكل من البيت نقسمه وناكله مع بعض، الروح بينا في المجموعة دي كانت روح اشتراكية متعاونة حلوة. قررنا نعمل فستان شيك للشاويشة علية، يبقى موديل شكله إيه؟ كنت خدت كورس تفصيل عند «بروفيلي» اتعلمت مبادئ القص وعمايل الباترون وابتديت أفصل لنفسي حاجات على الموضة، باحب ألبس شيك، وأمي كانت بتشجعني، بس تحية أبو النصر شاطرة وعندها ثقة وتصور واضح وفاهمة الذوق المصري: وفعلًا عرضِت على الشاويشة علية الموديل والشاويشة انبسطت منه. اشتركنا كلنا في الخياطة إلا آمال، ملهاش في شغل الإبرة والمقص. أثناء تنفيذ الفستان حصلت مشكلة، ما اعرفش تحية غلطت في إيه وحاولت تصلح الغلطة وغيرت الموديل، بس حنقول إيه للشاويشة علية؟ آمال عبد النور اقترحت :

ـ قولي لها الموضة كدا في باريس .

ودا اللي حصل، اديناها الفستان وقلنا لها إن «دي الموضة في باريس» فالشاويشة علية ضحكت ضحكت ضحكت من شقاوة آمال، ما اعرفش عرفت ازاي الحقيقة، وحكاية الفستان انتهت على خير ومحدش زعل الحمد لله .

اللي كان ماسك السجن كان المأمور المستريب اللي شايفنا شيوعيين، نص أجانب نص يهود نص فلسطينية، نفس المأمور اللي عصلج بسبب لفة القطن أيام علية توفيق، تيجي آمال عبد النور صاحبتي العزيزة تبعت تطلب عن طريق أهلها كتب فن وكربون وورق رسم وأتوال وألوان علشان ترسم. كتب غالية جدًّا فيها لوحات للفنانين الكبار من ضمنهم «موديلياني»، عنده طريقة خاصة في الرسم بالإضافة إلى إنه بيرسم ستات عريانة والمأمور منع الكتب :

ـ لا يمكن، عيب، انتِ بنت بنوت .

بيقولها بصراحة بالطريقة دي، ويعلق على الرسومات :

ـ دي رسمة ست دي؟ دي مشوَّهة، وشها مش مرسوم .

قعدنا نناقشه إن مش آمال اللي بترسم الحاجات دي :

ـ فنانين كبار اللي رسموا اللوحات دي والنظرة مش نظرة جنسية إنما نظرة فنية .

أنا مش فاكرة انتهت ازاي حكاية الكتب بس دخَّلت عدد منهم. آمال جاية متصورة إن في السجن مش حيكون وراها حاجة وحتقدر تكرَّس نفسها أخيرًا لفنها وحترسم كتير ، إلا إن حياة السجن فيها

حدث جديد كل شوية، حدث سياسي زي «مصر اشترت أسلحة من تشيكوسلوفاكيا» فالجميع يتناقشوا ويتكلموا، والسجناء اللي تبع «حدتو» ييجي لهم توجيه من حزبهم من بره بإرسال جواب تأييد للحكومة على الخطوة دي. على أساس إن صفقة أسلحة مع تشيكوسلوفاكيا معناه إننا داخلين في نوع من الخلاف مع أمريكا، دا كان حدث لأن الخلاف مع أمريكا ما كانش واضح في سياسة عبد الناصر من الأول. حدث تاني، قيام حرب 1956، العدوان الثلاثي لما ابتدت الغارات على مصر بعتنا جواب لعبد الناصر عايزين نروح نكافح في القنال ولما تخلص إن شاء الله نرجع السجن تاني، عايزينهم يستخدمونا في حاجات مفيدة أثناء الحرب. ما سألوش فينا ولكن باقي الشيوعيين اللي كانوا بره ومن ضمنهم عبد المنعم القصاص وأمينة شفيق سافروا فعلًا السويس للاشتراك في المقاومة ضد الإسرائيليين. في نفس الفترة دي السجن اتملى ستات يهود مصريين مطلوب منهم يسيبوا مصر. انتشرت أخبار وصولهم في السجن ومش مسموح لنا نقرب منهم ولا يكلمونا. حطوهم في حتة لوحدهم وكنا بنسمعهم بالليل بيغنوا. بيتهيأ لي كانوا بيغنوا أغنية «que sera sera» ، يعني «اللي يحصل يحصل»، حالة من الاستسلام أو الشجاعة في مواجهة المصير المجهول. مش عارفين حيحصل لهم إيه بس بينطردوا من مصر، عدد كبير. السجانات قالوا لنا إن العائلات دي بينطردوا علشان أثناء الغارات بيطلعوا السطوح يعملوا إشارات للطيارات الإسرائيلية، مش عارفة ازاي. على أي حال كان مطلوب منهم يسافروا ويسيبوا بيتهم في خلال ساعات. سمعت بعد كدا إن بيوتهم اشتروها ظباط في الجيش اللي جم في الحكم جديد، وإن إجراءات الترحيل السريع اتعملت علشان يضطروا يبيعوا لهم البيوت دي برخص التراب. حاجة زي ما دام إسرائيل وفرنسا وانجلترا بيعملوا فينا كدا، يبقى «احنا» كمان نطرد ونستفيد .

إحنا بقى كنا كل شوية نبعت لعبد الناصر جواب، طبعًا جمال عبد الناصر عمره ما رد على رسايلنا، ولكن رسايلنا له واهتمامنا بحال البلد كان بيأثر على الناس في السجن بما فيهم الظباط. تأييد شراء الأسلحة من تشيكوسلوفاكيا بالذات حاز على احترام كبير من الظباط ومن مدير السجن الجديد، السلطة كانت بتوصفنا لهم إننا «شيوعيين عملاء لبلد تاني»، فموقف زي دا وضَّح لهم إن «الشيوعيين وطنيين ».

ولكن غير الأحداث السياسية العامة كان في كمان أحداث محلية جوه السجن، زي عملية نقلنا من سجن مصر لسجن القناطر أو لما ابتدينا نربي قطط في الزنزانة وابتكرنا تكنيك الروب للقطط، أو وصول «مارسيل نينيو» المحكوم عليها بتهمة الجاسوسية لإسرائيل، وإنهم راحوا حبسوها معانا إحنا بالذات حاجة أخدت منا مداولات وطاقة. وكنا بنعمل دروس لغة لبعض بالانجليزي والفرنساوي وبالذات العربي. كان فيه بنت اسمها فتية نوفل تبع الإخوة نوفل من المنصورة، تنظيم لوحدهم ولا «حدتو» ولا «م.ش.م»، أنا مش متأكدة فتية دخلت تبع أي حبسة، بس على أي حال فتية دخلت في وسطنا ولقت عدد مننا بنتكلم فرنساوي وافرنجي «لا انتم لازم تتعلموا عربي» وابتدت تدينا دروس، تقرا بصوت عالي وتخلينا نقرا معاها المنشورات اللي بتطلع من التنظيم ويسربوها لنا في السجن. مطبوعة بشكل وحش ما اقدرش أوصف لك، بس كانت بتفرض علينا نقرا المنشورات بالذات، وأنا شخصيًّا اتكسف اقول «لأ مش عاوزة أقرا منشورات»، دا كان تعذيب بالنسبة لى. ضد الحكومة ومع العمال طبعًا بس معاني جامدة وأسلوب مش بيساعد، مش بياخد اهتمام الواحد. كتر خيرها والله فتية نوفل برغم إنها كانت شديدة معانا وكانت بتحتقرنا إزاي احنا خواجات بنكافح

ونتحبس على حساب الحركة المصرية وعلشان مصر وما نعرفش اللغة كويس؟ أكتر حاجة ساعدت في الحقيقة هي التعامل مع السجانات والمسجونات في الكلام العربي الدارج، مش النحو اللي كنت درسته في المدرسة ولا كلام المنشورات .

بعد 1956 جا لنا مدير جديد لسجن مصر اسمه محمود صاحب، راجل منفتح، قرر يستغل طاقة المسجونات الشيوعيات اللي قاعدين في أرابيزُه، «ميمي» كان محكوم عليها بـ8 سنين وانا واخدة 5 سنين وفي الأثناء جت «مارسيل نينيو» بـ15 سنة في تهمة تجسس وتحية أبو النصر 3 سنين وآمال عبد النور وسعاد بطرس أعتقد 3 مش متأكدة . محمود صاحب استغلّنا بشكل إيجابي وكلفنا بعمل فصول تعليم للمسجونات الجنائيات. «ميمي» مسكت الموسيقى وجاب لها آلات موسيقية وجاب واحد من فرقة موسيقى البوليس، للأسف نسيت اسمه، وقعدوا مع بعض، هي بالكمنجا وهو بالكلارينت وعملوا مجموعة موسيقية من المسجونات . كانت أجواء عدوان 1956 فعملوا كورال للأناشيد الوطنية، يتمرنوا 3 مرات في الأسبوع. أنا نابني فصل التمريض مع دكتور لتعليم الإسعافات الأولية، وتحية أبو النصر خدت محو الأمية علشان مُدرِّسة، وكلف زوزو ماضي تكوِّن فرقة تمثيل وتكون هي المؤلفة والمخرجة ومدربة التمثيل. زوزو خدت الحكاية جد وكتبت قصة علشان تتمثل، لكن المسرح بالذات ما نجحش، طلع إنه فوق قدرات المسجونات. أما «مارسيل نينيو» فوصلت مهزوزة وفي حالة انهيار، بعد مدة أقنعوها «ميمي» ومش فاكرة مين تاني تعمل نوع من الاعتذار والمراجعة، شدت حيلها شوية وبالكلام اكتشفنا إنها تعرف تريكو فجابوا مكنة وعملت ورشة تريكو. وفي الآخر عملنا احتفال بتأميم قناة السويس و«ميمي» صممت استعراض عسكري وفصلنا هدوم وانا رقصت فيه، وكانت مناسبة كبيرة .

أحداث بالطريقة دي على طول، فآمال في لحظة يأس قالت :

ـ مش معقول كدا، «Never a dull moment» في المكان دا .

بما معناه إن «الواحد مش لاحق يهرش في السجن»، التعبير دا ضحكنا وعبَّر عنا، مفروض إننا مسجونين ومقطوعين عن العالم ولازم نحس بالملل الشديد، انتهى الأمر إننا مشغولين زيادة عن اللزوم .

ابتدت تيجي لي أوجاع اللومباجو، كنت في نص العشرينات بس ضهري ابتدا يمسك ومش قادرة اتحرك. رحت للدكتورة «إيدا» دكتورة السجن، حاولت تساعد قد ما تقدر، ادِّتني أسبرين ولكن الوجع وصل لدرجة إن الأسبرين ما بيعملش مفعول، فقالت :

ـ أحسن لك ما تتحركيش خالص، طول ما فيه وجع تفضلي نايمة .

كانت ست طيبة، الدكتورة «إيدا» وبافتكرها بالخير ـ دارت الأيام وفوجئت إن صاحبتك اللطيفة نادية سامي اتجوزت ابنها. على أي حال في الفترة الأخيرة من السجن ابتدت تيجي لي كمان حالة من الأرق، وانا عمر ما كان عندي أرق قبل كدا في حياتي، أحاول أقرا قبل ما انام انعس وجفوني

تقفل أطفي النور وتبتدي الأفكار تيجي في ذهني مش قادرة اسيطر عليها، أفضل صاحية صاحية صاحية مش قادرة أنام لحد ما اغفل شوية قرب الصبح .

بس إيه يعني، كنت ابتديت أتعب بصحيح .

*

أول يناير 1959، كنت باعد الأيام اللي فاضلة لي على الإفراج، قاعدين كل واحدة في زنزانتها وفوجئنا بدوشة وهرجلة ووصول عدد كبير من المعتقلات منهم ستات جاية بعيالها، حطوهم في المبنى اللي قصادنا وكان بيفصل بينا حوش. كنا في سجن القناطر ساعتها، الإدارة خدت جناح أربع أوض في الدور الأرضي لمبنى مستشفى سجن النسا وحولوهم لزنازين للسياسيات بعيد عن عنابر المسجونات، كل واحدة فينا أوضة كبيرة نسبيًّا، يمكن 3×4م، مش زنازين ضيقة زي في سجن مصر. شباك أوضتي وأوضة «ميمي» بيطل على سور السجن العالي اللي آخره أسلاك شائكة، ولكن أوضة «مارسيل» كانت ناحية حوش السجن بنشوف منه مبنى العنبر الكبير اللي حطوا فوج المعتقلات الجداد فيه. بالليل كنا بنلمحهم من الشباك ونحاول نكلمهم، ممنوع عليهم الاتصال بأي حد جوه أو بره السجن، ولا حتى زيارات الأهالي. الحظر كان شديد عليهم لأنهم على ذمة تحقيق، إحنا كمسجونات، لايحة السجن تنطبق علينا فعندنا شوية حقوق، شوية حركة وشوية اتصالات وشوية زيارات، وكل واحدة عارفة مدتها، الجداد مش عارفين حيخرجوا إمتى، هل حيتحقق معاهم ويتحاكموا ولَّا حبس اعتقال، أعتقد الأحكام العرفية كانت لسه موجودة. الأحكام العرفية دي اللي مش عايزة تخلص أبدًا عندنا في مصر .

تغيرات سياسية في العراق تسببت في موجة اعتقالات جديدة في مصر، رئيس وزراء اسمه عبد السلام عارف وواحد تاني اسمه عبد الكريم قاسم، نوع من الخلاف بين القوميين والشيوعيين، بس انا نسيت التفاصيل دي، لازم نسأل سعد علشان هو اللي بيفتكر الأسامي وفاهم الصراعات اللي تؤدي إن لما يحصل انقلاب في العراق، الحكومة تقبض على التقدميين والشيوعيين عندنا في مصر، وعندنا يعني جمال عبد الناصر .

في سجن القناطر أيامها جدول النشاط كان بيخلص الساعة تمانية بالليل، العنابر والزنازين تتقفل لتاني يوم الصبح، وتبتدي تطلع أصوات من السجن سامعاها مش شايفاها، عنابر بعيدة، مسجونات بيضحكوا أو بيغنوا أو بيتخانقوا، الخناقات كلها كانت بتطلع بالليل. من عنبر المعتقلات الجداد كان فيه معتقلة بتقعد على حز شباك العنبر تغني لنا أم كلثوم، كنا بنسكت كلنا ونسمع من الزنازين. سألت مين دي قالوا لي ممثلة جديدة موهوبة اسمها «محسنة توفيق»، ما اتعرفتش عليها إلا بعد عشرة أو خمستاشر سنة عن طريق رعاية النمر، كان معاهم وداد متري بس انا ما كنتش أعرفها ساعتها، بَرضُه لفت الدنيا وانتو اتصاحبتوا على عزة وريم ولاد محسنة ووداد. من المعتقلات الجداد كنت أعرف إنجي أفلاطون من أيام فترة «أنصار السلام»، إنجي وصلت المعتقل متأخرة كام يوم لأنها هربت من البيت لما البوليس جه يقبض عليها، مسكوها بعد كام يوم في قرية لابسة فلاحة بلدي، إنجي حكت التفاصيل في كتاب مذكراتها، يظهر سابت مذكراتها لسعيد خيال ولما ماتت هو وضَّبها لها ونشرها. مش عارفة مين تاني اللي كان معتقل ساعتها، ناس كتير في العنبر البعيد دا وانا

خرجت بعد شهرين من وصولهم، قبل ما طرق الاتصال بيهم تترتب، ترتيب الاتصالات بياخد وقت في السجن، ما لحقتش أفهم إيه حكايتهم الناس دول، حتى لما كانوا بيخرجوا طابور كانوا بياخدوهم في حوش بعيد، الاختلاط قليل والسجن نجح يعزلهم عننا، الذكرى اللي فضلت معايا منهم هو غنا محسنة بالليل .

جه يوم 29 فبراير أخيرًا بعد خمس سنين بالظبط في السجن، لو تفتكري سعد اتقبض عليه قبلي بتلات ايام، وانا اتقبض عليَّ بعد أول جلسة محاكمة جم خدوني من البيت، بعد خمس سنين سعد خرج قبلي بتلات ايام. سلمت على الشاويشة عليِّة، وعلى المأمور، وطبعًا على زميلاتي في الزنازين، أما المعتقلات اللي في العنبر فما أمكنش إني أتقرب منهم، وما تمتش المعرفة، بس الحقيقة أنا كنت سعيدة وعندي صعوبة أركز في الفراق. ظابط اسمه عبد العال سلُّومة جه ياخدني، قريب سعد وموصِّيه عليَّ، ظابط متعاطف مع الشيوعيين والتقدميين .

ـ أنا قريب سعد كامل، أنا اللي حاوصلك لوزارة الداخلية، محتاجة حاجة؟

الحقيقة سعد وعيلته كانوا بيوصُّوا عليَّ بانتظام كأني بنتهم، لطيف منهم، في بداية مدة السجن مدير السجن «سالم بيه» طلع من معارف نانا وجدو فجه بَرضُه يطمن عليَّ ويسألني إذا محتاجة حاجة. ركبت الكاميون وعبد العال سلومة ركب معايا بوِشُّه البشوش ودَّاني القسم، لقيت سعد مستنيني ما رضيش يروَّح قبل ما انا أخرج، مش عايز يدخل البيت من غيري، سعيد إن خلصنا السجن ومستنيني نروح سوا. كنا في فبراير وموجة برد، اليومين البرد دُول يا عيني سعد قضاهم في القسم. وصلت القسم وسعد كان جاهز، قابلت سعد بغاية السعادة ما اقدرش أقول لك ولا أوصف لك . رحنا سوا على مبنى وزارة الداخلية، الإفراج بيتم من هناك . عبد العال سلومة وشه أبيض وأحمر، ملامح تركي، من قرايب جدو كامل، فرحان بينا وبفرحتنا وبأن الإفراج يتم على إيده، للأسف مات بعد كدا بفترة قصيرة، جاله سرطان في الزور ومات سريعًا، كان صغير، تلاتين أو خمسة وتلاتين سنة، ما انساهوش .

تمت إجراءات الإفراج وخرجنا للشارع وأخدنا تاكسي من قدام مبنى وزارة الداخلية وروَّحنا البيت وجينا على هنا، في بيت الدقي .

بيت الدقي، بيت نانا وجدو أبو وأم سعد .

كان في استقبالنا نانا وجدو وأبويا وأمي، أفتكر مها بنت جمال، 7 أو 8 سنين ومستنية عمو سعد وطنط «ماري»، الأبطال اللي كانوا في السجن .

أبويا وأمي كانوا يحبوا إني أرَوَّح على عندهم في البيت بس سعد من ساعة ما خرج وراح يستنى في القسم، كان على اتصال بالتلفون معاهم وأصرَّ إن احنا نخش بيت الدقي مع بعض الأول ونروح

نزور أبويا وأمي في بيتهم اليوم اللي بعده. كنت مبسوطة وسعيدة ومش مصدقة نفسي إن الوقت فات وكأنه ما فتش .

كان فيه واحد اسمه محمد السنوسي بيساعد نانا منيرة في البيت، راجل نوبي لطيف ابتدا شغل عندهم واحنا في السجن. وصولنا البيت تعبه كتير لأن كل يوم بيجي يزورنا حد من عيلة سعد. أخوات سعد بعائلاتهم، طنط عزيزة، وعيلة مراد، أمينة مراد وولادها ليلى وفريد وهشام، أمينة مراد كانوا اغتالوا جوزها كمال الدين صلاح، نسيب فتحي رضوان، في الصومال أثناء ما إحنا في السجن. سليمان بيه مراد هو ومراته حنيفة. بهية هانم أم كمال وجلال ونوسة، وخيرية مرات جمال أخو سعد. بهية هانم دمها خفيف تتكلم بصوت واطي وبسرعة وروح دعابة وشيء من السخرية في كل كلامها. كانوا بيشرحوا لي سكة القرابة اللي بيني وبينهم، كنت باركز وأفهم في ساعتها وبعدين أنسى، مش مهم لأن العيلة قابلتنا بحفاوة شديدة وحرارة بره حدود المجاملة وصلة القرابة الدقيقة، وكل ما ييجوا يجيبوا هدية، طبق صيني أو كريستال مليان شكولاتة من عند جروبي، والبيت اتملى بالحاجات الحلوة دي. من الناحية التانية ابتدت العزومات، كل واحد فيهم بدوره يعمل لنا عزومة نروح لهم في بيوتهم ويعزموا معانا أبو سعد وأم سعد. أغلبهم قرايب مامة سعد مش قرايب أبوه. اكتشفت في العزومات دي السبانخ بقبَّة البيض عند بهية هانم وبقيت أطبخها كتير، والسمك بالبشامل عند أمينة مراد في الزمالك، سمك مسلوق متغطي بالبشامل والبسلة والجزر بدل المايونيز، فكرة جديدة، وكان عندها طباخ وسفرجي ودادة صغيرة اسمها نوال لولادها. كان فيه ناس كتيرة، أنا ناسية للأسف ـ للأسف حقيقي ـ لأني باحب أتذكر الناس .

أمي وأبويا في نفس الوقت كانوا عايزين يحتفوا بينا وبقينا نتغدى عندهم كل يوم حد وحسن فؤاد صاحب سعد ورضا مراته كانوا بييجوا معانا يتغدوا عندهم بانتظام وعملناه طقس. حسن فؤاد كان بيقول «أنا بحب الأبهات والأمهات» ويتعرف على أهل أصحابه وأهل اصحابه يحبوه كمان. حسن اتحرم من الأم، أمه ماتت وهو صغير وواضح إن أهله ما كانوش كويسين بعدها، فكبر يحب يتقرب من أمهات أصحابه بما فيهم أبويا وأمي، حسن شهد على جوازنا وكان صديق ظريف وحنين دايمًا. رعاية النمر كمان جت عند أهلي كذا مرة، الغدوة عند أبويا وأمي كانت لطيفة بوجود الأصدقاء، أهلي كانوا فرحانين إننا خرجنا من السجن وان اصحابنا حوالينا وكانوا بيعملوا أكل كويس، انتِ عارفة، والطبق الجماهيري كان اللحمة البانيه، أمي كانت شاطرة في تحميرها، أنا باجرب أظبطها على مدى السنين، يا تطلع ناشفة يا مش باتبلها كويس، اللحمة البانيه اللي بتعملها أمي حاجة مخصوصة، أكلات أمي بسيطة وطعمة .

آجي أنزل الرصيف في الشارع توازني مش مظبوط، شرحوا لي «القعدة مدة طويلة في مكان محدود» اللي هو السجن. السلالم، دوشة الشوارع، أتوبيسات، عربيات، ناس، عجل، آجي اعدي الشارع أقعد مدة طويلة واقفة، وابص من الناحية الغلط. لخبطة .

العادي مش عادي .

الوضع دا قعد شوية وبعدين اختفت الصعوبة، ما اعرفش اختفت إزاي، اكتشفت فجأة إنها اختفت .

*

بعد عشرة أيام أو أسبوعين من العزايم والاجتماعيات في يوم سمعنا تخبيط على باب بيت الدقي، بوليس .

ـ ترحيل .

كان عشية العيد، أظن العيد الكبير، عيد الخروف، صدمة كبيرة ليَّ وللبيت كله .

سعد بقى يروح وييجي في البيت بعصبية، حيتجنن مش عارف يعمل إيه .

ـ ما تخافيش، حطلعك، حاشوف، حاتصرف، ما تخافيش، يكون عندك ثقة فيَّ .

حاجات من النوع دا .

وخلاص، خدوني ووِدُّوني القسم وحطوني في زنزانة لوحدي، زنزانة صغيرة بابها حديد. سعد جه ورانا على طول يشوف حيبيِّتوني فين ومشي، بعد ساعة أو ساعتين جه محمد السنوسي ودخل عندي في الزنزانة بنفسه جايب لي شوية أكل وملابس وسجادة صغيرة من سجاجيد البيت ومبيد. البيات في الأوضة دي كان وحش جدًّا، أنا عندي خبرة بالمبيد اللي اسمه «دي دي تي»، الواحد يرش دايرن داير الفرش علشان البق والحشرات يبعدوا عنه وهو نايم، والحقيقة الأوضة كانت مليانة صراصير، بالذات في ركن من الأركان، يمكن ركن الكابينيه .

مش فاكرة قوي .

بيِّت حزينة، وعمالة افكر، «guasta festa» ـ آخر عكننة. طول الليل يفتحوا باب الزنزانة الكبيرة، ويدخَّلوا حرامية ودعارة، والشاويشية يزعقوا. مش عارفة عدَّى عليَّ يوم ولَّا اتنين ولَّا تلاتة في المكان دا، في الآخر ودُّوني سجن القناطر تاني. لمحت «ميمي» و«مارسيل» من بعيد، شاوروا لي ما قدروش يقربوا، ما حطونيش معاهم، أنا كنت فاهمة إن حاقعد معاهم، كان نفسي، بس حطوني لوحدي، لأن انا مش محكوم عليَّ. مجموعة معتقلات أول يناير اللي شفتهم وهم واصلين كانوا لسه في العنبر وبَرضُه مش مسموح لي اتصل بيهم .

عزلوني .

ما كنتش متأهلة للمعاناة دي .

قعدت لوحدي مش عارفة قد إيه، وبعدين جم نادوا عليَّ وودوني وزارة الداخلية .

دخلوني أوضة لقيت فيها ظابط على مكتب وأربع رجالة قاعدين حواليه، شكلهم أجانب .

وسعد .

أول ما ظهرت قام باسني، حطوا لي كرسي قدام مكتب الظابط قصاد سعد .

واحد من الأجانب كبير شوية شعره أبيض ووشه أحمر سويسري أو بلجيكي، قام من جنب الظابط وجه يقعد بيني أنا وسعد .

الظابط قال لي :

ـ هيه! يا «ماري روزنتال»، إنتِ عايزة تسافري تروحي فين؟

ـ أنا عاوزة اسافر؟ أنا مش عاوزة اسافر !

ـ ضروري تختاري لك بلد، حنرحلك من مصر ما تقدريش تقعدي .

ـ معنديش بلد أروح له .

وابتديت أحس بقلبي ينسحب شوية بشوية .

ـ مفيش كلام من دا، الناس دول من الصليب الأحمر، حيساعدوك تسافري وتلاقي حتة ترتاحي .

فأظن سعد تدخل .

ـ مش ممكن، مش معقول، هي مصرية، دي مراتي، حتروح فين ولمين؟

أنا كررت نفس الكلام، لكن الظابط كان شاب صغير، وتعرفي الظباط لما يبقوا شباب عندهم كدا نشاط وحيوية، مبسوط من نفسه كأنه بيعمل مهمة حلوة، لكن أنا كلامه دخل فيَّ زي المطوة .

ما كنتش مصدقة إن دا ممكن يحصل .

ـ أبويا وأمي هنا، معنديش أي جنسية غير الجنسية المصرية .

ـ لا ما عندكيش الجنسية المصرية .

وسعد يقول له :

ـ لأ هي مصرية .

كلام كدا بالطريقة دي والناس الأجانب بيتكلموا بين بعض .

في وقت ما شفت سواد قدام عينيا، مفيش نَفَس، ما اعرفش لو قفلت عنيًّا بس بطلت أسمع أي صوت، حسيت إن حيغمى عليَّ. فضلت أقول لنفسي «شدِّي حيلك، إوعي تقعي، إوعي يغمى عليك». سامعة سعد من بعيد بيناقش ويزعق مع الظابط. الراجل الأجنبي اللي جنبي يظهر حس إن انا تعبانة فاتقرَّب قوي مني وقال :

ـ ما تخافيش، مش حتسافري، هو بيقول كدا، مش من حقه، مش حنخليكِ تسافري .

كلامه دا خلَّاني أنتعش تاني، ورجعت اقول وأرد بالفرنساوي بقى :

ـ أبويا وأمي هنا، ساكنين هنا .

ـ أبويا مولود في مصر .

ـ أنا مولودة هنا ومعنديش جواز سفر أصلًا، عمري ما خرجت من مصر .

ـ معنديش حد في أي حتة .

ـ متجوزة، وجوزي مصري .

وسعد كمان حاول يتكلم بالفرنساوي بتاعه، شفت الأجانب بيشاوروا للظابط بما معناه «دي حالة ميؤوس منها، ما تقدروش تسفَّروها » فالظابط ـ حسيت كدا ـ ابتدى يتترفز ويبص لكل واحد يمين وشمال وفي الآخر بص لي :

ـ يعني إيه؟ مفيش فايدة فيكِ؟

ـ الله؟ فايدة في إيه؟ أعمل لك إيه؟ دا وضعي .

قلت دا بالعربي، مش بالفرنساوي .

ـ كدا؟ طب خلاص .

ونادى على العساكر :

ـ خدوها، خلاص .

يا دوبك لحقت أسلِّم على سعد .

ـ ما تخافيش، حنعمل المستحيل، مش حيحصل، شدي حيلك .

والراجل الفرنساوي قال بالفرنساوي :

ـ حتقعدي هنا، مش حيقدروا يسفروك .

والظابط قال :

ـ حتسافري، حتفضلي في السجن لغاية ما نرحلك .

مشيت نص ميتة، المجهود العصبي اللي عملته في التلت أو النص الساعة اللي قعدتهم مع الناس دي كان فوق احتمالي. ورغم إنهم طمنوني، طمنوني كتير جدًّا، أهه بَرضُه رجعت السجن .

جزء كبير من سعادتي بالإفراج بعد خمس سنين السجن كان سببها إني لغاية آخر لحظة كنت قلقانة لو حاخرج على البيت ولَّا حيرحلوني زي «لي لي دايان ». كانوا بيرحلوا كل الخواجاتِ اللي في السجن، يطلعوا من السجن على المركب أو الطيارة . النقطة الوحيدة اللي واقفة في صفِّي هي إن معنديش جنسية تانية. معنديش جنسية أجنبية، ومكتوب في شهادة ميلادي إني مصرية، ما كنش عندي حتى باسبور في الوقت دا، الوثيقة الكبيرة أيامها كانت شهادة الميلاد. فلما أُفرج عني وخرجت فعلًا من وزارة الداخلية مع سعد وروَّحنا البيت وبقت الناس تيجي تهنينا وننام في البيت ونصحى في البيت ونخرج ونروَّح تاني، إفتكرت إن خلاص، أمان، كانت فترة حلوة وجميلة جدًّا .

سعد خلى فتحي رضوان يتدخل، كان وزير في الوقت دا، طلب منه يكلِّم جمال عبد الناصر نفسه .

ما قدرتش اتقرب من «ميمي» و«مارسيل» أو من معتقلات العنبر بتوع 1959، أغلب الوقت كنت لوحدي، يظهر كنت حالة خاصة. شفت سعاد بطرس، زميلة شيوعية من أيام آمال عبد النور وكان حصل بينا ود كبير، حضنًّا بعض وحبينا بعض تاني، كانت مفاجأة جميلة، كانت تاني مرة سجن بالنسبة لسعاد، بس المرة دي ما كانش عندنا فرصة نتكلم، مقابلات ربع ساعة بالكتير وبعد كدا يفصلونا. آمال كانت خرجت، اترحلت واستقرت في باريس .

ـ ممنوع يا شيوعية .

أرجع مكاني وسعاد ترجع مكانها .

«لفكي» و«ماري غازيس» اللي هي «ماري بابادوبولو»، شفتهم من ضمن معتقلات العنبر، الاتنين من أصل يوناني والاتنين من مصر الجديدة، لو كان فيه فرصة كانوا بيقضوها مع «ميمي كانيل»، واضح إنهم كانوا اشتغلوا مع بعض قبل ما يتقبض عليهم، وغالبًا دي كانت خلية مصر الجديدة . دا فكرني إن لما جابونا أنا و«ميمي» قبل الحكم وفؤاد منير اتعرف على ميمي وما عرفنيش، خواجاية واسمي «ماري» لكن ما عرفنيش واتحكم عليَّ بخمس سنين مع إن «ماري» و«لفكي» واضح هم اللي كانوا بيشتغلوا مع «ميمي» قبل القبض علينا. «ماري» اسمها «ماري»، و«لفكي» اسمها الحركي «ماري». يمكن فؤاد منير كان بيدوَّر على واحدة منهم؟ «ميمي» عمرها ما حكت لي على

نشاطها قبل الحكم، وعمرها ما قالت لي منير كان متوقع يشوف مين، هل ممكن هي كانت عارفة منير بيدوَّر على مين؟ ما اعرفش لحد النهاردا الحكم أخدته على أساس إيه، كانت محاكمة عسكرية وما كانش فيه محامي وانا ما اتحققش معايا .

ابتديت افكر إن مش مظبوط إني لسه ما اعرفش أخدت الحكم دا ليه، وإيه علاقة «لفكي» و«ماري غازيس» بـ«ميمي» والقضية. دي كانت أيام السرية، وباسم السرية حاجات كتير كانت بتحصل، لدرجة إني ما سألتش حتى نفسي .

ما سألتش نفسي إلا دلوقت واحنا بنتكلم وانا بافتكر واحكي لك .

«لفكي» كان عندها بنت صغيرة، اضطرت تسيبها مع امها وحماتها. التعذيب اللي كانت متعذباه «لفكي» دي يا عيني ما اقدرش أوصفه لك. الأوحش من البُعد إن بعد كام شهر جابوا بنتها السجن تزورها عيِّلة عندها سنتين وما عرفتش امها. بنت «لفكي» ما عرفتهاش . أنا شفت منظر «لفكي» وبنتها من شباك زنزانتي، «لفكي» بتحاول تتكلم مع البنت، كانت حتتجنن. مدير سجن القناطر ومأمور سجن النسا كانوا كويسين، سمحوا لها تشوف بنتها مع إنها على ذمة التحقيق وممنوع عليها الزيارة. كل ما الوقت بيفوت كل ما باكتشف تفاصيل إنسانية كانوا بيفوتوها ويغمضوا عينهم عليها. عباس قطب وحسن الكردي .

*

زيارات سعد ابتدت تتأخر وتقل .

ـ باعمل الإجراءات والاتصالات علشان تخرجي في أقرب وقت .

وبعدين يمشي ويغيب مدة طويلة، وأبويا وأمي بطلوا ييجوا خالص، وبعدين سعد جه أخيرًا وجاب لي مأكولات وشوية حاجات وبيطمِّني، لكن أنا حاسة إنه مش مظبوط، مهموم، مشي وغاب تاني، فابتديت أقلق بصحيح إن فيه أخبار وحشة خاصة بالترحيل ومش عايز يقولها لي .

أتاري بينما أنا في السجن على وشك يرحلوني، أبويا انتهى به الأمر إن مش قادر يقف على رجليه، جاله عرق النسا، عصب بيبتدي من الهانش أسفل الضهر لغاية نص الفخدة من ورا. يقدر يقعد ما يتحركش، أول ما يدوس على حتة معينة من مفصل الحوض وهو واقف يبتدي الوجع، يروح الشغل مش قادر يقف، مش قادر يشتغل، ودي مصيبة. خد مسكنات ولكن الألم زاد وفي الآخر الدكتور عثمان سرور متخصص جراحة مخ وأعصاب، بروفيسور وأستاذ كبير في كلية الطب قال :

ـ لازم تعمل جراحة، فيه تكلس بين الفقرات بيدوس على العصب، مفيش طريقة غير إننا نفتح بين الفقرات .

أبويا دخل مستشفى العجوزة علشان يعمل العملية، وكانت عملية نادرة في الوقت دا فكانوا قلقانين يطلع من العملية مشلول، وأمي لوحدها ما تعرفش تتصرف لأن «برتو» أخويا كان في إيطاليا. اللي وقف جنب أمي في المحنة دي كانوا «فيليا» و«أوفيديو» اللي أمي كانت كتبت لهم جوابات حبهم وجوزتهم أيام الحرب العالمية التانية، وكان فيه سعد طبعًا وأبوه وأمه. يظهر سعد وقف وقفة كويسة .

أبويا عمل العملية والعملية نجحت، والدكتور سرور قال لابويا :

ـ مسافر مؤتمر والنائب بتاعي حيتابع ـ مبروك ـ كله تمام .

وابتدا أبويا يمشي كويس، ولكن الأوجاع رجعت المرة دي في مكان العملية في ضهره، الوجع بيزيد وبعدين ما بقاش فيه مسكن نافع ووصل لدرجة إن كان بيصرخ ويتسمع صوته لغاية تحت في الشارع .

كل الأحداث دي أنا ما حضرتهاش، «فيليا» و«أوفيديو» حكوا لي بعد ما خرجت إنهم كانوا متصورين إن الراجل دا حيموت. سعد كان يعرف دكتور اسمه أحمد عكاشة من أيام مستشفى السجن، فطلب منه يدخل في الموضوع ويستشير الدكاترة مع سعد، وتوصلوا إلى إن حصل تلوث في الجرح، تلوث جوه عضم العمود الفقري أدى إلى التهاب في أعصاب العمود الفقري، ألم فظيع. واقعين في مشكلة وحيحلوها إزاي؟ أمي بتعيط والعيلة بتعيط والجيران بيعيطوا، كلهم حكوا لي إن سعد لعب دور البطل في الموضوع دا: من الأول للآخر شال المسؤولية بين الدكاترة واتخاذ القرار يتعمل إيه ولّا إيه. توصل للدكتور المهيري، أظن أحمد المهيري، اللي عمل عدد من الاختبارات وحدد نوع التلوث وعمل المصل المخصوص المضاد للتلوث دا. أبويا كان متوقع يقعد في المستشفى أسبوع يعمل عملية عرق النسا ويروَّح البيت، قضى شهرين أو تلاتة، تكلفة مادية كمان، بس الحمد لله أبويا كان دايمًا راجل عاقل عنده احتياطي، مش بيصرف كل الفلوس، وساعتها كان بيشتغل في «النمرو»، اللي هي الوحدة البحرية الأمريكية للأبحاث الطبية، ووضعهم كان معقول فقدروا يغطوا المصاريف. نقدر نقول إن المهيري أنقذ أبويا، أبويا حَب المهيري دا بلا حدود، وفضل يروح يزوره واستمر يشوفه لغاية ما أبويا اضطر يسافر ويسيب مصر. طلع دا السبب إن سعد مش بييجي يزورني وما بيدينيش أخبار وكان مرتبك لما بيزورني أصل معندوش أخبار كويسة، أنا عشت قلق كبير وانا مستنية في السجن .

في النهاية أبويا خف ورجع البيت وانا أفرجوا عني ورجعت البيت .

قالوا لي ببساطة :

ـ خلاص حتطلعي ولازم تعملي الإقامة .

كانت رابع مرة أطلع من السجن وفي موضوع الترحيل دا قعدت 7 أشهر .

عملت الإقامة فعلًا وكان لازم أجددها كل سنة. يوسف حلمي كان لسه موجود وأقنعني بقى أعمل طلب رسمي للجنسية المصرية كزوجة وتولى هو القضية كمحامي. قبل كدا كنت بارفض فكرة طلب الجنسية كزوجة، كنت عاوزه أقول «دا من حقي»، أنا عاوزه الجنسية المصرية اللي طلبتها لما كان عندي واحد وعشرين سنة على أساس الحق، أبويا مولود في مصر وانا مولودة في مصر. طبعًا الطلب اللي «على أساس الحق» ما ردُّوش عليه، وبعد خمس سنين في السجن فعلًا لسه عاوزين يرحَّلوني، فاستسلمت وقدمت للحصول على الجنسية المصرية كزوجة ونسيت الطلب الأولاني، ودخلنا في متاهات تانية من مشاكل الحياة في مصر بعد السجن ونسيت الموضوع، وعشت بالإقامة .

*

خلاص؟ لا مش خلاص، بعد الإفراج حطُّونا تحت المراقبة لمدة خمس سنين: يفوت علينا يوميًّا ظابط أو شاويش بعد الساعة سبعة مساء يتأكد إن احنا الاتنين موجودين ما رحناش بعيد ـ مش عارفة متصورين حنروح فين . دا كان بيحط شيء من القيود علينا، لأن معناه إننا ما نقدرش نسافر يومين اسكندرية مثلًا ولا نتأخر بالليل . ومرة في الأسبوع نروح بنفسنا، كل يوم سبت أول ما نصحى نلبس وننزل، نجري على القسم قبل الساعة 8 ص، ميعاد مزعج، أسبوع ورا أسبوع نصحى نلبس ونمشي بالخطوة السريعة في الشارع الحلو اللي فيه قصر البدراوي، شارع بولس حنا، وقسم الدقي كان على راس شارع فيني قصاد كوبري الجلاء، كان اسمه كوبري بديعة. المراقبة اليومية تيجي بعد الساعة 7، إحنا نتواجد قبل المغرب في البيت، لكن ملهمش ميعاد محدد ممكن بعد الغروب على طول وممكن واحدة أو 2 الصبح، يضرب الجرس نقوم أنا وسعد نص نايمين كدا نفتح له، يبص لنا ويكتب عنده في الدفتر وينزل. المهم إن على المغرب كنتِ تلاقينا دايمًا بنجري ودايمًا متأخرين وعلى آخر لحظة ناخد تخريمة من ناحية بيت شاهين نعدي في خرابة وبعدين نفتح البوابة الصغيرة لجنينة الجيران نتسحب قدام بيتهم علشان ما نزعجهمش. التخريمة دي كانت بتختصر عشر دقايق من المشوار. ما كانش لسه الدنيا اتزحمت عربيات والشوارع الجانبية من شارع التحرير كانت مهجورة. في يوم واحنا بنجري ـ كالعادة ـ شفنا عربية واحدة بس في الشارع، فولكس خنفسة راكنة قدام العمارة الوحيدة، نزل منها واحد :

ـ يا سعد يا سعد .

طلع يوسف إدريس ورجاء مراته، أتاريهم ساكنين جنبنا على طول في رابع دور، سلمنا عليهم قوي بس مستعجلين مفيش وقت نشرح إيه الحكاية، مش قادرين نقف ندردش :

ـ نشوفك بعدين، ناخد تلفون، إحنا لازم نروَّح البيت بسرعة .

ـ إنتو ساكنين فين؟ رايحين فين؟

فشاورنا على البيت، يوسف ابتسم وقال :

ـ طيب باي باي نتكلم بعدين .

سِبناه وجرينا. بعدها بسنين يوسف إدريس مَوِّتنا من الضحك وهو بيحكي للناس المقابلة الأولانية دي، كان حكَّاء موهوب :

ـ واقف قدام باب بيتنا ولقيت اتنين بيجروا وبصيت كدا لقيت: «الله؟ دا سعد» ناديت عليه: «يا سعد إزيك؟». لكن سعد مستعجل عايز يسيبني: «كويس كويس اشوفك مرة تانية». «طب ساكن فين؟». قال لي: «هنا». بابص على «هنا » دا الخرابة المهجورة اللي قدام بيتي وسكة سد. «باي باي ». «سلام». «سلام». بيجروا هو و«ماري» ما وقفوش، دخلوا الخرابة فعلاً واختفوا. أنا ساعتها قلت لنفسي: «يا خبر ابيض يا سعد دا انت ما اتغيرتش خالص، حتى لما اقابلك بالصدفة ألاقيك بتتسلل انت ومراتك في الخرابة ».

جه الصيف وعايزين نصيِّف، أبويا وأمي رايحين اسكندرية لمدة أسبوع، انتهزنا فرصة نروح نقضي يوم معاهم ما نقدرش نقعد أكتر من يوم بسبب الرقابة. أهلي بيحبوا يصيفوا، مُدبِّرين يحوشوا ويروحوا «السويس كوتدج» أو «الهرميتاج» ولو إن أظن «الهرميتاج» لوكاندة غالية فوق طاقتهم. عملنا خطة، واحد صاحب سعد مش فاكرة اسمه، تخين وطويل قال :

ـ أنا مسافر بعد نص الليل علشان السكك تكون فاضية، أسوق بحريتي، أوصل اسكندرية الفجر، أنام ساعة ساعتين، أقضي مشاويري في اسكندرية وارجع بعد الضهر .

اتفقنا ييجي ياخدنا بعد المراقبة، وأكدنا عليه إن تاني يوم لازم نكون في الدقي قبل المغرب. السكة كانت طويلة، ما كانش الطريق الصحراوي اتعمل لسه وانا كبس عليَّ النوم ورا في العربية وسِبت سعد يجامل صاحبه. رحنا عند أبويا وأمي في الفندق قضينا الصبح واتغدينا معاهم، ومشينا على طول على أساس نوصل الدقي قبل شاويش المراقبة. يوميها بالذات عسكري المراقبة وصل بدري، والله ما اتأخرناش بس حظنا إنه جه قبلينا، لقينا أم سعد في استقبالنا في حالة ذعر وعصبية :

ـ إنتو فين؟ دول جم وحيعملوا لكم محضر واترجتهم وقلت لهم إنكم على وصول .

لسه راجعين تعبانين ومكسلين ننزل نروح القسم علشان نثبت إننا رجعنا خايفين يصمموا يعملوا محضر، المحاضر دي عيبها إنها ممكن تطول مدة المراقبة. بس الحمد لله واحنا لسه بنفكر نعمل إيه، الشاويش كتر خيره ـ يظهر نانا صعبت عليه ـ جه تاني وسجل «موجودين» والحكاية فاتت .

عدد كبير من اصحابنا اتقبض عليهم في قبضة 1959 قبل ما نخرج على طول، حسن فؤاد وكمال عبد الحليم وأخوه إبراهيم عبد الحليم أبو نادية مرات رشدي أبو الحسن وغيرهم، فما كناش لاقيين اصحاب وما بنشوفش حد ومحطوطين تحت المراقبة، ما كناش متضايقين، فاتت مدة فرحانين بالحرية، بس بعد شوية ابتدينا نحس بالوحدة والتوهان. في يوم ماشيين في ميدان باب اللوق، الميدان المستطيل اللي بين ميدان التحرير وميدان عابدين، ترومايات كتير وما كانش لسه عملوا كوبري المشاة، تعدية الشارع كانت صعبة، 3 أو 4 ترومايات في نفس الوقت، واحد يقف والتاني يتحرك.

كنا ماشيين على الرصيف وشاب سبقنا، أنا شبهت عليه بس ما عرفتوش، وسعد ما كانش منتبه، بعد كام متر الشاب دا بص لورا تاني وفجأة وقف وقال :

- سعد! سعد !

سعد بص له :

- ووووه .

كان عبد المنعم القصاص، الرسام عبد المنعم القصاص ما كُناش شفنا حد بره السجن، يحضنا ونحضنه وقعدنا نصوَّت احنا التلاتة في الشارع، بنتنطط من الفرحة، وفي ساعتها أخدنا على بيته. عرَّفنا على مراته أمينة شفيق، نقابية شيوعية، أختها بهيرة بعد كدا اتجوزت عز الدين - أخو سعد - وأختها سهير مرات «ألبير آرييه » الصديق الأول والوحيد من أيام منظمة الطلاينة، اللي أنقذني من الوحدة بعد السجن الأول سنة 1950. القصاص كان بيشتغل في «الأهرام»، بيرسم في الصفحة الأخيرة، ابتدينا نشوف القصاص بانتظام، يا ييجي، يا احنا نروح عنده، يحضروا قعدة بسرعة في بيتهم، شاطر ينزل يجيب جبنة وعيش وبسطرمة وزتون ونقعد ونجيب حاجة نشربها، عادةً براندي، ونتقابل بدري علشان نروح للمراقبة. ابتدوا يدُّونا الأخبار، حكوا لنا إن أول يناير سنة 1959، قبل الإفراج عننا بشهرين حصلت حملة قبض كبيرة على التقدميين والشيوعيين. أظن أمينة كانت حامل لما اتعرفنا عليهم وبعد كدا ولدت حسن، الولد كان لذيذ وجميل وعينيه زُرق لكن كان يشبه الصينيين، أنا في الأول ما كنتش واخدة بالي بس فهمت بعد كدا مأساة أمينة وعبد المنعم، ابنهم الأول حسن كان مصاب بمرض بيسموه «منجول ». العلاقة مع عبد المنعم وأمينة استمرت بحرارة، تبنونا في فترة كان عندنا زي انعدام وزن وأغلب أصحابنا معتقلين أو لسه في السجن بيخلصوا أحكام. تاني واحد قابلناه كان عبد الغني أبو العينين، بَرضُه مصادفة وقعد يحضنا في الشارع، وأصر ياخدنا فورًا عنده في المرسم نواحي القلعة .

- ضروري ضروري تيجوا معايا .

ورحنا معاه. حتة كلها بيوت أرابسك، الفنانين بيحبوا البيوت القديمة والمشربيات، فيه سلالم لأول دور ودور أرضي، أظن نفس المرسم كان بيستخدمه جمال كامل لما كان بيرسمني، وكنعان وغيرهم، أعتقد جمال كامل كان معتقل ساعتها. صاحبة البيت اللي مأجرة لأبو العينين المرسم راحت جابت لنا كباب وخرطة جبنة بيضة، أكلنا جبنة بيضة مع عيش وكباب. العلاقة مع أبو العينين رجعت، أبو العينين اتعرَّف على رعاية النمر عندنا في البيت واتجوزوا على إيدينا. قابلنا كمان محمود توفيق وسهير مراته، محمود كان بيحضَّر يفتح مكتب محامي، كان مقتنع بشغلانة المحاماة مش زي سعد، سعد بيصعب عليه الناس أو يتضايق منهم، عنده صعوبة إنه يتجاوب مع متطلبات المهنة .

أحمد كامل مرسي كان مخرج معروف بدقته وإن شغله في السينما نضيف ومتقن، نعرفه من أيام «أنصار السلام» قبل ما يتقبض علينا، و«ميمي كانيل» استخبَّت عنده في البيت لما جت من فرنسا

في السر. كان عارف إنها في السرية، وضايفها عنده مدة طويلة لغاية ما لقوا لها مكان تاني. «ميمي» حكت لنا في السجن إنها كانت محرجة منه علشان مُصر يتكفل بكل مصاريف إقامتها عنده حتى مصاريف المكوجي مثلًا، كفاية المجازفة اللي واخدها. بعد ما خرجنا من السجن «أ.ك.م» تبنَّانا أنا وسعد ـ اسمه كدا، «أ.ك.م» ـ يعزمنا بانتظام عنده في البيت في الدور الخامس بيطل على ميدان المساحة، بيت صغير على قدَّه بالظبط ـ ما كانش متجوز. سألني :

ـ إنتِ تعرفي طلياني كويس؟

قلت :

ـ طبعًا .

ـ طب تعالي، عندي شغلانة علشانك .

كان اعتزل الإخراج وتخصص يعمل دوبلاج عربي للأفلام الأجنبية، وكان شغَّال على فيلم روسي، «الدون الهادئ»، ممثلين الدوبلاج محمود مرسي، شاب صغير، وسميحة... اسمها إيه مرات سعد وهبة؟ أيوه، سميحة أيوب، شابة صغيرة هي كمان، سمرا وطويلة. رحنا الاستوديو معاه الصبح وبقينا نروح معاه كل يوم، كنا فاضيين خالص، وانا كان عندي فضول أتابع عملية الدبلجة والترجمة. طلع حتة تعب الدوبلاج دا، الممثلين يعيدوا نفس الجملة ميت مرة. نقعد في الاستوديو طول النهار ونتغدى معاهم أنا وسعد، لغاية قبل المغرب ونمشي نلحق المراقبة. جه دور الحوارات اللي بالطلياني، كان فيه مشهد في وسط الفيلم، سمعت وفهمت وقلت وترجمت، وهو كتب ورايا والممثلين دبلجوا. كان فيه مشهد في بداية الفيلم صوت إذاعة أو تلفزيون في الخلفية، كررها لي كذا مرة، وانا مش مفسرة، في النهاية استسلم وقال طيب معلش خلاص، مش عارفة اتصرفوا إزاي بعد ما أنا فشلت، بس هي ما كانتش متَّرجمة أصلًا بالإنجليزي ولا بالروسي، يمكن مش مقصود تتفهم؟ «أ.ك.م» إدَّاني عشرة جنيه وانا خارجة، ساعتها كان مبلغ، يمكن يقضُّونا شهر، وكانت أول فلوس أكسبها بعد السجن .

استمرت الحياة كدا مدة، تمر أيام من غير ما نشوف حد .

عشنا مع أبو وأم سعد في البيت من غير موارد تقريبًا خالص. نقابة المحامين صرفت لسعد إعانة خمسين جنيه، كتير وممكن تقضي شهرين تلاتة، ميزانية البيت أكل ومعيشة كانت 22 جنيه فـ50 جنيه كان المفروض تقعد معانا لحد ما سعد يلاقي شغل. فكرنا وناقشنا يرجع للمحاماة ولَّا لأ، بس سعد كان واضح «مش عاوز أشتغل محامي»، عايز يشتغل صحفي، وراح جرنال «الأخبار» واتقدم وقالوا له «فوت علينا بكرة». سعد حكى لي إن المسؤول عن شؤون التعيينات في «أخبار اليوم» كان ظابط ـ أعتقد جوز ميرفت التلاوي ـ وأظن من المنيا وما بيحبش الشيوعيين وكان عامل صعوبات لسعد، ويأجله، يشوف حياخدوه ولا مش حياخدوه. سعد كان محرر قديم من سنة 1945، كان عمل تحقيق ونشر يوميات هروب حسين توفيق وكانت سبق صحفي ناجح جدًّا فمصطفى أمين عيِّنه بـ35 جنيه في الشهر، وسعد بيقدم عاوز يرجع الجرنال يبقى محرر سنة 1959 بعد 5 سنين

في السجن، لقى الظابط دا بيقاومه ويكلمه بتعالي وهو ظابط ما يفهمش حاجة في الصحافة. حالة الجيش في البلد كانت على آخرها، ماسكين كل حاجة. سألت سعد مؤخرًا لقيته ناسي اسم الظابط السئيل دا. في النهاية سعد اتعيِّن واتحددت ماهيته بحوالي 25 جنيه في الشهر، زعل واعتبر إنهم حطوا من قدره وعاملوه كمبتدئ، وكان رأيه إن الماهية المفروض تكون في حدود 100 جنيه في الشهر ويعينوه على درجة أعلى أو مساوية لدرجته في 1945. شرح لي وهو متضايق وأعتقد إن كان عنده حق، بالتأكيد لو اللي بيعينه متعاطف أو على الأقل متفهم، مش معادي، كان حط في اعتباره الفترة اللي بابا اشتغلها قبل السجن والفترة اللي قضاها في السجن، معاملة الظابط دا بتعكس نفور، ولكن بالتأكيد كمان إن 20 - 25 جنيه كان أحسن من بلاش. كانت فترة اعتقالات وكان فيه أحداث العراق والجرايد عندنا كانت شديدة الهجوم على الشيوعيين، وموسى صبري كان بيكتب ضد الشيوعيين كل يوم، وسعد بيحاول يكتب من البيت، بيروح الجرنال ساعات وساعات لأ .

*

فترة بعد السجن ملخبطة في ذهني لأنها فترة معاناة من كل ناحية، فترة مؤلمة لأن ظروف الشيوعيين كانت وحشة في البلد. مفيش عندنا فلوس كفاية لأي متطلبات ومش واضح حنعيش إزاي وحيجيلنا فلوس تاني منين. معظم الأصدقاء والزملاء في السجن وعائلاتهم كانت بتلجأ لنا على أساس إحنا خرجنا وممكن نساعد. ما كانش عندنا إمكانية نساعد. إحنا كنا تايهين خالص. أفتكر زيارة عطيات مرات إبراهيم عبد الحليم، اتقبض عليه وأولاده أمل ونادية ومخلص لسه صغيرين، وسعد الشيوعي الوحيد من المجموعة دي اللي بره السجن. جت عطيات تزورنا وكان لقاء مؤلم، كانت حزينة واحنا كانت حالتنا وحشة، ما عرفناش نساعد بعض، ومشيت، بصيت عليها من البلكونة لقيتها بتعيَّط، مش قادرة أنسى عطيات والموقف دا. وبعد كدا جت رضا مرات حسن فؤاد وكانت مقابلة صعبة بَرضُه. أنا من ناحيتي ما كنتش عارفة أعمل إيه، ولا كنت باشتغل ولا عندي فلوس على جنب ولا أهلي عندهم فلوس زيادة علشان يدُّونا وكمان ما اعرفش أشتغل إيه، معنديش حرفة معينة .

الفترة دي طوَّلِت .

لقاءات عبد المنعم القصاص وأبو العينين من وقت لآخر كانت لطيفة، بتخفف عنا، لكن الحالة كانت ضيقة قوي. سعد كان متقبل الوضع دا كجزء من صعوبات موقفنا السياسي .

٣

تاني يوم سعد جه بدري المستشفى ومعاه محمود توفيق .

ـ إزيك يا «ماري » عاملة إيه؟

ـ كويسة .

مُصرَّة لا يمكن اشتكي من الوجع .

وقعدوا الاتنين كل واحد فيهم على كرسي، سعد من ناحية ومحمود من الناحية التانية وانا في السرير بينهم، وابتدوا يتكلموا يتكلموا يتكلموا بمنتهى الجدية كأني مش موجودة، بعد شوية وقَّفوا كلام وقالوا لي :

ـ أصل إمبارح وانت بتولدي، حصل الانفصال، الانفصال مع سوريا .

كنا عايشين مرحلة «من الموسكي لسوق الحميدية » ، أغاني واحتفالات بالوحدة، وبقينا بلد واحد. فترة أمل رغم إن كنا متراقبين ومش لاقيين شغل وأغلب الشيوعيين في المعتقل، لكن كان فيه شيء من الانفراجة في التوقعات. فاليوم دا حصل نوع من الـ «standby» ـ ترقب ـ قلق، الحكاية مش ماشية زي ما كنا متصورين إلى الأحسن أو إلى شيء من الاستقرار. سعد ومحمود فضلوا يتكلموا ويتناقشوا من خلالي لغاية الساعة واحدة الضهر، كنت شوية أتوجع، شوية أتعب وانعس منهم، وشوية أفوق فيسألوني :

ـ عايزة حاجة يا «ماري » ؟

ـ لا، كويسة، مفيش حاجة .

ويرجعوا يتكلموا .

سعد اتعرَّف على ثروت عكاشة وزير الثقافة وهو في السجن .

القصة دي ابتدت لما نقلوا الشيوعيين الرجالة لسجن الواحات، سجن الواحات سجن صعب بعيد في صحراء الواحات في منطقة اسمها المحاريق، محكي عنه في مذكرات عدد من المسجونين. واضح إن صعوبة سجن المحاريق ولِّدت أجمل ذكريات الزمالة، لكنه سجن قاسي وأهالي المسجونين كانوا بيسعوا لإيجاد واسطة طبية تنقل ولادهم لمستشفى في القاهرة، المساجين ياخدوا نَفَسهم والأهل

يزوروهم. زملاء سعد، محمد الجندي وشريف حتاتة اتنقلوا المستشفى في القاهرة وانتهزوا فرصة وهربوا، شريف حتاتة حكى القصة دي بالتفصيل في مذكراته. أخو عم أنور جوز طنط عزيزة كان دكتور وحاول يتوسط، وسعد مراد من ناحيته سعى عند قرايبه في الشرقية، وعرفوا يجيبوا سعد من الواحات ويدخلوه مستشفى الدمرداش للعلاج في قسم أمراض نفسية، ودي ميزة لأن التفتيش الطبي على الأمراض النفسية صعب يحدد إن كان العيان خف ولّا لسه، وممكن بسهولة يمدُّوا له يقعد فترة أطول .

دكتور شاب لسه راجع من لندن كان بيمر على العيانين، د. أحمد عكاشة، عدَّى على مريض مقبوض عليه وحاطين حراسة على باب أوضته ـ سعد. فترة الشباب مليانة رغبة في المعرفة واستكشاف الأمور وعكاشة حس بفضول وأصبح ييجي لسعد بانتظام ويزوره علشان يتناقش ويتكلم معاه. أقدر أقول إن أحمد عكاشة وسعد حبوا بعض. يبدو إن أحمد حكى لأخوه ـ ثروت ـ عن سعد، ثروت عكاشة كان وزير الثقافة في الوقت دا، وجه يزور سعد في المستشفى. غالبًا ـ في اعتقادي الشخصي ـ إنه لازم استأذن من جمال عبد الناصر قبل ما يزور «مسجون سياسي من الشيوعيين في مستشفى الدمرداش وخاله يبقى الوزير فتحي رضوان». ثروت جه لسعد في المستشفى، اتكلموا واتفقوا إن سعد يكتب أفكاره واقتراحاته لإنعاش وزارة الثقافة ويبعت التقرير عن طريق أحمد اخوه .

بعد السجن العلاقة استمرت مع أحمد عكاشة واتعرفنا على «جنيفر» مراته، ثروت عكاشة استمر يستشير سعد، وسعد كان حاضر الذهن في موضوع الثقافة ويمكن كان اكتسب شيء من الخبرة السياسية، اقتراحاته كانت متعقلة فيها خليط من الأفكار الجديدة وإدراك للأوضاع، يعني اشتغل مستشار للوزير، غير رسمي وغير معترف به وغير مدفوع الأجر. فترة وحشة وبعد مدة طويلة من غير شغل والتعيين الوحيد اللي كان جه في «الأخبار» بحوالي عشرين جنيه وما كانوش كفاية. ثروت عكاشة كل شوية يجيب لسعد شغلانة، جابه كسكرتير فني مساعد له بشكل مؤقت ما قدرش يعيِّنه أو يثبِّته، لكن في الشغلانة القصيرة دي سعد قابل نجيب محفوظ ودي حاجة أسعدته. بعدها ثروت جاب سعد نائب رئيس تحرير لمجلة اسمها «نهضة أفريقيا» بتطلع من وزارة الثقافة، يحل محل مديرها ـ عبد العزيز إسحق ـ مؤقتًا لأنه كان طالع رحلة طويلة. عبد العزيز إسحق كان زي مندوب الحكومة في أفريقيا، لدرجة لما حصل الانقلاب ضد نكروما في غانا، بعتوه يساعد على تهريب فتحية مرات نكروما وولاده ـ سامية وجمال ـ لمصر، بس لما سمع إن ثروت عكاشة حط سعد كامل مكانه في «نهضة أفريقيا» عبد العزيز إسحق جالنا على طول البيت علشان يقول لسعد :

ـ بص، إنت تخلِّي المجلة بين الحياة والموت، ما تعملش حركات كتير وتنعشها وتبقى مجلة مشهورة لاحسن الوزارة أو جهة حكومية تانية تطمع فيها وتاخدها، في نفس الوقت ما تخليهاش تموت ومقالاتها مملة زيادة، لأن في الحالة دي ممكن يقفلوها .

سعد ما سمعش الكلام، أفريقيا أيامها كانت مليانة حياة وأحداث، راح مغيَّر الغلاف وعمل تجديدات في الأبواب، وسعد لما بينشط ويتحمس بيبقى شاطر ويعرف يشرك الناس في الشغل والناس ينبسطوا ويتعاونوا . لقى حسين عبد الرازق بيشتغل في المجلة هو ومراته فريدة النقاش، صغيرين ورفيعين ونشطين، ما كانوش لسه أصبحوا من قيادات اليسار. سعد كان بيمدح في وحيد النقاش أخو

فريدة وقال عليه أشطر صحفي في المجلة بس للأسف وحيد اتوفى صغير . الشباب دا بقى ييجي يجتمع هنا في البيت مع سعد ويشتغلوا جامد. اتحمسوا للشغل لدرجة إن عبد العزيز إسحق أول ما رجع مصر دخل في خناقة مباشرة مع سعد وطرده بره المجلة .

بعد «نهضة أفريقيا» ثروت عكاشة عيِّن سعد مسؤول عن الجريدة السينمائية، شريط أخبار بيتعرض في السينمات قبل الفيلم. جاب سعد لأن الجريدة كانت مملة، كلها لقطات مسؤولين بيسلموا على بعض بالإيد ويقصوا شرايط، كان عايز يحسن النوعية، وسعد كان عنده رؤية وأفكار واشتغل على طول وابتدى يدِّي أوامر للمجموعة اللي بتصور، يهتموا بإيه، يروحوا فين ويجيبوا خبر إيه ومنين علشان يكون فيه حركة ومضمون، التغييرات اشتغلت ونجحت على طول. سعد نفِّذ عدد أو اتنين من الجريدة وراح لقى المسؤول القديم - واحد مشهور نسيت اسمه - رمى مكتب سعد على بسطة السلم وقفل المقر بالمفتاح، ومنع فريق التصوير من الاتصال به، رماه في الشارع، ببساطة كدا، وثروت عكاشة ما قدرش يعمل حاجة، ما نفعش يتدخل، مش عارفة ليه .

من ناحيتي حاولت أشتغل في محل أدوات رياضية اسمه «بيت الرياضة» في شارع شريف باشا جنب عمارة اللواء، صاحبه واحد اسمه مرزوق، صديق سعد. رحت على أساس أقف أبيع من الساعة عشرة للساعة اتنين بعد الضهر واكسب شوية فلوس تساعدنا. البيع والبضاعة كانوا تحت على الشارع مباشرة، وفيه «mezzanine» - دور صناعي - فيه مكتب للمدير واتنين موظفين للأرشيف والحسابات ييجوا الساعة تمانية الصبح، أنا كنت باوصل الساعة عشرة واعرف مرزوق صاحب المحل شخصيًّا، بيكلمني ويدردش معايا، الموظفين دخلوا في خناقات معايا على حاجات مش مفهومة، ما استحملونيش، حسيت إن لازم أسيب. معارف سعد من أيام فتحي رضوان و«الحزب الوطني» كانوا سعداء إن سعد خرج من السجن ورجع للمجتمع، اتصلوا به وصاحبوه تاني على طول وحاولوا يساعدوه. واحد من الأصحاب راجل لطيف، عنده شركة استيراد وتصدير، أصلًا ظابط، عرض عليَّ شغل، اشتغلت شوية معاه لوحدي، بس لما الشغل ابتدى يزيد جاب موظفين صغيرين وشطار، اتضايقوا من الطريقة المريحة اللي أنا باشتغل بيها وبَرضُه اضطريت أسيب الشغل. يظهر بتحصل حالة غيرة ونفور عند الموظفين لأن عندي لغات واعرف المدير واعرف معارف المدير يقدمني لهم واقعد معاهم، ما اقعدش مع الموظفين، بيحسوا لو ما تخلصوش مني حابقى الريِّسة، وانا ما كانش عندي الطاقة إن أفرض نفسي كريِّسة .

في مسابقة للأفلام التسجيلية توفيق صالح اشترك بفيلم «مليم الأكبر»، سعد شاف الفيلم انبسط منه ورشحه للجايزة الأولى لثروت عكاشة، ورشحه لإخراج ثلاثية نجيب محفوظ. سعد ما كانش يعرف توفيق صالح لكن بيرشح بثقة وثروت بيثق فيه وبياخد بترشيحه وترشيحاته تحقق نجاح، مثلًا سعد اللي اقترح مصطفى درويش كرقيب على المصنفات وعلي الراعي في المسرح وأبو العينين في الفرقة القومية وراجي عنايت لمسرح العرايس وحسن فؤاد في الأفلام التسجيلية ومحمود توفيق في الإنتاج السينمائي. كان يعرف الفنانين والمثقفين ويفهم إمكانياتهم، لاممهم حواليه، كان عنده الموهبة دي، موهبة فهم إمكانيات المثقفين ودورهم في المجتمع، وما كانش بيفكر في أي حاجة تانية من أيام السجن. ييجوا له البيت هنا أو ياخدهم يقضوا كام يوم في الفيوم في عزبة جِدُّو كامل، حسن فؤاد رسم عم عبد الله وشخصية محمود المليجي في فيلم الأرض قصة عبد الرحمن الشرقاوي مستوحاة

منه، وأبو العينين رسم كذا منظر للعزبة والفلاحين منهم لوحة جميلة متعلقة في بيت ليلى بنت بهاء، وحسن فؤاد كذلك. صلاح جاهين سأل الفلاحين «إزاي القطر ما بيقفش في سيلا مع إن فيها محطة؟» وكتب في «صباح الخير» وإدارة الفيوم استجابت لمقالته، ومن ساعتها ابتدا القطر يقف في سيلا. رحنا أنا وسعد نجرب القطر ونزور نانا وجدو في العزبة، بدل ما ننزل في محطة الفيوم وناخد تاكسي يوصلنا للبيت في حوالي نص ساعة أو ساعة، نفضل في القطر وننزل في سيلا، لكن المسافة قصيرة ومفيش تاكسي، أمَّال حنوصل العزبة ازاي؟ قالوا لي نانا بتركب الحمار، يجيبوا لها كرسي من عند ناظر المحطة، تطلع على الكرسي وبمساعدة خليل وجدو تركب على الحمار وجِدُّو يركب الحمار التاني وتك تك تك يوصلوا العزبة عن طريق نقطة الشرطة وخليل ناظر الأرض ياخدها على رجليه وراهم. نانا والعائلة متعودين من صغرهم بما فيهم سعد، فالتوازن على الحمار بيجي طبيعي. فعلًا القطر وقف في سيلا ونزلنا لقينا خليل مستنينا بالحمير، أنا عمري ما ركبت حمار، صحيح أمي جاية من ريف إيطاليا لكن أنا اتولدت في القاهرة، ما شفتش حيوانات كتير وما اتعاملتش معاهم في طفولتي، فمش متعودة، وكنت خايفة اركب، خليل طمنِّي :

- ما تخافيش أنا حامسكك كدا وتطلعي على الكرسي .

طلعت وقعدت وخليل سحب الحمار وهو بيكلِّم نفسه :

- نمشي بشويش بشويش علشان الست الصغيرة (اللي هي أنا) ما تقعش .

دمه خفيف ضحكني وابتديت اتعرف على شخصيته. وصلنا قدام بيت العزبة ودخلنا من البوابة لقينا نانا وجدو طلعوا على الفراندا يستقبلونا، رحت أنا اتحمست ورفعت إيدي أحييهم فوقعت من على الحمار والقصة دي اتحكت مليون مرة ولكل الناس، ««ماري» وقعت من على الحمار قدام باب البيت ».

نرجع لسعد والثقافة، سعد اقترح إن وزارة الثقافة تنظم رحلة للنوبة للمثقفين والكتاب والفنانين، ياخدوا مركب على النيل ويروحوا يزوروا القرى اللي حتغرق، اللي يصور واللي يكتب ويوصف واللي يرسم. فكرة مأخوذة من مشروع «La description de l’Egypte» - «وصف مصر»، فكرة معاصرة، نوصف حاجة حتنقرض، القرى دي حتختفي. عدد كبير من الفنانين والمثقفين تحمسوا للفكرة وسجلوا اسمهم علشان يطلعوا، حسن فؤاد وأبو العينين وعبد المنعم القصاص واظن كان فيه كمان بيكار وجاذبية سري وعدد، ما أقولكيش، من المثقفين المصريين وسعد كان متولي المشروع. ما اعرفش لو الرحلة جابت نتيجة فورية، يعني مش عارفة إذا فيه أرشيف أو كتب أو صور أو مراجع، لكن كفاية إن المجموعة دي أتيح لها تشهد وتشوف، أكيد دا تغلغل في وعينا من خلالهم. بعد كام سنة ثروت عكاشة كوِّن الفرقة القومية للفنون الشعبية، أول مدير للفرقة كان راجي عنايت وكان قبلها مدير لمسرح العرايس، وأبو العينين مصمم وخبير لملابس الفرقة، وجابوا خبير روسي اسمه «رامازان» يشرف على معهد الرقص الشعبي لأن الاتحاد السوفيتي كان عندهم فرق كتيرة للفنون الشعبية على درجة عالية من الإتقان والجمال. خدوا «رامازان» ودُّوه النوبة علشان يشوف الرقص هناك ويصمم من التكوينات دي رقصة نوبية للفرقة. سعد حكى لي إن «رامازان» بعد ما اتفرج شوية قال : «Et cetra et cetra» - إلخ إلخ - نفس الخطوة بتتكرر إلى ما لا نهاية،

وقال إن كل ما عليه إنه يصمم دخول وخروج الفرقة من المسرح. الفرقة تدخل المسرح ورا بعض بالخطوة النوبية والرقاصين يعملوا صفين بعمق المسرح، راح أبو العينين عمل لهم كمام لونها أخضر واسعة زي كلوش، متبطنة دهبي من جوه، فلما يرفعوا دراعاتهم لفوق الكمام الخضرا تتقلب أصفر. الحركة البسيطة دي أدت إن لون اللوحة على المسرح اتغير، وكانت مفاجأة بصرية بهرت الناس وصقفوا لها، واتكتب في الجرايد إن أول مرة الجمهور يصقف للملابس وللـ «costumiste» ـ مصمم الملابس ـ واتشهرت الرقصة دي واشتهر أبو العينين والملابس بتاعته. بعد كدا لسنين طويلة بعد ثروت عكاشة ممثلات يروحوا له علشان يصمم لهم ملابس للمسرح آخرهم سيمون المغنية .

كان فيه واحدة اسمها ابتهال ماسكة الرقابة على السينما، كانوا بينتقدوها لإنها مش متابعة اللي بيحصل في الدنيا ولا اللي بيحصل في مصر، وإنها بتمنع أفلام كتيرة احتياطي، سعد اقترح مصطفى درويش وفعلًا اتشالت الست دي وجه مصطفى مدير عام الرقابة. مش عارفة إزاي كان مشهور ساعتها بإنه بيحب السينما وخبير فيها بالرغم من إنه مستشار في القضاء. أنا قابلته لما اتعين مدير للرقابة في احتفال بمناسبة توليه المسؤولية الجديدة عند كامل مرسي. كامل مرسي كان جايب المزّات العادية بتاعته، بقسماط طويل بالسمسم، جبنة بيضا، زتون إسود وخيار، وطبعًا شُرب، وفي الفترة دي الشّرب كان للفرفشة في قعدات المثقفين، ما كانش لسه للسكر والاكتئاب. جت قعدتي بين وحيد النقاش اللي سعد كان حبه أيام مجلة «نهضة أفريقيا» وجنب مصطفى درويش فسألته عن شغله كنوع من المجاملة، لما فهمت إن الرقابة شغلتها تمنع أفلام وتوافق على أفلام، اهتميت وابتدينا مناقشة عن «إيه الحاجات اللي الرقيب يمنعها: حاجات سياسية؟ حاجات جنسية؟ حاجات دينية؟».
في السينما العالمية كان فيه بداية انفتاح سياسي جنسي ديني، ولكن لسه ما كانش فيه مشاهد جنس زي دلوقت، ساعتها المناقشة كانت على بوسة بريئة وحب شبه أفلاطوني، يعني «جريتا جاربو» أو «إنجريد برجمان » في أوضاع تدّيك الإحساس إن بعد كدا حيحصل حاجة، لكن ما نشوفش على الشاشة، وكان فيه قبلة لـ«إنجريد برجمان» و«جريجوري بيك» اللقطة من بداية وضع الشفايف على الشفايف للقطع طالت أكتر من كذا ثانية على الشاشة، يوووه البوسة دي عملت مشكلة في العالم كله، بيتناقشوا «هل دي جرأة ولّا قلة أدب» على أساس إن لازم الواحد يكون مؤدب. فسألت مصطفى درويش :

ـ إزاي بتتم عملية الرقابة؟

ـ أنا وبعض مستشارين بنتجمع ونتفرج على الفيلم، خصوصًا الأفلام اللي بتيجي من بره، لأن كل حاجة جاية من بره مشكوك فيها، المستشارين يقولوا رأيهم، نتناقش وبعدين، لو فيه خلاف، المدير ـ اللي هو أنا في الحالة دي ـ يقول أيوه أو لأ .

ـ إنت لوحدك؟

ـ أنا لوحدي .

قعدت افكر وبعد شوية قلت له :

ـ بس دا منصب خطير، إن انت لوحدك تقرر حاجة زي دي .

مصطفى بص لي كدا مدة طويلة في عيني وبعدين قال :

ـ أيوه فعلًا دي مسؤولية خطيرة .

وانا افتكرت إن انتهى الحديث ساعتها على كدا، بس مصطفى ما نسيش، إنت عارفة مصطفى عنده طريقة خصوصي في الكلام كلها تهكُّم وسخرية، ولسنين طويلة بعد ما ساب الرقابة وطلع على المعاش كمان واحنا قاعدين مع رشدي أبو الحسن يفتكر الحكاية ويحكي إن أنا قلت له «دا منصب خطير» ويضحك. وبَرضُه مرة وانا باتكلم ارتكبت غلطة وقلت: «فيلم كشر بمبة» بدل «بمبة كشر»، ما تتصوريش، كل ما يشوفني يشاور عليَّ ويقول: «كشر بمبة» ويضحك. نرجع لمنصب الرقيب، مصطفى درويش شخصيته ما يخافش يستفز الناس، لو أدرك معنى أو مقتنع بفكرة معندوش مانع يقولها حتى لو عارف إن حتزعج ناس، ما يهموش يكسب أعداء أو ناس يكرهوه، بتاع معارك. لما عرفته ما كنتش اعرف إنه من الشيوعيين الموجودين على الساحة، عرفت بعد كدا إنه مش بس شيوعي ولكن كمان إن لما كان أصغر كان عضو «م.ش.م»، منظمة «م.ش.م» فيها طبع التحدي دا، فأول فيلم صرَّح بيه كان فيلم اسمه «Blow Up» ـ «تكبير» ـ فيلم ظريف معمول بطريقة جديدة في الإخراج وفي السيناريو وفي المضمون وفي كل حاجة، بس مش دا اللي عمل هيصة في مصر، اللي عمل الهيصة هو إن البطلة «فانيسا ريدجريف» بتقلع البلوزة وصدرها بيان في لقطة، مسألة إن نشوف المنظر دا على الشاشة عمل نجاح بلا حدود، اتعرض الفيلم في سينما «مترو»، وبعد أيام من بداية عرضه شارع سليمان باشا كان مليان طوابير طويلة لعمق شارع عدلي، أيوه، الطابور يلف حوالين «اكسلسيور» ويكمل جوه شارع عدلي. إحنا دخلنا بدعاوي، سعد كان بييجي له تذاكر من وزارة الثقافة لأنه في المجلس الاستشاري للوزير، وكل دا كان قطاع عام، ما كانش فيه قطاع خاص. في نفس الوقت كان فيه مجموعات في المجتمع المصري مختلفين مع أي تغيير على طول الخط، أي تقدم، أي مسايرة أو فهم لإيه اللي بيحصل خارج مصر أو جوه مصر. مش عارفة انتهت إزاي حكاية مصطفى درويش في الرقابة، طردوه ولَّا إيه؟ بس كانت فترة رقابة فريدة في تاريخ المثقفين في مصر، واختيار مصطفى درويش للرقابة كان ترشيح سعد .

أنا اللي اعرفه إن دا مش مظبوط، يعني مش مظبوط إن ترشيحاته تكون بالأهمية دي وما يكونش عنده شغل علني أو معترف به في مجال الثقافة، بس هو دا اللي كان متاح. الوضع دا استمر من سنة 1959 لما خرج من السجن لغاية ما جت فترة الثقافة الجماهيرية سنة 1966 .

في الستينات كان فيه صراع بين خطين ثقافيين، خط ثروت عكاشة وخط عبد القادر حاتم. في مناقشاتنا كنا بنقول إن خط عبد القادر حاتم مش مهتم بالارتقاء بالمستوى الثقافي العام لجماهير الشعب المصري، عبد القادر حاتم عاوز يجذب الجماهير وخلاص، مش مهم نوعية الأفلام والمسرحيات وكل ما يخص الثقافة، مش مهم إن تكون حاجة راقية أو جديدة، المهم تعجب الجماهير وتجذبهم وتعمل شباك، شباك السينما والمسرح بالذات. طبعًا دا خلاف سياسي في الأصل وفي تصورنا لدور وزارة الثقافة، لأن من وجهة نظرنا الشخص اللي بيتاح له تنوع ثقافي واسع مع الوقت قدرته على الاختيار تزيد وذوقه يتشكل بشكل حر، ثروت كان بيمثِّل التيار دا، وعبد القادر

حاتم التيار المهتم بالشباك وتسلية الجماهير وتكرار اللي الجماهير واخدة عليه فقط. أظن حصل كمان نوع من الـ «rivalité» ـ المنافسة الشخصية ـ بين ثروت وحاتم، واتناوبوا على وزارة الثقافة عدد من المرات فترة عبد الناصر .

في وسط الحكايات دي ابتدت الناس اللي حوالينا تلاحظ إن أنا مش حامل، وأكترهم إلحاحًا كان محمود توفيق وسهير، كنا أصحابهم وبنخرج مع بعض بشكل عائلي بالإضافة للعلاقة السياسية التنظيمية بين سعد ومحمود .

من 1959، حوالي سنتين مش حامل، بس انا ما كنتش باخد بالي وما كنتش عاملة حساب سني ولا إن سعد ممكن يكون عنده عقبات في الإنجاب ويمكن عايزين علاج، كنت فاكرة إننا عايزين وقت، لكن لما جه السؤال من عدة نواحي، بالذات من ناحية عيلة سعد نفسه، رحت اكشف. لما خرجت من السجن كان عندي شوية متاعب صحية استلزمت إن اشوف كذا طبيب، أمينة شفيق ودِّتنى عند ضياء سيف الدين نسا وولادة، وكان عندي حموضة مستمرة في معدتي فودُّوني لميشيل صليب وادَّانى شوية أدوية. في الفترة دي أمينة رضوان خالة سعد أم ميمي وحمادة وإبراهيم وقاسم وفتحي وفضيلة مسك فيها سرطان الثدي، كان مرض جديد علينا. جوزها مصطفى مراد خدها على طول وراحوا لندن وعملت عملية جراحية ورجعت، لكن ما استردتش قوتها ولا حيويتها، من ضمن ما كانت بتشكي شكت من معدتها فأخدتها معايا عند ميشيل صليب. دخلنا عنده وعلى طول طنط أمينة حكت له :

ـ أنا عملت عملية بتر ثدي علشان السرطان ولكن باحس إني تعبانة .

وقعدت تتكلم مدة طويلة وكأن مش ضروري الدكتور يكشف عليها ويعالجها وكأنه محظوط علشان يسمع شكواها، الدكتور كان ظريف بشكل مش معقول، سابها تتكلم، مش زي بعض الدكاترة، واستمع بمنتهى الاهتمام، وكل شوية يسأل سؤال، ولكن يظهر ما كانش فيه فايدة وإن المسألة كانت إنه يشجعها، بس هو كان ممتاز، كشف عليها وادَّاها شوية أدوية وكل الكلام كان تشجيع وفعلًا طنط أمينة ما خافتش، اتفاهموا مع بعض. قعدنا عند د. ميشيل صليب مدة طويلة ولما خرجنا لقينا العيادة مليانة والناس بتبص لنا بضيق. طنط أمينة اتوفت ود. ميشيل صليب هاجر وانا الحموضة بتاعتي راحت لكن إنسانيته وهو بيسمع وبيتفهم وشجاعتها وهي بتواجه أثرت فيَّ .

المهم اللي شجعني إن عندي دكاترة باثق فيهم فرُحت لـ د. ضياء سيف علشان شوية التهابات فسألته :

ـ بيقولوا مش باخلِّف .

ـ معلش حياخد شوية وقت، إنتِ حتخلفي حتخلفي المهم إنك ما تخافيش، مفيش حاجة عندك وكله طبيعي .

وادّاني شوية توجيهات .

بس حتى عيلته أصرُّوا إن سعد يعمل اختبار هو كمان، وما كانش عنده مانع، الحقيقة كان مستسلم، إحنا الاتنين كنا مستسلمين، مش عايزين عيال بشكل خاص ومش قلقانين ولكن بنقول «طيب، يمكن الناس عندهم خبرة أكتر مننا». راح سعد عند دكتور بتاع «andrology» ـ علم الذكورة ـ خلّاه يعمل اختبارات وطلع كله مظبوط. وفعلًا عقبال ما عملنا الفحوصات دي كنت حبلت. كانت أول مرة. أيوه حبلت بيكِ إنتِ طبعًا أُمَّال يعني بمين؟ بس أول مرة حصل إجهاض طبيعي، بعد شهر أو شهرين، د. ضياء سيف الدين ودّاني المستشفى وعمل اللازم في يوم واحد وقال لي :

ـ ما تخافيش بيحصل كتير الجسم يطرد أول حمل زي حاجة غريبة عليه، تاني مرة حتكون أحسن .

ما فاتش وقت طويل وحبلت بيكِ تاني. د. ضياء سيف الدين كان متعاطف معايا بشكل! يمكن التعاطف مش الكلمة المظبوطة، أقصد كان بيكلمني زي واحدة صاحبته ويشجعني علشان أنا أول مرة رحت له حكيت له إن أنا خارجة من خمس سنين سجن وعندي كذا وكذا وكذا فكان بيبص لي كدا، خمس سنين كان كتير في نظره، وفي نظري أنا كمان .

وانا حامل على آخري والدنيا حر ظهر يوسف إدريس، مراته حامل زيي وهو بيحب يصطاد سمك :

ـ إيه رأيكم نروح العين السخنة من الصبح بدري نقضي اليوم على البحر وقبل المغرب بشوية نروَّح، عندي شمسية وكراسي .

رحنا بعربيته الفولكس، المسافة ساعتين من القاهرة للسويس، يوسف جاب صنارة طويلة بمكنة وكل أدوات الصيد الحديثة. ابنهم كان عنده 3-4 سنين، رفيع زي عود الكبريت، فكّرني بنبيل حفيدي، حاجة كلها عضم مفيش لحمة تقريبًا، الولد أول ما شاف البحر اتجنن عايز يرمي نفسه في المَية، أمه حامل وصاحبة أمه ـ أنا ـ حامل، قاعدين على الكراسي، حيعوز يقعد جنبنا ليه؟ رجاء مش قادرة تلحَّق عليه وانا تقيلة زيها ما اقدرش أجري وراه، يوسف بينصب الشمسية وبيفتح الكراسي، يسيب الشمسية ويجري يشد الولد من الميه ويجيبه لأمه .

ـ اقعد هنا ما تتحركش .

وطبعًا مفيش فايدة، الولد كان بيفلت، وسعد ما يعرفش يساعد، يقف كدا، ولا ينصب الشمسية ولا يلحق الولد، طلع مش شاطر في الحاجات العملية. المكان جميل: الشاطئ والميه وسلسلة الجبال الحمرا، مفيش حد، سكوت تام، لولا يا عيني الولد الصغير اللي شاف البحر واتجنن. ابتدى الحر يشتد علينا، الشمس دقَّت على راسنا. معانا حاجات ساقعة وميه وتلج، أصل كان لازم نجيب كل شيء للعين السخنة دي، ما كانش فيها حاجة خالص، ولا حتى الكازينو اللي بيقولوا موجود دلوقت، ولا كابينهات طبعًا، منطقة بشوكها كدا. الرجالة كانوا بيتصرفوا بسهولة، لكن إحنا، سلسلة الجبال كانت بعيدة شوية، مش قريبة من الشاطئ، وعلشان تروحي وتستخبي وحامل، مشية محترمة، محتاجة شمسية صغيرة. ابن يوسف ما رضيش يسكت وكان طول الوقت في خطر، يخش البحر

ويقع ويعيط ويوسف يجيبه لأمه وشوية بشوية لما خلصنا الميه قررنا مع بعض بدون تردد إن مش حنستنى غروب الشمس وراء الجبال .

ـ يلَّا نقوم .

ويوسف يا عيني ما عرفش يصطاد بالمرة، لم أجهزة الصيد ودخلها في العربية. مشينا والولد نام في العربية، كلنا تعبانين .

ـ أخويا هنا جنبنا في السويس نروح عنده نغسل وشِّنا ونشرب شاي .

قبل مدينة السويس فيه شركة تكرير بترول أخو يوسف بيشتغل فيها، دخلنا عليهم هو ومراته مفرهدين خالص كأن حد بيجري ورانا وهربانين. غسلنا وشنا ودخلنا الحمَّام، تقريبًا استحمينا عندهم، ولما طلعنا عملوا لنا شاي أخدنا نفسنا وحالتنا اتحسنت. كنا حرَّانين على البحر بس مش واخدين بالنا إن كنا حناخد ضربة شمس. أخو يوسف قعد معانا ودخل في حديث عن الشغل في شركة البترول، وانا شوية اتكلم مع مراته ورجاء، وشوية أنجذب لكلام الرجالة. يوسف كان لسه عنده طاقة مهتم يسأل في التفاصيل، كأن صحته أحسن مننا. قعدت أفكر إن الحمل تعبنا أنا ورجاء بس يوسف من سنِّ سعد، أواخر التلاتينات، دا غير إن يوسف اللي بيسوق وحيسوق في الراجع كمان، وبيجري ورا الولد طول النهار وهو اللي قام بكل شيء، استغربت إزاي يوسف فضل مصحصح كدا، سعد كان متابع الحديث بَرضُه لكن من غير طاقة. يوسف مضى ساعتين يسأل ويسأل تاني ويخلي أخوه يتكلم، وبعدين ابنه صحي وكان هادي شوية بعيد عن البحر، واتقالت الجملة التقليدية :

ـ لازم نمشي علشان سعد و«ماري» عندهم مراقبة .

سلمنا عليهم وروَّحنا، كل دا والشمس لسه طالعة .

فاكراها الرحلة دي عن يوسف إدريس علشان عجِبني، لاحظت إنه بيهتم بكل حاجة حواليه، وكل حاجة يعملها بنفسه، أعتقد الجانب دا في يوسف فكَّرني بأبويا، كنت أعرف يوسف من قبل كدا في إطار مجلة «الكاتب» قبل السجن لما اتعرفت على سعد وعبد الرحمن الشرقاوي وزهدي بتاع الكاريكاتير وطبعًا حسن فؤاد وأبو العينين وكمال عبد الحليم، لكن في رحلة السخنة أول مرة أشوفه في إطار عائلي شخصي، حبيته وابتديت أتابعه باهتمام كأديب. لما دخلنا السجن سبناه بيدرس طب وحيموت يكتب قصص، على بال ما طلعنا من السجن كان ساب الطب أظن من غير ما يتخرج وتخصص في الكتابة الأدبية، زي شريف حتاتة وصلاح حافظ، سابوا الطب وبقوا كُتَّاب. في رحلة السخنة، يوسف كان نشر مجموعة «جمهورية فرحات» من ضمنها القصة اللي اتعمل منها فيلم «لا وقت للحب» وصلاح جاهين اشترك في الفيلم، مشهد رشدي أباظة بطل مقاومة داخل على السويس وفاتن حمامة حبيبته بتغني مع الناس أغنية الأطفال «يا وابور يا مولع طش الفحم» بصوت عالي علشان يحذروه من كمين للقبض عليه. وكان بيكتب في «الأهرام» صفحة بحالها، ومقالاته كانت مؤثرة، مثلًا حصلت حادثة في السيرك، واحد من الأسود أكل المدرب بتاعه، «إزاي دا يحصل بعد

سنين علاقة بين المدرب والأسد بيعملوا سوا عروض قدام الجمهور، إزاي اتقلب فجأة على المدرب وخد راسه». التفسير اللي كان ماشي في الجرايد كان «إنهم ما كانوش بيأكلوا الأسد كفاية، وكان جعان، ويظهر إن فيه فساد في السيرك والناس بتسرق اللحوم المخصصة لوحوش السيرك»، يوسف إدريس كتب صفحة بحالها في «الأهرام» بعنوان «أنا سلطان قانون الوجود» وقعد يتفلسف ويتقمص شخصية الأسد قبل ما يهجم على المدرب، وكان بيحس بإيه تجاه مدربه طول السنين وهو بيسمع كلامه وازاي هجم لما حس بضعف عند المدرب، المقالة عملت هيصة وسط المثقفين علشان فيها نظرة غير عادية، علم نفس وفلسفة وسياسة، كان ابتدا يتشهر قوي .

فاتوا تسع أشهر الحمل تحت إشراف دكتور ضياء سيف الدين، بس مع حبي له ما رحتش أولد عنده، المستشفى بتاعته غالية علينا وبعيدة كمان في مصر الجديدة. مستشفى «بابايانو» اليوناني جنبنا في الدقي كانت تأمين أجانب وأصبحت تبع نقابة الصحفيين في الخمسينات، كان عندنا نوع من التأمين فيها من خلال سعد، فقررنا إن أولد هناك. كان بقالنا تلات سنين تحت المراقبة وما خدناش مخالفة ملتزمين، يُعتبر كان فيه حسن سير وسلوك فنزلوا الميعاد من المغرب للساعة تسعة وبعدين لـ12 بالليل، فضلوا يخففوا فيها لغاية ما اختفت من حياتي. كان عندنا ميعاد مع طنط عزيزة الساعة 9م قدام سينما «أوديون» نتفرج على فيلم. ولا كان فيه معانا عربيات ولا مع طنط عزيزة، وطنط عزيزة كانت تيجي بالأتوبيس وترجع بتاكسي بمعرفتها، كنا بنركب الأتوبيسات ما كانتش حاجة غريبة، دلوقت الناس لا يمكن تركب الأتوبيس إلا لو مضطرة. فُتنا على أمي في أبو العلا نتعشى عندها قبل السينما، وانا عند أمي حسيت ببداية الولادة، تبتدي بإن مَيه تنزل، رحت الحمَّام ولقيت نفسي غرقانة وفهمت إن الولادة ابتدت، قررت ما اقولش حاجة علشان ما ازعجش أمي وما ازعجش طنط عزيزة، كان عندي أفكار من النوع دا، إن لازم آجي على نفسي وما اتعِبش الناس معايا حتى في موقف زي الولادة. قلت لسعد :

ـ إحنا لسه بدري، نروح نتفرج على الفيلم مع طنط عزيزة وبعد كدا نروَّح البيت آخد الشنطة توصلني المستشفى وتسيبني هناك. ما تصحيش حد وما تضايقش حد .

كنت محضَّرة شنطة في البيت جاهزة للَّحظة دي. ورحنا السينما فعلًا ورجعنا البيت نستنى المراقبة، بس على الساعة واحدة بعد نص الليل الشاويش ما كانش لسه جه وقررت لازم ننزل وخلاص ورحنا مستشفى «بابايانو ».

ـ مساء الخير، أنا حاوْلِد .

ـ مين الدكتور بتاعك؟

ـ ما نعرفش .

طلع مفيش حد بيعمل كدا، الناس بتولد في مستشفى بالاتفاق مع دكتور معين، يكون متابع الحمل من قبلها بمدة. دخلوني المستشفى. كان فيه حد ادَّاني كتاب اسمه «الولادة بدون ألم» للدكتور «فالن

هو»، قريته أثناء الحمل وفاكرة إن أنا حاعرف اتحكم في الوجع بالقراية اللي قريتها في الكتاب دا، فقلت لسعد :

ـ إنت تروح تنام وتيجي بكرة الصبح .

و«باي باي يا سعد» «باي باي يا «ماري»»» ومشي. الممرضات سابوني لوحدي في الأوضة ومشيوا هم كمان. هنا بقى ابتدى الألم الخفيف يشتد، باعمل حكاية التنفس دي اللي بيقولوا عليها في الكتاب، مفيش فايدة، مش جايبة نتيجة. وجع على فترات، وزاد كمان، وكمان، لما زاد كمان ضربت الجرس :

ـ أنا تعبانة، أكيد حاوْلِد خلاص .

جابولي الحكيمة المسؤولة كشفت عليَّ :

ـ لا دا لسه بدري، لازم يتفتح بالطلق، استحملي شوية معلش، بس يعني مفيش حد معاكِ؟

ـ لا مفيش حد معايا .

بَرضُه سابتني ومشيت .

الوجع استمر استمر لغاية الصبح تقريبًا، ما قدرتش أنام، كان بيغمى عليَّ بين الطلق والطلق لحد ما الوجع يصحيني تاني. باعمل أنواع التنفس اللي قريت عنها وأقول لنفسي «أنا شجاعة» و«أنا مش حاعمل زي الستات اللي بتصرخ» وفعلًا ما صرختش، بس اتوجعت، كان وجع فعلًا يخلي الواحد يصرخ .

جه الصبح أخيرًا، الدكتور وصل المستشفى على الساعة تسعة أو عشرة، شوية أسئلة «إنتِ مين، اسمك إيه، جوزك اسمه إيه؟» «بعد نصف ساعة دخلوها أوضة العمليات» يعني لسه على الساعة حداشر. دخلت أوضة الولادة وبَرضُه ما كانتش سهلة وانتِ اتولدتِ على اتناشر ونص .

كنتِ بنت ونادية، ما كانش اخترعوا الكشف التلفزيوني علشان يعرفوا البنت من الولد، وارتحت أخيرًا .

أول حاجة طلبتها بعد ما انتِ اتولدتِ ورجعت الأوضة، فنجان شاي وسيجارة .

طول فترة الحمل ما كانش لي نِفس للسجاير ولا كنت أطيق ريحتها وبابعد عن اللي بيشربها، لكن أول ما ولدت وجيتِ انتِ في الدنيا طلبت سيجارة وفنجان شاي .

سعد ونانا وأبويا وأمي وصلوا وانا باشرب الشاي، اتصلوا بيهم وقالوا لهم، جم كلهم زعلانين إني ما قلتلهمش من بالليل. في ذهني مش عايزة أزعج حد، مش عايزة اعمل زي ما بيعملوا الستات

يصرخوا لما يولدوا ويتوحَّموا كتير أثناء الحمل، «الولادة حقتها تكون إلى حدٍّ ما طبيعية» وفي دا كنت متأثرة بمجلة «Noi Donne» - «نحن النساء» - الإيطالية، قريت إن كتير من الأبحاث بتتعمل علشان الولادة تكون بدون ألم وبشكل طبيعي، مش عملية عنيفة. العيل لما بيتولد بيبقى شكله غريب وعينيه مقفولة لكن لما أبويا وأمى شافوكِ ما اقدرش أوصف لك الحماس :

- دي جميلة ووشها مدوَّر .

الدكتور رجع لي يسألني :

- هو جوزك اسمه سعد كامل؟

- أيوه .

- بتاع «الحزب الوطني»؟

- أيوه .

- تصوَّري إنه كان زميلي في ثانوي؟ البوليس جه بالليل يسأل عليك ويتأكدوا إن انتِ فعلًا هنا بتولدي! كلمونى في البيت في التلفون .

طلع إن المراقبة عدوا على سعد في البيت، وسعد قال للشاويش دي في المستشفى بتولد .

- يا سلام يا سعد يا كامل! مفيش غير سعد كامل اللي مراته لما تولد ييجي البوليس يسأل عليها .

وقال لى كمان :

- بس باين عليك أجنبية .

- أبدًا أنا مصرية .

- لا معلش، واحدة مصرية مش ممكن تولد من غير ما تصرخ، انتِ ما طلعتيش ولا صرخة واحدة .

سكت، أصل فعلًا ما كنتش طلَّعت ولا صرخة واحدة، وجه في ذهني أستمر معاه بس ما شفتوش تاني الدكتور دا. الممرضات جابوكِ «يا حلوة يا أمُّورة » ، الحكيمة خرمت لك ودنك وحطت لك الفَتلة علشان بعد كدا نلبسك حَلَق وعايزة الحلاوة، وبعد الضهر جت العيلة كلها، فتحي رضوان وأبلة نفيسة وزوار كتير أصحاب وقرايب يسلموا عليَّ ويجيبوا هدايا وشكولاتة .

قعدت تلات أو أربع أيام في المستشفى اتدلَّع على أمي وأقول لها نفسي في الكيكة اللي بتعمليها واطلب أصناف أكل، والضيوف ييجوا ويسلموا عليَّ وبعدين يسيبوني ويقعدوا يتناقشوا في انفصال

سوريا عن مصر. انتهت فترة دلع المستشفى وخدتك معايا ورجعنا البيت. جم كل ولاد العيلة يتفرجوا عليك ويلعبوا معاك ولاد جميلة وجمال إخوات سعد أحمد كان لسه بيبي، محمد وليلى يا دوب سنتين تلاتة، أما لميس فكانت لطيفة سبع سنين بتحب تشيلك وتديك البيبرونة وعايزة تأكلِّك، ومها 10 سنين كانت زي بنتي الكبيرة اتمرنت عليها أمومة. إنتِ اخدت اهتمام أمي وأبويا، صعب أوصف لك قد إيه. جابوا لك أول عروسة وكان اسمها «ريرينا الجميلة»، وفسحوكِ ولما كنا نحتاج سعد وأنا كنا بنودِّيكِ تباتي عندهم واحنا نخرج، كنت بادِّيكِ بيبرونة بالليل وأمي تديكِ بيبرونة وسط الليل لو صحيت أو الصبح. أخويا كان سافر إيطاليا خلاص وانتِ كنت بتنامي في سريره في أوضته، يحطوا لك مخدات من هنا ومن هنا علشان ما تقعيش .

أما الأحداث السياسية في الفترة دي فمش فاكراها كويس بسبب ولادتك، لما اتولدتِ حياتي اتغيرت، ما كنتش واعية قبل كدا إن الطفل يستوعب قوة وطاقة الأم بالطريقة دي. في يوم أبويا وأمي جم يزوروكِ هنا في الدقي، دخلوا علينا لقوني نص نايمة، لأ، الحقيقة إني كنت رحت في النوم، وأنت بتعيطي وانا مستغرقة، زعلوا مني زعل. كنتِ بتعيطي كتير وأمي تحاول تمشي بيك وتطبطب عليكِ علشان تسكتي، وحماتي بَرضُه تحاول تاخدك وتلاعبك، لكن انتِ مش عاوزه تسكتي وأمي بتقول لي: «البنت بتعيط ».

في الآخر خدناك عند الدكتور «لندي» وانتِ مستمرة في العياط، وأول ما شافك، من غير ما يكشف قال :

ـ دي جعانة !

ـ بس أنا بارضعها .

ـ وماله، ما يكفيهاش، عاوزة أكتر .

وفعلًا كنتِ بتعيطي وتفتحي بقك زي العصافير اللي مستنيين من ماما العصفورة توكلهم، ادَّاني أكل إضافي بالبيبرون وظبط لي المواعيد، وكان لازم أروح له كل أسبوع أو أسبوعين علشان يوْزِنك. طالبتِ بحقوقك بحسم، لو اتأخر شوية تجرَّسيني وتجرَّسي البيت كله، كل دا بسبب الجوع ـ أكيد بتهضمي بسرعة ـ الصبح تصحيني بدري أنط من السرير أجري على المطبخ، والبيبرونة لازم تكون معقمة من الجراثيم فلازم نغليها من بالليل ونسيبها تبرد ونغلي اللبن ونسيبه لحد ما يبقى دافي لا سخن ولا ساقع، شغل كتير على الصبح، يا عيني جَوَّعناك. كان عندك تلات أشهر لما خدتك أول مرة للعزبة في الفيوم، هنا في القاهرة الأهل ما كانوش مبسوطين، أهلي مش عايزينك تبعدي عنهم وجميلة بتقول لجدو كامل أبوها :

ـ ما ينفعش نودِّي الولاد العزبة وهما صغيرين كدا، مليانة دبان .

وفعلًا كان فيه دبان وناموس وبراغيت، بالذات مع دخول الصيف، بس أنا حاولت أتغلب على الجوانب دي، رشينا وقفلنا ونشِّينا وغطينا الأكل. كان معانا أبو العينين، اخترع لك سرير من

كرسيين قصاد بعض وناموسية لبني بأستك دايرن داير علشان نقدر نطلعك معانا بره في الفراندة .

وبقينا نروح بيكِ العزبة بانتظام، كنت باحب المعيشة بالطريقة دي، أصل فيه حاجات حلوة في العزبة، لكن في مرة صحيت الصبح لقيت عينيك وارمة ومقفولة ومعمَّصة، كان عندك أقل من سنة والصيف داخل، غسلت لك عينيكِ بمية دافية زي أبويا ما كان بيغسل لنا، نغلي المية ونسيبها تبرد شوية وبحتة قطن نمسح العين بالراحة، وفعلًا عينيك فتَّحت، بس كانت حمرة من جوه، ويا دوب شوية والعماص يرجع وعينيك تقفل تاني، وبتعيطي، موجوعة. رجعنا مصر جري أنا وسعد ورحت على دكتور العيون مباشرة، ما روَّحناش البيت، وانتِ ما تبطليش، عياط عياط عياط عياط، أطبطب عليك والناس متضايقة علشانك، فضلت شايلاك رايحة جاية باحاول أهدِّيك، وأخيرًا جه الدكتور شاف المنظر وهو داخل خلَّى التمرجي يدخلنا أول ناس .

ـ أنا آسفة يا دكتور على الهيصة .

ـ آسفة على إيه؟ البنت بتعيَّط لأن عينيها بتوجعها وعندها رمد .

كشف عليكِ على طول وادَّاني دوا نُقَط ومرهم .

ـ ما تخافيش، تروحي البيت تحطيها على حجرك وتحطي الساعة قدامك، تفتحي لها عينيها بالقطرة وتحطي المرهم، كل عشر دقائق، طول الليل، النهاردا مفيش نوم لك .

وفي يوم واحد فعلًا، أربعة وعشرين ساعة متواصل الحمد لله قضينا على الحكاية دي، أصل الدكتور فهِّمني إن ممكن تحصل مضاعفات وحشة من الرمد .

ولكن ما بطَّلناش نروح العزبة .

دَخَّلنا التلاجة الكهربا «الإيديال» اللي لسه موجودة في الصالة لحد دلوقت. عمِّك عِز كان عنده قضية وسعد اللي مسكها له ـ كمحامي. عِز الدين كان ركب المركب اللي اسمها «دندرة» في رحلة على النيل للقناطر مع هدى مراته، أظن بمناسبة شم النسيم، والمركب دي غرقت، حادثة فظيعة ومشهورة، وعمو عز ومراته كانوا فيها. ناس كتير ماتوا، بيقولوا إن الغاز تسرب من المركب وانتشر على وش المَيَّة، وكتير ناس بتعرف تعوم ماتوا مخنوقين. حصل نوع من الـ «panic» ـ هلع ـ وهدى ماتت، بس أنقذوا عِز، اللي أصبح أرمل وهو شاب صغير. الحادثة دي حصلت وانا في السجن، بصِّينا لقينا أهل هدى رافعين قضية على عز عايزين ياخدوا العفش والشقة، عز الدين كان جاب حاجات لبيت الزوجية وكانوا عايزين ياخدوا منه كل حاجة. سعد كان محامي ومسك قضية أخوه، وتوصَّل إن الأجزاء اللي دفع تمنها ترجع له، فعز الدين دفع لسعد أقساط التلاجة كأتعاب، دي قصة التلاجة اللي عندنا لحد النهاردا وعمرها من عمرك بالظبط .

حبيبي يا حمايا، جِدُّو كامل كان دايمًا سبَّاق في الأجهزة، من أوائل المصريين اللي دخَّلوا التلفون في البيت من الأربعينات وبعدين التلاجة وبعد التلاجة طلعت التلفزيونات فقرر يجيب تلفزيون فورًا.

جِدُّو كان منظم حياته طقوس، ولكن يوم الدفع للتلفزيون قام صلى الفجر وما رجعش ينام زي عادته، لبس وخد الفلوس ونزل علشان يقف في الطابور من بدري ويدفع القسط الأول للقطاع العام في البنك، كانت أيام جمال عبد الناصر وكل حاجة كانت قطاع عام. رجع حكى لنا إن كان فيه ناس نايمين قدام البنك من بالليل على الرصيف علشان ياخدوا دورهم في الطابور ولولا إنه راح من الفجر ما كانش عرف يحجز تلفزيون من أول دفعة. الله يرحمه، كان لسه عنده القدرة إن يقف ساعات مستني دوره لغاية ما رجع لنا البيت منتصر بالوصل في إيده إنه دفع الفلوس. العدد محدود ومصر كلها عايزة تلفزيون. فتحوا باب التسليم والاستلام كان بالدور، وجدُّو بَرضُه اللي راح بنفسه وجاب الكرتونة الكبيرة بتاكسي، كنا مستنيين قدام باب الشقة، وحطُّوه لنا على البوفيه اللي جنب الباب، التلفزيون الأول، كبير ماركة «رافينا»، من بلد اشتراكية، أعتقد المجر، وصَّلوه وولعناه واشتغل واتفرجنا على المحطة المصرية، المحطة الوحيدة المتاحة، واحنا واقفين ماحدش قعد. من ساعتها البيت اتملى ناس بييجوا علشان التلفزيون وأولهم أبويا وأمي. أبويا كان على علاقة طيبة مع جِدُّو كامل علشان لعب الشطرنج، ولما جه التلفزيون اتصاحبوا على ماتشات الكورة، ساعتها كانوا بيذيعوا كورة كتير. أبويا زملكاوي بيحب «ألدو» الخواجة اللي لعب جون في فريق الزمالك وكان الزمالك اسمه «المختلط» علشان فيه خواجات كتير. عايزة أقول الحمد لله لأن إنتِ كنت بتعيَّطي أقل لما التلفزيون دخل حياتنا، الدكتور «لندي» كان دخَّل صفار البيضة «à la coque» ، نانا بتسميها «بيض برشت»، ولما وصلتِ لأربع أشهر أدخل تينة برشومي مقشرة مهروسة مع «بسكوتة ماري» أعملهم عجينة واحطَّها لك في بقك تشبعك وتهديك وهم يعرفوا يتفرجوا على التلفزيون. الحقيقة أمي ما كانتش مهتمة خالص بالكورة بس عندها استعداد تيجي علشان عايزة تشرف عليكِ وتباشرك، بالذات بعد تشخيص الدكتور «لندي» إني باسيبك جعانة، وبانام واسيبك تعيَّطي، ما كانتش مطَّمنة لي. سعد كمان ما كانش مهتم بالكورة بس بيحب اللمة، يتفرج من بعيد ويقول «جون» ويبتسم، ولو مفيش جون يسرح. بيتنا أصبح ملتقى ولما يكون فيه ماتش البيت يِتْملي، أصحاب سعد يستأذنوا ييجوا يتفرجوا، محمود توفيق بالذات ما كانش يقدر يفوِّت ماتش وانضم للمجموعة واتصاحب على جِدُّو وأبويا، ومصطفى بيه مراد أبو حمادة وميمي ييجي وكنا نرص كل كراسي البيت صفوف زي المسرح والكل يتابع الماتش. كنبة وأربع كراسي من مكتب فتحي رضوان اللي كانوا في الشقة بتاعتنا قبل ما يتقبض علينا، جابوا العفش دا هنا في البيت قدام التلفزيون. نانا لطيفة وحلوة وشاطرة تحب الناس، اللمَّة في بيتها بتسعدها، تقدم بسكويت وكيكة وشاي وتعمل لموناتة مظبوطة طازة للضيوف، سعد اتعلم منها وبقى يعمل لموناتة هو كمان ـ للضيوف. في واحد من الماتشات كنت قاعدة في الصالة مِدِّية ضهري للتلفزيون متابعة الماتش على خفيف بالورب وانتِ على حجري، والتانيين حيتجننوا من التركيز، كان عندك ست سبع شهور، مش صالبة ضهرك لسه، والدنيا حر بنسيبك تقريبًا عريانة وراسك مسنود على كتفي مستسلمة تستمتعي تاكلي البيضة، وانا على مهلي أحطَّ المعلقة واستنى لغاية ما تبلعي خالص قبل ما ادِّيك المعلقة اللي بعدها مستمتعة بهدوئك، فجأة كلهم صرخوا ونطروا دراعاتهم لفوق «جووووون» فانتِ اتنفضتِ في حضني وإيدي اتنطرت والأكل وقع وعيطتِ وباظت الليلة. يحاولوا يهدُّوكِ وأنا أطبطب عليكِ، خدتك ومشيت من الصالة وورايا حماتي وأمي وكل الستات مراتات الرجالة اللي بتتفرج على الكورة. واضح كان ماتش مهم لأن في اليوم دا كان فيه عدد من العائلات بتتفرج عندنا. أمي زعلت زعل، اتضايقت مننا «إزاي ناس كبار كدا ما يفهموش إن دي عيِّلة صغيرة وممكن

تتخض»، كانت بتزعل علشانك بشكل لا تتصوريه، مش قادرة تفهم إن الصرخة دي بتطلع غصب عنهم، مش قاصدين .

فيه حاجتين مش عارفة أفسرهم في نفسي، مواقف مهمة، الحاجة الأولى إن أنا ما سألتش ولا مرة عن أسرتي اليهودية اللي كانت كلها مولودة في مصر وساكنة في القاهرة. عرفت عن سفرهم كدا عالماشي، أبويا وأمي قالوا لي إنهم مشيوا «آه كلهم راحوا إسرائيل»، حتى «موسى روزنتال» الوحيد اللي حضر فرحنا أنا وسعد من عيلة أبويا، يعني كان موجود لحد 1954، هو كمان مشي ما حستش بيه، خدت الموضوع من غير تفكير. ما كانش عندي حساسية لموضوع الفلسطينيين وإسرائيل، وكأن أنا نفسي اسمي مش «روزنتال» ومش حاسة إن ليَّ أي علاقة أو انتماء غير لمصر ولأسرتي وللبيت دا اللي دخلت أعيش فيه وللقضية المصرية وكل المسائل الخاصة بمصر؛ جمال عبد الناصر والجيش وبناء السد العالي وتأميم القناة ـ اللي حصل وانا في السجن. اللي عمل لي وعي بالفلسطينيين هي الست اللطيفة في سجن الأجانب سنة تسعة وأربعين ـ اللي بتعمل سندوتشات الموز لجوزها ـ وآمال عبد النور اللي قضيت معاها سنين في السجن. اكتشفت منهم مسألة الهروب، فيه ناس بني آدمين بيتهجَّروا بالعافية من فلسطين. بس حتى آمال عبد النور لما حكت لنا إزاي هربت ووصلت مصر هي وأسرتها وانضمت للشيوعيين المصريين واتقبض عليها كشيوعية وبعدين اترحلت كفلسطينية، ما كناش بنتناقش في الصهيونية والقضية الفلسطينية، الموضوع دا كان مفروغ منه، المناقشات اللي كانت بيننا كانت حول الشيوعية وإيه اللي يعتبر الخط السليم في الشيوعية، خط «الحزب الشيوعي المصري» و«م.ش.م»، ولَّا منظمة «حدتو». منظمة «م.ش.م» كانت دايمًا بتتهم «حدتو» بالترهُّل وإن معندهاش «العرق» أو «العصب» الشيوعي. مسألة إني ما انشغلتش بعائلتي من ناحية أبويا محيَّراني بصحيح، على أي حال سنة واحد وستين ولعدد من السنوات لقدَّام، يعني المرحلة اللي باحكيها حاليًّا، الموضوع دا ما كانش لسه دخل ولا عندنا في الأسرة ولا في السهرة وسط اصحابنا كموضوع للنقاش والقلق. دا موضوع حاركِّز عليه بعدين، مش مكانه هنا لأني ما فكرتش فيه غير مؤخرًا .

الحاجة التانية اللي حيَّرتني في نفسي هي أنا أي نوع من الأمهات، ودا في صميم انشغالي في الفترة اللي باحكيها دلوقت .

أنا خلِّفتك، وأول ما خلفتك حسيت بالقيود .

العلاقة بيني وبين سعد اتغيرت شوية بشوية، لقيت نفسي معنديش الإمكانية ومش ممكن استمر في حياتي العامة مع سعد، حتى الحياة الخاصة معاه، لقيته مش قادر يستحمل إنك بتعيطي بالليل وتصحيه فراح ينام على الكنبة، أيوه، نفس الكنبة اللي بقت سريرك لما كبرت، وحاليًّا أنا اللي بانام عليها. حصل شيء من الانفصال بيننا، حتى الود الوجداني أصبح له مفهوم مختلف . المفاجأة كمان إن أمي وحماتي وقفوا ضدِّي، صورة الأمومة عندهم إن الأم لازم، إلى حدٍّ ما ضروري، تضحِّي، مش ممكن تكون الأمومة طيبة وجيدة بدون كمية كبيرة من التضحية بالرغبات والتطلعات الشخصية للأم. مش بس كدا، كمان أمي هي اللي كانت ورايا ورايا في الحكاية دي حتى أكتر من

حماتي، ما كانتش مبسوطة أبدًا إني عايزة أشارك سعد في كل حاجة، الخروجات والاهتمامات والنشاطات، وإني باتضايق لما اتحرم منها. وسعد زي ما قلت ما كانش متفاهم، كان بيحرَّضني، ما كانش قاصد حاجة وحشة، بس كان بيحرَّضني إن اعتمد على أمي، واطلب من حماتي - أمُّه - إن تاخد بالها منك لما تصحي وتديكِ البيبرون علشان أخرج معاه بالليل ونروح المسرح مثلًا. بس مين يستحمل الحاجات دي لحد ما تكبري وتتكلمي؟ سعد ما كانش عايز يشارك خالص، لو تفتكري مثلًا رحلة النوبة الهايلة، بالنسبة لي دي كانت من المواقف اللي ما انبسطش منها. أنا حكيت المقابلات اللي من هنا والقعدات اللي من هناك وحضوري اللقاءات السياسية والفنية من موسيقى ومسرح ومن ضمنها أوبريت سيد درويش، بس تيجي لرحلة زي رحلة النوبة، أنا خلاص عندي عيِّل فما اقدرش أروح، مش بس كدا، مش معزومة كمان . القصة دي ضايقتني، إن الرحلة دي تطلع وانا مش معاهم . سعد أخدني في دوكة، دخل البيت جايب معاه أصحابه حسن فؤاد على أبو العينين على ما اعرفش مين قالوا لي حيطلعوا النوبة خلاص و «by the way» - على الماشي كدا سعد رايح معاهم، كأن حاجة بسيطة، سعد عمل شنطته طاخ، طاخ، طاخ، وهوب! مشيوا، أنا اتضايقت بشكل، بس فاتت، حاعمل إيه؟ كان فيه رحلة تانية اتعملت للبحر الأحمر علشان يشوفوا الشُّعب المرجانية، بيعملوا نوع من الحصر لثروات مصر. بَرضُه ما رحتش وسعد راح، دي تاني رحلة ما انبسطش منها خصوصًا إن بعد ما رجعوا عرفت إن مرات أحمد حمروش، فوزية، كانت موجودة ويوسف إدريس ومراته رجاء، أعتقد رضا ما راحتش علشان بتشتغل ومعندهاش أجازات، بس يعني كان ممكن أروح، أنا ما سألتش سعد لو كنت أقدر آجي ولَّا لأ باعتبار إن مفيش زوجات، زي في رحلة النوبة . ما عرضش عليَّ أصلًا، ولما رجعوا طلع كلام كتير عن يوسف إدريس يظهر قعد يبصبص لستات أو بنات صغيرين على المركب، فمراته عرفت واتخانقت معاه. معظم الرجالة قالوا «آه طبعًا ما يصحَّش يوسف إدريس يعمل كدا ولكن هل يليق بمراته إن تفضحه بالطريقة دي؟ ما يصحَّش». الرجالة كانوا كلهم ضدها، أنا في قلبي كنت باقول «جدعة والله اللي عملت كدا» أصل العَملة تستاهل، بس ما دخلتش في المناقشة علشان ما حضرتش الواقعة. وعلى أي حال ما كانش فيه فايدة علشان يوسف استمر في العيب دا لغاية آخر حياته بالرغم من كل مميزاته .

في نفس الوقت ما كنتش مبسوطة إننا نسيبك لحماتي، علشان انتِ لما كنتِ بتصحي في وسط الليل، كنت بتصحي معيَّطة ومش فاهمة إن العياط حاجة مؤلمة للكبار، بيبي، وبتطالبي بحقوقك ببساطة، جعانة أو عطشانة أو مبلولة، الوسيلة بتاعتك إنك تصرخي، دي طريقة الطلب عند العيال. نانا، حماتي كانت فاهمة وبتكرَّر لي :

- ما تقلقيش لما حتتكلم حتبقى أحسن .

لكن لما اسيبك معاها أرجع ألاقيكِ مسهَّراها، مش عارفة ولا تنام ولا تنيِّمك، وساعات تظهر لي ضيق :

- بتعيَّط مش راضية تسكت .

وتحاول تفهمني إن ما يصحِّش أخرج واسهر بالليل مع سعد واسيبك. أمي وحماتي، الاتنين متوقعين سعد يكمِّل يخرج وانا اقعد في البيت بيكِ، دا كان التسلسل الطبيعي بالنسبة لهم .

دولت كانت بتتجوز حليم طوسون ولسه ما خلَفوش، لكن معظم أصحابنا، ديزي وبهاء وشويكار وراجي عندهم عيال. ديزي كانت بتشتغل من آن لآخر وفي نفس الوقت ست بيت وزوجة لأحمد بهاء الدين اللي كان رئيس تحرير «آخر ساعة» بعد ما ساب «صباح الخير» و«روز اليوسف»، طول الوقت عندها ضيوف في البيت، وضيوف من بره مصر كمان. من الأول مهتمة بالاجتماعيات وواعية بالمشكلة وعارفة إن لازم يكون فيه دادة تسهر مع العيال، كان معاها ليلى بس ساعتها، الدادة تودِّيها الجنينة وتفسحها، مش ضروري هي اللي تاخد بالها من ليلى طول الوقت. دا كان غير متوفر ليَّ عمليًّا .

طول فترة السجن كانت بتجيلي مجلة «نحن النساء» هدية. من سنة 1954 لغاية سنة 1959 وانا باتابع الحركة النسائية في إيطاليا عن طريق المجلة دي. الفكرة المنتشرة في إيطاليا هي إن المرأة تكون أم، والدارج إنها تضحي، مش بس لولادها، لأ، تضحي من أجل أعضاء العيلة والزوج أولهم طبعًا، تتابعه وتتفهم إنه بيرجع من الشغل تعبان فلازم تضحِّي من سُكات من غير ما ياخد باله. زي عندنا. ابتدت الحركة النسائية تتكلم عن مسألة إن المرأة بتشتغل في البيت تكنس وتنضف وتاخد بالها من العيال وتدير البيت، ويأكدوا إن ربة البيت بتكون تعبانة هي كمان آخر النهار، وراها أشغال كتير. ابتدوا يعملوا تقييم للمبلغ اللي الزوج كان حيدفعه لو شخص غريب اللي حينجز خدمات الأسرة نظير مرتب، وابتدوا يتكلموا في ماهية لربات البيوت! عضوات الحركة النسائية حاولوا يعملوا عملية مونتاج كبيرة في صورة المرأة عند المجتمع. حسَبوا المرأة بتوفر للدولة ساعات عمل بكذا مليار ليرة علشان لما أبوها وأمها يمرضوا مين ياخد باله منهم؟ خدمة مجانية إن تاخدي بالك من كبار السن ومن متاعبهم، والرعاية مطلوبة من الابنة مش من الابن، فيه أبناء بيرعوا أهاليهم لكن المجتمع بيفرض الخدمة دي على البنت. مش قادرة أفتكر كل حاجة، بس بيحاولوا يشرحوا إزاي حتى لو كانت المرأة زوجة وربة بيت متفانية، دا مش معناه تضحِّي بالتسلية والخروج، زي السينما أو المسرح، ولا لازم تضحِّي بالثقافة زي قراية الكتب من أجل خاطر خدمة الأسرة كلها، الأم بني آدم مش بس أم. بالإضافة إلى إن الأمهات أنواع، ومش كل أم اتخلقت علشان العيال الكتير. الدولة والكنيسة من ناحيتهم استمروا في السياسة الإعلامية اللي بتروِّج وتأكد إن المرأة تكون مطيعة وتقوم بكل الأعمال المنزلية وما تضحيش بالأسرة من أجل وظيفة خارج البيت أو كسب فلوس. أنا كنت باتأثر بالكلام دا، لما خلِّفتك ما كنتش بافكر في المقالات دي بس افتكرتها لما اصطدمت بموقف أمي وحماتي وسعد، وفعلًا لقيت نفسي عبدة مش بس للطلبات الطبيعية للطفلة، ولكن عبدة كمان للعقلية اللي حوَليَّ، وأمي أوَّلهم، مش مبسوطة مني وبتحاول تغطِّي على أخطائي بإن تعمل هي الحاجة بدالي .

كان قدامي نموذج محبوب للأمومة لكن مش بيعبَّر عني: جميلة أخت سعد، طنطك جميلة. جميلة ست متعلمة وخريجة جامعة وجوزها علي الراعي دكتور في الأدب وحيبقى مع الوقت من أعمدة النقد في المسرح والأدب العربي. جميلة اشتغلت في مجلة اسمها «مجلة الزمان» أو «جريدة الزمان» وبعد كدا صحفية في «دار الهلال» وصديقات جميلة وعلي كلهم خريجات جامعة وبيشتغلوا في الإذاعة أو في الصحافة، واحدة منهم تماضر توفيق، يمكن كلها أسماء ستات معروفة لجيلنا، بالرغم من كدا جميلة كانت بتخاف على ولادها وما تسيبهمش، ما تديهمش أي مساحة يعملوا حاجة من نفسهم. مرة راحت تصيِّف بأولادها في بورسعيد مع طنط أمينة رضوان قبل ما تتوفى

بالسرطان، ومعاهم نانا وجدّو، أجَّروا شاليهين على البحر، جميلة وطنط أمينة يلبسوا مايوه وبُرنُس ويروحوا يقعدوا على الشط وينزلوا المَيَّة. لما رجعوا طنط أمينة وصفت لنا جميلة :

ـ تمسك ولادها التلاتة من هنا ومن هنا ومن هنا وتمشي بيهم زي الفرخة وكتاكيتها، ما تطلعهمش من تحت جناحاتها أبدًا .

ضحَّكتنا كلنا لأنه تشبيه مظبوط ودمه خفيف، طنط أمينة «character» ـ شخصية قوية ـ معروفة بملاحظاتها الساخرة، كانت تتريأ على نهم سعد وهو بياكل البطيخ :

ـ في بقُّه حتة وفي إيده الشمال حتة تانية وإيده اليمين في الطبق وعينه على حتة رابعة .

بس أنا لفت نظري تعليقها على جميلة والصدى عندي إني مش عايزة أكون أم مش قادرة أطلع عيالي من تحت جناحاتي .

كان عندي عيِّل واحد وجميلة كان عندها تلاتة، وكان لازم تلحَّق عليهم طبعًا، مش سهل، وكان فيه صعوبة إيجاد خدم، في الأول كان عندها شابة اسمها سكينة بتعمل كل حاجة في البيت، تكنس وتنضف وتطبخ، وتاخد بالها من العيال أثناء ما جميلة تروح الشغل تلات أو أربع ساعات الصبحية وترجع، ونانا كانت بتساعد جميلة كتير، تروح لها تاخد بالها من البيت ومن العيال، لكن سكينة في وقت اتجوزت، وأصبحت مشكلة. جربت أنا كمان أجيب حد يساعدني بس مش سهل الواحد يلاقي حد يعتمد عليه. كنت معجبة بقدرة جميلة على التوفيق بين الحاجات، والإصرار على التوفيق بين صورة الأم اللي عايزاها لنفسها وشغلها ونشاطاتها، بس دي ما كانتش صورة الأم اللي أنا عايزاها لنفسي .

أما طنط عزيزة خالة سعد فكانت شابة لما جوزها مات وبقت أرملة، ما كانتش جابت عيال ورفضت تتجوز تاني، فلعبت دور أمومة ما لعبوش حد في حياة الناس اللي حواليها بذكاءها وحنانها وخفة دمها. علشان ما تحسش بالوحدة أخوها فتحي رضوان خلَّاها تشترك في جمعية درِّية شفيق، وهي اللي خدتني عند درية شفيق في أول علاقتي بسعد في أوائل الخمسينات، قالت لي «تعالي معايا». كانت عضوة في جمعية «La Femme Nouvelle» ـ «جمعية المرأة الجديدة» ـ وبتروح تحضر نشاطاتهم. هدى شعراوي رائدة تحرر المرأة في مصر كانت ماتت ودرِّية شفيق ممكن نقول كانت الاستمرارية، تشجع المرأة على الخروج من عقلية الحريم وتدعمها في التعليم والاندماج في المجتمع. مجلة درية شفيق كانت بتنادي بضرورة التعليم العالي للبنات وضرورة اهتمام المرأة بالثقافة، عيب المجلة إنها كانت بالفرنساوي. طنط عزيزة كانت عايزة تعمل مقابلة صحفية مع درية شفيق خدتني معاها وقدمتني لها ولعدد من الستات في الجمعية. درية ست شيك، رفيعة، طويلة، سمراء إلى حدٍّ ما، الحاجة اللي بتميزها كانت حواجبها، حواجب بيضاوية تطلع لفوق قوي وتنزل لتحت قوي، كأنها مستغربة على طول. ست ملفتة للنظر، لما تشوفيها ما تقدريش تقولي «ست عادية»، ما اعرفش ممكن نوصفها بإيه، يمكن «ست غريبة» أقرب وصف. كانت بتعمل اجتماعات وقعدات مع ستات المجتمع ـ اللي زوجة فلان واللي زوجة علَّان ـ كلهم زوجات وكلهم شيك وفيه واحد ييجي يخدِّم عليهم: سباتس، لموناتة، عصاير طازة أو شاي وقهوة، لسه ما كنش ظهر السفن

أب والنسكافيه ويمكن ولا حتى كوكاكولا، وعلى ترابيزة في ركن من الأركان بتيفور وساليزون. دي كانت المرة الوحيدة في حياتي اللي شفت درية شفيق شخصيًّا، غير كدا أعرفها من الصور في المجلات. حاولت أتابع واسمع بيقولوا إيه، وإلى حدٍّ ما مجموعة الستات دي ما كانتش بتشجعني أتكلم أو أقول رأيي، كلهم كبار شوية في السن، والكلام اللي قالته درية شفيق كلام عام إن التعليم مهم للمرأة وإن مش لازم تتوقف عند مستوى القراية والكتابة والابتدائية ومحو الأمية وفك الخط، ومش لازم نحصر تفكيرها في الزواج، وكلام عن أهمية التعليم لكرامتها واستقلاليتها وجابت أمثلة على ستات اتعلموا وهكذا بالشكل دا على طول. ادِّتني نسخة من مجلتها اللي بالفرنساوي. أنا حكمت عليهم إنهم برجوازيين، ليه؟ ما هو أنا في 1951 كنت لسه طالعة من السجن، وكنت طالعة من مجموعة الشيوعيين ومقتنعة إن فيه حاجات كتيرة برجوازية من ضمنها التعليم العالي. مش أنا كنت المفروض أسافر إيطاليا واكمِّل تعليمي وأقنعوني إن «دي حاجات برجوازية الإنسان بيعملها بس علشان يترقى في المكانة الاجتماعية، إنما إحنا الشيوعيين يهمنا نكافح من أجل الشعب كله وارتفاع مستوى المعيشة عند كل الناس»؟ فحكمت عليهم إنهم برجوازيين وما أثّروش فيَّ كتير ساعتها، الكلام دا قبل ما تتولدي بعشر سنين، باحكي القصة دي في سياق سؤال نوع الأم اللي عايزة أكونه، وطنط عزيزة كان ليها تأثير كبير عليَّ لكن الستات دول ما أثاروش إعجابي .

في العزبة لقيت موضوع الأمومة معقد أكتر كمان بالنسبة للستات، سواء بالنسبة للتعليم ولَّا الحياة العائلية أو العلاقة بالأطفال. أول واحدة اتعرفت عليها كانت زينب مرات خليل، تيجي تساعد نانا في البيت والعلاقة بينهم كانت لطيفة، ملحلحة تعرف تتكلم وعندها شخصية، شاطرة تتعلم بسرعة ونانا علِّمتها تعمل الفول المدمس. زينب ما خلِّفتش، وخليل مع ذكاؤه وطيبته وأمانته وأخلاقه وخفة دمَّه ما يتصورش إن العيب ممكن يكون من عنده. بعد سنة أو سنتين قال «أنا حاتجوز واحدة تانية علشان أخلف» واتجوز زينب التانية، اللي انتِ تعرفيها وبينًّا وبينها عشرة عمر. خليل جاب زينب التانية عنده في البيت، كانت أصغر من زينب الأولى في السن. زينب الأولى اتضايقت وبقت عصبية، وابتدت تتخانق، وتيجي عند نانا وتشتكي. أنا كنت في غاية الضيق من القصة دي، ولو كنت أقول أي كلمة استياء من تصرف خليل نانا تقول لي :

ـ همَّ كدا عند الفلاحين، متعودين على كدا .

لكن الحقيقة إن زينب الأولى ما كانتش متعودة على كدا، وما رضيتش تتعود، ودا بالرغم إن ما كانش فيه قانون يدِّيها حق تختار الطلاق لو جوزها اتجوز عليها. زينب الأولى سابت البيت وروِّحت لأهلها نواحي معوَّض. زينب التانية كانت ساكتة وهادية، مطيعة وتستحمل، وابتدت نانا تعلِّمها واتعودنا عليها وحبيناها وحبيتنا، لكن زينب التانية بَرضُه ما بتخلفش. ابتدينا نتكلم بين بعض إن يمكن لازم خليل يكشف، بس خليل مش ممكن يكشف ولا كانوا يسْتَجروا يكلموه في الموضوع. وبعد مرور سنتين تلاتة، خليل قال «فيه بنت حلوة في سيلا، عينيها قد كدا وضفايرها تخينة نازلة على ضهرها لحد هنا، حاتجوزها علشان أخلف» وابتدت أزمة مع زينب التانية، بتعيط مش بتتخانق زي الأولى، لكن تيجي بَرضُه تشتكي لنانا، ونانا موقفها «مفيش فايدة، مسألة إن مفيش خلفة بتقنع الناس إن من حق الراجل يتجوز عليها». خليل خطب فعلًا البنت التالتة، وكان حيجيبها البيت لكن قبل الفرح وهي ماشية جنب بابور الجاز النار مسكت في طرف الجلابية النايلون وولعت واتحرقت

وماتت. يووووه، مأساة وحادثة كبيرة وحشة وعزا. انتهى الأمر إن خلاص مفيش جوازة تالتة وخليل زعلان، في نفس الوقت سمعنا إن زينب الأولى اتجوزت تاني وخلفت تلات عيال، فيمكن دا كان - مش عارفة أقول إزاي - يمكن فهم إن فيه حاجة من عنده مش في مراتاته. ما اتجوزش تالت أبدًا، عِيي وابتدا يحس بضعف ومش قادر يتحرك بسهولة .

قصة حزينة وانا كنت باحب خليل، مفيش زيه صحيح، شخصية نادرة، ما اتكررتش. لكن كنت متضايقة من طريقة معاملته لمراتاته، إن كانت زينب التانية ولّا الأولى، «قومي يا بت» «روحي يا بت» «بس يا بت» فيه إمارة في طريقته. كان كريم ومضياف، أي حد من اصحابِنا أو من الفلاحين فايت لازم يقف عند خليل «اعملي شاي يا بت»، وسمعت زينب بتشتكي لنانا - ولّا يمكن اشتكت لي أنا - «معندوش فلوس وراح اشترى راديو»، كريم مع الناس لكن مش منتظم جوه بيته، اشتكيت لسعد :

- إحنا بنحبه ومبسوطين منه، لكن هو كزوج مش كويس .

- كلهم كدا، دي طريقتهم .

طريقتهم إزاي وزينب الأولى سابته والتانية بتشتكي، والتالتة مسكينة ماتت محروقة؟ لكن المجتمع شايف إنهم واخدين على كدا .

في عيلة سعد ومجتمع طنط عزيزة الواسع كان فيه ابتعاد واضح عن تعدد الزوجات مع تكريس للجواز والحالة العائلية للبنات، وعلاقة الست بالطفل . البنت تتجوز «مش وهي جاهلة، لازم تكون متعلمة علشان تعرف تربِّي الأولاد بشكل متقدم وسليم»، الجواز والأمومة، دا الجو اللي أنا أخدته بشكل عام من مجتمع طنط عزيزة، وطنط عزيزة كانت بتعرف ناس كتيرة .

أصحاب سعد اللي اتعرفت عليهم وبقوا أصحابي، عائلات عائلات، رضا وحسن فؤاد، رضا كانت بتشتغل بس عيلة متماسكة، وكان في واحد اسمه علي الدالي صحفي بينتقدوه سياسيًّا كتير واسمع إنه تراجع عن الماركسية، متجوز ومخلف ناهد الصغيرة، صلاح حافظ وهدى زكي هو صحفي وهي ممثلة، دايمًا متخانقين ولكن متجوزين بيجوا مع بعض ويروَّحوا مع بعض، وعبد الرحمن الشرقاوي عنده عيلة وبيت متكامل بضيوف وزوار، هو ومراته وبنتهم عزة، دلوقت طبيبة كبيرة . الصورة العائلية عند أصدقاء سعد كانت تشبه وتؤكد الصورة اللي عندي من ناحية أمي وأبويا، عائلات صاحباتي في المدرسة «أنجيلا » اللي من عائلة اشتراكية و«مارتشيلا» اللي من عائلة ميَّالة للفاشية، «ميريلا»، هاجرت مع أهلها أستراليا وبعد ما هاجروا بعتوا لي صورتهم وقابلتها مؤخرًا لما جت تزور مصر : بَرضُه أب وأم وأولاد، وواحدة اسمها «فيوريتا»، بافتكر اسمها لأنه مش دارج، بنت ذكية وشاطرة وكنت باذاكر معاها ساعات وكانت أول مرة أجرب أمشي لوحدي كان من بيتنا لبيتها، بَرضُه أب وأم وأولاد، أب وأم وأولاد، أب وأم وأولاد... كدا .

النادي الإيطالي اللي انضميت له أول ما خلصت المدرسة وقابلت فيه المجموعة الشيوعية الماركسية اتعرضت لفكرة تانية عن المرأة. الفكرة التقليدية إن السياسة للراجل وهو اللي يحضر

اجتماعات ويشتغل، ومراته تكون موجودة في البيت مع الأولاد تدعمه وتشجعه، لكن هي شخصيًّا ما تشتغلش في السياسة. في النادي الإيطالي المرأة «لازم تشتغل في السياسة» ويجيبوا أمثلة لستات وبنات انضموا للمقاومة الإيطالية ضد الفاشية، الحرب العالمية التانية كانت مأثرة على الجميع .

ـ طب والولاد؟

ـ يقعدوا مع جوزها، جوزها ياخد باله منهم لأنه مقتنع ـ أصله شيوعي ـ إن مراته لازم تكون مكافحة سياسية زيُّه .

فتبلورت عندي الفكرة في النادي الطلياني إن حرية المرأة معناها إن تخرج وتحضر اجتماعات .

أصعب فكرة، الفكرة اللي سببت مشاكل لستات جيلي هي العلاقات الجنسية الحرة، إن من حق المرأة أو البنت إن تعمل علاقة جنسية مع الشاب اللي بتحبه، قبل الجواز أو بدون جواز، يعني الخروج من شكل العائلة. الفكرة دي كان لها شعبية في العالم كله ساعتها مش في مصر بالذات ولا المجموعة الإيطالية في 1946 بالذات. في إيطاليا في الأربعينات والخمسينات ما كانوش خدوا حق الطلاق، ولا للزوج ولا للزوجة، الناس ما تقدرش تطلق، ما يمنعش إن الخلافات بتحصل بعد الجواز على طول أو بعد شوية، والمتجوزين إذا محتاجين يفضُّوا العلاقة ما يلاقوش طريقة غير الانفصال ـ ما حدش يقدر يمنعهم ينفصلوا ـ بس طلاق مفيش طلاق. بعد الانفصال ممكن يحبوا ويرتبطوا بحد جديد ولكن ما يقدروش يتجوزوا تاني، ولو جابوا أولاد من الارتباط الجديد، إداريًّا الأطفال كانوا يعتبروا بدون أب شرعي. الوضع دا في إيطاليا كان بيدِّي جاذبية وشعبية لفكرة العلاقة الحرة والتخلص من مؤسسة الزواج، والفصل بين الجواز في الكنيسة والجواز المدني وحصلت معركة ضخمة في السبعينات وحصلوا على حق الطلاق. لكن بالنسبة ليَّ أنا أعتقد إن فكرة العلاقة الحرة أنا شفتها أو سمعتها وانا لسه صغيرة، قبل ما يكون عندي سبعتاشر سنة وما خدتش بالي قد إيه المجتمع مش مستعد لها، لأن النتيجة إن الراجل مش خسران حاجة لما يعيش مع واحدة من غير جواز، إنما اللي خسرانة في جميع الأحوال هي البنت، بتخسر حقوقها وبيوصفوها إن معندهاش أخلاق. في الجواز على الأقل المرأة عندها شوية حقوق، أما في العلاقة الحرة ـ لما الرجالة أو العلاقة نفسها تتغير بعد كام سنة ـ الرجالة يقدروا يمشوا بسهولة وما يلتزموش بالواجبات نحو الأولاد، أو مصاريف البيت. في جميع الأحوال تجربة العلاقة الحرة منفصلة كدا عن المجتمع مش في صالح المرأة لأن هي اللي بتدفع التمن. لازم أقول إن الجيل دا ـ جيلي أنا ـ من الستات كان شجاع، مش باتكلم عن نفسي بالذات، لكن بشكل عام من تجاربي ومن معارفي ومن قراياتي عن إيطاليا أو فرنسا أو روسيا: ستات الجيل دا جربوا ودخلوا بشجاعة في فكرة المساواة، وتجاربهم خبرة عملية مفيدة للتفكير .

في العموم على أرض الواقع الحالة العائلية التقليدية اللي شفتها حوالين سعد وأصحابه وعيلته كانت متطابقة مع الحالة العائلية اللي كانوا بيعيشوها أبويا وأمي وكل أصحابي الطلاينة والخواجات .

دا أدَّى إلى إنِّي عشت الأحداث اللي بعد كدا بنوع من التناقض .

استمريت أتطور فكريًّا في وضع المرأة وحرية المرأة والمساواة معناهم إيه، لكن ما طبقتهاش في حياتي الشخصية، اتجوزت جواز عادي تقريبًا بالرغم من مسألة الأديان والنشاط السياسي، والفكرة اللي فضلت في ذهني هي إني ست بيت ومسؤولة عن الأكل والتنضيف، والتحرر بالنسبة ليَّ إني مهتمة بالسياسة وبالوضع في البلد ومشغولة بتأييد ومتابعة أعمال جوزي، كنت مركِّزة ما اعملش زي بعض الستات اللي طول الوقت يحاولوا يبعدوا أزواجهم عن الكفاح السياسي .

فترة صراع بيني وبين نفسي، بيني وبين أمي وحماتي، ولو حصلت حزازات مع حماتي فكانت بتحصل حزازات أكتر مع أمي، لأن مع أمي كنت بادِّي لنفسي الحرية والعشم إني أجادل واتخانق واتقِّل عليها كمان. مع حماتي أنا كنت باعمل مجهود وباركِّز علشان نحتفظ بعلاقات طيبة وكنت عاوزة اضرب رقم قياسي أو أضرب المثل في إمكانية المعاشرة والعيشة المشتركة مع حماتي وحمايا كزوجة الابن في نفس البيت، لأن الاعتقاد السائد إن مش حاقدر أعيش مع حماتي وحمايا. وإلى حدٍّ ما أنا نجحت، طبعًا العلاقة ما كانتش كويسة دايمًا، ولكن ما وصلش الأمر أبدًا لدرجة إن اضطرينا نفكر في الانفصال عنهم. ومش لوحدي، كنت واعية وواخدة بالي إن نانا، حماتي، بتلعب دور كبير في نجاح العشرة دي، كنت مدركة طول الوقت إن حماة تانية بطبع تاني، في الغالب ما كنتش حانجح أعيش معاها. المهم إن الصراع بين إني باحبك وعاوزة أكون أم كويسة وبين إني مش عاجبة أمي وحماتي وفي الغالب ولا جميلة نفسها كمان، الصراع دا خد فترة طويلة وتعبني، أصله صراع بيني وبين نفسي كمان، أنا عاوزة أكون اللي أنا مقتنعة به، وما كانش سهل أفهم أو أنفذ. ابتديت ما اكونش سعيدة وجه عليَّ وقت تصوَّرت إن الدنيا اتقفلت قدامي، انتهت حياتي على كدا. أبويا علشان يساعدني جاب لي غسالة مستعملة نص أوتوماتيك، وكانوا بييجوا يساعدوني، بس بييجوا إمتى؟ بعد الضهر. أمي كانت بتلومني، بتلاقيني مش متقبلة متاعب الطفل، كان فيه شيء من النرفزة من ناحيتها :

- بس يا «ماري» هو العيِّل كدا، لازم ياخد مجهود .

عاوزة أبطل هنا علشان بيقولوا فيه نوع من الاكتئاب بيصيب الستات بعد الولادة. في الغالب دا حصل لي وما كانش فيه الوعي دا ساعتها، ولا اللي حواليَّا متعاونين ولا أنا متقبلة إني ضعيفة .

أما العلاقة مع سعد، فكانت في شكل خناقات ومصالحات، خناقات خناقات، ومصالحات مصالحات .

«برتو» أخويا هاجر من مصر وراح إيطاليا وانا جوه السجن أو بعد ما طلعت على طول، واتجوز «إيلينا» بنت خالنا سنة 1960 أو 1961 ولكن أهلي ما حضروش الفرح، شفنا صور الجواز لأن تكاليف السفر كانت غالية، بس أمي كانت عايزة ضروري تروح تشوف «برتو» بعد ما اتجوز. كانت مهمة السفرية دي لأمي، وكانوا بيحوِّشوا لها، وطلعت في دماغها نروح أنا وانتِ معاها، بالذات إني ما كنتش اتعرفت على عيلتها لسه. أهلي سألوا سعد إذا كان يرضى إني أسافر معاهم إيطاليا، سعد تحمس إن حناخدك إيطاليا، وانا ما كنتش خرجت من مصر قبل كدا، فقال «قوي قوي». أيامها كان عندك سنتين ونص، وكنت أمورة خالص، لطيفة، مش زي لما كنت بيبي ما

تفهميش حاجة وكل حاجة عياط وخلاص. ابتدينا نحضَّر من أبريل للسفر في الصيف، أمي استخرجت باسبور طلياني لنفسها من القنصلية، أبويا كان لا يزال من غير جنسية وإجراءات خروجه ودخوله ما كانتش سلسة، وبتزداد صعوبة. كان نجح يسافر مع أمي وانا في السجن الأول سنة 1950، استخرج حاجة اسمها «laissez-passer» ـ وثيقة مرور ـ وكانت أول مرة يسافر بره مصر، المرة دي قدم على طلب خروج فإذا بهم يرفضوا، ويقولوا له :

ـ تقدر تخرج، لكن ما تقدرش ترجع .

فقال :

ـ لا أنا ما رحش، روحوا إنتو المرة دي .

أنا كنت باجدد الإقامة كل سنة ولسه مستنية الجنسية المصرية. كان فيه لنا إدارة خاصة في الجوازات لأن كان فيه ناس كتيرة ما عندهمش جنسية في مصر. زمان الناس كانت بتروح وتيجي بين سوريا وتركيا وفلسطين ومصر من غير أوراق ومن غير تحديد كتير ويستقروا مطرح ما ظروفهم تجيبهم وبعدين ابتدى عصر إن يقولوا اثبتوا أوراق، واحد زي أبويا مثلًا أو أنا، مولودين في مصر وما خرجناش منها، حنثبت إيه؟ سعد جه معايا إدارة الجوازات نقابل المديرين ونقول لهم على الحالة ونشرح لهم عايزين إيه، قالوا لنا لازم أطلع باسبور مؤقت يتجدد كل سنة. «أنا عاوزة العودة» عاوزة أخرج من مصر أزور إيطاليا مع أمي بس عاوزة لازم أرجع لبيتي. تصوري أخرج وما يسيبونيش أرجع؟ عملنا إجراءات كتيرة وفي النهاية الورق وقف، واحد منهم رفض، حاجة تعسفية من عندهم ويمكن غير قانونية، بس أهه، واحد من المسؤولين قال :

ـ لا مش ممكن، خلاص ممنوع .

رجعنا البيت زعلانين. لقيت عند سعد ميل يستسلم :

ـ قالوا لأ، حنعمل إيه؟

الجميع حوالينا بيقولوا «دا غير قانوني وإن ليَّ الحق إن اسافر وارجع بما إن عندي إقامة ومقدمة على الجنسية»، أمي كانت متضايقة بشكل، وأبويا أكتر منها. فكَّرت شوية وبعدين خدت سعد في أوضة الصالون وقعدت اتخانق معاه :

ـ الله؟ واحد منهم يقول لأ، خلاص نسكت؟

ـ طب حنعمل إيه؟

ـ نشوف واسطة، نشوف محامي، نشوف حاجة، ما دام دا من حقي ما نسكتش .

اتخانقت معاه حتة خناقة! ما كانش عندي أمل إن الخناقة دي تؤدي إلى أي نتيجة، كنت بافضفض عن نفسي من الضيق، كنت محبطة، فإذا به يقول :

ـ طيب حنشوف .

واكتشفت إن سعد لما ينوي على حاجة بيبقى دؤوب وما يستسلمش للبيروقراطية والحكومة، الموقف دا ورَّاني الجانب دا من شخصيته. ابتدى فعلًا يعمل اتصالات ويقول يمين ويكلِّم شمال علشان يلاقوا حد في الجوازات أو في الداخلية. سعد افتكر إن فيه ظابط شعره أحمر بيحبه من أيام ما كانوا سوا في «الحزب الوطني» أيام فتحي رضوان فاتصل به هو كمان، جرَّس العالم حوالينا. وإذا بالاتصالات اللي عملها تجيب نتيجة، الموضوع بتاعي اتعرض على ظابط تاني يشوف إن كنت حسافر وارجع ولَّا إيه، ظابط أكبر من اللي كان رفض يديني العودة. ما كانش عندي أمل بس قلت كويس، نحاول. كان لازم نروح للظابط مكتبه يشوفنا بنفسه، واحنا رايحين قلت لسعد :

ـ خلاص أنا مش متضايقة، لما الظابط دا يرفض يبقى على الأقل عملنا المستحيل .

دخلنا عند الظابط الكبير، راجل في منتصف العمر، طبعًا أنا لقيته ظابط لطيف لأنه عمل لي اللي عاوزاه وادَّاني الورق، نوع من الباسبور المؤقت بالعودة عليه. أما سعد يا حبيبي لما بينجح في حاجة وشه بينوَّر وبيبقى زي القمر، سلمنا على الظابط الكبير وشكرته وسعد شكره، مش عارفين نشكره كفاية، وخدنا الورقة دي وخرجنا واحنا في غاية السعادة، ولما رجعنا البيت سعد قعد مدة على التلفون يشكر خاله والظابط اللي شعره أحمر وكل الناس اللي ساعدونا، ويبلَّغ، أصل كان في عدد كبير من الناس متابعين المحاولات، واعتبروا الحكاية دي نوع من الانتصار وجابت شيء من البهجة حوالينا في العيلة وبين الأصدقاء والزملا والقرايب .

*

وجه يوم السفر .

ركبنا المركب أنا وأمي وانتِ، الطفلة الصغيرة، زمَّارة كبيرة واتحركت المركب وقعدت تبعد عن الميناء وعن سعد وعن أبويا ويمكن نانا وكان فيه أصحاب سعد، كان فيه مجموعة من الناس جُم يُودَّعونا في اسكندرية .

المركب كانت الوسيلة الطبيعية للسفر لأوروبا، المركب اللي ركبناها كان اسمها «سوريا»، وكان في مركب تانية اسمها «الجزائر»، مراكب مصرية رايحة جاية من وإلى أوروبا، تتحرك من اسكندرية ساعة المغرب، وتوصل لإيطاليا الصبح بعد تلات ليالي، تمر على جزيرة كريت في الطريق إلى «نابولي». إنتِ اتعودت على المركب على طول، يا دوبك تعرفي تقفي وتجري، لسه ما تعرفيش تمشي، كان فيه بار صالون فيه فوتيهات وكنب، وعلى البار كان فيه كراسي مدورة عالية من غير مسند، خدناك حطِّيناك على كرسي من الكراسي وشربناك كوكاكولا، انتِ شفتينا نقول

كوكاكولا والراجل اللي في البار يسمع كلامنا ويجيب كوكاكولا، فكنتِ عايزة ترجعي القاعة دي عمَّال على بطّال، تجري وتتشعبطي وتطلعي لغاية فوق تقعدي على الكرسي وتقولي للبارمان :

ـ كوكاكولا !

الرستوران كان كبير، وكل ترابيزة عليها 6 كراسي وبالنمر محدد لكل واحد حياكل فين، وجه حظنا في أسرة شامية، كنا بناكل معاهم على السفرة كل يوم. الحقيقة انتِ ما كنتيش متربية كويس، ما عرفتش أربِّيكِ، لا تاكلي بنضافة ولا تقعدي ساكتة، أمي كانت بتاخد بالها منك كتير بس بَرضُه كنا مُحرَجين من الناس اللي معانا بسبب تصرفاتك. أول يوم اتعشيتِ وما اتعشتيش، أكلتِ شوية وسبتِ شوية ورميتِ شوية، تنزلي وتطلعي، مش قادرة تثبتي، لحد ما شالوا الأكل وجابوا سلطانية سلطة قزاز مليانة كريز أحمر. الطبق كان قدامنا المفروض كل واحد ياخد السدس علشان إحنا 6 أفراد من غير ما نورِّي إن فيه حد مفجوع وابتدينا ناكل بأدب، إنت شفتِ المفرش أبيض وطبق الكريز أحمر، طلعت على الكرسي ومن الكرسي على المفرش الأبيض وقعدت على الترابيزة وسحبت السلطانية وحطتيها بين رجليكِ وابتديت تاكلي، أنا وأمي انفعلنا :

ـ مش كدا يا نادية، غلط .

ونحاول نشيلك أو نسحب منك السلطانية علشان الناس التانية تاكل، مفيش فايدة، يظهر منظرك كان لطيف، وهم أكيد ناس مهذبة لأنهم ضحكوا وسِبناك تاكلي الكريز لوحدك، وخلصتيه .

أمي ما كانتش بتسيبك تعملي ولا خطوة واحدة على المركب من غيرها، والحقيقة دا كان ضروري أصل المراكب ساعتها في الدور اللي فوق، على سطح السفينة، وفي البلكونات اللي بيحطوا فيها شزلونج دايرن داير في كل دور، السور كان عبارة عن درابزين مفتوح، مجرد ماسورتين خشب بالعرض، الدرابزين التحتاني أعلى من راسك كان ممكن تمشي تقعي في البحر من غير ولا شعبطة ولا شقاوة، أنا نفسي ما كنتش مرتاحة وانا باقرب أبص على البحر، كنت خايفة اتزحلق .

كنت سعيدة بس كنت دايخة، مش مصدقة نفسي إن حصل وسافرت .

أول مرة أسافر بره مصر، وأول مرة أروح إيطاليا، وأول مرة أركب مركب كبير، سفينة .

في مصر كانوا بيقولوا عليَّ «الطليانية»، أصل شكلي كدا بيضة شوية وباتكلم طلياني والعربي بتاعي فيه لكنة مكسر، بس أنا ما كنتش خرجت من مصر. في الأول كنت مشغولة بالسياسة ومش دريانة بالدنيا، وبعد كدا كان مستحيل لأني كنت في السجن، المهم الرحلة الأولى بره مصر كانت في 1964 وكان عندي 33 سنة وكنت خلفتك .

وصلنا إيطاليا، ولقينا «برتو» أخويا مستنينا في ميناء «نابولي»، كان أول مرة يشوفك، سافر قبل ما تتولدي .

الإجراءات طالت جوه المركب واتأخرنا، طلعنا من السفينة لقينا «برتو» متوتر شوية، حاجز تذاكر قطر وعلى وشك يفوتنا فطلعنا من المينا وركبنا تاكسي باستعجال ورحنا المحطة وربنا ستر لحقنا القطر وقعدنا .

القطر قام وانا ابتديت أبص على المنظر من الشباك .

خرج القطر من مدينة «نابولي» على منظر جبال، من ناحية بركان «فيزوف» ومن الناحية التانية البحر وجناين ومزارع. مناظر حلوة. حبيبي «برتو» محضر ساندويتشات بس أنا فضلت اتفرج على المناظر مدة طويلة، بعد شوية أمي ما قدرتش تستنَّى .

- «Che impression ti fa l'Italia?» (إيه انطباعك عن إيطاليا؟).

- «molto bella» (حلوة قوي).

الحاجة اللي كانت مستولية على انتباهي هي إن الصورة صافية، كأن الهوا نضيف مفيهوش تراب، منظر الجبال واضح .

ـ المنظر نضيف .

ـ نضيفة؟ دا مفيش أوسخ من شوارع إيطاليا، أوروبا كلها بتقول كدا .

ـ لأ نضيفة انتو مش فاهمين حاجة .

«برتو» بيتكلم عن نظافة الشوارع وانا باتكلم على نقاء الرؤية .

اتأثرت من صفاء الرؤية، وأعتقد السبب بسيط: إيطاليا مفيهاش تراب في الهوا زي عندنا في القاهرة، معندهمش صحرا ولا جبل تراب المقطم، وعندهم مطر بيغسل الخضرة والبيوت، النتيجة إن الألوان صافية، الجو أوضح. على كل حال صفاء الرؤية دخل مزاجي واتسحرت من المنظر الحلو دا وحسيت كأن نظري أصبح أقوى وِفْضِلت اتفرج طول السكة، ساعات طويلة من «نابولي» لـ«فلورنسا». أخيرًا وصلنا إلى «سكانديتشي»، ضاحية من ضواحي «فلورنسا»، وقابلت «إيلينا» بنت خالي لأول مرة، بنت خالي ومرات أخويا. أنا ما كنتش لسه قابلت أي حد من عيلة أمي، «برتو» أخويا الشخص الوحيد اللي أعرفه من قبل السفر فكل السفرية كانت مقابلات تعارف، أمي فرحانة أخيرًا بتقديم بنتها وحفيدتها للعيلة، وبتزور ابنها في بيته لأول مرة بعد ما اشتغل واتجوز وفتح بيت في «فلورنسا». كانوا ساكنين في الدور التالت، «إيلينا» نزلت تستقبلنا في الشارع، حاجة لطيفة، وقدمونا لبعض :

- «ماري» بنتي. «إيلينا» بنت خالك «أوليفو ».

ودخلنا البيت. بناكل في المطبخ، دي العادة عندهم أو ممكن نقول إن المطبخ في أوضة المعيشة، ودي حاجة لطيفة وعملية، عجبتني. كان عندك جزمة برقبة عالية علشان علاج «الفلات فوت»، بطن رِجلك مسطح مش مقوَّس كفاية، أبويا وأمي قبل السفر راحوا محل دكتور «شول» جنب السفارَة السويسرية في شارع عبد الخالق ثروت وجابوا فرشة حديد مخصوصة بتتحط جوه الجزمة علشان رجلك ما تريحش، وجابوا جزمة مخصوصة برقبة وجلد ناشف من عند جزمجي جنب سوق التوفيقية متخصص في الجزم المخصوصة، ورحنا إيطاليا وانتِ لابسة الحديدة والجزمة الهاف بوت الدبشة دي وبنحطك بالِجزمة على ترابيزة المطبخ علشان قَلعها ولبسها شغلانة، وتاكلي. بتاكلي كويس وأخويا كان بِيألِّس عليك يطبطب على بطنك ويقول: «الكَرُّوش الكَرُّوش».

كل دا كان ظريف بس أنا بعد يومين تلاتة في البيت ابتديت أزهق وعاوزة أشوف البلد. «سكانديتشي» مفيهاش حاجة، حي سكني من ضواحي «فلورنسا». خدتك ونزلت، ركبنا الأوتوبيس سوا ووسط «فلورنسا» بعيد، فعقبال ما وصلنا كنتِ تعبتِ وزهقتِ وخلاص عايزة تروَّحي، مش عاوزة تشوفي متاحف وتمشي في الشوارع مهما أعمل، جبت لك بيتزا قعدتِ كلتيها بس مقريفة، رحلة متعبة ليَّ ولك، إنتِ ما انبسطيش وانا ما شفتش حاجة، فأمي لطيفة قالت لي :

- سيبي لي البنت وانزلي انتِ روحي شوفي واتفرجي .

وعملت كدا فعلًا .

نزلت وسط «فلورنسا» لوحدي، وانبهرت بشكل ما كُنتش أتصوره، يظهر ما كُنتش متوقعة انبهر، ومش عارفة أوصف لقيت البلد جميلة قد إيه. ما عرفتش أروح فين ولا آجي منين، قعدت اتسكع زي ما تيجي، أي حتة أتلفِّت من هنا أو من هناك ألاقي حاجة أروح رايحة ناحيتها. فيه أغنية مشهورة أنا اعرفها من أمي، «Sull’Arno d’argento» ، بتقول :

Sull’Arno d’argento

si specchia il firmamento

mentre un sospiro e un canto

.si perde lontan

Dorme Firenze

sotto il raggio della luna

ma dietro ad un balcone

.veglia una madonna bruna

«شعاع الغروب بينعكس على سطح نهر «الأرنو» الفضي زي المرايا، «فلورنسا» نايمة بين دندنة وتهيدة منسية في ضوء القمر، ولكن العدرا مريم بشعرها الأسود سهرانة عليها من ورا الشباك»: ترجمة تقريبية، كنت عارفة الأغنية دي وباغنيها لغاية النهاردا وتصورت في خيالي شكل النهر الفضي اللي ميِّتُه زي المرايا، بصيت على «الأرنو» دا واستغربت استغراب، ضيق، بالنسبة ليَّ دا مش نهر دا ترعة طويلة، أنا جاية من النيل هنا في مصر. بعدين شفت الكباري، جميلة ومدهشة، كوبري منهم بالذات مشهور، «بونتي فيكيو»، من على ضفاف النهر الكوبري مبنِي بيوت وشبابيك بعرض النهر، مشيت عليه البيوت على الناحيتين ما تشوفيش المَيَّة، لكن مش فاضل حد ساكن، حوِّلوا البيوت إلى بوتيكات ومحلات. «فلورنسا» من أغلى المدن في إيطاليا ويمكن في أوروبا، بيبيعوا السوفونير بأسعار غريبة بالنسبة ليَّ والبوتيكات شيك على الموضة، فمشيت من هناك. وبعدين دخلت على الميادين، ابتديت بأول ميدان أظن اسمه «سانتا كروتشي» جنب نهر «التيبر»، وبرج «جوتو» الجميل، لوحده منفصل جنب الكنيسة، وفيه الكاتدرائية الرئيسية في «فلورنسا» كاتدرائية «سانتا ماريا دل فيوري» ، وحمَام أبيض بيجي على السلالم والعب معاه واتفرج على الناس بتأكِّله. وانا معدية لقيت نفسي جنب قصر جميل كنت شفته في الكروت «بالاتزو فكيو» - اسمه كدا - كنت باقرا عن أسرة «الميديتشي» ومتحف «الأوفتزي»، من أكبر متاحف العالم بس مش مشهور عندنا في مصر. والميدان اللي قدامه - ميدان «السنيوريا» - فيه تمثال «داود» وتمثال هرقل لـ«ميكلانجلو»، تماثيل مشهورة من نحاتين مشهورين، وأنا سامعة عن «ميكلانجلو»، وعارفة قيمته، ويمكن شفت حاجات كتيرة له في الكتب ولكن اتفاجئت لما شفت التماثيل على الحقيقة، وخصوصًا تماثيل «اليوم» مجموعة من أربع تماثيل: الفجر والنهار والمغرب والليل، كنت باقعد قدام كل تمثال مش قادرة أشيل عيني من عليه، واتمنى لو أقدر أشوفهم تاني .

ابص على دا الاقي جنبه دا يودِّيني لدا لحد ما لقيت نفسي في وسط ميدان ومش عارفة ليه بصيت تحت رجلي، لقيتني واقفة على بلاطة برونز، معدن أصفر في وسط ميدان حجر، مكتوب عليها «هنا في المكان دا بالظبط حرقوا «سافونارولا» سنة كذا»، بأمر من بابا الفاتيكان القرن الخمستاشر في أواخر العصور الوسطى. كنت قريت عن «سافونارولا»، موجود حتى في كتب التاريخ بتاعتك في المقرر المصري، راجل طالب بتحديث الفكر وخصوصًا تحرير العِلم، زي «جاليليو جاليلاي » و«جوردانو برونو». في العصور الوسطى العلم كان متعارض مع مفهوم الكنيسة، فيتهموا العالِم بالكفر. إن انا ألاقي نفسي واقفة برجلي فوق البلاطة دي وسط الميدان ومكتوب كدا، جالي إحساس ما اقدرش احكيه، دُخت، استعَدْت الأحداث التاريخية ومش عارفة ازاي ابتديت أحس إن الأحداث دي حقيقية، كنت باسمعها وباقراها قبل كدا في الكتب ودرستها في المدرسة كأني مش مصدقاها .

جاتلي حالة نهم واستمريت اتفرج بهمَّة على «فلورنسا» كلها .

اطلع من سوق أخش كنيسة لميدان لقصر وبعدين من غير ما ابص، والله، دخلت كنيسة من الكنايس الكتيرة، الكنيسة دي تتوصف إنها غنية زي الكنايس الكاتوليك، زخارف مدهبة ولوحات وعواميد، شكلها مهجور شوية فدخلت آخد نفسي، أريح رجليا واتشرب بصمت الكنيسة والجو الرطب، بعد شوية عينيا ابتدت تاخد على العتمة، على يميني قبر بابا مشهور للفاتيكان مكتوب إن «ميكلانجلو» كان في جدل متواصل معاه، وجوه الفاترينة تمثال للبابا المدفون نايم كدا كأنه ميت وتمثال ملاك

بيعيَّط على البابا من الزعل، عجبني تصوُّر الفنان إن الملايكة حزينة على البابا، ضربت بعيني جنب قبر البابا لقيت قبر «دانتي ألليجييري»، «يا خبر! «دانتي ألليجييري»!»، قمت وقفت من مكاني، وقربت منه، لقيت على القبر جملة :

Nel mezzo del cammin di nostra vita

mi ritrovai per una selva oscura

.ché la diritta via era smarrita

جملة البداية من «الكوميديا الإلهية»، حفظناها صم في المدرسة الطلياني، كنت صغيرة والمعاني بتاعتها ما اثرتش عليَّ، لكن في «فلورنسا» وانا لوحدي الجملة دي ضربتني في الصميم، حسيت إن أنا فعلًا «في منتصف مسيرة الحياة» عندي تلاتة وتلاتين سنة تقريبًا و«وجدت نفسي في غابة مظلمة» «وقد ضللت الطريق». الجملة وقعت زي الصاروخ على نافوخي، وأصابتني حالة وجودية، «smarrita» - يعني ضل أو تاه - ياخبر دا أنا «smarrita» فعلًا. أبص على قبر «دانتي» وافكر في نفسي، أنا حصل لي كدا، مش عارفة فين سِكِّتي. «دانتي» بيقول في «الكوميديا الإلهية» إن هجموا عليه تلات وحوش الأسد والفهد والذئبة، رموز الغرور والرغبة والطمع، العيوب الوحشة اللي ممكن الواحد يقول إن كل الأديان بتدينها وبتقاومها، كانوا حياكلوا «دانتي» واللي أنقذه هو «فيرجيليو»، الشاعر. مرة تانية ممكن نتكلم عن «الكوميديا الإلهية» وعن «دانتي»، لكن أنا ساعتها مسكني التفكير، إيه التلات وحوش اللي بيهاجموني؟ الغرور؟ الرغبة؟ ولَّا الطمع؟ ولَّا حاجة تانية؟ أنا ما عرفتش أفسر نفسي واقدم تحليل معقول لحياتي، ولكن قلت لازم أفكر في الموضوع، لازم اتوقف، لازم أعيد التفكير في حاجات كتيرة، وسبت قبر «دانتي» واتفرجت على باقي الكنيسة. لقيت أهم رجال إيطاليا من «فلورنسا»، مش بس «دانتي»، «تشيلليني» أهم صايغ دهب وفضة في التاريخ، و«باجانيني» أشهر عازف كمنجه في التاريخ، يا خبر! حتى «باجانيني» من «فلورنسا»؟ وكل دول مدفونين هنا؟

كنيسة ساكتة، فاضية، أنا والمدافن والناس دي اللي اعرفها .

خرجت من الكنيسة وانا في حالة من الهيام، كان لازم أروَّح لأن كنت اتأخرت، لكن أنا عملت جولة جميلة ويوم مليان ورجعت لبيت «برتو» و«إيلينا» وانا شبعانة أحاسيس وأفكار. مسحت المدينة بالطريقة دي، اشتريت كتاب دليل، وخدت حريتي وانبسطت من الجولات اللي عملتها، حسيت إن دا أثراني، الحاجات اللي شفتها ملهمة للفكر والأحاسيس .

اتضايقوا في البيت وابتدوا يشتكوا إن «ماري سايبة البنت ودايرة في الشوارع تتفسح»، فبطلت خروج شوية. بعد كام يوم من غير خروج افتكرت مجلة «نحن النساء» الإيطالية اللي كانت بتيجي لي في السجن واتعرفت عن طريقها على أخبار وأفكار الحركة النسائية في إيطاليا، وفي مرة نزلت معاكِ ومع «إيلينا» نشتري شوية بقالة من جنب البيت، ولقيت كشك الجرايد بيبيع المجلة فاشتريتها،

وعرفت من البياع إن مقر المجلة في «فلورنسا»، واحنا راجعين شفت فرع الاتحاد النسائي والمجلة على مبنى من المباني :

- يا «إيلينا» خدي نادية واستنيني هنا دقيقة .

دخلت الفرع واتكلمت معاهم وسألتهم على عنوان المقر الرئيسي للاتحاد النسائي في «فلورنسا» نفسها، طلعت لقيت «إيلينا» متضايقة، فضلتْ واقفة مستنية وانتِ على إيدها يظهر ما شافتش أنا اختفيت فين، ولما رجعنا البيت اشتكت مني .

أنا باحكي لك الحاجات الوحشة اللي عملتها في سبيل إن أنا انبسط وانمِّي ثقافتي وروحي .

نزلت وسط «فلورنسا» للمقر الرئيسي للاتحاد النسائي وقابلت ستات واتناقشت معاهم عن قضية المرأة، ما كانش عندي أي هدف، ما كانش فيه علاقة بين تنظيمات إيطاليا وتنظيمات مصر، كان عندي بس نهم للمعرفة والفهم، الحوارات دي بتدِّيني إحساس بالرضا، بانبسط وباحس إن باتقدم. في الفترة دي كتاب «سيمون دي بوفوار » ، «Il Secondo Sesso» - «الجنس التاني» - كان انتشر واتشهر بعمق أفكاره .

مش عارفة يا نادية، أظن كفاية كدا أصل أنا تعبت. يلّا، «Ciao Tesoro» ، نكمل كلام المرة الجاية، عمري ما كنت أتصور إني حاقعد احكي التفاصيل دي كلها واحكيها لك انتِ بالذات. لما كنتِ صغيرة أول ما ابتديتِ تفهمي أي حاجة كنت باحكي لك حاجات كتيرة وباشرح لك إيه هي الديمقراطية وإيه معنى الشيوعية والكفاح المسلح والشعوب والتقدمية، دا في الغالب كان بيعمل ارتياح عندي. كان عندي في ذهني إن أنا ادِّيكِ المعلومات وانك تستفيدي بكل ما أعرفه، من بدري، ما نستناش تكبري والغريبة إنك ما كنتيش بتمِلِّي. يمكن كانت مبالغة مني، بقيت أصبَّ اللي عندي عليك انتِ، كل ما افتكر حاجة أقولها لك، واشرحها لك، وانتِ كنت بتسمعي - مش عارفة كنتِ بتفهمي إيه منها، هل كنتِ بتفهمي حقيقي ولا لأ - بس من وانتِ عندك تلات سنين، وبعدين أربعة، وبعدين خمسة، وستة، وبقيتِ تفهمي أكتر واكتر. كان عندي رغبة إن الحاجة اللي أنا أتعلمها أو أدركها، أحب ادِّيها للتانيين علشان يستفيدوا منها، مش بس معاك يمكن كمان مع الناس الكبار اللي اعرفهم ولكن رغم صغرك انتِ أكتر واحدة كان عندك صبر، كنت بتقعدي قدامي على السرير لما تيجي تنامي، وتسمعيني، وكنت باغنِّي لك كمان. وبعد كدا لما اتصاحبتِ انتِ وليلى بهاء، وكانت بتبات كتير عندنا، كنتو بتطلبوا مني إني أغنِّي لكم أغاني الكشافة اللي اتعلمتها من «ميمي كانيل» في السجن، «الكوخ في حضن الوادي» والأغاني القديمة «القديسة لوتشيا»، و «Evviva l'mar» - «يحيا البحر» - وكنتو بتسمعوني وتطلبوا تاني وانا كنت باغنِّي وكنت مبسوطة إني أصب عندكم اللي في صدري. ريحتوني. لما كبرتِ شوية بقيت مش عاوزة تسمعيني، يمكن احتجتِ مساحة - ويمكن ما كُنتش باكلمك كفاية عن حياتي الخاصة، حياتي أنا الخاصة - كنت باحكي قليل عن نفسي وانا صغيرة، كنت باكلمك أكتر في السياسة، كنت باشرح لك الديمقراطية إيه زي ما فهمتها من خلال قراية الجرايد .

*

أخيرًا وصلت قرية أمي. مسافة مش صغيرة بين «فلورنسا» و«ريبا»، مئات الكيلومترات، وبنقطع إيطاليا بالعرض ونخترق سلسلة جبال الألب، «برتو» أخويا جه معانا وصَّلنا «ريبا» بنفسه ورجع «سكانديتشي» على طول علشان شغله. «ريبا» قرية فوق جبل على البحر الأدرياتيكي في شرق إيطاليا، لما الجو يبقى حلو ممكن نشوف يوغوسلافيا في الأفق، قرية قديمة عمرها يمكن أكتر من ألف سنة اسمها «ريباترانسوني» واختصارًا بيسموها «ريبا ».

نص القرية قرايب أمي والنص التاني يعرفوها شخصيًّا. نزلنا عند خالتي وجوزها وابنهم القسيس «دون فيتوريو» وبنتهم «مارا» المدرِّسة، الاتنين تقريبًا في سني، في التلاتينات، مش متجوزين، عايشين مع أهلهم في بيت في الميدان الرئيسي، ميدان غويط وفيه مدفع وانتِ على طول رحت تتشعبطي عليه وبقى لعبتك المفضلة. البيت قديم لكن مش متهالك، فيه تراس تحِنن مليانة ورد وزرع، لفت نظري صيانتهم للبيت، ما كانوش أغنيا بالمرة لكن بيبيَّضوا ويصلَّحوا. نظام المَيَّة كان لسه بين خزانات محلية قديمة ومواسير جديدة بتمدها الحكومة، من وقت لوقت المَيَّة تتقطع، ويرجعوا لنظام الخزانات جوه البيت ما كانش سهل، بس لفت نظري إني ما حستش بمعاناة بخصوص المَيَّة بالرغم من الأعطال المتكررة، البلدية تدي خبر قطع المَيَّة فيِمْلوا الخزانات، بس كان فيه شيء من النظام المعقول. لفت نظري كمان العناية والنضافة وسط تفاصيل فقر وتخلف، تركيبة جديدة عليَّ في «ريبا ».

خالتي «جيجيتا» كانت بتطبخ كل يوم أكل طازة، حاجة ظريفة ودلع كبير لأن اعتمدنا عليها وبقينا ننزل نروح البحر أنا وانتِ وأمي و«مارا» بنت خالتي، الأوتوبيس بينزل من على الجبل في طريق ملتوي ومناظر جميلة ينزلنا مدينة «جروتاماري»، خطوتين يا دوب نعدِّي شريط القطر نلاقي نفسنا على البحر. مدينة صغيرة فيها كام محل وشوارع، أكبر شوية من قرية «ريبا». نروح على البلاج، الشماسي والشيزلونجات مترصصين جاهزين، الواحد يأجِّر شمسية ويقعد. «مارا» بنت خالتي تختوخة وعاوزة تخس بالطريقة القديمة فكانت بتشتري فاكهة، تين وكمثرى وتفاح كتير وتقعد في الشمس. ما تقعدش في الضِّلة أبدًا حتى في محطة الأوتوبيس تقف تستنى الأتوبيس في الشمس، و«ماريزا» بنت خالي التاني قابلتنا على المحطة وبَرضُه راحت وقفت جنبها في الشمس :

- لازم نتنقع في الشمس يوليو وأغسطس وإلَّا جسمنا ما يستحملش الشتا الطويل «L’organismo non c’e la fa».

على الساعة واحدة نسيب البحر علشان نلحق أوتوبيس الضهر وفي المحطة نجيب لك بيتزا تصبيرة. مشينا على النظام دا يمكن أسبوعين في بيت خالتي القديم، كان نظام مثالي لك .

حلوة المقابلة الأولى مع عائلة أمي، ومع مجتمع من إيطاليا ما كنتش اتصور إنه موجود، قرية نائية، واختلافات صغيرة، مثلًا الكمثرى كانت صغيرة وناعمة ولها قطمة غير وطعم غير، والتين البرشومي مش نوع ولَّا اتنين، أنواع كتير، نوع منهم كبير قد الكف، قشرته خضرا وطرية ومن مياصته البياعين مش بيعرفوا يرصُّوه على بعض وسموه «Fiço fallacia» يعني التينة «الفِشِلَّة»، التينة الكسلانة، الكسلان بيقولوا له في إيطاليا: «قوم فِز هز طولك يا فشلَّة واعملك شوية همة».
أمي كانت بتشاكسني في مصر وتقول لي يا «فالاتشا » علشان تختوخة طالعة لأبويا، شفت بقى

التينة اللي بتشبِّهني بيها. العشا بدري، ناكل والدنيا لسه نور، خالتي لازم تطلع علينا بطبق شوربة خضار وشعرية مع إننا كنا في الصيف وحر، وتحضر شفشق مَيَّة تعصر عليه نص لمونة وتغطيه بحتة شاش أو قماش طرحة متزوَّق بترتر وخرز علشان الشاش يثبت فوق الشفشق. حتى اللمون كان أضاليا أصفر وكبير قد البرتقانة، ما شفتوش في مصر وما لقيتش في إيطاليا اللمون البنزهير بتاعنا.

أخدتني أمي على مقابر القرية علشان تعرَّفني على أفراد عائلتها اللي ما لحقتش أقابلهم، أمها وأبوها، جدي وجدتي اللي عمري ما شفتهم، وأخوها «نينو» اللي مات صغير، وقفتْ قدام صورته على القبر تحكي:

ـ «نينو» كان بيساعد أبويا في المخبز، الدنيا كانت حر وعرق قدام الفرن خرج من المخبز عرقان ما حسش بالبرد وكانت الدنيا شتا تلج بره، مشي في الشارع بالفانلة عرقان وراح الكانتين وطلب بيرة ساقعة وشربها مرة واحدة جاله التهاب رئوي على طول، سُخنية عالية، ومات في تلات أيام، كان في عز شبابه، وساب 3 بنات ومراته «أدالجيزا» صغيرة يا عيني، واللي مسك الفرن أخويا التاني «أوليفو» أبو «إيلينا» مرات أخوك.

من ساعتها أمي كل سفرية لازم تاخدنا المقابر وتفوت قدام قبره وتحكي لنا.

طلع إن عندي عيلة كبيرة في إيطاليا، خالتين وخالين وعائلاتهم. «جيجيتا» اللي نزلنا عندها و«ألبينا» اللي هاجرت الأرجنتين، و«أوليفو» اللي استلم الفرن أبو «إيلينا» مرات أخويا وأخيرًا «جوردانو» أقرب أخ لأمي. ومراتاتهم واجوازهم «بييترو» «دومينجو» «سيسينا» و«ماريا» وولادهم «ماريزا» و«لينا» و«مارتشيلا» و«إيلينا» و«ليليو» و«باولو» و«أنريكو» والأولاد هم كمان ابتدوا يتجوزوا، واحدة متجوزة صاحب محل ملابس أطفال وواحدة متجوزة شرطي رايح جاي بالموتوسيكل في الشوارع وحاسس نفسه حاجة كبيرة، و«أنريكو» متجوز «ماريزا» موظفة في البلدية، وكمان عندهم أطفال في سنِّك تفتكري منهم «فابريتزيو» و«لوتشيا». اتعزمنا على كذا مكرونة، أول مكرونة ابتدينا نلف السباجتي بالشوكة وانتِ ما عرفتيش تلفِّي المكرونة، فـ«أنريكو» ابن «جوردانو» بص لي حتة بصة:

ـ إيه دا يا «ماري»؟ إنتِ ما علِّمتيش بنتك تاكل سباجتي؟

وسَّختِ نفسك مش عارفة تاكلي ورافضة تسيبي حد يأكلك، عاوزة تاكلي لوحدك. الموقف دا مخلِّيني عاوزة أبتدي أعلم نبيل حفيدي أكل المكرونة قبل ما آخده إيطاليا، نبيل كبير دلوقت عنده سبع سنين وممكن يتعلم، انتِ يا عيني ما كانش عندك تلات سنين وقعدنا نضحك عليكِ. لما الواحد يقعد على الأكل شوية ويشرب شوية نبيت بتحصل بَرضُه حالة من البهجة، نضحك ونحكي حكايات ونكت، واحنا قاعدين نضحك على السفرة سمعنا خناقة وعياط بين العيال في الأوضة التانية، جرينا نشوف لقينا «لوتشيا» بتعيَّط ودم بيخُر من راسها، وانت واقفة قدامها وماسكة فتَّاحة النبيت، «يا دي المصيبة» أنا مش عارفة أودِّي وشي منك فين، عندي بنت شُضَلية ما بتعرفش تلف مكرونة سباجتي وفتحت دماغ العيال، طب أعمل إيه؟ «لوتشيا» عيَّطت وانا ضربتك وخليتك تعيَّطي انت كمان.

حطوا لها مطهر على الجرح ونزلنا كلنا بسرعة بالعيال معيَّطة في الشارع علشان نلحق نتفرج على موكب استعراضي بالأعلام بمناسبة عيد المحافظة. أعلام كتيرة، كل مركز أو قرية في المحافظة عندهم عَلم خاص بيهم، العمدة ومراته والقضاة وكبار موظفي المحافظة يمشوا في الموكب بالملابس التاريخية وبعضهم على الأحصنة كمان، وموسيقى مارش نحاسية وحركات بهلوانية بالأعلام، الشباب يتمرنوا طول السنة علشان اليوم دا، يلفوها ورا ضهرهم ويطلَّعوها وينزلوها ويلفوها تاني كلهم مع بعض، منظر مدهش، وصواريخ في الهوا بالليل، وبعد الاستعراض الجمهور يرقص وياكل ويشرب في الميدان لحد انصاص الليالي .

جه وقت الرجوع لمصر، «دون فيتوريو» ابن خالي القسيس وصَّلنا المحطة وقطع التذاكر وركب معانا أنا وانتِ وأمي. قطر مرسوم عليه من بره نقوشات جميلة زي الدانتيلا يشبه القُطُرة اللي بنشوفهم في أفلام الكاوبوي الأمريكية، عربيات قديمة مفيش قزاز على الشبابيك وكل أربع أنفار قاعدين قصاد بعض. القطر يروح مدينة «باري» في الجنوب عند كعب الجزمة، يلف حوالين سلسلة الجبال ومن هناك يخترق إيطاليا بالعرض في اتجاه «نابولي»، مفيش لسه أنفاق تخترق الجبال اللي في وسط إيطاليا. الركاب أغلبهم فلاحين، والفلاحات لابسين جونلات طويلة ومناديل على راسهم يخشوا يقعدوا ويناولوهم أسبتة فيها طيور وخضار من الشباك، هيصة كأننا في مصر. كنت متسلّية قوي، بس بعد شوية ابتدينا نزهق لأن طلع القطر قشاش بيقف في كل المحطات، مش دقيقتين تلاتة وتوت توت ويمشي، لأ، بيقف بالربع ساعة في كل محطة والكابينة ضيقة ومفتوحة ودوشة. ساعات وساعات، يوم كامل بالطريقة دي، وصلنا «نابولي» مدشدشين على المغرب، «دون فيتوريو» اطّمن علينا وروَّح على طول، سافر السفرية دي كلها علشان يوصلنا المركب، أخدنا معاملة ملوكي من العيلة في استقبال «ليااندرا» - أمي - وإنجازاتها - أنا وانتِ .

سعد ونانا حماتي وأبويا وعدد من أصدقاء سعد كانوا في انتظارنا في المينا في اسكندرية، وانتِ على طول أول ما شوفتِ نانا اترميت في حضنها وابتديتِ تحكي لها مغامراتك - بالطلياني. نانا حصل لها ذعر «البنت نسيت العربي» افتكرت خلاص مش حتعرف تكلمك وحترطني لها بالطلياني، بس انت لوحدك كدا يظهر حسيت إن نانا مش فاهمة فبعد كام جملة طلع الكلام من بُقك بالعربي تاني، كانت حاجة ظريفة كأنهم مش لغتين بالنسبة لك .

نانا يا عيني في الحقيقة تاهت بيني وبينك، من ناحية أنا وحكاية إني مش عاوزة أكون زي الأمهات التانيين، وانتِ صغيرة وعنيدة وعارفة عايزة إيه، إنتِ اتغيرت لما كبرت وبقيتِ تترددي، بس وانت صغيرة ما كانش فيه تردد كان فيه عِند بس، التيتينة حطتيها في بُقك ومش عاوزة تشيليها، كانت مأساة نانا تحاول تشيلها من بقك وانا مش عارفة اتحكم فيك، غير حكاية البنطلونين اللي رجعنا بيهم من إيطاليا. «كونشتو» جوز «ماريزا» صاحب محل هدوم الأطفال في «ريبا» جاب لك بنطلونين صوف للشتا هدية، واحد نبيتي وواحد كحلي وكانوا هايلين بيليقوا على كل حاجة، لبستيهم وعلقتِ عليهم مش عاوزة تلبسي أي حاجة تانية، باحاول ألبسك فستان وانتِ مش راضية. على طول بالطريقة دي، لما كبرت شوية، أربع أو خمس سنين، يعني قبل ما تدخلي المدرسة كنت بتنزلي تلعبي كورة مع الولاد في الشارع، وبالذات واحد فيهم اسمه محمد متجوز وعنده عيال دلوقت ولسه ساكن في البيت اللي قصادنا، كنت باتفرج عليكِ من البلكونة والحقيقة تصرفات الولاد كانت عادية

وبريئة، لكن نانا وجميلة وعلي جوزها وأمي وأبويا كانوا مش مبسوطين من الميول الشوارعية عندك :

- واحنا معقول نسيب بنتنا تلعب كورة في الشارع مع الولاد بالطريقة دي؟

سعد من ناحيته كان بيشجعني، بيقول لي :

- خليها تاخد على الناس، تتعامل مع الشارع .

جمال عبد الناصر كان في يوغوسلافيا عند تيتو أوائل الستينات، بيحكوا إن فيه شخص نجح يحط ورقة لتيتو في إيده وهو قاعد مع عبد الناصر مكتوب فيها «واحد من الشيوعيين في مصر مات في المعتقل بسبب التعذيب». شهدي عطية. تيتو قرأ الورقة وبص لعبد الناصر :

- فيه واحد شيوعي مات عندك في المعتقل .

- معنديش خبر .

بيحكوا إنها كانت كسفة كبيرة لجمال عبد الناصر، المفروض بطل من أبطال «باندونج» للسلام وعدم الانحياز والاشتراكية وبيعمل صفقات مع بلد اشتراكي بينما المعتقلات مليانة شيوعيين والتعذيب شغَّال. عبد الناصر بعت يعزل المأمور اللي حصلت الحادثة دي تحت إدارته وشالوه من السجن، ما عملش مراجعة لجهاز التعذيب والمباحث .

عبد الناصر في الفترة دي كان بيحاول يبني السد العالي وعمل الجمعيات الاستهلاكية والقطاع العام والحديد والصلب والإصلاح الزراعي، وإجراءات اجتماعية كتيرة زي حق التصويت للمرأة ومحو الأمية، بعد ما مسك وتمكن من الحكم عمل خطبة مهمة ابتدا يتكلم فيها على بناء مجتمع جديد، مجتمع عادل وتوزيع أراضي وتأميم. أول مرة أسمع عن تحديد النسل من مسؤول في الدولة كان من بُقه، في واحدة من الخطب قال ما معناه «لازم نحدد النسل في مصر، كنا أيام الملك حاجة زي عشرين مليون أصبحنا ما اعرفش كام مليون بعد خمس سنين، إن ما كُناش نحط حدود وننظم العملية دي بشكل متحضر، سنتحول إلى شعب من الشحاتين، من المتسولين»، كان بيقول «إحنا بنينا مدارس كتير ومستشفيات كتير وبَرضُه ما يكفيش، اللي بيتولدوا أكتر كتير من اللي بيتبني من مستشفيات ومدارس». كرَّرها بعد كدا والرؤساء اللي بعده كرَّروها كتير لأسباب مختلفة، وعملية تحديد النسل ما بتنجحش عندنا، طلعتْ معقدة ومش مناسبة لظروف الناس والناس مش متجاوبة، بس ساعتها كان فيه تصور إنها مجرد مسألة وعي، وعبد الناصر طرح الفكرة دي في حدود وعينا ساعتها وفي صميم النية على الاستقلال الاقتصادي والسياسي، في صميم التقدم. كانت تعتبر إجراءات نحو الاشتراكية، وفعلًا اتوصف نظام جمال عبد الناصر إنه «مش رأسمالي» لو كان نظام رأسمالي ما كانش يعمل إصلاحات وكان زمانه ماسك في سياسات رأسمالية مع الاستعمار، فكانوا

بيسموا نظام عبد الناصر نظام «البلاد النامية نحو الاشتراكية»، يعني دولة ما وصلتش للاشتراكية نفسها لأنها في مرحلة نمو ماشية نحو الاشتراكية، مصيرها تبقى اشتراكية في يوم من الأيام .

وصل «خروتشوف» للحكم في الاتحاد السوفيتي، وفترة «خروتشوف» أدِّت إلى انفراجة كبيرة، مش بس في الاتحاد السوفيتي بل في العالم كله، وابتدينا نسمع عن ممارسات «ستالين» وحاجات مش مظبوطة بتحصل. شخصية «خروتشوف» اتحبِّت في العالم كله يمكن اكتر من أي زعيم سوفيتي تاني، أكتر حتى من جورباتشوف اللي جه في التمانينات. «خروتشوف» فلاح وشعبي ومقتنع بالشيوعية، يبدو عليه الصدق وعنده شخصية قوية، ابتدى يعمل حاجات ملفتة غير متوقعة ولا من الاشتراكية ولا الرأسمالية. رئيس الفلبين قام قال حاجة ضد الاتحاد السوفيتي في الأمم المتحدة، بلد ضعيفة بتغازل أمريكا على حساب الاتحاد السوفيتي، الرد بتاع «خروتشوف» كان إنه قلع الجزمة وحطَّها قدامه على الترابيزة في الجمعية العمومية للأمم المتحدة، ورد وهدِّد بالجزمة في إيده، منظر «خروتشوف» والجزمة محطوطة قدامه جنب الميكروفون طاف العالم سبع مرات. أعتقد الناس حبِّت خروتشوف لأن بتفهم لغته: «بالجزمة، على جزمتي، إنت فاكر نفسك مين». حركة تانية عملها إنه راح زار أمريكا، ممكن أول واحد يعملها وممكن الزيارة دي كانت بداية لمرحلة جديدة. في أمريكا طلب يزور المزارع ويتكلم مع فلاحين علشان هو فلاح، الطريقة اللي اتناقش بيها معاهم والطريقة اللي مسك بيها الفرخة أثبتت أنه فلاح بصحيح وإيده في الشغل، التفاصيل دي بهرت الأمريكان. أمريكا كانت لسه طالعة من فترة المكارثية اللي اتشهرت بمحاكم تفتيش ثقافية وكتير من الفنانين الأمريكان عانوا من الاضطهاد وأبعدوا عن العمل ومنهم اللي انتحر من الاضطهاد والعزلة، بسبب وبدون سبب. لأتفه الأسباب كان الراجل مكارثي دا بيشكِّك في ميول المثقف ويتهمه بالشيوعية والجاسوسية والعداء للوطن، وبعضهم كان متعاطف فعلًا مع الاشتراكية منهم «شيرلي ماكلين» وأخوها «وارن بيتي». «شيرلي ماكلين» قابلت «خروتشوف» وكان حدث عالمي وقعدت تهزر وتنكِّت معاه بالأمريكاني وهو نكِّت معاها أظن بالروسي، بس يعني رئيس الاتحاد السوفيتي بيقول نكت، مش بس كدا، هي قالت له تعال نرقص ورقص معاها. خروتشوف كسب شعبية كبيرة في العالم كله بسبب شخصيته وشجاعته في التغيير، جاب شوية أمل. في نفس الوقت انقسمت آراء الاشتراكيين والشيوعيين في أنحاء العالم حول خروتشوف: «إزاي «ستالين» بطل الاشتراكية يكون عمل حاجات وحشة؟ مش ممكن». بعض الناس مش مصدَّقين، وبعضهم مش عاوزين يصدقوا اللي «خروتشوف» قاله عن «ستالين»، ولكن فيه جزء من الناس وممكن أقول أنا منهم ابتدوا يفهموا ويفتحوا عينيهم ويحللوا وتذكروا انتحار «ماياكوفسكي» وتفاصيل تانية .

خروتشوف كان بيعمل جولة في العالم، كل البلاد عايزة «خروتشوف» يزورها، اللي يعزمه هنا واللي يعزمه هناك، وكان على علاقة كويسة مع جمال عبد الناصر وجه يزور مصر، أثناء الزيارة لاحظت على وش عبد الناصر إنه بيحب «خروتشوف»، يبص له بإعجاب، وخروتشوف على سجيِّته زي ما هو في كل حتة وجاي مصر في مزاج المنتصر. ادَّى دعم للقضية المصرية بصفة عامة، وتأييد لحركة الجيش والحكومة المصرية بالتحديد، وأعلن عن تأييده للقضية العربية ومصر ضد إسرائيل، وكان موقف حلو، وأعلن عن توريد أسلحة لمصر للوقوف ضد إسرائيل في بداية الستينات بعد اشتراك إسرائيل في الحرب ضد مصر في 1956، وقرار دعم السد العالي كمان كان له علاقة بالفترة دي .

المعتقلين في فترة 1959 إلى 1964 كانوا بيتعرضوا لعنف كبير، وشهدي عطية اتقتل في الفترة دي، كان فيه سوء معاملة وضرب وتعذيب ممنهج. ظروف السجن، أقصد المعتقل، كانت أوحش من ظروف الحبس بتاعنا، وفضلت سيئة لغاية ما جه «خروتشوف» رئيس للاتحاد السوفيتي، جه وقابل جمال عبد الناصر، بكلمتين جاب سيرة المعتقلين وصفقة السلاح والسد العالي، أسمع إن المعاملة اتحسنت شوية بعدها. القصة اللي سمعناها هي إن «خروتشوف» قال لجمال عبد الناصر وهو بيزور مصر «بتوزع أراضي على الفلاحين وتأمم شركات للقطاع العام وتأمم القنال وعايز تبني السد وتعمل علاقات مع البلاد الشيوعية، معقولة إن الشيوعيين اللي عندك، الناس اللي نادت أصلًا بكل الإصلاحات دي حاططهم في المعتقل؟ ».

عبد الناصر وعده إنه حيفرج عنهم، وأفرج عنهم بالفعل، بالكلام مع سعد أكد لي إن جمال عبد الناصر أفرج عن أغلب الشيوعيين المعتقلين ساعتها بل وبعض الإخوان ـ مش كلهم. ومن ساعتها ولمدة سنتين تلاتة أعتقد ما حصلش اضطهاد كبير للتقدميين ولا للشيوعيين بالشكل اللي حصل في العشر سنين اللي قبلها .

الفترة دي كانت كمان فترة شديدة في الصراع الفكري والسياسي في مصر لأن الحكومة كانت طالبة إن الشيوعيين يحِلُّوا أحزابهم كتنظيم سياسي ويدخلوا في الاتحاد الاشتراكي، تنظيم الحكومة. فما أقدرش أوصف الخلافات كانت عاملة إزاي بين التنظيمات الشيوعية وجوه التنظيمات نفسها يعني بين أعضاء «حدتو» وبعض، سعد فكَّرني امبارح إن المسؤول في الفترة دي كان كمال عبد الحليم، كان فيه خلافات داخل «حدتو» حتى بعد ما «حدتو» حلِّت نفسها . سعد كان رأيه إن حتى لو حلُّوا الشكل التنظيمي لازم الحركة تستمر بشكل ما ويكون لهم رأي مستقل عن رأي الدولة، رفعت السعيد كان معارض تمامًا وكان رأيه الحل يكون فعلي للتنظيم والحركة. نرجع لسعد في الحاجات دي قد ما نقدر إحنا الاتنين لأن أنا ما كنتش متابعة أبدًا الناحية التنظيمية، مين المسؤول ومين قال إيه ومين عمل إيه. انتهى الأمر إن «حدتو» حلِّت نفسها كتنظيم شيوعي وجزء من أعضائها دخلوا الاتحاد الاشتراكي بالفعل، وجزء تاني اترفع عنهم الحظر واتفتح لهم إمكانية التعيين في المؤسسات الصحفية والثقافية، فؤاد حداد مثلًا اتعين في «روز اليوسف» بماهية صغيرة وجِه يشتكي لسعد على أساس إن سعد يعمل محاولة يزوِّدوا مرتَّبه لأن فؤاد كان متجوز وعنده تلات عيال ووراه مسؤوليات. فؤاد حداد كان موهوب ولطيف وحساس وفي نفس الوقت واعي بقدراته، خليط غريب من الحساسية والثقة، كان بيشرح لسعد بمنتهى الجدية :

ـ أنا أكبر شاعر شعبي في مصر حاليًّا، مش معقول يعاملوني بالطريقة دي .

بس سعد كان ملصَّم حاله في «الأخبار» أصلًا بصعوبة فما اعتقدش قدر يعمل حاجة .

بالإفراج عن المعتقلين الشيوعيين أصحابنا حسن فؤاد وألفريد فرج وصلاح حافظ و«ألبير آرييه» وحليم طوسون وزكي مراد وغيرهم خرجوا. منهم كانوا خلصوا الحكم اللي عليهم لكن ما أفرجوش عنهم زي صلاح حافظ، سمعت إن لما خرج كان بقاله عشر سنين في السجن، خلص 8 سنين حكم وما طلّعهوش، فضل معتقل سنتين فوق البيعة، خرَّجوا عدد كبير في نفس الوقت من دفعة 1954

ودفعة 1959. ومن ضمن اللي أفرج عنهم كان «هنري كوهين» اللي جه زارنا مؤخرًا مع ابنه علشان يسجل ذكريات سعد عن سجن الواحات .

عملنا احتفال كبير بمناسبة الإفراج عن الشيوعيين، وكل الناس دُول اتوجدوا مرة واحدة عندنا في البيت هنا في الدقي، واحنا اللي نظمنا الحفلة، حفلة شاي بكيكة وبتيفور بعد الضهر وفتحنا أوضة الصالون على أوضة القُعاد، وليلتها صلاح حافظ غنَّى لسيد درويش زي أيام تحية كاريوكا وحركة السلام، صوته جميل ومؤدي موهوب. الحفلة دي كان لها طبع شبه سياسي، حد قام قال كلمة ـ في شكل خطبة صغيرة كدا ـ عن المستقبل، وأكلنا وشربنا، كانوا مبسوطين. وقفنا أنا وسعد قدام الفاترينة جنب شباك البلكونة فرحانين بوجود الناس دي وسعداء إنهم واخدين راحتهم عندنا في البيت يتنقلوا من حتة لحتة، فسعد حضنِّي كدا من كتافي ووقفنا نتفرج سوا على اللمَّة دي واحنا مبتسمين، زكي مراد لقط المنظر دا وقال :

ـ إنتو عايزين صورة .

ما كانش فيه كاميرا، فأنا صورتها في دماغي، أجمل صورة، باشوفها على طول .

*

حكاية إن أبويا ما قدرش يسافر معانا إيطاليا وما ادُّولوش إذن العودة كانت القشة اللي قطمت ضهر البعير زي ما بيقولوا وخلت أبويا وأمي يسيبوا مصر. أبويا عاش واشتغل على أساس إنه مصرى، «خواجة» مصري، ولما اشتغل في «النمرو»-3، كان على أساس إنه مصري مش أي حاجة تانية. أسطى كهربائي بيسموه «مهندس»، مبسوط من الشغلانة، وصل لدرجة مدير وادُّوا له عربية واتعلم سواقة وبقى يسوقها، فلما ابتدا يقرب من المعاش وأصبح واضح إن عمره ما حيحصل على ورق الجنسية ويعيش عادي زي بقية الناس في مصر، ابتدا يفكر بجدية .

أخويا كان سافر هو كمان من غير أوراق الجنسية المصرية والكلام داير بين اصحابه إن الوضع مقفول بالنسبة للخواجات، صعب تلاقي شغل وصعب التقدم في الوظيفة وفي التعاملات المالية والممتلكات، حيتم معاملتهم كأجانب. «برتو» كان بيفكر في السفر من زمان، شاب صغير بيبتدي مستقبله، لما راح إيطاليا قرر يتجوِّز «إيلينا» وخد الجنسية بسهولة على أساس إن أمه طليانية واستقر هناك وجاب شغل في «فلورنسا» كمهندس تبريد ووضعه استقر هناك بسرعة نسبيًّا. الحقيقة ما اعرفش التفاصيل لأن أنا كنت في السجن ولما طلعت كان على وشك السفر وانا كنت مشغولة في وضعنا أنا وسعد ووضع البلد واصحابنا. وجود أخويا في إيطاليا ومنع أبويا من السفر بِحرِّية شجَّع أبويا في اتجاه الهجرة. بالنسبة لأبويا كان قرار هجرة، من ناحية أمي كانت تفضَّل إيطاليا جنب عيلتها، ابتدت تفكر في السنِّ الكبير وكانت ابتدت تتعب وتشتكي من الوساخة والتراب والزحمة في مصر. الوضع مش واضح بالنسبة للخواجات وأغلب أصحابهم وجيرانهم سافروا والبلد فضيت حواليهم، دي الظروف اللي أبويا قرَّب فيها من سن المعاش. في «النمرو» خيَّروه بين إنه ياخد مكافأة نهاية الخدمة أو يكمل يشتغل ويدفعوا له معاش شهري في المستقبل. واحد من المسؤولين الأمريكان في الشغل قال له :

ـ إنت لسه بصحتك وتقدر تشتغل، واحنا عندنا مركز «نمرو» كبير في «نابولي»، ممكن أوصّي عليك وتاخد المكافأة وتكمل تشتغل هناك، أنا ممكن أنقل لك المبلغ إلى إيطاليا .

أكيد أمي وأبويا حسبوها مع بعض لقوا إن دي أضمن حاجة. لو ما سافروش ممكن بعد كام سنة بَرضُه يضطروا يسيبوا البلد لأن الأوضاع مش مستقرة، وساعتها مش حيلاقوا العرض دا، وجود العرض دا حسم الأمر. لكن في النهاية يُعتبروا سافروا بخُطرُهم، السلطات المصرية ما رحلتهمش ولا طردتهم زي ما حصل لناس تانية، ضيَّقت عليهم فقط، وبسبب الشعور العدائي ضد الأجانب الـ «Xenophobia» ، مش مرتاحين كخواجات فسافروا لتوضيب أوضاعهم بشكل أفضل. أمي كان صعبان عليها تبعد عنك إنتِ :

ـ البنت الصغيرة دي، يا رب عايزة أعيش لغاية ما اشوفها متجوزة. يا رب إحنا دايمًا طماعين، في الأول بنقول نشوفها كبيرة وبعد كدا متجوزة وبعد كدا مخلفة، يعنى مش عاوزين نموت أبدًا .

خدوا القرار ونفذوه في 1965، وعفش أهلي طلع من جنب كوبانية النور من أبو العلا في صندوق خشب كبير وركب سفينة من اسكندرية استلمه «برتو» في «نابولي» في إيطاليا وأهلي سابوا مصر. فيما بعد عفش بيت أبو العلا راح مع «برتو» من «نابولي» إلى قرية «ريبا» وموجود هناك في بيته لحد النهاردا .

وقت سفر أبويا وأمي أنا كنت غرقانة لشوشتي في الحياة الثقافية المصرية بعد ما أصحابنا خرجوا من المعتقل. حسن فؤاد كان ألِّف مسرحية غنائية اسمها «الشاطر حسن» وألفريد فرج كان بنى مسرح في سجن الواحات وقرروا عايزين ينفذوا الإنتاج الفني اللي عملوه في الحبس. حسن فؤاد خد بيتنا مقر لتنفيذ الأوبريت هنا في الأوضة دي، أوضة الصالون مع فنانين غير محترفين، لمَّ حواليه مجموعة من الفنانين والأصوات الجميلة ـ حسن ميَّال لكل الفنون مش بس الرسم ـ ما كانش شاعر ولكن بيكتب حلو، وفيما بعد أصبح رئيس تحرير «صباح الخير»، وكتب سيناريو وبيضرب مزيكا كمان، واستخدم كل مواهبه دي في «الشاطر حسن». كل ليلة تقريبًا مجموعة «الشاطر حسن» يجتمعوا هنا، الكنبة والفوتيلات وكرسي من هنا وكرسي من هناك دايرن داير الأوضة وبعضهم يقعد على الأرض، ويحضر عدد كبير من الناس من ضمنهم واحدة جديدة على المجموعة اسمها نجلاء كانت بتشتغل في مسرح العرايس مع بدر صوتها حلو وعملوها بطلة المسرحية ـ بعد كدا نجلاء اتجوزت سمير عبد الباقي اللي أصبح مدير «المركز الثقافي السوفيتي » ـ مش فاكرة مين كان بيلعب دور «الشاطر حسن» والتلحين والإخراج والتمثيل كان في ساعتها. وأنا ورضا مرات حسن وصلاح جاهين وسيد مكاوي وبدر حمادة مصممة العرايس مرات بهجت عثمان الكاريكاتيريست وغيرهم كانوا بيحضروا معانا هنا في البيت بروفات «الشاطر حسن » على قعدة بسيطة، حسن يجيب شوية حاجات واحنا نحضر شوية حاجات. بالطريقة دي كل ليلة، جدو ونانا يقعدوا في أوضتهم، مش سايبينهم يناموا، واحنا متكدسين هنا في الصالون، وحسن فؤاد بالساعات يضرب مزيكا بالزيلوفون ويعمل مخرج. ممكن أقول لك إن احنا استمتعنا في الوقت دا كتير لدرجة إني ما اعرفش انتهت على إيه البروفات دي، اتعرضت ولَّا ما طلعتش في الآخر أوبريت «الشاطر حسن» كمسرحية غنائية للجمهور، اللي ظهرت واتشهرت كانت «الليلة الكبيرة»، فنانين من نفس المجموعة اللي عملتها . في الفترة دي ـ أوائل الستينات ـ طلعت مسرحية «الفرافير» ليوسف

إدريس . نسيت اللي كان عامل دور الفرفور عبد السلام محمد؟ المسرحية دي نجحت قوي جماهيريًّا. نجاح «الليلة الكبيرة» و«الفرافير » كان انتصار لنظريتنا، إن الجمهور لو يتعرض للثقافة يصبح مثقف . وصدرت أول مسرحية لسعد وهبة، أنا حبيته من قبل مسرحية «سكة السلامة». المسرحية الأولانية اللي اشتهر بيها، قصة خاصة بالظباط، بين المأمور والظابط، قصة يظهر عايشها بنفسه فقدر يصورها كويس ويكتب إزاي مرات المأمور بتؤمر. سعد وهبة ظابط وكانوا بيقولوا «شوفوا حتى بين الظباط في مواهب فنية». ومسرحيات ألفريد فرج كانت ناجحة في المسرح القومي بأحسن الممثلين وأشهرهم. نعمان عاشور عمل «الناس اللي فوق» و«الناس اللي تحت»، ومن أوائل الروايات اللي اتمثِّلت في السينما في الفترة دي «الحرام » ليوسف إدريس فيلم فاتن حمامة وهي بتعيط وبتقول «جِدر البطاطا»، حاولت تسقَّط نفسها وجالها حُمَّى وحتموت، وفتحي غانم طلع رواية «الجبل» اتعملت في السينما. كانت حالة من الانتعاش الفني والثقافي تشبه حالة بداية الخمسينات، دا الجو اللي كان لا يمكن ينتعش في وزارة عبد القادر حاتم، دي كانت أجواء ثروت عكاشة. أغلب الناس دي كانوا مسجونين ومنبوذين، ولما خرجوا الجرايد ابتدت تكتب عنهم وتحتفي بأعمالهم الفنية وتقريبًا كل ليلة نروح حدث ثقافي جديد كأنهم ما كانوش محبوسين. حاجة حلوة، فترة ثرية مليانة حرارة وحماس وحب لنظام جمال عبد الناصر، خلَّانا بَرضُه ما نفكرش إنه نظام دكتاتوري، الأضرار كانت كبيرة ما حسيناش بيها في ساعتها .

وضع سعد استقر في جريدة «الأخبار» شوية ومن ناحيتي حسيت إن الدنيا اتغيرت والمفروض يكون معايا شهادات أعلى، وإن أصحابنا الطلاينة اللي كانوا بيقولوا «الكفاح الكفاح» و«التعليم فكرة طبقية وتطلعات برجوازية» وخلوني أسيب التعليم وادخل السجن، أصحابنا دول مشيوا. كانت حاجة مش سهلة ليَّ ـ من غير شهادات ـ في مصر. في محاولة من المحاولات فكرت اشتغل في الإذاعة على أساس إن في الراديو بعد الضهر فقرات بالإنجليزي والفرنساوي والألماني واليوناني ونص ساعة إيطالي، فقلت لسعد، وسعد نجح يدبَّر مقابلة مع عبد الحميد الحديدي مدير اللغات في الإذاعة والمحطات الأجنبية. الحديدي بعتني يعملوا لي امتحان الإذاعة علشان اشتغل مذيعة في البرنامج الإيطالي. لبست ورحت في الميعاد وامتحنوني: قرأت لهم حاجة بالطلياني، وبعدين اختبار ترجمة، ومع إني كنت فاهمة العربي والإيطالي اللي مكتوب حسيت إني ما قدرتش أترجم كويس، مسألة ان الواحد يترجم من لغة للغة عاوزة شيء من التدريب، أعمل جملة واسيب جملة، اتلخبطت شوية وانتهت فترة الاختبار .

ـ عندك شهادات إيه؟

ـ ثانوي تجاري .

حسيت إنه قليل، مش جامعة، دا غير إن الشهادة اسمها ثانوي لكن هي المقابل للإعدادي .

ـ عندك عيب في حرف الـ «S» بيطلع صفارة في التسجيل .

أنا كنت عارفة إن عندي عيب في الـ «R» ما كنتش أعرف عن عيب في حرف الـ «S» كمان .

- آسفين، ابقي ارجعي نعمل لك اختبار في أشغال تانية .

رجعت لسعد :

- ما نجحتش .

- معلش خلاص .

- طيب ...

قررت أدخل التعليم من أول وجديد، حسيت إن ممكن أكمل دراستي وانا كبيرة. ابتديت أفكر واتكلم مع سعد «آخد ثانوية عامة بالعربي؟» كنت حاسة إن سهل عليَّ أمتحن ثانوية عامة من منازلهم، وساعتها ما كانش فيه كل الصعوبة دي في اختيار الكليات، أنا كنت احب أخش جيولوجيا زمان، فشوية أحلام جت لي في ذهني إن انط في الزمن وارجع تاني واحققها. راجي عنايت وحسن فؤاد ساعدوني في البحث عن إزاي الواحد يخش في موضوع تعليم الكبار، الجهة المسؤولة إيه؟ وإجراءات القيد فين؟ واروح لمين؟ اكتشفنا إن مش ممكن اخش امتحان الثانوية العامة إلا لو عندي الابتدائية العربي، يعني شهادتي مش محسوبة، ما تعادلش حتى ابتدائية مصري. نصحوني أمتحن ابتدائي للكبار اللي فاتهم سن المدرسة. أنا ساعتها كان عندي أكتر من تلاتين سنة .

- مش ممكن الثانوية إلا بالابتدائية، اهه، الفصل اهه، وبكذا فلوس في الشهر، لازم تحضري .

- مش ضروري الحضور أنا آخد الكتب وادرس في البيت وامتحن .

- لا ما ينفعش لازم تحضري .

راجل رزل تاني زي الراجل بتاع الجوازات اللي ما كانش عايز يدِّيني حق العودة قبل السفر لإيطاليا .

ابتديت أحضر فعلًا وجِبْت الكتب بس كان شكلي غريب، كنت أكبرهم، أغلبهم عنده حوالي 14 سنة. كان فيه واحدة أو اتنين كبار إلى حدٍّ ما، بس بطلوا ييجوا، يئسوا؟ أو يمكن بيتصلوا بالمدرسين وبالمدير، أنا لأ، كنت من غير توصية ولا علاقة من تحت لتحت فكنت باروح كل يوم. استمريت لشهور بس في فترة معينة ظهرت عندي صعوبة في الجبر والهندسة، بين الإيطالي والعربي كان فيه اختلاف وكان محتاج شغل كتير منِّي ويمكن مساعدة لغاية ما آخد على الرياضيات بالعربي. لا زالت لغاية دلوقت الأرقام في دماغي بالطلياني، وبعد كدا «الشَوْلة» - العلامة العشرية اللي اسمها «virgule» بالفرنساوي - كانت بتلخبطني علشان كانت عكس. الحكاية كانت عايزة عزيمة أكتر، اتدرب واستمر ويكون عندي التصميم إن أخلَّص، أنا الحقيقة ما عملتش دا، وفي الامتحان الأخير ما قدرتش. حصل لي نوع من اليأس وكمان شيء من الخجل إن أروح زي التلميذة الصغيرة بشنطة

تحت باطي وانا لابسة ست كبيرة واقعد في وسط التلاميذ الصغيرين دُول، استمريت الشوية دول وبعدين سِبت .

سِبت كمان لسبب تاني .

في التوقيت دا جت شغلانة «دار الهلال ».

ظهرت في حياتنا صحفية اسمها حُسْن شاه بتشتغل في مجلة «آخر ساعة»، تعرف سعد من مؤسسة «الأخبار»، وابتدت تفكَّر تكتب عن المرأة، وجت لنا البيت نتكلم عن قضية المرأة واللي أعرفه عن الحركه النسائية في إيطاليا وأوروبا، كانت محررة ممتازة واهتمت بكل اللي حكيته لها. في نفس الوقت «دار الهلال» كانت بتصدر مجلة «حواء» وأمينة السعيد كانت مؤسِّسة المجلة ورئيسة تحريرها، مجلة ناجحة وبتدخل كل البيوت لدرجة إن أنا لما اتجوزت وجيت هنا في البيت لقيت حماتي بتشتريها من يوم ما ابتدى إصدارها وعندها كل الأعداد محتفظة بيهم، ما ترميهمش. رئيس مجلس إدارة «دار الهلال» كان صديقنا أحمد بهاء الدين، اتصل بي وقال لي إن محتاجين صحفيين جداد في «حواء» وبعتني لأمينة السعيد، بهاء بالرغم من إنه صديقنا لكن عمرنا ما كنا اتكلمنا مع بعض وما كانش عنده فكرة إن عندي شيء من الثقافة في قضية المرأة، هو استشار حُسْن شاه وهي رشحتني. السبب في الحركة دي في «حواء» إن مصطفى وعلي أمين كانوا على وشك يطلَّعوا مجلة للمرأة اسمها «هي» من «أخبار اليوم» أعتقد بالاشتراك مع مجلة «Elle» أو «هي» الفرنساوية المشهورة، ياخدوا صور منها، فـ«دار الهلال» قلقوا من المنافسة وفكَّروا يدعموا «حواء» بناس جديدة ويعملوا تغييرات. ما اعرفش حُسْن شاه قالت لبهاء إيه عني، بس احنا كنا اتكلمنا عن سيمون دي بوفوار في فرنسا وحركة إباحة الطلاق في إيطاليا، وحركة إباحة الإجهاض في فرنسا، بشكل عام الحركة النسائية كانت بتنمو وبتتأسس في أوروبا وانا كنت متابعة .

رحت قابلت أمينة السعيد :

ـ تحبِّي تكتبي عن إيه؟

ـ طب ما ننشر صور للملكات والأميرات والحاجات اللي زي دي .

أنا مش قادرة أنسى رد فعلها، سكتت خالص .

ـ دي حاجات الناس بتحب تقراها وحتى اللي ما بيقراش يحب يتفرج على الصور. المجلات زي «Elle» و «Epoca» في إيطاليا، مليانة صور للعائلات المالكة .

ما قلتش إن أنا بالذات باحب اتفرج قلت «الناس بتحب تتفرج»، أمينة السعيد الله يرحمها بصت لي كدا وقالت بهدوء :

ـ بس مش تفتكري الحاجات دي فات أوانها ومش وقتها؟

ـ آه يمكن عندك حق، بس لسه الناس بتحب تتفرج عليها .

أكيد قالت عليَّ ست مجنونة، أنا جاية لها بتوصية على أساس إني مناضلة كبيرة خالص وشيوعية ومتشددة وطالعة من السجن وبعدين أقول لها نحكي حكايات الملوك والأميرات؟

بعد شوية سألت تاني :

ـ طيب، تقترحي إيه موضوعات غير كدا؟

ـ أحب اكتب عن حاجة خاصة بالمرأة في إيطاليا .

ما كانوش اخترعوا بامبرز جاهزة، الأمهات كانت بتجهِّز حتت قماش وكنا بنخيَّطها على اليد أو على المكنة وبنغسلها وننشرها، كانت حاجة مرهقة والغسالات ما كانتش فول أوتوماتيك والصابون ما كانش بيرغِّي ولا بيتشطف زي دلوقت، وكنا بنستعمل الدبابيس الإنجليزي علشان الكافولة ما تفُكِّش من على العيِّل ولازم الواحد ياخد باله لاحسن الدبوس يتفتح ويشكشك بطن البيبي. مجلة «نحن النساء» نشروا باترون لطريقة سهلة للربط بدون استخدام الدبابيس، وانا نفذت الكافولة دي علشانك، جبت قماش البافتة وقصِّيت الباترون وخيَّطت الحروف على المكنة وأمي صممت أعمل 12 كافولة قبل ما تتولدي، وطلعوا ناجحين بصحيح. قدمت لأمينة السعيد الفكرة دي :

ـ هايل، كويس .

وسَمِّت المقالة «رسالة روما: طريقة مبتكرة لعمل الكافولة» والمقالة نجحت وأعتقد إني احتفظت بالعدد دا من «حواء».

مع كل شيوعيتي وكل الجمود اللي كان عندي في البداية ولفترة طويلة، ما بطلتش أهتم بما يكتب عن العائلات المالكة، وتقريبًا أعرف أسامي معظم البرنسيسات والأميرات بتوع أوروبا. ولغاية دلوقت لو فيه مقالة عن الملوك القدام أو الحاليين أقراها على طول. قصصهم بتعمل لي راحة والحكاية دي بتضحكني على نفسي. ولما جيت البيت هنا لقيت حماتي محتفظة في درج من الأدراج بالمجلات اللي كانت بتنشر أخبار الملوك، واحتفظت بيهم بسعادة ولسه موجودين. بَرضُه دا فيه نوع من التناقض مع الشدة والجدية اللي خدت بيها الفكر الماركسي والشيوعي والكفاح لأن المفروض الملوك برجوازيين، أعداء الشعب. ممكن هم أعداء الشعب فعلًا، لكن المتعة دي مش موقف سياسي، أنا باحب الحواديت. عمومًا الجو هنا في مصر كان ماشي عكس الحواديت، الجو كان بناء الاشتراكية والطبقة العاملة وعدد الكراسي في البرلمان، كام كرسي للعمال وكام للفلاحين .

تاني حاجة نشرتها هي الكولونات شرابات طويلة توصل لحد الوسط زي الملابس الداخلية، كان اختراع جديد. الستات عادة يلبسوا «jarretière» ، اللي هو حزام على الوسط فيه شرايط بتنزل منه لأول الفخد تشبك في الشرابات الحريمي وتمسكها علشان ما تقعش والحقيقة إنها كانت طريقة مش مريحة في اللبس. الكولون نجح وانتشر واللي يعرف حد مسافر بره يوصِّيه يشتري كولونات.

طلعوا أنواع كولونات دانتلة وكروشيه ومزركشة وبَرضُه دا كان تجديد، الشرابات الحريمي كانت سُودة للخروج بالليل أو بيج لون الجلد بالنهار. انتشر الكولون اللي ابتدا من فرنسا في العالم كله. قدمت صور من الكولونات المزركشة، وبَرضُه المقالة دي عجبت القراء فطلبوا مني أفكار من النوع دا. أنا كنت راجعة من أول سفرية لإيطاليا، وكنت مبهورة، مثلًا أول مرة أركب السلم الكهربائي، اتخضيت وخُفت ومسكت الدرابزين، حاجة جديدة الواحد يطلع وينزل والسلم بيتحرك تحته. أنا دلوقت بافكر إني اهتميت أكتب عن مواضيع الكافولة والكولون وحتى السلم الكهربائي بشكل عفوي لأنهم سهِّلوا حياتي وساعدوني اوَفَّر شوية طاقة ووقت لاهتماماتي التانية، كنت مشغولة بدوري كأم وعندي اهتمامات سياسية وثقافية فباكتب مواضيع بترد على احتياجات واحدة عايزة تكون أم كويسة وفي نفس الوقت عندها اهتماماتها العامة. بعد كام مقالة ما لقيتش في تفاصيل البيت الأوروبي مادة أكتر تهمنا، بقوا يعملوا جاهز وأوتوماتيك فإيه معنى إن أنا أقعد أنشر صور مطابخ ممتازة مليانة مَكن مش متوفر في مصر؟ فترة جمال عبد الناصر الاستيراد كان ضعيف وما كانش فيه حاجات من بلاد بره، ولما ابتدى الاستيراد في السبعينات الحاجات دي دخلت بس بَرضُه مش في متناول الناس، ومش كلها مفيدة فيه حاجات استهلاكية، فزهقت من الموضوع وجذبتني الكتابة عن الحركة النسائية. مرة أو مرتين أمينة السعيد سألت :

ـ ما عندكيش أفكار زي أفكار الكافولة؟

وانا لما كنت بالاقي حاجة مفيدة كنت بانشرها، بس سِبت نفسي لأخبار وأفكار الحركة النسائية في فرنسا وفي إيطاليا زي كلام سيمون دي بوفوار، والحكاية استمرت بالشكل دا وما رجعتش تاني لمواضيع الموضة .

دي قصة بداية الكتابة في «حواء» كان فيه ناس لُطاف في المجلة زي إيفون رياض، سكرتيرة تحرير استقبلتني كويس وفضلنا اصحاب، صداقة عمر، وكان فيه مدير تحرير عرفت بعد كدا إنه كان من التقدميين زمان، تعاطف معايا ونشر الباب بتاعي وشجعني للأسف مش قادرة افتكر اسمه. رعاية النمر دخلت «حواء» في نفس الوقت معايا، كانت تخصص ديكور وخبيرة في الفنون والحلي الشعبية، ادُّوها صفحة علشان تكتب وتنشر صور، أنا ورعاية اتصاحبنا وبقت صداقة عمر واتجوزت أبو العينين على إيدينا أنا وسعد، وكان فيه إيفون ماضي بنت زوزو ماضي الممثلة المعروفة اللي قابلتها في السجن، ملكة جمال سابقة ومصممة أزياء، وكان فيه واحدة تالتة، كنا أربعة جداد ككل. مش كل الناس كانوا لُطاف، كان في واحد متضايق منِّي وبيحاول يضايقني من أول يوم، اسمه أحمد زكي عبد الحليم، لقيته في «حواء» لما ابتديت اكتب وكان محرر صغير، بعد كدا بقى مدير تحرير وبعدين على المعاش وعنده الصفحة بتاعته لغاية دلوقت في «حواء ».

وفي يوم في سنة 1966 ضرب جرس الباب في البيت هنا، اتنين ظباط ـ تاني .

ـ السيدة نايلة كامل؟

نايلة كامل؟ قبل كدا كتير من موظفين الإدارة المصريين كانوا يصمِّموا ضروري ينادوني «ماري روزنتال» مع إني كنت غيَّرت اسمي وأسلمت من سنة 1954. المرة دي الظباط سألوا عن «نايلة كامل»، فأنا وسعد رحنا نستقبلهم مع بعض على الباب :

ـ مبروك الجنسية. الجنسية المصرية اهه .

من كتر فرحته سعد حاول يدخلهم :

ـ طب تشربوا حاجة، ما يصحِّش .

ـ لا متشكرين قوي متشكرين قوي .

الظباط كمان كانوا مبسوطين، أصلهم ظباط جايبين خبر حلو، بيلاقوا ناس مبسوطين، بدل ما يروحوا يقبضوا على الناس، بيلاقوا ناس بيعيطوا. المهم ما رضيوش يدخلوا بس كان وشهم مبتسم ومنوَّر، سعداء بينا، نزلوا ومشيوا فرحانين. دفتر الجنسية دا موجود، الجلدة بتاعته وحشة قوي بتلزق في كل حاجة كأن فيها صمغ، فحطيتها في ورقة فلوسكاب عادية فلزقت فيها بَرضُه ومش راضية تطلع ومش عارفة حاصلَّحها ازاي. بس إيه خلاص خدت الجنسية المصرية، أنا كنت عشت بالإقامة أكتر من 5 سنين وانتِ اتولدتِ في الأثناء دي وحاجات كتير حصلت. ومن ساعتها ما قابلتش أي مشكلة إدارية ولا بسبب الدين ولا بسبب الجنسية، باطلع جواز السفر عادي زي بقية الناس. كنت ساعتها ابتديت اشتغل في «دار الهلال»، وكانوا عارفين إن ما معاييش الجنسية المصرية، فرُحت لمسؤول الإدارة سعيدة وقلت له :

ـ أنا حصلت على الجنسية المصرية خلاص، قَيِّد كدا عندك في الدفاتر .

كنت عاوزة أجيب خمس أو ست عيال، نص دستة، واعمل شوية زي «جولي أندروز» في فيلم «صوت الموسيقى»، باحب الأولاد وقعدت أتمرن في تربية مها بنت جمال عمِّك ولميس بنت جميلة عمتك، ولكن طلع إن الواقع غير كدا. العناية بطفل صغير حاجة كبيرة، ومش كل الأطفال زي بعض، طفل مليان حيوية وإرادة للطلبات البيولوجية زيِّك، جعانة أو أي حاجة، بتطالبي بالصريخ، والصريخ كان بيدوس على أعصابي وانتِ مش دريانة بيَّ. شوية الخناقات اللي كانت بتقوم بيني وبين سعد في الحياة اليومية العادية زادت، إحنا نحب الثقافة والسياسة والحياة العامة بس من غير ما ناخد بالنا أنا كنت باطلب منه يكون زوج ليَّ وأب ليكِ في صورة تشبه لأبويا، راجل إيده في البيت يساعد ويصلَّح ويخطط، بس سعد كان العكس خالص. وهو كمان كان بيطلب مني إني أكون صورة من أخته جميلة في علاقتها مع علي الراعي، أو نانا مع جِدُّو بس دا ما كانش متاح. لما ابتديتِ تتكلمي قلت لنفسي «ولا خمسة ولا ستة، هو عيِّل واحد وبس» وقررت لو ييجي حمل تاني حاعمل إجهاض، وحصل، وفعلًا عملت إجهاض. لما عملت إجهاض ما كنتش اعرف لو كنت حامل في ولد ولَّا في بنت، ما كانش لسه فيه التكنولوجيا دي، بس حماتي كانت مقتنعة إن أنا نزلت ولد، ما كانتش مبسوطة من اللي عملته وما قالتش حاجة. على أي حال أنا ما سألتش حد، وسعد قال لي اعملي زي ما انتِ عايزة. اللي ساعدتني صاحبتي سهير، حكت لي إن هي وجوزها من النوع اللي ما نفعش

معاهم أي نوع من موانع للحمل، بتحمل من الهوا وبتحلف إن جوزها بس يعدي جنبها بتحمل، وكنا بنضحك. دلِّتني على دكتور بيعمل لها العملية دي في ميدان السيدة زينب وما بيسألش «ليه» أو ينصح «ما بلاش»، ادِّتني العنوان ورحت لوحدي والراجل ما سألش فعلًا وعملت العملية في صُبحية في بحر ساعتين تلاتة، على بعد الضهر كنت رجعت البيت، وخلاص انتهت المسألة وانا ما فكرتش في الموضوع. ابتدى ييجي لي صداع وكانت بتمسكني حالة نوم، أنام في وسط النهار كدا. شريف حتاتة قال لنا على د. أبو شادي الروبي زميله في الكلية :

ـ دكتور كويس، مش مسألة يحفظ ويذاكر ويطلع الأول في الكلية، بيستعمل ذكاؤه .

وفعلًا أبو شادي الروبي سمعني كويس .

ـ بانام كتير، مثلًا كبس عليَّ النوم هنا في العيادة عقبال ما اخش عندك ونمت وانا قاعدة .

ـ إهِّيه؟ نمت دلوقت؟

عمل أشعة على المخ وعلى الجمجمة وكشف على العينين علشان يستبعد شوية حاجات :

ـ عندك كسل في الغدة الدرقية .

هو اللي اكتشف المشكلة دي ووَدَّاني عند أخصائي، وابتدت بقى المسيرة الطويلة بيني وبين الغدة الدرقية. وبقى عندي ثقة كبيرة في أبو شادي الروبي، وبقيت آخد عنده الناس، فضيلة مرة عِيت فقلت أنا حآخدك عند أبو شادي الروبي، وخدتها ودِّتها. ولما عيي خليل في العزبة ما كُناش فاهمين إيه تشخيصه، كان عنده بلهارسيا وراح مستشفى الفيوم وادُّوا له أدوية ومفيش تحسن، فخدت خليل وديته عند أبو شادي الروبي. أبو شادي الروبي استغرب إن أجيب له عيَّان من الفلاحين، كشف عليه بدقة وقال لي عنده مرض نادر، فيه نوع من الزيوت بينقص في مراكز الأعصاب، وبيؤدي إلى شلل بطيء، مفيش دوا له إلا إنه يتعمل عليه أبحاث، وكتب له دخول القصر العيني وعملوا شوية تجارب وما جابتش نتيجة، حالته زادت مع الوقت. خليل كان المسؤول عن الأرض كلها، فلما عيي كدا جابوا واحد يساعده اسمه محمد علي، شاب صغير وابتدا محمد علي الشغل تحت إشراف خليل. أنا كنت مستمرة في المرواح للعزبة وكنت متابعة الناس هناك وهم ابتدوا يتابعوني وطلعت لي واحدة اسمها أم حسين مرات عم عبد الله، لسانها طويل جريئة ومقتحمة أكتر من أي ست تانية هناك، تيجي لي البيت :

ـ سلاما لااه ...

هم بيتكلموا كدا في الفيوم، الكلمة تدوب في الآخر وتختفي قبل ما تخلص بكذا حرف، مثلًا نفُّوسة ينادوا عليها «يا بااااه... يا نِفُّوووه...» يعني «يا بِت يا نفوسة». المهم إن «مُحساه...» ـ أم حسين ـ تدخل عليَّ البيت وتسلم وتقعد من غير عزومة، تنكشني وتهزر معايا، خواجاية بقى ومش فاهمة

الهزار بتاعها بسهولة وهي تقول حاجات نص جد نص هزار. يملكوا حاجات محدودة، بهيمة أو بهيمتين، ومرة جابت لي كام بيضة وقالت لي :

- أنا جبت لك دح .

أنا ما اعرفش الدح دا إيه، فضلت تضحك عليَّ إن ما اعرفش الدح وضحَّكت عليَّ العزبة كلها، والفروجة اللي هي الفرخة وكلمات تانية، اكتشفِت إن أنا مش فاهمة كل كلامها فتعاكسني وكانت تضحك على كل حاجة أنا مش فاهماها، نص جملة هنا وكلمة هناك، كلمات كتير لها معنى وإيحاء تاني، فإذا أنا مش عارفة المعنى الأولاني أكيد مش عارفة المعنى التاني، وتضحك. كتير مصريين ما يعرفوش الكلمات دي، كلمات محلية وممكن مناطق تانية من مصر بيسمُّوها حاجة تانية، وبالذات في المدن ما يعرفوش، بس هي كانت تحب تعاكسني. إنتِ كنت بتسافري العزبة مع نانا تقعدي معاها بالشهر، تروحي لأم حسين تلعبي مع بناتها وكانت بتتكشك كتير انتِ كمان. عم عبد الله جوز أم حسين راجل طيب ولطيف وفلاح قديم بيفهم في الزراعة لما جِدُّو جه سيلا جابه معاه هو وعشري ومسِّكهم مسؤولية الزراعة فنيًّا، كانوا فلاحين مَهَرة، دا بالمقارنة لخليل اللي ما كانش «فلاح» وانما «من العرب». كان اكتشاف إن مش كل الفلاحين فلاحين، بيقولوا «خليل من العرب، بيربِّي الغنم، مش فلاح»، ومع ذلك مدير الزراعة في العزبة ومساعد جِدُّو علشان «عنده أمانة». خدوم يعرف يتعامل مع العيال، ولما تتشاقي كنا نقول له :

- يا خليل خلِّي بالك من نادية شوية .

يشيلك ويكلِّمك وياخدك معاه على الجرَّار، كنتو بتحبوه. حاجة تانية بتميز خليل إنه كان بيسمع الراديو، ناس العزبة والقرى اللي حواليها ييجوا يسمعوا الراديو معاه، ذكي ومثقف، ولما الضيوف تيجي وبالذات أصحاب سعد يحب يقعد معاهم يسمع ويتناقش ويسأل .

أم حسين عندها تلات بنات، واحدة منهم اسمها نادية، اتجوزوا كلهم، وأولادها حسن وحسين ويوسف ما حدش فيهم طلع فلاح، أعتقد حسين اتوفى زمان، اتعرفنا على يوسف ابنها وهو ولد صغير عنده عشر سنين وكان وشه مدوَّر وجميل، نانا جابته لبيت الدقي متصورة حتعلِّمه يساعدها في البيت زي ما علِّمت محمد السنوسي، يوسف ما استحملش مش عاوز يتعلم يكنس، بالنسبة له شغلانة مش للرجالة. محمد السنوسي من النوبة أو من الواحات، فيه عنده شيء من المرونة والثقة، عادات وثقافة مختلفة. أشرف حفيد أم حسين كان بيجي لي هنا أساعده يذاكر إنجليزي وفرنساوي علشان يقضي الامتحانات، وبعدين كبر وبيشتغل سباك وعنده ولد وبنت .

في فترة خروج المعتقلين وبداية شغلي في «حواء» وحصولي على الجنسية وسفر أهلي ابتدت العيال تكتر حواليكِ، عدد كبير من العائلات الشابة، حلمي التوني ونادية-إيفون مخلِّفين ريم، بهجت عثمان وبدر حمادة عندهم هشام ووليد، سميرة شفيق وإيهاب شاكر خلِّفوا شهد وياسمين، راجي عنايت وشويكار جايبين جمال وليلى ومنى، وطبعًا بهاء وديزي كان عندهم ليلى وزياد. ليلى بالذات، كانت يا دوبك أكبر منك بسنة، وابتديتوا تلعبوا وتتخانقوا على طول من أول مرة قابلتوا بعض. ساكنين جنبنا وبيسعدني إن ديزي تسيب ليلى تيجي تبات معاكِ لما كانت ديزي عندها

التزامات اجتماعية مع بهاء، وفي أعياد الميلاد تجيب قرايبها في بيتها وعيال كتير وانتِ من ضمنهم. أنا خدت على ديزي وهي خدت عليَّ، عِرْفِت إزاي تعاملني وتدخلني في مجتمع من المجتمعات المصرية، مصر فيها مجتمعات كتير مختلفة وانا ما كنتش بافهم الفروق، فكنت باكتشف على إيد الناس اللي حواليَّ. أحمد حمروش قال لسعد :

ـ اشترك في نادي الجزيرة، أرشحك وتبقى عضو، دي حاجة مريحة للعيلة وبتساعد العلاقات الاجتماعية .

اشتركنا ورِحنا حمَّام السباحة أنا وديزي، كنتو صغيرين ودخلناكم البيسين الصغير انتِ وليلى، وقعدنا نسلِّي بعض، فجأة ديزي قالت :

ـ ليلى، ليلى، ليلى .

ودخلت البيسين بصندلها وانتشلت ليلى، أتاري ليلى شِرْقت وابتدت تكح وتغطس في الميه وانا مش واخدة بالي، من ساعتها ما رحناش تاني من غير دادة، حتى لما كنت باخدكم لوحدي ومش حانشغل في الكلام، ديزي كانت بتبعت معايا الدادة احتياطي علشان لو أنا سرحت. ديزي خلفت زياد لما كان عندكم 4 و5 سنين ورحتوا المستشفى انتِ وليلى مع بعض وشلتوا النونو الجديد وكنتو متحمسين أنا خدت بالي وسكت، بَرضُه ما جبتش عيال تاني. انتِ دخلت الحضانة وابتديت تقولي لي :

ـ أنا معنديش اخوات ليه؟

وبعدين في مرة رحنا صيِّفنا في أبو قير مع شلة أصحاب، ونسيم هنري صديقنا النحَّات قعد يبص لك وانتِ بتلعبي في الرمل ويرسم البروفيل بتاعك على الرمل، وقال :

ـ بروفيل ملايكة «ميكلانجلو» اللي في الفاتيكان .

كنتِ هديتِ ونسيتِ الموجة الأولى من العياط والصريخ اللي الحب فيها بيكون نظري شوية، كبرتِ شوية ولما العيِّل يكبر الأم والطفل ياخدوا على بعض، العيِّل يحب الأم أكتر، والأم تحب العيِّل أكتر، وقلت يلَّا نجيب عيِّل تاني، كان متأخر شوية بس مش قوي .

*

في نفس صيف 1966، نانا وجدو راحوا يصيِّفوا في راس البر زي كل سنة وسعد قال لجدُّو :

ـ ما تاخدوا «ماري» ونادية معاكم؟

وأنا علشان أعرف آخدك قلت لديزي :

ـ ما ناخد ليلى معانا؟

لطيف من ديزي يكون عندها ثقة تسيب بنتها تسافر معانا، ولطيف من نانا وجدو ياخدونا في المغامرة دي. السفر كان بالقطر لغاية دمياط ومن دمياط ناخد تاكسي لعشش راس البر، جِدُّو عارف السكة والإجراءات، كبر في السن بس نشيط ورئيس رحلة، مش يقف وما يبقاش عارف يتصرف، لأ، قائد مريح. سكنّا في عشتين جنب بعض، نانا وجدو في عشة، واحنا في عشة . العشة فيها سريرين إنتو في سرير وانا في السرير التاني وفيها دُش وكابينيه وفراندا. إنتِ وليلى برطعتوا في الرمل ولا همُّكوا إن الشط زلط وان الرمل إسود، كنتو بتجروا بين الميه والشط طول النهار وبعد الضهر نركب الطفطف ونروح السوقِ. اشترينا كابوريا، وبيَّاع الكابوريا عنده فرن سويناها عنده ورجعنا العشة متأخر والدنيا كانت ضلِّمت والكابوريا عايزة نور علشان مش سهلة، قعدنا في فراندة العشة على اللمبة السهاري اللي فوق باب الأوضة، ونزلنا فصفصة ومصمصة في العتمة . بعد ما نرجع من البحر لعبتكم المفضلة كانت إن تنطوا من بلكونة عشتنا لبلكونة عشة نانا وجدُّو، لحد ما ليلى وقعت من على السور والحيطة كانت خشنة فاتخربشت واتعورت، أنا قلت «يا دي المصيبة الأجازة باظت» بس ليلى ما همَّهاش، نضَّفنا الجرح وكل ما تنزل البحر المالح توجعها شوية وتكمل تلعب وتنبسط، ما كانتش بتعيط بسهولة. شعر ليلى كان طِويل ما شاء الله لغاية وسطها، وغزير، جيت اسرَّحه ما قدرتش عليه، فقررت مش ضروري نسلِّكه كل يوم، تنزل الميه بالضفاير ونشفها وخلاص. أخدنا شوية صور في منطقة الجربي على اللسان اللي بيفصل بين مَيَّة البحر ومَيَّة النيل، ورجعنا بالسلامة وانا ما حسيتش بتعب كبير رغم إني كنت حامل في الشهر السادس تقريبًا .

يظهر إني كنت في حالة نشاط لأن في نفس الصيف بعد راس البر أخدتك انتِ وليلى وعيال جميلة التلاتة لميس وليلى وأحمد، ودينا كمان في بطني، ورحنا اسكندرية في بيت ديزي، وكان عندها كابينة على البحر في سيدي بشر3، زياد كان بيبي صغير فقعد مع أمه في مصر، وسعد كان مشغول بيحضر ويسعى للثقافة الجماهيرية. خدتكم لوحدي. ركبنا الأتوبيس الصحراوي واخدنا تاكسي في اسكندرية ودخلنا بيت ديزي خمس عيال وأنا، خليتكم توضَّبوا معايا وتنضَّفوا، مأموريات بسيطة على قدُّكم وانتو كنتم متعاونين، لميس كانت الكبيرة، عشر سنين ونص ما تمتش حداشر، شاطرة وتعرف تشغلكم، وليلى الراعي بنت جميلة تمن سنين وسميناها ليلى نمرة 1، وأحمد أخوهم الصغير ست سنين، وليلى بهاء بنت ديزي - ليلى نمرة 2 - خمس سنين وانت كنت أصغر واحدة أربع سنين .

- يلَّا يا ولاد نروح السوق نشتري أكل ونرجع، كلنا حنشيل .

رحنا سوق خالد بن الوليد على رجلينا ما حسيناش بالتعب، وكنتو مطيعين، حاجة غريبة. ابتدينا نشتري كل حاجة نحبها، شمَّامَاية، بطيخاية، وأنا الكبيرة العاقلة اللي فيكو ما فكرتش في الرجوع، جبنا عيش وجبنة ولحمة وأكيد كنت ناوية أعمل مكرونة، حاجات كتيرة، كل واحد فيكم كان شايل شيلة أكبر منه والبطيخة تقيلة. حنرجع ازاي بالشيلة دي؟ مش لاقيين ركوبة، ولا تاكسي ولا أتوبيس، زحمة خروج الموظفين واضطرينا نرجع على رجلينا لغاية البيت، وصلنا ميِّتِين من التعب ولكن جايبين ثروة. عايزين كمان لازم نروح البحر نفس اليوم، هو احنا حنقعد في البيت؟ ما طبخناش جبنا فطير، يعني اللي نفسنا فيه عملناه، كنا بِحُرِّيتنا خالص، وانا كنت باحس روحي... مفيش فرق بيني وبينكم، يا إما عقلي كان صغير للدرجة دي يا إما إنتم كنتم سعداء بشوية الحرية وشوية المسؤولية اللي واخدينها مع بعض، فعقلكم كبر، المهم إن كنا شغالين كويس سوا. مشينا لغاية

الكورنيش ولازم نعدِّي الشارع، أنا عاوزة آخد إيديكو كلكم، فاخدت كل اتنين في إيد، ولميس قدامي علشان نعدي الشارع وعدِّينا. الكورنيش ما كانش زحمة زي دلوقت بس واحنا راجعين لميس ابتكرت طريقة : هي الصول أو الظابط في أول الطابور وانتم العساكر ورا بعض والأقصر في الآخر خالص وأنا ورا الكل :

ـ واحد اتنين واحد اتنين .

ـ قف .

ـ إلى الأمام سر .

ـ للخلف در .

جابت ألفاظ الجيش والإيقاع وبقينا نعمل كدا على طول، ما نمشيش إلا بالطريقة دي في كل حتة، لميس الرئيسة أو القائد وانتم وراها زي الألف وانا في آخر الطابور والعربيات تقف والناس تبتسم لنا وتشاور لنا. جوه البيت وزَّعنا المسؤوليات أحمد يحط ويشيل السفرة، ليلى 1 توضَّب السراير، لميس الأكبر تكنس وتنضَّف، أنا أطبخ، ومين يغسل الطبقان؟ ليلى 2 ونادية. إنتِ وليلى ما توصلوش للحوض، فلميس اللي ما عندهاش 11 سنة عندها حل لكل حاجة، جريت جابت طشت غسيل كبير من الحمَّام، قلبته وحطته قدام الحوض. الطشت ضخم لدرجة إن انتو الاتنين وقفتوا عليه جنب بعض قدام الحوض وغسلتوا الطبقان بالصابون والليفة وشطفتوهم. عندكم 4 و5 سنين وعملتوا العمل بالكامل والله .

يظهر جميلة ونانا في مصر كانوا بَرضُه قلقانين، خصوصًا جميلة فِضلت تقول لسعد :

ـ ما تروح تقعد معاهم شوية مش معقول «ماري» لوحدها بكل العيال .

ما كانش فيه تلفون في بيت ديزي فكنا نتصل نطمِّنهم من السنترال كل يوم، في يوم اتكلمنا قالوا لنا سعد جاي لكم بكرة. اتلمِّينا كلنا نستناه في الشباك ولما التاكسي وصل وسعد نزل منه جريتوا كلكم على السلم وخرجتوا جري من باب العمارة تستقبلوه وانتو بتصرخوا: «خالو» «أنكل» «بابا» فالسواق لما شافكو تتشعلقوا على رقبة سعد قال :

ـ ربنا يخلِّي! ربنا يخلِّي !

آخر يوم في الرحلة ما كفاناش السوق أول مرة، نزلنا تاني واشترينا كابوريا. اشترينا الكابوريا صاحية والراجل وهو بيبيع لي كان بيحرَّكهم علشان يوِّريني إنهم طازة، كنتم مبهورين اننا واخدين كابوريا صاحية البيت. الواحد يسقط الكابوريا في الميه المغلية على طول وهم لسه عايشين، وقعدنا نقزقز كابوريا. تاني يوم الصبح واحنا بنجهز للمرواح ليلى نمرة 1 جت تجري من المطبخ :

ـ الحقوا الحقوا .

ورحنا كلنا وراها لقينا كابوريابة صاحية بتتمشى جنب الحوض، عملت لنا حالة من الحماس الكابوريابة الشاطرة اللي هربت مننا. يا ترى عملنا بيها إيه؟

*

سعد كان اتعيِّن مع صلاح حافظ مدير تحرير مجلة «آخر ساعة»، بابا في الوقت دا كان عامل هيصة بقدرته إن يخلِّي «آخر ساعة» مليانة حيوية، مثلًا فاكرة إنه بعت كمال القلش على صندل في النيل لمدة كذا يوم يعمل تحقيق صحفي، ومستمر يشارك في المجلس الاستشاري لثروت عكاشة لتجديد برنامج وزارة الثقافة، وكنا مستنِّيين صدور قرار رسمي بإنشاء هيئة الثقافة الجماهيرية وتعيين سعد كأول مدير عام، يعني يأسس الهيئة، فكرته وتصوره ورؤيته، مستنِّيين بس جمال عبد الناصر يمضي على قرار. فوجئنا بجواب جاي لسعد «أمر بإيقافه من العمل في «آخر ساعة » لغاية صدور أمر مختلف». تلفونات من هنا وتلفونات من هناك، إيه بس الحكاية؟ الأمر جاي من الرئاسة، يعني إيه؟ من جمال عبد الناصر شخصيًّا؟ ليه كدا؟ حصل إيه؟ الحكاية دي قعدت يوم واحد، الليلة اللي بعديها جه أمر بإلغاء الإيقاف وعودته للعمل. تصوَّري إن أنا لغاية دلوقت مش فاهمة حصل إيه؟ كل حاجة بتحصل ورا كواليس الحكم، وانا كنت مشغولة، حمل وطفلة وبيت والموضوع عدَّى بسرعة فما عرفتش التفاصيل. هيكل كان أهم مستشاري الحكم وهو بس اللي يقدر يكتب الحاجات اللي بيكتبها في صفحة مشهورة أظن كان مسمِّيها «بصراحة»، وكان رئيس تحرير «الأهرام» كمان .

بس كانت صدمة .

حسن فؤاد كان بيشتغل مع عبد الرحمن الشرقاوي على سيناريو فيلم «الأرض». الشرقاوي متعوِّد يأجر بيت في آخر شارع خالد بن الوليد من ناحية البلاج ويصيِّف فيه، حسن فؤاد أجَّر شقة أوضتين على السطوح تقريبًا على بعد خطوتين منه ونقل هو ورضا على اسكندرية. ما كانش عندهم آلة كاتبة، الشغل كان بالإيد. رحنا نقضي كام يوم معاهم ورضا ست بيت ممتازة، وكويسة مع الضيوف، جابت معاها سيدة الست اللي بتساعدهم في مصر، مقيمة عندهم ومع رضا من سنين وربِّت منى بنتها، ست شاطرة بتشهِّل كل حاجة. رضا تقوم الصبح بدري قبل ما نصحى وتروح مع سيدة البحر تعوم، يرجعوا نكون يا دوبك بنقوم من النوم. سيدة تحضر لنا الفطار وبعدين ننزل شاطئ سيدي بشر، ورضا تيجي معانا بس تقعد على الكرسي تحت الشمسية وتشتغل برودرى أو بيتي بوان - شغل إبرة - ما تنزلش البحر تاني، نرجع نلاقي سيدة محضَّرة الغدا. في هذه الأثناء حسن يروح لعبد الرحمن أو عبد الرحمن ييجي له ويقعدوا على الترابيزة الوحيدة في شقة المصيف ويشتغلوا على السيناريو، طول النهار شاي وقهوة، وبالليل ننضم لهم للشرب والعشا. قعدنا معاهم يومين لحدِّ ما خلصوا السيناريو وكانوا سعداء واحتفلنا. خدنا حسن ورضا ورحنا مرسى مطروح نقعد أسبوع في لوكاندة اسمها «الليدو»، مش رخيصة بس الفندق الوحيد اللي نعرفه. القطر من اسكندرية لمرسى مطروح كان بياخد تمن ساعات، وصلنا اللوكاندة وطلع مفيش مكان، كومبليه. استنينا كتير لحدِّ ما لقوا لنا حل، حطُّونا في الـ «annex» - الملحق - بعيد شوية عن اللوكاندة. شاليه أربع أوَض بصالة، على البحر على طول، علشان ناكل لازم نمشي مسافة للاستقبال. 8 ساعات قطر وساعتين انتظار ولما رحنا نتغدى جابوا لنا غدا لأربعة أنفار بس مش خمسة، أنا وسعد فكرنا

حنديكِ من طبقنا، كل واحد يديكِ شوية على أساس مش لدرجة وجبة كاملة، مفيش لزوم نعتبرك إنسان كامل، لكن يظهر البحر فتح نفسك :

ـ عايزة دا .

وأخدتِ طبقي، أنا قلت :

ـ أيوه حنديكِ حنديكِ .

ـ لأ أنا عاوزة دا كله .

ـ نقسمه بين بعض .

كنت مكسوفة إني باتفاوض معاكِ، وانتهى الأمر إن الطبق راح عندك وانتِ بس اللي تاكلي منه. بابا قال :

ـ خدي من عندي .

ـ لأ ما أنا حآكل معاها .

ورضا تقول :

ـ أنا مش حآكل كفتايتين، دا كتير عليَّ خدي يا «ماري».

بس الحقيقة أكل اللوكاندة كان قليل، كفتايتين ورز وشوية خضار وسلطة، طبق منظر وخلاص، وانا حامل وجعانة . في الآخر الحمد لله استسلمنا «طيب خلاص» ودفعنا زيادة مع إننا مفلسين وجابوا لنا طبق كمان وأكلت وشبعت .

حامل على آخري وما اقدرش أوطِّي أغيَّر لك المايوه فكنت باوقفك على كرسي أقلعك وانشفك واعمل لك كل حاجة وانت على الكرسي، حسن رسمنا على طول، انتِ عريانة بالمؤخرة باينة من ورا وانا ببطني الكبيرة موطِّية شوية عليكِ، وطبع لنا الصورة دي على طبق وبَعتَّها هدية لـ«برتو» أخويا. حسن كان خرج من المعتقل بقى له سنتين وبيمارس كل أنواع الفنون بنَهم، فرسم سعد كمان، نقعه في الشمس ويغيَّر وضع الكرسي علشان الشمس تفضل ضاربة في عينيه طول النهار ويرسم، كان عايز الشمس تضايقه في عينه. أنا شايفة إنه قدر يلقط حالة سعد ساعتها : خارج من السجن بقاله 6-7 سنين انطرد من مجلة «نهضة أفريقيا» ومن مجلة «السينما»، وبيشتغل صحفي وعضو في المجلس الاستشاري لوزير الثقافة، وبيرشح ناس لكل المناصب المهمة لوزارة الثقافة لكن بيتكلم عن مشروعه للثقافة الجماهيرية بقى له سنين، مترقب قرار رسمي بتأسيس الثقافة الجماهيرية، مفيش حاجة نجحت في حياته لكن عنده ثقة إنه حيكمل وحيعمل، القرار اتأخر لكن عنده التصميم إنه يعمل حاجات كتيرة وفيه حاجات كتيرة ضده، حسن عرف يلقط حالة التأهب دي. سعد ما كانش

مرتاح وتقريبًا عمره ما حيكون مرتاح، دي شخصيته، نشيط وبيشتغل كتير وذهنه بيِشْغي بالمبادرات، عنده رؤية ثاقبة، مش دايمًا عنده حق، لكن عنده لمحات معينة في السياسة تطلع مظبوطة لدرجة إن إحسان عبد القدوس قال له :

- إنت اللي بيقولوا عليه «animal politique» بالفرنساوي - موهبة سياسية فطرية - اوعى تيأس، اوعى تسيب .

أنا ما اعرفش إذا كانت الجملة دي أضرِّت سعد ولَّا نفعته، لكن على أي حال حسن فؤاد عرف يسجل جزء من نفسية سعد، شخصيته من جوه .

اتعرفنا على د. علي ماجد جارنا في الملحق، دكتور مسالك بولية، بس طلع مهتم بالسياسة والوضع العام. دخل مناقشات يومية حامية واشترك في التفكير في اللي حيتعمل في الثقافة الجماهيرية، الأفكار كتير والحماس كبير. حسن كل يوم يروح اللوكاندة يكلِّم مصر ترنك يسأل لسعد على الأخبار .

كنت مشغولة بالولادة فانتهزت فرصة إننا اتصاحبنا على د. علي ماجد وحكيت له على كتاب «الولادة بدون ألم»، بص على الكتاب وضحك وقال لي :

- بس يا «ماري» دا مش علشان الحوامل، الكتاب دا علشان الدكاترة .

ودا صحيح لأني ما كنتش فهمت حاجة من الكتاب إلا فصل خاص بالتنفس فهمته وحاولت أطبقه على ولادتك .

جه الخبر ان القرار اتمضى ورجعنا من مرسي مطروح بالطيَّارة، أنا وانتِ وسعد ودينا في بطني .

كل دا سنة 1966 تصوَّري؟

4

ـ أنا بكرة الصبح حاعمل ازاي؟ أروح كدا وانا ماشي أخبط على الباب واقول أنا سعد كامل أنا المدير؟ بيحصل ازاي؟

فبهاء ضحك :

ـ لا طبعًا ما تروحش كدا، إنت تتكلم في التلفون من النهاردا وتطلب مدير المستخدمين وتقول له «أنا سعد كامل، أنا جاي بكرة الصبح الساعة تسعة تكون جمَّعت الموظفين تستقبلوني ».

دي كانت أول مرة سعد يستلم منصب مدير وبهاء كان مدير خبرة استلم قبل كدا كذا منصب في «روز اليوسف » و «دار الهلال » وبعد كدا «الأخبار » ومن «الأخبار » لـ «الأهرام » ، وكان صديقنا، فسعد كلِّمه يستنجد به وعمل زي ما بهاء قال له بالظبط. اتصل في التلفون والصبح اللي بعده راح الإدارة العامة للثقافة الجماهيرية وقصور الثقافة اللي هو قصر السينما حاليًّا في جاردن سيتي، وفعلًا الموظفين كانوا في انتظاره وعلى راسهم مدير المستخدمين عرَّفه عليهم واحد واحد، وورُّوا له فين أوضة المدير، أوضته، أوضة كبيرة أكتر من اللازم، على اليمين .

وابتدا عملية تعيين مديرين لقصور الثقافة الجماهيرية .

في بداية الشغل في الثقافة الجماهيرية، قبل ميعاد ولادة دينا بتلات أسابيع ابتديت أحس بأوجاع، أوجاع مختلفة عن أوجاع الحمل الأول، مغص ومش قادرة أعمل أي حاجة والصبح إنتِ في المدرسة ونانا وجدو في الفيوم وسعد مشغول، أنتهز فرصة إن مفيش حد في البيت وأروح أمدد على الكنبة إياها اللي بتتنقل كل شوية في حتة، الكنبة كانت ساعتها في الصالة، أروح أمدِّ جسمي واحط مخدة على بطني، والوجع مستمر، لمدة تلات أيام ورا بعض وبعدين قلت لسعد أنا لازم اروح عند الدكتور علشان تعبانة :

ـ طبعًا روحي .

فكلمت الدكتور اللي بيتابعني :

ـ أنا بقى لي تلات أيام تعبانة ومش عارفة أعمل إيه .

ـ تجيني فورًا .

رحت الساعة ستة بعد الضهر، مش عارفة ودِّيتك فين ولا ازاي، خدت بعضي ورحت عند د. أحمد رياض وهو الأخ الصغير لعبد المنعم رياض رئيس القوات المسلحة بتاعتنا، دخَّلني على طول قبل الناس اللي مستنية وواخدة مواعيد :

ـ يا مدام إنتِ بتولدي، مش حتروَّحي البيت، رُوحي على المستشفى دُوغري، كلِّمي أهلك من هنا ييجوا لك فورًا، وانا حاحجز لك أوضة في المستشفى اليوناني اللي في العباسية .

وقعد على الكرسي وكلم المستشفى قدامي :

ـ احجزوا أوضة لمدام نايلة كامل، هي جاية لكم في الطريق .

وخلَّاني أكلم سعد في التلفون من على مكتبه :

ـ الدكتور بيقول آخد تاكسي واروح المستشفى فورًا أصل انا باوْلِد، هات لي الهدوم على المستشفى اليوناني .

ـ طيب .

وقفلنا السكة، كنت على وشك إن انزل وآخد تاكسي، إلا إن سعد كلمني في ساعتها :

ـ استنيني، أنا وعلي الراعي حنيجي ناخدك ونودِّيكِ المستشفى بعربيته .

طلعت بره مكتب الدكتور استنَّى. سابوا اللي في إيدهم وجم خدوني المستشفى. دخلت الأوضة، وعلى الساعة عشرة بالليل الدكتور خلَّص العيادة وجه على المستشفى على طول، الممرضة قعدت جنبي، إدَّاها شوية أوامر وابتدت الولادة. وهو بيولدني د. أحمد رياض سألني أنا عملت إيه في الصيف :

ـ آه! يبقى طيارة مرسى مطروح هي اللي سبَّقت الميعاد .

ولادة دينا ما خدتش مدة طويلة، تاني طفل بيخرج أسرع زي ما قالوا لي، على حداشر ونص بالليل :

ـ مبروك .

مبروك بس؟ أنا مستنية عاوزة اعرف ولد ولَّا بنت، ما قالوليش، عارفين إن عندي بنت وفي الغالب متخيلين إن الأسرة عاوزة ولد .

ـ ولد ولَّا بنت؟

فالدكتور أحمد رياض قال لي :

ـ بنت زي القمر .

ـ غريبة ما كنتش اتصور إني حاجيب بنت .

كان عندي اعتقاد في دماغي إن بالضرورة بعد البنت حييجي لي ولد، فكنت مندهشة. حماتي في البيت قالت لي :

ـ ربنا ادَّاكِ الولد، انتِ اللي نزلتيه .

كانت متضايقة لما عملت إجهاض من كام سنة، ما قالتش حاجة ساعتها بس كانت مقتنعة إني نزلت «الولد»، أنا ما كانتش تفرق معايا ولا في أول ولادة ولا في تاني ولادة .

جابوا البيبي دينا أخيرًا وشفتها كانت صغيرة وحلوة قوي، واستريحت .

أول زيارة الصبح اللي بعده جت سهير ومحمود توفيق، سهير جايباكِ معاها، شعرك منكوش وايديك وسخة وهدومك مبهدلة ووشك مقلوب، جاية تتعاركي، إزاي أنا أبات بعيد عنك طول الليل؟ وتيجي واحدة زي طنط سهير تلبسك علشان تروحي المستشفى، مش بس، وكمان ماما دي ولدت أخت حلوة. الكلام دا ما دخلش مخك خالص، كان شكلك مش معقول، فاجئتيني لدرجة إني مش فاكرة الناس التانيين، أول ما دخلتِ الأوضة جيتِ جنبي على طول فأنا طبعًا حضنتك وبوستك، بس انتِ لزقتِ في السرير ما رضتيش تتحركي ولا تسرَّحي شعرك ولا تغسلي وشك. وبعدين جابوا البيبي المسكينة دينا علشان تبتدي ترضع من صدري، ما خليتنيش أهتم بيها تقريبًا، ولما جه الوقت اللي لازم تمشي من المستشفى، رفضتِ، حبُّوا يشيلوكِ بالعافية، أظن أنا في الآخر قلت :

ـ معلش سيبوها حانيِّمها جنبي في السرير، مفيش طريقة تانية .

وفعلًا دا اللي حصل، إنتِ نمت معايا في المستشفى .

أما دينا من ناحيتها فمش عاوزة ترضع من صدري، أجيبها على صدري «واء واء»، تبعد، فطلبت دكتور أطفال المستشفى اليوناني، لأن دكتور الولادة خلاص ملوش دعوة بالطفل بره بطن أمه. دكتور المستشفى كشف على دينا لقى عندها آفت ـ قُرح ـ في بقها من جوه وقال لي دا التهاب عادي بييجي ساعات مع الولادة ولازم نحط لها مس أزرق، ما حسسنيش بالثقة ولقيت دا مش كفاية، مش عارفة قال إيه اللي ما أقنعنيش، وانتِ قاعدة في الأوضة معايا في المستشفى مش راضية لا تغسلي إيديك ولا تتسرحي، فعلى تالت يوم الضهر قررت لازم أخرج من المكان دا. ما اعرفش حتى فلوس المستشفى اندفعت ازاي بس أنا خدتك وخدت دندونة الصغيرة ومشيت لوحدي بتاكسي، ما كانش عندنا عربية، كان بعد الضهر وأعتقد رحنا على د. صفوت شكري على طول. د. صفوت شكري كان من أشهر دكاترة الأطفال في مصر وعنده سمعة حلوة بيدخل الأكل البلدي للطفل، الدكتور

«لندي» السويسري اللي أشرف عليكِ مات، ومع حبي له للأسف كان ماسك في بسكويت «ماري» والبيض المسلوق والتينة المهروسة، أما صفوت شكري فبيدخل للطفل أكل مصري زي الفول المدمس المتصفِّي، حاجات موجودة أصلًا على السفرة بتاعتنا. دخلنا على الدكتور إحنا التلاتة وانتِ ماسكة جونلِّتي لأن أنا دراعاتي مشغولة شايلة دندونة، الدكتور اتجه لك يسلِّم عليك على طول فاكر إن انتِ اللي عيانة، حطيت دينا على سرير الكشف، ترابيزة مفروشة بملاية بيضة :

ـ البنت دي مش راضية تاكل، ما كلتش خالص لغاية دلوقت، أعمل إيه؟

فهو قرَّب وبص على اللفة :

ـ بس دي صغيرة خالص عندها قد إيه؟

ـ تلات أيام .

كان مذهول إن واحدة تخرج من المستشفى بعد الولادة بتلات أيام تروح عند الدكتور لوحدها، يبص لي ويبص لك ويبص لدينا، وفي الآخر كشف على دينا ولقاها كويسة الحمد لله .

ـ المس الأزرق كويس، المشكلة إنه بطيء والقُرَح بتوجعها مش قادرة ترضع، ما نقدرش نستنى من غير أكل لحد ما القُرَح تخف، حنضطر ندِّيها ببيرونة علشان حلمة البيبرونة طويلة واللبن بينزل بسهولة من غير مجهود كبير في المص، صدر الأم الحلمة عايزة شغل، البيبي لازم تستخدم كل بقها علشان تطلَّع لبن .

وكتب لي اللبن وادَّاني فيتامينات .

ـ بس دا معناه إن هي مش حترجع ترضع منك ولبن صدرك حيقف .

وادَّاني تعليمات لازم أعمل إيه لما ينقطع اللبن. رجعت البيت بالروشتات دي، إجراءات مش بطَّالة وفعلًا دينا رضعت من البيبرونة، وابتدت تكبر شوية أصلها ما كملتش تسعة اشهر في بطني فنزلت صغيرة في الحجم .

قريت عن نفسية الطفل الأول، بيتجنن ويعمل حاجات وحشة لما ييجي الطفل التاني، وقررت احاول اتفادى إنك تتعبي من وجود طفل تاني، حاوزَّع اهتمامي وحاركِّز، سعد مشغول في الثقافة الجماهيرية ومش حيديكِ أي تركيز. بعد خمس سنين إمبراطورة لوحدك عليَّ وعلى الأسرة وعلى البيت وعلى الناس صعب تقبلي إن حد تاني ياخد اهتمامي. اللي ساعدني الحقيقة هي دينا نفسها، كانت طفلة سهلة من أول يوم، مفيش تجريس ومش بتحتاج غذا إضافي لأن الدكتور اداها غذا مكثَّف وكويس من البداية. محمد السنوسي النوبي اللي كان بيساعد نانا في البيت راح يتجوز وأصبح بواب في مدرسة ابتدائي في امبابة وادُّوا له أوضة يسكن فيها مع مراته فسابنا، وجت تساعدني بنت اسمها فاطمة قريبة سيدة اللي بتساعد رضا في البيت. فاطمة جت من البلد على عندنا

على طول وكانت بتنام معاكو في الأوضة، صغيرة ومش متجوزة بتحب العيال ونفسها تكون دادة. فاطمة احتضنت دينا وكانت بتطلبها «هاتيها عايزة اديِّها البيبرونة» «هاتيها عايزة اشيلها شوية». شاطرة بتساعد في الطبيخ وتنضيف البيت وتاخد بالها من دينا، لما كانت بتنضف تقول لي :

ـ سيبيها لي علشان تاخد عليَّ .

تحط دينا في ركن بعيد وتكلمها وتلاغيها وهي بتنضف ودينا تسمع صوتها طول الوقت وما تحسش أبدًا إنها لوحدها بينما فاطمة بتكنس وتنضف أو تطبخ، الحتة اللي تروح فيها فاطمة تاخد دينا وتحطها جنبها مش عايزة تسيبها أبدًا، ومصاحباكِ وانتِ بتحبيها وتتكلمي معاها وتلعبي معاها آخر النهار بعد المدرسة. أعجبت بفاطمة وكانت مريَّحاني. لما دينا أصبح عندها سنة ونص رحنا نزور أهلي في إيطاليا علشان يتعرفوا عليها وفاطمة قعدت مع نانا وجدو هنا، واستنتني لغاية ما رجعت وقالت لي :

ـ أنا جالي عريس وحاتجوز، حاسيب البيت هنا .

ومشيتْ. لكن فاطمة ساعدتني كتير طول فترة وجودها معانا، عملت هدوء نفسي في البيت، لدرجة كان ممكن اسيبها مع دينا وتصحى بالليل الساعة اتناشر علشان تعمل لها البيبرونة الأخيرة. رجعت لي إمكانية إن من وقت لآخر أخرج أسهر بره مع سعد اللي كان في فترة سهرات متواصلة، بره أو في البيت عندنا. بفضل فاطمة قدرت أحضر بعض نشاطات الثقافة الجماهيرية، لولاها كان راح عليَّ كتير من التجربة دي. كنت بالاقيها منتظمة في الواجبات، ويُعتمد عليها، حبيتها، ولازم أقول إنها علاقة ما اتكررتش تاني .

*

في هذه الأثناء كانت بتتم عملية إنشاء قصر ثقافة في كل مدينة في مصر، مش بس القصور الموجودة في المدن الرئيسية، وعملية تعيين مديرين في قصور الثقافة من المثقفين والفنانين .

أول تعيين كان لست فنانة شابة، سعد عيِّن رعاية النمر مديرة لقصر ثقافة الجيزة، وابتدت رعاية شغلها ودخلت معركة مع المدير القديم للقصر، تقريبًا ما كانش عايز يسلِّمها الشغل .

كانت بداية فترة ذهبية لكتير مننا ومن أصحابنا الفنانين والمثقفين، بما فيها فاروق حسني دا، كان لسه متخرَّج من فنون جميلة وما اعرفش موظف إيه في وزارة الثقافة، سعد عيِّنه مدير قصر الأنفوشي، أصغر مدير سنًّا في القصور، من وقت لوقت فاروق كان بيجيب سيرة سعد في المقابلات الصحفية ويقول إن سعد كامل هو اللي عيِّنه في موقع مسؤولية في بداية حياته. عمومًا سعد انشغل في موضوع التعيينات لأن قصور الثقافة كتيرة وهو عايز الحركة توصل لأكبر عدد من الناس، مش مدينتين تلاتة وخلاص ولا حيِّين تلاتة وخلاص وعايز حيوية مش موظفين. كان بيفكَّر كتير في التعيينات وبعدين يقرَّر تعيينات فيها جرأة كبيرة .

الفكرة اللي بعد كدا إن الثقافة المحلية والعالمية تلف وتطوف وتروح تعرض مش بس في المدن إنما في حتت مختلفة في القرى، في الأقاليم والمحافظات. من خلال الاتفاقيات الثقافية نستضيف فرق أوركسترا ومعارض، سعد اهتم خصوصًا بفرق الباليه بالنسبة للبلاد الأجنبية، باعتبار الباليه أسهل للجمهور من الموسيقى الكلاسيك أو الأوبرا .

تأسيس مشروع الثقافة الجماهيرية خد شغل كتير، وانضم معظم فنانين مصر للعملية دي. أكتر واحد مشدود للرسم والفنون التشكيليةٍ هو بهجت عثمان، خد المسؤولية دي وعمل حتة شغل! رائع. ينقل المعروضات من حتة لحتة ويعلّقها ويحافظ عليها ويلمّها تاني ويحمّلها ويسافر معاها ينقلها حتة تانية، حاجة مش بسيطة. فنانين كتير اشتركوا بلوحاتهم في المعرض التشكيلي الطوّاف دا، من ضمنهم بيكار وهبة عنايت ولكن بهجت تألق في موضوع تنظيم المعارض في أنحاء مختلفة من مصر، مجهود غير معقول. بهجت فنان، مفيش شك إنه فنان كاريكاتير كبير ومتميز وساب أثر كبير، بالإضافة عنده مواهب عملية كبيرة، مثلًا لما كنا نقعد مع بعض، ينزل يجيب خيار وجبنة بيضة، وإيه مش يشتري ويسيب، لا، يدخل المطبخ يدوَّر على الطبقان ويسخن العيش ويحطه في طبق ويوضَّب الجبنة والخيار في طبق تاني، ويجيب الحاجة على الترابيزة قدام أصحابه. كان دمه خفيف، بيعمل الحاجات دي وهو ساكت خالص والناس بتتكلم مشغولة، يخلص توضيب وياخد كبايته ويقعد في وسطهم وهو ساكت، يستنى لحد ما حد يمد إيده يبتدي ياكل :

ـ إيه دا؟ مش تشكروني؟ هو أنا بادلعكم ليه؟ مش علشان تقولوا «الله إيه الحلاوة دي؟» وتمدحوا فيَّ شوية؟

في الرحلات هو اللي ينصب الخيمة ويصلَّح العربية البايظة والكرسي المكسور ويولع النار ويعمل ماجور ويطبخ كمان، وفي المعارض يشيل ويحط ويركِّب ويقيس ويدق مسمار. كان النوع دا من الرجالة. أبو العينين كدا كمان، وحكيت لك على يوسف إدريس، القدرة دي عند الرجالة دايمًا بتلفت نظري .

هبة عنايت كان لسه راجع من الصين، قعد مدة هناك يدرس فنون جميلة ويعمل ماجستير وتماضر مراته فنانة تشكيلية، اتعين مدير قصر ثقافة أسيوط وكل زمايلهم بما فيهم أخوه راجي ومراته شويكار قالوا «تماضر مش حترضى تسكن في أسيوط»، ففوجئنا كلنا إن تماضر عملت الشنط على طول وقفلت البيت في القاهرة وسافروا وراحوا يعيشوا في أسيوط يديروا قصر الثقافة. تماضر ما لهاش صفة رسمية، لكن طبعًا هبة مش ممكن حيدير من غير دعمها، يخوضوا التجربة مع بعض، مشروع كبير لزوجين بالطريقة دي. مش قادرة أفتكر الأسماء، فنانين كتير، من بره وزارة الثقافة، انضموا بحماس لحركة الثقافة الجماهيرية وقصور الثقافة وحطوا فيها روحهم وعملوا حاجات جميلة. الفنانين والمثقفين انتشروا في أرجاء مصر يعرضوا شغلهم ويتعرفوا على الناس ويتعلِّموا منهم. بالنسبة لسعد التجربة دي كانت بلورة لرؤيته للمشهد الثقافي، الدور اللي كان بيقوم به من سنين من ساعة ما طلع من السجن في 1959 وبالذات بعد انفراجة 1964، كان زي الدينامو في الحياة الثقافية، والمشروع الثقافي كان بيتوضح أكتر واكتر في ذهنه، فلما تولى تأسيس الثقافة الجماهيرية كان عنده رؤية كبيرة، والطاقة الثقافية في البلد كانت قريبة منه، وحاطين عينهم عليه، كنت باشوف سعد في عينيهم .

عبد الناصر عزم على واحد اسمه «ليبرمان» اقتصادي روسي سوفيتي اشتهر باقتراح تجديد الاقتصاد الاشتراكي في الاتحاد السوفيتي، تغيير في اقتصاد القطاع العام الصارم المقفول اللي كان موجود ساعتها، نوع من الاقتصاد المختلط، شوية اقتراحات علشان الاقتصاد الاشتراكي ينتعش ويبقى متقدم ومتطور. أفكار من انعكاسات وجود «خروتشوف» في الحكم في الاتحاد السوفيتي. «ليبرمان» جه يدِّي محاضرتين واحدة في اسكندرية وواحدة هنا في مصر كضيف لوزارة الثقافة، وسعد كان مسؤول شخصيًّا عن رحلة «ليبرمان»، راح معاه اسكندرية وعلى آخر النهار سعد دخل البيت مع عدد من أصحابنا، منهم لويس جريس وسناء جميل. إحنا كنا اتصاحبنا عليهم إلى حد كبير بعد ما شفنا تمثيل سناء لمسرحية لفتحي رضوان وحبيناها، بس بَرضُه فيها شيء من المفاجأة إنهم يوصلوا مع سعد، وسعد قال :

ـ ما تتخضيش، ما تتخضيش، مفيش حاجة .

وكررها لحد ما خلَّاني اتخض فعلًا وخدت بالي إنه لابس الجاكيتة بكتف واحد وابتديت اتلخم. العربية اتقلبت بيهم وهم راجعين في سكة اسكندرية، لقوا نفسهم راسهم تحت والكراسي فوق. ما حصلتش حاجة وحشة، الحمد لله مفيش حد مات ولا إصاباتٍ كبيرة، اتصرفوا طلعوا من العربية بطريقة ما، وسعد اتصرف وقف عربية فايتة وطلب منهم يبلَّغوا، ووزارة الثقافة بعتت عربية إسعاف علشان الضيف الأجنبي، وخدوهم كشفوا عليهم في المستشفى الحربي. عضمة الترقوة اتكسرت، ما حسش به لحد ما وصلوا المستشفى، كل اللي كانوا في العربية روَّحوا إلا سعد احتفظوا بيه، مش ممكن تجبيس الترقوة، كتِّفوا له دراعه في جسمه بحيث الكتف ما يتحركش ويا دوبك الرقبة تتحرك شوية، وقالوا له إن حتوجعه. ما حدش قال لي، سعد ما رضيش يكلمني في التلفون علشان ما اتخضش، الحادثة حصلت الضهر وعقبال ما جابوهم من الصحرا وراح المستشفى وخرج كان الوقت اتأخر والليل دخل، أصحابه اللي جابوه نصحوا إنه يرتاح لأنه مرهق :

ـ مفيش حاجة بس ياخد مهدئ ويرتاح .

لكن ما مشيوش، وأصحاب غيرهم ابتدوا يتصلوا وييجوا يطمنوا، وبيتنا اتملى ناس، ديزي وبهاء وبعدين بهجت وبدر ووراهم رعاية وأبو العينين، وغيرهم. وبعدين ثروت عكاشة كمان بعت يقول إنه جاي، وإذا به ييجي بعربيات الوزير والسرينة، سوق سليمان جوهر وشارعنا حارة سد، عملها بطريقة رسمية إن «وزير الثقافة» بيطمن على «مدير الثقافة الجماهيرية»، واحنا في أوضة نوم صغيرة ومليانة ناس ما لقيتش مكان أقعَّده وماحدش قام علشان «الوزير» يقعد، فطلعت من الأوضة وسِبتهم يتصرَّفوا مع بعض .

أنا الحقيقة ضربت لخمة شوية، كنت لوحدي، نانا وجدُّو في سيلا وفاطمة سافرت البلد في الأجازة الشهرية تودِّي الفلوس لأهلها، ودينا بيبي عندها حوالي أربع أشهر، بتعيط محتاجة تغيَّر وترضع وتنام، والضيوف عايزة على الأقل أعمل لهم شاي، والتلفون بيرن، وجرس الباب، فديزي لحقتني :

ـ والنبي سيبي لي دينا يا «ماري»، باموت في العيال في السن دا، ما بيتحركوش كتير وباحب أشيلهم في حضني .

وفعلًا ديزي خدت مسؤولية البيبي الصغير دينا .

ليلة الحادثة كان أول شتا في حياة دينا وكان حوالينا ناس كتير، وكل يوم لغاية بالليل وَخْري حداشر اتناشر أصحابنا في أوضة النوم حوالين سعد وجنبي وكل اللي نازل يسأل :

ـ مش محتاج حاجة؟ حنسأل عليك بكرة .

*

وصلت عربية كارافان هدية من بلد اشتراكي للثقافة الجماهيرية، فيها ماكينة عرض سينما، ومكان لشوية حاجات علشان العروض والمعارض تدور وتعرض في البلاد. ودخلنا بقى في مشروع «قافلة الثقافة»، وكان هدفها الخروج من المدن، تروح القرى الصغيرة المتطورة هنا وهناك. حضرت قافلة الثقافة هنا قريب في قرية جنب بنها، رحنا بالعربية وكان معايا رعاية واتنين ممثلين مشهورين، حمدي غيث ونعيمة وصفي، وصلت عربية الثقافة، وقفت في ساحة فاضية جنب البيوت على مدخل القرية، مكان السوق، وندهوا الناس بالميكرفون، اللي عايز ييجي يتفرج يتفضل ييجي. كان فيه كام كرسي مرصوصين قدام وانا قعدت علي كرسي منهم، بسرعة الميدان اتملي ناس معظمهم صبيان ورجالة، لاحظت غياب الستات، فكّرت «أكيد حاجة جديدة في القرية فمش الستات اللي حيسيبوا البيت ويروحوا يتفرجوا». كان فيه عيال كتير، مش صغيرين، صبيان، صبيان، صبيان، يمكن كان فيه شوية بنات، ووراهم فلاحين رجالة كتير زي النمل، جم منين؟ فكَّرت «يمكن من قرى تانية». في الأول عرضوا حتة من فيلم تسجيلي تعليمي عن العناية الصحية، الحقيقة لقيت إنه اختيار مش ناجح، أنا فاهمة إن حيعرضوا حاجة بحقيقي، برَّروا إن دا بَرضُه مهم لأن «الفلاحين» مابيشوفوش «ولا حتى دا». صحيح التلفزيون ما كانش منتشر زي دلوقت في القهاوي والبيوت، بس أنا تخيلت الفيلم دا ييجي سيلا الفيوم عندنا مع «الفلاحين» اللي أنا اعرفهم وما انبسطش. قام حمدي غيث، مش عارفة ازاي كان معروف كدا مع إن مفيش تلفزيون، يمكن الراديو؟ صقفوا له كتير، حمدي غيث قال كلمتين بالصوت المسرحي بتاعه :

ـ أنا باحبكم، أنا مبسوط، أنا حآجي كتير، أنا عايز اتكلم معاكم زي الأصدقاء وتقولوا لي الشكوى بتاعتكم .

كلمة فارغة من النوع دا، وبعدين واحد ما اعرفوش قام عمل نوع من الخطبة، وبَرضُه هات يا تصقيف، نعيمة وصفي كانت قاعدة جنبي، تخينة ومعروفة من المسرحيات الكوميدية، قامت نكِّتت وهزَّرت مع الجمهور وقالت جزء من واحدة من مسرحياتها، نعيمة كانت أفضل من حمدي شوية. بس أنا حسيت إن كله كلام فاضي، وان الناس دول بتوع قافلة الثقافة دول مش معاهم أفلام تانية وفي الغالب أول مرة بتحصل لهم حاجة زي دي وما عندهمش فكرة عايزين يعملوا إيه وما عندهمش أي فهم للفلاحين، الحقيقة كنت أتصور حاجة غير كدا. إنما خدوا حتة نجاح ما اقدرش أوصفه واتكتب عليهم في الجرايد تاني يوم وانتشرت صور الجماهير اللي جت علشان تتفرج. أنا باعتبر إن حظي مش كويس إن رحت مع المشاهير دُول، تجربة الثقافة الجماهيرية عايزة صبر

ووقت، اللي أنا شفته دا أقرب لمدرسة عبد القادر حاتم اللي المفروض إحنا جايين نعمل غيرها. كنت أفضَّل أحضر تجربة من تجارب بهجت بمعرضه التشكيلي الطوَّاف مثلًا .

جت فرقة أوبرا وباليه غالبًا من الاتحاد السوفيتي وقالوا حيودُّوهم أسوان، عدد كبير من الفرق الممتازة بتيجي مصر، الفرقة دي جت تقدم «بحيرة البجع» في قصر ثقافة يا أسيوط يا أسوان. ناس كتير من هنا راحوا مع الفرقة علشان يساعدوا على تنفيذ المشروع، كانت تجربة جريئة، الصعايدة حيتقبِّلوا الباليه ازاي؟ ورجلين البنات وهي بترقص في بحيرة البجع؟ سعد سافر مع الفرقة والمحافظ استقبلهم، كان محافظ متعاون للأسف مش فاكرة اسمه. فرقة الباليه راحوا عاينوا مسرح قصر الثقافة والمدير الفني الروسي قال الخشبة ناعمة خطر على الباليرينات والرقَّاصين، ممكن يتزحلقوا يقعوا يتكسَّروا، وشرحوا لنا إن لازم الخشب يكون خشن، فالمحافظ تدخل، كان محافظ هايل، وكان سعيد بصحيح إن التجربة دي تحصل في قصر ثقافة محافظته، جاب نجارين وابتدوا يخشنوا خشبة المسرح تحت إشراف الفرقة. العملية دي كانت محتاجة تتعمل في بحر ساعات لأن العرض في نفس الليلة. سعد بيحكي إن في لحظة معينة المحافظ خد أدوات من النجارين وركع على الأرض واشتغل معاهم، كان منظر فريد، المحافظ دا أظن بقى رئيس وزارة بعد كدا، يمكن ممدوح سالم؟ المنظمين كانوا فاكرين إن ناس قليلة حتيجي وإن ممكن يمشوا في وسط العرض، لكن الناس جت، صعايدة بالعِمَّة والقاعة اتملت على الآخر، ناس واقفة في كل ركن وفي الممرات، ابتدا العرض، الجمهور بيتفرج باهتمام وكل ما تخلص حتة يصقفوا بحماس غير متوقع. ما كانش فيه صحافة بتغطي الحدث دا لكن بعد نجاح العرض نزلت بعض كتابات في الجرايد بما معناه «مين اللي قال إن الشعب المصري متخلِّف ومتزمِّت؟ دا الشعب المصري متعطِّش ثقافة، بس ادُّوا له فرصة وانتو تشوفوا» كلام من النوع اللي بيتكتب في الجرايد .

حسن فؤاد صوَّر صورتين لسعد لابس بالطو وبيشرف على قافلة الثقافة، إيديه في الجيوب بيراقب، مش متوتر ولكن مستعد، متأهب، «يا ترى حيحصل إيه؟ حينتهي كويس؟» صور حسن فؤاد لسعد كانت دايمًا لقطات حلوة، أصدقاء عُمْر وبيحبوا بعض .

في نفس الوقت كان فيه جو مقاومة، مش كل المحافظين زي المحافظ اللي شمَّر وركع على رُكبه يخشِّن خشبة المسرح بإيديه علشان أهل البلد تتوفر لهم فرصة يشوفوا حاجة جديدة، مش كل المحافظين تقبلوا غزو الثقافة لمحافظتهم. ظاهرة الثقافة الجماهيرية عملت اختراق لسلطة المحافظ نفسه، الناس بتروح قصر الثقافة وقصر الثقافة بيقدم نشاطات ومدير القصر حُر والناس يتفرجوا ويشتركوا والمحافظة ما بتدِّيش الإذن، مفيش وسيط بين الناس والمثقفين والفنانين. عز الدين نجيب واحد من مديري قصور الثقافة الشباب في بحري، أظن كفر الشيخ. كتب كتاب مشهور عن تجربته مع محو الأمية هناك، كمدير قصر الثقافة كان عنده الحرية إن يعمل الأنشطة اللي هو شايفها، جاله محافظ متضايق منه ومن الثقافة الجماهيرية من الأول خالص، مثلًا عز الدين نجيب ابتدى يصلح القصر من جوه والمحافظ مش عايز يصرف الفلوس، ولا عايز ييجي القصر أصلًا. وبعدين عز الدين نجيب أنشأ فصول محو أمية فالناس اتهبلت عليها لكن المحافظ ابتدا يعاكسه ويبعت شكاوى ضده إنه بيعمل اجتماعات شيوعية وسعد يتدخل عند وزير الثقافة، وثروت عكاشة يرد على سعد، وسعد يروح ويرجع. كانت معركة، والحمد لله إن عز الدين نجيب حكاها كويس في الكتاب بتاعه.

وغيَّر القصر دا ومعركة عز الدين نجيب، بشكل عام كان فيه معركة في كل قصر ثقافة، اللي كان بيدخل التجربة كانت عناصر عندها استعداد للانفتاح والحاجة الجديدة اللي بتوفرها الثقافة الجماهيرية في قصور الثقافة، أما اللي خايفين على نفوذهم أو عقليتهم بيروقراطية فكانوا ضد مشروع الثقافة الجماهيرية دا خالص .

مع بداية رمضان حطوا شادر في الحسين، وزكريا الحجاوي أخد مسؤولية إحياء ليالي رمضان. زكريا الحجاوي خبير أصوات بالممارسة، بيحب الموسيقى وأصبح مؤلف موسيقي وخبير أصوات، مش أصوات أوبرالية متدربة، لأ، خبير أصوات شعبية على الطبيعة. عمل أوبريت اسمه «أيوب المصري» قصة ناعسة اللي شالت أيوب على راسها وباعت كل حاجة حتى ضفيرتها الحلوة وهي بتعالجه، أصل أيوب كان مليان أمراض، هو اللي اختار الأصوات والأوبريت اتذاعت في الإذاعة واتشهرت لمدة طويلة. غِيِّة زكريا إنه يلف البلد، دا كان حُبُّه، يلف مصر يسمع الناس ويكتشف أنغام منسية وأصوات متميزة بين الفنانين الشعبيين في الموالد والأفراح. كان بقى له سنة من محافظة لمحافظة ينقِّي أجمل وأحلى الفرق والمواهب من كل محافظة، يقدموا عرض في ليالي رمضان في الحسين. كل يوم موهبة أو فرقة، أحسن ما شافه من فنون شعبية في مصر كلها. رحت حضرت واحد من استعراضات سرادق ليالي رمضان وانبهرت بالطريقة اللي بيشرح بيها ويقدم اكتشافاته. فلاحة من بني سويف :

ـ اسمعوا الصوت دا كويس علشان دا صوت نادر، أنا قابلت «...» في بني سويف وجايبها لكم هدية تسمعوها .

وطلعت على المسرح، جت زي ما هي، لبسها يشبه لبس ستات الفيوم، ما هي بني سويف جنب الفيوم، المنديل على راسها والضفيرتين، والجلابية قصيرة شوية فوق الكعب وفتحة الصدر مدورة واسعة، سمرا وجميلة فكَّرتني بنفُّوسة بنت عم رياض من العزبة عند جدُّو. البنت دي شافت الجمهور تحت المسرح ماليين الشادر، ناس كتيرة، اتلخبطت وكانت عايزة تمشي تروَّح فزكريا الحجاوي قال لها بهدوء وثقة :

ـ ولا تخافي، دول جايين يسمعوك، عايزين يعرفوا انتِ صوتك دا ازاي، دُول كلهم إخواتك .

طريقة كلامه معاها كانت ممتازة، هايلة، ومعجب بها بحقيقي وعنده ثقة فيها، وفعلًا غنت الموال بتاعها، تون صوتها اللي بيتغير من قرار لعالي حلو وسحرنا كلنا. اعتقد إن صوتها يعتبر «mezzo» في التصنيف الإيطالي للأصوات، زكريا الحجاوي قال إنه صوت دارج بين بعض القبائل الغجرية الموجودة في مصر والمنطقة من زمان. أما خضرة محمد خضر، أكتر واحدة اتشهرت من التجربة دي، زكريا اكتشفها وخلَّاها تغني أغنيتها «الحلزونة فين» وأغاني شعبية تانية، ونجحت لدرجة إن في نهاية أي عرض لازم الجمهور يطلب من خضرة «الحلزونة فين». كانت بتيجي لابسة جلابية قطيفة مرة نبيتي ومرة زيتي والمنديل على راسها والكحل، أهم حاجة الكحل، جميلة وعندها حضور، الأجمل في القصة إن زكريا وخضرة اتجوزوا .

أنا حبيته، زكريا الحجاوي، أصل عنده حتة حضور على المسرح، كل ما يشوف ممثل أو نجم له اسم أو شهرة وسط الجمهور يقدمهم ويبسطهم ويبسط الناس، عنده القدرة يقطع في الوقت المناسب بين الاستعراضات، يعرف كل الناس وعنده لباقة، «master of the show» درجة أولى يدير العرض ويعرف يقدم النمرة، فالجمهور يكون متهيأ. ابتدت السفارات الأجنبية تبعت وفود يتفرجوا ويشوفوا إيه ظاهرة سرادق رمضان دي والجمهور الكتير دا اللي بيجتمع كل ليلة في وسط الشارع في مصر، وزكريا يقدمهم :

ـ إحنا النهاردا عندنا ضيوف بيشرفونا من سفارة كذا .

والجمهور هايص بين الفقرات والضيوف، يخلِّي الجمهور يتفاعل طول الليل ما يسيبوش يسرح .

آخر ليلة في رمضان، الليلة اللي مش حاقدر انساها، سمُّوها «الليلة الكبيرة» وحصل نوع من الحشد والترقب. جمهور ضخم وضيوف كتير وعدد من السفراء الأجانب. سيد مكاوي كان واحد من الضيوف جاي يتفرج، طبعًا زكريا الحجاوي لا يمكن يحيِّي سيد مكاوي بكلمتين وخلاص، سابه للآخر وطلَّعه على المسرح بعد النمر ما خِلصت، والناس حيَّته تحية كبيرة وطلب منه يغني، الجمهور حافظ بيغني معاه الأغاني من الأول للآخر. أنا كنت موجودة ليلتها مع سعد، وغنى «الورد والياسمين» لزكريا أحمد، وأغاني كتير تانية. غنَّى قاعد بالورب قعدة العود، نص بروفيل، وهو ما بيشوفش انتِ عارفة، تقريبًا كان حيتجنن، مش عارف يحيي الأصوات اللي بتيجي له ازاي ويكمل يعزف ويغني ازاي. في الآخر الجمهور طلب «يا صلاة الزين» وهو ابتدى يغنيها من هنا والجمهور صقَّف وصفَّر وهلِّل زي في ماتشات الكورة، ولما وصل لكوبليه «يا مداحين» الجمهور كله قاعد مستني يرد «هيه» لما وصل لآخر كوبليه الجمهور وقف على رجليه يغني معاه، ما تسمعيش صوته من صوت الناس والغُنا مظبوط تمام، فقام هو كمان بالعود بتاعه واتلفت ناحية صوت الجمهور وعاد الأغنية من الأول جماعة، لغاية ما والله أنا كان متصور لي إن الشادر حيقع علينا من الأصوات والحماس. الحماس اللي أنا حسيت بيه ليلتها وحماس الناس حواليَّ شوية زي جنون جماعي مسك فينا كلنا، كان... كان بيعبَّر إلى حدٍّ ما عن إحساس بانتصار المشروع الوطني والقومية العربية، انتصار جمال عبد الناصر والآمال اللي جاية معاه، فاهمين إننا منتصرين، وانتهت الليلة دي .

ابتدت تتكون حاجة اسمها «التنظيم السرِّي»، كان فيه الاتحاد الاشتراكي واظن أنا اتكلمت قبل كدا عن الخلاف بين الشيوعيين حول دخول الاتحاد الاشتراكي وحل الأحزاب الشيوعية. الخلاف دا استمر مدة طويلة، بس «حدتو» بالتحديد اختاروا يحلُّوا التنظيم ويضموا قوتهم مع النظام الوطني الموجود والاتحاد الاشتراكي على أساس تطويره شوية بشوية. سعد ما كانش مبسوط وكان بيكرر إن حل الحزب الكامل مش مظبوط، رأيه الحركة تستمر بغض النظر عن التنظيم السرِّي، يكون فيه إمكانية تقييم وتكوين رأي في النظام ومُجريات الأمور، خصوصًا إن مفيش طريقة علنية لممارسة السياسة. التنظيم السرِّي فكرة طلعت جوه الاتحاد الاشتراكي نفسه مش عارفة ابتدت ازاي وليه، إن لازم يكون فيه تنظيم سرِّي لإدارة البلد، حاجة زي إن الدولة تعمل تنظيم سري جوه الاتحاد

الاشتراكي لأن الاتحاد الاشتراكي حاجة مفتوحة، اجتماعاته علنية وأعضاؤه معروفين ومعروف بيقولوا إيه، حاجة شعبية عامة، يظهر مش منظم أو في الأغلب مفيش تحكم كفاية فيه، على أساس المخاطر اللي جاية من بره ومؤامرات الاستعمار. يعني مش بس التنظيمات تحل نفسها وما يبقاش فيه إلا الاتحاد الاشتراكي، حتى الاتحاد الاشتراكي مش ممسوك كفاية ومش مريَّح السلطة، عايزين يتحكموا أكتر. أنا باقول الكلام دا دلوقت، لكن ساعتها الرؤية كانت مبهمة وما كنتش اقدر أشوف أي صورة بوضوح. مش عارفة التنظيم السري اتعمل إمتى، والحكاية ما كانتش سهلة، لأن بالفعل كان فيه استفزازات ومعارضة من الأوروبيين للقومية العربية، ومن الرجعية المصرية للمشروع الاشتراكي وكتير من البلاد العربية كانت بتضايق عبد الناصر. اللي أقدر افتكره هو إن جمال عبد الناصر كل شوية يشتم في حد من الزعماء العرب، مرة الملك حسين، مرة فيصل ومشاكل مع سوريا ومع العراق، والتنظيم السري عبارة عن مجموعات أفراد مضمونين أوفياء للنظام في محيط جمال عبد الناصر، ويكون عندهم التزام مش حسب الظروف والمزاج. وابتديت اسمع جُمَل زي «فلان مش في التنظيم» و«فلان في التنظيم». سعد ما طلبش ينضم هم اللي طلبوه ودا العادي في أي تنظيم سري، وأصبح واحد من كوادر التنظيم السري أيام الثقافة الجماهيرية كموظف كبير في الحكومة، بس استمر لفترة قصيرة، ما استحملوهوش، وأعتقد حسن وأبو العينين وغيرهم كمان دخلوا التنظيم في الفترة دي. كان فيه نوع من عدم الوضوح والتخبط من ناحيتنا بس الأهم عدم الوضوح في القرارات بتتاخد ازاي في الدولة .

في الوقت دا كنت باكتب في مجلة «حواء»، طبعًا بمساعدة سعد، من غير سعد أنا كان لا يمكن أكمل اكتب لعدة أسباب: أولًا: فيه صعوبات اللغة، باتعلم وباكتب وانا مش متأكدة من نفسي، كان بيطمِّني إن سعد يراجع معايا. ثانيًا: الكتابة صعبة عمومًا، لازم الفكرة والأسلوب يتوضحوا، باحتاج أناقش سعد في الفكرة. سعد شجعني دايمًا :

ـ إنتِ مش متصورة مقالتك دي بتأثر على كام ست وفين وإمتى .

كان عنده ثقة كبيرة، وكان بيرجَّع لي الثقة ويخلِّيني استمر. لما كان بينشغل كان بيزهق بسرعة واحنا بنصيغ الكلام وانا كنت عاوزة شوية دقة وهو مش دقيق .

ـ طب ما تكتبي إنتِ .

ـ ما هو دا اللي باحاول اعمله وانت عايز تخلَّص .

كنا بنتخانق شوية على الحكاية دي. لو أعرف اكتب لوحدي ما اطلبش منه، لو اعرف أقول اللي أنا عاوزة أقوله، لكن فيه مواضيع باحتاج استشارة في الفكرة. كنت باستخدم حسن فؤاد واخلِّيه يساعدني شوية لما سعد يتعب أو ينشغل. بس أنا اعتبرت إن شغلي في «حواء» والكلام اللي كنت بانشره عن الحركة النسائية في العالم دا زي تكليف من الكفاح، بدل ما الواحد ينضم لخلية ويكون عضو في الحزب، الكتابة تكون مشاركتي السياسية في المجتمع، وبكدا أصبحت مهمتي قدَّام نفسي إني أكمل انشر الباب بتاعي في مجلة «حواء» تحت كل الظروف .

الأمور مشيت بالطريقة دي لغاية صبحية خمسة يونيو 1967، أعتقد إن لما قمنا من النوم يوم خمسة يونيو وسمعنا الخبر بالهجوم على الطيارات بتاعتنا، حصل تحول جذري في عقليتي، في الفهم، في التفكير، بس قبل ما اغرق في 5 يونيو، لازم احكي إن مع تكوين التنظيم السري لجمال عبد الناصر، كان فيه إشاعات بفساد هنا وهناك، كلام عن عبد الحكيم عامر وضده، وابتدينا نسمع من بعض أصحابنا القريبين إشاعة إن انطلب من أحمد عكاشة يدخل واحدة ست وواحد راجل مستشفى الأمراض العقلية، معارضين معروفين، فسعد قال :

- ما اعتقدش إن دا صحيح .

أحمد عكاشة صاحبه وكان فيه بينهم تاريخ فكان صعب عليه يصدَّق، بييجوا يسهروا عندنا واحنا نروح عندهم، وأنا و «جنيفر» مراته بنخرج بالعيال. حاجة تانية حصلت، في يوم من الأيام سعد حكى لي إن واحدة ست جت له مكتبه في الثقافة الجماهيرية بدوسيه في إيدها، وحكت له قصة مرتبطة بعبد الحكيم عامر وبإن حد من قرايبها اتقبض عليه واتحط في مستشفى الأمراض العقلية، سعد حاول يتصل مش عارفة بمين وحاول يعمل إيه، ولكن القصة انتهت بشكل غامض، أكيد ما كانش مطلوب ولا مرغوب ولا ممكن إن سعد يتدخل في المواضيع دي، ولكن زي ما تقولي بالطريقة دي الشك ابتدى . لما خلصت الفترة مع حرب 1967، وموت جمال عبد الناصر بعدها بفترة قصيرة وخروج الأقطاب زي شمس بدران وكتير من الأسماء اللي كانوا في المسؤولية في الوقت دا، بدأنا نفهم ونتأكد إن كان فيه شيء من الصحة في أغلب الإشاعات اللي كانت بتدور بين الناس اللي بييجوا لنا البيت .

الحالة كانت مليانة توتر، القومية العربية كفكرة كانت بتلهب الحماس عند الناس واظن حرب اليمن تُعتبر نتيجة للحماس والقومية، وكان فيه تهديد من إسرائيل وأمريكا بالذات لسوريا ويمكن لبنان كمان، بس سوريا لازقة في ذهني علشان عملت الوحدة مع مصر، وحتى بعد الانفصال كنا معتبرين إن فيه نوع من التشاور ومن الوحدة الوجدانية. تهديد سوريا والهجوم على سوريا اعتبرناه هنا في مصر تهديد لنا وهجوم علينا وتهديد للمشروع الوطني المصري وعلى راسنا جمال عبد الناصر. كنا مقتنعين بقيادة عبد الناصر، بعد ستة وخمسين اتعمل مجهود كبير لإعادة بناء الجيش وتسليحه بأسلحة حديثة وكنا مقتنعين إننا حننتصر على الاستعمار في يوم من الأيام ولا مفر من الموضوع دا .

وفي نفس الوقت كمان مفيش شك إن من يوم ولادة دينا في أكتوبر 1966 والصيف اللي قبله لما رحنا مرسى مطروح وجه القرار بتعيين سعد في الثقافة الجماهيرية لتأسيسها وإدارتها، لغاية خمسة يونيو 1967، كانت أحلى الأيام وكانت مليانة شغل للثقافة الجماهيرية، أنا حكيت لك حاجات حلوة، زي المحافظ اللي شمَّر يخشِّن المسرح بإيده علشان يستقبلوا فرقة الباليه الروسي وحادثة الخبير الاقتصادي السوفيتي، لما سعد كسر الترقوة، والأوضة دي اتملت ناس بما فيهم ثروت عكاشة الوزير وأنا ضربت لخمة، وحكيت لك الاستعراضات والمسرحيات وقصور الثقافة وقافلة الثقافة، وسعد مشغول لِشُوشته، والبلاد التانية اهتمت بظاهرة الثقافة اللي بتنتشر في مدن وقرى الأقاليم بدل ما تبقى مركزة في القاهرة، وابتدوا يعزموا سعد أسبوع هنا، عشرة أيام هناك، ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا وفي فرنسا قعد مدة عملوا له جولة كبيرة في مراكز الثقافة في المحافظات

الفرنسية. بالليل بيتنا كان دايمًا مليان ناس، فنانين وشخصيات ومشاريع وأفكار ومناقشات على المجتمع المصري. المجتمع كان بيفور حيوية .

كل دا كان موجود عشية يوم خمسة وستة يونيو .

جمال عبد الناصر أعلن إن الاعتداء على سوريا حيعتبر اعتداء على مصر، ويمكن حصلت مقابلة مع سوريا ومضوا على اتفاق للدفاع المشترك وعدم الاعتداء، كان فيه قوات الأمم المتحدة على الحدود بين سينا وإسرائيل لمنع قيام حرب تاني بعد عدوان ستة وخمسين وفاهمين في اللحظة دي إن حنخش بالجيش ونحارب ضد إسرائيل وعبد الناصر طلب رفع القوات الدولية من سينا باسم الحكومة المصرية .

يوم خمسة يونيو إنتِ رحت مدرسة «الليسيه» عادي، وليلى بهاء راحت مدرستها «الميردو ديو» عادي، وكنا أيامها بنشوف ديزي كتير عادي، وبهاء كان عنده سفريات عمل كتير عادي ـ يومها كان في فرنسا. عقبال ما فقنا الصبح على الساعة تسعة ابتدينا نسمع في الإذاعة إن هجموا علينا وإن طياراتهم جاية. المفاجأة: فيه فعلًا طيارات في السما ويمكن سمعنا صفارات إنذار. في الإذاعة نسمع إن إحنا بنرد على الهجوم وبنوقع طياراتهم، خصوصًا إذاعة «صوت العرب»، مذيع نسيت اسمه، عنده طريقة مستفزة، طريقة خطابية وبيزعق ويحمِّس، وأسقطنا خمس طائرات، أسقطنا عشر طائرات، كل ربع ساعة بالطريقة دي .

كان فيه عربية بِتيجي تاخد سعد يروح الشغل، جت العربية وسعد راح الشغل عادي لكن على تسعة ونص عشرة كلِّمني في التلفون :

ـ اشتروا ورق أزرق وغطوا القزاز، فيه هجوم إسرائيلي وبالليل مش حنقدر نولَّع النور، «Black-out» كامل، اشتروا شمع .

نزلنا جرينا نشتري ورق أزرق من مكتبة «الجمهورية» في سليمان جوهر ونلزق على الشبابيك، شوية وسعد اتصل تاني :

ـ لأ، الورق الأزرق مش كويس، الطريقة المثالية إن تشتروا قزازة صمغ وتحطوا حبر ازرق على الصمغ وتدهنوا قزاز الشبابيك بالصمغ الأزرق، إحنا بنعمل كدا في الثقافة الجماهيرية وفي كل حتة في مصر، كل البيوت .

بصينا حوالينا في البيت، فاطمة ومحمد السنوسي ونانا، عندنا شبابيك قزاز كتير حتى باب السكة فيه قزاز. محمد السنوسي نزل جاب صمغ وحبر وابتدينا ندهن. إحنا بندهن فاهمين إن الحرب حتطوَّل سنين وإن حياتنا من هنا ورايح حرب .

بعد تلات أيام الحكاية انتهت .

وفضل القزاز لونه أزرق عشرات السنين نحاول نشيل الأزرق دا بكل الطرق بما فيها مية النار .

ديزي كلمت سعد طلبت منه ياخد ليلى من المدرسة لأن الثقافة الجماهيرية جنب مدرسة «المير دو ديو» في جاردن سيتي .

ـ اتفقنا حاجيبها عندنا في البيت مع نادية، وانتِ تيجي تباتي عندنا .

اعتبر نفسه مسؤول عنهم على أساس بهاء مش في مصر والطبيعي إنه يضم أسرته على أسرتنا، خد ليلى وفات على «الليسيه» خدك انتِ كمان. ديزي استحملت يوم واحد بعيد عن بيتها، تاني يوم روَّحت، بهاء اتصل من فرنسا :

ـ ارجعي البيت مفيش حرب، خلصنا، انهزمنا خلاص .

وهي قالت الكلام دا لسعد وروَّحت .

الوجوه المألوفة كانت موجودة حوالينا، أبو العينين ورعاية وممكن حسن ورضا وراجي مش فاكرة الوشوش بالتحديد لأن ذكريات اليومين دول تايهة. أنا وسعد عرفنا الحقيقة من ديزي غالبًا يوم 6 يونيو بالليل، شوية شوية كلنا عرفنا في البيت مع مجموعتنا من الأصحاب إن فيه مشكلة، محطة «صوت القاهرة» ابتدوا يظهروا حماس أقل على يوم 7 يونيو ولكن أحمد سعيد، أيوه المذيع اسمه أحمد سعيد، على راديو صوت العرب لسه بيعد الطيارات اللي بنوقعها، استمر يقول إن «إحنا بنوقع الطيارات الإسرائيلية» أظن لغاية 9 يونيو. على تالت يوم الاتحاد السوفيتي طلب وقف إطلاق النار في جلسة طارئة في الأمم المتحدة ورد الفعل في مصر كان «ليه وقف اطلاق نار؟ لازم نستمر» وديزي بتقول «نستمر بإيه؟ مفيش ولا طيارة». الناس بتسمع من الإذاعات الأجنبية إن الجيش الإسرائيلي وصل للقناة وتقول «إزاي بس؟» مش قادرين نفهم ولا نصدق وبنقول «حنقاوم حنقاوم» مهما كان ومقتنعين إن حنرد، عارفين الحقيقة بس مش مستوعبينها، إن الأسلحة راحت فعلًا .

معظم الشعب فوجئ يوم 9 يونيو .

اجتمعنا نفس المجموعة بتاعتنا قدام التلفزيون هنا في البيت، طلع جمال عبد الناصر على الشاشة وقعدنا نسمع له: «أنا أتحمل مسؤولية اللي حصل وحاستقيل، واتمنى لمصر التماسك وللقيادة الجديدة إن تقدر تستمر». منهار خالص، بيتكلم كأنه حيعيَّط، مهزوز. بيقول «دا واجب، لازم أعمل كدا» كأنه بيكلم نفسه. ما كانش خلَّص الخطبة لسه، سمعنا أصوات في الشارع، سِبنا جمال عبد الناصر بيخطب وطلعنا كلنا البلكونة، الدنيا كانت ليِّلت، شفنا أشباح مظاهرات ماشية في شارع سليمان جوهر في اتجاه ميدان الدقي، مجموعات من الناس بتزعق، مش مفسرين بيقولوا إيه، واظن أثناء ما احنا في البلكونة عبد الناصر ادَّى السلطة لزكريا محيي الدين وخلصت الخطبة .

وقفنا كدا محتاسين، راجي عنايت وأبو العينين وسعد، يمكن حسن فؤاد، وناس تانيين، «نعمل إيه؟»، سعد مسك في التلفون يتصل يمين وشمال، ناس في جرنال «الأخبار»، ثروت عكاشة «إيه

اللي بيحصل؟» ما حدش عرف يرد عليه، سمعوا الخطبة زيِّنا، وسمعوا زيِّنا من «البي بي سي» إن «الجيش المصري بيهرب في سينا» «الجيش الإسرائيلي محاوطهم» «العساكر المصريين تايهين في سينا مش لاقيين سكة يرجعوا» «إسرائيل حتهاجم مدن القناة»، «ممكن يوصلوا للقاهرة في بحر تلات ساعات!» «الجنود مش عارفة ترجع بيوتها؟ ازاي نقاوم؟ ازاي نوقفهم؟ ».

الرجالة قالوا «مش ممكن نقعد في البيت» ونزلوا .

رجعوا على نص الليل «البلد كلها مظاهرات رفض الاستقالة» «مش عارفين إيه اللي بيحصل ».

إحنا الستات اتفقنا «إحنا كمان حننزل نتظاهر الصبح»، كنا بنسمع الإذاعة وبيصوَّروا في التلفزيون مجاميع غفيرة من الشعب رافضة الاستقالة .

«عايزين نقاوم» «عايزين نحارب» «مش ممكن» «مش حنستسلم ».

تاني يوم سِبْناكم ـ انتم العيال ـ مع محمد السنوسي ومع دادة عزة، دادة ليلى بنت ديزي وبهاء، «حنروح بيت الريس» نرفض الاستقالة ونقول مستعدين للمقاومة ونطالب باستكمال الحرب وعدم الاستسلام. ركبنا عربية ديزي: أنا ورضا ورعاية وديزي تسوق. وصلنا شارع «الملكة نازلي»، الشارع اللي بيروح لمحطة القطر اللي فيه مصلحة التلفونات على الشمال، اسمه إيه الشارع دا؟ الشارع اللي جاي من كوبري ستة أكتوبر علشان نروح مصر الجديدة؟ «رمسيس»، أيوه رحنا شارع «رمسيس» ومشينا فيه مدة طويلة مع الناس ـ بالعربية ـ زحمة، أتوبيسات جاية من الأرياف مليانة ناس، ناس ماشية على رجليها. مفيش سكة، ولا للعربية ولا للبني آدمين. عساكر المرور بيقولوا :

ـ ارجعوا، مفيش سكة .

ديزي بترد واحنا بندعمها من جوه العربية ونقول معاها :

ـ عاوزين نوصل لبيت الريس .

ـ مليان مليان مليان ناس، مش حتقدروا تقربوا أكتر من كدا .

فضلنا واقفين مع المتظاهرين وفي لحظة ما قررنا نبتدي نروَّح، أصل حنعمل إيه؟

كاميونات عساكر جيش راجعين من سينا، قاعدين كدا، تعبانين، ما بيتكلموش، بيبصُّوا للجماهير مذهولين، مش إعجاب، لا، مبلِّمين، ذهول التعب، وجوم. بَرضُه ما خدناش بالنا كويس منهم، أنا افتكرتهم بعد كدا وانا باستوعب الأحداث، ناس كتير ماشية في وسط الشارع في كل حتة لغاية ما دخلنا الدقي. ديزي فضل عندها شوية وعي في وسط الحماس :

ـ مفيش فايدة، الهزيمة هزيمة، كارثة .

رَوَّحت بيتي وديزي روَّحت بيتها ورضا روَّحت بيتها ورعاية روَّحت بيتها .

ما اقدرش احكي كويس .

لخبطة فكرية، مش عارفين نحس بإيه، مش عايزين نستوعب حكاية الهزيمة .

بهاء بعت يومها من باريس «فتحوا المطار أنا جاي في أول طيارة ».

بس .

وابتدى الجزء اللي بعد كدا .

الإذاعات الأجنبية: «معقولة؟ القائد ودَّاهم للكارثة وهما يقولوا لأ لازم يرجع ويودِّينا لكوارث أكتر» «لازم يستقيل» «مفيش شعب يعمل اللي بيعمله المصريين ».

إحنا: «ضربوا عبد الناصر علشان بيمثلنا» «مش حنستسلم ».

على أي حال عبد الناصر رجع .

سحب الاستقالة .

هو ما كانش هو .

كنا بنشوفه .

اتغيَّر .

فين جمال عبد الناصر في الخطب القومية قبل خمسة يونيو؟

وشتايم نازلة من كل ناحية، من البلاد العربية، من أوروبا... وطبعًا من إسرائيل .

واستمرينا .

الثقافة الجماهيرية استمرت تعمل الأنشطة بتاعتها ولكن في حالة «shock» ـ صدمة كبيرة .

لغاية الوقت دا سعد كان في معركة مع عدد من المحافظين بيقاوموا الانتعاش الثقافي وثروت عكاشة بيدعمه في الصراعات ويشجعه على الاستمرار. ثروت كان عنده «carte blanche» أو ضوء أخضر من جمال عبد الناصر. بعد هزيمة 1967 حصل فتور. نغمة المحافظين عِلْيت وثروت عكاشة ابتدا يتهز، وابتدت اتهامات المحافظين تلاقي ودن عند جمال عبد الناصر، اعتقد حصل له

انهيار في الثقة، وابتدت تكتر المواقف اللي بتتحسم ضد نشاطات الثقافة الجماهيرية، بعد الهزيمة بشوية عبد الناصر ابتدى يشيل الشيوعيين والتقدميين اللي كان حطهم في مناصب .

يا ترى ثروت عكاشة حيعمل إيه في سعد والثقافة الجماهيرية؟

ثروت كان متوقع إن سعد حيستقيل ويبعد لوحده، سعد قال له :

ـ مستحيل، إحنا لازم نستمر .

ولكن دي ما كانتش رغبة السلطة ولا الوزير .

ـ لازم تستقيل .

ـ إنت ارفدني، أنا مش حاستقيل .

واتخانقوا مع بعض .

سعد رجع البيت يستنى .

جه الأمر بنقله لدار الكتب، وكان يُعتبر محظوظ. أيامها المثقفين كانوا بيتنقلوا من مناصبهم لحتت غريبة، إدارة بتصنَّع جِزم في وزارة التجارة، أظن كمال القِلِش اتنقل للصوامع والغلال وعلي الراعي ومصطفى درويش وغيرهم .

التفاصيل الدقيقة ممكن تلاقيها عند حد تاني غيري .

حصل نوع من التطهير لوزارة الثقافة .

سعد استمر ياخد ماهيته مدة من دار الكتب، رفض يروح احتجاجًا على النقل التعسفي، الإدارة اعتبرت إنه ما بيشتغلش وجاله جواب استغناء .

أصحابه اللي ما فقدوش شغلهم بما فيهم أحمد بهاء الدين جمَّعوا له ميت جنيه في الشهر علشان تستمر مصاريفنا في البيت، نوع من التضامن مع موقفه .

ماهيته قبل كدا كانت وصلت لحاجة زي سبعميت جنيه، كانت ماهية كويسة .

دي قصة الثقافة الجماهيرية .

من أغسطس 1966 لأوائل 1968 .

نسافر إيطاليا أشوف أهلي ويشوفوا دينا؟ وسعد ييجي معانا؟ معندوش شغل. تكلفة بالنسبة لحالتنا. كنا محتاجين نغيَّر جو بأي طريقة .

يونيو 1968 موسم امتحانات، أزمة في كل حاجة بما فيها التاكسيات، صحينا قبل الفجر والدنيا ضلمة علشان الطيارة 7 الصبح، نزل سعد مع محمد السنوسي يدَوَّروا على تاكسي، الشنط قدام الباب، أنا بالعيال في البلكونة، فاطمة شايلة دينا، بيبي عندها حوالي سنة ونص . مستنيين التاكسي يظهر، مفيش تاكسي أبدًا. كلمنا أصحاب سعد، اللي مش موجود واللي نايم مش بيرد، أخيرًا حطينا إيدنا على ديزي، «فيات/ نصر» 1300 أو 1100 .

- يا خبر! عربيتي بايظة بتسخن !

لكن جدعة، عندها قدرة على تقدير الموقف، تصحى وتقوم وتجري، عربيتها بايظة بس لازم تنقذنا. خدتنا وجرينا على المطار وعقبال ما وصلنا المطار العربية كانت ولعت وما اعرفش ديزي رجعت ازاي، سِبناها في عربيتها وجرينا حتى ما سلمناش عليها. الظابط على مدخل المطار .

- يا خبر! يلَّا! يلَّا! يلَّا !

الشنط إيد هنا وإيد هناك، سعد طاير بالباسبورتات وانا وراه ساحباكِ وفاطمة ورايا شايلة دينا على دراعها ويلَّا وعدِّينا. سمعت فاطمة :

- هي البنت دي مش تبعكم؟

خطفت دينا من فاطمة وطبطبت عليها وشكرتها بسرعة وبوستها وجريت وانتِ مسكت في فستاني، وركبنا الطيارة. اتكسفت كسوف، مش معقول توصل اللخمة إني أنسى حد من عيالي. فاطمة دي كانت بنت ما تتعوضش. أكيد رجعت البيت مع ديزي في العربية البايظة .

في «نابولي» عند أبويا وأمي انتِ بقى عشتِ حياتك، اتصاحبت على أولاد الجيران «باتريتزيا» و«أنا-ماريا» و«فينشنسينو» و«بينو» و«لوكا»، وكنت بتلعبي معاهم في حوش العمارة، ما كناش بنشوفك طول النهار .

في السفرية دي اكتشفنا الكلام الفظيع اللي كانت بتكتبه الجرايد الأجنبية اللي مانعينها تدخل مصر، أبويا وأمي كانوا شايلين لي الجرايد، حكوا لي شوية وقريت كتير وصف هروب الجنود المصريين، آثار المصريين في الصحرا راجعين على رجليهم حافيين على الرمل من آخر سينا للقناة، كتير منهم وقعوا في الأسر، الوصف كان كارثي .

عملنا رحلة مهمة لباريس. سِبنا دينا مع أمي لأن كان عمرها يا دوب سنة ونص على أساس ما اقدرش اسيبكم إنتم الاتنين لأهلي، كتير عليهم. مش متأكدة إن دا كان قرار مظبوط، دينا ساعات بتعتبر إني ما كنتش باحبها كفاية وباسيبها. أمي تبقى جدتها صحيح بس ما تعرفهاش، دينا كانت واخدة على فاطمة ودا كان أول لقاء مع أبويا وأمي، تصورت إن وهي صغيرة كدا مش حتتأثر وأهلي حبُّوا يقضوا وقت معاها ياخدوا عليها وتاخد عليهم. دا كان تقديرنا .

أخدنا القطر، ورحنا باريس عن طريق «تورينو ».

لما القطر وقف في محطة «تورينو» نزلت اشتريت جوز شرابات لأن الجو ساقع بالرغم إنه صيف، شراب غالي ومش حلو وقضيت السفرية كلها بشراب مش مريح. القطر عدَّى الحدود البرية، البوليس طلع في القطر وشافوا الفيزا. اللي جه ياخدنا من المحطة في باريس كان «هنري كوريل». ما كنتش قابلت «كوريل» شخصيًّا في مصر، أصغر منه في السن، أنا عضوة في قاع هرم التنظيم مش ممكن أقابله في اجتماع مثلًا، وما كانوش بيجيبوا سيرته كتير في الاجتماعات اللي حضرتها. أقصد أقول إن ما كانش عندي خلفية كفاية عنه علشان أكون «impressed» - منبهرة - كما يجب وانا باقابله . سعد كان عنده معلومات عنه وعن تاريخه وكان قابله في سفريات قبل كدا. سلمنا عليه، لقيته طويل، أطول مننا، أطول من سعد، رفيع، حاطط جاكتة على كتافه أو معلقها بإيده على كتف، والإيد التانية في جيب البنطلون. كنا مسافرين طول النهار وتعبانين فأخدنا على مطعم علشان نتعشَّى، المطبخ كان قفل فاتفاوض معاهم «ضيوف ولازم يتعشُّوا»، وفعلًا جابوا لنا ناكل، أثناء الأكل لاحظت إنه بيتكلم كأنه بيعمل محاضرة، من غير رزالة، كأنها أفكار بتخطر على باله بس مفيدة، مثلًا «إن الطريقة الصحية للأكل إن الواحد ما يستناش إن يجوع بشدة علشان ياكل، ولما ياكل يبطَّل قبل ما يتملي، ياكل كمية معينة ويقوم، ولازم الإنسان يشرب حاجة على الأكل ». أنا ما اقدرش أنسى الكلام دا، أصل دي تُعتبر المعلومات اللي ما عرفتش انفذها طول حياتي. «كوريل» هو اللي أسس «ح.م» - «حركة مصرية» اللي بقت «حدتو» «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني» - ودا يهمني طبعًا لأن دي المنظمة اللي أنا كنت انضميت لها ودخلت السجن على أساسها. أعرف إن «هنري كوريل» انطرد من مصر بالرغم إن كان عنده الجنسية المصرية، سمعت إن سحبوها منه فراح استقر في باريس ودي حاجة تهمني لأني كنت مهددة بالترحيل. من باريس «كوريل» استمر يهتم بشؤون الشرق الأوسط ولعب دور كبير مع الوطنيين الجزائريين، وحاول ما يقطعش العلاقة مع الناس اللي يعرفهم هنا في مصر لدرجة إن في 1956 سمعت إن جت له معلومة تخص الهجوم الإسرائيلي، وبلَّغ المعلومة لجمال عبد الناصر عن طريق حمروش وعبد الناصر ما خدهاش جد .

«كوريل» قابلنا بالمجموعة اللي في فرنسا، واتعرفت على سوسو حزان ونادية حزان أخته، سعد كان يعرف سوسو من قبل كدا. بالكلام عن الذكريات بعيدًا عن السياسة عرفت منهم إن «أوديت» الريِّسة القاسية بتاعة «م.ش.م» كانت على علاقة مع مراد المستكاوي الدكتور اللي رحت له في مستشفى الهلال الأحمر بجواب من «لي لي دايان» بعد ما طلعت من السجن، بتسأله على مستقبل علاقتهم، ومراد كان في منتهى البرود معايا وما شكرنيش حتى على توصيل الجواب. أتاريه مراد دا دخل في علاقة مع «أوديت» وأهمل «لي لي» وبيحاول يتخلَّص منها، وافتكرت ازاي «أوديت»

استقصدتها في السجن. بعد السجن «أوديت» اتجوزت مراد دا وهاجروا وراحوا سويسرا الاتنين وعايشين هناك وسايبين كل ما له علاقة بالكفاح والشيوعية. اتعرفنا على ريمون إسطمبولي وعِيلته وعزمونا على العشاء، عنده بنت تقريبًا من سنِّك ومع ذلك ما كنتيش راضية تسيبيني في حالي وكان صعب اتابع الكلام اللي بيقولوه وانت معانا، كان لازم اقعد معاكِ على الكنبة أتكلم معاكِ واسليكِ وهم كملوا يتكلموا في السياسة بالتأكيد وعن الوضع في مصر الوضع اللي كان مش كويس بعد حرب 1967. «هنري كوريل» دايمًا هادي ويتكلم بصوت واطي ومسموع ولكن ريمون، شرب براحته شوية لأنه صاحب البيت ومش حيسوق بعد العشا، فاتحمق واتكلم بصوت عالي وهاجم بحماس .

رحنا حفلة «لومانيتيه» جرنال الحزب الشيوعي الفرنسي، نوع من المهرجان في مكان مفتوح، كتب ومطاعم وخيم فيها مسرح أو معرض ومحاضرات، وبنت ريمون اسطمبولي جت وركبت المراجيح معاكو وكنت بامسككم انتم الاتنين، واحدة من هنا وواحدة من هنا خايفة واحدة منكم تقع مني. وكان معانا «هنري كوريل» وواحدة اسمها «روث» ومرات ريمون. «كوريل» اشترى عدد من مجلة «بيف»، أسبوعية للأطفال، وادَّاها لك، خد باله إنها شدتك فراح جاب لك شنطة فيها المجموعة الكاملة 3 أو 4 مجلدات، المجموعة دي موجودة عندنا لغاية دلوقت ودينا لما كبرت اتفرجت عليها وحبِّتها. حضرنا أجزاء من ندوة سياسية و«كوريل» انتهز الفرصة في وسط الكلام علشان يقول :

ـ عيب كبير عند الشيوعيين بشكل عام ما بيهتموش بالثقافة والفن والأدب والفلسفة، يهتموا بس بالسياسة والموضوعات السياسية، ودا مش كفاية. الثقافة والفن والأدب مش برافان أو تمويه للعمل في السياسة، دي ثروة الإنسانية أنتجتها على مدى قرون لولادها والأجيال الجاية، فالشيوعيين لو عاوزين يكونوا مفيدين ولهم دور مميَّز لازم يهتموا بيها يستوعبوها ويشربوها ويتأثروا بيها، مش كفاية السياسة والنظرية الماركسية وتاريخ الحزب الشيوعي والتحالفات الإستراتيجية والتكتيكات والحاجات اللي من النوع دا .

شوفي مثلًا التعليقِ دا أنا ما اقدرش انساه، بيقول الأفكار بشكل عابر من غير ما يكون رزل، بتلاقي صدى عندي وبتعلق معايا .

«كوريل» عزم علينا في بيته وقابلنا مراته «روزيت» وعملت لنا سبانخ بوريه، حاجة خفيفة حلوة كويسة للصحة. انتِ كنت بتتكلمي وانا باحاول اتابع الحوار فمش كل حاجة تقوليها باسمعها، «كوريل» بطَّل كلام وبص لك كدا وقال :

ـ آه عندك حق، دي ملاحظة مظبوطة .

فسكتنا كلنا نسمع الدُرَر اللي حيقولها لك، كنتِ واقفة قدام الشباك وقلتِ :

ـ كل العربيات دي ماشية تحت مش سامعة صوتهم .

وشرح لك إنهم مركبين في بيتهم نوع قزاز زي الترموس، الصوت ما يفوتش منه، علشان يقدروا يناموا لأن الشارع مزعج. أنا انبسطت منه بشكل، في العادي بس الأم - أنا - أتابعك والتانيين مشغولين بـ«كلام الكبار» لكن هو عينه وودنه عليكِ. زوجة ريمون عرضت عليَّ أجيبك تقضي النهار مع بنتها في البيت، واروح اتفسح أشوف اللوفر أو أي حاجة وآجي أخدك بالليل. قبلت العرض على طول و«روزيت» مرات «كوريل» خدتني ودِّتني أزور قصر وجناين «التويلري».

- روحي انتِ اتفرجي، أنا شفته ستميت مرة حاستناكِ بره، ولما تخلَّصي الجولة ما تنسيش تدي المرشد عشرة فرنك، معاكِ فلوس؟

أنا ما كانش عندي تقريبًا فلوس خالص هناك، سعد بيتولَّى الصرف فطلَّعت لها اللي معايا علشان تشوف.

- أيوه دا كفاية.

لما رجعت آخدك آخر النهار لقيتك زعلانة ومتخانقة مع البنت الصغيرة وما سمعتيش الكلام. ما كنتيش سهلة معاهم، تعبتيهم وتعبتِ. تصورت إنك بتروحي «الليسيه» وتعرفي شوية فرنساوي وحتتفاهمي، افتكرت إن حيحصل كويس بس ما حصلش كويس، دا اليوم الوحيد اللي سِبتك ما عرفتش اسيبك تاني، جيتِ معايا في كل حتة. كان حلو والله لقيتها لفتة ظريفة وانبسطت إنه عملوا معايا مجهود، خدُّوا بالهم إني ما اعرفش حاجة في أوروبا وبيساعدوني اتصرف لوحدي. سعد خدنا نزور «برج إيفل»، بس ما رضيش يطلع.

- أنا طلعت وشفته قبل كدا اطلعوا انتو.

طلعنا وقابلنا في الأسانسير ناس سمعونا بنتكلم بالعربي أنا وانتِ فسألونا:

- منين؟

- من مصر.

- إحنا من سوريا. البنت اسمها إيه؟

لاعبوكِ وكانوا لطاف والست خدت معانا صورة، والصورة دي عندنا، بعتوها بالبوسطة.

سعد كان مشغول في مقابلات سياسية وأظن دا كان محرك الرحلة إلى باريس.

مع سفريات سعد لفرنسا وبرلين وتشيكوسلوفاكيا أيام الثقافة الجماهيرية دخلِت في حياتنا شخصية أحمد حمروش. أحمد حمروش من الظباط الأحرار اشترك في حركة الجيش وأصبح رئيس أو مدير المسرح في فترة الستينات، سعد كان يعرف حمروش واصحاب من زمان من أيام التنظيمات بس بقى يقابله بانتظام أكتر في فترة الثقافة الجماهيرية. وابتديت أسمع عن «مبادرة روجرز»، كلام

لتنظيم مبادرة لإنهاء الخلاف مع إسرائيل على أساس إن إحنا ـ مصر وجمال عبد الناصر ونظام جمال عبد الناصر ـ مش ضد اليهود وإنما ضد الاستعمار. يظهر إن حمروش كان رجل ثقة عند جمال عبد الناصر وزي مندوب الحكومة ومندوب عبد الناصر في الموضوع، بشكل غير رسمي أو نص رسمي، يمكن بسبب علاقته القديمة وقوية بـ«كوريل»، نظموا مقابلة مع واحد أظن اسمه «وينبرج» كان رئيس الطائفة اليهودية في العالم ساعتها، ما كانش إسرائيلي، يمكن أمريكاني؟ قابل جمال عبد الناصر لمحاولة الوصول إلى تصوُّر. تفاصيل «مبادرة روجرز» مش عندي، سمعت حاجات عنها لكن مش فاكراها، اللي أعرفه إن مرة أيام الثقافة الجماهيرية سعد راح فرنسا وقابل «هنري كوريل» لتوصيل كلام من جمال عبد الناصر عبر أحمد حمروش وانطباعي إن الكلام دا ابتدى قبل حتى الهجوم الإسرائيلي في يونيو واستمر بعدها. بمعنى إن نشاطات الثقافة الجماهيرية كان موازي لها بالنسبة لسعد مهمة تواصل مع «هنري كوريل» وبين عبد الناصر من خلال أحمد حمروش وثروت عكاشة فيما أصبح اسمه «مبادرة روجرز» بعد كدا. الصلة بين «كوريل» وأحمد حمروش قديمة و«هنري كوريل» كان على علاقة مع الظباط المصريين الثوريين من بعد الحرب العالمية التانية من قبل حركة الجيش في 1952 وامتدت بعد ما «كوريل» خرج من مصر وعمل مجموعة للشيوعيين المصريين في الخارج، اسمها مجموعة «روما» ولكن هي في باريس، وسمعت وما اعرفش إلى أي درجة صح، إن عبد الناصر فِضِل على اتصال بـ«كوريل». كان فيه مواقف من النوع دا بتحصل لعبد الناصر، علاقته بالشيوعيين كان فيها خليط من النفور والانجذاب. الحكايات دي أكيد أحمد حمروش حكاها مظبوط في أحد كتبه. لكن رحلتنا لباريس كانت مربوطة بالكلام دا بشكل أو بآخر، حبيت أوضَّح انطباعي، النكسة كان عدَّى عليها سنة يا دوب وسعد كان لسه مرفود من الثقافة الجماهيرية والأوضاع كانت مهزوزة.

ممكن نقول إن المنظمات والأحزاب رجعت تنشط تاني، والأسئلة على الموقف من نظام الحكم رجعت تاني في المناقشات، بس كان في حالة من الصدمة بين الشيوعيين. ابتدت الحركات الطلابية تتحرك من 1968 على طول بعد النكسة وتطالب بالحريات ومزيد من الديمقراطية والشفافية. أنا الحقيقة ما عرفتش أتابع الناس دُول وما عرفتهمش كويس، ابتدى جيل تاني، وجوه جديدة في الثقافة شعللت على نهاية حكم جمال عبد الناصر بعد موته سنة 1970 ووصلت لقمتها في 1972. ظهر شاعر شعبي اسمه أحمد فؤاد نجم ومتجوز صحفية مثقفة وجريئة اسمها صافيناز كاظم، وشيخ اسمه الشيخ إمام بيلحِّن ويغني شعر نجم، وانتشرت أفكار التمرد عن طريق الأغاني والتجمعات حواليها. نجم والشيخ إمام راحوا سيلا الفيوم مع سعد مرة يسجِّلوا الأغاني على كاستات علشان تنتشر. سمعت كمان عن عطيات الأبنودي مخرجة أفلام تسجيلية بتقرَّب من الناس وتحكي مشاكلهم بجرأة وتتهاجم. قبل ما يموت جمال عبد الناصر كان اتوصف إنه ديكتاتور، والحكم إنه قامع للحريات. حرب الاستنزاف كانت مستمرة بقى لها كام سنة، وجمال عبد الناصر زوِّد مجهود تسليح الجيش بعد الهزيمة، فالتلات سنين من 1967 لغاية ما مات المجتمع كان في أزمة، البنية التحتية بتنهار، مفيش أماكن في المدارس، والتعليم بيتدهور مش بيتصلح، أزمة البطالة والمساكن بتزيد بعد تهجير مدن القنال التلاتة، والتلفونات بايظة والخدمات كلها واقعة مفيش ميزانية للصيانة، وكل شوية تظهر أزمة جديدة، مرة نسمع إن التجار بيلمُّوا الفكة ويسيَّحوها ويبيعوها معادن فمفيش فكة، ومرة مشكلة البطيخ، عاملين تسعيرة والتجار عاوزين يزودوا الأسعار، فاختفى البطيخ من السوق وكنا بنسأل

راح فين البطيخ؟ وسمعنا إن التجار مخبيينه في مداخل العمارات، عايزة اجيب كبريت مالاقيش كبريت، عايزة شاي مش لاقية شاي، سكر، رز .

*

ما كنتش باعمل حاجة سياسية، ما حدش اتصل بي من ساعة ما خرجت من السجن الأول في 1949، ولا من الشيوعيين ولا من النظام. طلع قرار بالسماح للمرأة بالانتخاب والترشيح لأول مرة في تاريخ مصر، واحدة اسمها راوية عطية رشَّحت نفسها وانتُخبت عن الجيزة ودخلت البرلمان، مجلس الشعب. عملت حملة لمحو أمية الستات، تعلمهم وتشجَّعهم يستخرجوا البطاقة الانتخابية ويشتركوا في الانتخابات. الستات كانوا عمومًا على الهامش، مفيش حماس ولا فهم بالمعنى الكبير للي بيحصل في البلد، ما عدا شوية مثقفات طبعًا. ابتدت راوية عطية الحملة وطلبت من معارفها ينزلوا يشجعوا الستات في الأحياء الشعبية على استخراج البطاقة الانتخابية. أنا اتحمِّست في البداية، رعاية النمر كانت لسه مديرة قصر الثقافة في الجيزة وقلت لها :

- ما تيجي نشترك في الموضوع دا؟

- بس نروح فين؟

فكرت في محمد السنوسي اللي بيساعد نانا في البيت، ساكن جنبنا في بين السرايات، حتة شعبية ورا جامعة القاهرة، طلبت منه نقابل مراته وجيرانها ستات الحتة. وفعلًا رحنا أنا ورعاية، أنا اتكلمت الأول :

- لازم الستات يهتموا بأمور البلد وينتخبوا ويقولوا إن كانوا مبسوطين ولَّا لأ، ويقولوا عايزين إيه .

شوية كلام كدا، حسيت إنهم منتبهين للهجتي ولوني وشكلي ولبسي أكتر ما متابعين الكلام اللي باقوله، قلت في نفسي معلش الموقف جديد علينا كلنا. بعدين رعاية اتكلمت وشرحت أكتر وبشكل أحسن ومن غير لهجة بس بَرضُه بيقولوا «آه، آه، آه» حسينا إحنا الاتنين، أنا ورعاية، إن الموضوع مش نافع في قعدة أو قعدتين، عايزين نكون شعبيين ونساعد الشعب وستات الشعب، لكن موضوع الانتخابات دا مش مناسب. الستات مش شايفين أهميتها ومهما نقول بالكلام إن المشاركة في الانتخاب حتكون في مصلحتهم، ازاي حيرجع لمصلحتهم؟ وينتخبوا ناس كويسين ازاي؟ أصلًا ما يعرفوش مين الناس الكويسين ومين الناس الوحشين، ولا إحنا إلى حد كبير، عالم الانتخابات صعب، بتتعمل ازاي ومين بيترشح وازاي بيكسب فكلام نظري مش مقنع بالنسبة لستات إيديها في الحياة اليومية. تراجعنا. دا كان التحرك الوحيد اللي حاولت أعمله في السياسة وسِبته على جنب ورجعت ركزت في الباب اللي باكتبه في «حواء».

هنا نيجي بقى لإسرائيل، أنا أتصور إن من بعد سبعة وستين حصل تغيير في الوعي عندي وعندنا كلنا وفي نوعية المناقشات. إسرائيل عدو دا مفروغ منه واننا متضامنين مع الفلسطينيين بشكل إنساني ووجداني دا طبيعي وفي صميم مشاعر القومية العربية ومبادئ التحرر الوطني. في يوم كنا

عند رعاية وأبو العينين في بيتهم وكان فيه عدد كبير من الناس، بهاء جايب معاه اتنين فلسطينيين باين عليهم متجوزين والبنت شكلها بيفكَّرني برندا سنيورة صاحبتنا من القدس، وجت قعدتي جنبها. الوضع السياسي في مصر متوتر ومش واضح، واحنا بطريقتنا بنشرب وبنضحك وننكت وكلام داير ومناقشات على الفن وعلى الأوضاع في مصر. فجأة بهاء سأل الست الفلسطينية :

- انتِ متضايقة من الضحك دا؟ حاخلِّيكِ تتكلمي دلوقت استني شوية .

انتبهت إن فيه اتنين جنبي ساكتين وهي بالذات متضايقة، وشَّها فيه وجوم. حسيت انهم اعتبروا اللي بيحصل في القعدة بتاعتنا نوع من الفساد، مش واضح لها إن دي طريقة كلامنا. بهاء قدِّمهم :

- النهاردا معانا في وسطنا اتنين من فلسطين جايين من الأردن، حصلت مجزرة .

ما اعرفش وصفها ازاي بالظبط بس هي كارثة كبيرة حصلت في الأردن، والفلسطينيين اضطروا يهربوا واللي ما هربوش اتقتلوا في الشوارع. كلهم سكتوا، انتبهوا، مفيش ضحك. ضيوف بهاء شرحوا الوضع: فيه تحرك من ناحية الأردن، قالوا عليها خيانة من الملك حسين ومن أشخاص تانيين قالوا لنا عليهم بالاسم. السهرة انتهت بمناقشات «ممكن يتعمل إيه؟». عايزين تأييد مش بس تعاطف. ما شفتهمش تاني. حاجة بارزة في اللقاء دا إن المجتمع المصري مش متابع كفاية، واللي انتبهت له شخصيًّا في السهرة دي إن إسرائيل فتحت جبهة سياسية، يعني من هنا ورايح مش بس أخبار إسرائيل العسكرية اللي تهمنا .

المذبحة دي اتعرفت بعد كدا باسم «أيلول الأسود»، لأنها حصلت في سبتمبر .

بعدها بمدة قصيرة جمال عبد الناصر مات .

أنا واخده بالي إن بأقول كلام كتير ملُوش رابط غير صدمة 1967، بس معلش خُديني على قد عقلي ونستمر .

سافرت إيطاليا أزور أهلي تاني سنة 1970، جدو كامل كان تعبان وسعد كان رجع يكتب في «الأخبار» بصعوبة وبعد اتصالات ومساعي عدد من الناس، ومحطوط تحت ضغوط ومش بينشروا له بانتظام فما جاش معانا. سافرنا أنا وانتِ ودينا لوحدنا بالمركب. المرة دي رحنا «ريبا» مش «نابولي» لأن أبويا وأمي كانوا خلاص صفُّوا أمورهم في «نابولي» ونقلوا «ريبا» بشكل نهائي. كانوا عايشين على معاش بسيط، حبايبي كانوا بيحوِّشوا ليل نهار علشان يحتفوا بينا ويدلعونا لما نيجي نزورهم، أنا ما كانش معايا فلوس. آخر يوم لنا في الزيارة دي جالنا خبر موت جمال عبد الناصر، واحنا مع أبويا وأمي في «ريبا». أبويا ساق بينا لـ«فينيسيا»، كانوا غيَّروا مسار البواخر «سوريا» و«الجزائر» ونمر من مضيق «كورنثوس» في اليونان. المركب كانت مليانة مصريين، ستات لابسة إسود ورجالة وشباب والجميع بيعيط، فيه شابين فِضلوا طول الرحلة متشعبطين على سلم بيحاولوا يجيبوا إرسال تلفزيون في وسط البحر عايزين يلقطوا إرسال من أي بلد، مش مصدقين الخبر. علي الراعي جه يستقبلنا في اسكندرية بالعربية، وصلنا البيت لقيناه مليان ناس،

أصحابنا ملمومين عندنا لسه بيتابعوا الأخبار، مش فاكرة منهم بالاسم إلا رعاية، لابسة اسود وبتعيط بلا توقف ونانا حماتي، أم سعد، واخداها عندها في الأوضة تطبطب عليها وتحاول تهدِّيها. تاني يوم جت فاطمة دادة دينا علشان تسلِّم علينا، لابسة اسود وصوتها رايح من كتر الصويت وبتحكي على الجنازة، فاطمة حضرت جنازة عبد الناصر .

من أوائل الإجراءات اللي خدها السادات لما جه الحكم فيما يخص الصحافة منشور إن سعد كامل ممنوع من الكتابة هو ويجوز صلاح حافظ. سعد كان يا دوب رجع يكتب في «الأخبار» بعد ما شالوه من الثقافة الجماهيرية، عبد الناصر مات ومنشور السادات دا نزل وسعد بطَّل يكتب تاني، المرة دي استمر ياخد ماهيته من «الأخبار» ولكن ممنوع من الكتابة نادرًا ما نشروا له، واستمر المنع لغاية ما السادات اتوفى، لغاية ما اغتالوا أنور السادات .

سعد كان اشترك في قضية اغتيال أمين عثمان مع أنور السادات في الأربعينات، الإعلام كان بيروِّج لصور بطولات السادات وإنه قاوم الإنجليز والاستعمار في شبابه زمان، فالناس كانوا متصورين إن فيه نوع من الزمالة القديمة بينه وبين سعد، بالذات إن السادات حب يجيب حواليه الناس اللي يعرفهم زي محمد إبراهيم كامل زميل سعد بَرضُه في اغتيال أمين عثمان يستشيره وانتهى الأمر إن ادَّى له منصب كبير في الخارجية، فكان فيه ناس متوقعة إن دا ممكن يحصل مع سعد، بس حصل بالعكس .

فترة السادات كانت فترة وحشة بسبب إبعاد سعد من الأول خالص كدا .

جمال عبد الناصر مات يوم 28 سبتمبر 1970 وأنور السادات عمل انقلاب داخلي كبير في 15 مايو اللي بعده يعني 1971. قبض على القريبين من جمال عبد الناصر واللي عندهم مراكز قوة أو أي نفوذ تحت عبد الناصر، سواء عندهم منصب أو لا. ناس لهم نفوذ من تحت لتحت بدون منصب محدد في الدولة، قبض عليهم وحطُّهم في السجن، بعضهم أخد أحكام كبيرة زي خمستاشر سنة والتهمة بيحضروا لانقلاب ضد السادات. الحكاية دي معروفة وممكن الواحد يقرأ عنها في الكتب والأبحاث .

نظام جمال عبد الناصر كان مليان شرطة ومباحث ومراقبة تلفونات، فالسادات قبض على شمس بدران والبوليس السياسي اللي تحت جمال عبد الناصر، كانوا مسجِّلين أطنان من الأشرطة وهم بيتجسسوا على الناس، واتحرقت الأشرطة دي كنوع من التصحيح، وطلعت شعارات «من غير خوف» «المواطنين الأحرار». وإلى حدٍّ ما إحنا كنا مبسوطين من التخلص من مراكز القوى ومن حرق الشرايط ومن كلامه عن الديمقراطية وإعادة تكوين الأحزاب، كل دا كويس، ولكن في الواقع الخلاصة هي إن الإجراءات دي كانت استعراضية علشان يغطي على الانقلاب السياسي، لأن البوليس السياسي فِضل زي ما هو والمعارضين في السجن أو زي سعد، موقوف من الكتابة وممنوع عن وزارة الثقافة. مسألة إن يقبض على الناس دي كلها بدون تمييز معناها إنه ضد عبد الناصر مش مسألة حريات ومراكز قوى ولا حاجة زي ما بيدِّعي. وفعلًا ابتدى ينفذ سياسة تانية،

كنا بنشتم القطاع العام هنا في مصر، طوابير في الجمعيات وفساد وسوق سودة وما تلاقيش دا وما تلاقيش دا وناس تسافر وتهرَّب فلوس، لخبطة كبيرة، الغلط في فساد المسؤولين في الجمعيات وفي الشركات وفي السرقات، وكان فيه محاولة لمحاربة الفساد بالبوليس بس دا ما بينفعش، ناس الفساد أشطر من إن تحاربيهم بالقوة، على أي حال السادات انتهز الفرصة وابتدى يصفِّي القطاع العام بدل ما يصلَّحه. أنا زرت بنفسي مصنع الألومنيوم في جنوب قنا في رحلة ثقافية نظمتها نقابة الصحفيين مع عدد من الأصدقاء جميل شفيق ومحمد عودة، رشدي أبو الحسن كان المنظم، قالوا لنا إن دا تالت أكبر مصنع ألومنيوم في العالم كله وجه نتيجة لكهربة السد العالي، واللي بيديره هندسيًّا وتقنيًّا واحد من كبار المهندسين الروس. لكن الروس رفضوا تسليح السادات، واضح ما كانش عندهم ثقة يدُّوا له أسلحة هجومية، إدُّوا له أسلحة دفاعية فقط، فعمل خطبة وقال «إحنا مختلفين مع الروس في الإستراتيجية وانا ما حدش يملي عليَّ شروط» ولغى معاهدة عدم الاعتداء. العلاقة مع الاتحاد السوفيتي كانت كبيرة في مجالات كتيرة، الخبراء الروس مش بس في الجيش، في السد العالي وكتير من الشركات والمصانع والمؤسسات الإنتاجية منها مجالات مفيدة، الهدف منها التقدم الصناعي والزراعي والسياسي، ييجي بقى أنور السادات يقطع العلاقة مع الاتحاد السوفيتي ويطلب من الخبراء الروس اللي كانوا موجودين هنا يسيبوا البلد في بحر 24 ساعة، ومشيوا فعلًا فورًا.
وابتدى إجراءات الانفتاح الاقتصادي، أنا مش فاكرة الإجراءات اللي ابتدى بيها لكن ابتدى يحوِّل البلد إلى قطاع خاص. عمل تقارب مع النميري في السودان، والنميري كان عامل حملة مسعورة على الشيوعيين وقبض على صديقنا عبد الخالق محجوب بعد انقلاب فاشل. سعد كان حيتجنن. هو منبوذ من السادات هنا وبيحاول ينقذ عبد الخالق محجوب من الإعدام في السودان. كلِّم طوب الأرض يتوسل يتدخلوا. وصل إنه اتصل بهيكل قالوا له رايح اسكندرية، جري على المحطة ركب وراه القطر، دوَّر عليه وقعد جنبه وابتدا يحكي له عن عبد الخالق محجوب علشان يقنعه يتدخل. هيكل وقَّفه في نص الكلام وقال له:

ـ خلاص، حصل، أعدموه النهاردا الصبح.

سعد اتصدم ورجع لي منهار.

ـ لما صحينا الصبح كان مات، بادوَّر على هيكل في القطر ومحجوب ميِّت.

وبالنسبة للقضية الفلسطينية ابتدى السادات يقول إن 99% من الأوراق في إيد الأمريكان، مع إن إحنا عارفين إن «الأمريكان بيأيدوا إسرائيل، واحنا عندنا الاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي بيدعم قضية مصر والعرب»، فإزاي 99% من الأوراق في إيد الأمريكان؟ انقلاب على سياسات التحرر الوطني والاشتراكية وبيسميها ثورة تصحيح وحريات. القذافي لسانه طويل وتحركاته غريبة وبعد ما مات عبد الناصر أظن قال كلام ضد مصر أو ضد السادات، فالسادات شتمه وهدده، وجالنا إحساس من الخُطب والمقالات إن السادات بيهدِّي مع إسرائيل ولا عاوز يحاربهم ولا حاجة، واحتمال كمان يخش حرب ضد ليبيا. إشاعات كتيرة انتشرت والبلد اتملت احتجاجات. في الجامعة بيطالبوا بالحريات وبالحرب ضد الاستعمار الممثّل في إسرائيل وأشهرها اعتصام 1972، وفي المصانع إضرابات عمالية بسبب الإجراءات اللي بياخدها السادات شوية بشوية ضد القطاع العام والدعم وحقوق العمال. قصاد جو الاحتجاجات دا السادات راح عزم نيكسون، الرئيس الأمريكي،

وطلعت يفط «يحيا الرئيس نيكسون» و«تحية للشعب الأمريكي» و«الشعب المصري يحيي الرئيس الأمريكي»، وابتدى يدعم الإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية ضد الشيوعيين في الجامعة بالذات ويدِّيهم ضوء أخضر، وابتدت تجيلنا أخبار زي إن في أسيوط مجموعات إسلامية طلَّعوا المطاوي ودخلوا في معارك مع الطلبة اللي بيجيبوا سيرة جمال عبد الناصر والحكومة مغمضة عينها، بعد كدا سياسة تغميض العين عن الإخوان امتدت للمدارس بين المدرسين وفي المؤسسات والنقابات، لكن أول مرة أسمع عنها كانت في احتجاجات الجامعة. التحركات دي اتبلورت بالذات بعد حرب 1973، لكن بوادرها كانت موجودة من قبلها، دا السبب إن الهجوم على أنور السادات كان كبير بين أصدقائنا، واحنا كنا ضده، أنا كنت ضده وسعد كان ضده .

متضايقين من التحركات دي كلها وحاسين السادات مودِّينا في داهية ومش عارفين نعمل إيه .

كان فيه دعوة إن الوطنيين والثوريين والشيوعيين يسيبوا البلد علشان الوضع في مصر مش مضمون سياسيًّا ومش ماشي، عدد كبير قرروا يهاجروا ويبعدوا عن البلد، سعد ساعتها خد موقف إن «لا، ولما الناس الكويسين ـ من وجهة نظرنا ـ اللي عندهم سياسة تقدمية ديمقراطية تسافر، يسيبوا البلد لمين؟ دا نوع من الهروب من المشاكل اللي سابها جمال عبد الناصر». دا كان رأيه، هل مظبوط ولَّا لأ كفكرة مش متأكدة، في التاريخ الإنساني حصل إن الناس اضطرت تسافر وتكمِّل من بره ويرجعوا تاني. المهم عدد كبير من المثقفين واليساريين راحوا اشتغلوا في العراق، والعراق كان بيكسب المصريين ويدعمهم في موقفهم المعارض بأن يدخل أولادهم في جامعاته مثلًا. فاكرة على سبيل المثال إن حد من ولاد يوسف إدريس كان عايز يخش كلية الطب، وباعتبار يوسف إدريس من المعارضين لنظام الانفتاح ومش محبوب من نظام السادات، فأولاده دخلوا كلية الطب في العراق. معظم المصريين اللي كانوا بيأيدوا نظام جمال عبد الناصر والشيوعيين اللي بيأيدوا الاشتراكية هجُّوا من البلد علشان حسُّوا إن مش قادرين يمارسوا أي نشاط سياسي، لكن أهه دا كان رأي سعد، رأي مَلُوش شعبية ولا حتى عند المعارضين، فكانت فترة مش مستقرين فيها، ووضعه المهني مهزوز، والحالة المادية بَرضُه مهزوزة، عندنا فلوس قليلة، أو اسمها ما عندناش فلوس .

ابتديت أحس إن فيه صعوبة إن سعد يستمر يشتغل في الحياة العامة، بياخد بانتظام موقف مش مع الناس ولا مع الحكومة، اقترحت عليه بيني وبينه إن ضروري يستقر في عمل ويفصل شوية ارتباطاته الشخصية عن النشاط العام، يفصل الدخل الشهري اللي هو بياخده عن إمكانية العمل السياسي، يبعد شوية عن السياسة، بس سعد ما كانش مقتنع، ما كانش عاوز خالص .

ـ يعني أعمل إيه؟

ـ تروح العزبة مثلًا، انت عندك أرض ممكن تشرف على الأرض .

ـ أنا مش مزارع .

ـ مش مشكلة فيه ناس مش مزارعين، أوِّلهم أبوك، كان مدرس وبعدين مفتش في التربية والتعليم وبعدين اشترى الأرض وابتدى يشتغل فيها ويشرف عليها .

ـ أنا عندي أخين، جمال وعز الدين الاتنين مهندسين زراعيين، ياخدوا بالهم من الأرض .

ـ ما يجراش حاجة، مظبوط، بس دلوقت إن إنت ما عندكش حاجة تعملها في مصر، مفيش مسؤولية معينة، الحكومة بتلفظك وانت مش مقتنع إنك تسافر وتسيب البلد، فممكن تهتم شوية بالأرض .

هنا ظهرت فكرة طماطم للتصدير، كانوا ابتدوا يشجَّعوا التصدير من ضمن سياسة الانفتاح، فنزرع اللي بيتصدر مش اللي بناكله. إحنا عندنا نوع طماطم بيتزرع في مصر اسمه «بريتشر» وأنواع تانية كانوا بيقولوا لي على أساميها بس أنا نسيتها، على أي حال كلها أنواع بتسرح على الأرض والطماطماية تكبر راقدة على التربة، والمحصول محدود بمساحة الأرض، يجيب كذا طن في الفدان. وصلت من بره بذور اسمها «ماني ميكر»، اسمها كدا، «مكنة الفلوس» على أساس بتجيب محصول كبير لأن زرعة الطماطم بتنمو بالطول معلقة في الهوا وتدِّي فرصة لعدد أكبر من حبَّات الطماطم تنمو على نفس مساحة الأرض، يعملوا قوائم من الخشب ويمدوا بينها سلك، تشبه تكعيبة العنب في إيطاليا في قرية أمي، وكل ما النباتات تطوَل يعلقوها بدوبارة في سلك أعلى، ما يسيبوش الزرعة تدلدل أو تنام على الأرض. الطماطم دي مش بتستوي بسرعة وتفضل جامدة زي طماطم السَّلطة مدة طويلة وتستحمل السفر، مناسبة للتصدير. سعد قال خلاص حاروح اشرِف على مشروع الطماطم دا. إنتو عندكو المدرسة فمش ممكن اروح معاه، لازم يروح لوحده يقعد فِي العزبة وييجي القاهرة مرة في الأسبوع. الاكتئاب كان ابتدى يخش جسمه ومش بيقدر يقعد لوحده عايز لازم حد معاه. بهجت من ناحيته كان يحب يروح يقعد يومين تلاتة علشان يرسم، يقعد مع سعد يونِّسوا بعض، ودينا راحت قعدت معاهم مرة وانبسطت مع بهجت، ومشينا على الوضع دا مدة .

طماطم التصدير ما تتحطش في الأقفاص زي محصول الطماطم العادية اللي بينزل السوق، لا، لازم كراتين مخصوصة تتقفل ولها خروم تهوية. وقبل التعبئة فيه الفرز، لازم الطماطم تكون نفس المقاس، الكرتونة فيها فراغات بحجم الطماطماية «المظبوطة»، فالأولاد والستات اللي بيشتغلوا في الموضوع يحطُّوا الطماطماية لو تريح في الفراغ تبقى كويسة، لو صغيرة أو كبيرة يستبعدوها، واللي بيستبعد ينزل السوق في مصر، مش بيترمي. مصاريف في الدوبارة والسلك والقوائم الخشب والكرتون والأنفار اللي بتشتغل. حتة كبيرة من الأرض اتزرعت «ماني ميكر» والحكاية دي شغلت عدد كبير من الفلاحين ومن الأولاد والستات، عمل زي مهرجان، الناس تشتغل وهي فرحانة، وابتدت أول قطفة وتاني قطفة، كذا قطفة على كذا شهر علشان الزرعة تجيب المصاريف اللي اتصرفت وبعدين تيجي أرباح. حاجة جديدة والفلاحين انبسطوا وسعد اندمج في التجربة بسبب فضول الفلاحين وحماسهم أكتر من الربح المنتظر ييجي منها، مسألة إن يعمل حاجة جديدة ويحس إن المشروع عامل انتعاش في المنطقة بدل المحاصيل التقليدية كان مهم بالنسبة له. الفيوم واحة ومحاطة بالصحرا فدرجة الحرارة ممكن تنزل للصفر بالليل، بيسموه الصقيع، ودا بيحصل يوم أو يومين بالكتير في السنة، لكن ليلة واحدة صقيع خطر على المحصول، حبة الطماطم في الليلة دي تتجمد والمية اللي فيها تتحول إلى تلج ولما ييجي الصبح والحرارة تتحسن التلج يسيح والطماطماية تكون باظت ولونها يبقى زي الدِّمِّل، لا تستوي ولا تكبر ولا تحمر. الصقيع فاجئنا والطماطم اللي على الزرع باظت ولازم تترمي وتتخلع والمشروع ما نجحش وطلع بخسارة. إزاي ما فكروش في الصقيع قبل ما يبتدوا الزراعة؟ بس أهه. سعد حكى لنا وانتِ تفتكري دا يا نادية إن كان مطلوب

يولعوا نار بالقش حوالين أحواض الزرع لِيلاتي من نص الليل لحد الفجر طول موسم الصقيع، حوالي شهر، لكن مفيش فلوس للتدفئة وطبعًا ما كانش فيه ميزانية لإعادة التجربة. أتصور إن لو فيه رأس مال كبير كان ممكن في خلال سنتين تلاتة يبقى فيه خبرة ويبتدي المشروع يشتغل ويبقى مُربح، لكن إحنا كنا بنغامر، يا نفع يا ما نفعش، وما نفعش.

سعد زِعل زَعل، معنويا باتكلم، الفشل كان أفظع من خسارة الأرباح، ساب الفيوم ورجع مصر وقال «أنا مَش حارجع اشتغل في الفيوم تاني» وكان عند وعده، ما رجعش للاهتمام بالزراعة أو بالأرض أو بأي مشروع خاص بالأرض في الفيوم، يروح للزيارة ودايمًا يحدد «أنا جاي علشان أستجم، أتفسح، مش علشان أشتغل».

*

متعودين ننام بعد الغدا شوية ونصحى نشرب شاي بعد الضهر، مش عارفة مين دخل علينا واحنا بنشرب الشاي وقال الجيش المصري عبر القنال. قطعوا الإرسال، كان رمضان ولغوا كل الفوازير والمسلسلات وحطوا أغاني وطنية. حرب مفاجئة. نزلت على طول أشتري شاي وسكر، ما لقتش في أي بقالة في الدقي ولا سكر ولا شاي، فيه ناس كانت عارفة الحكاية دي قبلنا، أو على الأقل البقالين أول ما سمعوا الأخبار دي خبُّوا الزيت والسكر والتموين الأساسي وانا كنت عاوزة شاي وسكر بالذات.

اليومين اللي بعد كدا كانوا مليانين حماس قاعدين جنب التلفزيون والراديو، ابتدينا نشوف أول صور جت من العبور بالكباري والزوارق والدبابات، والطيارات وهي رايحة تحارب، وبيانات عسكرية بإن عبروا ونجحوا في العبور ودخلوا سينا وبيكسروا «خط بارليف». ونتفرج على خط بارليف في التلفزيون. لقطات لمجموعة أسرى إسرائيليين، صَوَّروهم، واللقطة اتعادت ستميت مرة في التلفزيون المصري. عدد من أصدقائنا كانوا متحفظين، ما كانوش بيعبروا بس بيقولوا «نستنى نتأكد». وكنا بنسمع الأخبار من المحطات الأجنبية في الراديو علشان نتأكد.

لينا صديق شيوعي قديم اسمه عثمان غالب دكتور عيون كان عزمنا في بيته على قعدة - أظن في العجمي في صيف 1973 - قبل الحرب حكى لنا إن ابنه نزل إجازة من الجيش والظابط اللي بيدربهم قال لهم قبل ما يمشوا:

- لازم تفهموا إن العدو في الشرق مش في الغرب.

الحكاية اتحكت زي سر كبير وكنا كلنا مذهولين، أظن كان فيه عز الدين وبهيرة في القعدة دي، «إوعوا تنسوا إنكو بتتدربوا علشان العدو اللي في الشرق». ما صدقناهوش. ما صدقناش كلام الظابط.

رحنا نقابل الناس اللي راجعة من الجبهة، فتحي مراد ابن طنط أمينة خالة سعد في سلاح المشاة ومن أوائل المجموعات اللي عبرت، يعني من الجنود اللي حطُّوا العلم في سينا. حكى لنا على

الحماس لما عبروا الناحية التانية وقدروا ينزلوا الحاجز الترابي «خط بارليف» بخراطيم المية ويعملوا طريق والدبابات المصرية تمر قدامهم. وحكى إن ادُّوهم صواريخ روسي وقالوا لهم اضربوا، في الأول ما كانوش عارفين يستخدموها لكن لما الدبابة الإسرائيلي جت في وشهم ضربوا الصاروخ عليها زي ما تيجي مش قادرين ينشِّنوا فإذا بالصاروخ يروح في اتجاه الدبابة ويصيبها وفعلًا تولَّع نار، جالهم حماس وشجاعة إن يستمروا ويخشوا وما يخافوش ولا من دبابة ولا من عساكر ولا من أي حاجة، بيحكي إن قدام الخطر على الجبهة نسيوا التدريبات والتعليمات وبقوا يجروا لقدام ويصرخوا «الله أكبر، الله أكبر» مش مصدقين نفسهم ولا حاسين بحاجة، الطريقة اللي فتحي بيحكي بيها حمِّستنا أكتر واكتر. محمد الرملي جوز عزة بنت فتحي رضوان كان في الصحرا متحاصر في منطقة الثغرة في سينا وكان فيه صعوبة يخرج، وعزة عاشت حالة من الضيق والتوتر لغاية ما أخيرًا رجع بيته ورحنا نزوره على طول. محمد الرملي مهندس من اللي عملوا كوبري العبور، فكان متحمس للسادات وللجيش المصري على الجبهة وبيحكي لنا إزاي اتدربوا بحماس شديد على بناء الكوبري اللي عبروا به القنال.

دا ما منعش إن سمُّوها الثغرة، وان إسرائيل اخترقت الجبهة المصرية وحاصرت القوات في منطقة اسمها الدفرسوار، وأظن الاتحاد السوفيتي طلب وقف النار، والسادات قبل على طول. اللي ضد السادات قالوا إن ما كانش لازم يقبل وقف إطلاق النار وكان لازم يستمر في حرب طويلة، ولكن مهما نقول إنه ضيع فرصة، العبور كان رد اعتبار ورجع المعنويات المصرية اللي كانت محبطة من أيام 1967 بطريقة لا تُحتَمَل.

كان موقفنا إيه سعد وانا؟ كنا مترددين. كنا ضد السادات لأكتر من سبب، بالذات علشان كنا مضطهدين بشدة وسعد ممنوع من الكتابة ومغضوب عليه والغضب طوَّل وابتدى كتير من الأصدقاء يبعدوا عنا حتى ديزي وبهاء خدوا نوع من المسافة. ودخلنا العزلة.

بعد عبور 1973 أنور السادات انطلق في مشاريعه السياسية، كان بيقول عاوز يعمل صدمة كهربائية في ذهن المصريين وعايز يعالجهم ويعالج البلاد العربية. وعمل الانفتاح الاقتصادي والسلام مع إسرائيل. نصحى الصبح نلاقيه طلع قرارات اقتصادية وزيارة نيكسون، ونصحى الصبح نلاقيه راح يزور إسرائيل. عمل الخطبة بتاعته في الكينيست وبعدها اتعملت معاهدة السلام في «كامب ديفيد» في أمريكا، والعرب رفضوا وابتدت مقاطعة العرب لمصر، كتير من التقدميين المصريين انضموا لحركة السادات، والمصريين كانوا منقسمين انقسام كبير في الآراء. مقاطعة إسرائيل في مصر خدت شكل جديد، احنا بنقاطع بعض، والبلاد العربية بتقاطع مصر.

انتعشت لبنان وأصبحت تغري الكتاب والفنانين المصريين يروحوا يشتغلوا فيها، على أساس فيها حرية أكتر وشغل أكتر بينما هنا فيه ديكتاتورية السادات وموقف متخاذل من إسرائيل. بهجت عثمان راح على لبنان، وللأسف الموضوع دا خسر العلاقة بينه وبين سعد. بهجت وغير بهجت، راحوا لبنان يهاجموا اتفاقية السلام والسادات، وسعد فِضِل في مصر ولما رجع يكتب كتب كذا مرة إن ما يصحش نتنازل عن فكرة السلام ولا عن العدل، موقفه من «كامب ديفيد» كان فيه كتير من التأمل والتساؤل. على فكرة سعد له موقف قديم من الحرب مع إسرائيل، كان ضدها، وفي أوائل السبعينات راح ظهر في التلفزيون الفرنسي مع صحفي إسرائيلي اسمه امنون كابليوك له مقالات بينتقد فيها

سياسة إسرائيل، سعد تعمد إنه يسلم عليه في البرنامج، وقال له ما معناه: «الموضوع مش موضوع نسلِّم ولَّا ما نسلِّمش بالإيد، الموضوع هو إنكم محتلين أرض، حتتصرفوا إزاي في حقوق الفلسطينيين الضائعة؟». دا كان موقف ما حصلش، ممكن نقول عليه ريادي، زعلوا منه السلطة والمعارضة. كان كدا ما يستأذنش قبل ما ياخد مبادرة فكرية. القصة دي حصلت قبل حرب 73 وقبل زيارة السادات للقدس وقبل «كامب ديفيد». سعد ما استفادش حاجة من موقفه دا، كان بيعبَّر عن سؤال حقيقي وبيطرحه، كان عنده إحساس إن مناورات السادات سياسية، عقَّدت الموقف، وإن الرد عليه مش لازم ينزلق في الدعوة للحرب. في موضوع الحرب بالذات أنا مدينة لسعد بوضوح رؤيته. على أي حال، فيما بعد إسرائيل انسحبت من سينا واحنا فضلنا ضد السادات، ولكن لغاية الآخر للأسف، سعد وبهجت فضلوا إلى حدٍّ ما زعلانين من بعض بسبب المواقف السياسية، ودي أكبر خسارة .

بعد زيارة القدس ومعاهدة السلام ابتدينا نخش في المناقشة عن القضية الفلسطينية وعن إسرائيل بطريقة مختلفة والصراع لمعارضة أو تأييد أنور السادات ما بقاش طبقي وتحولت المناقشة والصراع إلى «حرب ولا مش حرب مع إسرائيل»، كان فيه مسألة الانفتاح كنظام اقتصادي وسياسي في الخلاف ولكن الأساس أصبح «فلسطين أو ضدها» «مالنا ولَّا مالناش» وانتهى الأمر إنه بقى «مع الحرب ولَّا السلام»، أسئلة مش في محلها بالنسبة لي، القضية الفلسطينية بالمعنى دا دخلت في صميم حياة المصريين من 1977 مش من 1967 اللي حصلت فيها الهزيمة، القضية الفلسطينية في 1967 كانت مفروغ منها إنسانيًّا ومبدئيًّا، سياسيًّا كانت من بعيد لبعيد .

السادات بعد ما أبعد سعد عن الكتابة في «الأخبار» باعتباره شيوعي وبتاع جمال عبد الناصر، وبعد مدة طويلة وبعد أحداث كتير بعت له بدون مناسبة علشان ينضم لأصدقائه ولفكره بإن يأيد النظام الجديد، الانفتاح والصلح مع إسرائيل وحاجات من النوع دا. السادات بعت لسعد ينضم لمؤيدي النظام، وسعد رفض، كان مطلوب منه الانضمام بشكل مش محدد، ومن غير حساب، مطلوب إعلان تأييد لأنور السادات شخصيًّا وخلاص، فسعد قال «لأ» ورفض يروح يقابله، وانتهى الأمر إن أبعد أكتر واكتر .

أنا مش عارفة الموقف دا حصل إمتى، فترة أنور السادات ملخبطة في ذهني، مش فاكرة بالظبط الأحداث حصلت ازاي ولا ترتيبها .

لكن أقدر اقول لك إنها كانت فترة صعبة .

فترة فيها مواقف وحشة باستمرار .

نوقَّف هنا وخلِّيني افكر حاقول إيه تاني عن الفترة دي .

*

سعد رفض يتقرب من النظام ومن أنور السادات شخصيًّا، ودي كانت حركة من الحركات اللي أنا باسمِّيها نبقى واقفين عند المبدأ، أفكارنا تكون هي هي، من غير ما يكون عندنا شيء من الخطة للتعامل مع الوضع. هو ما استشارنيش في دا، أنا مليش ذنب أو فضل في دي بالذات، في رفض مقابلة السادات، لكن لما حكى لي الموقف قلت له «كويس ما دام مش مقتنع مش لازم تروح». ما حصلش مثلًا إن حسن فؤاد وصلاح حافظ وعبد الرحمن الشرقاوي إن اتحطوا في نفس الموقف، والتانيين خالد محيي الدين وكل مجموعة «التجمع»، إسماعيل صبري عبد الله، فؤاد مرسي، كان مطروح عليهم شيء محدد، منصب، حزب، مسؤولية، أما سعد فكان مطروح عليه إن يعلن تأييده فقط، نوع من إعلان التراجع عن تاريخه. أنا كنت باشتغل في مجلة «حواء» ، واستمريت اكتب بفضل أمينة السعيد، ولكن سعد وضعه كان مقفول .

موسى صبري كان بيكتب كل يوم ضد الشيوعيين في «الأخبار» لكن كان متعاطف مع سعد حتى وهو ممنوع من الكتابة، لما كان يصادف يقابلنا في العزومات النادرة اللي كنا نتواجد فيها عند بهاء وديزي مثلًا كان يعامله بحِنِّية ويتكلم معاه يحميه من حالة العزلة اللي كان فيها، ولما سعد جاله شيء من أزمة قلبية ساعده على طول يسافر يتعالج في لندن على حساب الجرنال. دي كانت أول مرة أزور لندن، وهناك محمود السعدني ساعدنا نلاقي شقة في المنطقة اللي هو ساكن فيها «ميدا فيل». من ضمن المصريين اللي اتعرفنا عليهم في الرحلة دي صحفي اسمه إسماعيل بيشتغل في جرنال عربي في لندن. إسماعيل طلب من سعد يكتب صفحة بحالها من مصر ويبعتها وهو ينشرها، الجرنال دا تمويل العراق بس أنا ما كنتش واعية قوي بموضوع التمويل العراقي. رجعنا مصر بعد العلاج وسعد ابتدى يكتب، وطبعًا مفهوم إنه حيكتب في السياسة، أمَّال حيكتب في إيه؟ العراق في الوقت دا دخلت حرب مع إيران، وناس كتيرة في مصر واقفين مع العراق على أساس معارضة صدام للسادات، أنا كنت شايفة إن العراق ملهاش حق، بتهاجم وحطت إيران في موقف دفاع عن النفس، إيران فيها عيوب كتير والوضع مش مستقر، ولكن في موضوع الحرب، العراق اعتدت على إيران، وإحنا أصلًا في حالة حرب مع إسرائيل، حيقعد يدخل حروب تانية؟ ناس تموت وفلوس تضيع ومعاناة، حاجات كتير في المجتمع بتخسر أثناء الحرب .

قعدنا نتناقش سعد وانا :

ـ آخد موقف شكله إيه؟ مع إيران ولَّا مع العراق؟ في شرح الموضوع، أنا ضد الحرب على أي حال .

ـ كويس، لازم ضد اعتداء العراق على إيران .

طيب، أنا على الأقل مش واخدة بالي إن الجرنال تمويل عراقي، لكن يروح سعد بقى يكتب في أول مقال إنه من حيث المبدأ شايف إن العراق ملهاش حق؟ المقالة ما كانتش هجوم على العراق أو شتيمة ولكن معنى المقال كان بيعكس رأيه بدقة: «مفيش داعي للعراق وهي أغنى بلد في المنطقة العربية، وعندها تاريخ قديم وتراث وما اعرفش إيه، تضيَّع ثرواتها في شنِّ حرب وتخسر بني آدمين وأسلحة وفلوس وغيره مع بلد زي إيران، ممكن يكون عندنا أعداء يستحقوا الحرب زي إسرائيل» مقالة صفحة بحالها. دا بقى الغريب في سعد، أصل أكيد هو واخد باله من خلفية إن

العراق بتموّل الجرنال. إحنا كنا بننتقد السادات إن مفيش ديمقراطية وانه ماشي في طريق الانفتاح الاقتصادي وضد الاشتراكية وضد القطاع العام ومع الرأسمالية وسعد ممنوع من الكتابة ففي الغالب عنده تصور إن فيه شيء من الديمقراطية ومن حرية الرأي خصوصًا في جرنال طالع في لندن. بعت المقالة وكل شوية يجيب الجرنال العراقي ويدوَّر والمقالة ما بتتنشرش، إحنا كنا محتاجين الفلوس، دخلنا كان محتاج دعم، دخل سعد من مؤسسة «الأخبار» كان محدود حوالي 300 أو 400 جنيه وانا كنت باخد فلوس رمزية من «حواء» 15 أو 20 جنيه على المقالة لما تتنشر ـ يعني بالحتة ـ ما كنتش متعينة .

ـ أكلمه في التلفون؟

ـ آه، كلِّم إسماعيل .

اتصل به في لندن فإسماعيل رفع السماعة :

ـ أنا سعد كامل وكنت عاوز اسألك عملت إيه في المقالة ...

إسماعيل دا تقريبًا ما ردش ورمى السماعة، رمى السماعة وساب السكة مفتوحة! ما قفلش السكة إلا لما سعد قطع الخط، أظن سعد حاول يكلمه مرة تانية، ما بيردش وخلاص، وانتهت العلاقة. أظن سعد فهم بعد كدا، أو حد فهمه، إن مش معقول إنه ينتقد العراق في الجرنال دا. أعتقد إن لما فهمت اتندمت على المناقشة اللي ناقشتها مع سعد، هو كان متردد في اتخاذ موقف ضد العراق وانا اللي أصريت، يمكن كان غلط يمكن كان ممكن يكتب في موضوع تاني خالص في أول مقالة. ضيَّع واحدة من الفرص اللي كان ممكن تسندنا إحنا كنا مزنوقين بصحيح .

في فترة تقارب مع الشيوعيين العراقيين، سعد كان راح العراق زيارة، وجت قعدته جنب صدام في عرض مسرحي، ما كانش صدام وصل الحكم، واتكلموا مدة طويلة، وكان انطباع سعد عنه إنه كويس، بعد كدا لما بان على حقيقته سعد كان بيقول باستمرار «غريبة ما كانش باين عليه كدا أبدًا، مش بالطريقة دي» ودا يمكن يفسر شوية ليه لما كتب في الجرنال العراقي كتب مقالة فيها نقد، كان عنده شوية افتراض حسن نية أو عشم بسبب انطباعه من المقابلة دي. الناس اللي حوالينا كان حالها ماشي بشكل أو بآخر، ناس كويسين وما عليهمش غبار، علي الراعي مثلًا راح اشتغل في الكويت على أساس يبعد عن الوضع المصري وبينشر كتب عن المسرح، عن النقد، سافر الكويت وابتدا يستعرض أدب البلاد العربية، والوضع الثقافي والكُتَّاب الجداد في البلاد العربية، بما فيها العراق والعراق عنده تاريخ ثقافي كبير. سعد كان بيتناقش معاه إزاي يسيب البلد، بس اللي علي عمله مجرد تحاشي للكلام عن الحاضر، سواء للسادات أو صدام وركز على مشروع كبير ومهم عايز يعمله أصلًا. أما بهاء فكان أسلوب تاني خالص في المعارضة، حذر ويحاول ما يخسرش المعركة اللي بيدخلها، هدفه ما يخشش في معارك ويخسر، يعمل مجهود اجتماعي وعلاقات عامة ويجيب في بيته ناس من مستويات واتجاهات سياسية متنوعة، بهاء كان رأس تحرير عدد من المجلات والجرائد الكبيرة منها «روز اليوسف» و«صباح الخير» و«الأهرام» و«الأخبار» وبعد كدا مجلس إدارة «دار الهلال»، اجتماعيًّا بهاء كان مستقر وسياسيًّا كان معترف به من الجميع، سواء من الحكومة،

الرسميين وغير الرسميين، ومن المعارضة كواحد من الوجوه السياسية والثقافية في مصر، كفاءة سياسية فردية عالية وفريدة. بهاء أصبح مستشار لأنور السادات فيما بعد لفترة، لكن في البداية الناس بتوع جمال عبد الناصر بدون تردد اتشالوا من مكانهم، اللي سافر هنا واللي راح هناك وبهاء سافر الكويت. أنا ممكن أعمل فاصل عند الثقافة الجماهيرية وإبعاد سعد عن وزارة الثقافة وعزله، دي كانت نقطة تحوُّل أساسية لإن المشاكل ابتدت قبل ما يموت جمال عبد الناصر . لغاية الثقافة الجماهيرية سعد كان نجم صاعد في المجتمع، بيواجه الصعوبات وهو جاهز واقف لها على رجليه، بيجذب المثقفين من فنانين وصحفيين وسياسيين وله كلمة ونوع من السلطة الأدبية، يعني إلى حدٍّ ما رأيه بيتسمع باهتمام، عنده أفكار ودرجة من روح المغامرة، مقدام. كان في ذهننا إن إحنا بندخل معارك على المواقف بدون تنظيم لقوتنا الاجتماعية أو حسابات للخسائر. باستمرار بيتواجد في موقف معارض، ولو أفكر كويس يمكن ألاقي إن كان عنده حق تقريبًا كل مرة بس دا مش مهم، كان بيتعزل بسبب مواقفه، سواء زملاؤه في السياسة أو زملاؤه ورؤساؤه في الشغل، كانوا بيبعدوه كدا ببساطة، وكانت نتيجتها الحقيقة إن قعد يغرق في الاكتئاب أكتر واكتر. للأسف أنا لعبت دور في الموضوع دا، لأن أنا نفسي ما أدركتش فكرة «اختيار المعارك» إلا بعد فوات الأوان، وإن ممكن مش وقته على المستوى الشخصي، شيء من اللباقة أو التخطيط اللي لاحظتهم بعد كدا عند الناس اللي حوالينا، دا كان ناقص عند سعد، واكتر واكتر عندي أنا. كان بيكرر مبدأ أنا اقتنعت به «أنا مش باشتغل علشان اكسب فلوس، يجوز اقدر أعمل حاجات مربحة أكتر، بس عندي حاجات عاوز اقولها، ودي فرصة أعبر عنها وناس كتيرة تستفيد منها»، وإلى حدٍّ ما دا كان مظبوط بالنسبة لي، وفعلًا كتير ناس كانوا بيمدحوا لي في المقالة اللي باكتبها عن أخبار كفاح المرأة في أوروبا، كنت باتفاجئ في بعض الأحيان ناس باقابلهم بالصدفة لأول مرة، أغلبهم ستات، بس مش كلهم، بيقروا الباب اللي أنا باكتبه، ملاحظينه ومتابعينه. فالفكرة دي كانت معششة عندنا أنا وبابا، وساعدنا بعض عليها بشكل ما .

سعد تلقى ضربات كتيرة، ضربة مجلة «نهضة أفريقيا» ومجلة «السينما»، وإلغاء حركة السلام، وحل تنظيم «حدتو» وتجربة الثقافة الجماهيرية نفسها على نجاحها انتهت بسرعة وبشكل صادم، فجأة انتزعوه من الثقافة الجماهيرية وجابوا سعد وهبة مدير أظن، لكن حركة الثقافة الجماهيرية ماتت على كدا، المؤسسة فضلت موجودة وتوسعت لكن الحركة ماتت. أعتقد إن دي الفترة اللي سعد انكسر فيها، أو نقول ابتدى ينكسر، ما كانش عنده خمسين سنة لسه وابتدا يخش في الاكتئاب، ما بيجيلوش نوم، ويحاول يهدا من التوتر وما كانش بينجح فابتدا يزوِّد في الشرب. ما اعرفش حنقيِّم ازاي في النهاية، إلى أي درجة كان مضر أو مش مظبوط طريقتنا دي، من ناحية إن في المحصلة يمكن الخسارة ما كانتش على مستوى الحياة الشخصية بس، قدرته على المشاركة في الحياة العامة اتقصفت. هل كان عايز شيء من الـ...، مش من اللباقة، نسميه «التخطيط» على المستوى الشخصي في التعامل مع الأحداث ومع الحياة؟

ما خدتش بالي إن الاكتئاب حاجة طبية، مرض ولازم علاج، في السبعينات الاكتئاب ما كانش لسه بيتم التعامل معاه بشكل علمي، مش بس في مصر، على مستوى العالم كله. تفسيري ساعتها لحالته إنه ضعيف، كنت باكرر في نفسي «هو شاطر، هو ذكي، أنجز حاجات كتيرة، طيب، صادق في المواقف السياسية» ودي كانت حاجة مهمة بالنسبة لي، إن الشخص اللي قدامي يكون صادق

ومخلص مع نفسه، «ضعيف، معندوش القدرة على المقاومة». مش حاطة في اعتباري إنه ابتدى يقاوم ويكافح من أيام ما كان عنده أربعتاشر سنة، يتسجن ويطلع، يُعتقل ويطلع، يخش معارك ويستحمل ضربات، يترفد وينطرد ويتم تجاهله مش مرة ولّا اتنين، تقريبًا كل مرة، فأعصاب الإنسان تُستهلك بصحيح لما الفترة تكون طويلة. سعد ابتدى يشرب سجاير من أيام ما كان عنده أربعتاشر سنة من ورا ابوه، عيب الشاب يشرب سجاير قدام ابوه فجدو كامل سايبه يدخن على شرط مش قدّامُه، ولكن السجاير بتستهلك الأعصاب والصحة، والسجن بالذات المُدد الطويلة بتستهلك. الرجالة مروا بفترات صعبة في معتقلات سجن طرة وبعد كدا سجن الواحات. سعد اتعرَّض لضغط عصبي خصوصًا في الفترة القصيرة في السجن الحربي في 1953 لمدة شهور قبل ما يتحكم علينا في 1954، حصل تعذيب وضغوط، سعد بيقول إن ما عذبوهوش شخصيًّا ولكن عذبوا ناس تانية حواليه في نفس الفترة، كان بيسمع الأصوات، وكان فيه كلام إن بينفخوا الناس .

يلّا، مش عاوزة أشتت نفسي في الموضوع دا .

محاولات الوحدة بين الفصائل المختلفة للشيوعيين في مصر فشلت كلها. سعد كان محسوب في مجموعة فيها محمود توفيق وكان بيختلف كتير، مش مع محمود توفيق بالذات لكن مع زملاء الشيوعية، اجتماعات وخناقات طول الوقت. قيادي من الحزب الشيوعي السوري أو العراقي كتب مقالة هجوم على سعد شخصيًّا أظن اتهمه باليمينية، ومرة سعد كان عنده ميعاد في سفارة الاتحاد السوفيتي مع واحد من المسؤولين الروس وخلّوه يستنى كتير، وواحد جه بعد منه ودخلوه وخلّوا سعد يستنى كمان، لطعوه، عمل خناقة على الحكاية دي، وابتدت تنتشر عنه سمعة إنه مشاغب ومتعب. بينما أصحابنا اللي عندهم قدرة أكتر على التعامل مع الحكومة بيتباعدوا .

الصداقة بين د. أحمد عكاشة وسعد استمرت مدة بالرغم من أزمة الثقافة الجماهيرية مع ثروت أخوه، فلما سعد ابتدى يكتئب في السبعينات كانوا بيتناقشوا وأحمد عكاشة نصحُه قدَّامي ياخد أي دوا علشان ينام، وجاب له منوِّم اسمه «فاليوم»، دوا جديد ساعتها، علشان يقاوم الأرق والتوتر، قال له «بياخدوه حتى الناس اللي شغلها ناجح». سجاير وكحول، ومهدئات وضربات نفسية بانتظام، أعتقد إن دا اللي تمكن من سعد بعد محطة الثقافة الجماهيرية .

ابتدينا نتخانق، أنا كنت متضايقة، وزي ما قلت ابتديت اعتبر حالته ضعف، باكلِّمه واحاول أشجعه، بس الكلام ما بيجيبش نتيجة في الحالة دي، داخل في الاكتئاب، محتاج علاج طبي مش كلام، وكمان ما كنتش عارفة أستشير ولا اتكلم مع أي حد باعتبار باداري عليه. وصل لدرجة إن ابتدى يعيط، ييجي بعد الضهر ويعيط :

ـ مش عارف اعمل إيه يا «ماري»، مش عارف اعمل إيه .

ويعيط تاني، وانا باطبطب عليه :

ـ إنت لسه حتعمل الكتير .

دلوقت متضايقة إن ما ساعدتش أكتر من كدا. اللي كان شاطر هو إنتِ، في وقت معيَّن كلمت صاحبتك أماني الرشيدي، أظن في التمانينات، وأماني ادِّت له لأول مرة علاج ضد الاكتئاب، مش مجرد منومات ومهدئات، لكن بعد إيه؟ مش أقل من 20 سنة بدون مساعدة، كان وصل لدرجة كبيرة من النزول .

*

أنا عشت موقفين لهم علاقة مباشرة بأجواء السادات الوحشة، بعد حركة 15 مايو اللي قلت لك عليها، السادات شال بهاء من «دار الهلال» على أساس إنه من بتوع جمال عبد الناصر، بهاء كلِّمني في التلفون وقال لي :

ـ أنا حاسيب «دار الهلال ».

وقال لي ما معناه إنه متوقعني أسيب أنا كمان. أنا شكرته لأن له الفضل ان دخلني في العمل الصحفي، بهاء كان نقطة تحول في حياتي، عمري ما كنت حافكر أخش في الكتابة، بالذات في جريدة كمحررة وبالعربي إلا بفضل الفرصة اللي ادَّاها لي بهاء في الستينات، ولحد النهاردا بافتكره بالخير وباحس بالامتنان ناحيته، لولاه كنت حافضل ست بيت لغاية النهاية. بس أنا ما اعتبرتش إن لازم اسيب «حواء»، أنا ما كنتش فاهمة الموضوع بالطريقة دي، ساعتها سعد كان ممنوع من الكتابة ومعزول عن وزارة الثقافة، وانتم صغيرين، فرديت على بهاء :

ـ لازم امشي أنا كمان؟

ـ طيب معلش .

وسكت .

يمكن كان مفروض أسيب كنوع من التضامن معاه؟ لكن أنا ما تصورتش إن لازم ابطَّل اكتب في «حواء» مع إني كنت متضامنة مع بهاء فعلًا، أصل أنا باكتب بالحتة وما باخدش فلوس تقريبًا، يعني مش حاستقيل حتى مثلًا واعمل موقف، حسيت إني حابطَّل انشر سُكِّيتي، فطيس، وانا عايزة اكتب .

الموقف التاني سنة 1975 كنا بنبيَّض البيت لأول مرة من ساعة ما سكنا فيه وما بيَّضناهوش تاني لغاية النهاردا، أصحاب البيت كانوا بيعلّوا العمارة دورين ومدخَّلين سقالات في حيطان البيت وبوظوا لنا الحيطان والعملية طوِّلت شهور. جميلة وعلي كانوا بيشتغلوا في الكويت، فنقلنا بيتهم نقعد مع ولادهم. كنا على أعتاب القرارات الاقتصادية والانفتاح والبلد كانت مليانة احتجاجات وإضرابات، حصلت حملة وقبضوا علي عدد كبير من الناس، من ضمنها حملة ضد الشيوعيين تاني. سعد جاله خبر وهو بره البيت، كلِّمني وقال لي انه مش حيقدر يروَّح وهرب. البوليس راح

بيت الدقي ما لاقوش حد، جم عند جميلة أخته، لميس بنتهم الكبيرة فتحت الباب وقابلت المخبرين وقالت لهم :

- عندكو إذن من النيابة؟ مالكمش الحق تخشوا جوه البيت .

ما كانش عمرها 20 سنة، سعد ما كانش موجود في البيت، لكن انا كنت قاعدة وسامعة لميس، واضح ما يعرفوش اننا مقيمين عندهم ومش واخدين بالهم أنا مين، مشيوا. أنا أعجبت بلميس بشكل، في الظروف دي باتلخم واتصور إن ما يكونش عندي سرعة البديهة .

البوليس راح العزبة في سيلا يدوَّروا على سعد على أساس يمكن مستخبي هناك، لقوا مين؟ خليل طبعًا، قبضوا عليه وبات الليل في القسم، والصبح ابتدوا يستجوبوه وخليل عنده ردود ذكية وواعية :

- إنت شيوعي ولَّا إيه؟

- لا، أنا خليل ناظر العزبة، أنا مش سعد كامل .

- عارفين إنك مش سعد كامل، لكن إنت شيوعي مش فلاح .

ووقع خليل في حيص بيص، بس خليل كانٍ معروف أكتر من أي حد والبلد كلها جت القسم يشهدوا إن هو بالفعل خليل مش واحد شيوعي متنكِّر، وانتهى الأمر ان سابوه .

في الفترة دي أنا بطَّلت كتابة مدة فعلًا بس مش إضراب أو احتجاج، بطَّلت لأن سعد لما اختفى في الهروب ما عرفتش أكمل اكتب، الحمل تقل عليَّ. جميلة وعلي رجعوا من الكويت في أجازة نص السنة، خدتكم ورجعت لبيت الدقي، البيت هنا كان لسه في حالة بياض وكنا بنام على الأرض في الصالة وبابا مختفي ومش عارفة هو فين وحاطين حرس تحت البيت علشان لو سعد رجع يقبضوا عليه والوضع كان وحش قوي. إنتِ كنت بتبعتي للراديو رسائل المستمعين لأصحابك في برنامج الأغاني الفرنساوي اللي بيقدمه نيكولا بركات، وسعد كان بيسمع البرنامج من مخبئه ويطمن علينا، إنتِ ولا على بالك في سن المراهقة لكن يا عيني هو كان بيفرح لما يسمع اسمك وأسامي أصحابك .

عدُّوا تلات اشهر من غير ما اكتب وابعت لحوَّا، حسيت إن خلاص بانسى الكتابة. سعد كان بيسندني في اختيار الموضوع ومناقشة الفكرة وكنت باكتب وهو بيراجع اللغة، كان بيشجعني ويديني ثقة .

وفي يوم التلفون رنَّ، إيفون رياض زميلتي بتكلمني من «دار الهلال»:

- إنتِ ما بتبعتيش الموضوع بتاعك ليه يا «ماري»؟

- مش قادرة .

ـ لا! ما تسمعيش كلام حد انتِ تبعتي الموضوع، وضعك زي ما هو في المجلة مفيش حاجة معاكِ .

ـ متشكرين، طيب حافكر .

بعد نص ساعة كلمتني أمينة السعيد ذات نفسها :

ـ إيه دا يا نايلة هو إحنا تابعين لاجوازنا دايمًا في كل حاجة؟ سعد كامل حاجة وانتِ حاجة، هو شغله حاجة وانتِ شغلك حاجة. معندناش كلام من دا، مش علشان جوزك عنده وضع معين إنتِ تبطلي تكتبي، بالعكس لازم تشتغلي أكتر واكتر في الظروف دي .

أنا بقى انهرت وقعدت أعيَّط لها في التلفون. مش متصورة إن أمينة السعيد تكلمني بنفسها تدعمني بالطريقة دي. قالت لي الكلام اللي أنا مقتنعة بيه، الستات بَرضُه المفروض يكون عندهم شخصية مستقلة يدعموا اجوازهم بإن يستمروا ويكون لهم كيان، بس أنا ما كنتش بانفذ الكلام اللي بافكَّر فيه :

ـ متشكرين خالص، متشكرين خالص .

ـ على طول تبعتي الموضوع، بلاش دلع .

عندها الحس دا، تدعم وتدِّي ثقة وقوة في وقت الضعف، حاجة صعبة إن الواحدة تكمل تشتغل وتكون موجودة في المجال العام لما جوزها يبقى منبوذ، فعلًا عايزة دعم. أنا مش عارفة كمِّلت ازاي ومين كان بيراجع لي اللغة ولَّا مين ساعدني وكمِّلت اشتغل واشتغلت مدة طويلة في ظروف وحشة .

في يوم اتصلت بي رعاية وقالت لي فيه واحدة صاحبتنا قوي عايزة تشوفني ـ مفاجأة :

ـ حنيجي لك بكرة وصاحبتنا حتكون لابسة جلابية تطريز من عندي، وشهيرة اللي حتسُوق .

ممكن تكون مين صاحبتنا اللي طلعت لنا في الظروف دي؟ رعاية جت لي تاني يوم الصبح وانتو في المدرسة وفهمتني إنهم حيجيبوا سعد متنكر علشان لو فيه مخبرين ما ياخدوش بالهم. أنا فعلًا صدقتها في الأول، وقعدت تضحك عليَّ، بس كانت عصبية شوية، كانت بتجازف. إنتو كنتو عارفين إن بابا هربان من الاعتقال لكن صغيرين، إنتِ كان عندك 14 سنة ودينا 9 فكنت مشغولة حتعملوا إيه واحنا بِندخلكم في السرية كدا فجأة غصب عنكم. قلت لكم بابا جاي يقعد هنا بس حيبقى مستخبي بَرضُه ولفِّينا الشقة وقررنا مع بعض إنه ياخد الأوضة اللي كانت بتاعة جدو ونانا. اعتقد في نفس الفترة دي نانا كانت عيَّانة قوي وقاعدة عند عمك جمال لأن احنا ظروفنا كانت اتلخبطت على الآخر سنتها. في الأول رحنا عند جميلة وعلي وبعدين سعد أصبح في وضع هروب، فجمال أخوه يا حبيبي أخدها عنده علشان محتاجة رعاية احنا مش قادرين عليها. بالليل حاولتو تستنوا سعد علشان تستقبلوه، دينا نعست وانت استنيت على الكنبة وبعدين نمت انتِ كمان، كنتو «excited»

علشان قلت لكم إنه حيكون لابس جلابية تطريز زي اللي بتلبسهم طنط رعاية، متنكر علشان يفتكروه واحدة صاحبتها .

سعد وصل شكله مش معقول، حالقين له حواجبه وحاطين له مكياج، وهو كان متجهم، كان قرار خطير إنه يستخبى في بيته. الصبح قلت لكم إنه جه بس نايم ورحتوا المدرسة وابتديت أحاول انظم الوضع الجديد. سعد كان حاسس إن المخبرين شافوه وهو جاي وكل ما يسمع صوت أو حد يخبط على الباب ينزل تحت السرير. قفلنا كل الشيش وبقينا نتحرك كأننا خايفين حد يسمعنا، حاجة مش منطقية، بس سعد كان في حالة ممكن نقول انهيار عصبي من الوحدة. رجعتوا من المدرسة ونبهتكوا إن بابا حالق حواجبه علشان التنكر وتعبان علشان بقاله فترة بره البيت .

أنا حاروح الحمَّام علشان اعرف أكمِّل .

ما كنتش مبسوطة من وضعنا كله .

حصل فتور بيني وبين سعد. بطَّلنا نحب بعض بصحيح. كأنه عايز يخلص مني. يقول لي: «أنا مسافر»، نقعد ساكتين، زعلانين، مُخِّي مليان كلام وعتاب وتحديد. وصل بي الأمر إني افكَّر أروح اشتكي لاصحابه، راجي عنايت صديق قريب لنا احنا الاتنين وممكن يساعدني أفهم ـ هل أنا عملت حاجة غلط؟ ديزي مرة قالت لي :

ـ ما تفصَّلي هدوم جديدة .

كتر خيرها كان عندها الشجاعة تقول لي حاجة زي كدا، أهملت في نفسي من الزعل وتخنت كمان. بس ما قدرتش افتح قلبي لحد غير طنط عزيزة رحت لها أعيط لها. كنت مجروحة لأن بقيت زي الستات اللي على طول زعلانين وغيرانين. قعدت اسألها: «إحنا ممكن نحب بعض تاني ولَّا خلاص؟». كنت تعيسة جدًّا ومش فاكرة ردت قالت إيه، أكيد قالت حاجة لطيفة ريَّحتني وشجعتني. جه في ذهني إن نسيب البلد ونسيب المسائل دي كلها ونروح فرنسا ونقعد هناك سنة سنتين، وقلت «أقدر اشتغل باعرف فرنساوي كويس، هنا العربي بتاعي مش مية في المية، وممكن أكمِّل أراسل حوَّا من فرنسا»، سعد اتحمس «أيوه أيوه»، وعزم إيهاب شاكر وسميرة شفيق على العشا، كانوا قعدوا في فرنسا تلات اربع سنين ولسه راجعين. جم البيت هنا علشان نسألهم رأيهم في إمكانية إن الاقي شغل، قالوا :

ـ آه طبعًا ممكن، صعب لكن ممكن، وفيه عنصرية كتير في المدارس للأولاد .

ومشيوا. حسيت سعد بيتكلم عنِّي مش عننا، كأنه متوقع إني أسافر وابحث عن شغل لوحدي، وانتم تيجوا معاه بعدين؟ ولَّا يقصد إنتو تيجوا معايا من الأول؟ الحكاية ما عجبتنيش، وقعدت أحدد معاه

في الكلام فما اتفقناش، وخلاص، أنا سِبت الموضوع وقلت «مش دا بالظبط اللي كنت اقصده». أنا عاوزة نسافر كلنا مع بعض، هو يشتغل وانا أشتغل، إحنا الاتنين. دا اللي قادرة أفتكره .

من كتر الخناقات معاه جالي إحساس في وقت إن عاوزة اتطلَّق مش قادرة استمر، أروح عند ابويا وأمي في إيطاليا أشتغل واخدكم معايا، «احنا ما نقدرش نستمر بالطريقة دي» واعتقد قلت لكم حاجة من النوع دا. أكيد نوع من الانفجار أو الحالة العصبية حصلت لي من غير تفكير عميق. بعد شوية لقيت معنديش فلوس خالص وعاوزة اخدكم معايا، مدرستكم هنا. انتو كنتو مذهولين انتِ ودينا. ما قولتوليش ولا أيوه ولا لأ، كنتو مستتيين وبتحضروا الخناقات. كنا بنتخانق كتير قوي انا وهو. وابويا وأمي مش حينبسطوا، أكيد حيزعلوا قوي. صالحني، كلمة كويسة من هنا وكلمة كويسة من هناك تراجعت بقى عن الفكرة، أروح نحو المجهول خالص؟ أبويا وأمي ساكنين في قرية صغيرة في إيطاليا مفيهاش شغل، كان في ذهني إن احب اشتغل في مجلة «نحن النساء». أروح مدينة؟ أروح فين؟ وعند مين؟ المهم ان المشروع انتهى وسكت .

*

الحاجة التانية الأساسية اللي حصلت هي إن السادات قرر يسمح للأحزاب تتكون ويقول إن اسمه رجَّع الديمقراطية، وحدِّد: حزب لليسار وحزب لليمين وهو أخد حزب للوسط وسماه الحزب الوطني الجديد، وادَّى فرصة لزعماء الأحزاب دول إن يشرحوا برامجهم في التلفزيون. أنور السادات واضح إنه كان لئيم، ما سابش الشيوعيين واليسار يتصرفوا بين بعض على أساس فرصة يمارسوا السياسة بشكل علني، لأ، عين الزعماء ونقَّى مجموعة معينة، اختار من تيَّار «حدتُّو» خالد محيي الدين يبقى رئيس حزب اليسار الجديد وعيِّن من تيَّار الحزب الشيوعي فؤاد مرسي وإسماعيل صبري عبد الله وزراء في الحكومة. المفروض كل الشيوعيين يشتركوا والأقطاب والفصائل المختلفة يكونوا ممثلين في حزب «تجمع اليسار» مع التيارات التانية زي التيار الناصري بالإضافة للشخصيات اليسارية العامة. وابتدوا يكوِّنوا اللجنة التأسيسية، والطبيعي في الحالة دي إن سعد يكون من المؤسسين، يكون من قيادات الحزب الجديد. علي الراعي جه عندنا في البيت :

ـ فين سعد؟

ـ مسافر .

ـ كلِّميه وقولي له ييجي حالًا، بيأسسوا حزب اليسار العلني .

سعد كان في فرنسا، سوسو حزان وريمون اسطمبولي كانوا بيحاولوا يدبروا له شغل، كان ناوي يقعد مدة طويلة، سنة مثلًا، في محاولة من المحاولات إن يقتنع إن مفيش فايدة في العمل في مصر ولو مؤقتًا واحنا كمان ناخد هدنة في البيت. بعت له تلغراف أو كلِّمته بالتلفون، وفعلًا جه على طول، لكن ما حدش اتصل بيه رسميًّا ولا حاول يتصل بيه بأي شكل. عملوا الاجتماع التأسيسي الكبير وهو ما كانش موجود، وانتخبوا اللجنة التأسيسية واسم سعد ما جاش في حاجة خالص. سعد زعل. وبعد كدا لما كانوا بيقابلوه في الأماكن العامة يقولوا له «الله؟ ما بتجيش «التجمع» ليه؟». هو كان

المفروض يكون في اللجنة التأسيسية أو القيادية. غلط ولا صح؟ ما اعرفش بس بالتأكيد حصل نوع من التجاهل المتعمد. سعد حطّ زعله عليَّ :

ـ مش انتِ بعتِ تقولي لي تعال حالًا، كان على أساس إيه؟

ـ دا كلام علي الراعي .

فاتت الأيام وبعد مدة طويلة سعد عرف إن تم استبعاده من تأسيس «التجمع»، رفعت السعيد ماسك قائمة طويلة من الأسامي المقترحة، قائمة فيها أكبر مجموعة من الزملاء من مختلف الاتجاهات والفصائل لتأسيس الحزب، بيقرا الأسماء واحد واحد ويسأل موافقين ولَّا مش موافقين، مثلًا «خالد محيي الدين رئيس، موافقين؟» يرفعوا كلهم إيديهم، جه عند سعد كامل ما قراش اسمه، نطّه، وقال على الاسم اللي بعده، كدا، ببساطة . ما قراش اسم سعد من الأساس. سعد اعتبر دي جريمة من رفعت السعيد ضده وضد المجموعة بتاعته زي محمود توفيق ورشدي أبو الحسن و«أنصار السلام» القدام، نقدر نقول مجموعة يوسف حلمي. يوسف حلمي كان مات لكن اللي لسه عايش من المجموعة تم استبعادهم، ومن ضمنهم سعد. الخلاف دا استمر ولا يزال لغاية دلوقت. مسألة إنه انشطب كدا بكل سهولة وما اتعرضش اسمه من الأساس، والموضوع بيتحكي كأن سعد هو اللي ما رضيش يشارك في «التجمع ».

حيحاسب مين ولَّا مين بالطريقة دي، بس دي أكبر ضربة خلت سعد يمشي في الانعزال أكتر ما يمكن .

ويمكن دي كانت الضربة الأخيرة .

٥

في سنة رابعة دينا جالها ملحق في الرياضة والدين، أنا استغربت شوية بس يا عيني عكننت عليها الأجازة، عملت مجهود في الصيف وذاكرنا معاها ودخلت امتحان الملحق ورحنا انا وانتِ وهي نجيب النتيجة لقيناها ناجحة في الرياضة وفرحنا، بس فوجئنا إنها حتعيد السنة علشان ما نجحتش في الدين. أنا فقدت أعصابي وطلبت أشوف المدرس اللي سقطها في الدين «مش موجود» - بيقولوا لي - فطلبت أشوف المسؤول لحد ما وصلت للناظر أو المشرف بتاع ابتدائي، فضلت أزعق وادِّتهم محاضرة :

- انتو حتعقدوا لي البنت علشان مادة الدين؟

- الدين مادة مهمة يا مدام .

أنا صوتي بقى أظن كانوا بيسمعوني في ميدان التحرير :

- والدين بيتعلموه في المدارس؟ إنت اللي حتعلمها الدين؟ إنت مين؟

وكلام من النوع دا .

- ما نقدرش نغيَّر نمرة الامتحان .

- ما تقدرش تغيَّر نمرة الامتحان لكن تقدر تخلِّي بنت معندهاش عشر سنين تعيد سنة علشان مادة الدين؟

واديته فكرة إني مش حامشي إلا لما يتراجع. توصلت في الآخر إن الناظر المصري والناظر الفرنساوي نزلوا لي الاتنين يشوفوا فيه إيه. فجأة ابتدوا كلهم يعتذروا ويقولوا إن حصلت غلطة وإن دينا أصلًا ناجحة الحمد لله و «هدِّي نفسك يا مدام».

قابلت باحثة فلسطينية عن طريق حسناء مكداشي من «دار الفتى العربي» بتعمل دراسة عن السجون، نوع من التحليل لعبارة «السجن يخلق الأبطال»، قلت لها «يمكن فيه ظروف وظروف، ممكن ظروف احتلال وحرب وتهجير الواحد يخرج من السجن في فلسطين يكون اكتسب عزيمة لإنه عايز ينتقم مثلًا، ويمكن مَلُوش علاقة بفلسطين ومصر، يمكن حاجة خاصة بيَّ. المدة الطويلة في السجن، صعب أعبَّر، لكن أكلِت منِّي - مش عزيمة الفكر أو المبدأ، لأ، أنا طبعًا شيوعية وأستمر أكون شيوعية باحب المساواة والحرية وكل دا - لكن القدرة العصبية والنفسية للواحد راحت في الاستهلاك اليومي للحبس». المدة الطويلة في السجن بتكسر، مش المعنوية إنما الإرادة، الواحد

بيحط طاقة كبيرة في قوة التحمل، لازم يكون متماسك، ما يستسلمش للألم والضيق وما يسبش نفسه يعيط مثلًا. المقاومة دي بتاخد كتير من المخزون من غير تعذيب جسدي ولا ظروف صعبة زي اللي كنا بنقرا عنه في معتقلات النازيين أيام الحرب العالمية التانية في معسكرات «بوخنفالد» و«تريبلينكا» وغيرهم، طبعًا إحنا ما كانش عندنا الفظائع الشديدة دي، واحنا الستات عانينا أقل كمان من الرجالة. مع ذلك الواحد يخرج يكون استهلك كتير من نفسه، خمس سنين ورا بعض، أعتقد الواحد ياخد وقت يستعيد طاقته، وممكن ما يستعيدهاش تاني أبدًا. أنا باتكلم عن نفسي، لأن يظهر السجن مش بيأثر على الناس بنفس الطريقة دايمًا. أنا اتحمست في الكلام معاها لكن ما اعرفش الست دي عملت بكلامي إيه؟ حطت كلامي في البحث بتاعها ولّا لأ .

لما ابتدينا نسافر إيطاليا مع بعض أنا وسعد بعد صدمة النكسة والثقافة الجماهيرية في 1968، تابعنا حدث خطير ما كانش ممكن نتابعه من مصر، مظاهرات تشيكوسلوفاكيا، جالهم رئيس اسمه «ألكسندر دوبتشيك»، فكَّر يغير في النظام شوية، ويدخَّل زي شيء من الفكر الديمقراطي في الانتخابات وفي الحكم . الاتحاد السوفيتي كان بيعتبر إن أي محاولة تغيير في البلاد الاشتراكية نوع من العداوة والخروج من سيطرته. استدعوا «دوبتشيك» يزور القيادة في الاتحاد السوفيتي وفهِّموه إن الإصلاحات اللي عايز يعملها غير مقبولة، و«أقنعوه» إنه يستقيل. «دوبتشيك» رجع زي ما طلبوا منه واستقال بعد أقل من سنة في الحكم، ولكن الناس فهمت الرسالة وطلعت مظاهرات كبيرة في شوارع «براغ » ضد الاتحاد السوفيتي، فالاتحاد السوفيتي ما كان منه إلا إنه دخل بالدبابات علشان يسيطر على الناس. الواقعة دي أثرت فينا قوي، علشان سعد خلافاته الفكرية كانت بتُواجه من زملاؤه بالشك في إخلاصه للاشتراكية، ودا كان بيهز نفسية سعد، كان بيجد نفسه مع أفكار زملاؤه بيرفضوها أو مش متماشية مع الخط الرسمي للحزب. متابعة تشيكوسلوفاكيا في إيطاليا غيَّرت أفكاري، تعاطفنا مع «دوبتشيك» والشعب التشيكي، عرفنا إن الصراع موجود داخل الاشتراكيين .

عجبتنا الحكاية أنا وبابا، مسألة إن نروح «ريبا» عند أبويا وأمي ونتابع صراعات العالم. استحلينا السفر إلى إيطاليا وبقينا كل سنتين تلاتة اربعة، يعني كل اما نقدر نشتري تذاكر ناخدكم ونروح .

إيطاليا فتحت عيني. أنا كنت زي ما انا على نفس الأفكار الشيوعية كأن احنا أيام «لينين» و«ستالين». الحزب الشيوعي الإيطالي كان ثوري ساعتها، ثوري في الفكر، واخدة بالك؟ يعني مش ثوري إن عايزين يعملوا ثورة فياخدوا السلاح أو ينزلوا يعملوا ثورة في الشوارع، لأ، ثورة فكرية. الحزب الشيوعي الإيطالي انتخب رئيس جديد اسمه «برلينجوير»، كان عنده أفكار متفتحة، من غير عداوة للاتحاد السوفيتي كبلد، أو كنظام شيوعي في العالم، حاطط على الساحة الفكرية احتمال إن الواحد يختلف معاهم، يختلف في الفكر، في الرؤية، في السياسة، بل وفي التطبيق كمان، مش أي واحد يختلف مع الاتحاد السوفيتي يبقى خاين أو انتهازي أو عميل، دي كانت أفكار جديدة عليَّ، الحزب الإيطالي وصل لدرجة انتقاد النظام السوفيتي في فشله في رفع مستوى الاقتصاد. الاتحاد السوفيتي نظام المفروض ماوراهوش شغل غير رفع مستوى معيشة العمال والمواطنين كلهم، إلا إن مستوى الفرد في الاتحاد السوفيتي أقل من مستوى العامل الإيطالي في إيطاليا تحت النظام الرأسمالي. «برلينجوير» طرح المقارنة دي مع الديمقراطية كسلاح ضد الرأسمالية، الديمقراطية

هي اللي بتسمح بالكفاح في إيطاليا من خلال النقابات والحزبين الشيوعي والاشتراكي لاكتساب حقوق للعمال ومنع صاحب العمل من استغلالهم، كلام جديد من النوع دا عن الديمقراطية. الرأسمالية لو عليها تشيل الديمقراطية خالص ـ بيقول. وكان فيه راجل هايل في الحزب الاشتراكي اسمه «بيترو نيني»، عنده أفكار اشتراكية أصيلة، حرية ومساواة وتحرر وطني، تعاون مع «برلينجوير»، الأهداف واحدة من غير وحدة مع الحزب الشيوعي تلخبط حزبه، صمِّم يحتفظوا باستقلاليتهم. شخصية ظريفة أسطورية، مات «بيترو نيني»، وعملوا له جنازة ضخمة في الشوارع، بطل اشتراكي اعتبروه بطل قومي، على نطاق إيطاليا كلها، حكومة وشعب، أفتكر كنتِ معايا وشفنا برنامج على التلفزيون، جماهير كبيرة، والتلفزيون الإيطالي سجل وإيطاليا كلها تابعت الجنازة، انفعلنا قوي، أصل لما خرج النعش من الكنيسة الجماهير ابتدت تصقف للنعش وانتشر التصقيف بالتدريج في الميدان والجماهير الكبيرة في الشوارع اللي جنبه لدرجة إننا صقفنا في البيت عند أهلي. الأفكار الاشتراكية الجديدة دي وصلت إن الحزب الشيوعي كسب 34% من الأصوات في سنة من السنين، مش سهل أتصوَّر مجتمع وصل إن أكتر من تلته اشتراكيين وشيوعيين وناشطين سياسيًّا في مجتمع ديمقراطي. زمان الإضراب كان بيحصل ازاي؟ في أجواء من السرِّية العمال المطحونين يتوشوشوا لحد ما يضمنوا عدد معقول من المؤيدين يتفقوا على يوم صاحب المصنع يصحى يلاقي العمال ما جوش والمصنع واقف. يفضلوا مضربين لحد لما صاحب العمل يضطر يعمل تنازلات علشان المصنع يرجع يشتغل. في أجواء الحرية والديمقراطية عنصر المفاجأة كان ممكن إعادة النظر فيه، جربوا يعملوا إضرابات قصيرة كاستعراض واستفتاء على المطالب، قبل ما يدخلوا في «bras de fer» ـ وصراع نهائي ـ والإنتاج يقف والخسائر تبقى على الجميع. الإضراب أصبح نوع من الإنذار والتمهيد لأصحاب العمل، ابتكار لخطوة وسطية وتصعيد والمفاوضات تستمر مع أصحاب العمل. الطريقة دي عجبتني بتشرك المجتمع كله، تعرض مطالب العمال وتستعرض شعبيتها وتفضح أصحاب العمل. أنا مشيت في بعض المظاهرات دي أنا وسعد، لأني عمري ما كنت اشتركت في مظاهرة قبل كدا. وبعدين «برلينجوير» دخل في عمق برنامج الحزب الشيوعي الإيطالي اللي زي ما هو من أيام السرية و«لينين» و«ستالين»، فكان الوصول للاشتراكية مش ممكن إلا عن طريق الاستيلاء على الحكم بالقوة على أساس إن الرأسمالية حاكمة بالقمع ومش حيسيبوا الحكم إلا بالقوة، لكن في بلد زي إيطاليا فيه ديمقراطية برلمانية ما يصحش الاحتفاظ بفقرة الاستيلاء على الحكم بالقوة في برنامج الحزب الشيوعي. وأعاد النظر في «ديكتاتورية البروليتاريا» إزاي ديكتاتورية واحنا عايزين الديمقراطية؟ وظهر مصطلح «ديمقراطية البروليتاريا». بالإضافة إن البروليتاريا في إيطاليا ما بقتش بروليتاريا، العمال نجحوا في انتزاع حقوق رواتب ومعاشات وأجازات وغيرها كتير، يعني أصبح عندهم مكاسب ممكن يفقدوها، مش زي زمان إن «معندهمش إلا أغلال يفقدوها» وأدخَل مفهوم «الطبقات العاملة»، إن البروليتاريا مش بس عمال المصانع والفلاحين المزارعين، إنما كل العاملين اللي عايشين على مرتب ثابت، أدخلوا الموظفين كعاملين، اتغيرت الألفاظ من عمال وموظفين إلى «عاملين» وداخل فيها موظفين الدولة والبنوك يعني كل الموظفين اللي بيقعدوا على المكاتب مش بس العمال اللي واقفين على مَكن. وأهم حاجة دخل السؤال على الديمقراطية المركزية، وابتدوا يشتغلوا على مزيد من الديمقراطية جوه الحزب. كل دي تجارب اشتراكية، بالنسبة لنا انا وسعد «برلينجوير» دخَّل عنصر الاختلاف والتجارب والتطوير في الفكر الشيوعي، من غير ما نعرف ننظِّم أفكارنا قوي كنا بنغرق لشوشتنا واحنا بنتابع .

الممثلة «ميلينا ميركوري» ممثلة مسرح تراجيديا يونانية مشهورة ـ اليونانيين عندهم مسرح تراجيديا عظيم وعندهم رصيد كبير من المآسي الإغريقية القديمة ـ و«ميلينا» دي زي سعاد حسني أو تحية كاريوكا عندنا، ممثلة عظيمة وبالرغم من شهرتها منفية وممنوعة من الرجوع لبلدها بسبب مواقفها السياسية مع الحريات ضد الفاشية. سنين وهي رايحة جاية بين أمريكا وفرنسا وإيطاليا تعمل دعاية ضد الحكومة الفاشية في اليونان، اتجوزت مخرج فرنساوي «جول داسان» وأخرج فيلم «لا يمكن يوم الأحد»، وغنت أغنية لطيفة «أطفال البيريه» ـ ميناء جنب أثينا. نجاح الفيلم ونجاح الأغنية كان أكبر دعاية عن منع «ميلينا» من العودة والوضع السياسي في بلدها. ومن ضمن المنفيين موسيقار أغنية «زوربا اليوناني» بالرقصة المشهورة من الفيلم، «ميكيس ثيودوراكيس»، أما «ياني ياكو» على ما أفتكر اسمه، كتب كتاب عن الوضع في اليونان في الفترة دي وترجموه لجميع لغات العالم، وانا قريته بالفرنساوي أو بالطلياني، كتاب جميل، وغيرهم عشرات وعشرات من المثقفين والفنانين والسياسيين اليونانيين المغضوب عليهم من الحكومة الفاشية منفيين في جميع دول العالم، يطوفوا في البلاد ويغنوا أغاني يونانية ويعملوا دعاية وحققوا مقاومة كبيرة ووعي عالمي ضد حكومة الجنرالات التلاتة ـ الفاشية العسكرية في اليونان. وفي يوم من الأيام في السبعينات سقطت حكومة الجنرالات وكنا في إيطاليا. في نفس اليوم اللي سقطت فيه الحكومة الفاشية، الطيارات والسفن راحت اليونان من جميع أنحاء العالم شايلة معارضين يونانيين راجعين أتينا، في نفس يوم خبر سقوط الحكم وصلوا بلدهم من غير باسبور. التلفزيون الإيطالي بعت يغطي الحدث دا، فاحنا في إيطاليا قاعدين قدام التلفزيون، وانتِ كنت معايا ساعتها وكنتِ فاهمة شوية كان عندك حوالي 12 أو 13 سنة، شفنا مع بعض الشعب اليوناني رايح يستقبل المعارضين المنفيين في المطار والمينا، الجماهير في الشوارع ماسكة قرنفلة بمبي، القرنفلة الحمرا أو البمبي رمز الاشتراكية في اليونان وأسبانيا والبرتغال وفي كتير من البلاد. المشهد بالليل في سكة المطار مترصصين على الأرصفة شايلين شموع ومشاعل واقفين بالساعات مستنيين في الشوارع وكل طيارة توصل الناس تستقبلهم بالأغاني، والتلفزيون في إيطاليا ينقل ويصوَّر اللي نازل والمذيع يعلن ويعرفنا دا فلان رجع دي فلانة رجعت ويقول حاجة عن تاريخهم، وفي المينا، أيوه شفنا المركب ـ طبعًا ـ المركب اللي وصلت ميناء «البيريه» جايبة «ميلينا ميركوري» والناس مستنيينها وبيغنوا لها أغنية «أطفال البيريه» اللي كانت في الفيلم. منظر جميل، ما شفتوش تاني لكن انطبع في ذهني .

ساعتها بقى اللي قعدت احلم، لما فلسطين تتحرر ويبتدوا الناس يرجعوا من غير باسبور حاروح واكون من ضمن الناس اللي حيستقبلوهم هناك، ويعيشوا معاهم اللحظة دي .

إيطاليا بقت زي الأكسوجين بالطريقة دي، أفكاري وخيالي بينطلقوا وانا باتابع التطورات السياسية والثقافية في المجتمعات التانية بالحرية دي، وبقيت احتاج السفر إلى إيطاليا، مش بس علشان أشوف أمي وأبويا. وبالنسبة لسعد كمان، كانت بتساعده يكمل كتابة، الكتابة هي الحاجة الوحيدة اللي استمر يقاوم من خلالها، لحد نص التسعينات لما صحِّته ابتدت تتلخبط قوي .

*

في رحلة لندن اللي عملناها في أوائل التمانينات لما سعد جت له زي أزمة قلبية، حسن فؤاد كان عايش هناك وخدنا على سفينة على نهر «التايمز» فسحة طول النهار، وخدنا «الهايد بارك» كمان،

ولما رحنا بيته في لندن لقيت لوحات كتيرة من رسمه، قلت له :

ـ أنا عايزة صورة .

ـ اختاري اللوحة اللي انتِ عايزاها .

هو يمكن توقع إن حآخد منظر طبيعي عن النهر والطبيعة اللي في انجلترا، مليانة خضرة ودي حاجة بتبهرنا دايمًا كمصريين، لكن أنا اخترت «auto-portrait» ـ راسم نفسه .

ـ إنتِ اخترت دي بالذات ليه؟

ـ بتعجبني الصورة اللي انت عملتها لنفسك، فيها حيرة .

لحد دلوقت بابص للوحة دي وباشوف إنه متحيَّر، شكَّاك، صح ولا مش صح اللي بيعمله؟ فيه سؤال، أو أنا اتصوره كدا، بافكر وانا بابص للصورة وعارفة ماضيه فتعجبني حيرته، مش مرتاح ومش قادر يقول حاجة نهائية ولا عن نفسه ولا عن الدنيا مش متأكد، أعتقد دا بيوصف شخصية حسن كويس. مش باتكلم عن موهبته في الرسم، هو موهوب مفيش كلام وموهوب في الكتابة كمان والموسيقى، باتكلم عن موهبة إن يمسك الطبيعة الحائرة في نفسه ويعكسها في لوحة، علقت بورتريه حسن فؤاد وبورتريه سعد وهو منتظر قرار إنشاء الثقافة الجماهيرية وبورتريه رضا مرات حسن الست الجميلة الصبورة دي، كله بريشة حسن هنا جنب لوحة جدو كامل بريشة صلاح طاهر في أوضة الصالون بتاعتنا .

في 15 مايو ـ انقلاب أنور السادات ضد «الناصريين» اللي سمَّاه «ثورة التصحيح» ـ محمود السعدني كان رئيس تحرير مجلة «روز اليوسف» أو «صباح الخير»، قبضوا عليه وجابوا حسن فؤاد رئيس للتحرير مكانه، كان مدير السينما التوثيقية وأصبح رئيس تحرير «صباح الخير»، سعد انتقده علشان قِبل، ناس كتيرة اتهمته بشيء من التخاذل؟ اتهموه إنه من أنصار السادات علشان قبل منصب «صباح الخير»، وهو مش عاوز يكون من أنصار السادات ولا يقطع علاقته بأصحابه القُدام، سعد وغيره من التقدميين. المنصب أعتقد كان مغري، هو اتربى في «صباح الخير» وأكيد عنده تصوُّر يديرها ازاي، كان رأيه الواحد لو عاوز يشتغل لازم يكون موجود في منصب يقدر ياخد قرارات وينفذ ويتكلم ويكون مؤثر «إيه فايدة إنه ياخد الموقف بالامتناع ويبقى مركون وما يتسمعش صوته؟» دا كان «grosso modo» ـ بصفة عامة ـ موقف حسن فؤاد. لكن أعتقد إن حسن تعب في المنصب دا، وعلى أي حال اتشال منُّه، غالبًا ما استحملوهوش، قرر يسافر ويسيب البلد هو كمان زي ناس كتير من المثقفين قرروا يهاجروا ويبعدوا عن الوضع السياسي، مش قادرين ياخدوا موقف ضد النظام وهم في مصر ولا عارفين يشتغلوا. حسن فؤاد راح انجلترا واشتغل شوية مع بلاد الخليج، بالذات السعودية، كان فيه موجة من الجرايد الخليجية اللي بتصدر في لندن. وبعد «ثورة التصحيح» والانفتاح جت كمان زيارة القدس ومعاهدة «كامب ديفيد»، فالمثقفين والفنانين اللي كانوا بييجوا كتير عندنا في البيت في فترة الستينات ـ قبل الثقافة الجماهيرية وأثناءها ـ المجموعة دي حصل فيها انشقاق كبير، حصل انشقاق في المجتمع المصري كله. المثقفين

والتقدميين اللي حبُّوا يحتفظوا بكوبري مع السلطة ما يقطعوش العلاقة تمامًا على أساس إن الحوار لازم يستمر، أخد وعطا، خدوا انتقاد كبير من التقدميين والمثقفين اللي كانوا ضد التواصل بشكل قاطع مع حكم أنور السادات، جزء من المجموعة دي سميناهم بعد كدا «الناصريين» أو المتمسكين بالقومية العربية فقط، وأغلبهم عملوا كوبري مع السلطة بعد كدا. كانت فترة ـ والله مش الوحيدة ـ اللي أنا عشتها لجدال وخناقات سياسية وخلافات في الموقف وتخوين ـ بس كانت عنيفة. رحلة لندن كانت في أوائل التمانينات بعد موت السادات، وبعدها حسن رجع مصر ورجعنا نشوفه بس مات فجأة في أواخر التمانينات وبابا فقد واحد من الأصدقاء القليلين اللي كان بيرتاح لهم في الوقت الصعب دا .

فؤاد حداد كمان مات فجأة، ما كناش بنشوفهم ولا نتقابل، بس لما مات جت مراته وطلبت مني ومن سعد نوضَّب مكتبته، اتأثرت قوي، هي بسبب حتة القماش اللي اشتراها لها فؤاد بمساعدتي قبل ما يتجوزوا في الخمسينات كانت بتفتكرنى على طول. بس الحقيقة ما عرفناش نحقق، ما نجحناش، كان لازم أنا أقوم بالمهمة دي لأن بابا معندوش قدرة إن يقعد يوضَّب وينظم كتب. يمكن كنتم صغيرين في السن أو شاغليني، أنا دلوقت متضايقة، خيِّبت أملها. حسن فؤاد وصلاح جاهين وجمال كامل وعبد المنعم القصاص كمان ماتوا وقبلهم زكي مراد ويوسف حلمي .

بعد موت السادات، كنا لسه بنحاول. طلعت فكرة تجميع لعدد من المثقفين وإحياء التأييد الشعبي للسلام كامتداد لـ«باندونج»، بما فيها حسن فؤاد وأحمد حمروش وصلاح حافظ وعدد من ستاتهم من ضمنهم أنا، كان فيه كمان جيل جديد ظهر وكانوا عاوزين يورُّوا أحمد حمروش، اللي كان سكرتير عام التضامن الآسيوي الأفريقي، إن ممكن يتعمل حاجات شعبية مفتوحة ـ خارج الحكومة ـ مثلًا انتِ كنت كبرت واتعرفت على رندا شعث واتصاحبتوا، واتعرفنا على مامة رندا ـ صفاء زيتون ـ قالت أحب أبقى أحضر الاجتماعات دي. يوسف إدريس قال تعالوا عندنا في البيت نعمل اجتماع لتأييد فلسطين، كانت 1982 وكان فيه حرب، إسرائيل هجمت على لبنان وعلى منظمة التحرير وعلى الفلسطينيين هناك وحاصرت بيروت أكتر من شهر. يوسف إدريس كان نشر أعمال كتيرة وبقى شخصية بارزة في الأدب على قدم المساواة مع نجيب محفوظ فكان لها أهمية ومعنى إنه يستقبل الفكرة دي في بيته، حسيت إن دي علامة بَرضُه إن المجتمع عايز يتنفس. المهم رحنا عند يوسف في بيته اللي على النيل ورجاء مراته عملت لنا حفلة جميلة مليانة مأكولات، ناس كتير وزحمة بالنسبة لمساحة البيت، جابوا كراسي وفوتيهات بيت يوسف ورجاء كلها وأحمد حمروش قعد على كرسي بره الصالون شوية من كتر الزحمة، وحسن فؤاد وأبو العينين ورعاية قعدوا على الأرض وحسن مسك أجندة، يظهر حسُّوا إنه ممكن يستعيدوا جو زمان وان الاجتماع يكون ممتع وناكل ونشرب ونهزر، كل واحد يقول فكرة أو اقتراح ونكتب. حسن فؤاد عنده روح قيادية يلخص شوية حنعمل كذا وفلان حيعمل كذا ويكتب، فجأة صلاح حافظ قال :

ـ وسعد حيعمل إيه؟

يوسف إدريس قال :

ـ لاَّ، سعد دا أنا اللي حاحكي لكم عليهُ .

حكَاء ممتاز بنشرب من بقه الكلام شَرب :

ـ زمان كان في حاجة اسمها حركة السلام، «أنصار السلام»، وسعد كامل كان صغير ورفيع ورئيس تحرير مجلة «الكاتب» واحنا كنا كلنا حواليه، كوِّن مجموعة مننا نروح نحضر مؤتمر للشعوب في النمسا... الوفد كان فيه هدى زكي مرات صلاح حافظ ساعتها ويوسف إدريس وزهدي تمن شباب مصريين ما شافوش أوروبا قبل كدا وحنتجنن نسافر. في بداية حياتهم ما عندهمش فلوس، وسعد نظم الرحلة وسبقهم علشان يرتب حيسكِّنهم فين وحيستقبلهم ازاي والبرنامج إيه، وهم يحصَّلوه. ياخدوا مركب وينزلوا في «جنوا» في إيطاليا ومن هناك ياخدوا قطر للنمسا. نزلوا من المركب في «جنوا» ما لقوش حد مستنيهم في المينا، ما يعرفوش طلياني وما عندهمش فلوس وما معاهمش حتى عنوان مكتوب. يوقَّفوا الناس في الشارع ويقولوا : «Partiggiani della pace» ، يعني «أنصار السلام» بالطلياني، ما يعرفوش أي كلمة تانية ومستنيين إن الجملة دي تنقذهم بأي شكل، الناس في شوارع «جنوا» ما يعرفوش إيه «أنصار السلام» دي. يا عيني مشيوا في الشوارع يائسين، وفاتهم القطر اللي مفروض ياخدوه علشان يقابلوا سعد. في الآخر سواق تاكسي وقف من غير ما يشاوروا له ـ يظهر لقى شكلهم غريب ـ الدنيا برد ولابسين صيفي، جايين من مصر زي ما هم كدا بالهدوم اللي عليهم ماشيين مبلولين في المطر دراعاتهم على صدرهم وحاجة مأساوية خالص. «إنتم عايزين إيه؟». «بارتيجاني ديلا باتشي». ركَّبهم كلهم معاه في التاكسي واتصرف يسأل ويدوَّر هو على «بارتيجاني ديلا باتشي» دي لحد ما لقى المقر، وفعلًا «أنصار السلام» فرع «جنوا» في إيطاليا استلموهم وجابوا لهم تذاكر ووصلوهم المحطة وركبوهم القطر وقالوا لهم اسم المحطة اللي لازم ينزلوا فيها في النمسا، وهناك بقى المفروض إن سعد يكون مستنيهم. في القطر استمروا جعانين وبردانين خايفين ما يلحقوش يقروا اليافطة وينزلوا لأن القطر كان بيقف مدة قصيرة في المحطات، أو ـ ودا الكابوس ـ يوصلوا وما يلاقوش سعد ويحتاسوا في النمسا. سعد في الوقت دا كان راح يستناهم في المحطة مع شاب مصري اسمه محمد برادة، يعرف سعد من أيام «الحزب الوطني» وفتحي رضوان قبل حركة السلام، بيدرس فيزياء في النمسا، بعد كدا بقى واحد من العلماء المشهورين بتوعنا. لما الشباب ما وصلوش حصل لسعد وبرادة ذُعر: «يا دي المصيبة، جرا لهم إيه؟ حنلاقيهم ازاي؟». استنوا القطر اللي بعده والدنيا برد، محمد برادة ابتدا يفقد الأمل: «مش حييجوا!». «ما عندهمش فلوس وما يعرفوش حد، حييجوا».«حييجوا ازاي؟». «جايين جايين، يوصلوا يلاقوني مستنيهم». رفض يمشي من المحطة واستنى ساعات وساعات. دخل الليل وسعد مع كل قطر يوصل يطلع من الاستراحة يقف على الرصيف .

يوسف إدريس بيحكي إن من ناحيتهم كل ما القطر يهدِّي يطلعوا كلهم برؤوسهم من الشبابيك يقروا اسم المحطة، لحد ما يوسف في مرة طلع يبص م الشباك وشاف راس سعد من بعيد واقف مستنيهم على الرصيف لوحده بيترعش :

ـ لحد النهاردا ما شفتش وش أحلى من وش سعد في اليوم دا .

نزلوا وحضنوا بعض وسكنوا وأكلوا واتدفوا، سعد اتصرف جاب لهم جاكتات، والبرنامج مشي وحضروا المؤتمر وزاروا أوروبا ورجعوا. يوسف إدريس حكى القصة وهو منفعل وخلَّانا كلنا

ننفعل معاه وننبسط ونضحك، هيَّصنا وصقفنا لما وصل للحتة اللي بيقول فيها إن شاف وش سعد في المحطة وبصينا لسعد وحسينا ان وشه حلو فعلًا، سعد استغرب :

ـ آه فعلًا، أنا كنت نسيت الحكاية دي خالص .

أنا حبيت يوسف إدريس لما حكى القصة دي، أصل كان فيها إعجاب بسعد، قصة قديمة لما كانوا كلهم لسه صغيرين وسعد كان الدينامو، عرف بحدوتة صغيرة زي دي يحيي اعتبار سعد اللي كان أصبح منطوي قوي في التمانينات. يوسف كان كويس معانا دايمًا ولطيف ويحبنا، دا اللي قصدي اقوله، كان عنده نوع من الولاء، مش كل الناس كانت بالعذوبة دي معانا .

مجلة «روز اليوسف» في الخمسينات كانت بتشغي بالشباب التقدمي، وأنشأوا «صباح الخير» مع إحسان عبد القدوس، والمجلتين تخصصوا في اكتشاف المواهب والقدرات في الرسم والكتابة والقصة من غير تردد ومن غير تفكير، ما بيسألوش على شهادات عليا، ولا يهمهم ماركسيين ولَّا مش ماركسيين. صلاح حافظ كان في طب تحت ضغط ابوه، ابتدا يكتب في «روز اليوسف» وعمره ما خلَّص طب، صلاح جاهين كان زجَّال وشاعر شعبي وكاريكاتيريست خدوه على طول في «روز اليوسف»، جمال كامل إدُّوا له صفحة بحالها يرسمها، بقى بعد كدا أشهر رسام بورتريهات في مصر. زهدي معلِّم في الكاريكاتير السياسي وأبو العينين وأحمد بهاء الدين وفتحي غانم وحسن فؤاد، كلهم بيدينوا للست «روز اليوسف» ومدرستها. سعد استوحى من الروح دي لما مسك «الكاتب» مجلة «أنصار السلام» قبل إلغاء الديمقراطية، كان فيه وعي إن الديمقراطية بعد الثورة مهددة، ومسألة إن سايبين حركة السلام وسايبين الأحزاب والمثقفين يعبَّروا مسألة لازم الاستفادة بيها للآخر وبسرعة. سعد جمع المثقفين الشباب اللي كانوا ميَّالين للتقدمية معاه في «الكاتب» ودعموا المجلة وبقت حاجة جميلة، وبقوا يفرحوا بيها في المجتمع المصري. سعد حكى لي مؤخرًا إن «الكاتب» خضعت للرقابة بعد الثورة بـ6 شهور، والرقيب كان أنور السادات وكان بيجيب سعد البيت ويناقشه وجيهان تجيب عشا، لكن كانت رقابة، ومهمة السادات إنه يعرف إيه اللي حيتنشر قبل ما يتنشر. يظهر إن السادات كان بيربي نفسه سياسيًّا فكان بيكتَّر في المناقشة ويتمادى فيها. اللي عايزة اقوله إن سعد ما كانش فنان ولكن ما كانش سياسي نظامي، كان حاجة لوحده، واللي حوله كانوا عارفين قدراته. تنظيميًّا بيتهاجم علشان شغله في العلنية والفنون والأدب وفي ثقافة الجماهير، معندوش الشخصية أو الميل إنه يتألق في السرية أو يلتزم سياسيًّا بخط معين على أساس خط الحزب. في فترة من الفترات اشتغل معاهم شوية في الاجتماعات كانوا بييجوا هنا يجتمعوا ويدُّوا له مسؤولية، لكن الشغل المنظم من جوه الحزب ما كانش بيطلع مواهبه، كان بيقهره ويكتمه. الحياة العلنية والنشاط العلني المفتوح بالطريقة دي كانت بتعرضه في نفس الوقت لقمع من الحكومة والبوليس السياسي كان حاطط عينه عليه وكان فيه طول الوقت «suspense» أو توتر، كانت فترة مصيرية وكنت شايفة إنها فترة متفتحة، مش بس سياسيًّا، لكن اجتماعيًّا وفنيًّا وثقافيًّا. وانا كمان، زي سعد، عجبتني الحياة بالطريقة دي أكتر من السرية. من هنا بقى القصة اللي حكاها يوسف إدريس كانت مهمة بالنسبة لي، أنا كنت لمست شخصية سعد لما اتعرفت عليه قبل السجن، وشفت ازاي سعد كان بيحوز على احترام وتقدير الناس دول، كبار وصغيرين، وإلى حدٍّ ما بيقترح وهم يوافقوا وينفذ. يمكن علشان شغل سعد ملوش جسم، ولكن شغله وموهبته لهم تأثير على كل زمايله وعلى

المجتمع لكن ملهاش مُنتج محدد. كنت حاسة في كتير من الأحيان إنه مظلوم وانه خلاص اتنسى، فيوسف إدريس لما حكى القصة دي في التمانينات رد لي الاعتبار في ثقتي في سعد .

مات السادات، ساعتها بس سعد رجع يكافح بشدة علشان يسمحوا له بالنشر، كان بودهم في الجرنال إنه يفضل على كدا، ياخد ماهيته وما يكتبش لكن هو أصر لغاية ما لقوا له مساحة ينشروا له فيها وجهة نظره، مقالة أسبوعية في باب «الرأي للشعب» وسعد سمى مقالته «خواطر سياسية». حاول ينتظم، وإلى حدٍّ ما انتظم لحد نص التسعينات .

كويس إن سعد دخل في معركة الكتابة في «الأخبار» على الأقل، لأنه كان اكتأب للدرجة... أنا حاحكي، مع إن الحكاية اللي حاحكيها دي حتخلِّيني أنا حاموت. مبارك كان صديق صلاح حافظ، اتعرف عليه لما كان نائب للسادات وانبسط من شخصيته وقعد ياخده مستشار خاص، صلاح كان رجع للصحافة وكان بيكتب باب اسمه «قف». لما مبارك يسافر ياخد صلاح حافظ معاه، وفضل يستشير صلاح حافظ لفترة بعد ما بقى رئيس للجمهورية، وأظن صلاح حافظ في الفترة دي اتعين رئيس تحرير مجلة «روز اليوسف»، وعبد الرحمن الشرقاوي كان أصلًا رئيس مجلس إدارة المؤسسة. الوضع لان شوية بموت السادات، وعبد الرحمن الشرقاوي وصلاح حافظ وضَّبوا مقابلة لسعد مع مبارك. غرضهم إيه عبد الرحمن الشرقاوي وصلاح حافظ؟ أعتقد تصورهم إن سعد يقول لمبارك عاوز يعمل إيه، يختار مجال ويقدم مشروع، زي أيام إنشاء الثقافة الجماهيرية مثلًا، سعد اشتغل على مشروع الثقافة الجماهيرية أكتر من عشر سنين يوصفه ويشرحه ويتكلم عنه ويطوره ويتصوره ويسعى له، من وهو أيام ما كان في السجن أواخر الخمسينات لحد ما اتحقق في 1966. بعد فشل مشروع الطماطم سعد كان بلا شغل، قاعد في البيت زعلان، متضايق. صلاح وعبد الرحمن اصحاب سعد وبيحاولوا يساعدوه يوضَّب وضعه، عارفين إنه كان منبوذ أيام السادات، وعارفين إن سعد عنده رؤية وأفكار وعارفين الدور اللي لعبه في وزارة الثقافة، وإن ضروري حيكون مفيد كمستشار، يمكن مش مستشار سياسي، ولكن في أي مجال من مجالات المجتمع والثقافة بالذات. وفعلًا الرئاسة اتصلوا بسعد وكان سعد في الفيوم، ولقوني أنا في البيت، السكرتير اللي كلمني قال لي :

- إحنا رياسة الجمهورية، الرئيس مبارك عاوز يقابل سعد كامل .

- هو مش هنا، في الفيوم وآدي نمرته .

ضربت لخمة طبعًا، مسألة إن يكلموني من رياسة الجمهورية، فادِّيت لهم نمرة سيلا غلط والسكرتير كلمني تاني وقال لي النمرة دي غلط، فاعتذرت له وقلت :

- أنا آسفة، فعلًا النمرة دي غلط .

وادِّيته النمرة مظبوط. كلموا سعد :

- معنديش عربية وما اقدرش آجي اقابل الريس في بحر ساعة .

فحددوا له ميعاد بعد يومين، وبعتوا له عربية للبيت وخدوه يقابل مبارك. دي كانت المرة الوحيدة اللي سعد قابل فيها مبارك والمقابلة ما كانتش مثمرة بالمرة، مبارك اتكلم عن نفسه وقال لسعد «إنه راجل بسيط ويحب إن حال الشعب المصري يتحسن، ومعندوش طموحات كبيرة، وإن حالة البلد الاقتصادية هي أهم حاجة بالنسبة له، وإن الوضع الاقتصادي وحش بعد الحروب اللي مرينا بيها بما فيها حرب تلاتة وسبعين وإن لازم المستوى العام يرتفع وما ينفعش الشعب يستمر في الحالة دي» وإن «مراته كمان معندهاش طموحات وست بسيطة»، أظن عاوز يقول إن مراته ما بتعملش زي الستات التانيين اللي بيروحوا فرنسا وانجلترا ويجيبوا هدومهم من كريستيان ديور ويحملوا ميزانية الحكومة مبالغ ضخمة، وإن هي - مرات مبارك - «تعرف خيَّاطة صغيرة هي اللي بتفصَّل لها الملابس حتى بعد ما بقت مرات رئيس الجمهورية» دا مبارك اللي بيتكلم. بعد كدا سأل سعد :

- إنت بتعمل إيه دلوقت؟

- ولا أي شيء .

- بتعمل إيه في الفيوم، مش عندك عزبة؟

- ولا أي حاجة .

- مش بتشتغل؟ بتزرع؟

- لأ أنا باستجم ما باعملش أي حاجة .

- طيب إيه مشاريعك؟ إنت عاوز تعمل إيه؟

- أنا مش عاوز حاجة .

- إنت كويس كدا؟

- آه أنا كويس كدا أنا مش عاوز أي حاجة .

ومشي ورجع البيت وحكى لي الحكاية بالطريقة دي .

المقابلة مع رئيس الجمهورية من وجهة نظري انتهت بشكل وحش، أنا ما زعلتش على الفرصة، لأن مين عارف كان حيلاقي إيه وحيحصل له إيه لو أخد مسؤولية في عهد مبارك، بس أنا فوجئت برد فعل سعد، مشاعري كانت وحشة تجاه الحكاية دي، كان لسه عندي أمل يرجع يتحمس ويشتغل والمقابلة دي تخرجه من الاكتئاب .

دينا كانت بتجيب ملاحق، ما كانتش بتحب المدرسة أبدًا، كنت قلقانة عليها على طول. كانت حلوة ولذيذة، طفلة مش متعبة. لما ابتدت تكبر وتعرف تتكلم مش عايزة تسمعني، باحاول احكي لها حواديت زي ما كنت باعمل معاكِ، بتخاف مش عايزاني أكمل وبعدين ابتدت هي عايزة تحكي. ترجع من المدرسة عندها حكايات وتتأخر وتقول و... و... و... وتسرح وانا اسرح... ما اتفاهمناش أبدًا أنا وهي في موضوع الحكايات. ولا هي حبِّت تسمعني ولا انا عرفت أتابع بتقول إيه. حظها في المدرسين كان وحش وابتدت في فترة مش عايزة تروح. كل يوم الصبح مشهد مقاومة للمدرسة. أنا كنت أيامها تعبانة في البيت. دخلنا كان بسيط جدًّا وكان لازم أعمل تدبير منزلي كبير، نانا وجدُّو كانوا اتوفوا وسعد كان مكتئب وانتِ كنتِ دخلت في المراهقة وبقيت مجنونة باصحابك ومش بتوضَّبي أوضتك وتسمعي نفس الأغاني «جون بايز» ليل نهار، بتذاكري وتنجحي بالصدفة. كنت قلقانة على دينا على طول مش عارفة أساعدها في المدرسة ازاي. حسيت إني مش قادرة عليها. سعد اقترح عليها تلبس لبس المدرسة من بالليل، وهي فعلًا نامت مرة بلبس المدرسة والشنطة على ضهرها. إنتِ حاولت بَرضُه شوية تكوني أخت كبيرة، الصبح تصحي وتصحيها وتنزلوا مع بعض كأنكم رايحين فسحة. كنت باسمع صوت عِياطها وانتو بتحاولوا تركبوا أوتوبيس المدرسة. كنتو بتصعبوا عليَّ انتو الاتنين، مش عارفين تتصرفوا ازاي. ابتديت أنادي عليها فجأة وانا قاعدة ساكتة «دينا!» وكنتو بتتريقوا عليَّ، مرة كنت قاعدة ساكتة فسعد ضحك وقال :

ـ دلوقت «ماري» حتهتف «دينا !».

وحتى هي، دينا، لما كبرت شوية اتريقت عليَّ :

ـ إيه؟ ساكتة بقالك كتير مش حتقولي «دينا!»؟

كانت حزينة من المدرسة. اتخانقت لها مرة واتنين بس الخناق حيصلح إيه ولَّا إيه؟ كل حاجة كانت بتتدهور في نظام المدرسة. مرة راحت العزبة مع سعد وبهجت، وبهجت خلَّاها ترسم معاه والحكاية دي استغرقتها أكتر من أي حاجة تانية، دينا يا حبيبتي عندها الميل دا، ارتاحت مع عالم بهجت وارتبطت به، بعد كدا لما كبرت فضلت تروح له تسأله وتتعلم منه، بس بهجت نفسه اكتأب .

إنتِ دخلت ثانوية عامة وجبت مجموع مش بطال فوق الـ80% ولكن لازم عايزة ضروري تدرسي طب وسينما، سعد استجمع قوته وعلاقاته علشان يدخلك كلية الطب في الجزائر. لما كان بيحس إنه ممكن يبقى مفيد كان بيشحن قدراته وينفض الاكتئاب، بيبقى سعيد لما ينجز وروحه المعنوية ترتفع، زي لما نجح في تعيين انتصار بنت عم رياض في قصر ثقافة الفيوم، يااااه على الفرحة. وفعلًا إنتِ رحتِ تقيمي لوحدك في الجزائر وكنت قلقانة عليك إنت كمان، ما عندكيش 17 سنة .

الصعوبات في البيت كانت بتخلِّيني مستمرة في تمسُّكي بالباب في «حوا» ومتابعة قضية المرأة، الحاجة المميزة اللي عندي وفي إيدي وباعملها وانا مبسوطة. مجلة «نحن النساء» اللي كانت بتيجي لي في السجن بطَّلت توصل لكن أنا كنت باحاول احصل عليها بانتظام، اشتركت فيها بس كانت بتضيع في البوسطة في مصر، فاشتركت على عنوان أبويا وأمي في إيطاليا وطلبت منهم يحوِّشوا لي الأعداد، بس بَرضُه كانت مكلفة علينا فما استمرتش، اكتفيت أشتريها لما اروح إيطاليا. عمري

ما عرفت مين اللي اشترك لي في مجلة «نحن النساء» الإيطالية وانا في السجن؟ باخمِّن إن مجموعة «كوريل» اللي كانوا في المنفى في فرنسا، فكَّروا يبعتوا لي اشتراك المجلة على السجن على أساس يكمِّلوا تثقيفي .

سنة 1975 قريت عن طريق مجلة «نحن النساء» عن أول مؤتمر تنظمه الأمم المتحدة لحركات المرأة في العالم، توصية نهاية المؤتمر في المكسيك إن «أي قضية من قضايا الإنسانية بنخصص لها سنة في الأمم المتحدة لتقديم دراسات والبحث عن حلول، قضية المرأة تحتاج عشر سنين بحث وتكثيف جهود من الأمم المتحدة، بسبب تعقيدها وتوغُّلها في جميع قضايا حياة الإنسان » ، وبناء عليه الأمم المتحدة قرروا إن من 1975 إلى 1985 حيكون «عقد المرأة». جرايد كتير كتبت وكتب كتيرة طلعت وأبحاث ونشاطات ومؤتمرات وابتدوا يحضَّروا لـ«مؤتمر نص المدة» 1980 في كوبنهاجن. في صيف 1979 وانا في «ريبا» قريت في المجلة إن تَقَرَّر إقامة منتدى شعبي موازي للمؤتمر الرسمي لأن المنظمات الأهلية لها دور كبير على الأرض، ليه المؤتمر يكون حِكر على الحكومات؟ الأمم المتحدة كانت متعوِّدة تنظم مؤتمرات للدول والمنظمات الأهلية تحضر الجلسات كمراقبين ومَلْهُمش حق التصويت. الستات والمنظمات غير الحكومية اتلمُّوا على بعض وابتدوا ينظموا منتدى شعبي موازي تحت رعاية الأمم المتحدة، قريت عن لجنة من 44 منظمة غير حكومية مهمتها تساعد الأفراد والمؤسسات الصغيرة على الاشتراك علشان ما يبقاش المؤتمر حكر على اللي معاه فلوس. ما كنتش مرتبطة بأي تنظيم وعلى أي حال ما كنتش باشوف حواليَّ غير عقلية التنظيمات الشيوعية القديمة، فاطمة زكي مثلًا والشيوعيين الماركسيين كانوا بيعتبروا قضية المرأة ثانوية بالنسبة للقضية السياسية الكبرى كأنها ـ المرأة ـ قضية ثانوية أو صغرى، وساعات كانوا بيعتبروها مضرة لقضية الطبقات أو التحرُّر الوطني ويتهموا المهتمين بالمرأة بتشتيت الجهود وحاجات تانية أَوحَش، أنا كان حصل لي تغيير كبير في تفكيري بالتدريج بعد مدة طويلة وعدد كبير من حوارات غير تنظيمية وقراءات وتأملات. قدمت طلب ـ بالانجليزي ـ للجنة المنتدى الشعبي في كوبنهاجن اللي نشرته مجلة «نحن النساء»، وقلت لهم أنا ممكن آجي على حسابي بس «لو تقدروا تقدموا مساعدة للإقامة أنا أحب أشترك» قدمت بشكل فردي من عنوان البيت بصفتي صحفية في مجلة «حواء». جا لي الرد فيه عنوان لأسرة متطوعة تستقبلني انزل عندهم. وجود إقامة شجعني واِدَّاني حماس إني حاعرف اشترك. ما كنتش حضرت مؤتمرات قبل كدا، كنت حضرت مرة اجتماع صغير في روما أو «نابولي» في سفرية من السفريات، حاجة على مستوى الحي، بيتكلموا عن مشاكل المرأة . ردِّيت على اللجنة :

«لسه ما عملتش أي إجراءات وحابقى أقول لكم على الميعاد اللي حاوصل فيه ».

«إحنا مستنيين تدِّينا أخبارك ».

كله بالبوسطة، الجواب ياخد أسبوعين رايح والرد أسبوعين جاي، ما كانش فيه حاجة اسمها إنترنت ساعتها ولا حتى فاكس .

بس أنا كنت قلقانة عليك في الجزاير وعايزة لازم أروح اشوفك. شعرنا، أو شعرت أنا إن انتِ كنتِ... أنا باقول في أزمة، ما كنتيش ماشية كويس في الدراسة. عندك 17 سنة وقضيتِ وقتك في

الجزاير تندمجي في حاجات تانية واتوجدت في مناخ من الكفاح السياسي الشبابي عطلك عن المذاكرة والتركيز في الدراسة. دينا كانت أخدت الابتدائية وابتديت اطمِّن عليها - وضَّبتها أسافر لوحدي واسيب دينا مع سعد في مصر الصيفية دي - أقعد شهر في الجزاير معاكِ واطلع من الجزاير على إيطاليا أشوف أهلي أسبوعين وبعدين أروح الدانمارك أحضر المؤتمر، خصوصًا إن امتحاناتك كانت قرَّبت ومتصور لي إني أقدر اساعدك تتفرغي. بعَت اسألك لو في مكان انام فيه وبكام .

رحت سفارة الدانمارك علشان آخد الفيزا وقلت لهم حاحضر مؤتمر في 16 يونيو :

- تعالي قبل المؤتمر بأسبوع .

- ما ينفعش علشان حاروح في الجزاير عندي بنتي هناك .

وحكيت لهم القصة كلها :

- وبعد كدا حاروح إيطاليا لمدة 15 يوم وبعدين في الآخر حاروح الدانمارك، فلازم فيزا الدانمارك دلوقت .

كنت متحمسة فاقتنعوا وابتدوا يفكَّروا :

- طيب تعالي بعد يومين تلاتة .

بعد يومين تلاتة :

- أول ما توصلي إيطاليا روحي سفارة الدانمارك في روما وخُدي الفيزا من هناك .

- مش حيرضوا يدُّوها لي، الفيزا لازم من بلدي .

- ما تخافيش حنبعت اسمك .

- بس ما تنسوش أصل حيكون فات وقت طويل .

- ما تخافيش .

وقعدوا يضحكوا عليَّ إني خايفة ويطمنوني، اضطريت أصدقهم ورحت خدت فيزا من سفارة الجزاير، وفيزا لإيطاليا. وطبعًا سعد ساعدني في الإجراءات دي كلها، باقول لك سعد لما يحس إن فيه حاجة حلوة ممكن يفيد فيها بيصحصح وتجيله أفكار وأهم من الأفكار الهمَّة للتنفيذ. ساعدني في الإجراءات وكلِّم صلاح حافظ اللي كان رئيس تحرير مجلة سعودية بتاعة سميرة خاشقجي. ست سعودية غنية أخت خاشقجي المليونير المشهور. بعد مؤتمر المكسيك بتاع 1975 ابتدت موضة في العالم إن الناس تكتب عن قضية المرأة. سعد حاول يخلِّيني أكتب في المجلة دي عن طريق صلاح،

كتبت مقالة واحدة ودفعوا لي فلوسها، بس يظهر الطريقة اللي أنا باكتب بيها ما كانتش تنفع لمجلة غنية وورق لوكس، صلاح كان بيسافر على حساب المجلة مع سميرة خاشقجي يشتروا الورق بنفسهم من أسبانيا، وانا ما استريحتش لمعاملتهم، فما نفعتش، واستمريت في «حواء» طبعًا . المهم إن سعد اتصل بصلاح قبل ما اسافر وقال له :

ـ «ماري» حتسافر لوحدها لكوبنهاجن تحضر مؤتمر المرأة .

ـ الله؟ حتسافر ازاي؟

ـ على حسابها فيه لجنة للمؤسسات غير الحكومية حيستقبلوها وحيسكنوها .

ـ لا، استنى، أنا حاحاول اعمل حاجة .

صلاح اتصل بأمينة السعيد، كانت رئيس مجلس إدارة «دار الهلال »:

ـ نايلة كامل حتسافر تحضر مؤتمر المرأة في كوبنهاجن، وعايزين ورقة من «دار الهلال» أو مجلة حوا إن هي مندوبة، علشان التسهيلات هناك .

شوفي مثلًا ما فكرتش أقول لأمينة السعيد من نفسي، وما طلبتش فلوس، يعني غالبًا ممكن أطلب يساعدوا شوية في التكاليف. أمينة السعيد كتبت لي الورقة دي على طول واتختمت من «دار الهلال»، ما معناه إني بامثل مجلة «حواء» ومندوبة صحفية عنها وطالبة يقدموا لي المساعدات والتسهيلات الممكنة لممارسة العمل الصحفي وحضور المؤتمر، ورقة حلوة .

كتر خيره صلاح .

جيت لك الجزاير ولقيت إجراءات الدخول والخروج صعبة، مثلًا الواحد يسيب الشنط للتفتيش وبعدين ياخدها من حتة تانية ما يعرفش عملوا فيها إيه، مش بيفتشوها قدَّامك. الحمد لله إنتِ خلّتيني اقعد ببلاش في بيت اصحابك فوزية وبلهادي وصباح، ولكن أنا تأكدت في الزيارة دي إنك مش حتعرفي تذاكري وإن مهما اقول لك «ذاكري» مش ممكن يحصل، دا مخك كان في حتة تانية خالص. كنت باجبرك تقعدي على المكتب وباشوفك قاعدة تبحلقي في الكتاب وشكلك حزين، محبطة، مش محبطة بس زهقانة وتقعدي بالساعة والساعتين ما تقريش ولا سطر واحد، فكتبت جواب لسعد قلت له «أنا في غاية اليأس، أنا فشلت كل الفشل، مش حيحصل إنها تذاكر. أنا حآخد البنت معايا إيطاليا واروح عند أبويا وأمي واسيبها معاهم». جيت أقول لك تعالي معايا إنتِ ما رضتيش خالص مع إن الامتحانات كانت خلصت، أحاول اقنعك من هنا ومن هناك إن تسافري معايا، مفيش فايدة. أنا كنت عاوزة اضمن إن انتِ بين إيديا وفي نفس الطيارة معايا. سعد كان حذَّرني قال لي أمشي على التعليمات «ما تروحيش كدا ولا كدا وما تعمليش أي حاجة غلط أو خارج النظام بتاعهم، بلد بوليسي» لدرجة إن معايا شوية دولارات وأصحابك عاوزين يغيروها لي بسعر حلو، محتاجينها «لا يمكن أنا حاغيَّرها من البنك بالسعر الرسمي» وخسرانة كتير فيها، وصاحباتك

ثقة يعني مفيش خوف منهم بس مفيش فايدة أنا ما رضيتش، زي بعضه معلش وفلوس الرحلة خلصت ولازم امشي .

ما اعرفش قدرتِ تصرفيني وتتخلصي منّي ازاي، بس انتهى الأمر إن مشيت فعلًا لوحدي من الجزائر بعد ما وعدتيني إنك حتحصليني، وصلت روما وقعدت في بنسيون «سايا»، ورحت أول حاجة على السفارة الدانماركية، خدوا اسمي وقالوا لي تعالي بعد يومين، كنت خايفة مش حاعرف أحصل على الفيزا دي. تاني خطوة ما كنتش مخططة حاروح الدانمارك ازاي، طلع مش ممكن إلا بالطيارة وانا ما كنتش مرتبطة بأي مجموعة علشان يساعدوني بفلوس أو بالإجراءات، رحت الأمم المتحدة وقلت لهم أنا رايحة الدانمارك في المؤتمر بس ما لقتش حاجة تساعدني. سعد كان عنده شوية فلوس صغيرين في البنك كان كتب 3 أو أربع مقالات في فترة سابقة في مجلة بتطلع بالعربي في روما أظن اسمها «الرسالة»، إدُّوا له شوية فلوس وبعد كدا بطَّلوا ينشروا له وبطَّلوا يبعتوا له فلوس. الفلوس دي كانت قليلة ما تعملش حاجة، فسِبناها في الحساب على أساس لما بنروح إيطاليا بنكون دايمًا مزنوقين، اخدت منها واشتريت تذكرة للدانمارك. لما اشتريت الفيزا كمان استريحت ورحت عند أبويا وأمي. كنت مبسوطة ومتحمسة فابتديت أعمل دعاية للمؤتمر في القرية، ولكن قرايبنا في «ريبا» كانوا بيبصوا لي ويضحكوا، باشرح لبنات خِلاني «مارتشيلا » و«ماريزا» و«إيلينا» مرات اخويا، لطاف معايا دايمًا كعائلة، لكن كانوا في ملكوتة تانية خالص وانا كنت مليانة حماس للمرأة .

جا لنا منك تلفون، ازاي اتصلتِ؟ أبويا ما كانش عنده تلفون، غالبًا كلمتِ «دون فيتوريو» ابن خالتي القسيس وهو جه نادانا ورحنا عنده وانتِ رجعتِ اتصلتِ تاني وقلتِ إنك وصلت إيطاليا في المطار :

ـ ما اقدرش اخرج من المطار، معنديش فيزا، البوليس قال لازم تيجي تستلميني بنفسك .

على ملا وشنا الصبح اللي بعده بدري سافرنا أنا وأبويا. أنا كنت قلقانة من بياتك في المطار، أكيد انتِ فاكرة الحكاية دي كويس أصلك نمتِ على الأرض. وصلنا مطار روما ورحنا على بوليس المطار على طول نقول جايين نستلمك، فهم رفضوا !

ـ لا يمكن ندخَّلها، دي معندهاش فيزا .

وانتِ فعلًا ما خدتيش الفيزا، مش ممكن تاخدي الفيزا من الجزائر، لازم من مصر. أُمَّال انت جيتِ على أساس إيه؟ أنا ابتديت أقلق من الحكاية دي :

ـ انتم عارفين احنا جايين منين؟ إحنا ساكنين في «ريباترانسوني» وعلشان نوصل هنا سبع تمن ساعات بالعربية وأبويا راجل كبير عنده سبعين سنة !

كنا جينا بعربية أبويا سايق طول السكة وانا مسافرة للدانمارك خلاص، حُوسة. مفيش فايدة .

ـ مش ممكن ندخلها .

فزعقت فيهم فادُّوني نمرة السفارة المصرية :

ـ كلِّميهم في التلفون احكي لهم حكايتك .

اتصلت بالسفارة بس كانوا في أجازة، فانا بقى في التلفون وقدام الناس بازعق وبالعربي مع الراجل اللي رد عليَّ من السفارة :

ـ والطوارئ بتعملوا فيها إيه؟ دي طوارئ: البنت عندها 17 سنة وأنا صحفية في مجلة «حواء»، اسمي نايلة كامل، مسافرة مؤتمر كوبنهاجن بكرة، ما اقدرش اسيبها في المطار اعمل إيه؟

وازعق ازعق ازعق، لقيت الناس حواليَّ في المطار بيبصوا لي مش فاهمين أنا باقول إيه وقلقانين. بس إيه بَرضُه الزعيق جاب نتيجة، الراجل قال :

ـ إدِّيني اتكلم مع الظابط الإيطالي اللي بتكلميه .

رحت ندهت لها، البوليس الطلياني كانت واحدة ست. بتاع السفارة كلِّمها والست البوليس رجعت وقعدت تقلب في الباسبور اللي قدامها، بتاعك؟ ولَّا بتاعي؟ أنا قعدت اعيط فالست بتاعة البوليس قالت :

ـ خلاص حنسيبها .

قلت :

ـ ايوه، متشكرين، كويس .

بس أنا كنت مش قادرة أمسك نفسي، أعيط واعيط مش قادرة أسكت وابويا يا عيني قاعد جنبي وساكت، إنتِ شفتيني؟ ولَّا ساعتها بعتوا لك تيجي تقابلينا أخيرًا؟ انتِ يمكن كل دا كنت في صالة الترانزيت مستنية وبعتوا نادوا على اسمك بالمكرفون. وصلتِ وبوسناكِ واخدناك وركبت معانا العربية، لما هدينا شوية شرحتِ لنا إن رحت تاخدي الفيزا في الجزائر فرفضوا علشان مش جزائرية وكنت ناوية تاخدي فيزا ترانزيت، بتقولي عملت قبل كدا لكن ما نفعش المرة دي، أنا مش فاكرة ليه ما نفعش المرة دي .

سِبتك لأبويا ورجعتوا مع بعض «ريبا» في نفس اليوم بالعربية إنتم الاتنين .

أنا نمت في بانسيون «سايا» كالعادة والصبح رُحت المطار تاني وسافرت إلى كوبنهاجن .

خلاص ركنتك ونسيتك مع أبويا وأمي وحاتفرغ بقى للمؤتمر .

أول مؤتمر .

*

في مطار روما لقيت تلات أربع بنات بيتكلموا بالعربي فرُحت لهم على طول سعيدة ومبتسمة :

ـ أنا نايلة كامل من مصر أنا صحفية، إنتم منين؟

من الأول مش منفرجين ولما سمعوا «من مصر» تجهموا ردُّوا ببرود :

ـ من اليمن .

ـ آه طيب كويس .

وعاوزة اتكلم معاهم «رايحين فين وازاي؟» ولكن بيردُّوا يا دوبك عايزين يخلصوا الكلام معايا، سِبتهم ورحت قعدت في مكاني. أنا زي العبيطة مش واخدة بالي إن فيه مقاطعة للمصريين، في الجزاير كنت انتبهت إن فيه شعور ضد مصر، وكنت في المناقشة باقول لهم «أنا ضد السادات أكتر منكو ولكن تكرهوا المصريين كلهم ومصر كلها؟» بس هو الواقع كان كدا البلاد العربية اعتبروا المصريين مسؤولين، سِبنا السادات يعمل اللي عمله، لما شفت الستات اليمنيات في الطيارة ما خطرتش على بالي الحكاية دي. قابلت اليمنيات دُول مرة تانية في المنتدى الشعبي، بَرضُه يتحاشوني ومش عايزين يتكلموا معايا، ولما رجعت وحكيت لسعد الحكاية دي قال :

ـ دَولة اليمن أكتر ناس متشنجين ضد مصر اليومين دول .

وقعد يضحك عليَّ ويضحَّكني. الطيارة كانت أغلبها ستات، مجموعة من الهنديات بيتكلموا إنجليزي واللغات الهندي التانية، ولكن ما كانش فيه طلاينة، عرفت بعد كدا إن الطلاينة راحوا كوبنهاجن بالقطر وبعضهم راحوا بالعربية، طلع ممكن بالقطر بس أنا ما توصلتش له، بيمر في ألمانيا وانا معنديش فيزا لألمانيا، خسارة علشان أكيد القطر كان أرخص .

نزلت من الطيارة وقلت: «يارب، أنا حالاقي الناس اللي أنا ساكنة عندهم ازاي؟». شفت واحدة دانماركية بتكلم واحدة هندية وبتقول لها :

- «Egypt?».

فالهندية ردِّت :

- «No».

أنا لما سمعت مصر رحت للست وقلت لها :

ـ أنا من مصر، أنا نايلة كامل .

استغربوا من شكلي، غالبًا متوقعين حيستقبلوا واحدة مصرية يبان العروبة على وشها أو على لبسها، بس كانوا لُطاف، الست وجوزها جم ياخدوني من المطار بعربيتهم، شرحت لي إن البيت مش في كوبنهاجن نفسها، فيه قطارات بتروح لغاية الجزر، قرى صغيرة جنب بعض تابعة لكوبنهاجن أظن بيتهم كان في حتة اسمها «يوبورج»؟ طيب. عندهم بنت صغيرة عندها سنة أو سنتين شاريين بيت فرحانين به ولسه بيدفعوا أقساطه وحوالين البيت جنينة صغيرة بتلات أربع شجرات تفاح، وزرعة فراولة بيقطفوا منها الفراولة ويتلِّجوها في الفريزر علشان الشتا. عشّوني ليلتها وحضَّروا لي نوع من التارت بالبندق عملوها في نص ساعة، بيشتروا العجين جاهز، ويملوها بندق ويغطوها بالزبدة وسكر بودرة ويحطّوها في الفرن. جبت لهم معايا هدية إزازة ويسكي وغطيان مخدات برسومات أرابيسك عاملهم أبو العينين، وغطا أبريق الشاي في شكل شيخ البلد عملاه بدر حمادة، وكانوا مبسوطين بيهم بس فجأة الطفلة الصغيرة «بيا» اتخضت من شيخ البلد أصل عنده شنب وشكله غريب وابتدت تعيَّط، فاضطروا يخبُّوه، مش ناجحة الهدية دي. طلعوني في الدور اللي فوق، أوضة نوم لـ«بيا» وأوضة نومهم والحمام، وأوضة صغيرة تحت السقف يا دوبك فيها سرير ومكتب صغير .

ـ دي أوضتك، بس خدي بالك لما تطلعي وتنزلي تقفلي باب السلم علشان «بيا» ما تقعش .

وشرحوا لي بيشتغل ازاي .

ـ بالنسبة للفطار إحنا حنوفره، عيش وجبنة وزبدة ومربى، الشاي اهه والكوبيات اهيه تعملي الفطار بتاعك، بالنسبة للغدا والعشا حتتصرفي إنت .

فهِّموني كمان إن الدانمارك في الشمال والشمس مش بتغرب إلا الساعة حداشر ونص بالليل في الصيف وحكوا لي إن جت لهم ضيفة من البرتغال اتخضت إن الليل مش بييجي والصبح النور يبتدي بدري، الليل كله على بعضه يا دوب تلات أو أربع ساعات .

ـ ما تقوميش، هو مش وقت للصحيان .

كان لطيف منهم يشرحوا لي دا كله، الأيام اللي بعد كدا كانوا بينزلوا يودُّوا البنت للحضانة بدري الصبح قبل ما اصحى وما بقتش أشوفهم إلا نادرًا، كتر خيرهم والله على الاستضافة دي. أم «بيا» ما راحتش الشغل أول يوم وجت معايا المؤتمر، ركبنا القطر وورِّتني مواعيد القطر إمتى وازاي وبكام، ولما انزل من القطر أركب أتوبيس، علمتني اجيب التذاكر، مفيش كُمساري بيحصَّل التذكرة، الواحد يحط الفلوس في المكنة وياخد التذكرة، والسواقة ـ واحدة ست ـ تشوف إني قطعت تذكرة وانزل آخد أتوبيس تاني يوصَّلني للجامعة. يعني قطر وأوتوبيسين. طيب .

سواقين الأتوبيسين لطاف وبيسوقوا كويس، بس ستات، حتى في إيطاليا أنا ما كنتش لسه شفت ست بتسوق أتوبيس، عجبتني الحكاية دي. الشوارع في الدانمارك حلوة ونضيفة وواسعة، والمرور منظم

والزحمة منظمة، كل حاجة منظمة .

اليوم الأول افتتاح المنتدى الشعبي في الجامعة أم «بيا» سألتني :

ـ حتحضري أَنهي مؤتمر؟

ـ أنا حاحضر الاتنين .

وصلنا للجامعة في كوبنهاجن دخلنا في قاعة التسجيل، ترابيزات دايرن داير مستطيلة. أم «بيا» جت معايا وكانت لابسة كارت متطوعين قالت لي :

ـ لازم تسجلي نفسك هنا .

رحت عند واحدة من البنات، كان فيه ستات بيساعدوا على التسجيل معظمهم شابات شعرهم أصفر وعنيهم زُرق، دانماركيات، عدد ما اقدرش أحدده، مش تلاتة أربعة، لا، يمكن تلاتين اربعين متطوعة، فالإجراءات خلصت في دقيقتين، «الباسبور والدعوة والاسم» وعملت لي الكارت وعلَّقته على صدري و«اتفضلي باي باي».

الافتتاح وعدد الستات كبير مش قادرة أخش المدرج، حاولت ابص من بعيد، سُود وبِيض وصُفر، آسيويين وأفارقة وأوروبيين، تُخان وكبار في السن وشعر أبيض وشابات. فجأة مجموعة مسكوا إيدين بعض وابتدوا يلفوا في حوش الجامعة ويغنوا، اسم الجمعية «YWCA» «جمعية الشابات المسيحية»، طَبعهم كشافة شوية، يمسكوا إيدين بعض ويعملوا دايرتين واحدة جوه التانية ويدوروا خلف خلاف ويغنُّوا. إنتِ ودينا اشتركتوا في معسكرات بتنظمها الجمعية دي في مصر، ما كنتش اعرف إن مهتمين بقضية المرأة. وإذا بستات تانيين يقولوا شعارات، وبعضهم يرفع أعلام، وواحدة ماسكة ميكروفون وقفت على صندوق وقالت كلمة، يعني زي احتفال مش منصة وجلسات وخطب وقورة. صاحبتنا الدانماركية أم «بيا» نبهتني :

ـ لو عاوزة تاخدي البرنامج اهه موجود هنا .

كويس إنها معايا تشرح لي. نظام متطوعات جميل لتسهيل الاشتراك في المؤتمر لستات مش واخدة على المؤتمرات معهاش فلوس كتير وما تعرفش البلد، يعني الستات اللي زيِّي، أم «بيا» عضوة في لجنة متطوعات دانماركية لاستقبال ستات المنتدى .

أخدت البرنامج وما عرفتش أقراه بسهولة، قعدت أبص على اليفط اللي قدام القاعات، وكان فيه على الحيطة إعلانات كتيرة عن ندوات واجتماعات، مواضيع مختلفة، الساعة كذا في أوضة كذا الموضوع الفلاني منظمة كذا بلد كذا، مش عارفة اختار ازاي. وانا ماشية لقيت نوال السعداوي في آخر الطرقة من بعيد، سعيدة أشوف حد من مصر واعرفها كمان، شاورت لها من بعيد وجريت عندها وسلمت عليها :

ـ وانت فين وعاملة إيه .

ردت :

ـ أنا آسفة أنا مشغولة .

وسابتني ومشيت. فرجعت ادوَّر على طريقة أحضر حاجة تهمِّني وكويسة. كان فيه قاعة ندوات عامة مفتوحة، ومئات الفصول الصغيرة، حالة تشبه اللي انتِ شفتيه بعد كدا معايا في مؤتمر نيروبي. كوبنهاجن مدينة منظمة والقاعات جديدة وواسعة ومريحة واليفط كتيرة ومع ذلك مش سهل. قريت البرنامج تاني، لقيت ندوة فيها واحدة من أمريكا من منظمة مسيحية، ومن مصر نوال السعداوي فقلت طب ما اسمع بتقول إيه. القاعة اتملت والست الأمريكية قالت «في الدين المسيحي فيه تمييز، الرجالة عندهم حقوق أكتر من الستات» وكانت بتنكِّت كتير ودمها خفيف، بس انا مش فاهمة الإنجليزي الأمريكاني بسهولة، ما فهمتش أغلب النكت. وبعدين جت نوال السعداوي وقالت كلمتها، كلمة ظريفة عن الـ «matriarcat» والـ «patriarcat» ـ النظام الأموي والنظام الأبوي ـ وازاي المرأة مش متساوية مع الراجل وإن دي حاجة قديمة وإن في بداية الإنسانية كان فيه فترة نظام أموي، النظرية مش بتاعتها بس هي بتعرضها كويس، وصفقوا لها. نوال كانت عايشة في الوقت دا في العراق هي وشريف حتاتة جوزها وقبلها أظن في الحبشة ـ أثيوبيا ـ كان بقى لي مدة مش على اتصال بيهم. لقيت فرقة موسيقية ستات واظن كان فيهم بعض الرجالة، داخلين القاعة الكبيرة ماشيين في الممر بالمزيكا سألت قالوا لي دي العراق، دردشت مع واحدة من البنات العراقيات عن كلمة نوال السعداوي، ما كانتش فظيعة زي بنات اليمن بس بَرضُه بتتكلم بشيء من التحفظ. شابات وستات العراق فضلوا يضربوا مزيكا ويعزفوا أناشيد ويمشوا في الطرقات من آن لآخر طول مدة المؤتمر. إحنا ماشيين مش بنبص في وشوش بعض، موطيِّين نقرأ الكارت المتعلق على الصدر علشان مكتوب البلد اللي جايين منها. لقيت بادج مكتوب عليه مصر. أنا كل ما الاقي واحدة من مصر كنت بادوب، بتحصل لي حالة، باتكلم مع كل الناس، والناس بتكلمني، بس عاوزة أُلفة، عاوزة ناس اعرفهم من مصر، كنت كدا .

ـ أنا باكتب في مجلة «حواء»، أنا نايلة كامل .

ـ آه .

ـ من فين في مصر؟

ـ القاهرة .

ـ أقصد ساكنة فين؟

ـ أنا ساكنة في باريس مش في مصر. بامثل مصر و«التجمع» وجاية من تشيكوسلوفاكيا .

هي كمان بتكلمني وهي مش عاوزة تكلمني، نوع من المقاطعة لمصر؟ ما حبتش تصاحبني ولا تحضر معايا، مشيِت وسابتني. مش عايزة اظلمها بس انا حزنت .

وانا خارجة من المنتدى الساعة واحدة أو اتنين الضهر لقيت صلاح حافظ وسميرة خاشقجي في وسط الزحمة، سميرة خاشقجي صابغة شعرها أصفر ولابسة تايير في غاية الأناقة باين عليه «signé» - ماركة مشهورة - وبتروح وتيجي مع صلاح حافظ. سلمت عليها وسلمت على صلاح وشكرته، هو كمان مشغول، طول الوقت يبص حواليه كأنه بيدوَّر على حد، قال لي بسرعة :

- لازم تحضري الافتتاح الرسمي، رُوحي سجلي نفسك في قاعة الكونجرس الكبيرة اللي في وسط كوبنهاجن، فيه أتوبيسات .

في اللحظة دي جت مجموعة من الستات حاوطوا سميرة خاشقجي وهاجموها بالإنجليزي :

- إنت من أي بلد؟

- السعودية .

- وفي بلدك في السعودية، الستات بيلبسوا زيّك كدا؟

أنا لقيتها رزالة، ونوع من الضيق من الأناقة مش اهتمام بحرية المرأة، هجوم على حاجة ما تعيبش سميرة، كنت حاتدخل بس الزحمة فصلت بيني وبينهم، وكمان سميرة خاشقجي مش محتاجة مساعدة .

دي مقابلة المصريين والعرب اللي شفتهم أول يوم في المؤتمر .

رحت أسجل للافتتاح الحكومي في الكونجرس واكتشفت إني ممكن أدخل المؤتمر الرسمي كصحفية بس أملا استمارة تانية. تسجيل الصحفيين زحمة وبيطلبوا أوراق كتير والصحفيات يستنوا ويشوفوا لو اتقبلوا على كمبيوتر، مش سهل زي التسجيل في المنتدى الشعبي فقلقت . وقفت قُدام مكتب الاستقبال ومليت استمارة وقدمتها مع جواب أمينة السعيد لواحدة من المسؤولات عن التسجيل، والله كنت من أواخر الناس اللي دخلوا، لسه داخلة، لكن اللي خدت ورقي شافت من مصر وميت ألف نسخة - «حواء» كانت بتوزع حوالي ميت ألف نسخة أو أكتر - سابتهم كلهم ودخلت ورا الموظفين التانيين وفي خمس دقايق جابت لي بادج الصحافة :

- دا بادج المؤتمر، الافتتاح له دعوة خاصة، عايزة؟

- طبعًا، عاوزة كل حاجة .

دققت بتركيز شوية لقيت الصحفيات اللي مستنيين يسجلوا نفسهم توزيع تلات آلاف أو خمس آلاف نسخة في الحدود دي. ادِّتني كرتونة ملونة - دعوة الافتتاح .

كان فيه أتوبيس ببلاش عشر دقايق من الجامعة للكونجرس رايح جاي. سِبت المنتدى ورحت الكونجرس قعدت ألف وادور لحد ما دخلت طُرقة من الطُرقات الكتيرة لقيت نفسي في القاعه الرئيسية. جو تاني خالص، جميع الخدمات، بنك بالكمبيوتر ومكتب تلغرافات وترابيزات في كل مكان ومقاعد جنب الحيطة، الواحد يقعد ياخد نفسه يلاقي حاجة يسند عليها ويكتب التلفونات المهمة ويوضَّب الكروت اللي الناس بتديها له وورق الندوات اللي بتتوزع، الواحد يقرأ البرنامج بهدوء وينقِّي، عرفت أنظم أفكاري شوية. كان فيه طرقة زي جنينة طويلة وواسعة وآخرها مطعم «سلف سرفيس». أكلت حاجة طبعًا ـ مش ممكن ما اكلش ـ وشربت قهوة وسمعت ناس بيقولوا «يلَّا ندخل مش حنلاقي مكان». دخلت قاعة مجلس الشعب الضخمة قبل ميعاد الافتتاح بساعتين، بدري شوية، القاعة مليانة تقريبًا، لقيت مكان مش بطّال في الوسط ورا شوية، وطبعًا كارت الدعوة الملون طلع أساسي، من غيره ما كنتش حادخل، قعدِت جنبي واحدة ست لابسة تايير أزرق وعلى طول هي اللي كلمتني :

ـ أنا من النرويج، وزيرة سابقة .

نسِيت دلوقت وزارة إيه أكيد اسمها موجود في جبل الورق اللي رجعت به. اتكلمنا كتير واحنا مستتبين واستمرينا نتقابل ونكلِّم بعض في الأيام اللي بعد كدا، هي تقول لي على النرويج وانا أقول لها عن مصر .

قفلوا البيبان ووصلت ملكة الدانمارك لابسة تايير لبني ببرنيطة على راسها وبعدين دخل «هامرشولد» سكرتير عام الأمم المتحدة، راجل كبير في السن، كنت شفت صورته في الجرايد. عزفوا النشيد الدانماركي ونشيد تاني يمكن بتاع الأمم المتحدة، بس الكل وقف وتصقيف وطقوس رسمية مريحة وسهلة المتابعة. الملكة افتتحت المؤتمر، وقالت كلمتين ترحيب وتمنيات طيبة مختصرين بالانجليزي، وكل مقعد فيه سماعة للترجمة، لازم الترجمة كانت كويسة حتى إن أنا مش فاكرة لو هي اتكلمت بالانجليزي ولَّا بالدانماركِي. طلعت مجموعة زي دستة ستات من وسط الجمهور على المنصة وست كبيرة في السن سلِّمت على الملكة ووصلت لغاية «هامرشولد» وقدمت له كمية من الورق، منظمة في النرويج جمعت إمضاءات آلاف الستات من البلاد الإسكندينافية بيطلبوا من الأمم المتحدة يركزوا على السلام وعلى إنهاء الحروب، والجمهور صقف لهم تصقيف كبير. «هامرشولد» افتتح المؤتمر «في المكسيك سنة 1975 بمناسبة «عام المرأة» كنا متوقعين 3000 ست من التنظيمات غير الحكومية كمراقبين لكن فوجئنا بحضور 8000 ست واحتاسنا لتدبير أماكن للإقامة، موضوع المرأة ووضعها عايز إعادة دراسة من الأول خالص، ما يقضيش سنة للمرأة فقررنا في الأمم المتحدة لأول مرة في تاريخها تخصيص عقد كامل ـ عشر سنين ـ من 1975 إلى 1985، وسميناه «عقد المرأة». إحنا كنا في نص المدة، 1980. يا ترى حققنا إيه بعد خمس سنين؟ ».

أنا فاكرة الاتنين دول بالذات الملكة و«هامرشولد» علشان كنت مبسوطة اشوفهم. وانتهى اليوم، مش عارفة أوصف، كنت مذهولة وسعيدة وطايرة من الفرحة مش عارفة احضر إيه ولَّا إيه، وقررت اروَّح أخيرًا علشان أنام في بيت أم وأبو «بيا»، أخدت الأتوبيسات والقطر، وانا في القطر بابص على اسم المحطات أحاول افتكر اسم المحطة اللي لازم أنزل فيها، خايفة تفوتني. الحمد لله لما شفت

الاسم عرفته «جروسين لوندن» ونزلت. المسافة من البيت للمحطة مش قريب، بس أنا كان عندي رُكب كويسة ساعتها والدنيا لسه نور مع إن 9 بالليل زي ما حذروني، في السكة لقيت عربية زي عربيات الكشري في وسط الشارع بتبيع الهوت دوج المشهور بتاعهم. ياه حسيت بالجوع وافتكرت إن أهل «بيا» مش حيعشّوني، اشتريت سندوتش فسألوني نحط إيه عليه؟ اختيارات كتيرة، قعدت أشاور على الحاجات وانا تعبانة. رجعت امشي وانا باكل، بس الحقيقة لقيتهم مستنييني عايزين يسمعوا مني وعاملين لي تارت البندق تاني .

ـ أنا اتعشيت متشكرين .

والبنت الصغيرة كانت نامت خلاص فأم «بيا» سألت :

ـ أنا الصبح شفتك في القاعة العامة لما المندوبة بتاعة مصر عملت العرض بتاعها .

اللي هي نوال السعداوي .

ـ بس دوَّرت عليك بعد الضهر ما لقتكيش .

فقلت لها :

ـ أيوه رحت أسجل نفسي في المؤتمر الرسمي .

ووريت لها إن دلوقت عندي كارت صحافة وممكن أخش في الاتنين، حسيت إنها ما انبسطتش إني باروح المؤتمر الرسمي، حبيت أؤكد لها إني جاية على حسابي وإن أنا نصيرة المرأة والمنتدى الشعبي بس عايزة أغطي المؤتمر كله علشان انا صحفية. بعد ما اتوضَّحِت النقطة دي حكيت لهم شفت إيه وعملت إيه. نمت وما حسيتش بالنور والليل القصير من التعب، والصبح صحيت ما كانش فيه حد في البيت، راحوا الشغل، فطرت وأخدت القطر ورحت للمنتدى .

في مصر في محاولة من ضمن المحاولات بعد السادات، كوِّنا جمعية للكاتبات، أسِّسنا «جمعية الكاتبات المصريات»، وأمينة السعيد انتُخبت رئيسة، كانت لطيفة الزيات عاوزة تكون الرئيسة ولكن أمينة السعيد كسبت الانتخابات، وانا أيدت أمينة السعيد واعتقد إني بكدا كسبت أعداء كتير من اليساريات. أمينة السعيد راحت مع أنور السادات للقدس والحادثة دي مش فايتة عندنا، اليساريين. على أي حال أمينة السعيد كسبت الانتخابات وقعدنا نفكر نعمل إيه في افتتاح أول نشاط للجمعية، فكرت في يوسف إدريس، يوسف إدريس دا شخصية كبيرة بس أنا قلت :

ـ أنا اتصل بيه .

لأن كنت باحس إن فيه حب بيني وبينه، عشم، بس خلَيت سعد يتصل بيه الأول، معنديش الثقة وباتكسف، سعد قال له على الفكرة ويوسف رحَّب، فاتشجعت وأخدت السماعة فقال لي :

ـ يوميها حيكون عيد ميلادي وحاحتفل بيه معاكم .

جمعية الكاتبات عندهم طريقة شغل بتفكرني بالتنظيم الشيوعي، مع إنهم ما كانوش شيوعيين ولا حتى تقدميين بس على طول سألوا: «هو حيتكلم عن إيه بالظبط وازاي؟». عايزين يعرفوا بالتحديد كأننا في اجتماع خلية، فسألته فهو قال لي :

ـ أنا حآجي وحاكون المتحدث عن المرأة في ساعتها وحاقوم بإحياء حفل تأسيس الجمعية بمنتهى السعادة .

كلمت رجاء مراته :

ـ بس يا ترى هو حيتكلم عن إيه؟

علشان في الجمعية حيسألوني ويقلقوني، فرجاء قالت :

ـ لا لا لا، إنتِ سيبي يوسف بحُريته، لما تسيبيه يتكلم كويس وحيقول حاجة حلوة، ما تخافيش كتبت في الأجندة وحافكّره .

لما أمينة السعيد عرفت إن حيكون عيد ميلاده قالت :

ـ ياه دا حيكون عيد ميلادي أنا كمان، ما كنتش عاوزة أقول لكم، بس ما دام عيد ميلاد يوسف إدريس يبقى مابدِّهاش .

أظن عيد ميلادها السبعين. ابتدينا نفكر ازاي نحتفل بيهم الاتنين، سعد كلِّم أمينة شفيق صديقتنا وعضو مجلس نقابة الصحفيين وكلِّم مكرم محمد أحمد اللي كان النقيب ساعتها علشان النقابة تدِّينا القاعة، ونزِّلنا خبر في الجرنال واسم أمينة السعيد ويوسف إدريس وجمعية الكاتبات، المسرح مليان وكانت بداية كويسة للجمعية. يوسف إدريس قال كلمتين حلوين قوي لأمينة السعيد، واتكلم عن المرأة كلام حلو وسرح في حاجات شعرية، بس اللي فضل معايا :

ـ أنا مش ببص للمرأة على إنها الملهمة الدائمة للفنانين بس، لا، أنا باحترم أي ست، أي امرأة، تمسك القلم وتقرر تقعد تكتب. باحترمها احترام ما تقدروش تتصوروا قد إيه. أنا كاتب وعارف الكتابة مش سهلة وبالنسبة للمرأة أصعب بكتير من الراجل، الباب بيخبط... اللبَّان... العيش... العيال... الطبيخ.. السوق !

خلَّى القاعة تصفق له قوي قوي، أصل القاعة فيها عدد ستات كبير، وأغلبهم كاتبات وهو يقولهم أنا باحترم الست اللي تقرر تمسك القلم وتقعد تكتب. فعلًا قد إيه الكتابة صعبة، وهو حاسس بيها.

الجمعية وزعت أسبتة صغيرة فيها وردتين للاحتفال بأول نشاط للجمعية فيوسف وهو ماشي قال :

ـ دا أحلى عيد ميلاد أنا احتفلت بيه حارجع بسَبَت للبيت اقول لهم اهه في ناس بتحتفل بيَّ !

لمدة طويلة بعد كدا اتكلمنا في الجمعية قد إيه كانت حلوة كلمته وأحيت الافتتاح بالفعل. فِضلنا نشوف يوسف إدريس من وقت لوقت، وهو بيتحوِّل لشخصية في المجتمع أكتر واكتر، لدرجة إن لما نجيب محفوظ اترشح لجايزة نوبل وأخدها، في مصر الاختيار بين الاتنين صعب، أصل الاتنين موهوبين وقمم ومختلفين عن بعض. يوسف إدريس نفسه اكتأب بعد كدا .

الفكرة من جمعية الكاتبات إن الست اللي بتكتب تلاقي مجموعة تدِّيها الدعم المعنوي والعملي إن امكن. كنا بنفكر نعمل نشاطات على الكتب والكاتبات يعملوا تكريم لكاتبة من الكاتبات كل شهر في المسرح الصغير في دار الأوبرا، ويعزموا الناس ويعملوا نوع من التعريف والإحياء لشغلها.
استجمعت شجاعتي في تكريم أمينة السعيد، علشان أنا ما باعرفش اتكلم في الأماكن العامة ومش فاكرة إني اتكلمت قدام مجموعة في أي وقت تاني، وقفت وحكيت بصوتي حكايتي مع أمينة السعيد وتشجيعها لي :

ـ أمينة السعيد كان لها موقف إنساني جميل معايا .

ازاي جوزي كان مطلوب القبض عليه ومغضوب عليه من الدولة :

ـ مش حاقدر انسى لها إنها شجعتني ودعمتني في لحظة ضعف واستسلام .

وصقفوا لي الحمد لله. أمينة السعيد حكت بقى للناس حاجة أنا ما كنتش اعرفها، إن لما السادات كان بيقبض على اليسار وسعد كان هربان «طلبوا» منها توقفني عن الكتابة، مش عارفة مين اللي طلب منها وعن طريق مين، المباحث ولَّا مرات السادات ولَّا إيه، ولكن أمينة السعيد قالت «لهم »:

ـ لا، كله إلا دي، مَلهاش دعوة بجوزها، نايلة حتستمر بشغلها .

مش عارفة قصدها إيه «مَلهاش دعوة بجوزها» لأن أنا طبعًا لي دعوة بجوزي ونص كمان، أنا ما كنتش عايشة بنفسي، بس المهم أنا حكيت وهي حكت وأكِّدت إن كان مطلوب تبعدني وهي صممت أكمل اكتب. أمينة السعيد ماتت دلوقت وانتهت الفترة دي والقصة دي، وانا استمريت أكتب في «حواء ».

استمريت أكتب، واستمريت أتابع المعارك الاجتماعية والفكرية في إيطاليا وأوروبا، وتمكنت إني أحضر مؤتمر نيروبي سنة ١٩٨٥ معاكِ ومع هناء شوقي ورندا وريم، وكتبت عنه وعن الصراعات الفكرية والسياسية في قضايا المرأة. وكانت المعارك دي بتسمَّع مع الركود هنا في مصر. مظاهرات للستات بالمزيكة في الشوارع بالحلل والمقشة ومريلة المطبخ ومكنة الخياطة ومعاهم الأطفال، زي ما العمال والفلاحين بيتظاهروا بالمنجل والمطرقة ويفخروا بدورهم في

المجتمع ويطالبوا بحقوقهم. انتشرت صورة ربة البيت أو الزوجة اللي بست أو سبع دراعات كل إيد تعمل حاجة، إيد تكوي وايد تشيل العيِّل وايد تطبخ وايد تكنس وايد تلاعب جوزها، إنتِ عندك الصورة دي معلقاها في أوضتك. لو يموت الزوج ست البيت تاخد معاش ضئيل باسمه، ستات كبار في السن عايشين وحش مع إنهم اشتغلوا طول حياتهم، اشتغلوا في بيوتهم وخدموا اجوازهم وعيالهم، وخلوا بالهم حتى من أهاليهم، الأولاد يكبروا ويهملوهم في حالة من الفقر ومن الضيق، فطلع شعار «الأم الواحدة تعرف تخلِّي بالها من مِيت ابن، ولكن مِيت ابن مش عارفين ياخدوا بالهم من أم واحدة»، بمعنى أن ست البيت لازم يكون لها حقوق، كتبت عن الموضوع دا ونشرت صور المظاهرات في «حواء» وعرضت وجهة النظر اللي بتحسب شغل المرأة في بيتها، وتقدره بالمليارات. فكرة ثورية بالنسبة لي .

كنت ماشية في شارع «ألساندريا» في روما، ولقيت ترابيزة صغيرة على الرصيف وشباب بيجمعوا إمضاءات :

ـ علشان إيه؟

ـ ضد الـ «vivisezione».

ـ يعني إيه؟

تشريح وتجارب على الحيوانات وهي حية. «دي حاجة متوحشة وغير مقبولة وكمان مش ضرورية» بيقولوا «الأبحاث تحصل من غير تعذيب». أنا وقَّعت على طول. بس العريضة دي كانت جزء من حملة كبيرة ضد النشاطات الإنسانية المضرَّة بكوكب الأرض وأدِّت إلى تكوين منظمات سمُّوا نفسهم «الخضر» للدفاع عن البيئة. ابتديت اقرا في الجرايد عن «إن الطبيعة زي البيت لازم نحافظ عليها وندافع عنها، مش كل واحد حُر يخسَّر الغابات علشان يشغل مصنع، أو حيوان ينقرض علشان منتَج بيجيب فلوس». مجموعات «الخضر» دي خشُّوا البرلمان، وحصلت مناقشة هل يتحولوا إلى أحزاب ولَّا يفضلوا حركات شعبية وحملات إعلامية، مش متأكدة إن دخول البرلمان قرار سليم، كان يبدو منطقي في ساعتها، اللي يهمني حيوية المجتمع. أول مقال لي عن البيئة كان عن مظاهرة للخضر في ألمانيا في شكل جنازة للشجر اللي بيموت، شايلين شجرة في تابوت وماشيين وراها، الشركات الكبرى بيشيلوا الغابات بدون تفكير ويستخدموا الخشب والأرض في مشاريع مربحة، بس قطع الأشجار بيقلِّل الأوكسيجين في الهوا ويضعف الأرض وكل الدورة الطبيعية بتتأثر من تدمير الغابات، لازم يكون فيه حدود. صورة جنازة الشجرة طافت العالم، فكرة جديدة على الناس إن لما تقطعي شجرة جريمة قتل، مش صحيح إن الشجرة جماد وملوش لازمة. كتبت عن النفايات النووية وأخطارها، مش بس الأسلحة النووية خطيرة بقوتها التدميرية. وكتبت عن مرض التوحد أول ما سمعت عنه وكان مش معروف بالمرة، الكتابة في «حواء» بالطريقة دي كانت أهم حاجة بالنسبة لي، أنا ما بطلتش كتابة إلا مؤخرًا لما سعد تعب سنة 1999.

*

خليل زاد تعبه أكتر واكتر على مدى السنين، صعب أكون دقيقة في تقدير المدة، وفي النهاية اتوفى من غير ما يخلِّف. بعد ما اتوفى بحاجة بسيطة، شهور، محمد علي المساعد بتاعه اتجوز زينب أرملته «علشان يكون لي بيت في العزبة اللي باشتغل فيها» وبكدا دخل بيت زينب اللي كان بيت خليل، وأصبح مسؤول عن أرض جدُّو كلها. محمد علي كان غير خليل، عنده شيء من اللؤم فاهم في الزراعة وشاطر في الإدارة في نفس الوقت. على طول لما دخل على زينب واتجوزها حملت وجابت الولد علِي الصغير. كانت حاجة صعبة على الناس اللي بيحبوا خليل إن زينب تتجوز بعده على طول وتخلِّف كمان. بس بالكلام يمين وشمال فهمت إن مسألة إن تعيش لوحدها في بيت خليل في العزبة مستحيل، «عمل طيب إن اتجوزها وثبتها في المكان»، كانت حترجع لأهلها، بيقول لي سعد. الأهم إن زينب ارتفعت روحها المعنوية لما جابت علي، خلِّفت وكمان جابت ولد. محمد علي كان متجوز ومخلِّف صبيان من مراته الأولانية، بعد علي زينب جابت توأم بنات سموهم نادية ودينا على اسمكم، أنا اتأثرت قوي أصل علاقتي بالناس اللي في العزبة كافحت كتير علشان تستمر بالرغم من التطورات في البلد وفي العزبة وفي بيتي .

صحة زينب كانت في النازل، بييجي لها روماتيزم، ويجي لها وجع في البطن، وبقت تتعالج وتاخد حقن وحاجات وجابت كمان عيِّل مع الأمل إن تجيب ولد تاني وعلي ما يكونش ابنها الوحيد، جت لها بنت سمُّوها شادية. شادية كانت ضعيفة، وما كانتش عايزة تكبر وغابت في المشي وفي الوقوف على رجليها. جمال أخو سعد متديِّن من النوع اللي فيه رحمة وإنسانية، راح عند محمد علي وزينب وقال لهم :

- لازم تدُّوها حقن كالسيوم وتودُّوها عند الدكتور، ما تهملوهاش .

واتلفت لزينب وقال لها :

- حرام، لازم تاخدي بالك من شادية أكتر من اخواتها أصلها عيَّانة وضعيفة .

وفعلًا جابوا لها حقن كالسيوم وتقوية وحاجات وخدوا بالهم منها، وما شاء الله شادية كبرت وبقت كويسة. زينب بطلت تجيب عيال على كدا وصحتها اتحسنت هي كمان .

ظهر بقى على الساحة رجب ابن محمد علي الكبير من مراته الأولانية، استدعوه في التعبئة وراح الجيش، ولما رجع أبوه قرر يجوِّزه، رجب رفض، ما قدرتش أفهم ساعتها رجب كان رافض الجوازة دي ليه؟ في الأغلب مش جاهز للجواز. على أي حال أبوه كان بيعمل خطط لمصلحة العيلة، دا ياخد بنت دا، ودي ياخدها ابن دا وكدا، بس انتهى الأمر إن رجب هرب من البيت، تمرد. العروسة بنت لطيفة، أعتقد بنت عشري، جت لها أزمة نفسية، عار إن العريس مش عاوز يتجوزها، بَرضُه عمُّو جمال تدخَّل وجابوا رجب يعقَّلوه. عقَّلوه للدرجة إن سمع كلامهم. شبكة التقاليد والعادات والمصالح ما تسمحش. رجع رجب واتجوز وقاعد مع مراته لحد النهاردا وجايب منها ما شاء الله حاجة زي ست عيال - جوازة ناجحة .

محمد علي أصبح ديكتاتور كبير مع الوقت، ورجب لما كبر أصبح زي أبوه، رجب نفسه دا اللي هرب ومش عايز يتجوِّز، كبير العيلة وبيدير مصالحها بكفاءة كبيرة، بس كان حيتجنن في شبابه .

أول واحد يبعت بنته للمدرسة ويسيبها تكمِّل بعد الابتدائية كان عم رياض الغفير، بعت عيشة وبعدها سلمى، ذكية وشاطرة بس ما حبتش تكمِّل دراستها، وبعدهم انتصار كمِّلت ومتعينة دلوقت في قصر الثقافة في الفيوم. سعد ساعد على تعيينها هناك، وكانت حاجة كبيرة لنا كلنا إنها بقت موظفة في قصر الثقافة بالرغم من عزل سعد. العزبة دي لما انا ابتديت أروح في الستينات ما حدش كان بيعلِّم بناته، محمد علي حلف إن مش حيعلم بناته. الفكرة السائدة إن «البنت اللي تتعلم بتبور، مش بتتجوز». عيشة بنت رياض حكت لي إن المدرسين الرجالة انبسطوا من وجود مدرسات معاهم، واشتكت لي إن في الآخر يروحوا يتقدموا لواحدة من التلميذات. ملاحظة قالتها لي بمرارة شديدة لما كانت بتشتغل مُدرِّسة لإنها اتأخرت شوية على الجواز فعلًا، بس اتجوزت بَرضُه في الآخر وعندها أولاد، كل بنات رياض اتعلموا واتجوزوا، آخر واحدة اتجوزت هي البنت الكبيرة نفوسة بنته من مراته الأولى وهي الوحيدة اللي ما دخلتش مدارس وما اشتغلتش وحنان بنتها دخلت المدرسة وخالتها بتذاكر لها. أم مصطفى مرات عم رياض اللي علِّم بناته، ربِّت أولاد الزوجة الأولانية وربِّت ولادها، أنا كنت اعرف أم مصطفى لأنك كنت بتلعبي مع ولادها مصطفى وعيشة وحمدي وإبراهيم وأحمد وسلمى وانتصار .

فكرت نعمل معسكر في العزبة، زي اللي كنت عملته في اسكندرية سنة 1966، كان في ذهني أكرر تجربة اسكندرية مع لميس، لما كنتو بتعملوا كل حاجة مع بعض، أنا ما تعبتش معاكم خالص في اسكندرية. رحنا كلنا بما فيها ولاد بهجت وبدر: هشام ووليد، وجه حسام ابن عز الدين وزياد بهاء مع ليلى أخته، واظن أحمد الراعي، هشام ابن بهجت عثمان كان أكبر واحد وزياد أصغر واحد، دينا كانت اتولدت بس كانت صغيرة على المعسكر يمكن كان عندها سنتين أو تلاتة. عم رياض كان يعمل الشاي العربي تلات أدوار بسكر كتير وبالنعناع، ويصبه لك بطريقة جميلة من فوق خالص في كبايات قزاز صغيرة يمكن قد فنجان القهوة التركي، شاي تقيل مسكَّر ما بيعملوهوش إلا في الأرياف، وبالليل متخصص يعمل نار للعيال في جنينة بيت جدُّو، يجيب حطب ويِقيده ولو فيه بطاطس أو درة في الأرض يسوِّيها على النار. ما كانتش الكهربا دِخلت لسه، بالليل الضلمة شديدة والسما مليانة نجوم والقعدة بره بالنار حلوة. جوه البيوت كانوا بيولَّعوا كلوبات ولمض جاز . يوم شم النسيم قررنا أنا ولميس نصحى بدري ونروح نشرب الشاي وناكل البيض الملون فوق على التلة اللي بيسمُّوها «الآرة»، حضَّرنا ترموس شاي وشوية أكل ومشينا، كان عندي القدرة أمشي المسافة دي مع العيال، مسافة تبدو لي مستحيلة دلوقت. قضينا شم النسيم في الأرض وسط الغيطان، ويمكن كان العيد الصغير لأن كان في كحك. في وقت معين لقينا ليلى بهاء مدروخة وعينيها زايغة، باين عليها التعب ساكتة ما بتلعبش وما تتحركش، جميلة قالت :

- يا عيني، لوحدها هنا في العيد، أكيد أهلها واحشنها .

قعدت جنبها اسألها واتكلم معاها اتضح إنها خلَّصت علبة كحك لوحدها، أكلتها كلها على بعض، سمنة كتير على طفلة عمرها حوالي 8 سنين فجالها تلبُّك. هي ليلى بهاء كانت رفيعة وما كانتش بتاكل كتير ولكن لما تحب حاجة تاكل بنفس، يمكن لغاية دِلوقت الخصلة دي فيها، مش بتكتفي. لكن

في معسكر العزبة مش عارفة إيه السبب ما عرفناش نوضّب كويس روح التعاون، حسام ابن عز الدين رفض يشترك في أي شغل أو لعب من أول يوم، إنتِ وليلى كنتو كبرتوا وبتتخانقوا كتير ومش فاضيين للنظام. أحسن واحد كان هشام ابن بهجت وبدر، أمه علمته شوية أعمال منزلية، يقوم الصبح يروح المطبخ ويحط الشعرية واللبن والسكر ويجيب الحلة على السفرة. هشام بالرغم إنه بيساعد وعنده روح المعسكر بس ما كانش عنده الموهبة القيادية اللي كانت عند لميس، لميس عندها حماس تلاقي طرق للكل يشترك وينبسط. انتهى الأمر إن لازم أنا اللي اعمل أغلب الشغل وهشام يساعدني، لعبتوا شوية واتخانقتوا شوية، وانا تعبت شوية، وادِّينا جايزة لهشام علشان كان أحسن واحد، ورجعنا مصر بس ما كررتهاش تاني .

في التمانينات عز أخو سعد عمل مشروع تسمين العجول وأخد قروض على حس الأرض وجمال أخوهم الكبير كان بيساعد، أما سعد زي ما انتِ عارفة رافض يتابع. إنتِ حاولتِ تشتغلي شوية معاهم، كنت بتروحي كل أسبوع علشان تمسكي الخزنة وتقبَّضي الأنفار. بس المشروع دا كمان فشل أكتر من مشروع الطماطم، ولقينا علينا ديون والأرض والعزبة أصبحوا كابوس في حياة سعد تاني، وأصبح فيه حاجز نفسي أكبر وبطَّلنا نروح خالص لحد ما انتِ خدت مسؤولية وتوليتِ بيع حتة من الأرض علشان تسديد الديون قبل ما يحجزوا علينا وراحت نص الأرض. بعدها رجعنا نروح العزبة تاني، لكن علاقتنا بالمكان تآكلت والعلاقات كمان اتغيرت، مش كل الناس اتصرَّفت بشكل كويس لما الأمور انهارت، استهتار على غدر، المكان اتهجر. بس قبل النهايات المريرة دي كل مرة كنت باروح العزبة كنت باحس إني سعيدة، اتعلمت في العزبة حاجات كتيرة وارتبطت بالناس وبالعقلية والمجتمع، كان عندي استعداد أفهم، والناس ساعدوني كل واحد بطريقة، الناس في العزبة على مر السنين والمسجونات في فترة السجن وطنط عزيزة .

٦

«جنفياف »!

ما كنتش فاكرة اسمها، افتكرته فجأة، كان اسمها «جنفياف» زميلتي اللي قابلتها أول يوم في السجن ودوَّرت وشَّها بعيد وما كلمتنيش، عمري ما عرفت اسم عيلتها، بعد الموقف دا ودُّوها طابور مع بنات منظمتها «م.ش.م»، ثريا أدهم اللي كانت مسؤولة عن المرأة في «التجمع» فيما بعد وأختها إحسان أدهم. الناس دُول ما كنتش باشوفهم إلا من بعيد في السجن وما حصلش إن اتقابلنا كتِير بعد ما خرجنا، لكن قابلت «جنفياف» بعد أكتر من عشرين سنة تقريبًا، كنت اتجوزت سعد وخلِّفتك، شفتها ماشية مع واحدة قريبتها، هنا في الدقي بتدوَّر على عنوان في سليمان جوهر من ناحية حجازي بتاع البيض ومكتبة «الجمهورية». عرفتها، وشها زي ما هو، هي اللي ندهتني من بعيد في الشارع وطبعًا كلِّمتها، ما دام هي بتكلمني أنا لازم أرد، أصل حكايات «م.ش.م» وصراع المنظمات الكتير كان فات عليها زمن، والحقيقة كنت مبسوطة إنها بتكلمني وحكيت لسعد لما روَّحت البيت. شفتها تاني بعد سنين في مهرجان سينما تسجيلية، شفنا فيلم عن واحد مصري بيقابل واحدة يهودية في ألمانيا، كفيلم ما كانش له طعم، ومن ناحية المضمون ما كنتش فاهمة عاوز يقول إيه. فوجئت بـ«جنفياف» من ضمن الجمهور، سلمت عليَّ وسألتني :

- إنتِ رأيك إيه في الفيلم؟

- مش عارفة، ما عجبنيش، بس لازم أفكر فيه، ما فهمتوش كويس .

كان فيه واحد قاعد جنبي من الناحية التانية قال لها :

- حيكون رأيها إيه يعني؟ مش دي «ماري روزنتال» مرات سعد كامل؟

الطريقة ما عجبتنيش، حسيت إن فيه سوء ظن، أصل أنا ما كنتش حتى أعرفه، سكت وسألته :

- حضرتك مين؟

قال لي بس مش فاكرة الاسم الأولاني فاكرة «الحسيني»، حاجة الحسيني، اتكلمنا في حاجات عامة لغاية ما لقيت سعد واقف مع ناس تانية ومشينا .

بعد سنين، لسه من قيمة قريب، إحنا دلوقت إيه ألفين واتنين؟ قابلت «جنفياف» في جمعية الكاتبات وسلمت عليَّ بحرارة شديدة، وانا باسلِّم بحرارة بَرضُه، طب اعمل إيه؟ عمرنا ما اتكلمنا على الموقف اللي حصل بينا في السجن وإنها رفضت تتعامل معايا :

- لازم تيجي نادي السينما اللي رئيسه أحمد الحضري، 36 شارع شريف تاني دور .

أنا أعرف أحمد الحضري من زمان من أيام ما سعد كان بيشتغل في الثقافة الجماهيرية .

ـ يا نايلة إوعي ما تجيش .

أول مرة تناديني «نايلة»، يمكن أول مرة تكتشف إن اسمي أصبح نايلة؟ طبعًا يوم التلات جا وانا نسيت وكمان ما بقتش اتحرك كتير في الفترة الأخيرة، أنا سعيدة على أي حال إني افتكرت اسمها، أصلك ما تعرفيش الصدمة اللي حصلت لي لما خرجت من الزنزانة أول يوم في السجن ورحت لها علشان أكلِّمها وتسيبني اتكلم ما تردش عليَّ، والسجانات يتفرجوا علينا ويضحكوا مع بعض. كان عندي 18 سنة، لو أقابلها المرَّة الجاية لازم أفتح معاها الموضوع أشوفها فاكرة الموقف دا ولَّا إيه؟

مناقشات سياسية كتير بين «م.ش.م » و«حدتو» بس أكتر من المناقشات السياسية كانت الخلافات بين المنظمات، وانا شايفة إن الخلافات والتوتر خسَّروا نوعية الحياة في السجن. تصوَّري إحنا مقبوض علينا على حساب السياسة والرأي، وزعلانين من بعض؟ أصل الخلافات كانت بتنتهي بزعل حقيقي كأننا أعداء. زِي ما حكيت سعاد بطرس وآمال عبد النور، كانوا ميالين لـ«م.ش.م» وانا كنت «حدتو» لكن ما كُناش مرتاحين لطريقة الخلاف الشديد وبقينا نتفاهم ونحاول نقلل من الحدة ومن عنف الكلام والمشاعر، سعاد بطرس كانت بتأيِّدني، ولما هي بتتكلم كانت بتعبر عن تفكيري، بافتكرها بالخير، كان مقبوض عليها للمرة الأولى وحصل تعاطف كبير بيني وبينها. دا موقفي بشكل عفوي من طريقة الخلافات من ساعتها وفضل موقفي على طول في السجن لغاية ما خرجت، ولحد دلوقت، من أيام «جوليو لاوري» والطريقة اللي طردوه بيها من المنظمة بتهمة «الاتصالات الجانبية»، و«لي لي دايان» اللي «أوديت » طردتها و«جنفياف» اللي ما رضيتش تكلمني، وفيه كمان يوسف حلمي. يوسف حلمي كان سكرتير عام حركة «أنصار السلام» وخد موقف مع قبول تقسيم فلسطين وهاجموه بشدة. كان رأيه دولة واحدة، لكن كان شايف إن تتنفذ قرارات الأمم المتحدة أولًا وبعد كدا نسعى لتكوين دولة واحدة فيدرالية من الفلسطينيين والإسرائيليين، بالذات بعد هزيمة الجيش المصري والعربي في 1948 وضعف الفلسطينيين في المنطقة بسبب الهزيمة. الإسرائيليين أظن أعلنوا دولتهم، انفردوا بالقرار دا على طول أول ما الجيوش المصرية والعربية هجمت . فمن وجهة نظره قرار الأمم المتحدة كان أحسن سياسيًّا وأفضل الحلول لوقف النزيف ـ أنا دايمًا بانسى الأحداث والتواريخ بدقة، ارجعى بقى للتاريخ إنتِ والقضية الفلسطينية، إنتِ تعرفيها ـ اللي انا أعرفه كويس هو إن يوسف حلمي كان مع الطرف اللي بيقترح التعامل مع دولة إسرائيل والتخاطب مع الشعب الإسرائيلي . الطرف دا خد هجوم ما اقدرش أقول لك عليه من القطب الشيوعي التاني، اللي رأيهم إنه لا نعترف بدولة إسرائيل، وقرار الأمم المتحدة يترفض. الشيوعيين اللي كانوا متفقين مع كلام يوسف حلمي ومن ضمنهم كمال عبد الحليم وإبراهيم عبد الحليم من «أنصار السلام» خدوا هجوم بالعمالة للصهيونية، وبالعمالة لليهود، وفيه تهمة اسمها «الوفاء لـ«هنري كوريل»»، «الجاسوس» كانوا بيعتبروه أكبر جاسوس في الدنيا وعميل الصهيونية في مصر، يعنى شتايم لا نهاية لها. عرفت بعد كدا إن يوسف حلمي قضى وقت وحش قوي سنة أو سنتين متعبين. أظن كمان اتحددت إقامته في البيت لمدة سنة من حكومة الثورة بَرضُه من تحت راس الموقف. ولما خرجنا من السجن رحنا زرناه كان عيان قوي، جا له سرطان وفقد

حيويته ومات بعدها بفترة صغيرة. أنا مش عارفة لو كان عنده حق في رأيه، لكن دي كانت العلاقة بين التنظيمات، اتهامات سياسية بالتخوين والعمالة عمَّال على بطَّال، بالذات «م.ش.م».

بالمقارنة مع خلافات الشيوعيين، علاقة أبويا وأمى بأبو وأم سعد كانت حميمة. أبويا وأمي كانوا بييجوا أثناء الأسبوع يزوروني في الدقي وانا كنت باقعد مع أمي ونانا نتكلم، قعدة ستاتي كدا، وأبويا مسك في لعب الشطرنج مع أبو سعد وحبوا بعض حب. جدّو كامل كان متعود ينزل القهوة يلعب شطرنج، بطل يروح القهوة وبقى يكلم أبويا - ما كنش عندنا تلفون في أبو العلا - بس يسعى ويطلب إن أبويا ييجي يلعبوا شطرنج سوا، خدوا على بعض لدرجة كانوا بيزعلوا مع بعض ويتصالحوا على دور شطرنج. يلعبوا مدة طويلة، ساعتين تلاتة وأكتر وييجي وقت عشا جدُّو ونانا تنادي :

- يلَّا العشا .

وهو يرد :

- ما تزعجنيش .

نانا تشرح لي :

- أصله بيلعب الشطرنج .

عِشنا في البيت دا مع أبو وأم سعد مدة طويلة، حوالي 16 سنة، من 1959 لما خرجنا من السجن لحد 1975 لما نانا ماتت، بيصلوا وبيصوموا بانتظام ولو فيه ضيوف ييجوا لهم، ييجوا بعد المغرب أو بعد العِشا. عندهم نظام استمروا فيه، عمرهم ما طلبوا منا حاجة، منِّي أو من سعد. كنت باعرف شوية إنجليزي يعني بالذات مع سعد كان بالإنجليزي، شوية الكلمتين اللي قلناهم لبعض كفاية لمعرفتي بالإنجليزي، واستمريت أكلمه وأكتب له جوابات بالإنجليزي لما كنا في السجن لغاية بعد ما اتجوزنا وجينا نعيش هنا مع نانا وجدُّو اللي كانوا بيتكلموا عربي، بالذات نانا ما تعرفش إنجليزي. اتفقنا سعد وأنا نتكلم عربي أصل ما يصحش إن احنا نتكلم باللغة اللي هي ما تفهمهاش، وأنا «in the meantime» - في هذه الأثناء - كنت دخلت مرتين السجن، مش مرة واحدة، واتحسنت في العربي. أبويا ما كنش بيشرب، يمكن لو كاس واحد بالكتير، يعمل كاس زبيب ويحط حتة تلج ويتمزِّج في لعب الشطرنج مع جدُّو، في يوم قالوا له :

- على فكرة النهاردا مولد النبي .

وكان فيه حلويات وحاجات فرد بحماس :

- صحيح؟ ولا خدت بالي، كل سنة وانتو طيبين .

وخد كاس الزبيب بتاعه :

ـ طيب يبقى نشرب الكاس في صحة النبي .

ضحكوا ضحك، ما زعلوش، خدوها إنه غشيم، وأمي أكتر منه في الحاجات دي. أنا ما كنتش في الأوضة بس سعد جه يحكي لي وهو بيضحك، ونانا كمان، وفضلوا يحكوها القصة دي ويضحكوا عليها. أمي كانت بتتكلم مع نانا عن الطبيخ والحلويات واتعلِّمِت من نانا تطبخ الخبِّيزة، ما كانتش تعرفها، ونانا اتعلمت من أمي كيكة البلح، وانبسطِت منها وسمِّتها «كيكة أم ماري ». الحالة بينهم كانت كويسة، العلاقة كانت مثالية، ما كنتش واخدة بالي إنها حاجة نادرة وإن نانا وجدُّو عندهم تسامح ووسع فكر، ناس تانية مش أكيد يستقبلوا العلاقة دي بنفس الطريقة، وأمي وأبويا كذلك. نانا وجدُّو بيصلوا بانتظام والحقيقة كانوا متعودين مع سعد إن من صُغره مش ملتزم، مش بيصلِّي وهما استقروا إنه ما بيعملش أي حاجة صح من وجهة نظرهم في موضوع الدين، وفتحي رضوان كتب فقرة لطيفة عن سعد وتمرُّده في واحد من كتبه . من ناحيتي ما كانش عندي فكرة، وحصل إني صُمت رمضان مرة واحدة وما كررتهاش السنة اللي بعدها علشان جا لي صداع ونانا حبيبتي كانت بتقول :

ـ أصلك ما اتعودتيش من وانتِ صغيرة، إحنا متعودين نبتدي نصوم شوية بشوية واحنا أطفال، فالجسم يتعود .

تفسير إنساني كويس. باقول دا علشان أنا ما حستش بين العيلة وأصدقاء العيلة وقرايبهم بحاجة، ولا في الفيوم، بالعكس حسِّسوني إني مش غريبة وانهم تقبلوني، ولما كنت باغلط، كانوا بيضحكوا، «الخواجاية»، بطيبة ولطف وكانوا بيسألوني عن عوايدي وباسألهم عن عوايدهم. مها بنت جمال أخو سعد زي بنتي، كانت بتيجي لي كتير وخدنا على بعض، واتمرنت فيها على تربية العيال قبل ما أخلِّفك، ولما كبرت دخلِت فنون جميلة قسم نحت، وكانت حميمة قوي معايا تيجي لي بعد الكلية تحكي لي وتستشَيرني زي بنتي أو أختي الصغيرة .

لما خرجنا من السجن في 1959 حد قال لنا :

ـ تعالوا نقضي راس السنة عند مارسيل نصيري وميشيل كامل .

فبابا قال :

ـ آه، بس احنا مش معزومين .

ـ ما حدش معزوم، كل الشيوعيين كل سنة بيروحوا يحتفلوا عندهم، مراته بتعمل عزومة كبيرة .

قررنا نروح أنا وسعد، لبسنا ونزلنا ورحنا. مارسيل عندها بيت في الزمالك جميل بأُوَض واسعة كتيرة، هي سابت البيت من مدة، لكن البيت لسه موجود وحاورِّي لك بلكونتها. لقينا الباب مفتوح وفيه ناس على باسطة السلم من كتر الناس. كان فيه سفرجية رايحين جايين، دوَّرت على مارسيل لقيتها مشغولة تدير السفرة والطباخين. البيت مليان مليان لدرجة إن ما تقدريش تفوتي، تفضَلي

مركونة في زاوية، يا قاعدة يا واقفة ما تقدريش تغيري مكانك من كتر الناس بس مش فاكرة ان قابلت حد أعرفه كويس أو مهتمة به. ميشيل كامل جوز مارسيل من قادة فصيل من الشيوعيين وكتير منهم دلوقت في حزب «التجمع» وجريدة «الأهالي». ما كنتش واخدة بالي إن أعدادهم كبيرة أنا حسيت يومها إنهم أغلبية واحنا أقلية، كل دول شيوعيين أهه وأنا ما اعرفهمش . الساعة 12 فتحوا السفرة، كان فيه طبق طويل بسمكاية كبيرة جدًّا متغطية بالمايونيز ، أنا قلت في نفسي لو أبويا، كان زخرف المايونيز دي، ما كنش سابها كدا، دُقتها فوجئت ان السمكة مفصصة، شايلين الجلد والشوك والراس محطوطة زينة والمايونيز مش حلوة زي بتاعة أبويا. أكل حلو بس مش مريح، ناس كتير وما اعرفهمش فحكاية مش ممتعة ما رضيتش اروح تاني لمارسيل في راس السنة . لكن كنت باشوفها في اجتماعات مع ميشيل كامل في حواديت الوحدة بين المنظمات، كنت باروح مع سعد هو وميشيل يتناقشوا وانا اقعد مع مارسيل، وبكدا عرفت قصة ابنها بيبو ، عنده نوع من المشكلة الذهنية، مش دريان إيه خطر وإيه مش خطر ، ممكن بكل بساطة ينط من درابزين البلكونة، وبتيجي له فترات هياج ولازم على طول تاخد بالها منه. مارسيل كتبت لمعاهد في فرنسا للتأهيل وتحسين الوضع، وورَّتني الأدوات اللي جابتها له، مكعبات وأوراق ورسومات تساعده يتعلِّم الحروف والأرقام في البيت. أعجبت بمارسيل، عملت حتة مجهودٍ مع بيبو ، كانوا مرتبطين بالولد دا قوي مارسيل وميشيل، أظن الدكاترة قالوا لها مش ممكن تخلِّف تاني بسبب عيب في الدم .

لكن وجود مارسيل نصيري لغاية الوقت دا ـ في الستينات ـ في مصر وبالعلنية الكبيرة دي، يبقى لسه مفيش الحساسية بتاعة مين يهودي ومش يهودي، مين مسلم ومين مسيحي. هي يهودية وميشيل أعتقد مسيحي، أنا ما سألتش إيه الطريقة اللي اتجوزوا بيها، ما كنتش باهتم ساعتها بالتفاصيل دي ولا باخد بالي من الفروق في الأديان. في وقت ما سابوا مصر واستقروا في باريس، ما شفتهاش تاني إلا مرة في السبعينات جت زارتنا في كابينة ميامي في اسكندرية وكان معاها بيبو. ولكن لغاية 1967 ويمكن بعدها كمان ما كناش بنفكر في اليهود، كان فيه إسرائيل من ضمن الأعداء والقوى الاستعمارية .

ما حستش مثلًا في عيلة سعد ولا لحظة إنهم مش قابليني كمصرية ومسلمة في وسطيهم، حقيقي ما حستش إن فيه أي نوع من التعصب. مرة فوزية مرات أحمد حمروش وإحنا قاعدين في الأوبرا ابتدت تحكي لي :

ـ أحسن أصدقاءنا وأحسن جيراننا كانوا يهود .

وقعدت تحكي لي عن مش عارفة مين ومش عارفة إيه، والعلاقة بين عيلتها وعيلتهم :

ـ هما مشيوا ولكن لغاية ما مشيوا عمرنا ما اتخانقنا، عمرنا ما زعلنا من بعض وكنا بنتبادل حاجة البيت نستلف ونعزم .

عايزة تقول مفيش تعصب، ففوجئت ليه هي بتحكي لي الحكاية؟ يظهر واخدة في الاعتبار إن أنا من أصل يهودي وانا زي ما قلت الموضوع ما كانش واخد بُعد شخصي .

وقبلها في 1956 والعدوان الثلاثي، إحساس العداء كان ضد الأجانب عمومًا مش ضد إسرائيل بس أو اليهود بالذات، ضد إسرائيل وفرنسا وانجلترا علشان التلاتة هجموا علينا وانجلترا أكتر واحدة لأنها كانت محتلانا لغاية قريب. حصلت هوجة بمناسبة الحرب وانطردت فيها عدد من العائلات اليهودية، واتضح إن بعض الظباط شاركوا في الطرد واستولوا على شقق وأملاك المطرودين بأتمان رخيصة تعتبر ببلاش، يعني نوع من الاستيلاء والنهب، بس في نفس الوقت أنا ساعتها كنت في السجن، وما شفتش تعصب من إدارة السجن ولا المسجونات، كان اسمنا «شيوعية» وفينا عدد من اليهود بنكتب لعبد الناصر جوابات، وهو ما يعبرناش، عايزين نروح نحارب في القنال. وبعد ما خرجنا من السجن كان فيه مشاكل تانية كتيرة بالإضافة إلى إن انتو اتولدتوا وكنا مهتمين ناخد بالنا منكو ونكبركوا، والوضع دا استمر طول ما أبويا وأمي كانوا لسه هنا .

بعد 1967، ابتديت آخد بالي من الدعاية في إيطاليا، بلاش أقول يهودية حاقول إسرائيلية، كانت دعاية كبيرة . إحنا هنا في مصر كنا معلنين كدولة مصرية مقاطعة دولة إسرائيل، فبنقرا جرايدنا ونسمع أخبارنا ومفيش فرصة نتناقش ولا نتكلم مع أي حد. في إيطاليا ابتدوا يذيعوا أفلام عن اللي بيسموها الـ «shoa» ، مش عارفة جابوا منين الكلمة دي، أفلام بتحكي إن اليهود عانوا أيام الحرب ـ النازيين كانوا فظاع مع اليهود ـ وإن على مدى قرون طويلة اليهود عاشوا في «جيتوهات » معزولين في أحياء. وحكومات بولندا وروسيا والنمسا وبلاد أوروبية تانية ساهموا في اضطهاد اليهود، لأنهم يهود، ويهود كتير اضطروا يهربوا، مساكين. مسلسلات وأفلام وبرامج ما كانتش موجودة في 1964 لما سافرت أول مرة واتعرفنا على إيطاليا والعائلة. فوجئت إن أمي تأثرت، ومن وقت لوقت كانت بتقول لي «اتفرجت على الفيلم الفلاني، مساكين اليهود حصل لهم كذا وكذا» مش أبويا اللي بيفتح الموضوع، أمي هي اللي بتتكلم على سجيتها :

ـ شوفي حصل لهم إيه؟ ودلوقت العرب عاوزين يقتلوهم .

والله كانت بتقول لي كدا بالظبط، أنا ما كنتش بارضى اسمع كتير، موقفي واضح مع القضية العربية، ما باقولش «لا ماحصلش» ولكن باقول :

ـ اللي حصل لهم في الحرب ما يديهمش حق يروحوا ياخدوا بلد مش بلدهم .

ـ يروحوا فين؟ هما أصلًا من هناك .

ـ مش صحيح أصلًا من هناك، ولو صحيح، العرب موجودين وغلط اليهود يطردوهم ويقتلوهم .

المناقشات دي كانت صغيرة مش كبيرة، نقعد على ترابيزة السفرة نشرب قهوة وهي عاوزة تعرف أنا حاقول لها إيه، عندها الخصلة دي، تجر شَكَل عايزة تفهم، بس أنا ما كنتش بادِّيها مجال للمناقشة، كنت باقاطع أمي. دا غير إن ما كانش عندي الإحساس ولا واخدة بالي إن أبويا نفسه يهودي، كنت اسقط الموضوع دا كله من ذهني، أبويا كان بيسمع المناقشات دي من غير ما يتدخل .

هنا المجتمع كان بيتغير كمان، فوق الفاترينة فيه تمثال لواحدة ست نايمة عريانة، التمثال دا بتاع حماتي، نانا منيرة أم سعد من يوم ما اتجوزِت وعملوا عفش البيت والصالون، دايمًا محطوط في حتة ظاهرة. نانا ما كانتش بتخبِّيه بالعكس، قطعة فنية للديكور، تمثال حلو زينة بتحطه في الوش على الفاترينة أو البوفيه مكان الفازة الخضرا . مع مرور الزمن حبة بحبة ابتديت أحس إن اللي بييجوا ينضفوا بيزقوها ورا، أو يحطوا قماشة عليها. انتهى الأمر إن حتلاقيها دلوقت مستخبية ورا

حاجات تانية. حنخلِيها طبعًا الست العريانة دي، أنا مش حاشيلها، ولكن بالنسبة للي بينضف أصبحت غير لائقة، بقت تعمل ارتباك. حاجة ما كانتش موجودة أيام نانا وجدُّو .

كل حاجة يمكن بتروح وتيجي، ويمكن أهم حاجة تهمني دلوقت في قلبي هي رأي نبيل، حفيدي، لما يكبر، فى نونِّته دي، جدته، اللي هي أنا، حيكون أثره إيه لما يعرف في يوم من الأيام ويكبر إن نونِّته - وأنا باحبه قوي وهو بيحبني - لها علاقة بالشعب دا اللي بقينا نكرهه بسبب الممارسات اللي بيعملوها . قلت يمكن يبقى كويس إن اسيب له الأحداث زي ما حصلت لي، أسجلها. زمان لما كنت بافكَّر اكتب مذكراتي أو «السيرة الذاتية» زي ما بتسمُّوها، كنت بالاقي حاجات طريفة بس ما كنتش بالاقي حاجات مهمة، علشان عادة الواحد لما يكتب السيرة الذاتية لازم يكون أنجز حاجة. أنا اتصرفت في حياتي، دخلت في موضوعات وخرجت من موضوعات ولكن في نهاية الأمر مش شايفة التصرفات والأنشطة دي كانت مفيدة لأي حد. يمكن أهم حاجة عملتها إن حتى لو دخلت في سكك غلط وسكك مش غلط في النهاية اتصرفت دايمًا بإخلاص شديد، باواجه نفسي واللي باشوفه لازم يتعمل عملته من غير ما أفكر حيجرى لي إيه، ما كنتش حذرة. أعتقد كنت عفوية، رجعت اعمل اللي شايفاه صح، كل مرة. تصرفاتي كان فيها «passion» - عاطفة - مفيش برودة أو قلة اهتمام . نبيل حيكون عنده صدمة إن نونِّته دي اللي بتغني له بالطلياني وعاوزة دايمًا تودِّيه إيطاليا قوي قوي لما يعرف إن «أصول عائلتها يهودي، واليهود دول يستحقوا الكره » ، لكن أنا اللي عملته ما يستحقش إن يكرهني، بس هو دا الموضوع. فبدل ما يتصور حاجات أو يتقال له حاجات عني وما يعرفش يعمل بيها إيه، قلت مفيش مانع أحكي له كل حاجة. معنديش مانع إن نبيل لما أنا مش حاكون موجودة، لما هو يكبر يعمل الفانتازي بتاعته أو خياله بس أكون حكيت له اللي أقدر عليه .

أنا حاتوقف شوية عند أصل العائلات اللي أنا جاية منها، بالاقي ان كان فيه حركة كبيرة في العالم، مش بس في عيلة أبويا ولكن في عيلة أمي وحتى في عيلة سعد. إنتِ مرة كدا قلت «««nonna» جت مصر علشان الحب»، لكن الواحد لو يدقق يلاقي إن مش بس علشان الحب. احنا بقينا دلوقت خلاص سنة ألفين، أنا باتكلم عن أواخر 1800 وبداية 1900 بما فيها الحرب العالمية الأولى سنة 1914. الحرب العالمية الأولى كانت حاجة جديدة نسبيًّا، سموها «عالمية» علشان الحرب ما كانتش عالمية قبل كدا، أول مرة بلاد كتيرة تدخل في الموضوع، ويمكن دي كانت من بدايات الـ «Globalisation» - العولمة - اللي احنا غرقانين فيها دلوقت. عيلة أبويا القصة اللي نعرفها ابتدت في «أوديسا»، ما نعرفش قبل «أوديسا» العيلة كانت فين، ونعرف إن على مدى التاريخ فيه حركة لليهود بعضها بسبب الاضطهاد، بس مش كلها بسبب الاضطهاد، جدي مثلًا ساب «أوديسا » بطوله ولأسباب شخصية، وفي اسطمبول اتجوز ساره التركية، وساره نفسها واضح من عائلة هربت من اسبانيا إلى تركيا في القرون الوسطى بسبب الاضطهاد. جم مصر، ليه جم مصر؟ أبويا نقلًا عن جدي، ناس كتيرة كانت بتيجي مصر في الوقت دا، مصر كانت بلد الـ «Cuccagnia» - كلمة طلياني معناها الخير الكتير. كان فيه موجة هجرة لمصر، وناس كتيرة بييجوا علشان فيها شغل وممكن يعيشوا أحسن هنا. أنا باتساءل هل دا لأن ما كانش فيه حروب في مصر في الوقت دا؟ دا تفسيري أنا .

تفسيري جاي من كلام فتحي رضوان من بقه عن عيلته: أختين جم من القوقاز إلى مصر، بنات صغيرين عمرهم عشر سنين، كان في حروب مستمرة بين قبائل وجنسيات وأديان مختلفة ويمكن بالذات بين روسيا وتركيا، بين القيصر والسلطان. الجد الأبخازي لسعد حط بناته الصغيرين على حمار وهرَّبهم هم وأمهم وبعت معاهم خال وخادم و3 حمير وقال :

ـ هنا مفيش أمان، روحوا مصر لبيت حمدي في الزقازيق قولوا له على اسمي وهو حيساعدكم .

الخال سابهم في نص السكة ورجع يحارب، والأم ماتت في الطريق، وبالطريقة دي وصلوا مصر على حمار بمساعدة الخادم، دوَّروا على الناس اللي أبوهم قال عليهم والناس دي تبنوهم وسموهم صفية وحفيظة، كان فيه عائلة قاسم بيتجوزوا من عائلة حمدي على طول وجوزوا البنات. أم سعد حماتي نانا منيرة وخال سعد فتحي رضوان وبقية العيلة أحفاد بنت من البنتين دول. فتحي رضوان النهاردا أديب وسياسي كبير في مصر، الكلام اللي بيقوله إلى حدٍّ ما فيه أساس من العلم، حاول يسجل القصة زي ما سمعها مع شوية تحليل في مذكراته «خط العتبة» و«الخليج العاشق». فتحي رضوان اتولد في مصر ووصل لمنصب وزير في عدد من الوزارات يعني مكانة مرموقة حقيقي، وبيحكي قصة أهله كدا «ما كانش فيه أمان في بلدهم فحطوا البنات على حمار وبعتهم على مصر»، هو دا أظن اللي بيقولوا عليه «يهربوا بجلدهم». دي كانت سمعة مصر ـ بلد الأمن والرخاء ـ في عين الجد الكبير لفتحي رضوان في «أبخازيا»، وفي عين موسى وساره جدودي في اسطمبول وبعد كدا بشوية في عينين «لياندرا » أمي في قرية «ريبا» في إيطاليا .

إحنا ما نعرفش قصص كتير عن جدُّو كامل، مش عارفة ليه، ما كانش مختلط مع عيلته، كمِّل تعليمه وأصبح مدرس وبعدين ناظر وبعدين مفتش - كامل بك أحمد. أحلى ذكريات سعد وهم ساكنين في المدرسة لما كان أبوهم ناظر في المنيا. يمكن انتِ يا نادية لما تفضي شوية تبقي تحاولي تعرفي أكتر، إنتِ ابتديتِ من صغرك، قعدت تلعبي في أدراج تسريحة نانا ولقيتِ رزمة جوابات من صديق جدُّو كامل، كان اسمه نوفل؟ ما عندناش جوابات جدُّو لكن عندنا الرد عليها. نوفل بيخطب عروسة لجدُّو وبنعرف ازاي اتقدم لنانا منيرة، كنز والله، قعدنا نقراها ونفهمها ونتخيلها، وسعد كتب عنها مقال في «الأخبار» يوصف تفتُّح أبوه والرغبة في التحرر. كان فخور إن جدُّو كامل اشترط ان العروسة «ضروري تكون متعلمة وضروري يزورها يشوفها وتشوفه قبل ما يتجوزوا»، مش عايز ست أميَّة ومش عايز يتجوِّز عمياني، ولو انا فاكرة كويس فعلًا راح زارهم وصديقه نصحه ياخد معاه فاكهة هدية. الكلام دا حوالين ثورة 1919. جدُّو كامل عنده أحفاد كتير ما شاء الله، مها ومحمد ولميس وليلى وأحمد وحسام وعبير وانتِ ودينا، وولادهم، ممكن أي حد فيهم يعمل بحث عن عائلة جدُّو كامل، زي فتحي رضوان وبعديه قاسم مراد ما عمل عن حفيظة وصفية اللي جايين من «أبخازيا»، بفضل قاسم مراد فهمنا بعض الصور اللي لقيناها في البيت هنا. اللي نعرفه إن جدُّو كامل اختلف مع أهله وهو شاب وساب بني سويف وراحوا الشواشنة في الفيوم. لما قرب من المعاش وهب نفسه للزراعة، باع أرض الـ30 فدان في الشواشنة واشترى العزبة 100 فدان في سيلا «أرض الشواشنة ماشية ومش طالبة مجهود، إنما أرض سيلا فيها جزء بور وممكن استصلاحها» كان عنده روح الاستصلاح وفي نفس الوقت يتملك مِيت فدان مش تلاتين. جاب معاه عم رياض و2 فلاحين من الشواشنة لسيلا وفي سيلا انضم له خليل. عم رياض وعم عبد الله وعشري وخليل، الجيل الأول اللي ابتدى عزبة سيلا مع جدُّو وفضلوا فيها لغاية آخر عمرهم. جدو شغل رياض غفير وبقى عنده سلاح، بندقية مرخصة وبالطو كاكي صوف يلبسه فوق الجلابية، له نظام يصحى بالليل من وقت لوقت، يلف ويدور حوالين العزبة بالبندقية ويتأكد إن كله مظبوط، على أساس ما تحصلش سرقة في الجرن أو في كارة البهايم. كانوا بيحددوا إن عم رياض أصله من العرب، زي خليل، دايمًا يفرَّقوا كويس في الفلاحين مين عرب ومين فلاح، عرب في الحالة دي تقريبًا معناها «بدو»، هل جم من زمان من الصحرا واستوطنوا في المنطقة يرعوا الغنم؟ فيه «عرب» كتير حوالين بني سويف وسيلا مش بعيدة عن بني سويف. أما عشري وعم عبد الله ففلاحين مش «عرب»، عم عبد الله مزارع عنده خبرة في كل المواسم ودورة المحاصيل والأرض والحرت والآفات والسبخ، وعشري متخصص في ريِّ الأرض، يفتح المَيَّة على الأحواض بالترتيب والمَيَّة تتوزع مظبوط وكل حوض يستفيد أحسن استفادة. اكتشاف تاني لي إن نصيب الأرض من مَيَّة الري بتتوزن بالوقت مش بالكمية، يعني ربع ساعة مَيَّة أو نص يوم أو يوم بحاله حسب مساحة الأرض، لما ييجي دورك تفتحي مية الترعة على أرضك انتِ وشطارتك أثناء الوقت المخصص لك لو تعرفي توصلي كفاية لكل الأرض، فيها شيء من الهندسة وعشري كان مهندس ري بالخبرة، راجل خجول وما اتعرفتش على مراته وولاده، أصغر واحد في المجموعة اللي أسست العزبة مع جدُّو. خليل ما خلفش وعم رياض علِّم بناته زي ما حكيت، لكن الملاحظة إن جيل الولاد كله ساب الزراعة، ولاد العرب وولاد الفلاحين. حمدي أبو رياض اتدروش وبنى جامع قدام سور البيت في سيلا، صوته مش حلو أبدًا لكن يدَّن ضروري بالطريقة السئيلة بتاعة اليومين دول في المكرفون بعلو حسِّه، ولما يتكلم ما يبتسمش ويبص الناحية التانية ويلوي بوزه، وأحمد راح ليبيا ومصطفى اشتغل في التموين وعلي ابن زينب في المقاولات ورجب يشرف على الأرض لكن ما يزرعش

بنفسه وأشرف أبو حسين ومروان ووليد كلهم، يمكن مش فاضل في الأرض إلا رمضان أخوهم وغصب عنه .

أمي «لياندرا» اتولدت في قرية «ريبا» في إيطاليا، وراحت المدرسة لغاية سنة تالتة ابتدائي وسابت لأن كان لازم تشتغل في الفرن مع ابوها ومعندهاش صبر للمذاكرة، يا دوبك اتعلمت الكتابة والقراية لكن العائلة كلها فِضلت على اتصال عبر السنين بفضل جواباتها الفيَّاضة. كتبت جوابات كتير طول حياتها فيها قصصها وقصص عائلتها وقصص أبويا وعيلته تسمعها وتحكيها في الجوابات. بافتكر أمي «صوت وصورة» وهي بتحكي لي عن أصل عِيلتها وهي حكتها مش مرة واحدة، لا، مِيت مرة، وأنا كنت باسمعها كل مرة. الأسطورة بتقول إن «كليتو كارداريلي» كان ابن راجل غني عنده علبة خشب جميلة «piena di scodi d’oro» - مليانة فلوس دهب عليها صورة نابليون. العلبة دي جوَّاها أوراق ملكية أرض ومزارع كروم حوالين القرية. أبو «كليتو» مات قبل ما «كليتو» يبلغ سن الرشد ويقدر يورث أملاك ابوه، أم «كليتو» خافت من الحرامية وراحت لقسيس الكنيسة شالت عنده أوراق الملكية والفلوس الدهب، ووصته يدي العلبة لابنها لما يكبر. «كليتو» راح يحارب، رجع من الحرب لقى أمه ماتت فراح عند القسيس .

- إدِّيني أملاكي .

- أنا ما اخدتش حاجة من أمك، عندك إثبات؟

كان قسيس الكنيسة اللي بيصلوا فيها، يعرفوه ويعرفهم، شخص مضمون يشيلوا عنده أمانة، ما كانش فيه بنوك مثلًا. أهل «ريبا» مؤمنين وكلهم متدينين والقساوسة عندهم نفوذ كبير على الناس و«ريبا» كانت من القرى المساندة للفاتيكان ضد الملك وضد «جاريبالدي»، و«كليتو» من «القمصان الحمر» بيتقال عليه «جاريبالدينو»، فمسألة إن القسيس أنكر انه خد الأوراق والفلوس من أمه ممكن له علاقة إن القسيس بيعتبره اشتراكي ضد الكنيسة. جيش «جاريبالدي» كان له ميول اشتراكية، بمعنى جيش شعبي كله فلاحين بينضموا له باختيارهم ومش تابع لإمارة أو للبابا أو لإمبراطور. ما اعتقدش كان فيه حزب اشتراكي لسه، مجرد إن «جاريبالدي» مستقل بالجيش بتاعه مش بيطيع حد. على أي حال أمي بتؤكد إن «كليتو» كان راجل مؤمن ومواظب على الكنيسة لغاية اليومِ اللي القسيس خان الأمانة، من يومها بِعد عن الكنيسة وقرر مش حيدخلها تاني ولا حتى علشان يصلِّي يوم الحد .

وبكدا «كليتو» لقى نفسه من غير فلوس، كان اكتسب مهنة الفرن في الجيش ففكَّر يشتغل فران، وراح خطب شابة اسمها «فيتوريا» من عيلة متوسطة. العادة عند الطلاينة إن الأب يحوش مهر فلوس دهب أو أرض ولما بنته تيجي تتجوز تدِّي مهر هدية لجوزها. «كليتو» أخد المهر وبنى به فرن يخبز فيه عيش، وجابوا 3 أولاد: «جوردانو» و«نينو» و«أوليفو»، و3 بنات: «ألبينا» و«جيجيتا» و«لياندرا» - «لياندرا» الصغيرة هي أمي واتولدت سنة 1902. «كليتو» كان شخص ظريف وشكله جميل وبيحب الحياة الحلوة، و«فيتوريا» أمها ست مؤمنة قريبة من الكنيسة وحساسة في موضوع الأديان. «كليتو» بيروح الكانتين - بار قروي بسيط الرجالة تروح تشرب فيه نبيت بعد الشغل، تعبان وجسمه سخن من الفرن وفي الكانتين فيه الـ «prostitutes» - بائعات الهوى - بتوع

البلد، وجدِّتي تِغير وتتخانق معاه. الخناق اليومي أصبح عادة استمرت وبقت أوحش وأوحش مع الوقت، يرجع البيت نص سكران و«فيتوريا» مش قادرة تمسك نفسها وينتهي الأمر إنه يضربها وهي تعيَّط وتصرخ، والعيال مش قادرين يتدخلوا لأن «كليتو» أصبح معندوش مانع يضرب ولاده كمان وهو سكران، اتعودوا يسكتوا ويستنوا خايفين. أمي بتحكي إن جدتي عمرها ما قدرت تسكت ولا تقبل الوضع دا أبدًا .

طفولتها كانت مليانة شغل وفقر، بالرغم من كدا ذكريات أمي الريفية مبهجة، بتموت في البيض النَّي، تصحى الصبح بدري تتسحب لعشة الفراخ وتخرم القشرة وتشفطها، تسرق بيضتين تلاتة أربعة لأن في موسم البيض ما حدش بياخد باله. وفي موسم البرتقان أمها تشتري برتقانة واحدة بالعدد لكل عيِّل، توكلِّهم البرتقانة بقشرتها ومعاها حتة عيش وقيراطين نبيت، فطار الصبح على الريق يدفيهم في برد الشتا ويفوَّقهم ويدِّيهم انتعاشة تحضَّرهم للشغل. أمي كانت بتحن للفطار دا في مصر، ولما ينزل البرتقان البلدي اللي بدمه كانت تقطم البرتقانة من غير ما تقشرها وتقول لي «حلوة، دُوقي، دُوقي». في موسم الطماطم أمها تجيب العيش البايت وتحط عليه قوطة تتبله ملح وفلفل وزيت زيتون ونقطة خل وتديه للعيال تصبيرة أثناء النهار، الضهر «كليتو» يسيب الفرن يخطف نص ساعة ييجي ياكل لقمة خفيفة زي دي في البيت، بتشوفيني لغاية دلوقت من وقت لوقت آكل العيش البلدي القديم بطريقة أمي. اقتصاديًّا الحالة كانت وحشة، أيام صعبة، مش مرتاحين، إيطاليا كلها كانت في فقر كبير نتيجة الحروب المتوالية، وعلشان كدا جدِّي «كليتو» ربَّى أرانب، يدبحهم ويطبخهم في الفرن عنده، علشان كدا جدِّتي «فيتوريا» ما كانتش بتطيق تاكل أرنب، بتقول بيفكرها بالعيِّل اللي لسه مولود وما تاكلش منه أبدًا، واضح إن جدتي كانت من عيلة «refined» - راقية شوية - ويمكن دا السبب إنها كانت بترفض تاكل الأرانب باعتبارها لحمة فقرا. كانوا بياكلوا «بولنتا» كتير، أرخص حتى من المكرونة. بعد الشغل «كليتو» يعمل حلة «بولنتا» كبيرة ويصبَّها على خشب الترابيزة وبمعلقة خشب يفردها والأم تكون عملت صلصة الطماطم، تصبَّها في وسط «البولنتا» ويقعدوا دايرن داير الترابيزة ياخدوا الصلصة بالمعلقة من النص يخلطوها بـ«البولنتا» على الخشب مباشرة وياكلوا. أمي بتحكي لي وانا باتخيل المنظر دا وانا صغيرة، كانت صورة غريبة وكان نفسي آكل معاهم .

ما كانش فيه مواسير مَيَّة، المية توصل البيوت في قنوات مكشوفة، يصحوا يلاقوا المية اتجمدت في الشتا، يولعوا وابور زي وابور السبَّاكين ويسيَّحوا المية علشان تنزل في الحنفية ويعرفوا يحضَّروا عجين للفرن. مفيش مجاري، الصرف بير تحت البيت، زي غرف التفتيش في سيلا عندنا في الفيوم، كل كام شهر البلدية تبعت رجالة يفتحوا البير يكسحوا وينضفوا، والروايح فظيعة والعيال يطفشوا من البيت طول اليوم .

جدي كان بيسمي أمي «l'asino della familia» - حمار الأسرة - كانت حمار شغل، كان عندهم قيزان كبير والعجينة تقيلة أمي تدخل دراعاتها لغاية فوق الكوع وتشيل العجين وتقلبه وتشيله وترجعه، ولازم تعجن مدة طويلة، هي الوحيدة في اخواتها صبيان وبنات اللي كان عندها القدرة تستحمل الشغلانة دي. لما العيش يِستوي تخرج هي واخوها «جوردانو» بالعيش على راسهم الصبح بدري في عز الشتا يوزعوه على البيوت والأرض عليها طبقة جليد من الندى، والشوارع

طالعة نازلة فتتزحلق وتقع وتتهبد على ضهرها وتقوم تلم العيش. أخوها كان مهرِّج يقول نكت على طول ويقلد أهل البلد، وهي كانت سريعة الضحك فكان كله مرح في مرح كانت بتحبُّه قوي .

في الصيف العيال يروحوا البحر مع بعض يوم، ينزلوا من الجبل ويقضوا النهار على الشاطئ ويرجعوا. ما كانش فيه عربيات و«ريبا» قرية فوق الجبل، ينزلوا ازاي من على الجبل؟ مشروع كبير بالكارتَّة اللي بيجرَّها حصان، واحد عنده كارتَّة وشغلته يطلَّع وينزِّل الناس والبضائع من وإلى القرية. الفجر يركبوا الكارتَّة وتنزل بيهم والطريق كان بياخد ساعات نزول من «ريبا» إلى «جروتاماري»، عقبال ما يوصلوا تكون الشمس طلعت. يجروا على الرمل من غير شماسي ومن غير كراسي يخشوا في البحر بهدومهم مفيش مايوهات. ما كانش بيروح معاهم أهل، سواق الكارتَّة هو المسؤول عن «مشروع البحر» الموسمي لأطفال «ريبا» ومعاهم عيش وفاكهة. تصوري لو بياخد ساعتين تلاتة علشان ينزلوا بالكارتَّة، يبقى مشوار الطلوع كام ساعة؟ بعد يوم في الشمس والبحر يرجعوا البيت مدغدغين ميِّتين من التعب والجوع، أمهم توكلهم مكرونة بالصلصة وتنيمهم وتفكرهم «بكره شغل». يوم شم النسيم هنا، مرة في السنة الكارتَّات من الصبح بدري تطلع بالأولاد والبنات راكبين دايرن داير ومدلدلين رجليهم والستات قاعدين في الوسط متربعين بيغنوا ويطبلوا ويرقصوا، يفوتوا تحت بيتنا في شارع نعيم في أبو العلا وأمي تطلع تتفرج عليهم من البلكونة وتفتكر رحلة البحر في «ريبا ».

«كليتو» الأب انضم للجيش الإيطالي تاني لما قامت الحرب العالمية الأولى، خدُّوه لخبرته كعسكري قديم، «لياندرا» كان عندها 12 سنة واشتغلت هي وامها واخواتها في الفرن يخبزوا في غيابه، كله

صعب وأصعب أيام الحرب. شباب القرية رجع من الجبهة جايب أغاني جديدة اتعلموها من بعض، لا كان في راديو ولا تلفزيون والأغاني كانت بتتنقل عن طريق السفر. يجتمعوا في الميدان تحت الشبابيك ويغنُّوا «serenata» ـ نوع من الغزل للبنات اللي عايشين جُوه البيوت. واحد من الشباب دول حط عينه على «لياندرا» وهي بتوزع العيش وابتدى يغني لها، والمفروض هي ما تردش عليه، عيب، بنت مؤدبة ما بتردش عالولاد، بس أعجبت بيه. قال لها عاوز يتجوزها وجه يطلبها من البيت، أبوها رفض رفض بات «سُمعته مش كويسة، عنده علاقات بسِتات سمعتهم وحشة، جت له أمراض تناسلية أثناء الحرب». «لياندرا » ما رضيتش تصدَّق وافتكرته مش عاوزها تتجوز علشان محتاجها في الفرن، فاستمرت في العلاقة من ورا ضهر أمها وأبوها . الولد يغني لها تحت الشباك وأمها تقفشها وتقول لابوها وابوها يضربها علقة سخنة وهي تعترض :

ـ أنا عندي أكتر من 21 سنة واقدر أعمل زي ما أنا عاوزة .

اتفق الولد مع «لياندرا» يهربوا يروحوا مصر مع بعض وقالت لابوها وامها :

ـ إن كنتم عاوزيني أسيب الولد دا وما اتجوزوش ابعتوني عند خالتي اللي في مصر .

في مصر كان فيه قريبتهم أو بلدياتهم، هاجرت هي وجوزها عايشين في القاهرة، وفعلًا «كليتو» و «فيتوريا» كتبوا للخالة جواب وبعد شهور وصل الرد «آه مستعدة أستقبل «لياندرا»، فيه مكان عندنا في البيت وانا حاخد بالي منها، ابعتوها». الناس اللي بيوصلوا مصر من إيطاليا بيقعدوا مع حد بلدياتهم لغاية ما يلاقوا لهم شغل ويسكِّنوهم. «كليتو » كان حزين وهو بيودَّع بنته بيقول «بافقد أحسن ولادي في شغل الفرن ».

لكن «لياندرا» سافرت سعيدة. وصلوها المحطة وحطوا في إيدها اللي فاضل معاهم بعد ما اشتروا لها تذكرة القطر والباخرة وقالوا لها لما توصلي إدِّي الفلوس دي للخالة، ركبوها القطر اللي رايح «باري» وسلموا عليها وعيطوا، أمي فضلت للآخر تحكي لي الحكاية دي لأنها ما شافتهمش تاني، لما زارت إيطاليا بعد عشرين تلاتين سنة أبوها وأمها كانوا ماتوا. ما تعبتش في مصر لكن ندمت على الحزن اللي سببته لأمها ولأبوها، ما كانوش عايزينها تمشي، وهي كانت عاوزة تشوف بلاد جديدة وتتجوِّز وكانت بتحب الشاب دا، تحكي لي وتكرر لي آخر منظر: أهلها على رصيف المحطة وهي جُوه القطر بتبعد .

وصلت «باري» وقابلت الشاب وركبوا المركب مع بعض، لأول مرة تكون لوحدها، أول مرة تخرج بره «ريبا»، مستقلة ومليانة حماس وحتنتصر وحتشتري الدنيا كلها مع إن معاها فلوس قليلة. من أول ليلة على المركب لاحظت إن حبيبها بيلف ويدور مع الستات التانيين، سكتت اليومين تلاتة اللي كان لازم تستحملهم في البحر، لكن قررت بينها وبين نفسها إن مش حتشوف وشُّه تاني. ما رضيتش حتى تسلِّم على الولد دا ولا تعاتبه ولا حاجة خالص وفي الطريق من اسكندرية إلى مصر، قصدي أقول القاهرة، اعترفت للخالة بالحقيقة :

ـ لكن الشخص دا أنا مش عايزة اشوف وشُّه تاني .

الولد فضل يلف ويدور لغاية ما عرف طريقها وراح لها بيت الخالة يترجَّى ويقول أنا ما عملتش حاجة وانا عاوز اتجوزها ويعيط، لكن الخالة فضلت تكرر :

ـ مفيش حد بالاسم دا، هي مش موجودة هنا .

جه تلات مرات وبعد كدا اختفى وانتهى أمره على كدا .

يظهر إن رحلة المركب وهواء البحر فتح نفس «لياندرا» على الأكل وجالها «boulimie» ـ تاكل وما يكفيهاش ـ الصبح الخالة تجيب لها رغيف فينو بحاله وكباية لبن، و«لياندرا» تسأسأ العيش وتشرب اللبن كله ولسه عاوزة كمان «باكل بشراهة كل شيء وأي شيء وما باشبعش» فبعد أسبوع أو عشر أيام الخالة بصت لها كدا وهي بتاكل وقالت :

ـ أظن لازم نلاقي لك شغل .

باتصوَّر أمي شابة ولسه واصلة بلد جديد، صغيرة ومليانة حيوية جاية من قرية جَوَّها نضيف ومتعودة على الشغل الكتير صحتها كويسة، مش ممكن تقعد من غير ما تعمل حاجة. الخالة دخلتها عند أسرة كمربية لبنت صغيرة اسمها «جينيت » ، عِيلة ساكنة في واحدة من العمارات اللي على اليمين في نهاية ميدان باب اللوق وانتِ جاية من ميدان التحرير، عمارتين تلاتة في حدود خمس إدوار بأسانسير، عمارات كويسة. أبو «جينيت» كان رئيس قسم في محلات «شملا»، أغنياء مبسوطين، بيتهم حلو مليان أُوَض ومليان عفش، عندهم سفرجي يخدم على السفرة وطباخ يطبخ في المطبخ، و«لياندرا» بقت الدادة . أم «جينيت» لقت «لياندرا» اسم طويل وسمتها «ليا» كاختصار، وسكِّنتها عندهم. أمي كان عندها يوم واحد في الأسبوع أجازة تروح تزور الخالة. «جينيت» الصغيرة معندهاش شهية و«لياندرا » تفننت علشان توكِّلها، عملت لها الـ «zabaione» ـ بيض مربوب بالسكر ـ وجبة مغذية تعرفها من أمها في شتا «ريبا»، تفصل صفارين بيضة في فنجان صيني تحط عليه تلات اربع معالق سكر سنترفيش، وبالمعلقة الصغيرة تِرُب تِرُب تِرُب، السكر يسيح والبيض يسخن وينفش ويتملي هوا ويصبح كريمة مسكرة ومغذية ومقوية. «لياندرا» تمثل لها وتحكي لها حكايات وتغني لها وترقص لها وتعمل لها أراجوز لحد ما البنت تبص لفوق وبُقها يتفتح وهوب تحط لها معلقة الأكل في بُقها. ما تعرفش أي لغة غير الطلياني فكانت بتتكلم طلياني فرنساوي مع أم «جينيت» «أشيل الحرف الأخير في الكلمة الطلياني فتبقى فرنساوي وخلاص» الباب بالطلياني «la porta» تقولها «la porte» ، لكن مش كل الكلمات الطلياني تشيلي الحرف الأخير تبقى فرنساوي، المقشة بالطلياني «la scopa» وبلغة «لياندرا » تبقى «la scope» لكن ملهاش معنى بالفرنساوي، الروح الحلوة دي خلِّت أم «جينيت» في غاية السعادة. حالتها استقرت شوية وابتدت تاخد على البلد، واتفقت مع واحد ييجي بعربية حنطور كل يوم الصبح ياخدها هي و«جينيت» من شارع المدابغ اللي هو شارع شريف دلوقت على شارع فؤاد لحد جنينة الأزبكية. جنينة الأزبكية ساعتها كانت أكبر من دلوقت تلات اربع مرات، مليانة أشجار ومساحات كبيرة وأحواض زهور معتنى بها، وفي وسط الجنينة كان في كشك حديد بيسمُّوه كشك المزيكا لأن يوم جمعة الساعة 10 الصبح فرقة موسيقى البوليس بتقدم فيه عرض. فرقة البوليس المصرية كانت

فرقة على مستوى بتشترك كل سنة في مهرجان «باري» الدولي لموسيقى فرق البوليس وحصلت على الجايزة الأولى عدد من المرات .

«لياندرا» ما كانتش الدادة الوحيدة اللي بتيجي تفسَّح الأطفال في جنينة الأزبكية، كان فيه مجموعة مربيات بييجوا بالعيال وعملت أصحاب، يحكوا لبعض عن أحوالهم، ما يزهقوش والعيال تلعب ساعتين أو تلاتة، ويروَّحوا البيت يتغدُّوا. دادة منهم جاية مصر هربانة مع أهلها من منطقة أرمينيا في تركيا، وحكت لـ«لياندرا» ازاي الأتراك خشوا بيوتهم موِّتوا الناس عواجيز وصغيرين وستات، يدوَّروا على الستات حوامل يقتلوهم من بطنهم علشان يموِّتوا الأم والجنين. يفصلوا الرؤوس ويقطعوا صدور الستات، نوع من التنظيف العرقي زي ما بيسمُّوه، فظائع. ممكن كان فيه شيء من المبالغة أو ممكن مفيش مبالغة، لأن الدادة الأرمنية دي شافت بعينها المجازر هي وعِيلتها. المربيات دول كانوا شابات في سن أمي في العشرينات فعلى طول تبتدي تجارب البنات ومحاولات الجواز والارتباط .

*

«إيليا» أبويا اتولد في القاهرة سنة 1909 ، أعتقد في منطقة حارة اليهود، مكتوب في شهادة ميلاده محل الميلاد: درب الجديد. ما كانش عنده القدرة على حكي الحواديت زي أمي، ولا بالصوت ولا بالكتابة، لكن كان بيحب الحواديت بَرضُه: أبوه، يعني جدِّي «موسى روزنتال » اتولد في «أوديسا» ابن خياط، واضح مستريح نسبيًّا لأنه فاتح بيته بنسيون أو لوكاندة، أمه ماتت لما كان عنده تلات سنين، مرات أبوه كانت وحشة معاه فلما وصل لسن 18 سنة وقدر يتخلَّص من البيئة الأسرية بتاعة مرات أبوه خد بعضه وهرب راح اسطمبول، أظن بالمركب، وهناك اتجوز واحدة اسمها ساره، يهودية تركية مستقرة ومقيمة هناك. موسى وساره جم القاهرة واستقروا فيها ومعاهم طفل عمره سنتين، عمِّي «بنيامين»، الكلام دا في أوائل القرن حوالي 1900. موسى اشتغل قمصنجي، خد محل ترزي صغير في الموسكي في حارة اليهود وكان بيفصَّل جلاليب افرنجي بيضة بالياقة والإسوِرة وزرار في الكمام زي القمصان الأفرنجي، الجلابية المصري الفلاحي عندنا مختلفة شوية، الكُمام واسعة من تحت عند الإيدين وفيها حردة على الرقبة وشق من قدام علشان يوصلوا بإيديهم لجيب داخلي في الصديري، بيسموها السيَّالة. موسى وساره ما كانوش أغنيا أبدًا، عاشوا يا دوبك على شغل موسى. أنا باستنتج من كلام أبويا إن موسى كان راجل طيب، اللي بيحكوه عليه يدل على إنه راجل بيعمل شغله ويكسب اللي يكسبه ويرجع البيت، بيأكِّل عِيلته وخلاص، معندوش طموحات ولا بيفكر في تسالي، وما عملش علاقات اجتماعية معينة .

أما «ساره روزنتال» مراته، جدِّتي أم أبويا فشخصية خرافية شوية، عكس موسى، تِحضر الجوازات والمآتم، حد يموت تلم من الناس لمساعدة الأسرة وتوفق جوازات وخشت في أحوال الحتة اللي عايشة فيها، وفي فترة قصيرة بقت زي شيخ حارة، مع إنهم لما جُم مصر ما كانوش يعرفوا حد خالص، هل كانت زي خاطبة مثلًا؟ ما اعرفش لو كانوا بيدُّوها هدايا نظير النشاطات دي. ساره اتاخدت بحب السينما اللي دخلت مصر في الوقت دا، كانت بتروح بانتظام تتفرج على القصص مع صاحبتها «لوسي» الداية أو المولِّدة. باتصور إن ساره كانت أمية، مش بتقرا ومش بتكتب، ولسه الراديو مكانش ظهر، السينما دخلت مصر قبل الراديو، فكل ما ييجي فيلم جديد، الستتين دول ـ ساره

و«لوسي» ـ ياخدوا بعضهم ويروحوا السينما، واعتقد إن أبويا ورث حب السينما من أمه. ساره جابت خمس صبيان، أربعة منهم اتولدوا في مصر منهم أبويا اللي اتولد سنة 1909. صحيح موسى كان بيكسب على القد ولكن ساره اهتمت بتعليم الولاد الخمسة. علّمت الولاد في مدرسة خيرية اسمها «La Goutte de Lait» ـ «نقطة اللبن». «نقطة اللبن » مؤسسة خيرية تابعة للجالية اليهودية، لها فروع في بلاد كتيرة في العالم وبتقدم خدمات لليهود اللي على قدُّهم، نوع من النشاط الخيري وسُلطة للأغنياء. هنا في مصر كان فيه عائلات غنية من اليهود زي عائلات موصيري وقطاوي، قطاوي كان وزير في وزارة من وزارات السلطان، وفي فيلم يوسف شاهين «اسكندرية ليه؟» جه مشهد عنه والمسرحي المشهور «البيه»، يوسف بك وهبي هو اللي مثّل دور قطاوي باشا داخل العربية مع بنته وقال لها «أنا حاهاجر، حاروح جنوب أفريقيا ومن هناك حاروح أورشليم» وبنته ـ نجلاء فتحي ـ كانت بتحب شاب مصري تقدمي شيوعي ـ أحمد زكي ـ ردت على أبوها «أنا عاوزة أقعد هنا مش عاوزة أمشى من مصر» الحوار الدقيق ممكن نراجعه من الفيلم. كان فيه مستشفى يهودي مشهور بقى دلوقت مستشفى القوات المسلحة في غمرة، مين كان بيصرف على المستشفى دي؟ مؤسسة «نقطة اللبن» اللي بيموِّلها الأغنياء اليهود زي قطاوي، ومن ضمن المشاريع الخيرية عملوا «مدرسة نقطة اللبن» وكانت مجانية وبياخدوا اليهود الفقرا من الروضة لغاية الابتدائي، ولاد ساره بما فيهم أبويا اتعلموا هناك ودرسوا بالفرنساوي .

ساره كانت بتحب أبويا وبتقول «إيليا» دا أطيب ولادي» والحقيقة ان من صغره كان عنده ميول للتأمل وميول فنية. كان عايز يشتغل في حاجة فيها فن، رسم، موسيقى، حاجات من النوع دا فلما كبر شوية موسى أبوه قاله :

ـ أنا شايف إن طبعك مناسب للمهنة بتاعتنا، قمصنجي، إنت تنفع تقعد مدة طويلة على المكنة تفصل عندك الصبر .

فأبويا قال :

ـ لا أنا بالذات المهنة دي مش عاوز اشتغل فيها .

فاقترح عليه يتعلِّم كهربا. الكهربا كانت حاجة جديدة دخلت مع شركة «ماركوني» الانجليزية في بداية القرن، على اسم الراجل اللي اخترع الراديو والتلغراف. شُغل الإضاءة في البيوت بيحتاج شيء من الحس الفني والذوق في وضع الأباجورات واللمض، «إيليا» قال لأبوه :

ـ أتعلِّم كهربا .

اشتغل صبي في محل كهربائي معرفة جدتي ساره. ما اكتفاش، أنا حكيت لك إن فيما بعد سجل نفسه في كورس لتعليم الكهربا بالمراسلة من باريس، الكورسات كانت تجي له بالبوسطة، يدرس ويحل التمرينات والمسائل ويبعتها بالبوسطة لمدة سنتين وفي الآخر امتحن ونجح وخد شهادة .

موسى الترزي عِيي، اشتكى من صداع وطول الوقت تعبان، بيقولوا جا له ورم في المخ، سرطان، ويمكن دا من الأسباب يا عيني إن بعد الشغل كان بيحب يقعد في البيت ويرتاح وما كانش عنده حيوية. ابتدى يهمل الدكان ويقعد في البيت ومات صغير نسبيًّا وبِكدا استقر الفقر في البيت. الولاد ابتدوا يشتغلوا يجيبوا قرشين، كل أول شهر يستلموا الماهية ويسلّموها لساره وهي تدّيهم حاجة لمصاريفهم الشخصية والمواصلات. من الشغلانات اللي أخدها «إيليا» في شبابه كانت في قصر الملك في بلبيس لما كانوا بيدخّلوا الكهربا في القصر، وفيه صورة «إيليا» على موتوسيكل في العلبة اللي جنب السواق، شاب صغير عنده 16 سنة في وسط فريق تأسيس شبكة كهربا بنها، وبعدين خد شغل في جنينة الأزبكية، أبويا كان شاب رياضي صغير يطلع على السلم ويركّب السُّلوك واللمض على الشجر ودايرن داير السور .

*

في يوم من الأيام «ليياندرا» كانت قاعدة في جنينة الأزبكية مع الدادوات صاحباتها، والبنت «جينيت» الصغيرة بتلعب في الرمل على الأرض مع الأطفال التانيين، «ليياندرا» اتلفتت بالصدفة وعينيها وقعت على شجرة قاعد عليها شاب جميل حواجبه تخينة وشعره بني مموِّج تقيل لدرجة إنه واقف كدا فوق راسه، وبيبص لها، فهي كمان بصت له واتسحرت، ومن ساعتها ماعرفتش تشيل عينها من عليه. أبويا حكى لي نفس الشيء تقريبًا، وهو بيوصل سلوك الكهربا وبيركب اللمض فوق الشجرة، عينه وقعت على دكة تحت الشجرة، ولقى بنت جميلة قاعدة عليها، مش فاكر وشّها إنما فاكر شعرها، غزير ومموَّج كستنائي، مليان شعر حوالين راسها، ففضل يِبُص لها يِبُص لها يِبُص لها وهو مسحور .

وفضلوا مدة طويلة يبصوا لبعض .

ودا كان الحب من أول نظرة .

حبُّوا بعض من شعرهم، هو شعره لفوق وهي شعرها بالعرض .

كل يوم «ليياندرا» تروح الأزبكية تبحث عن «إيليا»، و«إيليا» يطلع الشجرة اللي هي قاعدة تحتها ويتظاهر إنه بيشتغل، ويبصوا لبعض لغاية ما لقاها لوحدها من غير صاحباتها فاتشجع ونزل من على الشجرة وحاول يقول لها :

ـ أنا اسمي «إيليا ».

وهي تقول :

- أنا اسمي «ليَاندرا ».

كل يوم بالطريقة دي، يا عيني «جينيت» لما كانت بتشوف الشاب «إيليا» تعيَّط علشان عارفة إن «لياندرا» حتبطَّل تلعب معاها، والدادوات صاحبات أمي كانوا بيختفوا .«Vedevo il sole davanti ai occhi miei» - أمي بتقول لي «باشوف الشمس قدام عينيا». شعر أمي كستنائي مموج كثيف، وأبويا علشان يثبت لي إن شعرها كان حاجة مخصوصة بيحكي إن الأمشاط العضم اللي بيجيبها لها كانت بتتكسر وهي بتتسرح فعمل لها مشط ألومونيوم، أبويا اللي عمل المشط بإيده، بَرَاه سن سن، كان شاطر في الأعمال اليدوية. المشط دا أنا نفسي استعملته مدة طويلة، وكان موجود في البيت دايمًا، أكيد خدُّوه معاهم إيطاليا لما مشيوا .

أمي كان عندها أكتر من 25 سنة وهو ما كانش تم 21، أكبر منه، علشان أمي تقبله كذب عليها وقال لها إن عنده 25 سنة، أصغر من أمي بسبع سنين، ما يبانش إنه صغير لأنه طويل وعريض والشعر العالي دا مخلِّيه يبان كبير. ما اعرفش العلاقة بالطريقة دي دامت قد إيه، لكن الحب استمر وقال لها إن هدفه شريف وعاوز يتعرف على أسرتها وجه يقابل الخالة قريبتها وأم «جينيت» اللي بتشتغل عندها كأولياء أمورها، وبعدين راح يقول لأمه. ساره لما سمعت ان «لياندرا» مسيحية قالت :

- مستحيل! تتجوز مسيحية؟ حاجة ما تتعملش .

وعملت مجهود وراحت تقابل «لياندرا» تحاول تعقَّلها، أصل ساره زي ما حكيت كان عندها خبرة اجتماعية كبيرة في الجوازات والعلاقات الاجتماعية، قالت لـ«لياندرا» إن «إيليا» كذب عليها :

- «إيليا» عنده 20 سنة، أصغر منك بكتير، إنتِ دلوقت مش حاسة بس لما تكبروا في السن حتتعبي، دا غير إنه مش في سن مسؤولية .

- مش بيكسب ماهية؟ ما دام بيساعد البيت وبيقوم بواجباته يبقى مسؤول، وانا مقتصدة واعرف أنظم، أنا ست بيت ممتازة، اتعلمت في إيطاليا قبل ما آجي مصر .

«لياندرا» قالت لنفسها: «ساره بتقول معندوش 21 سنة علشان ما نتجوزش». بتصدَّق قوي وتظن قوي في نفس الوقت، زي لما ابوها في إيطاليا قال لها دا شاب وحش وسُمعته مش كويسة ظنت فيه وقالت لنفسها «بيقول كدا علشان مش عاوزني أسيب الفرن» بس أبوها كان بيقول الحقيقة، وساره كمان كانت بتقول الحقيقة .

- ابني مش مناسب لك، من دين مختلف، إنت بنت كويسة وحلوة، حتلاقي واحد مسيحي زيِّك يستحقك، «إيليا» يهودي، وانتم عندكم عادات واحنا عندنا عادات، ما ينفعش يهودي يتجوز مسيحية، حتحصل مشاكل .

- مالي أنا ومال الخلاف في الأديان، مش ربنا واحد؟ خلاص، أنا ابقى يهودية .

حسب ما أمي حكت لي بنفسها إن مشكلة مسيحية ويهودي ما ظهرتش إلا لما جُم يتجوزوا، لغاية السن دا ما كانش عندها فكرة أو مش واخدة بالها إن فيه أديان مختلفة في الدنيا وان الجواز بين الأديان بيعمل تعقيدات، غالبًا مفيش غير مسيحيين في «ريبا»، وكاتوليك بالتحديد، فالموضوع مش حاضر في ذهنها .

*

بعد ما أمي ماتت في 1981 أصريت إن أبويا ييجي يقعد شهرين عندنا في البيت، رحت إيطاليا حضرت الجنازة ورجع معايا، كان بيقدر يدخل مصر يزورني بالباسبور الطلياني. قعد في أوضة السفرة ـ اللي دلوقت أصبحت أوضة نومنا ـ وانفتح يحكي قصة حياته وقصة أهله، قعدنا نسمع له وخلِّيناه يحكي قصص كتير بس نسيتها، ما ركزتش كويس، إنتِ يا نادية كنت معايا يومها وللأسف كنت شابة صغيرة، مفيش أي لوم عليك، أنا اللي كان مفروض أنتبه لأهمية اللحظة دي واسجل. من ضمن الحاجات اللي حكاها وما كنتش اعرفها إن أمه ساره وصاحبتها «لوسي» الداية كانوا مواعدين بعض أنه حيتجوز بنتها، متعودين على كدا في مجتمع درب البرابرة :

ـ عايزني أقول لـ«لوسي» إنك مش حتتجوز بنتها؟ لا وكمان واحدة مش يهودية؟ واكبر منك في السن؟ إنت لسه صغير، وموعود لبنت «لوسي»، مستحيل تتجوزها .

أبويا كان رأيه إن «لياندرا» جميلة لكن هو انبهر من شخصيتها، أمي مفتوحة بتشع حيوية، هو كان منطوي شوية مش متحدث، ياخد وقته قبل ما يتكلم أو قبل ما يقرر، بالتأكيد الفرق كبير بين الشخصيتين. الجديد إنه حكى لي إنه تردد، ما كانش يحب يزعل أمه وفكر شوية ومع إصرار أمه راح لـ«لياندرا» وقال لها :

ـ «لياندرا» يظهر إن مفيش نصيب ولازم نستسلم للأمر الواقع .

فأمي بقى ردت بكل قوتها :

ـ «Elia! Non farmi questo dispiaccere» (يا «إيليا» اوعى تزعلني الزعلة دي) أنا لا يمكن اتخلَّى عنك، ولو مش حتتجوزني أنا حاموت نفسي .

أو حاجة من النوع دا، وفي الغالب كرَّرت :

ـ لو كان على الدين أنا أبقى يهودية، ربنا واحد .

رجع «إيليا» تاني لأمه وقال لها :

ـ لازم اتجوزها أنا وعدتها وباحبها، هي مستعدة تعتنق الدين اليهودي .

وحصل .

عملوا ازاي علشان يدخّلوا أمي لليهودية؟ ازاي اتصرفت جدِّتي في النهاية علشان تحقق الجواز دا؟ أكيد راحوا عند الحاخام واتجوزوا عند الحاخام، لكن أنا اكتشفت بعد ما كبرت واتجوزت، إن الدين اليهودي ما يقبلش حد من بره، مش زي الدين المسيحي بيقبل إن أي حد عايز يبقى مسيحي، والإسلام كمان، الواحد ممكن يعتنق الإسلام، إلا الدين اليهودي دا، ما يقبلوش وافدين جدد للدين بتاعهم أبدًا. بس يظهر أبويا كان المفضل عند أمه فعلًا، طيِّب وهادي وما بيزعلهاش وشغِّيل، ابن كويس بالنسبة لها فما حبتش تزعله .

الأهل زعلوا و «لوسي» صاحبة ساره زعلت، وأساسًا جدتي ساره كانت زعلانة أكتر واحدة وأكيد أهل «لياندرا» أكيد زعلوا. أمي أصرِّت وهو كمان كان متمسك بيها فعرفت تنتصر على تردُّده أصر هو عند أمه والجوازة تمت اهه، وراحوا يعيشوا في بيت العشماوي. دي بقى قصة جواز أبويا وامي اللي فرضوها على جدِّتي ساره .

اتولدت أنا وانا معنديش فكرة طبعًا إن كان فيه المشاكل دي. هما عاشوا طول عمرهم مع بعض، وجت ظروف عند أبويا إن فقد شغله في الأزمة العالمية وكانت ظروف صعبة، وأمي وقفت معاه وفي الآخر كمان سافروا مع بعض إلى إيطاليا وعاشوا مع بعض طول الوقت وممكن أقول إن كانت جوازة ناجحة .

العلاقة بين أمي وأبويا وبين ساره كانت كويسة علشان أنا افتكر جدِّتي وهي بتزورهم في بيتهم. أمي كانت جادة في الجواز وبتقول إن حماتها لما شافتها ست بيت شاطرة بتعمل الشغل كله وبتطبخ كويس وبتاخد بالها من جوزها حبِّتها إلى حدٍّ ما. وفي الغالب كمان أمي كانت كويسة مع حماتها بس أمي لسانها طويل، بتحكي لي كانت بتنتقد عوايدهم وتنتقد جدِّتي في علاقاتها الاجتماعية الواسعة وفي إنها بتخرج كتير من البيت، مش عوايد الستات في «ريبا»، هناك ستات البيوت يقعدوا طول النهار ينضفوا يوضبوا وياخدوا بالهم من الولاد ولما يخرجوا يقعدوا قدام باب البيت مع جيرانهم يشتغلوا تريكو وينِمُّوا. «عندها 5 أولاد وجوزها عيان، بتخرج تشوف ناس وتروح السينما» أمي مش متضايقة منها ولكن تنتقدها في الحاجة اللي ناقصة في أمي، الثقافة والتذوق الفني، حكاية مرواحها السينما بانتظام مع صاحبتها «لوسي». «يصح كدا؟» أنا كنت صغيرة وباسمعها «معندهمش فلوس كفاية في البيت وهي تروح تصرف قرش ولّا قرشين في السينما؟ يصح كدا؟» ما كنتش بارُد وما اعرفش صح ولّا مش صح لكن جدتي كانت ست طيبة وشاطرة والحمد لله في الآخر باركت الجواز، ولما كنا بنروح نزورها كانت بتستقبل أبويا وأمي بشكل كويس وكانت بتحبني زي الأحفاد التانيين. دلوقت كبرت وبافكر أمي بتنتقد ساره إنها بتخرج كتير وهي نفسها سابت بيت ابوها وهجَّت من البلد لوحدها، لكن اهه تعليقات أمي، دي طبيعتها والحقيقة إن كان عندها ميل للغيرة. بس المعاملة بينهم أكيد كانت كويسة لأن الاتنين قلبهم طيب، بدليل إن «إيليا» استمر يدفع نصيبه من المساعدة لأسرة جدِّتي لأنهم تعبوا ماديًّا بعد موت الأب .

وبعدين أبويا بيحب الأكل وشخصيته من النوع اللي يفرق معاه لو ياكل كويس، فطبعًا كان متمزِّج مع أمي، كان رفيع وتخِن بعد الجواز. حكى لي يوم ما انفتح يحكي بعد موت أمي، إنه عزم على أمه في بيتهم علشان يورِّيها قد إيه هو مرتاح وقد إيه أمي بتطبخ كويس، عايزين جدِّتي تكون راضية عنهم . أمي نزلت سوق العتبة، تمشية صغيرة من شارع العشماوي لسوق العتبة. ما اعرفش لو انتِ

شفتِ سوق العتبة: سوق ضخم فيه كل حاجة من جزارين على بتوع فراخ على بتوع سمك، وخضار وفاكهة، حاجة فخمة لواحدة زي أمي بتحب الطبيخ. المهم أمي نزلت السوق وجابت «costolette di maiale» - رِيَش خنزير - أمي بتحبها وبتفكَّرها بطفولتها في بيت أهلها، وعايزة تتوصى بحماتها . أبويا وصل البَيت قال :

- يا خبر دا أمي ما بتاكلش خنزير .

أصل اليهود ما بياكلوش لحمة الخنزير، لكن أبويا ما كانش متدين ولا متمسك بالتفاصيل دي، بيحب الأكل ويفهم فيه وهي طبَّاخة عظيمة فيظهر ما كانتش لسه خدت بالها من التفاصيل اليهودية وطبخت اللحمة. اتشاوروا شوية مع بعض وقعدوا يفكروا وفي الآخر أبويا حكى لنا إنه قال :

- إحنا مش حنقول حاجة ولو هي تسأل نقول لها لحمة بتلو، نكذب عليها أحسن ما تزعل، وعلى إيه نزعلها؟

أصل الخنزير لحمته طرية ومش حمرة عاملة زي البتلو فعلًا. عيلة أبويا كانوا طيبين يمشوا على الدين والتعاليم حسب تقديرهم للأحسن. جت جدِّتي وانبسطت وحبت أكل أمي كله وحبت ريش اللحمة بالذات لأن سنان جدتي ساره يا عيني ما كانتش كويسة، لقت اللحمة طرية وخفيفة وطِعمة، ويمكن ما سألتش كتير وسابوا الحكاية على كدا ومشيت مبسوطة، حبُّوا يخلُّوها تفضل مبسوطة من الجوازة دي اللي هما حققوها. ساره ما كانتش شاطرة في الطبيخ - وحسب تحليل أمي دا بسبب انشغالها بالحياة الاجتماعية - متعودة تجيب حتة كندوز تعمل بيها شوربة، لحمة كتف دسمة شوية - الكتف مش طري زي الفخدة - تقطَّعها حتت وتحطها في الحلة الكبيرة مع أي خضراوات متاحة، بطاطس كوسة جزر حتى الفاصوليا البيضة والكرَّات، ويحطوها على نار في الماشة - شعلة دماسة - من يوم الجمعة بالليل ويروحوا يناموا ويسيبوها قايدة طول الليل والنهار ولما ييجي الضهر يوم السبت تكون الطبخة مستوية واللحمة الجامدة كان بينتهي الأمر إن تستوِي وبكدا يوم السبت ياكلوا أكلة سخنة من غير ما يولعوا نار ولا يطبخوا - حسب تعاليم التديُّن اليهودي. المهم إن اللحمة اللي جدتي ساره تعرفها كانت جامدة بالمقارنة مع الريش اللي أكلتها عند أمي وأبويا. والحقيقة إن أبويا بيفتكر من أمه طبختين بس، السمك بالمايونيز وهو اتعلمها منها وكان بيعملها لنا، و«البورش» اللي هي شوربة البنجر، أكيد من أكلات «أوديسا» اللي جت مع جدِّي موسى، أبويا ما اتعلمش «البورش» وفضِل يحن لها لحد ما مات وهو نفسه يدوقها، ولكن لا هو ولا أمي عرفوا يتعلموها ولا أنا كمان .

آخر قصة لها علاقة بجوازتهم غير العادية لأبويا وأمي هي إنهم كرَّروا الجواز، وانا ما سألتش نفسي ليه - ساعتها. عملوا لنا اللازم علشان نتحول إلى مسيحيين لما كان عندي حاجة زي 10-11 سنة وكان حدث كبير و«فيليتشتا» كانت مبسوطة و«فيليا» وأمي كمان سعيدة والجيران كلهم متحمسين وأبويا «très généreux» عملها كهدية لأمي في عيد ميلادها 12 يونيو بروح من الكرم الشديد. أعتقد فهمت دلوقت الحماس دا كله من الجالية ومن القسيس، أنا في الحقيقة ما فكرتش في الموضوع إلا الأيام دي وقعدت اربط، بالتأكيد السبب الرئيسي ضغوط الحرب واضطهاد اليهود والخوف من الألمان، بس ليه أبويا اختار اليوم كهدية لعيد ميلاد أمي يفرَّحها؟ لقيت إن فيه سبب

أقوى، أصل من وجهة نظرهم «لياندرا» مش متجوزة في الكنيسة وتبقى عايشة في الحرام. إنتِ فاهمة؟ رحنا كلنا الكنيسة ومعانا الجيران ودخلنا كلنا المسيحية وأبويا وأمي اتجوزوا تاني، المرة دي في الكنيسة، ومن وجهة نظر «فيليتشتا» والجيران تعتبر أول مرة .

اللي أفتكره بنفسي إن بيت جدتي كان في الدور الأول، تلات أوض نوم، أوضة للأهل وأوضتين للوِلاد الخمسة. الصالة في آخرها كان فيه باب بدرفتين خشب بعرض الحيطة بيفتح على أوضة القُعاد، كنبتين اسطمبولي طوال وضيقين، كنبتين زي بتوع العزبة بِشِلَت للضهر وفي الوسط مخدات مدورة بيسموها «مدفع»، البياضات بيضة بياض ناصع وكُسَر دايرن داير، عملت بياضات زيها للكنبة الصغيرة هنا في الدقي .

جدِّتي ساره تقعد عليها وتغني لي :

Quiere che le canta

Quiere che le balla

Quiere che le diga mashaallah

كلمة «ما شاء الله» اللي في الآخر عربي وباقي الكلام «اسبانيولي-لادينو»، مخلوط بكلمات تركي: «عايزاني أغنِّي لها، عايزاني ارقصّها، عايزاني أقول لها ما شاء الله».

تغنيها لي وتنططني، ست حنونة ولطيفة، صحيح ما كانتش ست بيت شاطرة زي «فيتوريا» مرات ابنها الكبير «بنيامين»، بس بَرضُه كان عندها ملبِّس وحاجات للعيال. وهي الجدَّة الوحيدة اللي عرفتها أصل جدِّي موسى مات وانا صغيرة وطشاش كدا متصورة إني شفته لابس الجلابية التركي البيضة دي اللي بيفصَّلها، وجدودي من أمي ماتوا في إيطاليا عمري ما شفتهم، أسمع قصصهم بس .

أكتر واحدة اتصاحبنا على بعض من ولاد عِمامي كانت «سارينا» بنت داود الأخ اللي فوق راس أبويا. كنا بنتقابل أنا و«سارينا» يا في بيتهم أو في بيت ساره أو عند مرات عمي التاني «بنيامين»، أظن كانوا ساكنين كلهم قريب من بعض . كانت المفضَّلة عندي بالعب معاها كتير علشان كان عندها «fantasy» - خيال - وتندمج في اللعب، نقعد كأننا ستات بيزوروا بعض ويتكلموا ونقدم القهوة والشاي والمربَّى، وننط الحبل. أختها التوأم - «فيكي» - تشبه لأمهم «كلارا»، بيضة، عينين زي الكشَّافات، مش متكلمة ولا متحركة، و«بيبو» أخوهم الكبير ما كانش بيلعب معانا بالرغم إنه تقريبًا من سنِّنا، و«كيتي» بنت عمي التانية لكن الاستغراق في اللعب كان مع «سارينا». الكبار يقعدوا في الصالة ويبعتونا السطوح، «سارينا» تاخدني المطبخ وتجيب رغيف عيش بلدي وتسخَّنه على النار وانا أقف جنبها ونتكلم، تقطع العيش أربع ارباع وتعمل سندوتشات جبنة بيضة اسطمبولي حادقة ونطلع السطوح ناكل ونندمج أكتر واكتر. ما كنتش متعودة على الأكلة دي لأن العيش البلدي كان بيخش بيتنا يوم واحد في الأسبوع، يوم الفول، الجمعة أو الحد حسب أجازة أبويا، الفول يحتاج قعدة وعيش بلدي طازة، غير كدا كنا بناكل فينو. أظن أمي حذفت من النظام الغذائي في البيت الأكلات المصرية الحرِّيفة والبلدي ومنها الجبنة البيضة الإسطمبولي. كان فيه راجل في التوفيقية بيعمل جبنة بيضة عادية كنا بنروح التوفيقية مخصوص نشتريها، اسمها جبنة «روبير»، و«روبير» دا هو اللي بيعمل الجبنة بنفسه، بيصنع الجبنة ويجيبها ويخرَّط ويوزن على الميزان ويلف الطلبية ويقف على الكيس ياخد الفلوس .

أنا باحب «سارينا» أكتر من أي حد تاني أصل ذكرياتي معاها، فاكرة تعبيرات وشَّها، مش ثابت، تتكلم وتقول وتفتح وتقفل عينيها وتسكت وتشاور بالإيدين، معبرة. أبو «سارينا»، «دافيد» أو داود اتعلم واشتغل موظف في بنك، وساره كانت فخورة بيه، اتجوز «كلارا » جارتهم من الحتة، حلوة وعينيها زُرق وبتتكلم قليل وتتحرك أقل، بنوتة ساكتة وقاعدة، خلِّفوا تلاتة عيال «بيبو» و «فيكي» و«سارينا»، «دافيد» كان متولي أمر أخوه الصغير «سولومون » أصغر أخ، ومسكِّنه عنده علشان يخفف المسؤوليات على ساره الجدة بعد مرض وموت جدِّي. ولكن «دافيد» نفسه عِيي، بيقولوا جا له ورم في المخ زي أبوه ومات صغير ما كمِّلش أربعين سنة وأولاده لسه صغيرين 8 و12 سنة. «كلارا» الأرملة ما كانتش بتشتغل ومش شاطرة في حاجة معينة، مصيبة إن أبوهم يموت بدري. «سولومون»، عمي الصغير اللي عايش معاهم في البيت كان ابتدى يشتغل وما كانش متجوز لسه فاستمر يعيش مع عيلة «دافيد» ويصرف عليهم . أمي كانت بتقول كلام مش واضح معناه إن المفروض «سولومون » يتجوز «كلارا»، بعد سنين اكتشفت من القراءات إن اليهود لما واحد

يموت الأخ اللي العازب يتجوز الأرملة ويربِّي الأولاد . بس «سولومون» ماتجوزش «كلارا»، شال المسؤولية وربَّى الأولاد لغاية الآخر وكانوا بيعتبروه أبوهم .

اللي افتكره من «سولومون» إن صوته حلو ولما ييجي عندنا في البيت في شارع نعيم وانا صغيرة كنا بنخليه يغني «Parlami d'amore Mariu» - «كلميني عن الحب يا ماريو» - وكل قعدة لازم يغني أغاني «تينو روسي» و«كاروزو» و«بنيامينو جيلي» المشهورة .

عندي عم جاب 6 عيال ما افتكرشِ ولا واحد فيهم ولا أساميهم ولا شكلهم، اسمه «إيزيدورو» كان المشكلة الكبيرة في حياة ساره. علّمت الولاد وشغلتهم إلا هو، شقِي ما عرفش ينتظم في الدراسة، حاولت تشغله بس ما كانش بيقعد في أي شغلانة أكتر من 7 اشهر، لازم ينتهي بخناقة و«إيزيدورو» يسيب الشغل. مش مبسوط ولا إيه حكايته؟ جدِّتي ساره الشخصية القوية وشيخة الحارة اللي بتشغل أولادها وتقرر مصيرهم ما كانتش قادرة عليه وما نجحتش تخلِّيه يثبت في أي حتة فجوِّزته وهو صغير على أمل إنه يستقر. دي بالنسبة لي فكرة غريبة: علشان يساعدوا الشاب يستقر يروحوا يجوِّزوه و«إيزيدورو» اتجوز وجاب ست أولاد، بنت وخمس صبيان، ولكن الأسرة دي ما كانتش مستقرة، الجواز ما جابش استقرار، و«إيزيدورو» كان بيعيش بمساعدة أمه واخواته. مجيئهم البيت عندنا كان نادر، لكن في يوم أبويا عزمه على الغدا وبينما أمي بتطبخ في المطبخ أبويا قعد مع «إيزيدورو» على ترابيزة السفرة يحضَّر المايونيز، جاب زيت ولمون والملاحة وبصبر شديد وبشويش بشويش قعد يلف صفار البيض بالشوكة ويزوِّد الزيت نقطة نقطة. «إيزيدورو» ابتدى يقول نكت على «ازاي الواحد يجيب ولاد وما يجبش بنات»، فأنا اهتميت فخدوا بالهم إني متابعة :

- يا «إيليا» عايز تعرف ازاي الواحد يجيب أولاد وما يجبش بنات؟

- أيوه، عايز أعرف .

- يا سيدي الواحد علشان يجيب ولاد ... إنت يعني مصمم تعرف؟ طيب أنا حاقول لك .

في النهاية طبعًا ما قالش حاجة بس قضوا الزيارة ضحك عليَّ وفجأة «إيزيدورو» قام وقال لأبويا :

- مش معقول يا «إيليا» انت حتقعد ساعتين تعمل في المايونيز .

- لازم نقطة نقطة علشان ما تقطعش .

- ولا تقطع ولا حاجة هات هنا .

وخد من أبويا الزيت دلقه على البيض مرة واحدة ولف بالشوكة وفي خمس دقايق طبق المايونيز كان جاهز ولا قطعت ولا حاجة، ما كانش عنده الصبر يستنَّى. دي الذكرى الوحيدة اللي عندي معاه، العم «إيزيدورو» كان عندي حوالي خمس سنين قبل الحرب العالمية التانية. عيلة

«إيزيدورو» من أوائل الناس اللي سافروا إلى فلسطين، قبل 1948، سافروا بدري واختفوا من هنا وآثارهم اختفت هناك بَرضُه. ماتوا؟ راحوا فين؟ ما اعرفش أي حاجة عنهم .

«بنيامين» الكبير كان عكس «إيزيدورو»، شخصية مستقرة وعِيلة مستقرة. الوحيد اللي اتولد في تركيا، جه مصر وهو عنده سنتين، اشتغل عامل في المطابع الأميرية واتجوز «تسيا فيتوريا » يعني العمة «فيتوريا»، ست بيت أسطورية، حتى أمي اعترفت إنها ست بيت ممتازة. «تسيا فيتوريا» مشهورة بالمربَّات، مربَّة مستكة بالفزدق ـ رغم إن ما كانوش أغنيا بس يظهر حاجات زي الفزدق كانت لسه في متناول الناس ولو بحساب . تعمل اللارنج المجفف بالسكر، تقطع قشر اللارنج شرايح طويلة يلضموها مع بعض بالخيط والإبرة، يعملوا عقود لارنج ويلفُّوها في السكر فالسكر يلزق على القشرة وينشروها بالسكر اللي عليها في الشمس لحد ما السكر يدوب والقشرة تنشف، يسلتوها من الدوبارة ويقدموها للضيوف. تقدم لنا أصناف المربَّات على صينية عليها كُبايات مَيَّة كتير وكباية ازاز بشماعة للمعالق، ندوق مربة المستكة أو اللارنج ونسيب المعلقة اللي استخدمناها في كباية المَيَّة .

خلفوا أربعة بالترتيب بنت ولد بنت ولد «ستلا» وموسى و«كيتي» و«جاكو»، ساكنين في بيت أرضي من غير سلالم نِخُش على طول من بوابة العمارة لحوش طويل، كان بيت الأمة لكل الأولاد. عمي «بنيامين» هو كمان تعب بدري وجا له شلل نصفي وفقد شغله، ضربة كبيرة لعِيلة مزنوقة أصلًا، ولكن عِيلة «بنيامين» متصرفة ـ مش زي عائلة «دافيد» ـ جابوا عربية زي عربية الكشري و«بنيامين» وقف يعمل طعمية وساندويتشات في الشارع على الناصية، كل يوم قبل المغرب بشوية. «فيتوريا» مراته الطبَّاخة الممتازة تجيب الفول المدشوش تنقعه وتفرمه وتحضر خلطة الطعمية في حلة كبيرة من بالليل، وبنتها «كيتي» وقفت اشتغلت معاهم، «كيتي» تشبه أمها، واعتقد إنها فضلت تختوخة وجدعة زي أمها على طول. الأخت الكبيرة «ستلا» ما كانتش شغِّيلة ـ زي عروسة حلوة وبيضة ورقيقة وكانت بتعمل «pose» ـ منظر كدا بشيء من التباعد بينها وبين الناس الشعبيين دول، عاملة أرستقراطية. أبويا وأمي ياخدونا أنا واخويا الصغير لعربية الطعمية نشتري ونقعد نتعشَّى في الشارع ساندوتشات الطعمية الجميلة بالطحينة بتاعة عمي «بنيامين » ومراته «فيتوريا». عاشوا كدا عِيلة «بنيامين»، مزنوقين ومتصرَّفين .

أنا كان عندي مشاكل مع البوليس السياسي من وانا عندي 18 سنة، ودخلت السجن كذا مرة وكنت في القايمة السودا ونفس الحاجة سعد، اتجوزت واحد عنده اسم وملف عند البوليس من قبل ما يقابلني وفي وقت معين كانوا عايزين يرحَّلوني، لكن أبويا ما كانش له علاقة بأي سياسة أبدًا والبوليس السياسي عمرهم ما اتعرضوا له ولا كان فيه شكوك عليه وما رحَّلوهوش، يُعتبر إن مشي بخطره ونفس الشيء أخويا، بس ما خدش الجنسية، ما اقدرش أقول إن كان فيه تعاطف مع الأجانب في المجتمع، بالعكس، كان فيه لهجة ضد الأجانب وضد اليهود بسبب العدوان الثلاثي الفرنساويين والانجليز والإسرائيليين، بس أبويا اهه كان بيشتغل هنا وعمره ما حصل له أي عداوة مباشرة من الناس والعلاقة مع الجيران والأقارب قبل ما يسافروا كانت لطيفة، دي كانت سياسة الدولة، مؤخرًا أخويا حكى لي ازاي الدولة كانت بتضايقه في الإقامة وتصاريح الشغل، وأبويا أخد سفر بلا عودة من الجوازات وهو خارج من مصر وما كانش يقدر ييجي مصر لمدة طويلة .

أبويا من ناحيته ما كانش منجذب خالص ولا لإسرائيل ولا للديانة اليهودية ولا لأي ديانة، افتكرت إن في شبابه اهتم باتجاه منتشر في العالم اسمه «Les libres penseurs» - «المفكرين الأحرار» - فلسفتهم إن التفكير في الدين يبقى بحُرِّية وإن الأديان السماوية زي بعض لها رب واحد، وإن الإيمان جُوه القلب ومش ضروري متابعة طقوس دينية بشكل دقيق، أبويا كان كدا وبيقول على نفسه كدا، وانا افتكر كويس إن عمره ما كان متدين ولا متعصب ولا لدين ولا لأي حاجة، عمري ما سمعته بيقول تعليق على المجتمع المصري كأنه مش منه. ما كانش عنده أصدقاء رجَّالة من أي صنف بييجوا البيت علشان أمي ما كانتش بتسمح بحاجات زي دي، عِيلته بس اللي بييجوا يزورونا، بيتكلم عربي كويس وعلاقاته مع أهل الحتة في بولاق ومع زمايله في الشغل كويسة، حَب الثقافة والفنون وبيشتغل بذمة وبيحب عيلته، ما سابش مصر إلا بعد ما اتولدتِ إنتِ، حوالي 1965 لما جَت له فرصة يتنقل مركز «النمرو» في إيطاليا وعلشان أخويا هاجر لهناك وانا كنت باقول «أنا مش إيطالية، باحب إيطاليا طبعًا بسبب أمي، بس كدا من بعيد لبعيد»، أنا باحكي الحكاية دي تاني أصل أنا نفسي مستغربة إني اخدت الموقف دا وانا عندي 17 سنة، حقيقي مش قادرة أفهم جا لي ازاي بينما الشيوعيين اللي كنت متعلقة بيهم كانوا بيسافروا .

«برتو» أخويا خد موقف مختلف عني، خلَّص دراسة في مدرسة «الفرير» عند الرهبان في باب اللوق وكان شاطر، كان أحسن مني في الدراسة، أنا كنت كسلانة وهو مجتهد، بيعمل حاجات إضافية، يجيب كتب من المكتبة ويعمل أبحاث، ولما خرجت من السجن لقيته بيشتغل مدرس ابتدائي في مدرسة «الفرير» اللي اتخرج منها، وكان فيه كلام كتير بين اصحابه عن الهجرة لبلاد تانية وإن مصر قفِّلت مفيش فيها فرص للتقدم بالنسبة للخواجات، و«برتو» معندوش جنسية، «apolide» ، زيِّنا أنا وأبويا، مصري بالولادة والتربية ولكن بدون ورق. أول واحد سافر من أصحاب «برتو» كان ولد أبوه له أصول من جزيرة مالطة وكان عندهم ورق انجليزي وراحوا انجلترا، أمه بعتت لأمي جوابات تشتكي «فين شمس مصر؟ جسمي مليان روماتيزم، وشبورة وبرد على طول وشغل كتير» أمي كانت بتقرا لي الجوابات دي وتقول «شوفي؟ مش مبسوطة ومتضايقة، صعب ست كبيرة تسيب بيتها في السن دا». أعز أصدقاء «برتو» كان «جاك بن مايور» أثَّر عليه يروح معاه البرازيل لدرجة ابتدوا يجهزوا أوراقهم مع بعض، في آخر لحظة قبل السفر أبو «جاك» مات، و«جاك» يا عيني في يوم وليلةٍ أصبح مسؤول عن عِيلته، وخطة سفر «برتو» اتلغت، سمعت من «برتو» إن راحوا البرازيل فعلًا وبعد كدا «جاك» استقر في أمريكا الشمالية. يبدو إنها كانت صداقة كبيرة لأن بعد مرور 40 أو 50 سنة «جاك» راح إيطاليا علشان يزور «برتو» و«برتو» كان منفعل جدًّا من الزيارة دي .

لما اتلغت خطة البرازيل، «برتو » راح إيطاليا ورتِّبوا بقى ان أبويا وأمي يصفوا أمورهم هنا في مصر بالراحة ويحصَّلوه، وفعلًا بعتوا عفشهم من أبو العلا بالمركب. الحصول على الجنسية من أول الحاجات اللي عملها «برتو» علشان شركة التبريد في «فلورنسا» ما كانتش حتشغله إلا لو عنده ملف جنسية يثبت إنه حيكون طلياني في بحر مدة قصيرة وإنها مسألة إجراءات وأعتقد إن «برتو » خد الجنسية الإيطالية بالهجرة إلى إيطاليا على أساس أمه إيطالية، أعتقد إنه ما حصلش عليها بالجواز .

طلع قانون في مصر في 1951 على أساسه أصبح ما ينطبقش علينا شروط الجنسية ومن ساعتها بدل ما كنا نعتبر مصريين بقوا يعتبرونا مش مصريين، واللي يتم 21 سنة يتقدم للحصول على ورق الجنسية المصرية ولازم يثبت إنه من أصل عثماني. مش ممكن إن سكان مصر كان لازم يعملوا طلب جنسية، فانا مش عارفة إيه الشرط اللي خرَّجنا من الجنسية. أبويا مكتوب مصري في شهادة الميلاد ومولود في مصر وعنده شهادة معاملةٍ من الخدمة العسكرية، آه، أنا نسيت أقول لك المصريين لمَّا يوصلوا في سن معين لازم يخشُّوا في التجنيد وكانت سمعة التجنيد وحشة وبهدلة للشباب، يا حبيبتي يا جدِّتي، ساره، لما ورقة الاستدعا جت لأبويا، أمه دفعت له الـ20 جنيه علشان ياخد إعفا لأنه كان ابتدى يشتغل، فهماني قصدي أقول إيه؟ جدِّتي دفعت على أساس إنهم مصريين وعايزة تجنبهم متاعب التجنيد من غير ما تسبب لهم مشاكل ويكون ورقهم مظبوط. دفعت العشرين جنيه اللي كانت مقررة بشكل رسمي لأي حد مستدعى للتجنيد للحصول على شهادة معاملة مع الإعفاء من الخدمة في الجيش. 20 جنيه مصري ساعتها كانت حاجة كبيرة، إحنا بنتكلم على سنة 1925 تقريبًا، ودا من ضمن الحاجات الكتير اللي عملتها ساره في عز الفقر علشان ولادها. لما ابويا حاول يقدِّم على الجنسية في الخمسينات الإعفا كان مستند مع أبويا لإثبات إنه مصري، الأجانب ما كانش بييجي لهم استدعا، الخلاصة إن أبويا عاش طول عمره على أساس إنه مصري، اتولد هنا في القاهرة سنة 1909 وكل الأشغال اللي اشتغلها دخل فيها على أساس إنه مصري الجنسية، وأمي اتجوزته وهي معتبراه مصري، مصري خواجة. وانا كمان اتولدت هنا واخويا اتولد هنا وكنا عايشين على إننا مصريين لغاية سنة 1951، أمنا إيطالية وأبونا مصري لحد ما طلع القانون دا .

واحنا راجعين من الإقامة في السويس سنة 1936، كان عندي 5 سنين وكان لازم أخش أولى ابتدائي، أمي خدتني تسجِّلني في المدرسة الإيطالي في بولاق والموظف هناك بص على شهادة الميلاد وقال لأمي :

ـ بس دي مش طليانية .

ـ إزاي مش طليانية؟ إحنا طلاينة، أنا طليانية .

ـ بس اهه شهادة الميلاد بتقول إنها مصرية .

ـ دي بنتي واتولدت هنا فاتسجِّلت بالطريقة دي لكن أنا ولائي لإيطاليا .

أمي كانت دايمًا بالطريقة دي مع الورق الرسمي، فأنا حبيت أساعد كلام أمي فتدخلت من غير ما حد يسألني وقلت بالطلياني :

ـ مظبوط إحنا في البيت بنتكلم طلياني، عايشين في بولاق وكل الناس بيتكلموا طلياني .

أو حاجة زي دي، أمي عملت خناقة يوميها وزعقت وقالت :

ـ لا يمكن، لازم تاخدوها، بنتي حتدخل المدرسة الطلياني .

المدرسة معتبراني مصرية وأمي بتتخانق علشان المدرسة تاخد في الاعتبار كونها هي طليانية، المهم قبلوني ودخلت المدرسة الإيطالي في الآخر زي ما انتِ عارفة. ولما ابتديت أشتغل الواحد بيقدِّم دايمًا شهادة الميلاد زي شركة «جون ديكنسون» للورق أول شُغل لي، كنت باخد الشغل باعتباري مصرية. «ألبير آرييه» وحليم طوسون الاتنين مصريين بنفس الطريقة، لكن يمكن أقدم؟ أو يمكن أبهاتهم كانوا شطار وفاهمين وحصلوا على الجنسية المصرية قبل ما القوانين دي تطلع علشان الناس الفاهمة كانوا بيعملوا كدا. جدِّتي كانت شاطرة شوية بس مش شاطرة كفاية، جابت شهادة الإعفا من التجنيد بس ما قدمتش على الجنسية ولا أبويا كان متنبه، بالذات إن موضوع الجنسية ما كانش مطروح كمشكلة أصلًا، الجنسية كانت لسه حاجة طبيعية إلى حد كبير . أبويا كان قدم على الجنسية لما طلع القانون دا ما ردُّوش عليه، بعت تاني وتالت، أنا ما كانش لسه عندي 21 سنة، لما تميت 21 سنة قدمت على طول لكن ما ردُّوش بَرضُه .

مسألة إن أبويا من غير ورق ومش معتبر مصري في القانون الجديد من الحاجات اللي ممكن حسمت قرار السفر وأكدت على نظرية «برتو » ، إن ملهمش مكان في مصر. أتصور إن أمي قررت إن ما دام الوضع واخدهم ناحية إن يسيبوا بيتهم في مصر، بالتأكيد تفضِّل يروحوا إيطاليا مش أي مكان تاني، والحقيقة أمي كانت مبسوطة ترجع بلدها، كان بقا لها تقريبًا 40 سنة في مصر وكان فيه حاجات بتضايقها باستمرار زي الوساخة والتراب، وعِيلتها هناك، أظن لما الوضع ابتدا يتغير عليهم في مصر كانت جاهزة ترجع .

أبويا وأمي خدوا بعضهم وعملوا الإجراءات وفعلًا سابوا مصر وراحوا إيطاليا، وأول ما وصلوا أمي وضَّبت أوراقها وكان سهل تثبت إنها إيطالية، أوراقها وأوراق عِيلتها موجودة في سجلات قرية «ريبا» وكانت مطلعة باسبور في مصر من القنصلية الإيطالية وأبويا قدَّم على الجنسية الإيطالية على أساس الجواز. يا دوب استقروا سنة أو سنتين أبويا اترفد. أمي هي اللي حكت لي عن سبب الاستغناء عنه، كان فيه نقابة قوية للعاملين وطلبوا منه ينضم للنقابة ويتضامن معاهم في واحد من الإضرابات وهو كان مقتنع بالمطالب فراح معاهم، مش فاهم إن ملوش حقوق، ما كانش حصل على الجنسية الإيطالي فالإدارة فصلته والنقابة ما قدرتش تعمل له حاجة. دي كانت أكبر ضربة أخدوها في حياتهم هما الاتنين، علشان المرة دي بقى كانوا من غير دخل بصحيح، وفي السن دا وفي بلد جديد، كان صعب أبويا يلاقي شغل. أمي حكت لي الحكاية دي بعد سنين طويلة، أنا ما عرفتش في ساعتها، كانت عاوزة تفهمني إن أبويا عمره ما كان عنده حس عملي للمصلحة ومعندوش خبرة . أمي طلبت معاش، وكفاح الستات في إيطاليا اللي أنا كنت باكتب عنه في حوا جاب نتيجة وحصلوا على معاش ربات البيوت وأمي استفادت من الإنجاز دا .

ظهر في حياتهم بقى ابن خالي «إنريكو» ومراته «ماريزا»، بالذات «ماريزا»، تبنتهم كأنها بنتهم، موظفة كبيرة نسبيًّا في البلدية، عندها خبرة واتصالات فتابعت لهم موضوع الجنسية الإيطالية لأبويا وساعدت في إجراءات المعاش ليهم هم الاتنين. معاش أبويا كان حاجة قليلة أصل يعتبر إنه ما اشتغلش، سنين شغله في مصر ما اتحسبتش في إيطاليا، ما حصلش على معاش راجل عاش عمره يشتغل، لأ، خد معاش المعوقين ومصابي الحروب والحالات الخاصة، نوع من المساعدة كدا على

الماشي من الحكومة علشان ما يسيبوش حد من غير فلوس خالص. أظن كانوا بياخدوا تسعين ألف أو خمسة وتسعين ألف ليرة ليهم هم الاتنين على بعض، مبلغ بسيط زي 100 دولار في الشهر. عاشوا يا دوبك على القد، واحنا لما كنا بنروح لهم، السفريات اللي انا باحكي عنها، كان وضعهم كدا. أبويا كان بيساعد نفسه، الناس في البلد عرفوا إنه بيعرف في الكهربا، فاللي عاوزة تصلح المكوة بتاعتها مثلًا يبعتوا يصلح لهم ويدفعوا له حاجة، واتعلم يجلّد الكتب فكانوا بيجيبوا له كتب، أعمال صغيرة، ويدُّوا له حاجة، وعلِّمك تجلّدي الكتب وتساعديه. هما عاشوا في الفترة الأخيرة بالطريقة دي. البيت اللي كنا بنزورهم فيه كان بتاع «إنريكو» و«ماريزا» ورثوه عن خالي «جوردانو»، سابوهم ساكنين في البيت بإيجار بسيط، الحياة غِليت وما زوِّدوش الإيجار، إيجار يمكن ما يقضيش ورقة دمغة، كانوا في منتهى الرقة وعاملين خاطر لخالي يخلّوا بالهم من اختِه. «ماريزا » كانت بتيجي «ريبا» بانتظام علشان تزور القرافة، حاجة مقدسة عندهم في البلد زيارة القرافة، وكل مرة لازم يفوتوا على أهلي يجيبوا لهم قزازة نبيت ولمَّا كبروا وما بقوش يشربوا نبيت بقت تجيب لهم قزازة زيت زيتون، وبعد ما أمي ماتت استمروا يعَدُّوا على أبويا لحد ما مات هو كمان. الست جارتهم اللي كانت ساكنة تحتيهم كانوا فلاحين عندهم حتة أرض وبيروحوا يزرعوها بنفسهم، لما يرجعوا من الأرض لازم تبعت ابنها بكيس فيه طماطم وفاكهة وخضراوات الموسم، الولد يطلع يسيبه لأبويا وأمي على السلم قدام الباب. أنا ما كنتش دريانة إن وضعهم المالي مش مريح للدرجة دي، لأنهم كانوا منظمين نفسهم وعايشين كويس، واحنا علشان نسافر كنا بنسافر بخمسة جنيه مصري مسموح لنا نحوِّلهم دولارات، كانت فترة جمال عبد الناصر، وعلى أي حال هنا سعد عمره ما كان عنده فلوس علشان نقدر نعمل الحاجات بالراحة، ولكن عشنا كويس إحنا كمان وخلصت. أبويا زي ما اتعلم تجليد الكتب القديمة، ابتدى يعمل أشغال من الخيال بالدوبارة والمسامير، ملهاش شكل معين واظن كان بيبيعهم، في زيارة من الزيارات عمل لنا اتنين واحدة موجودة عند دينا وواحدة تانية كانت عندك في الأوضة يا نادية، ودلوقت موجودة في أوضتي. ما كنتش بادِّيها أهمية لكن بقيت متمسكة بيها واحتفظنا بيها ما رميناهاش .

الحصول على الجنسية الإيطالية لأبويا كانت فرحة، وأمي كتبت لي جواب مؤثر. كنت منبوذة من أمي بعد السجن وكانت بتعتبر إنه عار وعَبَط ومن الغلطات الكبيرة اللي عملتها في حياتي «إيه أهمية الشيوعية دي؟» اللي تستاهل إن أخسَّر حياتي علشانها، أمي اشتراكية «garibaldina» - يعني تبع «جاريبالدي » - وطنية إيطالية قديمة، لما كنت في السجن ما كانتش شايفة أنا باربط ازاي بين «جاريبالدي» بتاعها وشيوعيتي، والفكرة غريبة عليهم في «ريبا» إن «بنت «لياندرا» في السجن». بس لما استقرت في إيطاليا لقت الحزب الشيوعي له سمعة تانية، سمعة جميلة، موجودين في القرى والمدن حتى في «ريبا». حضرت الانتخابات ولقت الستات عندهم الحق في التصويت وبعدين أبويا حصل على الجنسية، كتبت لي «لأول مرة في حياتي أنتخب وانا في السن دا، عملت الورق ورحت انتخبت، وانتخبت حزب أفكارك» قالت لي كلام لطيف أنا متأثرة منه طول الوقت: «فهمت قيمة أفكارك، ما كنتش مقدَّراها». اتشجعت تفهم لما شافت الحزب الشيوعي علني وبياخد فوق الـ30% من الأصوات وبيدعم مطالب كويسة بالنسبة لها، و«باولو» ابن اخوها دخل الحزب الشيوعي والكل بيحترمه و«باولو» بيقدَّرنا وفيه بيننا تفاهم واحترام، وكل مرة نروح «ريبا» لازم يقابلنا أنا وسعد ونتبادل الآراء والأفكار والانطباعات. أنا والله لميت جوابات أمي بس صعب أرجع اقراهم .

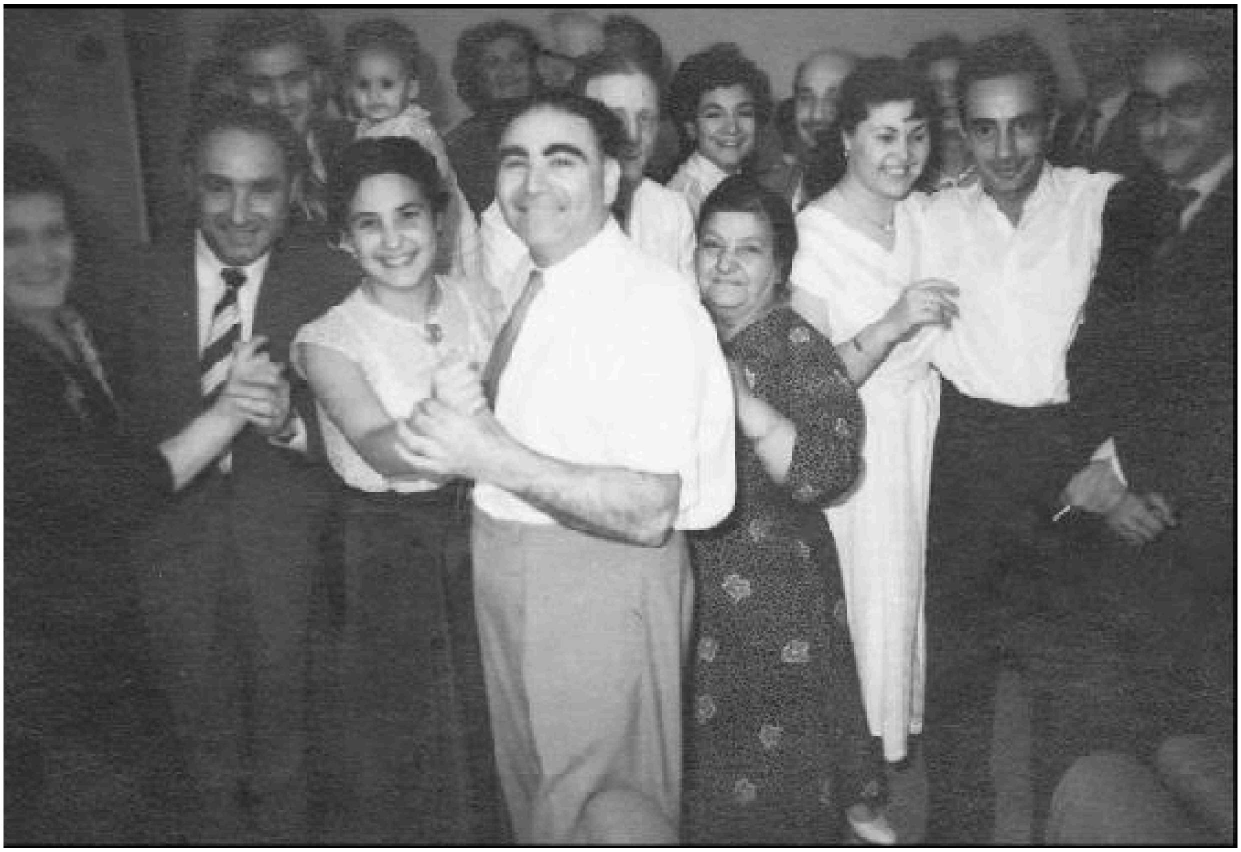

في وقت ما وانا باحكي قلت إن فيه موقفين أنا مش عارفة أفسرهم في نفسي، عشتهم بتناقض، الحاجة الأولى كانت «أنا أي نوع من الأمهات»، اتكلمت في الموضوع دا قد ما قدرت وخلاص عدَّى ومش ممكن أعمل فيه حاجة أكتر من كدا، ما حكتش كل حاجة بس حكيت حاجات كتير واللي حصل بعد كدا إنتو تعرفوه، تبقوا تحكوه إنتو لنبيل.

الموضوع التاني اللي مش عارفة افسَّره في نفسي وشاغل بالي وعايزة أتأمِّل فيه هو «إزاي أنا ما سألتش ولا مرة عن أسرتي اليهودية اللي كانت كلها ساكنة هنا في مصر، وعرفت كدا عالماشي من أبويا وأمي إنهم مشيوا راحوا إسرائيل». إزاي أسقطهم؟ أنا ما كنتش باعمل مجهود، أنا بطلت افكر فيهم أو احس بيهم. حصل لي نوع من البلادة في الموضوع.

ذكرياتي القليلة وشوية المعلومات عن طريق أبويا وأمي بتقول إنهم ناس طيبين ومفيش حد منهم اهتم بالسياسة، الاهتمامات كانت بتنصب على الأكل والشغل والدخل ومواضيع ثقافية شعبية، زي غُنا «تسيو سولومون» وميول أبويا الفنية. كانوا بيتكلموا عربي أحسن مننا بسبب إن أمي كانت متمسكة بلغتها في بيتها، ومعظم زباين عربية الطعمية بتاعة عمي «بنيامين» ما كانوش خواجات، مصريين من سكان الحتة وبيكلموهم عربي. يمكن سفرهم حصل لما الحياة زنَّقت قدامهم والعمل ما كانش سهل، «جاكو» كان أصغرهم، صبى عنده 12 أو 13 سنة وما كانش في «scope» - منظور - لعمل معقول في المستقبل وباتصور كان فيه إغراءات إن هناك حيلاقوا مجال لحياة أحسن. الدليل على كدا إنهم ما سافروش مع بعض، سافروا حسب تقديرهم للإمكانيات. في الأول زي ما سمعت

اختفت أسرة «إيزيدورو»، انفصل عن العيلة وسافر، و«إيزيدورو» دا ما كانش له في السياسة خالص، بيحب الحياة والضحك المرح ومعندوش فلوس وبيلقَّط رزقه كدا زي ما تيجي، وأكيد سافر مش عن اقتناع أو عقيدة، مجرد مغامرة أو محاولة. أما عِيلة «دافيد» اللي مات هنا في مصر وعِيلة «بنيامين» اللي جا له شلل هنا في مصر بَرضُه، دُول الكتلة الأساسية اللي قرروا السفر والهجرة إلى فلسطين والعِيلتين عندهم مشاكل اقتصادية، ما كانوش مرتاحين بالمرة. «كيتي» الجدعة اللي بتساعد أهلها على عربية الطعمية، شفتها مرة في زيارة لـ«سارينا» هي وجوزها، يمكن محاسب - شغلانة كويسة - معاها ولد وحامل في التاني. كان فيه ناس كتيرة، أهل البيت خمسة واحنا الأربعة، و«كيتي» وجوزها والشقة صغيرة، وضع مثير للأطفال فابن «كيتي» يا عيني مابطَّلش يجري وينط وينزل تحت الكراسي وينط على الكنبة ويطلع بره ويدخل جوه ويرزع باب ويمسك كُباية ويرمي طبق، كان عامل إزعاج فظيع، و«كيتي» أصلًا مليانة وتخنانة أكتر بسبب الحمل مش قادرة تتحرك وطول القعدة تقول لجوزها «الحق الولد». جوزها عجبني، راجل متعاون، ياخد الولد يقعده ويتكلم معاه ويلاغيه والولد يجري منه ويقوم تاني ويروح يجيبه، راجل متحدث وعنده صبر يتابع الولد وهو بيشارك في الحوار. عيلة العم الكبير «بنيامين» اللي كان بيشتغل في المطابع الأميرية وعربية الطعمية، بمراته بتاعة المربَّات طنط «فيتوريا» وابنهم الصغير «جاكو» اللي ما كانش عنده 15 سنة وبنتهم «كيتي» وجوزها وأولادهم الاتنين الصبيان سافروا، بس إمتى؟ وازاي؟ للأسف عمي «بنيامين» تعب، جات له جلطة تاني وقعد في البيت يمكن سافروا في الوقت دا؟

العم الأصغر «سولومون» ما اتجوزش وسافر مع أرملة عمي «دافيد» وأولادها «سارينا» و«فيكي» وأخوهم الكبير «بيبو»، ولا أعرف سافروا سنة كام، كأنهم اختفوا. إزاي مثلًا أنا ما عرفتش عن سفر «سارينا» في ساعتها، هل كنت في السجن مثلًا؟

الوحيد اللي ما سافرش من العِيلة كان ابن عمهم موسى، وانا لمَّا اتجوزت في سنة 1954 ما كانش فاضل إلا هو من عِيلة أبويا. موسى كان ابن نكتة وبيتكلم قليل، طويل ورفيع وحلِيوة، عينيه عسلي وشعره مموَّج أصفر مع إن أبوه وأمه شعرهم اسود. اختار بنت يهودية مصرية قُح مش خواجاية، وسط الجالية اليهودية بَرضُه فيه شيء من التفرقة بين الأشكيناز والسفرديم اليهود الشرقيين العرب، واللي عندهم اسم افرنجي - أوروبي زي «روزنتال»، أشكيناز. كان اسمها «ماري» بس بيكتبوها «Mery» ، «ميري»، وانا اسمي بيتكتب «Mary» ، «ماري». عيلة موسى بيوصفوها «مصرية، عربية، البنت سمرا» وهي فعلًا سمرا وشعرها إسود، من أسرة مش تعبانة أظن أبوها تاجر في الموسكي. غالبًا كان فيه نوع من الاعتراض من ناحية أهل موسى ولكن موسى أصر يتجوزها وراح يعيش معاها في بيت أسرتها. أسرة «ميري» عملت فرح وعزموا القرايب والجيران في بيت فيه أوض كتيرة، أول ما وصلنا حطونا أنا وأبويا وأمي وأخويا في أوضة منهم، واحنا فايتين شُفنا إن الأوض التانية ناس بتاكل، جايبين طباخين وأكل كتير طالع من المطبخ. قعدنا جابوا لنا الأكل أكلنا وقمنا علشان ناس تانية تيجي تقعد مكاننا وتاكل، الأكل بالدور، افتكرت المنظر دلوقت وانا باحكي، منظر جديد بالنسبة لي، الأكل بالدور. أكل على أساس أسماك، أنواع كتير من الأسماك المقلية مع رز بني، كذا طبق، هُبَر سمك، كتير ولذيذ. أنا وأبويا انبسطنا، أمي بقى كان عندها حساسية للريحة والحاجات الشرقية ما كانتش بتتقبلها بسهولة ودايمًا عندها انتقادات، أبويا قال لها :

- شيلي الجلد وخُدي اللحمة البيضة اللي جُوه، حلوة.

وفعلًا عملت كدا وعجبها - عنيدة قوي. بعد عشرات السنين محمود السعدني كان له صديق اسمه إبراهيم نافع - تاجر مانجا مش صحفي «الأهرام» - عمل حفلة لما بنته اتجوزت وافتكرت فرح موسى و«ميري»، جاب حصان يرقص في أرض فاضية وحط ترابيزات وكراسي، الرجالة تحت والستات فوق ودبح ما اعرفش كام عجل وعمل لحمة مسلوقة وطبخ رز والناس تاكل بالدور بَرضُه زي فرح «ميري» وموسى. ما أظنش انتِ كنتِ معايا يا نادية اللي جه معانا كان علي شعث وراح مع سعد عند الرجالة - «دا انت يا نبيل ما كنتش لسه اتولدت، لو كنت اتولدت يبقى كنت صغير قوي». كنا بنتفرج على حصان بيرقص وطلبونا فقمنا قعدنا عند الأكل وجابوا طبق كبير فيه هُبَر لحمة ورز وكان فيه ناس قبلينا وناس بعدينا نادوهم ياكلوا بعد ما خلَّصنا، أنا كنت مع رضا مرات حسن فؤاد ومرات محمود السعدني. الفرق بين الفرحين إن فرح بنت إبراهيم نافع الستات كانوا منفصلين عن الرجالة، في فرح موسى العائلات كانت بتفضل مع بعضها. موسى حضر جوازنا أنا وسعد وعندي صورة له لما عملنا حفلة وبوفيه ساندويتشات وحلويات على ترابيزة السفرة هنا في بيت الدقي، وحضر مع بنته النونو الصغيرة.

بس بَرضُه مش فاكرة سفره.

أكيد السفر حصل في فترة بعد ما أنا ابتديت أهتم فيها بالسياسة وانفصلت وجدانيًّا عن أخبار البيت والعيلة، اللي اعرفه إن أصل عيلة «بنيامين» العيَّان وعيلة «دافيد» اللي مات ومعاهم «سولومون» العم الصغير كانوا مزنوقين قوي وفيه احتمال إن أبويا كان بيشارك في مساعدة «إيزيدورو» وعِيلته. أعتقد إن مع صعود نزوة كراهية الأجانب بعد إنشاء إسرائيل وحرب 1948 وبعدين مجيء جمال عبد الناصر، الفترة كلها بعد 1948 وحريق القاهرة و1952 أعتقد ابتدى إحساس وحش، الأجانب واليهود شافوا إن مبقاش فيه مستقبل في مصر، بالذات للشباب. ما كانش فيه الحياة اللي أنا عشتها وانا صغيرة أثناء الحرب العالمية التانية وبعدها، مش عارفة ازاي رغم الحرب الناس كانت عايشة مع بعض كويس. لكن أنا ما انشغلتش بسفر العِيلة، أنا أيامها كنت في ملكوتة تانية، أعرف طشاش إنهم راحوا إسرائيل وما كنتش باتعاطف معاهم، أنا خلاص دخلت في فكر الاشتراكية وإن إسرائيل صهيونية، والصهيونية هم اللي عملوا إسرائيل مشروع استعماري والاشتراكيين ضد الفكرة من أصلها، وكنت ادِّيت نفسي وجسمي وروحي للفكر الشيوعي الماركسي المصري الوطني - هنا.

على قد ذكرياتي التدين كان على خفيف في العِيلة، متدينين طبعًا، ولكن الدين مش واخد حيز وما شفتش طقوس كتير. الحاجة الدينية الوحيدة اللي افتكرها لما «بيبو» ابن عمي تم 13 سنة، فيه طقس في الدين اليهودي اسمه «تيفيلين» أو «بار ميتزفاه» بمناسبة وصول الولد لسن البلوغ، ولعوا الشمعدان اليهودي اللي فيه 6 شموع في نص دايرة وصلُّوا للولد شوية صلوات، وبعد الطقوس كانوا محضرين بوفيه حلويات وساندويتشات على الترابيزة في بيت أمه كأنه عيد ميلاد. كان فيه عيد تاني بيصوموا فيه وبيشتروا العيش اللي أبويا بيسميه «ماتزاه» عيش ناشف مقرمش في حجم الرقاق أو الفطير المشلتت، عيش متماسك بيستوي بالشمس من غير خميرة. أنا ما اعرفش لو بيصوموا من الفجر للمغرب ولَّا من المغرب للمغرب، وما اعرفش في العيلة بيواظبوا إلى أي درجة، فاكرة إن

عندنا في بيت أبويا وأمي عمرنا ما مشينا على الحكاية دي، أبويا في بداية شهر الصيام بتاعهم كان بيجيب كيس فيه أكلة صيام تقليدية عاملاها له، عيش «الماتزاه» بالجبنة البيضة متسأسأ في اللبن وتصب عليه بيض مربوب وتقليه، تبقى شوية زي فطيرة مقلية أو قطايف بالجبنة. حاجة لذيذة كدا وناكلها من غير ما نصوم، على أي حال أنا كنت باحبها وخلاص، نوع من الذكريات .

*

«سارينا» فضلت على اتصال بابويا وامي من إسرائيل، مش عارفة ازاي عرفوا يتصلوا ببعض ويراسلوا بعض، جابوا عناوين بعض ازاي؟ عمري ما سألت. أنا مش فاكرة «سارينا» غير وهي طفلة بنلعب مع بعض لكن أعتقد إنها فضلت على طبعها الحلو بدليل إن لما سافروا كلهم هي اللي استمرت في العلاقة مع أبويا. تكتب جوابات : « Cher oncle Elia, Je te raconte Pepo a fait ça et je ne sais pas quoi» - «عزيزي عمِّي «إيليا»، عايزة احكي لك «بيبو» عمل كذا وفلان حصل له كذا...» - وأبويا وأمي فضلوا يكتبوا لها من إيطاليا وهي تكتب لهم وتدِّيهم أخبار الكل، ما حدش غيرها من العيلة عمل التواصل دا. أمي كانت مشتركة في المراسلة دي أكتر من أبويا، بتحب تكتب وتعبر عن نفسها وتحب تسمع الأخبار وحبت «سارينا» علشان «سارينا» بتكتب لها أخبار العيلة، عمي «سولومون» وولاد عمي موسى و«ستلا» و«كيتي» و«جاكو»، وأخبارها هي نفسها وأختها «فيكي» وأخوها «بيبو»، وتشتكي من فلان وتمدح فلان وتسأل أمي على أبويا، «عمُّو «إيليا »».

عمي «سولومون» قرر يزورهم في «ريبا » ، في الأثناء دي كان اتجوز واحدة إسرائيلية، ووصل فعلًا لـ«ريبا» مع الست دي. أمي بتقول إنها كانت وحشة تمشي في الشارع وكل الناس يتفرجوا عليها «سمرا وجونلتها كرانيش وشعرها طويل ومتساب كدا وتلبس حلقان دهبي مدورة كبيرة زي الغجرية». الحكاية دي ضايقت أمي، وأمي حكتها بضيق وانفعال، أبويا ما قالش حاجة، في الغالب ذهنه كان أوسع من أمي وفاهم إن الناس مختلفين عن بعض في الدنيا، الست دي طبعًا كانت غريبة على النظرة الكلاسيكية في قرية «ريبا»، محافظين خالص هناك، والغجر في إيطاليا وأوروبا اسمهم «الروما » ويُعتبروا حاجة مش كويسة. «سولومون» ومراته جابوا هدية لطيفة لأبويا وأمي، طقم 6 كُبايات صغيرة ودورق قزاز ملون حلو علشان النبيت، اليهود ما ياكلوش خنزير ولكن يشربوا نبيت، يختلفوا عن المسلمين في الحكاية دي، أبويا لما جه مصر بعد الزيارة دي ادَّاني هدية «سولومون »:

- أنا مش حاستعملها وانتم بييجي لكم ناس وبتشربوا نبيت، خدوها .

سعد انبسط وما كنش عنده مانع، إحساس الرفض المنتشر مش متأصل عنده تجاه أي جنس أو دين أو أي حاجة زي دي، ولا زالت الهدية موجودة في الفاترينة، أظن كسَّرت 3 كُبايات وفاضل منهم كبايتين أو تلاتة والدورق نفسه موجود .

بعد كدا زارهم «جاكو» أصغر ولاد عمي ويظهر كنت في السجن لما هو سافر. أنا آخر مرة شفت «جاكو» كان صبي صغير 14 أو 15 سنة. «جاكو» اشتغل في «هيلتون تل أبيب» مش عارفة إيه

بالتحديد يمكن في الاستقبال بس هم كانوا فرحانين لما خد الشغلانة. هو كمان قرَّر يروح إيطاليا يقابل أبويا، وأبويا راح ياخده من محطة القطر في «سان بينيديتو»، القطر وصل والناس نزلت وأبويا مش لاقي «جاكو»، استنى القطر اللي بعده وبَرضُه ما لقاهوش ونزل نفق المشاة علشان يعدي ويروَّح وفي النفق شاف واحد من ضهره يشبه أخوه «بنيامين»، نادى عليه من بعيد :

- «جاكو»! «جاكو »!

وفعلًا الراجل اتلفت وطلع «جاكو» وقعد يشاور :

- «إيليا»! «إيليا ».

وحضنوا بعض وأبويا كان فرحان إن عرفه من ضهره، هي العيلة دي فعلًا لها قطعية يشبهوا بعض. «جاكو» قعد في «ريبا» يومين تلاتة، ما كانش يقدر يقعد أكتر علشان الرحلة إلى إيطاليا كانت مكافأة من الفندق للعاملين، وهو اختار إيطاليا علشان يروح يشوف عمُّه، الحقيقة أنا كنت احب أشوف «جاكو». بس أنا دلوقت حاسة إني متلخبطة مين كان متجوز البنت الجميلة اللي أمي وصفتها إنها «غجرية» ومين أبويا عرفه من ضهره في المحطة مش عارفة لو دا حصل مع «سولومون» ولّا «جاكو»، القصتين دخلوا في بعض .

أمي بتنقل لي الأخبار دي وانا باسمع وأقول «كويس» وخلاص بس مش مهتمة ومش حاسة إن لازم أهتم. في يوم من الأيام كدا بعد مرور وقت طويل وأبويا وأمي كانوا كبار في السن، بدون مقدمات أمي ادِّتني عنوان «سارينا» وعنوان حد تاني فيهم يمكن «جاكو» «خدي العناوين». غريبة أمي دي، ملهاش دعوة باليهود وتنتقدهم انتقاد شديد من كونها مسيحية، تعتبر متعصبة نوعًا ما، مش سهلة ومنفتحة في موضوع الأديان، تنتقدهم وتنتقد شكل الست مرات «جاكو» اللي ما تعرفهاش وتقول «سمرا وشعرها اسود وطويل وكله «boucles» - مموَّج - ومسيباه لغاية وسطها من ورا» كأن دي حاجات وحشة، وبعدين تدِّيني عناوينهم، يظهر الناحية العائلية غلبت، أصل انتهى الأمر إن أنا خدت العنوان منها واحتفظت به ونسيته وانتهى الأمر .

هنا في مصر العلاقة مع إسرائيل بدل ما تتحسن كل شوية تزداد سوءًا بسبب أعمال إسرائيل، بس مش عارفة الواحد ممكن يعمل إيه؟ ما كانش ممكن الواحد يتصرف بشكل تاني. طول السنين دي مصر بتعاني من وجود إسرائيل مزروعة في وسط البلاد العربية. وحصلت حكاية قرية «ياميت» في سينا اللي حسب رأي الإسرائيليين عملوها «bijou» - «تحفة على البحر» - الرمل حلو في منطقة العريش والإسرائيليين اللي سكنوا هناك كانوا ابتدوا يستخدموها سياحيًّا ورفضوا يخرجوا ويسيبوا سينا لما إسرائيل انسحبت منها بعد معاهدة السلام، انتهى الأمر إن الحكومة الإسرائيلية بعتت أقفاص حديد كبيرة وكانت بتقبض عليهم وتدخلهم بالقوة وتقفل عليهم جُوه القفص ويشيلوهم بالونش وينقلوهم الناحية التانية من الحدود جُوه إسرائيل، وشفنا ازاي دمروا «ياميت» وسابوها لنا على الأرض، نسفوها بعد ما كانت - بيقولوا - حاجة حلوة .

*

في 1982 إنتِ اتعرفتِ على رندا شعث في معرض الكتاب وانتو بتعملوا مجهود ضد حصار إسرائيل لبيروت أيام حرب لبنان، كنتو بتوزعوا ستيكرز عليها علم فلسطين في معرض الكتاب واتصاحبتوا قوي. أنا ابتديت اتعرَّف على صفاء أم رندا لأنها أبدت اهتمام بمجتمع المثقفين من أصدقائنا. صفاء ماتت فجأة في حادثة عربية وكانت صدمة كبيرة وانا كنت باحس بتعاطف مع الولاد وشوية بشوية دخلوا عيلتنا، علي ابنها ودينا كبروا شوية حبُّوا بعض وقرروا يتجوزوا. كانت حاجة جميلة، دينا وعلي حبوا بعض بصحيح. دينا ميَّالة للاكتئاب بس لما تتحمس لحاجة تنوَّر وتعمل معجزات، طالعة لسعد قوي في الحكاية دي. «وبغض النظر عن أي شيء، نبيل شعث جدك يا نبيل ما ظهرش عليه أي تردد أو حساسية ناحية الجوازة دي، كان فيه احترام كبير بينا، وأنا حبيت علي زي ابني». عملوا فرح جميل وطلعت زفة دينا من هنا عندنا في الدقي من الشارع في عزِّ الضهر، كانوا حلوين وفرَّحوا الناس حواليهم، إنتِ كنت موجودة وسعيدة ودينا كانت زي القمر وعلي وشه منور، وسعد كمان بشوش ومتعاون، بيبقى رايق قوي .

بعده بمدة رحت فلسطين علشان أزور علي شعث ودينا لما كانوا هناك، والسلطة الفلسطينية كانت دخلت قطاع غزة، رايحة أزور بنتي والفلسطينيين اللي دخلوا العيلة وما فكرتش آخد عنوان «سارينا» معايا، ولا فكرت إن دي فرصة وممكن أروح اشوفهم. كان فيه أخبار بمحاولات لحل للقضية الفلسطينية ونبيل شعث كان عضو في الحكومة، وزير في السلطة الوطنية وعرفات كان راح غزة واحنا رحنا غزة نشوف، سعد وانا، علي كان انتقل لغزة واشتغل لمدة سنة تقريبًا .

رحت غزة مرة تانية ضيفة عند رندا... ـ «إنت كنت صغير خالص يا نبيل، بيبي خالص وانت في غزة» ـ ساعتها قعدت أفكر شوية زيادة إن على بعد أمتار أو كيلومترات قليلة من غزة فيه قرايب لي وهما طبعًا في المعسكر التاني . ما كنتش بافكر فيهم كتير في حياتي، بس ساعتها ابتديت أفكر هل معقول إن احنا قريبين بالطريقة دي وبقى لنا المدة دي من غير أي علاقة؟ على أساس المبادئ والقضية الوطنية والوضع السياسي وفكرت إن كويس إني احتفظت بعنوان «سارينا»، يمكن أكتر من عشرين سنة؟ «سارينا» اللي من يوم ما راحت تسكن في إسرائيل استمرت تراسل أبويا في إيطاليا وتدِّي له أخبار عن عيلتها .

ابتديت آخد بالي وافتكر إن فيه قرايب هناك، دا حصل بعد دخول السلطة الوطنية في فلسطين ورحنا غزة كلنا مع بعض، يمكن فكَّرت فيهم بجدية أكتر ساعتها على أساس إن كان يبدو إن الحالة ممكن تتحسن وحيتفقوا ووضع الكراهية الشديدة حيهدا شوية .

بعد كام سنة كميليا جبران الفلسطينية و«فرقة صابرين» جُم هنا يغنوا في مصر، وانتِ اتصاحبتِ عليهم وجم هنا في البيت دا، وبعد ما مشيوا إنتِ جيتِ وقلتِ «أنا حروح ازور كميليا في فلسطين»، في القدس أظن أو في رام الله، ورحتِ فعلًا واتعرفت على أهلها وأخوها خالد وراما واتعرفتوا على غادة وشري اللي كانت ساعتها مقيمة في رام الله وبتشتغل هناك، وتعددت الزيارات مرتين أو تلاتة، لكن أنا ما افتكرتش العناوين دي إلا قريب، بعد سنين مما انتِ ابتديتِ تروحي فلسطين، مؤخرًا من سنتين تلاتة افتكرت العناوين وادِّتهم لك .

احنا اللي اتصلنا بيهم الأول .

*

بعد مكالمة «سارينا»، فوجئت بمكالمة من «جاكو»! «جاكو» اللي اشتغل في «الهِيلتون» في تل أبيب، مش عارفة جاب نمرتي منين، من «سارينا» أو من «بِنِّي» ابن «كيتي»، كلِّمني هنا في القاهرة وبيقول لي :

ـ أنا جيت مصر مرتين ورحت الدقي ورحت كل حتة .

بيتكلم بالعربى وفياض، هو كدا من وهو صغير «expansif» ـ معبِّر :

ـ وما اعرفش انتِ في مصر ولَّا فين .

على أي حال هو ما دوَّرش عليَّ، هو جه يزور مصر علشان يستعيد ذكريات طفولته في القاهرة، ولكن اتصل يكلِّمني عن حبه لمصر كتير. «جاكو» دا بقى شعره إسود واسمر وطويل ورفيع، لطيف في كلامه واكتر واحد يشبه لـ«سارينا» بنت عمي في الطبع، حركات الإيدين والحيوية والنكت، بيضحك ومبتسم على طول. مكالمة تلفونية طويلة بمناسبة العيد الكبير يهني سعد جوزي، هو ما يعرفش سعد، واضح أهله سافروا قبل ما أنا اتعرف بسعد. المكالمة الطويلة دي علشان يهني سعد بالعيد، عيد اللحمة، ويقول لي إنه جه مصر وزعلان إن ما كانش يعرف عنواني، وراح كل حتة يعرفها في القاهرة، محلات «تسيباس» في الموسكي في الشارع اللي بيروح للعباسية، شارع الخليج المصري زمان، بس دلوقت اسمه أظن الجيش، «تسيباس» الحلواني الأصلي ـ وبعد كدا فتح فرع تاني في شارع فؤاد في التقاطع بين شارع 26 يوليو وعماد الدين اللي بيودِّي لباب الحديد ما اعرفش التقاطع دا فيه إيه دلوقت ـ «جاكو» حكى لي إنه دوَّر على «تسيباس » وعلى مصانع الشكولاتة والبونبونيرات اللي بتتعمل في درب البرابرة علشان الأفراح والسبوع، وجه الدقي وراح الهرم، وقد إيه بيحب مصر والقاهرة والمصريين، كل دا بالعربي. كلمني بالعربي لمدة ساعة. سعد هو اللي رد في الأول، «جاكو» قال :

ـ أنا عاوز «ماري»، «ماري» موجودة؟

وقال لسعد :

ـ كل سنة وانت طيب .

أنا كنت متحمسة من حرارة المكالمة فقلت له تعالى تاني قال لي :

ـ صعب، أنا عندي السكر في صوابع رجليه وعايزين يطيروا لي رجلي وانا قلت لهم لا ما ينفعش إن اقعد برجل واحدة .

قال كدا «عايزين يطيروا لي رجلي»، بيمشي بصعوبة، يبدو عنده زي غرغرينة سكر .

في الوقت دا بالظبط جت كميليا القاهرة مع واحدة صاحبتها فلسطينية وفي نفس الوقت رندا شعث كانت على علاقة حميمة بينا وبنتكلم كتير. واحنا في العربية وصلنا البيت وقبل ما ننزل انتِ سألتيني يا نادية :

ـ قال لك إيه قريبك في التلفون؟

اتفتحت في الكلام وقعدت احكي لكميليا وأقول لها عن حب «جاكو» لمصر وذكرياته فيها، والعربية واقفة، حتى ما نزلناش نكمِّل كلام في البيت، أخدني الكلام. ما خدتش بالي، البنت الفلسطينية التانية قاعدة جنبها ويمكن صعب إنها تفهم العلاقة، وليه أنا متحمسة كدا إن واحد قريبي بيكلمني من إسرائيل وبيقول لي الكلام دا عن مصر . كنت متحمسة واتكلم اتكلم اتكلم وأقول كل حاجة، كميليا كانت بتبص لي كدا متحفِّزة شوية ـ أنا فاهماها. نزلنا من العربية والحكاية عدِّت، بس انا قعدت أفكر هل كان يصح إن أنا أورِّي الحماس دا كله؟ كميليا كفلسطينية والبنت الفلسطينية التانية كمان بكل اللي بيعانوه في بلدهم والقصة الغريبة الطويلة دي اللي بقا لها أكتر من 50 سنة مش عاوزة تنتهي، من حقهم ـ وانا بافهم دا كويس ـ إن ما يكونوش متعاطفين مع عواطف عائلية انقطعت مدة طويلة. أنا «جاكو» دا ماشوفتوش وهو كبير أبدًا، كبر للدرجة إن طلع على المعاش ورجله فيها مشكلة كبيرة وعاوزين يعملوا له بتر بينما أنا صورة «جاكو» عندي صبي عنده 13 سنة تقريبًا، ويتصل ويقول لي كلام الحب دا. طبعًا مش بيجيب سيرة الفلسطينيين هو بيتكلم عن الحتة اللي هو كان عايش فيها في مصر .

دي بقى من الحاجات الغريبة اللي بتحصل لي .

إنتِ بعد كدا قلت لي إن انطباعك إن كميليا كانت متأثرة ومتعاطفة معايا، هي كانت ساكتة بتبص لي، بس ممكن، ممكن عندك حق، أصل أنا مرِّيت بمراحل في الغالب فيها جمود. أنا من يوم ما انضميت للشيوعيين وللشيوعية والقضية الوطنية المصرية ومسألة إن فيه لي قرايب هناك، أنا أسقطتهم من دماغي، وما ابتدتش أفكر وافتكر ذكريات سارينا والقرايب شوية بشوية إلا لما الحالة لانت شوية ونبيل شعث سافر وراح غزة واحنا رحنا نزوره هناك، حاجة «تابو» عندنا، مقاطعة، مقاطعة كاملة، وانا اقتنعت مدة طويلة إن دا أسلوب من أساليب الكفاح ضد الناس الوحشين دول ـ وانا مقتنعة إنهم وحشين ـ كانت أول مرة أحكي قدام حد ما يعرفش قصتي فمتوقعة الاستياء حتى من كميليا .

مقتنعة من وانا صغيرة شباب مع الاشتراكيين والشيوعيين الماركسيين التقدميين، بنوصف المنظمات الصهيونية إن عندهم نوع من الفاشية ومن العنصرية ضد حقوق الإنسان . الصهاينة أول ما راحوا إسرائيل وكوِّنوا الدولة بتاعتهم، الأخبار اللي جت لنا إنهم عاملين «الكيبوتز» اللي هي معسكرات لمجموعات يشتغلوا في الأرض مع بعض وحياة مشتركة زي الكشافة، ومن ضمن المحاضرات والتحليلات في المنظمات الشيوعية كانوا بيشرحوا وبيقولوا «دي مظاهر اشتراكية لكن الحقيقة إن دي جريمة ضد الفلسطينيين واتجاه عنصري ضد الاشتراكية، اشتراكية ازاي وهي مبنية على عنصرية؟ مايغرُّكوش إن عندهم حياة مشتركة مع بعض ياكلوا مع بعض ويصرفوا مع بعض، لكن بين الاشتراكية وبين الصهيونية مفيش أي علاقة من الأول»، اللي بيقولوا الكلام دا يهود

بَرضُه، ما تنسيش إن كتير من الشيوعيين هنا في مصر كانوا يهود، وانا اقتنعت بالكلام دا، وأهه دلوقت اتحمست تاني شوية زيادة في الكلام. أنا باقول إيه، أنا زعلت إن ممكن أكون فهمت كميليا بشكل مش مظبوط، باحب كميليا ومعجبة بيها من كل ناحية، فنيًّا وسياسيًّا وكل حاجة، لكن اللي حصل بعد ما خلصت الكلام ونزلت من العربية وقعدت افتكر، تساءلت يا ترى حتقول إيه، أو مش مهم حتقول إيه، إحساسها ممكن يكون إيه. أنا باتكلم عن حاجة عائلية ولكن اللي هي عاشته، ما عاشتش حالة عائلية مع اليهود، عاشت قمع وتزييف للتاريخ علشان هي درست في مدرسة في إسرائيل، تاريخ بعيد عن الحقيقة زي ما الإسرائيليين زيِّفوه. أنا عندي فكرة عن تزييف المناهج والتاريخ من قبل ما اتعرف على كميليا، من أيام المدرسة مع أمي بالنسبة للفاشية، وكمان لما حضرنا مؤتمر المرأة في نيروبي في كينيا وانتِ كنت معايا، شُفنا الست الإسرائيلية «زيبوراه طوبي» اتكلمت عن تزييف التاريخ في المدارس الإسرائيلية والستات الصهيونيات في المؤتمر كانوا عايزين يموِّتوها من غيظهم منها. عندي فكرة إن حصلت ومستمرة تحصل ـ جريمة كبيرة في فلسطين ـ ففجأة أنا أطلع بكل الحماس دا لـ«جاكو» علشان كلِّمني لمدة ساعة في التلفون. إحنا ممكن نسأل كميليا، بس الحكاية ملهاش أهمية أصل ساعتها أنا حسيت كدا إني ممكن ما اتفهمش . دلوقت أنا تغلبت على حاجات كتيرة، على كتير من التابوهات ومن الأفكار الجامدة اللي كانت عندي، لما حكيت لكميليا كنت لسه جديدة في التحول بين الاعتقاد بإن المقاطعة بكل الطرق بدون تمييز ممكن تكون مفيدة للقضية وبإن لازم نكرههم وندمرهم وحاجة من النوع دا .

*

رجعت افتكر آمال عبد النور في السجن، حكت لي قصة هروبها من فلسطين إلى مصر. فلسطين ما كانتش حرة، كانت تحت سيطرة إنجلترا. وكان فيه تعاطف وتواطؤ أحيانًا بين السكان الفلسطينيين واللاجئين اليهود ضد الإنجليز، وكان فيه يهود في فلسطين أصلًا عايشين هناك من قرون ـ يهود فلسطينيين غير اللاجئين من أوروبا بعد الحرب العالمية أو من البلاد العربية ـ فلسطين كان فيها عرب مسلمين ومسيحيين ويهود. عِيلة آمال مسيحيين كانوا عايشين في فلسطين تحت الاحتلال البريطاني لما مجموعات اليهود الجديدة وصلوا. خد وقت لحد لما ظهر في وسط اليهود ناس منظمين بيعملوا سياسة إرهابية ضد السكان، فالسكان الفلسطينيين اضطروا يهربوا وفهموا إن فيه مؤامرة سياسية كبرى ضدهم، أغلب الفلسطينيين ما فهموش من الأول. من وجهة نظري والقصص اللي باسمعها، لولا قرارات سياسية ومصالح خارج فلسطين، خارج الشعب الفلسطيني اللي عايش هناك أصلًا وخارج مصلحة اللاجئين اليهود اللي كانوا بيهربوا من الاضطهاد الأوروبي ومن معسكرات اعتقال النازي، اللاجئين دُول كان ممكن يعملوا حياتهم في فلسطين ويعيشوا هناك مع الفلسطينيين، يعيشوا مع بعض ويشتغلوا مع بعض وما تحصلش الحاجات اللي حصلت بعد كدا. أنا بارجع دايمًا لقصة هروب آمال عبد النور وأسرتها، زي ما هي حكت لنا لما وصلت في السجن، كانت شاهد عيان، شافت بعينيها وهي صغيرة، وفود ومجيء فلول المهاجرين اليهود من بلاد أوروبا وتعايشهم، الدعاية والخطط السياسية والاقتصادية لاستغلال الوضع عملت خسائر كبيرة في العلاقات الإنسانية .

بس، دا ملخص الكلام .

بعد مرور كل الوقت دا واستمرار الظلم وتراكم الكراهية والمصادمات من حروب وجرائم بين الشعوب وبين الناس، طبعًا دلوقت صعب إن الثقة ترجع. ولكن بَرضُه ممكن، ممكن لو الواحد ياخدها بشكل عقلاني ويكون فيه مجهود حقيقي لعدم إشعال النار أكتر واكتر بين الناس، بَرضُه ممكن. أنا عندي أمل إن يمكن مين عارف في حدود فترة بسيطة، بعد التدهور اللي بيحصل والشعور العدائي اللي الواحد عنده ضد المغتصبين وضد عنجهية الإسرائيليين، يمكن الواحد لما يفقد الأمل نهائي تبتدي تظهر مظاهر أمل جديد .

أنا عارفة إن حَوَلَيَّ ناس كتيرة مش بتفكر بالطريقة دي ولما آجي اتكلم معاهم بابقى حريصة، ما باقدرش أقول بصراحة على وجهة نظري بإن على أي حال الشعبين لازم يتغلبوا على حاجات كتيرة حصلت، حاجة صعبة بس لازم يحصل، ما اقدرش أقول علشان الناس ما تفهمش، بيفتكروا إني باتكلم عن تنازلات .

على المستوى الشخصي، أنا دلوقت ميَّالة أكتر واكتر إن افكر إن أنا يمكن كنت غلطانة وكان لازم أكون متعمقة في الموضوع من الناحية الإنسانية شوية أكتر بالنسبة للعيلة . أنا عمري ما فكَّرت ليه هما راحوا إسرائيل، إيه السبب؟ يمكن ما انطردوش من هنا طرد وكان فيه ظروف، ويمكن انطردوا، وانا ما فكَّرتش. أبويا كان عنده فرصة يختار لأن أمي إيطالية وابنه في إيطاليا وانا في مصر، لكن بقية اخواته مش نفس الظروف، أنا في ذهني حطيتهم في معسكر العدو وخلاص، زي الاستعمار الأمريكي، زي الرأسمالية، زي الاحتكارات. الاحتكارات والاستعمار والهيمنة الأمريكية مش كلام، فيه بني آدمين بينفِّذوا، فيه منهم واعيين ولكن بالتأكيد الأغلبية العظمى ماشيين زي ما بيقروا وزي ما بيسمعوا في التلفزيون وزي ما بيسمعوا من القادة بتوعهم، وزي ما بيتناقشوا بينهم، وزي ما حصل لهم، ويمشوا على المبادئ والأفكار السايدة، وفين وفين لما واحد يبتدي يقول «الله؟» «يمكن مش صح» ويعارض وتبتدي تتكوِّن معارضة، الوعي بييجي ببطء. فكرت إن رغم إني فاهمة الاشتراكية والشيوعية والماركسية هم مستقبل الإنسانية والطريق الصح ولازم الواحد يمشي لها، كان لازم آخد في الاعتبار واتأمل في كل شيء. أنا دلوقت باتأمل أي قضية، مش القضية الوطنية بس، لكن حتى فكر الوطنية نفسه بدون تعمُّق وتأمُّل يحصل فيه كتير من التطرف ويمكن من «المش صح»، أو كتير من الغلط، علشان بيكبر الشعور بإن الوطن وأولاد الوطن دُول حاجة أحسن من التانيين، فيه شيء من الفاشية في الموضوع بتساعد على احتقار ونظرة تعالي للغير، إنهم أقل منَّا، شيء من القبلية، «إحنا أحسن»، الفكر الوطني ممكن يسهِّل الكراهية لو من غير تفكير، مش بنكره المسؤولين عن السياسة الوحشة بس، نبتدي نكره الشعب كله وما نتأمِّلش، دا مش صح إن نكره الشعب ومش مفيد. أنا مش حاعرف أعبر للآخر في الموضوع دا، أصل دي قصة كبيرة وطويلة ومش محبوبة، مسألة إن تاخدي موقف متأمِّل من فلسفة أو فكرة الوطنية .

لكن مفيش مانع مراجعة لبعض الحاجات، ومفيش مانع زيادة في تقدير أبويا اللي ما قطعش الصلة مع العائلة وما مشيش ورايا. كان بيحاول ما يزعلنيش، عمره ما ناقشني في صحة موقفي من العائلة، ويمكن كان بيحاول يفهِّمني، احترمني وتحمل المتاعب اللي أنا سببتها له. كل مرة كنت باخش السجن كانت متاعب كبيرة بالنسبة لهم، ياخدوا بالهم مني ويصرفوا عليَّ ويحاولوا يخففوا عني قد ما يقدروا مشقة السجن .

َّ

الحكاية دي بتثير التفكير عندي، ما اقدرش ما أقولهاش، التمسك بالمواقف بدون تأمل خلاني أنسى العلاقة بيني وبين شخصية أبويا على مدى الخمسين سنة اللي فاتوا. فكّرت إن أنا بنته وخدت من الأول موقف بالابتعاد عن العيلة وعدم الرغبة في إن أعرف حاجة عنهم، موقف فيه شيء من التطرف مني، اتعامل ازاي هو، أبويا، مع الحكاية دي؟ لغاية ما كبرت شوية 15، 16 سنة وبقيت شيوعية، العلاقة مع العيلة اليهودية اللي عايشة هنا كانت حلوة ولكن ما بنشوفش بعض كتير، هما ساكنين جنب بعض، بيوتهم تقريبًا في نفس الشارع، يروحوا ماشيين من بيت للتاني في الحتة، عايشين مع بعض بشكل يومي، لكن من بولاق لعندهم في درب البرابرة لازم رُكوبة علشان ييجوا لنا أو احنا نروح لهم، فيه استمرارية لكن العلاقة مش حميمة. بعد كدا العلاقة انقطعت من طرفي أنا، من ناحية الاهتمام بيهم كبني آدمين، بدليل إن أنا في الآخر ما حسّتش بسفرهم ولا حتى «سارينا» صاحبتي، لكن أبويا استمر في العلاقة. اللي واضح لي دلوقت إنه لازم كان بين نارين، بس ما قعدش يلومني أو يتدخل ويقول دا غلط ودا مش صح، مش عاوز يقطع مع عِيلته أصله عارف ظروفهم، تابع سفرهم وما حكاليش، راح عمل الواجب العائلي العاطفي من سُكات، ما حبش يفرض عليَّ قراره لو لازم يروح يقف جنبهم ولّا مش لازم يروح.

كل مرة نتقابل أبويا يدِّيني أخبار العيلة باختصار شديد، «««سارينا» بعتت تقول عندها مشاكل مع رُكَبها» بالطريقة دي عرفت إن رُكَبها ابتدت قبل رُكَبي، أو «فلان مات» أو «بتسلم عليكِ»»، وانا أرد «ابقوا سلِّموا لي عليها». في جواب تاني بعد حرب من الحروب 1967 أو 1973، أبويا قال لي إن ابن «بيبو» أو ابن «فيكي» مات، طبعًا حاجة صعبة. من ناحيتي كان فيه شيء من عدم التركيز، ما كانش عندي عواطف، كأنهم حاجة تهم أبويا وهو يرد على الجواب، عمري ما حاولت أسأل أبويا عن أخبارهم، حتى ولو علشان خاطره هو، أو أكتب لهم كلمتين أسلِّم عليهم، أو مثلًا أعزي في موت الولد دا في الحرب، نسيت ببساطة، دي حاجة كبيرة إن شاب يموت في الحرب. أمي كانت فيَّاضة وبتنكشني، تقول لي إن شافت أفلام في التلفزيون الإيطالي عن «الهولوكوست»:

- تعرفي إيه هو «الهولوكوست»؟

- أيوه طبعًا.

أنا كنت عارفة إن فيه ناس كتير ماتوا في الحرب العالمية التانية في معسكرات النازي، ما اهتمتش أعرف تفاصيل الفيلم علشان اشوف إيه اللي كان بيهز أمي بالطريقة دي؟ اتنين من العيلة «سولومون» و«جاكو» زي ما حكيت عملوا سفرية وراحوا زاروا أبويا في «ريبا»، باتلقى أخبارهم من غير ما اتأثر، مش عارفة ازاي كدا، حاجة عاملة لي إزعاج، أصل أنا مش عديمة العواطف، يمكن عندي جمود فكري ولكن من الناحية العاطفية باتأثر من المواقف الإنسانية، ومع ذلك ما اتأثرتش ساعتها بالأخبار دي وتلقيتها كدا كأخبار ناس ما يعنونيش، ومش مهتمة بيهم.

أنا ما وصلتش لسه لدرجة حكم على تصرفاتي، الإحساس دا، الحكم، مش موجود ومش عارفة حاجيبه منين، أو حاعيد النظر في موقفي ازاي، بأمارة إيه ومن أي ناحية؟ أصل كمان إن أنا آخد جانب المظلوم وابقى وفية له فكريًّا وادعمه من الناحية العاطفية، دا كمان مش غلط 100 في الـ100. إحنا في الحياة لازم ناخد موقف، مسألة إن أعيد النظر في اللي عملته وإن يمكن لازم آخد

موقف مختلف، دا عاوز مني أقعد أفكر كتير. بدون شك إن كفاح الماركسيين من اشتراكيين وشيوعيين والموقف لمحاربة النازية والفاشية اللي انتهى بالحرب العالمية التانية كان يلزم قوة إرادة وتضحيات شخصية. لازم قسوة على النفس علشان تواجهي قسوة الهجوم على الاشتراكية والماركسية، لازم الواحد يتغلب على كتير من مشاعره وعواطفه. مسألة إن تبقي متماسكة في السجن ما بيجيش إلا بقوة تحمل، الإنسان بيعملها بإن يضغط على أحاسيسه الطبيعية. إحساسه الطبيعي إن عاوز يخرج وإن عاوز يكون حر ومش عاوز يستحمل القيود والحبسة، ودا مؤلم. السجن صعب حتى من غير التعذيب الجسدي، السجن ما بيعدِّيش من غير قدرة على إن الواحد يجمِّد نفسه. ناس كتيرة بتنهار لما بتتحبس وعلشان الواحد يقنع العدو إن انت مش حتتكسر، لما تعملي المجهود دا بتكسري كمان كتير من المشاعر الإنسانية بتاعتك، بتبعديها من على السطح وتدخليها جُوه، ما تسيبيش نفسك على حريتك وتعترفي باحساسك .

الحماس اللي أنا حطيته لاتخاذ موقف سياسي، الجزء الكفاحي من حياتي، كان لازم أحط شيء من الغرور ومن التقدير لنفسي إن أنا قدرت أنجز وقدرت اوصل للآخر وما انهارتش في النُّص وقلت لأ أنا مش حاقدر على الكفاح. اخترت وقررت اخش في السكة دي وبعد كدا آجي في النُّص واروح انهار؟ لازم شيء من الغرور علشان أبرر لنفسي المجهود اللي باعمله. كنت باقول لنفسي «أنا شاطرة، أنا الوحيدة من مجموعة الطلاينة اللي جت لي الشجاعة إن أقول لا أنا مش حسافر». أخويا عنده نفس ظروفي بس ما اختارش سكة الكفاح، حب يختار يشتغل ويستمر في حياته بشكل عادي، أنا مش بالومه وزيُّه عشرات ومئات، بس اللي حصل إن مسألة إن جت لي الشجاعة إن أختار المقاومة كان بيدِّيني نوع من الرضا إن عندي شيء من قوة الإرادة والولاء، شيء من التميز، دا على حساب إن الواحد يسيب نفسه لميوله العاطفية والرغبات الشخصية والحاجات الحلوة في الحياة، وكمان على حساب التأمل أو التعمق ودا اللي وحش .

أنا لمَّا خدت موقف مع القضية الوطنية، كان مع مصر، موقف جَي من الفكر الوطني، أصل بَرضُه كانت مرحلة، القضية الوطنية مرت بمراحل كتيرة حسب الظروف، سنة 1919 لما حصلت المظاهرات ضد الاحتلال، كانوا وطنيين، أنا ما اقدرش أقول كانوا غلطانين، والفترة اللي عشتها أنا، كانت بَرضُه ضد الاستعمار وكان فيه جوانب التاريخ يوضحها للي عايز، لكن كان فيه إيه غلط في حكم جمال عبد الناصر؟ والشعور الوطني وكل المرحلة اللي عشتها أنا بعد الحرب العالمية التانية وبعد إنشاء إسرائيل على الأرض الفلسطينية، دي كانت وطنية ضد الاستعمار والهجوم الثلاثي في 1956 أنا كنت في السجن ساعتها، وبعتنا جواب مستعدين نطلع نحارب للدفاع عن الوطن ونرجع السجن تاني بعد كدا. الجواب كان موجه لجمال عبد الناصر بالاسم، علشان الدفاع عن الوطن ومش علشان يفرج عنا، لو هو عاوز يستمر يحبسنا أصله مش شيوعي وضد الشيوعية، ماشي، إحنا بنحط الخلاف على جنب لأن فيه حاجة أكبر دلوقت، عاوزين ندافع عن الوطن. مفيش رومانسية ولا عاطفية أكتر من كدا. هل دا كان غلط؟

ما كنتش باقاطع أبويا وأمي، بس ما كنتش باسأل على باقي الأسرة اللي موجودة في إسرائيل، كل اللي في إسرائيل ما يخصنيش، والوضع بالنسبة لي كان يتلخص في إن «الاستعمار الأمريكي الأجنبي بيحاربنا وبيستفزوا البلاد العربية وإسرائيل واقفة معاهم» وكنا واخدين مسألة إن إحنا

ضدهم من وجهة نظر وطنية شديدة بدون تأمُّل إنساني ولا حتى سياسي. الحكاية دي زادت أيام السادات مش قادرة أحدد لكن يمكن دي الفترة اللي ابتديت أشعر بالتدريج ان اسمي يهودي وابتديت أكون مش مرتاحة بصحيح، أنا لفترة طويلة زي ما عمَّالة أكرر ما كنتش باحس إن اسمى في الأصل يهودي ولا إنى مسيحية ولا إني مسلمة - أصبحت مسلمة. أنا حسيت بالحكاية دي وَخْري من بضع سنين وشوية، ومش على إيد الناس العاديين ولا أصحاب سعد اللي حكيت عنهم كتير وانتِ ودينا شفتوهم وعاشرتوهم بنفسكم، الشعور دا جا لي على إيد بعض الشيوعيين والشيوعيات، الناس اللي كنت أتصور أو أتوقع منهم يحتضنوني ويحبوني بالرغم من الاختلاف في الدين أو الخلافات السياسية. المقاطعة بالطريقة دي من غير تفكير ومن غير تدقيق الواحد ما كانش ياخد باله إنها حتكون مضرة للدرجة دي مع الوقت .

بصِّي أنا مش عاوزة أحمِّل الذكريات حاجات أعمق من اللي تتحمله ولا أحمِّلها أحكام على المراحل التاريخية ولا الأحداث والمواقف اللي احنا كشباب لقينا نفسنا لازم ناخدها. أنا عاوزة أقول إن ممكن موقفي من العائلة يبدو قاسي أو فيه جمود كبير، لكن أنا أعتقد إن الفترة اللي عشناها، علشان الواحد يستحمل ويفضل على موقفه وما ينهارش، كان لا بد إن يقتل في نفسه كتير من عواطفه وأحاسيسه وإنسانيته .

في الغالب دا اللي حصل معايا، في الغالب، في الغالب .

*

حبيبي نبيل، كلمتين بس حاقولهم لك كدا. إنت عندك سبع سنين دلوقت مش بس ممكن تكون مستغرب من الكلام اللي أنا باقوله وحتسمعه، كمان إيه مش حتفهمه دلوقت. بس أنا باقوله لك، مش علشان تفهمني وتفهم الكلام دلوقت، لا، لكن علشان تسمعه لما تكبر شوية وتبتدي تفكر في حاجات كتيرة، أنا أحب ادِّيك واقولك ما عندي، بالكويس وبالوحش. عاوزة أؤكد لك حاجة واحدة: اللي عملته في حياتي من وانا صغيرة أصغر منك لغاية دلوقت ولغاية ما حاموت، عملته بصدق كبير، وباقتناع كبير، حتى لما كان غلط، حتى لما اضطريت أصحح واقول دا كان غلط، كان بصدق. وممكن أقول إن أنا مبسوطة من نفسي، مش فخورة، لا، في فرق كبير، أنا ما انجزتش أي حاجة مهمة من الحاجات اللي تعتبر الواحد يقول أنا فخور إن عملت كدا وكدا، لكن أنا مبسوطة من نفسي وسعيدة من نفسي وسعيدة باللي حققته في الحدود القليلة بتاعتي. أنا لما حاموت عندي إحساس إن حاموت بهدوء «Sereine, dans la sérénité». عشت زي ما جت لي الحياة وواجهتها زي ما أنا تصورت إن دا الصح، الواحد بيتصرف في الحياة .

يلَّا يا حبيبي ادِّيك بوسة وإلى اللقاء .

أنا حاسة إن لازم اقول له الكلمتين دُول علشان أنا عاوزاه يحبِّني وما يفهمنيش غلط وإن لما يكبر يكون عنده إحساس باللطف تجاهي زي الجدات التانيين، أنا عندي إحساس لطيف نحو جدِّتي ساره دي، شخصية ظريفة أنا معجبة بيها واللي عملته كان في حدودها خالص، لكن ممكن إحساس نبيل ما يكونش لطيف لما يكبر. هو ما يعرفش إن أنا من أصل يهودي وما بيقولش «ضد الإسرائيليين»

أو «دول إسرائيليين»، هو بيقول «يهود» أو «اليهود» وهو بصحيح الإسرائيليين دُول يهود وصحيح عمالين يعملوا جرايم وبيعملوها من زمان ضد الفلسطينيين، فطبيعي إن لما يكبر يكون صعب عليه إن يكون فلسطيني بإحساسه الصادق بحقوقه وفي نفس الوقت يكتشف إن أنا من أصل يهودي، ودي صدمة مش حلوة .

على مدى السنين العدوان بييجي من إسرائيل على مصر وانا كنت كلي في مصر، ومسألة إن ليَّ قرايب هناك، أسقطتهم من دماغي، مشيت مع الجو اللي حَوَليَّ، لو كنت فضلت متعاطفة أو مشغولة بالقرايب اللي في إسرائيل يمكن دا كان ممكن يعمل لي مشكلة نفسية، مشيت بعواطف ورأي البيئة اللي عشت فيها والطريق اللي انا اخترته بين السجون والكفاح، أنا بالطريقة دي ما حستش بمشكلة، ودا ممكن يحصل لنبيل تجاهي .

مفيش غير أخيرًا إن بقيت أفكر وافتكر شخصية أبويا اللي عرف ولا يلومني على اللي باعمله ولا يقطع العلاقة مع عِيلته علشان يسايرني، أنا بالاقيها خصلة كويسة وممكن دا يزيدني إعجاب، بلاش إعجاب، احترام. عايزة أضيف على الإعجاب إن ذهنيًّا فيه عندي تقدير واحترام له، مش كل الناس زيُّه. حكاية أبويا دي كلها ما فكرتش فيها إلا من يوم أو يومين، نتيجة لكل الكلام اللي عمَّالين نقوله والذكريات اللي عمَّالة أطلعها من ذاكرتي، اتصرفت كتير من غير تفكير طويل وعميق، وآن الأوان وانا عندي 70 واكتر من 70 سنة دلوقت إن أصرف وقت أفكر واتعمق شوية .

يكفيني علشان أرضي ضميري إن أقول إن جا لي الإحساس في الفترة الأخيرة بعد أبويا ما مات وأمي ماتت وبعد مرور أكتر من 50 سنة من القطيعة، إن المقاطعة للأسرة دي كانت من غير سبب ومن غير هدف .

كفاية إن النهاردا ما اكونش قاطعة ويكون عندي تساؤلات .

مش مسألة إن نبيل يحبِّني، هو بيحبِّني .

مش عاوزة يحصل لك «shock» يا نبيل إن الـ «Nonna» دي بتاعة البيتزا أو بتاعة السلطات اللي انت بتعملها هنا في المطبخ عندي بتملا لي حلة المكرونة زيت وخل وبقدونس وحاجات زي دي، مش عاوزة يجي لك صدمة إنك فجأة تكتشف «الله دي من اليهود وعندها أهل في إسرائيل وإسرائيل هي العدو الأكبر للفلسطينيين وضد العرب» وانت فلسطيني كمان. فمهم إن الواحد يحكي كدا على بلاطة حصل ازاي. أنا متأكدة إن انت عندك من الذكاء ما يكفي إن لما تكبر تقدر تدرك وتفهم التناقضات الكتيرة اللي معمولة منها الحياة الإنسانية. مش تناقضات خاصة بي أنا بس، يمكن لو تنكش في كتير من الناس وتخلِّيهم يتكلموا حيقولوا حاجات فعلًا فيها تناقضات كتيرة، حتفهمها، ويبقى كويس، يبقى زيادة في المدارك وفي الإحساس بالحياة وبالدنيا .

عاوز تسألني حاجة تانية؟

*

مش عارفة لو في أي حاجة تانية عاوزة اقولها .

قلت لـ«سارينا» في التلفون :

ـ ما تيجي تزوريني يمكن يبقى أسهل لو انتِ تيجي مع «بنِّي» تزورينا هنا .

أنا نفسي أشوفها قبل ما اموت وقبل ما تموت هي كمان. خصوصًا إن بعد ما انتِ رحتِ فلسطين ورحتِ لغاية عندهم واتعرفت عليهم، جوزها اللي اسمه «هارون» مات ومش حاشوفه عمري . ممكن تحصل لـ«سارينا» حاجة، هي عاملة قسطرة في القلب مرتين، وساكنة في الدور التالت، قالت لي كدا في التلفون، مش بتقدر تنزل وتطلع من البيت بسهولة. «بنِّي » ابن «كيتي» حفيد «بنيامين» والجيران بيساعدوها يجيبوا لها الطلبات. عندها بنت وولد متجوزين وعندهم أسرة وساكنين بعيد عنها، بييجوا لها ساعات بس مشغولين بين شغل وولاد ما بييجولهاش كتير .

على أي حال، أنا نفسي أشوفها واحضنها، دي حتبقى من أحلى الأحلام اللي أحققها، ساعتها مش حيهمني رأي الناس هنا في مصر، أنا عارفة إنهم لسه متمسكين بفكرة المقاطعة للشعب الإسرائيلي كله مش بس المسؤولين والدولة والمؤسسات. بالمناسبة مفيش مقاطعة بين الدولتين بدليل إن العلاقة بين الحكومتين مستمرة، اللي مستمر حقيقي هي المقاطعة بين الشعوب ودا اللي غلط. مش عايزة أضيع وقت في كلام كتير لأن دي حاجات مش حتتغير بسهولة، بس نفسي أشوف «سارينا» قبل ما يحصل لي أي حاجة وما اقدرش أتحرك وما اقدرش أسافر، ممكن يحصل في سنِّي دا .

أنا حققت أمنية من أمنياتي وهي إني عرفت حبيبي نبيل بأخويا «برتو» وابنه «أندريا» وباقي أفراد الأسرة الإيطالية: «إيلينا» و«ليليو» و«باولو»، شافوا نبيل ونبيل شافهم .

دي خطوة .

إن شاء الله ممكن نكررها لو اعيش، لكن الخطوة بتاعة إن اروح يافا ...

ساعات أقعد أفكر حاروح ازاي؟ هل أروح بالطيارة ولا أروح من فتحة رفح ولَّا بالعربية؟ حيحصل ازاي؟ إن شاء الله نادية ويمكن رندا معاها يقدروا يوفَّقوا وياخدوني وهيلا هوب وفوووم أروح هناك !

أنا متصور لي حاعيَّط لما حاحضن «سارينا ».

يلَّا ...

هو عيب إن أنا أقعد أعيط على حاجة صغيرة زي دي لما في العالم فيه مآسي متلتلة عند شعوب كتيرة .

والناس مش مرتاحة في أي حتة .

ولكن اهه اتأثرت المرة دي .

ومين عارف يمكن فعلًا حيتحقق الحلم دا كمان .

شكر وعرفان

أكمل صفوت، إيمان مرسال، حسام بهجت، خالدة ياسين، رندا شعث، ريم سعد، شري لاب، عزة خليل، علي دسوقي، غدير أبو هلال، كرم يوسف، ليلى إسكندر، محمد عمار، محمد عطية المحامي، محمد هاشم، مديحة دوس، ملك لبيب، منال حمزة، منال فؤاد، مي شكري، نادية سامي، نائل الطوخي، نايرة عجة، نجاة عبد الحق، هبة خليفة، يمنى الختام، صديقات البلكونة .

أحمد خليل ومحسنة توفيق، نبيلة رزق الله وشكري فؤاد، عصمت سالم وصفوت عبد الحليم، عطيات الأبنودي، هبة غبور، ديزي روفائيل، مايسة طلعت، ألبير آرييه .

SUEZ 1936

للزوجة

(نموذج رقم ٥٦ محكمة)

بسم الله الرحمن الرحيم

دمغة
٣٠
قرش صاغ

٣٤٠٠٥٦

وثيقة عقد زواج

رقم الدفتر ________ صفحة رقم ١

في يوم [illegible] من شهر [illegible] سنة ١٣٧٤ الموافق [illegible] سنة ١٩٥٤ الساعة [illegible] عصراً وفي حضور أنا [illegible] مأذون [illegible] التابع لمحكمة [illegible] الشرعية بمنزل [illegible] الكائن [illegible]

صدر عقد الزواج الآتي :

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

على صداق قدره [illegible]

الحال منه مبلغ [illegible]

والمؤجل منه مبلغ [illegible]

زواجاً شرعياً على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بإيجاب وقبول شرعيين صادرين [illegible]

[illegible]

وذلك بعد تعريفهما المعرفة الشرعية والتحقق من خلو الطرفين من كل مانع شرعي ونظامي والتحقق أيضاً من أن الزوجة :

(١) ليست صاحبة معاش أو مرتب بالحكومة . (٢) قاصرة ليس لها مال يزيد عن مائتي جنيه .

وأن الزوجين بلغا السن القانونية [illegible]

[illegible]

وذلك بشهادة [illegible]

[illegible]

وقد كفل [illegible] الزوج [illegible]

وقد [illegible] عقد الكفالة بمجلس العقد وتحرر ذلك بمعرفتي لكل واحد من الزوجين نسخة سلمت إحداهما

إلى [illegible] والثانية إلى [illegible]

ورقم ذلك وقيدته [illegible] ورد في تاريخه هذا

الشهود — الزوج — الزوجة — الكفيل — المأذون

[illegible] — [illegible] — [illegible] — [illegible]

وقد تحرر إشعار بذلك في ________ سنة ١٩٥ المأذون

D581

PARROCHIA B.M.V. DE MONTE CARMELO
CAIRI (BULACCO) ÆGIPTI

Documentum Matrimonii

IN DEI NOMINE AMEN:

Ego infrascriptus Parochus hujus Ecclesiæ B.M.V. de Monte Carmelo, fidem facio ac testor, quod in Libro Matrimoniorum II° Pag. 154 N 4 invenitur:

Anno Domini 1954 die 15 mensis Maji

KAMEL
SAAD EL DINE
Aegyptius

Filius Kamel Ahmed
et Munirae Raduan
Natione Aegyptius
Natus Cairi
die ... mensis Novembris anni 1924

et

ROSENTHAL
MARIA
(Apolide)

Filia Elias Rosenthal
et Leandrae Cardarelli
Natione Apolidis
Nata Cairi
die 30 mensis Martii anni 1931

in legitimo Matrimonio conjuncti sunt a R.P. Martino Girri-parocho-

Testes;
Victorius Agius
Vilis Villarosa

In quorum fidem, ect.
Datum ex officio Parochiali B. M. V. de Monte Carmelo Cairi (Bulacco) Ægypti.
die 3 mensis Octobris anni 1954

Parochus
P. Martinus Girri
(P.Martinus Girri O.F.M.)

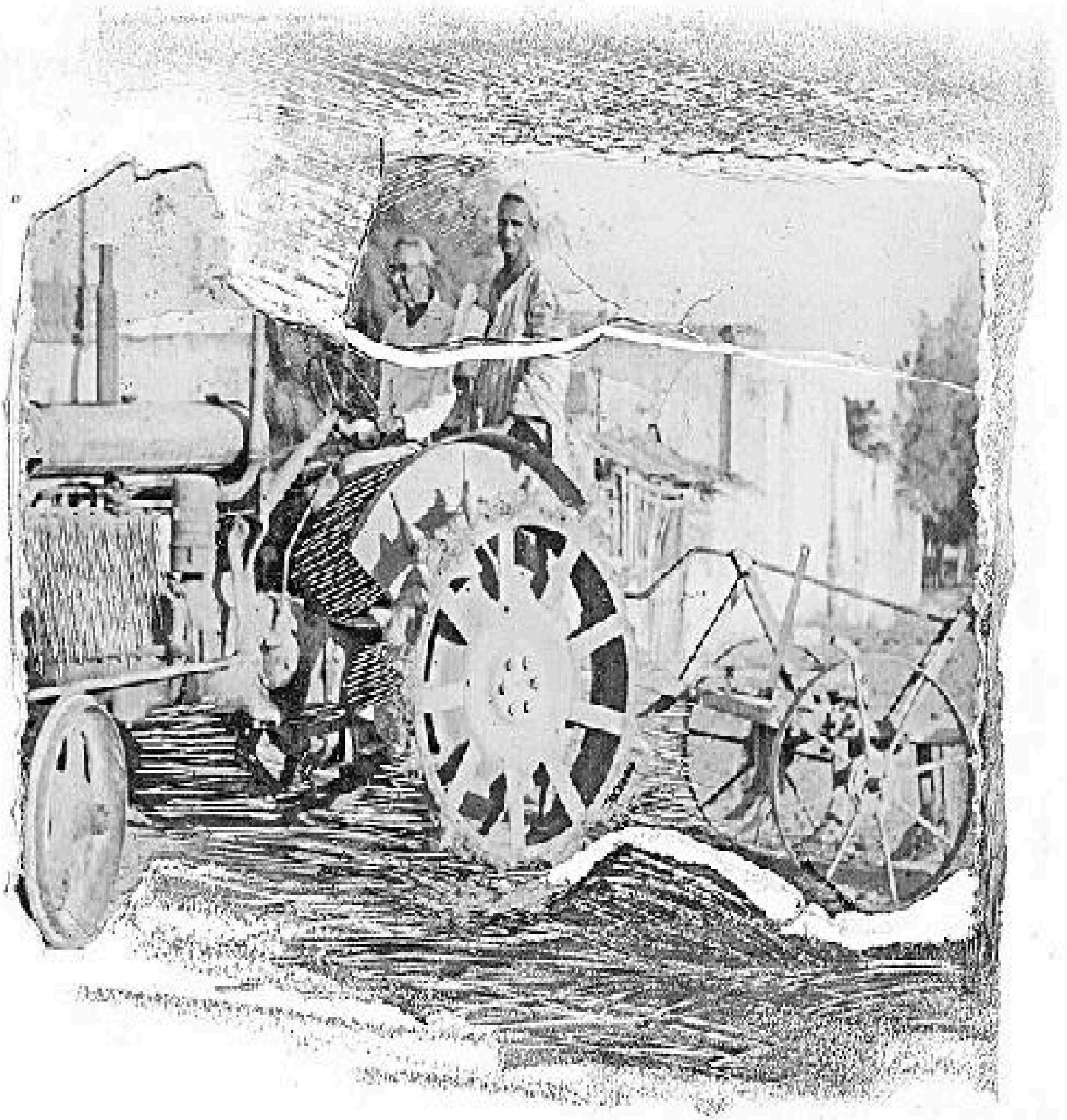

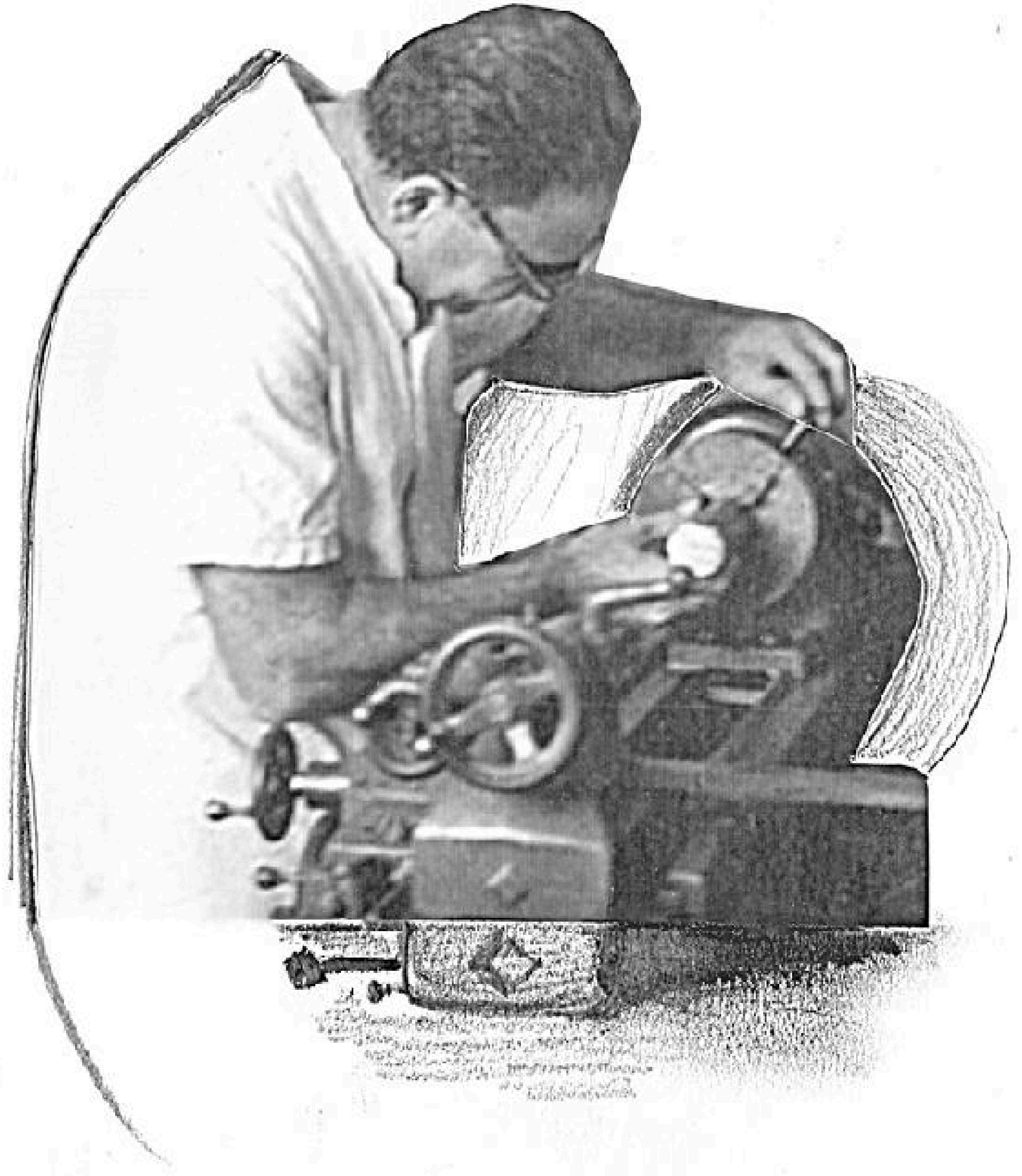

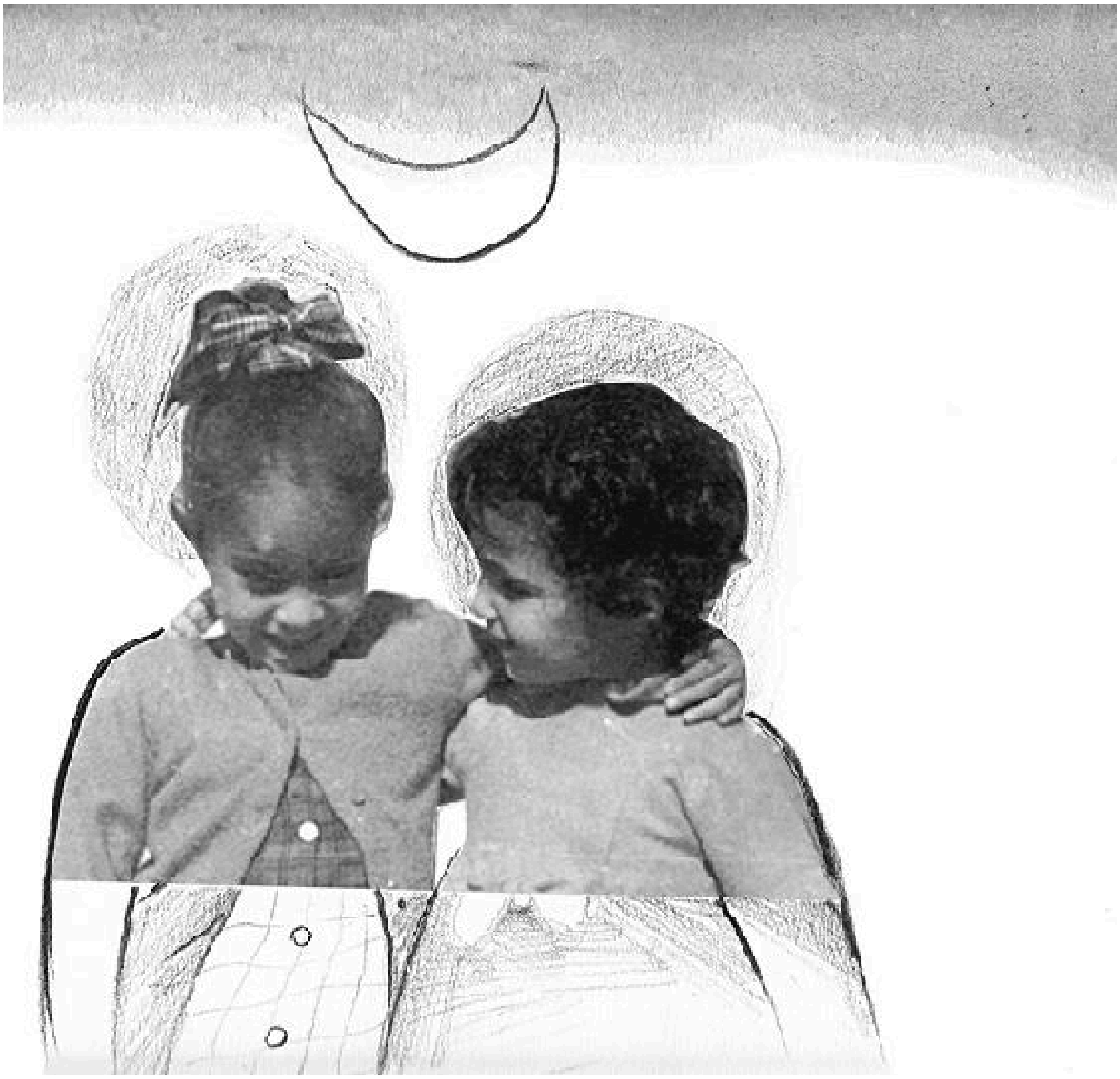

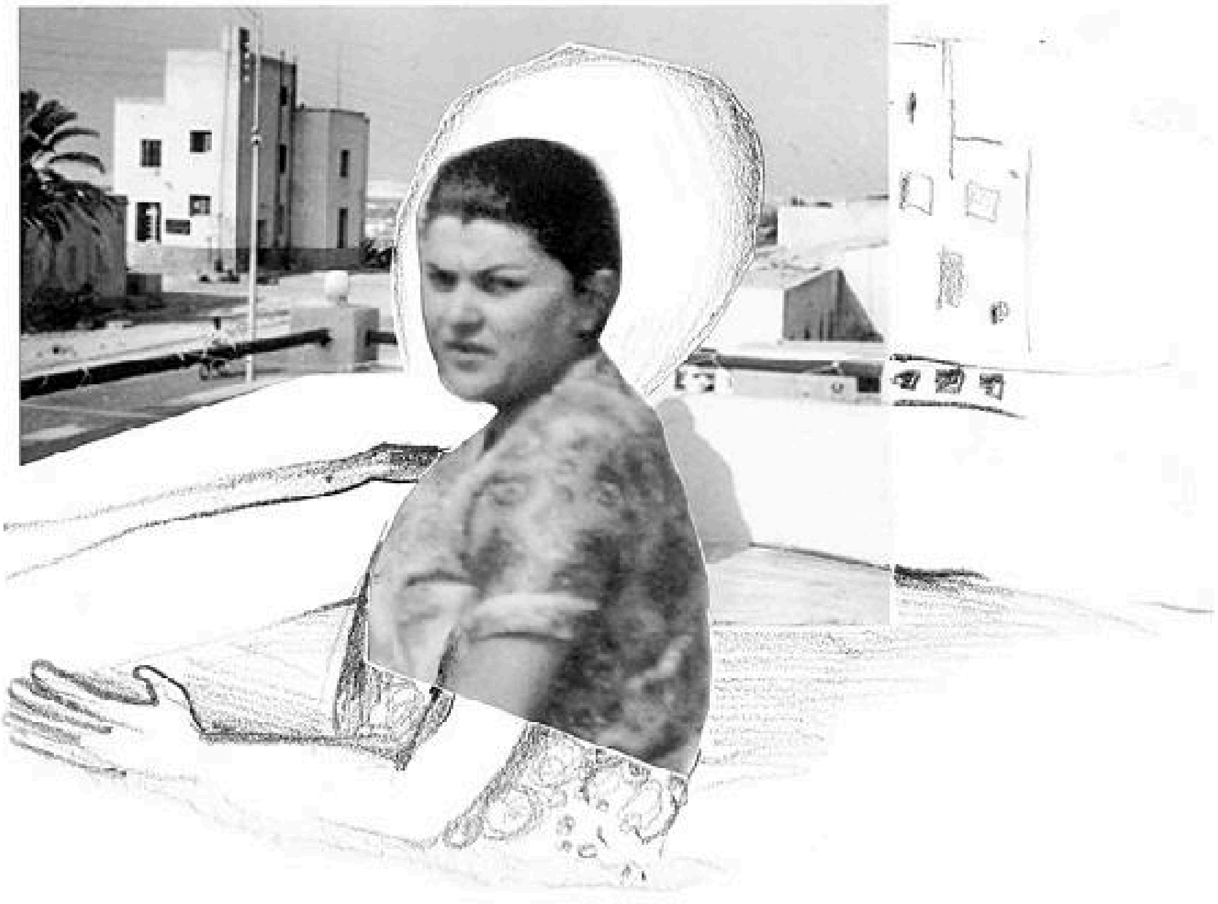

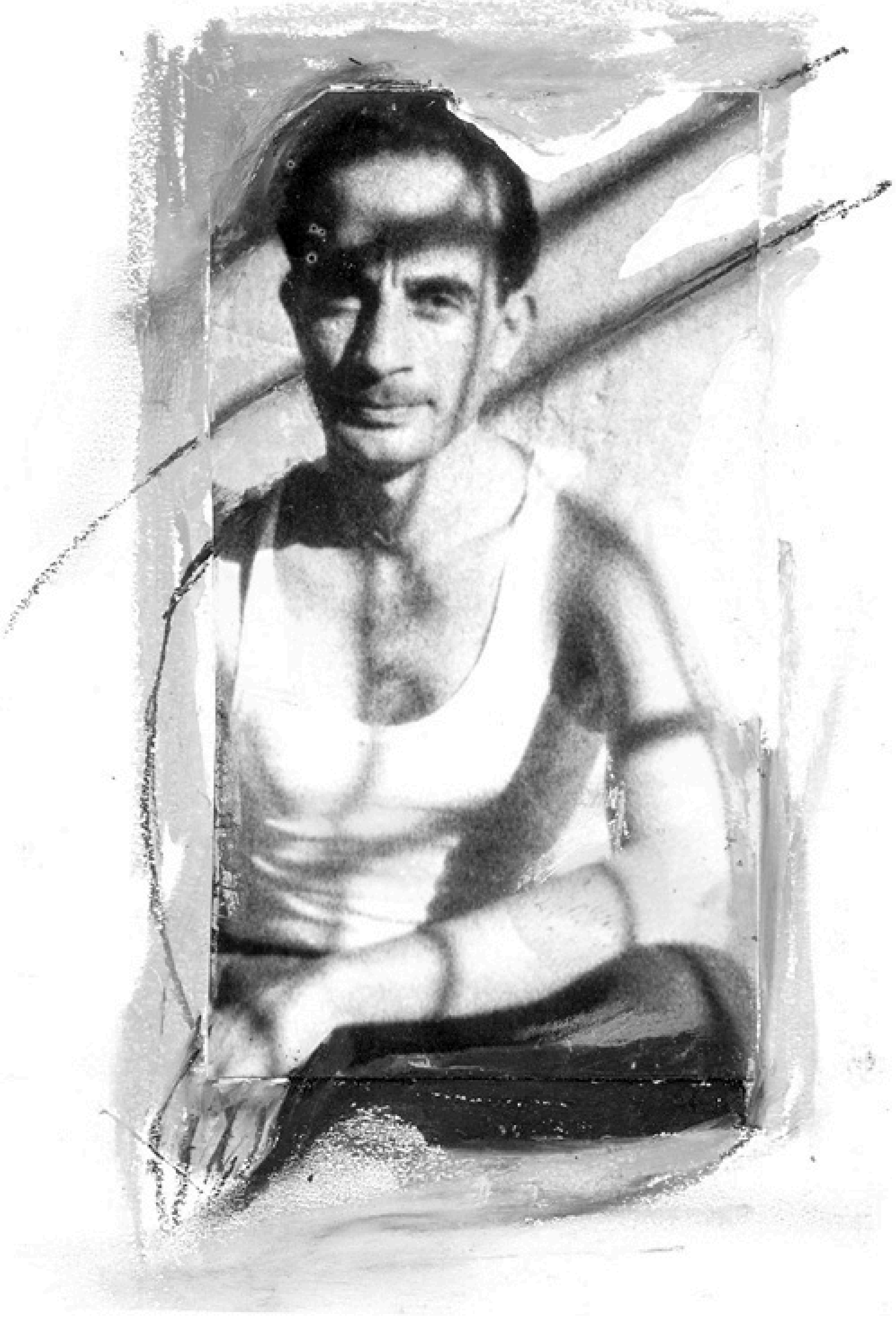

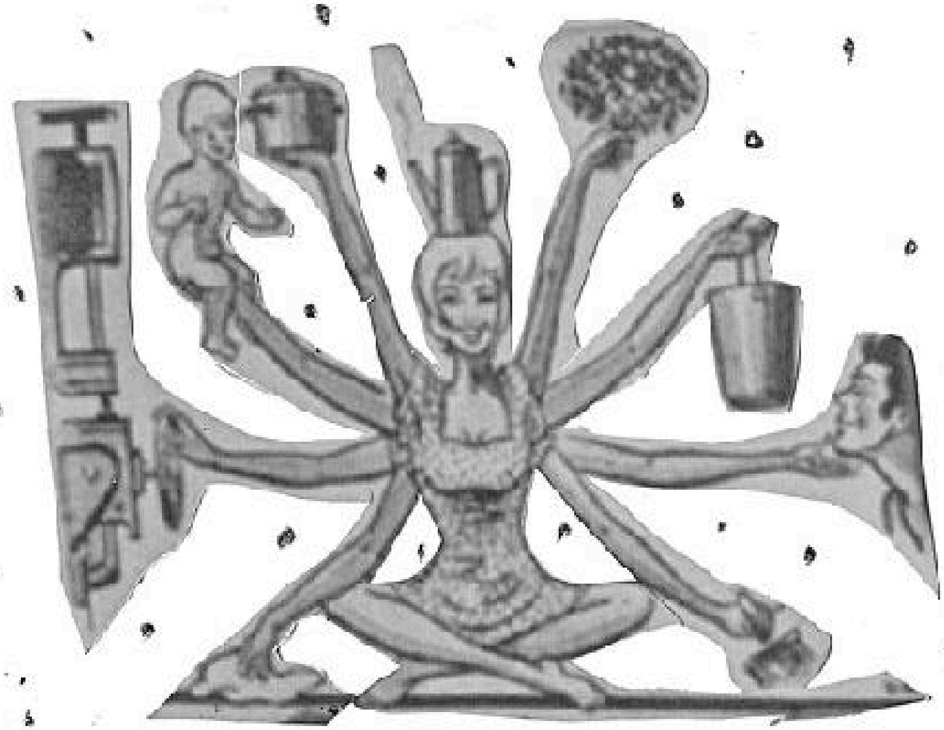

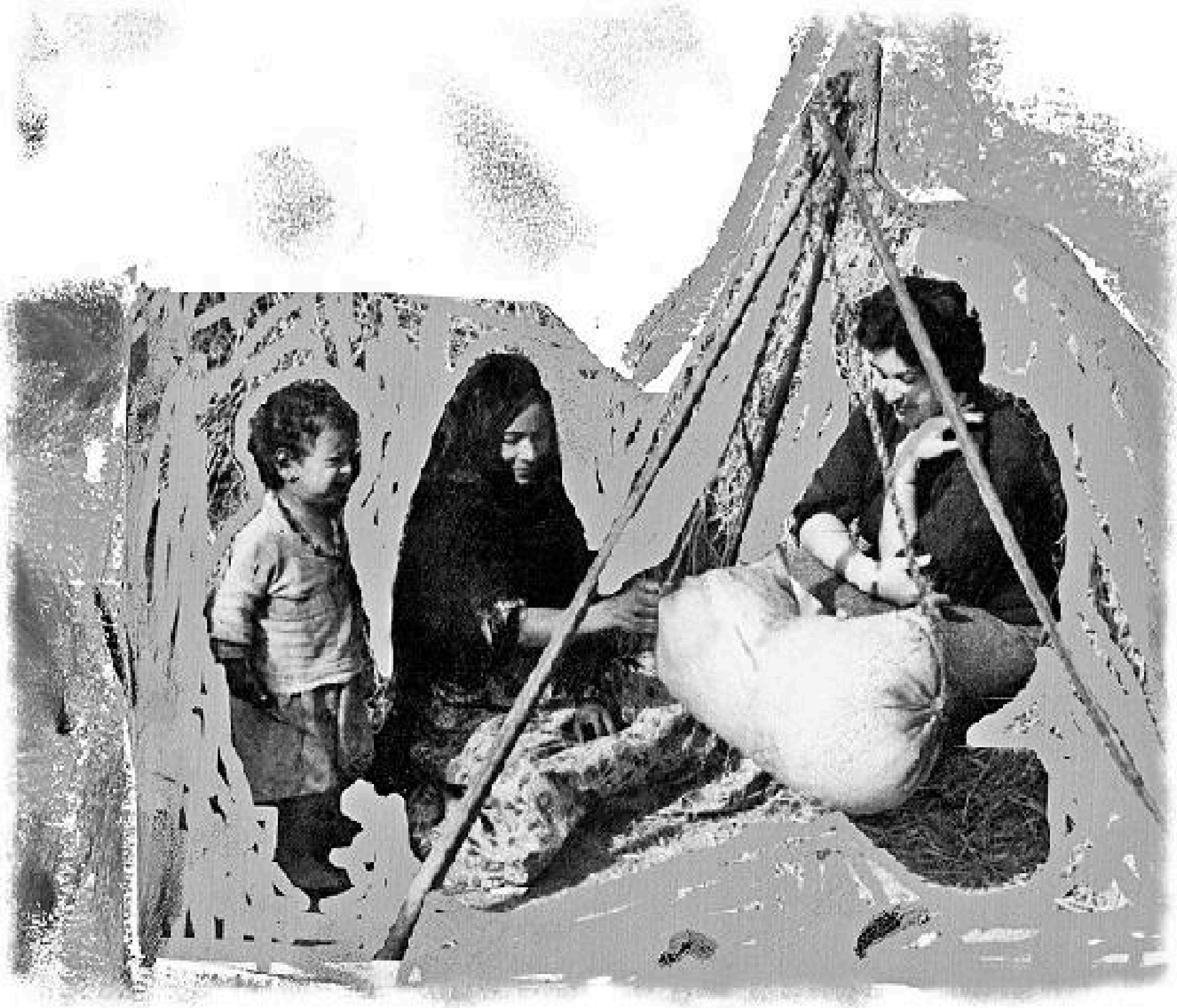

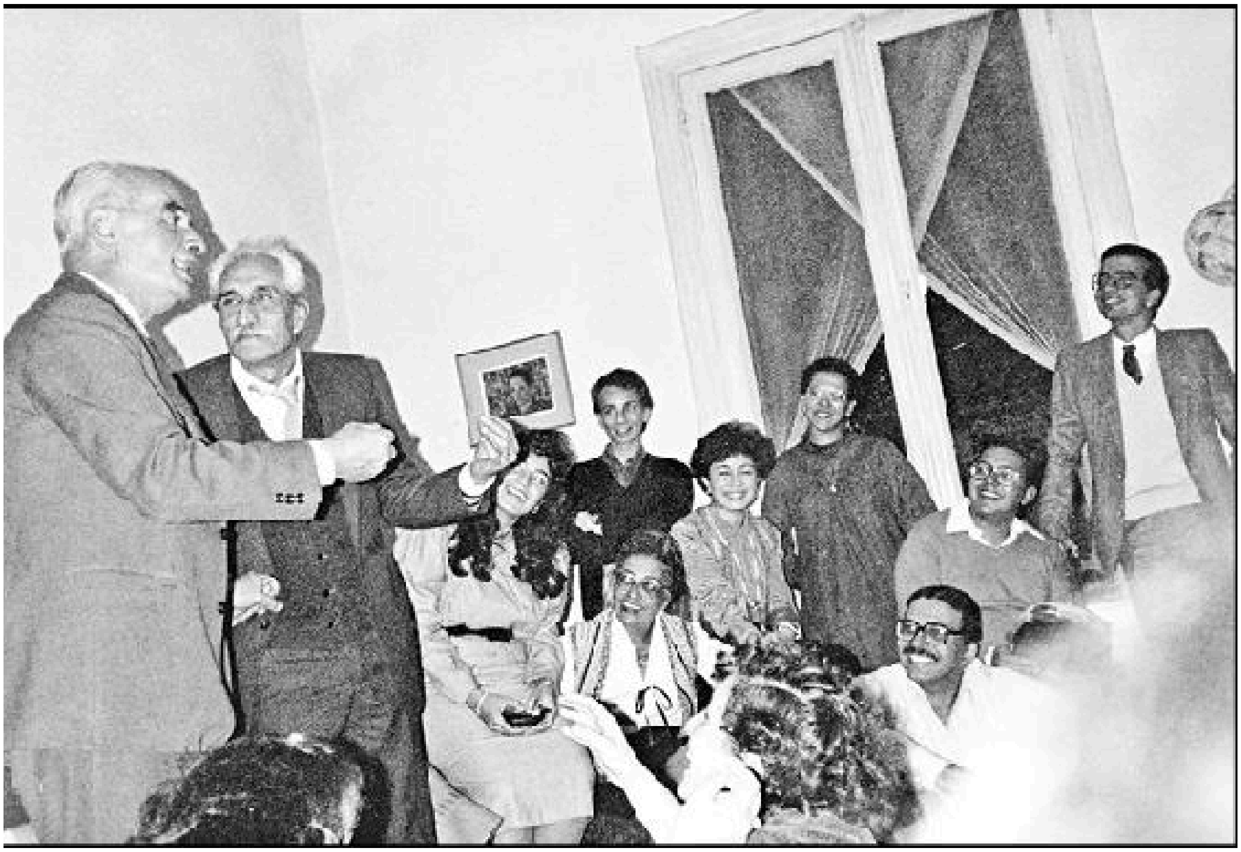

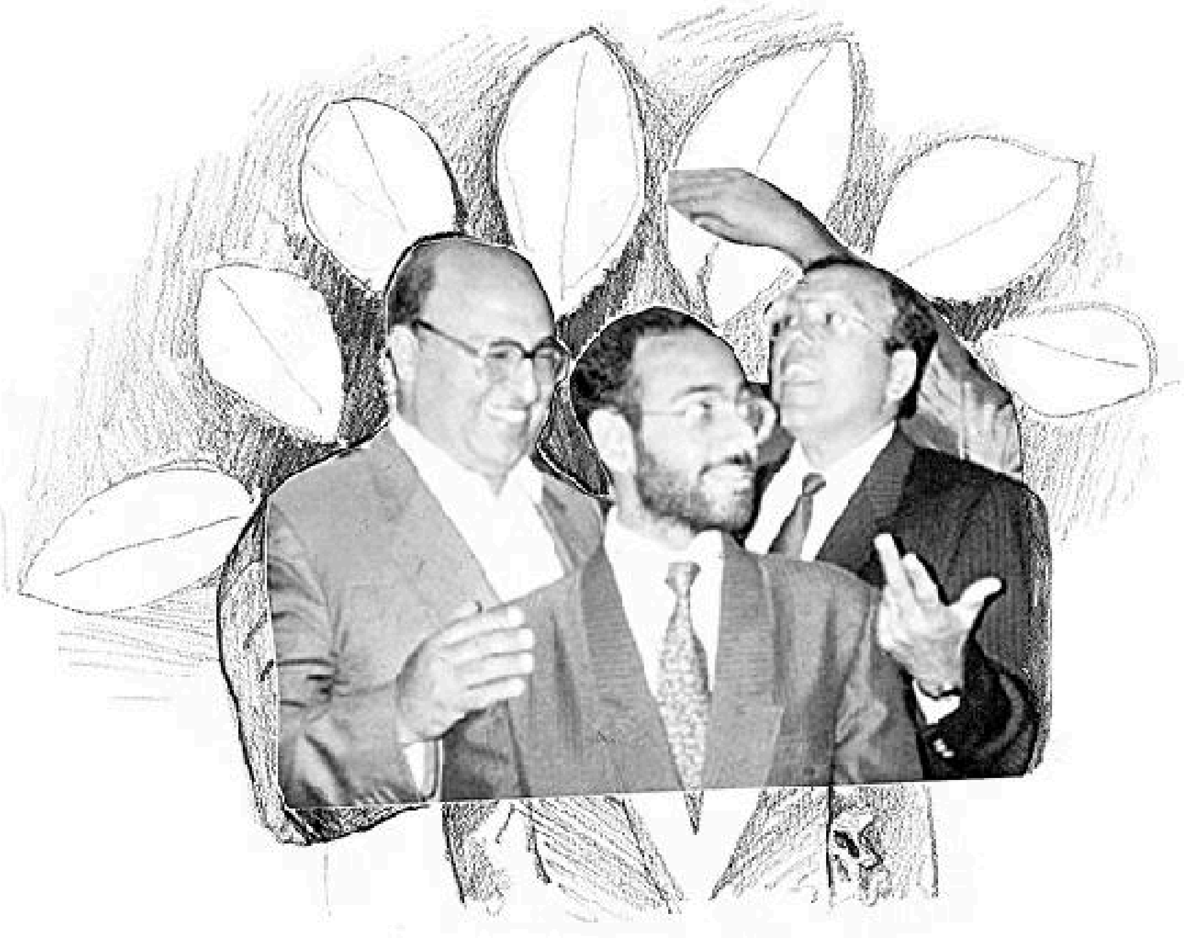

كيفية عمل طريقة البلح ام مارى

[illegible] قطع فرطب [illegible] كوبات دقيق [illegible] كوب [illegible]
[illegible] زبدة يعني ⅛ كيلو و[illegible] كبار [illegible]
نصف كوب لبن ونصف [illegible] زيت ونصف ملعقة
نفل مطحون ملعقة [illegible] ونصف ملعقة [illegible] كربونات
ملعقة ونصف [illegible] ملعقة شوربة [illegible]
وشر ليموت وفانيليا

[illegible] تضرب الزبدة [illegible] ثم تضع الزيت ثم تضع
[illegible] ثم [illegible] البيض [illegible] ثم تضع الـ[illegible]
[illegible] مع [illegible] تضع [illegible]
[illegible] وتقطيعه [illegible]
[illegible] ثم [illegible] كربونات [illegible]
[illegible]